

عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٦

الطفولة والمراهقة

- النمو الجسدي في مرحلة الطفولة
- النمو النفسي من الطفل الى الراشد
- الانفصال عن العالم
- الرحيل الى الاعماق
- النمو الروحي والخلقي
- التنشئة الاجتماعية

رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني

General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

Bibliotheca Alexandrina

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٦
المراسلات باسم: الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص ٠ ب ١٩٢

المحتويات

الطفولة والمراهقة

التمهيد	بقلم التحرير
النمو الجسمي في مرحلة الطفولة	الدكتور سيد خيرى
النمو النفسي من الطفل الى الراشد	الدكتور سيد محمد فتم
الانفصال عن العالم والرحيل الى الامم	الدكتور محمد جواد رضا
النمو الروحي والظاني والتنشئة الاجتماعية	الدكتور عبد الرحمن عيسى
في مرحلتى الطفولة والمراهقة	

آفاق المعرفة

الشيخوخة في المجتمع الاسائى المتغير	الدكتور احمد ابو زيد
-------------------------------------	----------------------

أدباء وفتانون

ميكلانجلو	الدكتور فروت عكاشة
بمناسبة مرور خمسمائة عام على مولده	

عرض الكتب

المخدرات وظلية المدارس	عرض وتظيل الدكتور عثمان الدورى
ستالى المستكشف المظام	عرض وتظيل الدكتور محمد عبد الرحمن الشراوى

الدراسات التى تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم .

الطفولة والمراهقة

محمّد

زاد الاهتمام في السنوات الأخيرة ، وبخاصة منذ الستينات ، بدراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ازدياداً كبيراً تمثل في كثرة الكتابات التي تتناول المشكلات المتعلقة بنمو الطفل ، والتغيرات التي تطرأ على تكوينه الجسمي ، وتطور حياته العقلية والافتغالية ، وعمليات التنشئة الاجتماعية او التطبيع الاجتماعي ، التي يخضع لها الأطفال في مختلف المجتمعات والثقافات . وتعتمد هذه الكتابات في الاغلب على الملاحظة المباشرة الطويلة ، التي تعتبر هي الاداة الرئيسية في البحوث العقلية والتجريبية ، وقد امكن من طريق هذه الوسيلة التعرف على كثير من التفاصيل والدقائق عن حياة الطفل في منى حياته المبكرة ، وفي مرحلة المراهقة الخطيرة التي كثيراً ما يكون لها آثار عميقة وبعيدة المدى في حياته وتكوين شخصيته وقدرته على التلاؤم مع المجتمع الذي يعيش فيه ، والتواءم مع ثقافة ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده وقيمه ، وتقبل الاوضاع السائدة فيه او التمرد عليه . ولكن على الرغم من كثرة هذه الكتابات التي تتناول جوانب كثيرة من المشكلة فلا تزال هناك نواح كثيرة في حاجة الى مزيد من الدراسة والبحث . ومع ذلك فانه يمكن القول بوجه عام ان الطفولة والمراهقة قد وجدنا منذ بداية القرن العشرين ، وبالذات منذ الستينات ،

من منية العلماء في مختلف التخصصات ما لم تجده من قبل ، وإن كان هذا لا يعنى انصراف الكتاب والعلماء والفلاسفة والأدباء تماما عن الكتابة في الموضوع قبل القرن العشرين ، إذ الواقع أن حياة الطفل بالذات كثيرا ما كانت تثير خيال الكتاب والأدباء الذين عالجهوا في بعض قصصهم ودرواياتهم ، وقدموا لنا صورا دقيقة لما كان يعانيه الأطفال ، وبخاصة في القرن التاسع عشر ، نتيجة للتصنيع والثورة الصناعية ، وما أحدثته من تغيرات في حياة المجتمع في الغرب .

والواقع أن الظروف والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي سادت المجتمع الإنساني عموما ، والمجتمعات الريفية بوجه خاص ، والتغيرات الهائلة التي طرأت على بناء هذه المجتمعات بعد الثورة الصناعية ، كانت من أهم أسباب زيادة الاهتمام بدراسة مشكلات الطفولة دراسة علمية ، والعمل على تشخيص هذه المشكلات ، ومحاولة إيجاد حلول لها . ذلك أن الانتقال من الحياة التي تعتمد في المحل الأول على الزراعة وعلى الأنشطة المتعلقة بها ، إلى الاعتماد على الصناعة وما يرتبط بها من زيادة التخصص والمهارة وتقسيم العمل ، والتحركات السكانية نتيجة لجذب المراكز الصناعية والحضرية للإيدي العاملة من المناطق الريفية ، وانفصال العامل بالتالي عن عائلته الكبيرة ، وما نجم عن ذلك من تخلخل البناء العائلي التقليدي ، وظهور الأسر الصغيرة أو العائلات النواة - كما يسميها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا - التي أصبحت تؤلف الشكل الرئيسي للتنظيم العائلي في المجتمعات الصناعية والمتقدمة عموما ، كل هذا كانت له آثار عميقة على نشأة الطفل وعلى تغير النظرة إلى الطفولة والمعاملة التي يلقيها الأطفال ، كما كان وراء ذلك الاهتمام الطبيعي والعميق بدراسة مشكلات الطفولة ووضع الطفل ثم المراهق في المجتمع الحديث .

فالمعروف مثلا أن الأوضاع الاقتصادية في المجتمع الصناعي الحديث تستلزم خروج الرجل والمرأة على السواء للعمل . وقد ترتب على ذلك ظهور أوضاع كثيرة كان لها اثرها في حياة الطفل ونوع الرعاية التي يلقيها ، إذ أن انصراف الأم ولو جزئيا - عن حياة البيت ورعاية الأطفال كان يتطلب ضرورة إيجاد من يحل محلها للقيام بهذه الوظيفة سواء كان ذلك عن طريق الاعتماد على أشخاص آخرين وعلى مؤسسات متخصصة ، وهي كلها بدائل لم تكن العائلة التقليدية الكبيرة تعرفها ، إذ كان الطفل ينشأ بين أفرادها العديدين في وسط صحي يوفر له ما يحتاج اليه من حسن الرعاية والعناية والاهتمام . بل أن هذه الظروف الاقتصادية ذاتها ، واستقلال المرأة اقتصاديا وعدم اعتمادها في حياتها على الرجل كما كان عليه الحال في المجتمع التقليدي ، أدت بالضرورة إلى اكتماش دور الأب في حيات الأسرة الحديثة ، بحيث لم يعد يؤدي نفس الوظيفة القديمة - أو على الأقل لم يعد هو المركز الرئيسي الذي تدور حوله حياة الأسرة ، وأصبح بدم وجود الأب في المجتمع الصناعي الحديث ظاهرة مألوفة ، بحيث تجد من بعض علماء الاجتماع من يتكلم الآن عما يسمى بالمجتمع الذي لا يعرف نظام الأبوة أو المجتمع بدون آباء fatherless society ، وهو تعبير يكشف عن كثير من المخاطر والمشكلات التي يعاني منها المجتمع الحديث ، وهي مشكلات تتراوح بين انفصال الزوجين إلى الطلاق إلى ظهور العلاقات الجنسية

خارج الزواج وأنجاب أطفال لا يعرفون لهم آباء شرعيين . ومحصلة هذا كله قلة الرعاية التي يجدها الأطفال في الأسرة ، وزيادة الانحرافات السلوكية بينهم وبخاصة بين المراهقين ، وإن كانت هناك بغير شك أسباب وعوامل أخرى لهذا السلوك الانحرافي ، إلى جانب قلة الاهتمام بالأطفال داخل الأسرة . ولكن الذي يهنا هنا هو انصراف الأسرة من بلد العناية اللازمة للأطفال ، وظهور مؤسسات متخصصة للقيام بهذه المهمة ، وما ارتبط بهذا كله من مشاكل تعترض حياة الطفل وأساليب تربيته كانت كلها من أهم الأسباب التي دفعت إلى زيادة الاهتمام بدراسة هذه المشكلات ، أو إلى اعتبار الطفولة والراهقة كمشكلة من المشاكل التي يجب على المتخصصين في العلوم الاجتماعية والسلوكية أن يعطوها ما تستحقه من جهد وعناية .

وليس المقصود بذلك أن الاهتمام بمشكلات الطفولة والراهقة لم يظهر إلا في القرن العشرين؛ إذ الواقع أن حياة الطفل والمراهق كانت تشير دائماً قدرًا من الاهتمام ، وكل ما تقصده هو أن القرن العشرين شهد تغيرًا كبيرًا في نوع الاهتمام نتيجة لتلك التغيرات الاجتماعية والاقتصادية . ولقد تجلّى ذلك في النظريات الكثيرة والآراء الجديدة المتضاربة التي ظهرت بكثرة منذ بداية هذا القرن وهي نظريات وآراء نجد عرضًا لها في الدراسات التي يقدمها لنا الأساتذة الدكتور سيد حسري والدكتور سيد غنيم والدكتور عبد الرحمن عيسوي ، والتي يعالجون فيها نواحي هامة في التطور الفيزيائي والعقلي والإنفعالي لدى الطفل والمراهق . ولقد كان لعلم النفس والتطوّل النفسى أكبر الفضل في القاء كثير من الاضواء على هذه الجوانب . ولقد دفعت كتابات فرويد وبياجيه Piaget الدراسات السيكولوجية والسيكوتحليلية في هذا المجال دفعة قوية . بل أن كثيرًا من العلماء عكفوا ليس على دراسة الطفولة والراهقة كمرحلة قائمة بذاتها أو كوحدة متميزة بل على دراسة فترة صغرة محدودة من هذه المرحلة بقصد الكشف في أسرارها ، فقد زاد الاهتمام مثلاً بدراسة التطور العقلي لدى الطفل خلال الشهور الستة الأولى من حياته ، واعتمد هؤلاء العلماء في ذلك على ألعاب الطفل باعتبارها تعبيرًا رمزيًا عن تجاربه وتخيالاته وأحواله الانفعالية . وربما كانت ميلاني كلاين Melanie Klein وهي من تلميذات فرويد - من أهم من عمل في هذا المجال بقصد الكشف عن التطورات التي يمر بها الطفل في هذه المرحلة المبكرة من حياته ، ثم عمل ونيكوت Winnicott وهو طبيب أطفال ومحل نفساني - بعد ذلك على تطوير أفكار ميلاني كلاين ، وآرائها وأساليبها وطرائقها ، بحيث استطاع أن يتفكّر في عقل الطفل في شهره السادس ، وذلك على أساس أن هذه المرحلة المبكرة لها أهميتها القصوى في تكوين الطفل ونموه وتطوره العقلي والجسماني على السواء . فسن الستة شهور تعتبر هي « المرحلة الحاسمة التي يبدأ فيها المخ باستخدام الخلايا العصبية الإضافية التي يحصل عليها في أثناء نموه والتي رفعت الإنسان فوق مرتبة باقي الرئيسيات ، وتصبح حاسة اللمس والمناولة الوسيلة المفضلة لإدراك العالم الخارجي . . . وفي تلك المرحلة فقط يبدأ الطفل في إدراك حقيقة وجود عالم خارجي ، وبالتالي عالم داخلي أيضا وهو (الأنا) . أما قبل تلك المرحلة فإن معظم المليارين

من الخلايا العصبية للمخ لم تكن قد استخلضت بعد في مجالات التجربة والذاكرة والمنطق . . . » وهكذا . (انظر موسوعة الهدف ٢٠٠٠ ، صفحة ١٤٧٤ من الترجمة العربية) . وبصرف النظر عن الأهمية العلمية والعملية لمثل هذه المعلومات ، فالهم هنا هو ان الاهتمام بالطفل وبحيائه وتطوره بلغ درجة عالية جدا ، بحيث أصبحت مرحلة الطفولة تقسم الى مراحل فرعية قصيرة وصغيرة يتوفر على دراسة كل منها فريق من العلماء بغية التوصل الى مزيد من المعلومات والتفاصيل الدقيقة ، التي قد يمكن الاستفادة بها في تحديد نوع التربية والطريقة السليمة لمعاملة الطفل ، وتنشئته اجتماعيا في المجتمع والثقافة اللتين ينتمي اليهما .



ولقد أسهم علماء الاجتماع بنصيب وافر في دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة ، وان كانت معظم دراستهم تدور بطبيعة الحال حول موضوع التنشئة الاجتماعية ، وبخاصة دور العائلة في هذه العملية المعقدة ، والدور الذي يلعبه الوالدان بالذات في تربية الطفل ، او على الاصح في تطويره وتشكيله لنمط الحياة في المجتمع الحديث ، وللقيم والقواعد التي تحكم سلوك اعضائه . كذلك اهتم البعض منهم بدراسة العلاقة بين نمو شخصية الطفل او المراهق ، واختلاف الادوار التي يضطلع بها ، والاضاع التي قد تؤدي الى انحرافات السلوك لدى كل منهما . والملاحظ هنا على العموم ان معظم الكتابات السوسولوجية التي تعالج هذه المسائل متأثرة الى حد كبير بنظريات علم النفس والتحليل النفسي ، وان كان ثمة اتجاه قوى الان الى دراسة التنشئة الاجتماعية على انها عملية تفاعل اجتماعي بكل معاني الكلمة ، اذ يتفاحل فيها الاطفال مع البالغين في العائلة وفي المجتمع ككل وفي كل مناشط الحياة . فهي ليست مجرد عملية تلقين او توجيه وتدريب من البالغين للاطفال الذين كانوا يعتبرون مجرد صفحة بيضاء يمكن للآباء ان يسطروا عليها تعاليمهم وتوجيهاتهم التي يتقبلها الاطفال ويستوعبونها ويتمثلونها ، وبحيث تصبغ شخصياتهم بصيغة معينة محددة . ومع التسليم بان عملية التنشئة تهدف في آخر الامر الى تنمية قوى الطفل وملاكه العقلية ، وتعمل على تلاؤمه مع المجتمع وتوجيه طاقته واستغلالها الى ابعد حد ممكن ، وتنمية خلقه وارادته وشخصيته عموما ، وتدريبه كيف يتقبل عادات المجتمع وانماطه السلوكية واوامره وقوانينه ، فان علماء الاجتماع الان يرون ان هذه العملية لا يمكن ان تؤدي الى ان يفقد الفرد شخصيته وفرديته ، على الاقل لان كل طفل يولد مختلفا عن غيره من الناحية الفيزيائية ، كما يمر بتجارب وخبرات تختلف تملأه عن تلك التي يتعرض لها غيره من الاطفال . فكان المسألة - في نظر هؤلاء العلماء - ليست مجرد عملية صب الاطفال في قالب جامد ، وانما للطفل دوره الإيجابي الذي يقوم به في عملية التنشئة ، وهو دور يجب ان يدرس من طريق مقابله بدور البالغين والكبار .

وعلى أية حال فإنه يمكن القول ان علماء الاجتماع في مجموعهم يحرصون في كتابتهم حول هذا الموضوع على ابراز أثر الظروف والأوضاع الاجتماعية على سلوك الطفل والمراهق ، وتأثيرهما باعضاء المجتمع الآخرين ، وتأثيرهما فيهم . ومن هنا كنا نجد معظم الكتابات السوسولوجية تعالج موضوعات مثل اثر العائلة في الطفل ، واثرا للمدرسة والعوامل المؤثرة في سلوكهم كالعنف والتسامح في التربية ، وذلك الى جانب البحوث « التجريبية » التي تعتمد على ملاحظة الاطفال الذين يخضعون لنوع معين من التنشئة كما هو الحال بالنسبة للتنشئة في مؤسسات معينة أو في مستعمرات خاصة ، لها نظمها وقواعدها وقوانينها وفلسفاتها المتعلقة بالتربية وهكذا . وقد أدت هذه الدراسات كلها آخر الأمر الى ظهور سوسولوجيا التربية او علم الاجتماع التربوي ، الذي يحتل في الوقت الراهن مكانة هامة بين فروع علم الاجتماع، وإن لم يحظ بالاهتمام الكافي في جامعاتنا وبين علمائنا ودارسينا .



واخيرا فقد افلح علماء الانثروبولوجيا في ايجاد مجالات جديدة وطريقتي دراسة مشكلات الطفولة والمراهقة وذلك حين بدلو الكثير من الجهد والاهتمام في التطور الاجتماعي للفرد في المجتمعات التقليدية التي كانت تعرف عموما باسم المجتمعات (البدائية) وهي تسمية أخذة الآن في الاختفاء نظرا لما تحمله من مدلولات تقويمية . ولقد اتجهت الدراسات والبحوث الانثروبولوجية عدة اتجاهات ربما كان اهمها الاتجاه الذي يعني بدراسة المراحل الاجتماعية التي يمكن التمييز بينها ضمن دورة الحياة بالنسبة للفرد ، وبخاصة في المجتمعات القبلية التي يعتمد تنظيمها الاجتماعي على عامل السن اعتمادا مباشرا ، بحيث يتوزع جميع اعضاء المجتمع في فئات متمايزة كل التمايز، وبحيث تضم كل فئة منها الافراد الذين ينتمون الى مجموعة عمومية واحدة ، ويحتلون بفضل عامل السن مرتبة اجتماعية معينة ، ويمارسون معا نوعا محددا من النشاط الاجتماعي او الاقتصادي او السياسي او الحربي او الديني يتفق مع عمر افرادها ، ومع قدراتهم الفيزيائية وخبراتهم في شؤون الحياة والمجتمع . ويعرف هذا النظام في الكتابات الانثروبولوجية باسم نظام طبقات العمر ، على اعتبار ان السن هو العامل الرئيسي او حتى العامل الوحيد في التفاضل او التفاوت الاجتماعي ، ويصرف النظر عن الاختلافات والفوارق الأخرى مثل تفاوت الثروة او غير ذلك . وتعتبر الطفولة والمراهقة في مثل هذه المجتمعات مرحلة عمرية واجتماعية واحدة ، تتميز بارتباط الطفل والمراهق ارتباطا شديدا بمجتمع النساء ، بحيث لايسمح لأي منهما في الأغلب بالاختلاط بالرجال البالغين الا بقدر وحساب ، كما ان الطفل او المراهق ينتقل الى مرحلة الشباب والبلوغ التي يمارس اصحابها مهمة الحرب والبطولة والافادات الا بعد ان يمر بطقوس وشعائر خاصة تختبر فيها قدراته الجسمية على تحمل المشاق والصعوبات والقدرة على الحرب ، وهي الشعائر المعروفة في الكتابات الانثروبولوجية باسم

الكريسي التي تتميز بما فيها من قسوة وعنف . فيمقتضى هذه الشعائر ينتقل الفرد رسمياً من مرحلة الطفولة والمراهقة الى مرحلة الشباب والرجولة المبكرة ، كما يدخل اجتماعياً الى مجتمع الرجال وينفصل عن مجتمع النساء ، ويعتبر لأول مرة عضواً كاملاً في المجتمع ككل . وهذا معناه ان مرحلة الطفولة والمراهقة ليست مجرد حالة فيزيقية او فسيولوجية ، وانما هي في المحل الأول مرتبة اجتماعية خاصة اذا عرفنا ان هذه (المرحلة) تضم أفراداً تتراوح أعمارهم بين سن الولادة ، و سن الخامسة عشرة او أكثر ما دام هؤلاء الأفراد لم يتم تكريسهم . ومن هذه الناحية يعتبرون - بصرف النظر عن أعمارهم الفيزيكية التي تقدر بعدد السنين - أقراناً وزملاء في الطبقة ، ويعاملون معاملة واحدة متشابهة ، ويحتلون مكانة اجتماعية مجدداً مع بعض التمييزات الطفيفة داخل الطبقة لا تؤثر في خصائص النظام كنظام . (انظر في ذلك كله مقالنا من : « نظام طبقات العمر » - مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية ١٩٦٣) .

والإتجاه الرئيسي الثاني الذي اتجهت اليه بحوث الانثروبولوجيين في دراسة الطفولة والمراهقة ، وانلحوا في الاسهام فيه اسهاماً وافراً هو الدراسات المقارنة التي تعنى بمقارنة العادات والتقاليد المتبعة في معاملة الطفل او المراهق في مختلف الشعوب والثقافات ، وكذلك مقارنة الطقوس المرتبطة بذلك ، واختلاف نظرة المجتمع الى كل منهما ، والتعاطف او المشكلات التي يقابلها كل منهما مع الاهتمام بابرز العلاقة بين المقومات الثقافية وتلك المشكلات .

وربما كانت كتابات عالمة الامريكية مارجريت ميد هي اشهر هذه الاسهامات وان لم تكن أكثرها عمقاً أو أشدها دلالة . فكتابات ميد كما يقول إيفانز بريتشارد بحق - كتابات « اثوية بمعنى الكلمة » فيها « كثير من الجدل والاستطراد اللذين يملكان حد الثروة » ، كما انها تنزع الى « تصوير الأشياء في صورة زاهية خلابة » . ولعل أفضل مثال لذلك هو كتابها الشهير عن « البلوغ في مجتمع ساموا » *Coming of Age in Samoa* الذي ظهر أول مرة عام ١٩٢٩ ، وأعيد نشره عشرات المرات ، وفيه تقارن بين متاعب المراهقة لدى الفتيان في هذا المجتمع (البدائي) وفي المجتمع الأمريكي المتقدم الحديث . ويلخص إيفانز بريتشارد الكتاب بقوله - وأنا أنقل هنا من ترجمتي العربية لكتابه من « الانثروبولوجيا الاجتماعية » - و « الكتاب يهدف في أساسه الى ان يبين ان مشكلات المراهقة - وبخاصة عند الفتيات - التي تعتبر ظاهرة عامة أساسية في الحياة الأمريكية لا توجد في ساموا ، وان ظهورها يلزم نوعاً معيناً من البيئة الاجتماعية ، بمعنى انها لا تنشأ من الطبيعة ، وانما تنجم عن القيود التي تفرضها الحضارة الحديثة . وعلى ذلك تشرع الدكتور ميد في دراسة الاختلافات القائمة بين الظروف التي تصاحب مراهقة الفتاة في كلا المجتمعين . وقد اضطررها ذلك الى ذكر كل ما تعرفه من الوضع الاجتماعي العام للفتاة الساموية . فهي تتكلم مثلاً عن طريقة تنشئتها ونوع الطفولة التي تمر بها والمكانة التي تشغلها في حياة الأسرة والقرية والمجتمع المحلي الكبير ،

كما تتكلم عن علاقاتها الجنسية المتنوعة مع مختلف الشبان . ولكنها تحرص أشد الحرص أثناء ذلك كله على أن تربط هذه المسائل بمشكلة البحث الأساسية لكي تبين مدى تأثير الظروف الاجتماعية في تشكيل شخصية الفتاة المراهقة ، ونوع رد الفعل الذي يصدر عن هذه الشخصية أزاء التغيرات الفسيولوجية التي يحدثها البلوغ .

والنتيجة التي تنتهي إليها مارجريت ميد من هذه الدراسات هي أنه لا توجد فوارق بين الفتاة الأمريكية والفتاة الساموية في عملية المراهقة ذاتها ، وإنما تكمن الفوارق والاختلافات في الاستجابة لها . فالمراهقة في ساموا تطور ترتيب منظم للعيش والاهتمامات ومختلف أنواع النشاط ، ولا ينجم عنها أي إجهاد أو كرب أو أزمات ، وبذلك تكون عقول الفتيات ببناء عن الأوهام المختلفة المتضاربة والصراعات المتعارضة المتباينة ، فلا تراودها التأملات الفلسفية أو المطالب الجامحة التي يصعب تحقيقها . والواقع أن الفتاة هناك لا تطمح في أكثر من أن تعيش لأطول مدة ممكنة قبل زواجها مع أكبر عدد ممكن من العشاق والمحبين ، ثم تتزوج من بعد ذلك في نفس قريتها لتعيش مع أهلها وأقاربها وتنجب عددا كبيرا من الأطفال .

وعلى العكس من ذلك تماما تعاني الفتاة الأمريكية المراهقة كثيرا من الإرهاصات والتوتر والاجهاد بسبب اختلاف بيئتها الاجتماعية . فهاهي إذن الفوارق البارزة الهامة بين الحالتين ؟ تعتقد المذكورة ميد أن أهم الفوارق يرجع إلى انعدام الوجدانات الشخصية والقيم المتصارعة في ساموا . فالفتاة الساموية لا تهتم لإنسان معين أو شيء معين اهتماما بالغا شديد العمق ، كما أنها لا تبني آمالا مريضة على أية علاقة واحدة بالذات . وقد يكون ذلك راجعا إلى أن الفتاة لا تنشأ هناك في محيط العائلة الضيق المحصور ، وإنما تجد نفسها تتحرك منذ الصغر في محيط الأقارب الواسع الرحب ، حيث تنوزع السلطة والمحبة بين عدد كبير من الأشخاص ، ولا تنحصران في أفراد العائلة وحدهم . ولكن الأهم من ذلك هو أن الثقافة السائدة في ساموا ثقافة متجانسة إلى حد بعيد . فهم جميعا يتبعون نفس معايير السلوك ، ويعتقدون نفس المعتقدات الدينية ، ويخضعون لنفس القانون الخلقي . وعلى ذلك فليس هناك أي مجال للمفاضلة أو الاختيار مما يقلل فرص النضال والاحتكاك بالآخرين ، ومما يساعد الفتاة المراهقة على تجنب الصراع الداخلي الذي يدور في النفس عادة أثناء عملية الاختيار بين القيم المختلفة ، وما يترتب على ذلك الصراع من سوء التوافق ومن المصائب . أما الفتاة الأمريكية المراهقة فإنها على العكس من ذلك تواجه في بيئتها الاجتماعية أنواعا عديدة من القيم الاجتماعية المتنافرة ، مما يضطرها إلى المفاضلة وإلى الاختيار . والاختيار هو مقدمة الصراع والنضال (الطبعة الأولى من الترجمة العربية - منشأة المعارف ١٩٥٨ - صفحات ١٤٣ - ١٤٥) .

والإساس القوي الذي تقوم عليه كل هذه البحوث الحقلية العديدة التي يضطلع بها علماء الأنثروبولوجيا ويقومون بها في مجتمعات محددة ومعينة بالذات لدراسة عملية التنشئة الاجتماعية

والثقافية ، والتعرف على اساليب التربية والمشكلات التي يواجهها الطفل والمراهق ، ويعتمدون في ذلك على الاتصال المباشر والمعيشة لفترة طويلة من الزمن تتجاوز السنة الكاملة في معظم الاحيان مع استخدام اسلوب الملاحظة المباشرة . فكتابات هؤلاء الباحثين وتقاريرهم هي التي تزود غيرهم من العلماء من اصحاب النظريات بالمعلومات الاساسية التي يقيمون عليها نظرياتهم ويصوغون افكارهم وآراءهم العامة حول المشكلة . . ولذا كانت هذه البحوث والتقارير العقلية تحتل مكانة خاصة لدى المهتمين بالموضوع .



كل هذه الدراسات والبحوث والنظريات والآراء المتضاربة تدل على الاهمية البالغة التي تحظى بها الآن مشكلات الطفولة والمراهقة في مجال العلوم الاجتماعية من ناحية ، كما تعكس من الناحية الأخرى مدى الاهتمام العام ، وبخاصة بين الآباء ، بالتعرف على خير الوسائل التي يمكن اتباعها في تنشئة الأطفال والمراهقين ، بحيث يتحقق الهدف من التنشئة ، وهو تنمية مدارك الأطفال والمراهقين وقواهم وملكاتهم ، مع الحرص على تحقيق تلائمهم مع قيم المجتمع وتقاليد . ومن هنا كان السؤال الملح الذي يواجه العلماء والآباء على السواء الآن هو كيف نعامل الأطفال ؟ وما هو النقص من التربية ؟ وكيف يمكن تحقيق الشخصية السوية ؟ هذه كلها اسئلة لم تكن ترد في الأغل - على الأقل بنفس هذه الدرجة من الإلحاح - في الماضي . اذ أنه على الرغم من كل ما يقال من الثورة الصناعية والتغيرات التي أحدثتها في المجتمع فقد كانت هناك في القرن التاسع عشر أوضاع محددة ترسم لكل شخص مكانته ومركزه ودوره وطريقة سلوكه ، سواء ضمن الجماعة التي ينسب إليها عمرها ، أو مع الأجيال السابقة واللاحقة عليه . ولقد كانت العلاقات بين الآباء والأبناء بالذات تتصف بالجدية والصرامة التي قد تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام والحب الأبوي ، وأن لم يكن الأب يهتم بظاهر ذلك الحب او التعبير عن حوافظه نحو اولاده ، ويعتبر ذلك نوعا من التذليل والافساد . ولذا كانت وظيفة التنشئة تنحصر في تشكيل الطفل وتطويعه بحيث يتلاءم مع تلك الأوضاع القائمة . ورغم كل ما يؤخذ على هذه الطريقة من جمود وصرامة فلقد افلحت - كما يقول درايترزول Hans Peter Dreitzel في أن تنجب رجالا ونساء لعبوا دورا هاما في تاريخ القرن التاسع عشر في أوروبا . كذلك فانها رغم كل ما يؤخذ عليها كانت تخفي وراءها كثيرا من الاهتمام الحقيقي والحب والتماسك العائلي بحيث كان الطفل يشعر بكثير من الاطمئنان والارتياح والاحساس بالأمن ، وهي كلها عناصر يفتقر إليها كثير من الأسر الحديثة في المجتمعات المتقدمة والصناعية . وهذا لا يعني بطبيعة الحال انه لم تكن هناك حالات من الانحراف في السلوك ، اذ لكل عصر ولكل مجتمع أسبابه وأوضاعه التي تدفع الى انحراف بعض أعضائه .

هذه الصرامة في المعاملة يقابلها الآن التسامح والحرية الزائدة التي يلقيها الأطفال والتي تدفع

الكثيرين الى التساؤل الناجم من الحيرة من اى الاسلوبين في التربية هو الصحيح والمجدي ، او على الاقل الاثر جلوى ؟ واين هو الحد الفاصل بين الصرامة الزائدة والحرية الزائدة والذي يمكن ان يؤدي الى خلق الطفل السوى ؟ ومثل هذه التساؤلات تبين لنا ان موقف الآباء من اطفالهم قد تغير تغيرا جليا ، وان الآباء لم يعودوا يأخذون اطفالهم على انهم مجرد مسالمين بها او تحصيل حاصل ، وانما على انهم مشكلة تستحق التفكير والاهتمام . ويقول آخر لم تعد الأم او الأب الذي يفشل أحد اطفاله في حياته يكتفي بأن يندب حظه النعم ويشفق على نفسه من سلوكه طفله ، بل أصبح بدلا من ذلك يميل الى التعرف على اسباب انحراف الطفل او فشله ، وقد يرد ذلك في كثير من الاحيان الى نوع المعاملة التي لقيها الطفل . والموقف الصعب الذي يجد البالغون والاطفال على السواء انفسهم فيه الآن هو كيف يمكن التوفيق او الاختيار بين الافكار التقليدية التي نشأت والبالغون يميلون الى فرضها ويؤمنون بجداوها ، وبين النظريات والاتجاهات الحديثة التي تعطي للطفل مكانة واعتبارا لم يكن يتمتع بهما في الماضي ؟ والمعروف ان التنشئة الاجتماعية هي بالضرورة - ومهما يقل من الاتجاهات التقدمية فيها - عملية فيها جانب كبير (رجي) او (محافظ) ان صح هذا التعبير لانها - وان كانت تهدف الى خلق الشخصية السوية - فانها تهدف في الوقت ذاته الى المحافظة على البناء الاجتماعي والثقافي التقليدي حتى يمكن ضمان استمرارية الحياة الاجتماعية من طريق نقل التراث الاجتماعي والثقافي الى الاجيال التالية . والمعادلة الصعبة هي في ايجاد وسيلة للتوفيق بين هذين الاتجاهين لضمان الاستمرار مع التجديد ، بحيث يمكن اعداد الطفل لمصر يختلف في مفاهيمه واتجاهاته وقيمه ونظراته الى الحياة من العصر الذي يعيش فيه الآباء . ان الوصول الى حل هذه المعادلة الصعبة هو في الاغلب الوسيلة الفعالة لضمان عدم تمرد الشباب والاجيال التالية ، وهي المشكلة التي تعاني منها المجتمعات الحديثة . ويعرض لنا الاستاذ الدكتور جواد رضا في دراسته عددا من اللوحات التي تكشف لنا عن كثير من هذه الامور .

الا ان المشاهد على العموم ان معظم الدراسات التي تعالج هذه المسائل تؤكد موقف الآباء الأكثر تسامحا ازاء اطفالهم ، ويعتبرون ذلك موقفا صحيا يقوم على التقدير الصحيح والفهم الصائب لمشكلات الطفولة والمرحلة . كما يكشف عن استعداد الآباء لمراجعة انفسهم ومواقفهم من اطفالهم . وهذا هو ما كنا نقصد اليه حين قلنا ان الاتجاه يريد الآن نحو عدم اعتبار الاطفال عنصرا سلبيا في عملية التنشئة ، او انهم يستجيبون دائما للمؤثرات الخارجية التي ترد اليهم من البالغين والكبار ، وان الكبار انفسهم ليسوا دائما عوامل ثابتة في بيئة الطفل الاجتماعية ، ولكنهم خليقون بان يتفقدوا تحت تأثير التحدي الصادر من اطفالهم . ومن الغريب انه حتى عهد قريب جدا لم تكن معظم بحوث التنشئة الاجتماعية تعتبر الاطفال « كائنات سيكولوجية واجتماعية وتاريخية في ذاتهم » على ما يقول دراتيزل ، ولم تكن تعتبر الطفولة تصورا او مفهوما متميزا في ذاته ، وانه لم يساعد على ظهور هذا المفهوم الا انشاء المدارس الحديثة بعد التغيرات الواضحة التي طرأت على بناء المجتمع الحديث . كذلك من الغريب ان نجد انعزيم كل الاهتمام الذي يبديه المجتمع الحديث

بالاطفال والمراهقين ولعمليات التنشئة فان هذا المجتمع الحديث نفسه يخلق جوا غير ملائم تماما للاطفال بوجه عام ، لدرجة ان الكثيرين ممن الكتاب يتشكون فيما اذا كانت هذه المرونة او هذا التسامح ازاء الاطفال ناجم حقيقة من فهم مشاكل الطفولة والرغبة في العمل على حلها ، والايمان بضرورة الاهتمام بمتطلباتها ، او انه ناجم عن الشعور بالعجز واليأس والاستسلام للاوضاع الراهنة التي لا يجد الآباء والعلماء لها حلا بعد ان فقدت المؤسسات والنظم الاجتماعية التقليدية ، وبخاصة الاسرة ، دورها ووظيفتها في تنشئة الاطفال ، وبعد ان اصبحت المدرسة ذاتها تعاني الكثير من المشكلات ، نظرا لان المدارس في العادة توجه التلاميذ نحو سياسة تربوية محددة ومرسومة ، بدلا من ان تعمل على الكشف عن القدرات الخاصة بكل طفل وتوجيهها الوجهة الصحيحة للافادة منهم . ان هذا التشكك وما يتعلق به من تساؤلات كثيرة وما يدور حوله من آراء خليق بأن يجد من علمائنا ومفكرينا ما يستحقه من عناية ودراسة واهتمام ، حتى يمكن ان نتجنب في اساليب ووسائل تنشئة الاطفال والمراهقين في مجتمعاتنا كثيرا من المشكلات التي يعاني منها الآباء والابناء في المجتمعات الغربية الأكثر تقدما .



النمو الجسدي في مرحلتَي الطفولة

من الطريف أن نجد أن الاهتمام بدراسة الأطفال وخبراتهم وسلوكهم يعتبر مركز جذب لأشخاص عديدين غير أولئك الذين يرتبطون ارتباطاً طبيعياً وثيقاً بتربية الطفل ، وأهم هؤلاء جميعاً الآباء والأمهات ، فهم الذين ، بحكم حبهم لأطفالهم ، يميلون للملاحظة في ولع واهتمام عاطفي ، ويتتبعون تطور شخصياتهم ، ويلمحون معالم التغير في كل ظاهرة من ظواهر حياتهم ، يشاركون في ذلك كل مهتم بعملية التربية والتنشئة لهؤلاء الأطفال كالمدرسين والمدرسات والمربين والمربيات ، وغير هؤلاء كثيرون . إلا أن هذا الاهتمام الشديد كثيراً ما يجعل ملاحظاتهم ونتائج تتبعهم لما يطرأ على هذه الشخصيات من تغير يشوبها كثير من التحيز والاتجاه إلى جانب واحد في أحكامهم لما يلاحظونه ، فغالبية الآباء يلاحظون كل ما يؤيد امتياز أطفالهم عقلياً ، ويتذكرون في ذلك كل حادثة صغيرة مرت أمام أعينهم تسم في هذا الاتجاه ، بل وينحون في تفسيراتهم هذا المنحى ، ولهذا فإن الاعتماد على تقارير الآباء والأمهات وذاكرتهم المتعلقة بمراحل النمو التي مر عليها أطفالهم ينبغي لدارس نمو الطفل أن يأخذها بحذر شديد ، وأن يجمع ملاحظاته من مصادر

متعددة حتى يستطيع المقابلة بين مختلف الملاحظات والذكريات ويخرج بأكثر قدر من الصحة فيما يتعلق بهذه التفريعات .

أما المتخصصون العلميون ، فانهم يهتمون كذلك بدراسة الاطفال في فروع كثيرة مختلفة من فروع المعرفة العلمية ، فانهم بالرغم من ان موضوع دراستهم غالبا ما تكون مشتركة موحدة تنحصر في نمو الطفل وتطوره الا ان كلا منهم ينظر الى هذا النمو من وجهة نظر خاصة تربط بناحية تخصصه ، وهذه النظرات المختلفة في مجملها تغطي الصورة المتكاملة عن عملية النمو في شخصية الطفل جسديا ونفسيا من مرحلة ما قبل الميلاد حتى مرحلة النضج التي يستقر فيها النمو ، بل ويدهب الكثيرون الا ان دراسة النوا تنوقف عند مرحلة معينة ، فدراسة المسنين مرتع خصيب في الوقت الحالي للفحوص العلمية الشيقة .

ولعل أهم هؤلاء العلماء اتصالا بموضوع النمو هو التخصص في علم النفس الارتقائي ، أو سيكولوجية التطور Developmental Psychology أو علم نفس الطفل كما يسمى عادة Child Psychology وبالرغم من ان الدراسة العلمية لهذا التخصص تنصب على متابعة نمو الطفل وتطوره ، الا انه يستمد خبراته وبياناته التي تخدم اغراضه هذه من فروع مختلفة من فروع المعرفة ، ويبدو ذلك طبيعيا اذا تتبعنا المجموعة الهائلة والتنوع من العوامل الداخلية والخارجية التي تحدد وتؤثر في عملية النمو .

فبعض هذه المحددات نستمدنها من علم الوراثة العضوية والوظيفية ، وبعضها الآخر نستمدنها من علم الطب عندما نتعرض للخصائص المرضية والعوامل المؤثرة على صحة الطفل ونموه الجسمي والوظيفي ، ويدخل في ذلك علم وظائف الاعضاء Physiology والتشريح Anatomy وعلم الحياة Biology وأكثر اتصالا من ذلك فروع علم النفس المختلفة كعلم النفس التجريبي Experimental Psychology وعلم النفس المرضي Psychopathology والصحة النفسية Mental Hygiene والتوجيه التعليمي Educational Guidance وغير ذلك من العلوم المرتبطة ارتباطا وثيقا بعلم النفس كعلم الاجتماع Sociology والانثروبولوجي Anthropology وبوجه خاص التربية .

فدراستنا الحالية لنمو الطفل لا يمكن أن تظل من التعرض لحقائق مختلفة من هذه العلوم التي ذكرناها وغيرها بالتقدير الذي يحتاج اليه توضيح معالم هذه الدراسة .

وهذه الفروع المختلفة المرتبطة بدراسة النمو تلقى ضوئا هاما على ما يحدث للطفل في مراحل طفولته المختلفة وقد رأينا أن نبدأ بمرحلة ما قبل الولادة . فحتى عهد حديث كانت دراسة النمو تبدأ من ميلاد الطفل ، أما اليوم فانه من المفترض ان هناك مظاهر كثيرة على جانب كبير من الأهمية تؤثر في النمو بعد الميلاد تتم قبل الولادة ولهذا فان تحديد دراستنا في السنوات التي تلي الميلاد تكون بمثابة مشاهدة رواية تمثيلية من منتصفها أو بعد مرور عدد من فصولها . فإذا بدأنا دراستنا من يوم الميلاد أصبح ما تم قبل ذلك مجهولا لنا تماما ، بالضبط كما يحدث في حضور الرواية من منتصفها عندما تغيب عنا أشياء كثيرة عن خلفيات الشخصيات التي تقوم

بالأدوار المختلفة ، وأنه يصعب علينا أن نتبع نموذج النمو والتطور للطفل إلا إذا عرفنا الكثير منه قبل الميلاد . فلهذا أصبحت دراسة نمو الطفل تبدأ منذ الحمل وتمتد حتى نهاية مرحلة النضج ، ولهذا فإن دراسة نمو الطفل ينبغي أن تبدأ من مرحلة ما قبل الميلاد لما لهذا المرحلة من أهمية في توضيح مظاهر ومفاهيم كثيرة في عملية النمو ، علاوة على مساعدة ذلك على إيضاح ما يزود به الطفل عند ولادته من امكانيات جسمية وعقلية يتضمنها مفهوم النمو أو التطور ، وقد رأينا قبل عرض مراحل النمو المختلفة للطفل أن من واجبنا أن نوضح ما نعنيه بمصطلح النمو ، ونعرفه تعريفاً إجرائياً واضحاً ، ثم نعرض أهم الطرق العلمية لدراسة هذه النمو .

ولما كانت عملية النمو خلاصة لتفاعل النضج الطبيعي Maturation مع عوامل التدريب والتعليم Learning من البيئة وجدنا من اللازم أيضاً توضيح هذا التفاعل بشيء من التفصيل قبل عرض المراحل المختلفة لهذا النمو .

وبالرغم من تداخل هذه المراحل المتدرجة لتداخل كبيراً نظراً لطبيعتها ونظراً لأن النمو في ذاته عملية متكاملة فإن الدراسة العلمية للنمو تتطلب تقسيمه إلى مراحل متميزة ، ونوضح العالم الرئيسية لكل مرحلة من هذه المراحل .

ولعل أنسب تقسيم لمرحلة الطفولة ينحصر في التمييز بين أربعة مراحل مختلفة :

١ - مرحلة ما قبل الميلاد

ب - مرحلة الرضاعة

ج - مرحلة الحضانه

د - مرحلة الطفولة : المبكرة والمتأخرة

ويمكننا أن نحدد هذه المراحل الأربع بأعمال تقريبية متدرجة فنقول ان مرحلة ما قبل الميلاد تتم خلال الشهور التسعة التي يتم فيها نمو الجنين في بطن أمه منذ تلقيح البويضة حتى وقت الميلاد . أما مرحلة الرضاعة فتبدأ من الميلاد حتى نهاية السنة الأولى تقريبا . وأما مرحلة الحضانه فتتد من السنة الثانية حتى نهاية السنة الثالثة . وأما مرحلة الطفولة فتنتهي بمرحلة المراهقة ويمكن أن نحددها بين الثالثة والثانية عشرة تقريبا ، وهناك اختلافات كثيرة وخاصة حول المراحل التي تسبق الطفولة الأولى (المبكرة) التي تبدأ من الثالثة .

والمرحلة الأولى تستمر حوالي ٩ شهور أو ٢٨٠ يوما ، وبالرغم من صغر مدتها إلا أن النمو فيها يتم بنغاية السرعة ، وأهم مظهر لهذا النمو هو المظهر الفسيولوجي الذي يتكون خلاله التركيب الجسمي ، أما المرحلة الثانية فهي التي تتضمن انتقال الرضيع الى بيئة مخالفة تماما للبيئة التي نشأ فيها وتعتبر مرحلة ركود في نمو الطفل الرضيع ، ووظيفتها أحداث عملية التوافق مع جسم الأم الخارجي ، وتستمر فيها عملية النمو وراكدة حتى تتم عملية التوافق هذه . ووظيفة مرحلة الحضانه تدرج الطفل من الاعتماد على غيره في قضاء لوازم حياته الى أن يصل

الى القدرة على التحكم في عضلات جسمه ، فيستطيع ان يأكل بنفسه ويلبس ويتكلم ويلعب ،
ويعتبر مرحلة الطفولة امتدادا لذلك ، فالطفل الذى تعلم التحكم في عضلاته يتعلم هنا السيطرة
على بيئته كما يتعلم كيف يتوافق وتوافقا اجتماعيا ، وهذا يبدأ في سن السادسة تقريبا ،
ولهذا يفضل الكثيرون تقسيم هذه الفترة الى فترتين الطفولة الأولى وتنتهى عند السادسة
والطفولة المتأخرة وتبدأ بدخول المدرسة . وهاتان المرحلتان هما اللتان يتعلق بهما بحثنا هذا (١) .



المقصود من النمو :

هناك لفظان يستخدمان بمعنى واحد غالبا ، وهما النمو Growth والتطور Development
ونرى منذ البداية التفريق بينهما بالرغم من أنه يصعب الفصل بينهما ، فمما يحدثان
معاً دائماً ولا يمكن ان يحدث احدهما في غياب الآخر . والنمو يقصد به التغيرات الكمية في
اجزاء ووظائف الكائن الحي كزيادة في الحجم والتركيب وزيادة الوزن وزيادة حجم الجمجمة
والتغير في وزن الاعضاء الداخلة في بنیان جسمه ووزن وحجم المخ ، وقد ينتج عن ذلك زيادة في
قدرة الطفل على التذكر أو التفكير أو الاستدلال أو التعلم أو الادراك ، فالطفل ينمو بهذه الصورة
عقليا وجسديا .

وأما التطور فنقصد به هنا التغير النوى ، ويمكن ان نعرفه بأنه التتابع المستمر المرتب
المتسق من التغيرات والتحويلات التى تؤدي في نهايتها الى هدف النضج ، ويقصد باستمرار
هذا التتابع في هذا المجال ان التغيرات تسير في اتجاه واحد وهو الاتجاه الى الامام لا الى الخلف ،
كما ان تعريفا كهذا يفترض ان هناك دائما علاقة بين كل مرحلة والمرحلة أو المراحل التى قبلها ،
وبالإضافة الى ذلك فان التتابع لا يحدث عن مجرد اضافة بحيث يصبح طول القامة زائداً عن
طولها الاصلى بوضعة سنتيمترات ، أو يصبح حجم المخ اكبر من حجمه الاصلى بقدر من
السنتيمترات المكعبة ، ولكن المفروض في التطور ما يحدث من تفاعل ، فهو عملية معقدة متكاملة
بين مختلف التركيبات والوظائف ، ولهذا فان كل تغير يعتمد على المراحل السابقة وبالتالي
يؤثر على المراحل المقبلة . فالنمو اذن عملية ديناميكية تفاعلية متكاملة ، وينتهى النمو بطبيعة
الحال بمرحلة النضج الذى يصل فيه التغير التركيبى نهاية مراحل ، وتستطيع الاعضاء
المختلفة القيام بوظائفها على الوجه الاكمل بالمستوى الذى تتيحه له خصائص الطفل وقدراته وامكانياته
الجسمية والنفسية ، وبالرغم من ان كل مرحلة من مراحل النمو تقرب الشخص من مرحلة
النضج الا انها في حد ذاتها تعتبر فترة كاملة تعطى دليلا على مدى مطابقة سرعة نمو الفرد بالسرعة
الطبيعية واقتراب قدرات الشخص وامكانياته الجسمية والعقلية من المعدل أو المتوسط المفروض
الوصول اليه في هذا السن المعين في تلك البيئة التى يعيش فيها ، فالسن الأولى التى تظهر
للطفل تعتبر دليلا على دخوله مرحلة مميزة من مراحل الكونمو فهى تدل على الاقل على أنه

(١) التوافق بين القوسين يدل على دالم المرجع في قائمة المراجع في نهاية البحث .

لم يتأخر في عملية التسنين وأن هذه العملية تسير بتقدم طبيعي في حالات وأنه متأخر أو متقدم في حالات أخرى .

إن الكائن الحي دائما في تغير مستمر جسيما ومقليا منذ يوم ولادته (أو قبله) حتى يوم وفاته ، وهذه التغيرات تمر في مراحل مختلفة فقد تكون في بدايتها في أحد الأعمار ، وقد تبلغ اقصاها في أعمار أخرى ، وقد تصل الى نهايتها في أعمار ثالثة .

وهذه التغيرات المختلفة تؤثر على النمو بأساليب مختلفة ويمكن تقسيمها الى أربعة أنواع رئيسية :

١ - **التغير في الحجم** : ففي كل عام كلما ينمو الطفل فإن ارتفاع قامته ووزنه ومحيط جسمه يزداد عادة ، كما أن الأعضاء الداخلية والتركيبات النشوية تنمو في الحجم لتواجه المطالب المتزايدة للجسم . وليس هذا قاصرا على المظاهر الجسمية بل يلاحظ كذلك في الوظائف العقلية كالحصول اللغوي وقدراته العقلية المختلفة .

٢ - **التغير في النسب** : لا يمكننا أن نعتبر الطفل رجلا صغيرا كما كان يظن سابقا ، فإن أبعاد جسمه تتغير مع زيادة النمو ، فنسبة حجم الجمجمة والبطن والساقين بالنسبة الى حجم الجسم كلها لا تستمر ثابتة أثناء عملية النمو بل تتغير من مرحلة الى أخرى ، وكما ذكرنا في التغير في الحجم فإننا نلاحظ هذا أيضا في الوظائف والعمليات العقلية ، وهذا ما يميز كل مرحلة عن غيرها من مراحل النمو ، فنسبة الخيال والعدوان والانانية مثلا تزداد في مراحل خاصة وتقل في غيرها بالنسبة لسلوك الطفل .

٣ - **اختفاء بعض المعالم العضوية** : كشمع الجسم الرقيق الذي يكو الجلد في الرضيع ، وشعر الرأس الناعم والأسنان اللبنية وبعض الأفعال المنعكسة والمناغة والصراخ وغير ذلك تعتبر من المظاهر الجسمية التي تختفى لعدم الحاجة اليها كلما ازداد الطفل نموا ، ويتبع ذلك اختفاء بعض المظاهر العقلية والانفعالية كحب التملك والآلة والزهو بالانتصار وجمع الأشياء والمنافسة وغير ذلك وكلها مظاهر لا تثبت مع الطفل بعد ظهورها في مرحلة من مراحل النمو .

٤ - **ظهور بعض المعالم العضوية الجديدة** : وذلك لأن بعض المعالم العضوية أو العقلية قد تظهر نتيجة لعملية التعلم ، كما أن عملية النضج *Maturation* تدفع ببعض المؤشرات للظهور كظهور الأسنان الثابتة والمعالم الجنسية الأولية والثانوية ، وفي العمليات العقلية يمكننا أن نذكر حب الاستطلاع والعرفة والدفاع الجنسي والتأمل والتفكير الديني وغير ذلك .

ويوجه عام نقول أن عملية النمو تتضمن عمليتين متضادتين ، أولاها ما ينتج عنها إضافة أجزاء ومميزات جديدة ، والثانية تتضمن اختفاء وزوال بعض المعالم القديمة ، وبطبيعة الحال فإن عملية الإضافة تزداد كلما في الأعمار الصغيرة وتبدو أكثر وضوحا ، فهي تساعد على التكوين وملامة الصغير للمطالب المتزايدة للحياة المقبلة بينما تزداد عملية الحذف كلما ازداد النمو ودخل الطفل في مراحل جديدة ، ولكن هذا لا يمنع من وجود العمليتين دائما في عملية النمو .

كما أن بعض هذه العمليات تتأخر في وظيفتها وتسير جنباً لجنب في تأدية وظيفة واحدة ، كما يظهر ذلك في تسير الحجم ونسب وإبعاد الجسم وازدياد الوزن فانه يكون نتيجة هضادة لنمو في العضلات والعظام ، وكما يحدث ذلك التأخر في المظاهر البدنية يبدو أيضاً في المظاهر النفسية والعقلية كما يحدث نمو في الذاكرة وفي مستوى الذكاء والقدرة على الاستدلال تبعاً لازدياد نمو الطفل .

ان النمو سواء كان جسمياً أو عقلياً لا يسير بطريقة منتظمة فهو يبلغ أقصى سرعة خلال الأشهر التسعة الأولى قبل الميلاد (أثناء الحمل) ، حيث ينمو الجنين من خلية ميكروسكوبية الى طفل يزن ٧ أرطال في المتوسط و ٢٠ بوصة في طول القامة .

ويوجه عام فان النمو تزداد سرعته بدرجة ملحوظة خلال السنوات الأولى من حياة الطفل ، ويبدو ذلك واضحاً اذا قارنا بين الطفل الوليد والطفل الذي يصل عمره الى ثلاث سنوات ، فمثلاً في هذه المدة تجد ان النمو يكون ملحوظاً واضحاً حتى للوالدين اللذين يقضيان مع الطفل طول الوقت ، وهذا الاسراع في النمو الجسمي يصحبه اسراع في النمو العقلي كذلك ، وأما في المرحلة التالية التي تبدأ في سن الثالثة وتنتهي في سن السادسة فان النمو فيها يسير بسرعة كذلك ، ولكن هذه السرعة لن تصل الى السرعة السابقة ، وزيادة عن ذلك فان سرعة النمو تبطئ أكثر بعد السادسة تدريجياً حتى مرحلة البلوغ ، فالطفل ينمو في هذه المرحلة الا أن نموه هذا لا يقاس بالنمو الذي يحدث في السنوات الثلاث الأولى .

وهذا النمو يوجه عام قد لا يلاحظه الطفل نفسه ، بل هذا ما يحدث عادة حيث لا ينتبه الطفل لما يحدث بجسمه من تغير الا اذ انبهه اليه غيره أو سمع تعليقاً عليه ، اما الاطفال الأكبر سناً فانهم يكونون أكثر وعياً لما يحدث في أجسامهم من تغيرات وخاصة في المراحل التي تحدث تغيرات وظيفية كمرحلة المراهقة .

ان معرفتنا للنموذج الذي يتبعه النمو البشري يمكننا أولاً ان نعرف ما تتوقعه من أطفالنا في السنوات المختلفة ، فدراسة النمو وملاحظته يؤدي الى تفهم طبيعة المرحلة وما يحدث فيها من نمو جسمي وعقلي ، ومن طريق التنبؤ بآدم الطفل ينمو بأسلوب عادي يوجه عام يستطيع المرء ان يعرف ما قبل ما سيحدث له جسمياً وعقلياً فيعد العدة لاستقبال هذا التغير المنتظر . وبذلك لا نتطلب من طفلنا أكثر مما يستطيع آداءه جسمياً أو عقلياً ، ولنضرب مثلاً على ذلك ان استخدام القلم والقبض عليه بأصابع اليد بطريقة يسهل معها توجيه الوجهة التي يريدنا الطفل تتطلب ان يكون الطفل قد مر بمرحلة معينة يستطيع معها التحكم في أطراف الأصابع وأحداث التأخر بين ثني وتحريك أصابع اليد المختلفة ، وقد تجبر الطفل على هذه العملية قبل أوانها ، ونطالبه بالتحكم فيها ونتمه بالتأخر اذا لم يستطع إتقانها ، وبالمثل فان ما يحدث من اجبار الطفل أحياناً على التحكم في عمليات النظافة في التبول والتبرز قبل المرحلة الصادقة

الطبيعية فيه اشعار الطفل بعدم كفايته للقيام بما كان يجب عليه القيام به مما يسبب له مشكلات انفعالية في المستقبل ، والطفل في هذه المرحلة ينظر الى اوامر وتوجيهات والديه على انها الاوامر الطبيعية للطفل العادي في نفس سنه وبذلك يحرم الطفل دائما من الحوافر والمشجعات التي تعينه على تحقيق ثمراته نموه. وقد يؤدي هذا به الى مقاومة دائمة لكل من يقلل من شأن قدراته وامكاناته الطبيعية .

والقيمة التشخيصية الأخرى للدراسة مراحل النمو ومعدلاته تنحصر في وضع معايير المعدلات التي يصل اليها الطفل العادي في مرحلة من المراحل ، فنحن نعلم مثلا ان التسنين الاول يبدأ عند الطفل العادي في مرحلة معينة ، وان المشي أو الجري يبدأ في المتوسط في سن متوسط محدد ، فاذا تأخر الطفل في عملية من عمليات النمو عما يحدث عادة في الطفل العادي كان هذا تذكيرا بتأخر جسمي أو عقلي لدى الطفل ، واستوجب هذا عناية خاصة منا بالطفل ، ومن الطبيعي ان هذا المعدل بالرغم من أنه عام الا أنه يتغير نسبيا بين الجنسين ، كما يتغير في كل جنس منهما من مكان الى آخر ، فنعلم مثلا ان مرحلة المراهقة تبدأ في بعض المناطق مبكرة عن غيرها ، ذلك لأن المصروف ان النمو دالة للسن أي أن (ن = د) (س) وليس معنى ذلك أنه يتوقف على السن وحده بل يتوقف على عوامل وراثية وبيئية كثيرة يمكن تحديدها الى حد كبير كالمرض والتغذية والعوامل النفسية وغير ذلك ، فاذا حدث لدى الطفل ما قد أدى الى تأخر نموه في مرحلة معينة كانت مهمتنا بعد ذلك مهمة تشخيصية ، حيث يضع الشخص امام عينيه جميع العوامل المحتملة ، وبطريق الحذف يستطيع ان يحدد نفسه في عدد من العوامل القليلة ، وبالرغم من ان هذه العملية التشخيصية تبدو سهلة هينة الا انها في حقيقتها عملية شاقة ، حيث لا تتوفر لدى الاخصائي النفسي عادة المعلومات الكافية التي تساعد على رسم الصورة الكاملة ، ويصبح واجبه اولاً تحديد الناقص ثم كيف يملأ هذه الفراغات الناقصة ، ففي بعض الاحيان لا يساعده التقدم العلمي الحالي لاكتشاف هذه الفجوات ، ويكون السبيل الوحيد الى ذلك هو استخدام البحث العلمي ، وقد يتطرق هذا البحث العلمي الى فروع كثيرة غير علم النفس كالطب والتربية والانثروبولوجي والاجتماع مثلا ، فمن علم الانثروبولوجيا عرفنا الكثير من النماذج التدريبية للطفولة على سرعة النمو وطبيعته ، وقد امدنا علم الاجتماع بحقائق كثيرة عن العلاقة بين حجم الأسرة والملاقات العائلية وخاصة بين الاخوة مما يؤثر على النمو نفسه ، ولما كانت التغيرات الجسمية والنفسية التي تحدث خلال فترات النمو ترتبط ارتباطا وثيقا بالتغيرات العضوية والوظيفية كان من اللازم دائما ان تلجا الى اللعب وعلم وظائف الاعضاء في بحوثنا عن النمو ومسببات سرعته ، اما التربية فهي التي تتيح الفرصة لعامل النضج الوظيفي والعضوي لان يسير في مجراه الطبيعي ، ويمكننا ان نقبس هنا المعايير الثلاثة الاستخدام وهي توضع الامكانيات التي يستطيع الطفل في كل مرحلة القيام بها .

اولا - مرحلة الطفولة Early Childhood (من الميلاد حتى

٦ سنوات) .

- القدرة على المشى
- القدرة على تناول المأكولات الصلبة
- القدرة على الكلام
- القدرة على التحكم في التخلص من فضلات الجسم
- ادراك الفروق الجنسية
- احراز الاستقرار النفسي
- تكوين المفاهيم البسيطة من الحقائق الاجتماعية
- القدرة على ادراك علاقته انفعاليا بالديه واخوته وباقي افراد مجتمعه .
- القدرة على التمييز بين الصواب والخطا وظهور ما يمكن ان نطلق عليه الضمير .

ثانيا - الطفولة المتأخرة (٦-١٢ سنة) Late Childhood

- اكتساب المهارات اللازمة للالعاب العادية
- بناء اتجاهات عامة نحو نفسه باعتباره كائنا ناميا
- تعلم التصرف مع زملائه من نفس عمره .
- ادراك دوره كشخص مدكر أو مؤنث .
- تنمية المهارات الاساسية للقراءة والكتابة والحساب .
- تنمية المفاهيم اللازمة للحياة اليومية .
- تنمية الضمير الاخلاقي وادراك مجموعة القيم الاساسية .
- تحقيق الاستقلال الذاتي .
- تكوين اتجاهات تنحو الجماعات والمؤسسات الاجتماعية (٢) .

وقد ذكرنا ان هذه المعايير بغض النظر عن الفروق البيئية والفردية البسيطة نسبيا فهي واحدة واثابت لجميع الاطفال في كل سن ، وبهذا نستطيع ان نكتشف الانحراف في كل طفل من هذا المعيار، والبحث بالطرق العلمية عن الجوانب التي ادت الى هذا الانحراف ، ونعمل على علاجه سواء من الناحية الجسمية او الانفعالية او الاجتماعية . وينبغى ان نذكر ان هذه المظاهر المختلفة في كل مرحلة مرتبطة متشابكة بحيث لا يتسنى لنا ان نمزل مظاهر النمو العضوى او الجسمى عن الانفعالى او الاجتماعى ، ولنضرب مثلا بسيطا على ذلك : لنفرض ان الطفل كان

حجمه فى سن معين زائداً عن المعدل بحيث يبدو أكبر من سنه فان مجرد كبر حجم جسمه هذا يجعله يعانى من مشكلات كثيرة انفعالية واجتماعية فهو لا يستطيع ان يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين فى سنه لانهم يعتبرونه اكبر منهم ، ويجد هو نفسه حرجا فى اللعب معهم ، كما انه لا يستطيع ان يتكيف بسهولة مع الاطفال الذين يناسبونه فى الحجم ، ذلك لانهم سيكونون اكبر سنا ولهم ما يناسب هذا السن الكبير من القدرات والنبول والاهتمامات ، وهذه بطبيعة الحال لابد وان تختلف من خصائصه النفسية والاجتماعية ، مما قد يدفع به الى الميل للعلزلة وتجنب الآخرين ، والسبب هنا مشكلة جسمية غاية فى البساطة كما تبدو .



الدراسة العلمية للنمو :

ان بداية الاهتمام بدراسة الطفل لم تات من اهتمام علماء النفس بالطفل نفسه بل من اهتمامهم بطريقة تربيته ومعاملته المعاملة المناسبة لسنه وتتبع ما يظهر عليه من تقدم او تاخر لجعل طرق تربيته تتماشى مع ما يظهر عليه من هذه المظاهر .

ومن اول المصلحين التربويين كان John Amos Comenius الذى عاش فى القرن السابع عشر والذى كان ينادى دائما بدراسة الطفل كما هو لا على اعتبار انه رجل صغير وقد كتب كتابين اولهما المدرسة فى مرحلة الحضنة « الذى نشر فى سنة ١٦٢٨ School of Infancy الذى وصف فيه نمو الطفل حتى السادسة من عمره .

وبعد كومينيس ظهر اتجاهان مختلفان فى دراسة الطفل : الاتجاه الاول كان متميزا بالمعاجات الفلسفية للتربية ، بينما كان الثانى مباشرا فى دراسة الطفل من طريق الملاحظة . ويمثل الاتجاه الاول لوك Loke فى انجلترا وروسو Rousseau فى فرنسا ، وبستاووزى Pestalozzi فى سويسرا ، وهربارت وفروبل فى ألمانيا . وقد كان الاتجاه الثانى اكثر فائدة فى دراسة النمو ، ولعل اول خيط فى هذا الاتجاه ظهر فى سنة ١٧٧٤ وتمثل فى مذكرات بستاووزى عن طفلة فى سن الثالثة والنصف ، وبعد ذلك فى ملاحظات تايد مان Tidemann التى دونها عن اطفاله ، كما كانت ملاحظات Millicent Skinn التى ظهرت سنة ١٩٠٠ عن نمو طفلة ابنة اختها خلال السنة الاولى من عمرها طريفة للغاية .

وبداية الدراسة العلمية للطفل التى قام بها Stanley Hall فى جامعة كلارك Clark فى سنة ١٨٩١ اتجهت الدراسات بعد ذلك الاتجاه العلمى ، واتخذت الاسلوب العلمى المبني على الملاحظة الدقيقة المضبوطة فبطا علميا ، واصبح الاهتمام الاساسى هو دراسة الطفل ذاته فى اعماله المختلفة وفى مواقفه المتباينة .

ومن ذلك يتضح ان دراسة وتتبع نمو الطفل قد اتخذ اهدافا متعددة ، فبينما كانت الدراسة فى اولها تهدف الى النهوض باساليب تربية الطفل انصرف التركيز الى الاهتمام بالطفل

قبل مرحلة المدرسة بهدف الوصول بتدريبه على العمليات الجسمية والعضوية البسيطة الى اقصى ما يتيسر وسائل التدريب ، لم تركز الدراسة بعد ذلك في معرفة الامكانيات الطبيعية (الفطرية) التي يزود بها الطفل في مراحله الاولى بحكم فطرته وطبيعته ، حتى يمكن معرفة ما يمكننا بعد ذلك اكسابه من مهارات والى اى حد نسير معه في عملية التدريب ، كما ان من بين الاهداف الرئيسية التي اتخذتها دراسة الاطفال الصغار اكتشاف مدى صدق بعض النظريات السيكولوجية التي ظهرت في هذا الوقت كنظريات Watson المتعلقة بالانفعالات الفطرية الثلاثة ، او باكتساب الانفعالات عن طريق الاشتراط ، وغير ذلك من الجوانب العقلية من شخصية الطفل ، كتباث معاميل الذكاء والعلاقة بين ذكاء الطفل وذكاء والديه ، والعلاقة بين ذكاؤه ومهنة الوالد وهكذا (٣) .



طرق دراسة نمو الطفل :

مما سبق يتضح ان دراسة نمو الطفل تنحصر في :

١ - **الملاحظة الحالية لسلوك طفل معين** في مرحلة معينة ، وقد تنسج هذه الطريقة تتضمن ملاحظة عدة اطفال في نفس المرحلة من العمر ، والخروج بسلوك متوسط تتميز به هذه المرحلة سواء كان ذلك في الجوانب الحسية الحركية ام في النواحي الوظيفية العقلية ام في النواحي الانفعالية .

٢- **استرجاع نتائج ملاحظات سابقة** Retrospective Reports **لطفل** معين ، والحصول من هذه التقارير على مميزات كل مرحلة مر عليها الطفل .

٣ - **الاستجابات التي يحصل عليها الباحث من استبيان** يملأه الوالد او الوالدة او الاخوة او الافراد الذين يتكون بالطفل غالبا كالمربية او احدى القربيات .

وسواء استخدم الباحث وسيلة او غيرها من هذه الوسائل فان دراسته لابد ان تكون واحدة من نوعين :

١ - **الدراسة المستعرضة** Cross-Sectional حيث يضم الباحث عدة دراسات تخصص كل منها في جانب معين من جوانب الشخصية وتخرج من هذه الدراسات بمميزات مرحلة من المراحل ، تضم الجوانب الجسمية الحركية والجوانب الوظيفية والنمو الانفعالي ومختلف مظاهر النمو ، ويتكرر ذلك في كل مرحلة ، وبذلك يخرج الباحث بصورة متتابعة لشخصية الطفل، والمهم في هذه البحوث ان تكون العينات التي تدرس عينات ممثلة تمثيلا حاصليا صادقا لاجتمع الدراسة ، ويجمع نتائج هذه الدراسات التي اجريت على عينات مختلفة يمكننا ان نتخلص من الآثار البيئية بقدر الامكان في المجتمع الواحد .

وبالرغم من المزايا العديدة لهذا النوع من الدراسات ، وإتباعها المنهج العلمي السليم بقدر الامكان إلا أن لها مثالب لا يمكن أن نغفلها ، فهي لا تعطينا الا صورة تقريبية للنمو وتتابعه، ولا يمكن أن نصل بها الى صورة دقيقة للنمو في بيئة محددة ، فإذا اردنا أن ندرس النمو الذي يطرا على سن الرابعة عشرة مثلا فلا بد أن تتضمن العينات الأولاد والبنات في أماكن مختلفة قد يختلف فيها النمو الجنسي والعضوي مع ما يتبع ذلك من تغيرات نفسية ، والنتائج التي نحصل عليها في هذه الحالة لا تنطبق على نتائج دراسة النمو لهذه المرحلة في مكان معين ولجنس معين فهي لا تأخذ في اعتبارها الاختلافات البيئية التي تحدث خلال حياة الفرد الواحد من مرحلة لمرحلة أخرى .

كما أنها لا تدلنا على سرعة التغير في مهارف معينة من مهارات الشخصية ، ولتأخذ مثلا مهارة استخدام اطراف الاصابع وتطور هذه المهارة من الميلاد حتى نهاية السنة السادسة فان الدراسة المستمرة لا تصل في تفاصيلها والدقة في دراستها الى تتبع مظهر دقيق من مظاهر التغير ، كما أن هذه الدراسة لا تدلنا على الوقت الذي يزداد فيه تطور هذه المهارة والفترة التي يبطل فيها .

ب - الدراسة الطولية Longitudinal وتتضمن هذه الدراسة فحص مجموعة من الاطفال مدة فحوص في فترات مختلفة متتالية هي اقسام فترة الدراسة التي يخطتها الباحث لنفسه قبل بحثه ، وهذه الدراسة اذا توخت الدقة كانت حريصة على الحصول على نفس افراد العينة من الاطفال خلال نموهم ، ولكن الباحث كثيرا ما يضطره ظروف بحثه الى التنازل عن هذا الاشتراط فيأخذ عينات مختلفة في المراحل المختلفة في نفس الوقت الذي يجري فيه البحث مفترضا في ذلك افتراضا فيهمفالة كبيرة وهي أن العينات المختلفة تعادل في خصائصها نفس العينة الاولى عندما تصل الى نفس سنها ونفس مرحلة العمر التي تمر بها الآن ، وبذلك يتغلب الباحث على عامل الوقت الطويل الذي كان يمكن أن تستغرقه الدراسة الطولية لو سارت كما يجب ، وتضمنت الدراسة نفس العينة في مختلف اعمارها ، وفي هذه الحالة تستغرق الدراسة عشرات السنوات ، وعلاوة على ذلك فان الباحث لا يضمن بقاء افراد العينة تحت سيطرته وملاحظته المضبوطة دون تفسير حتى في حالتهم الدافعية وتقبلهم لوضعهم موضع الدراسة طول هذه الفترة .

ولكن هذه الدراسة بالرغم من الصعوبات الآتفة تساعد الباحث على دراسة التغير في ظاهرة او وظيفة معينة مهما كانت دقتها خلال فترة النمو ، ولهذا فنحن نفضلها ونستخدمها في هذا البحث ، ويعتقد كثير من الباحثين النفسيين أن هذه الطريقة هي المسؤلة من وجود فجوات في معرفتنا من النمو في الوظائف المختلفة في مختلف المراحل ، لان الباحث عادة لا يستطيع أن يتتبع النمو خلال كل فترة صغيرة من فترات النمو بل يأخذ دراسته في فترات زمنية لا بد أن يفصل بينها فترات مهما كانت صغيرة ، هي التي تخرج من الدراسة ، وتظل هذه الفترة مجبولة مع ما قد يصاحبها من تغيرات قد تكون حاسمة في دراسات معينة .

وبالرغم من أن هاتين الطريقتين هما الطريقتان الرئيسيتان في دراسة النمو فإن كلا منهما قد تتخذ الأساليب العلمية المناسبة للدراسة ، ومن بين هذه الأساليب العلمية : التجريب عن طريق التحكم في العوامل المؤثرة ، وثبيت بعض العوامل وتغيير غيرها ، وطريقة التجريب على الحيوان على أساس ما بين نمو الطفل الأدمى والطفل الحيوان من عوامل متشابهة ، أو الدراسة المقارنة بين الإنسان والحيوان في مرحلة معينة من مراحل النمو ، كما يتبع بعض الدارسين طريقة عزل فرد أو أفراد من العينة للتخلص من بعض العوامل البيئية والاجتماعية ، وهذه تتبع بدرجة أكثر مع الحيوان لصعوبة تطبيقها على الإنسان . ومهما كان أسلوب الدراسة فيجب ألا نسقط من اعتبارنا الفروق الواسعة بين نمر الإنسان والحيوان خلال انتقالهما من مرحلة إلى أخرى ، وما قد يتخلل هذا التغير من اختلاف في النضج العضوي والبيولوجي ، وفرص التدريب خلال الحياة وهذا الموضوع هو الذي ستعالجه في النقطة الآتية :



النضج والتدريب Maturation and Learning (training)

قد نستنتج مما ذكر من الأهمية الكبرى للنضج، الذي يتضمن ظهور نماذج سلوكية على الطفل مهما كان أسلوب التدريب الذي يلقاه من البيئة، أن واجب الوالدين لا يزيد من انتظار حدوث عملية النضج كي تتم في مجراها الطبيعي دون أن نتدخل في استمجالها أو تحويلها ، والواقع يختلف عن ذلك كثيرا فالعوامل البيئية والتدريب الذي يلقاه الطفل الصغير من بيئته يلعب دورا هاما في عملية النمو فالعمليتان تسيان معا ، ولكن يمكن تمييز أحدهما عن الأخرى ، وعلى المرءي فعلا أن يميز بين هاتين العمليتين ، فزراع النبات لابد أن يميز ما إذا كان سبب رداءة النبات راجعا إلى ضعف في البلده أو قلة الرعاية وسوء الظروف البيئية حتى يستطيع تحسين النتائج في المستقبل . ولا يكفي الآن أن نسلم بأن العمليتين تتفاعلان في عملية النمو بحيث نستطيع أن نرجع كل مظهر من مظاهر النمو إليهما معا ، ولكن الأهم من ذلك أن نحدد طبيعة عملهما وإلى أي حد يؤثر كل منهما في نمو الطفل .

ويجدر بنا ببدء ذي يلمه أن نبين أن عملهما لا يكون على صورة الإضافة بل التفاعل التكاملي ، بمعنى أننا لا نستطيع أن نقول أن النمو = النضج + التدريب ولكن الأصح أن نقول أن النمو = النضج × التدريب ، وذلك لأنه إذا انعدم أحد الاثرين فإن النتائج ينعدم تماما ويختفى النمو .

فالطفل الرضيع يكون لديه الطاقة الطبيعية لأن يحبو على الأرض في وقت معين ، ولكن عملية الحبو في هذا الوقت لن تتم بنجاح إلا أن وجد الطفل أمامه مساحة من أرض وكانت لديه حرية الحركة في وقت من أوقات نموه ، والطفل يكون لديه القابلية في وقت معين لينطق ببعض حروف ويستخدم حجراته في اظهار الأصوات ، ولكنه يحتاج في هذا الوقت إلى عملية التشجيع

والتدريب من المحيطين به حتى تتم عملية الكلام والتحدث بطريقة سلسلة وفي تيارها الطبيعي .
ويمكننا أن نلخص هنا القواعد التي يتم عليها التفاعل بين العمليتين فيما يلي :

(١) ان التدريب الذي يلقاه الطفل من البيئة التي تحيط به هي الوسط الذي تعمل فيه الامكانيات الطبيعية التي يزود بها الطفل والتي تنفج لديه في سن معين .

(٢) كلما كانت الظروف المادية التي تحيط بعملية التدريب مناسبة اسرع النمو وكانت نتائجه أكثر ضبطا واتقاناً .

(٣) بالرغم من أن عملية النضج تتم طبيعيا فان عوامل التدريب قد تعطل من اثر هذه العملية .

ولكن هذا التعطيل غالبا ما يكون محدودا لتأثير وكامنا ، بحيث اذا اعطيت الظروف المناسبة صادت سرعة عملية النضج الى طبيعتها ، بل قد تموض الفترة التي ادت الى تعطيلها من عدم اتاحة الظروف المناسبة .

ولقد لخص جيزيل Gesell هذه القواعد في جملة واحدة حيث يقول (٤) :

« ان النمو الداخلي هبة من الطبيعة ، فنحن يتسنى لنا ان نوجهه ولكننا لا نستطيع ان نخلقها . كما أننا لا نستطيع ان نمنعه بأية قوة بيئية » . ومعنى هذا ان عملية التدريب وما تحدثه من توافق إنما هي محدودة بالخصائص المادية والداخلية للكائن الحي الذي ينمو . وينبغي مراعاة هذا فنيا في عمليات التربية والتدريب والتوجيه التعليمي ، حيث أن قفرا كبيرا من الانفساد لطبيعة الطفل تحدث عندما ندفع بالطفل دفعا لعملية لم يستعد لها ولا تناسب خصائص نموه وامكاناته النفسية في هذه المرحلة التي يمر بها ، وهذا ما اوضحه جيزيل في تجاربه العديدة على الاطفال الماديين والتوائم . والقدرات الجسمية الحركية تخضع لهذا التفاعل بين النضج والتدريب ، فبالرغم من أن الاطفال في بعض البلاد كانوا يقيدون في حركاتهم برباط محكم اثناء فترات حياتهم الاولى الا أنهم يلحقون بغيرهم من الاطفال الآخرين عندما تترك لهم فرصة الحركة المادية .

واذا قلنا ان التدريب يتيح للامكانيات الطبيعية الفرصة لان تعمل في اعلى حدودها فاننا نفترض عادة وجود حد اعلى لكل وظيفة من وظائف النمو يمكن أن تصل اليه ، ولكن هذا افتراض فقط . ولكننا لا بد وأن نترقب بأن التدريب له اثره الفعال في نتائج عوامل النضج ، فالاطفال الذين يربون في مؤسسات في سنواتهم الاولى يظهر تأخرهم عندما تصل مرحلة انطلاق القدرة على الكلام حيث يبدو تأخرهم في هذه المهارة عن الاطفال الماديين بدرجة ملحوظة الى أن يسير تفاعلهم الاجتماعي سرا عاذيا فتتحسن قدرتهم على التعبير والانطلاق اللغوي والى ان يستردوا امكانياتهم الطبيعية في ذلك .

ولعل النقطة الأساسية في عملية التفاعل بين التدريب والنمو تنحصر في عملية التوقيت ، فالتدريب لا يجدي اذا بدل في مرحلة سابقة على مراحل النضج . فالامكانيات الفسيولوجية

ينبغي أن تكون ممتدة قبل أن تظهر القدرة العقلية ، ومعنى هذا أنه بالرغم من أن الوظيفة والتكوين الجبلي يعملان جنباً لجنب وفي تعامل تام إلا أن التكوين الجبلي ينبغي أن يسبب الوظيفة ، وهذا ينطبق على المهارات الحركية ، والمهارات العقلية والسلوك الجنسي على حد سواء . فالأطفال الصغار لا يمكن أن يكتسبوا مهارة مبنية على فصل منعكس شرطى إلا إذا كانت مرحلة النضج في الجهاز العصبي مهياة لذلك مهما اكتسبناهم من تدريب ، وقدر الرضيع على قبض الأشياء بيديه لا يجدى معها التدريب قبل أن يكون هو معدا لذلك .

ولعل الصعوبة تنحصر في تحديد السن المناسب تماما بوجه عام في جميع الأطفال في سر معينة لكي يجرى التدريب معهم، وذلك لسببين: السبب الأول هو أننا لم نستطع حتى الآن الوصول إلى تحديد ملئى للسن الذى يتم فيه نضج الوظائف الجسمية والعقلية وذلك لوجوه الاختلافات الواسعة والفروق الفردية والبيئية بين الأطفال ، ولأننا بسبب الأفكار غير الصحيح التى سادت تربية الطفل فترة من الزمن والتي لازالت مؤثرة على المربين ، ومؤداها أن كل طفل ينبغي أن يكون قادراً على التعلم إذا دخل المدرسة أو اتيحت له فرصة التدريب المثمر . والواقع أن هذا يتوقف على أمور ثلاثة :

(١) اهتمام الطفل بالتعليم واحراز التقدم مهما كان صغيرا .

(٢) مدى بقاء هذا الاهتمام ودوامه لدى الطفل .

(٣) مدى التقدم الذى يحرز نتيجة للتدريب والتعلم ، وهذه العوامل ينبغي أن تكون متوفرة جميعا عندما تصل مرحلة الوصول إلى النضج في المهارة التى يقوم المربي بتدريبها لدى الطفل .

وبالرغم من الأثر الواضح لتفاعل التدريب مع النضج فإن النمو عادة يتخذ نمولجا عاما في تقدمه مع وجود الفروق الفردية التى أوضحناها. والراحل التى يمر بها النمو في جميع الأطفال لا تختلف كثيرا من طفل إلى طفل في بيئة معينة. ويكون أثر هذا التفاعل في حدود السياق الذى تشترك فيه جميع الأطفال في معالته . فالنمو مثلا ينتقل من الخصائص العامة إلى الخاصة ، فالدراسات العلمية قد أوضحت أن الطفل الصغير يتعلم أولا الكلمات العامة قبل الكلمات الخاصة، والجنين قبل الولادة مثلا يحرك جسمه كله أولا قبل أن يستطيع أن يحدث استجابات محددة ، وحتى في الجانب الانفعالي : فإن انفصالات الطفل الصغير تبدأ عامة ثم تتميز بعد ذلك إلى انفصالات محددة وهكذا . كما أن التمييز بالأجزاء القريبة أولا ثم يتدرج إلى الأجزاء البعيدة وهذا ما يطلق عليه Proximodistal Law ويمكن أن نطلق عليه القانون التدرجى أى يبدأ مثلنا من المحور المركزى للجسم إلى الأطراف البعيدة ، وينطبق هذا على النمو قبل الميلاد حيث ينمو الرأس والجلع قبل أن تظهر مبادئ الأطراف وحتى في الناحية الوظيفية فإن الطفل يستخدم ذراعيه جيدا قبل أن يستخدم يديه ، ويستخدم يديه قبل أن يستخدم أصابعه وسيطر على حركاتها .



شكل (١) لوالين اتجاه النمو ، ملفولة من (١٧)

ولعل ظهور الأسنان دليل آخر على ثبوت نمط التتابع والسياق في النمو لدى الاطفال فبوجه عام تظهر الأسنان السفلى قبل العليا والقواطع قبل الاضراس ويوجه عام نستطيع ان نقول ان الاسنان التي تظهر أولا للطفل هي اولى الاسنان التي تستبدل بأسنان دائمة وهكذا وهذا ما يجعلنا نستطيع ان نرتب التطور السلوكي في مراحل عامة على النحو الآتي :

من ٤ أسابيع الى ١٦ اسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته الحركية .

من ١٦ الى ٢٨ اسبوعا يستطيع الرضيع السيطرة على عضلاته التي تحمل راسه وتحرك ذراعه ، وهذا ما يجعله يبدأ في محاولة الوصول الى الأشياء البعيدة من جسمه .

من ٢٨ الى ٤٠ اسبوعا يسيطر على جلعه ويديه ، وهذا يمكنه من الجلوس والتقبض والانتقال وبدأول الأشياء بيديه .

من ٤٠ الى ٥٢ اسبوعا تمتد سيطرته الى ساقيه وقدميه والى أصابعه . كما انه يستطيع ان يقف ، وخلال السنة الرابعة يسأل أسئلة كثيرة ، وبدأ في التعميمات وتكوين بعض المفاهيم البسطة - أما في الحياة اليومية المنزلية ففي هذه المرحلة يبدأ في الاعتماد على نفسه ويبدأ هذا الاعتماد حتى نهاية السنة السادسة حين يبدأ بالتعامل مع بيئته حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة كما سبق ايضاحه .

ونظرا لان هذا البحث يتعلق بالنمو الجسمي لمحتوى الطفولة فان التركيز سيكون على مرحلة الطفولة المبكرة التي تنحصر بين السادسة والثانية عشرة ومع هذا فلا يمكننا ان نتجاهل المراحل السابقة وهي ما قبل الميلاد ومرحلة الرضاعة والحضانة بالقدر الذي نوضح به تأثير هذه المراحل على مرحلتى الطفولة . الا ان دراستنا ستكون طويلة فنتبع مظاهر معينة منذ الولادة حتى نهاية الطفولة دون تقسيم لهذه المراحل في هذا التتبع ولكننا سنفرد جزءا خاصا موجزا عن مرحلة ما قبل الميلاد نظرا لتمييزها وارتباط مظاهرها ارتباطا يضطرنا الى دراستها كوحدة متكاملة .



● مرحلة ما قبل الميلاد ●

منذ القدم تداولت افكار أغلبها خرافية عن تأثير خبرات الأم على تطور الجنين في بطنها، فنواحي الشلذوذ الجسمي والعقلي في الطفل كانت ترمى لتأثير دم الأم ، ولكن الآن بعد ان اوضح العلماء ان دم الطفل ودم الأم لا يختلطان، واتضح ان دم الجنين انما يتكون من الاوكسجين

● الماير الخاصة بالنمو المبكرة في هذا البحث مستعينة

HURLOCK, E.B. : Child development M.C. Graw-Hill Book Company

والماء والمواد الغذائية التي تمتص الى دم الجنين من طريق تركيب يشبه المصفاة تعادل الرأى السابق . وقد اتخذت دراسة الجنين أساليب متعددة يمكن تلخيصها في :

- (١) التقارير التي تقدمها الأم عن تحركات الجنين .
- (٢) صوت ضربات الجنين والحركات التي يمكن تتبعها بأدوات تتصل ببطن الأم .
- (٣) الملاحظة المباشرة لأجنة اخرجت من طريق العمليات الجراحية من بطون أمهاتهم .
- (٤) دراسات الأجنة في الحيوان .

ولسنا بصدد توضيح لعملية الوراثة في هذا المجال لشرح التكوين الكروموزومى للجنين بما فيه من مورثات ، كما لا نعتينا أيضاً الأساليب الموضوعية والعلمية لتحديد جنس الجنين قبل الولادة ، ولكن الذي يعنيها ما يتصل بما يكون عليه الجنين عند ولادته مباشرة . فبمجرد أن تلقح البويضة بالحيوان المنوى الذكرى يبدأ النمو ويتطور من خلية واحدة الى طفل قد يصل تكوينه الى ٢٠٠ بليون خلية من أنواع مختلفة ، يتم هذا كله خلال تسعة اشهر في المعتاد ، ويظهر التغير من خلية مفردة ليس لها قدرة في ذاتها الى طفل يتكون من عظام وعضلات وجلد وأعضاء داخلية وجهاز عصبي مستعد للعمل حتى قبل الميلاد . وتدل البحوث على أن النمو لا يتخذ فقط صورة ظهور أعضاء جديدة بل قيام الجسم بوظائف جديدة كذلك بحيث يبدو النشاط على الجنين متخذاً صوراً مختلفة .

وقد وجد أن بعض الأجنة تكون نشطة خلال ٧٥٪ من وقتها ، بينما نجد أن بعضها الآخر لا يملأ نشاطها أكثر من ٥٠٪ من وقتها . وبعض الأجنة تدير رأسها ، وقد بينت الدراسات أن الحركة في كل أجزاء الجسم تحدث في أوقات محددة يمكن التنبؤ بها على قدر من الدقة ، وقد تبين أنه حتى في حالة الأطفال الذين يولدون من طريق عملية جراحية فإن الحركة تسير تبعاً لنفس النمط وهي تشبه حركة للدودة بانقباض الاذرع والساقين . ويمكن تقسيم حركة الوليد الى نوعين .

- (١) نشاط عام يتضمن جزءاً كبيراً من الجسم .

(٢) افعال منعكسة أكثر تحديداً ، وحركة الوليد تتوقف على عوامل كثيرة فبعد الولادة مباشرة تقل الحركات في الدقائق الخمسة الأولى ثم تزداد تدريجياً حتى الدقائق الثلاثين الأولى . وقد وجد أن الأطفال الذين كانت حركاتهم زائدة وهم في بطون أمهاتهم يكتسبون بعض المهارات الحركية في وقت اسرع بعد ميلادهم من الأطفال الذين كانت حركاتهم قليلة ، وعلى العكس بالنسبة للتوافق مع البيئة الخارجية فالأجنة الكثيرو والحركة يجدون صعوبة أكثر من الأجنة قليلي الحركة في توافقتهم مع بيئتهم ، وهناك دراسات عديدة تدور حول أثر طريقة الولادة على نمو الطفل الجسمي والعقلي بصدد ذلك ولكن أغلبها غير مؤكد ، اللهم إلا إذا كانت الولادة العسرة قد أحدثت فضلاً طفيفاً في دماغ الطفل نتيجة استخدام الأدوات الميكانيكية في اخراج الطفل ، فقد وجد وايل وديفر Wile, S. and R. Davis أن الأطفال الذين يولدون

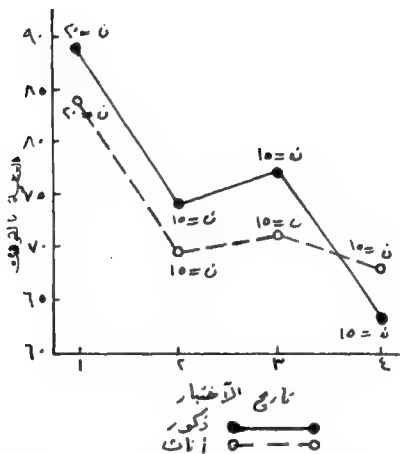
بمساعداً ميكانيكية تظهر عليهم زيادة الحركة من المعتاد وعدم الاستقرار ، ثم في كبرهم يجدون صعوبة في التعلق وفي تركيز الانتباه أكثر من غيرهم ممن يولدون بالطرق العادية ، إلا أنه لا يؤكد أن هذه النتائج المتأخرة تعزى حتماً إلى أسلوب الولادة ، وبوجه عام فإن مشكلة تلف الدماغ أثناء الولادة ليست شاملة للدرجة تستحق معها معالجة نظرية خاصة . فنسبة من يولدون بتلف في أدمغتهم لا تتعدى ٧٥ ٪ من الأطفال الأحياء .

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن نوع تغذية الأم وكمية ما تتناوله من غذاء يؤثر في حجم المولود ، فهناك علاقة بين حجم المولود وكمية البروتين الذي تتناوله الأم أثناء الحمل كما ظهر لدى كثير من الباحثين ، كما أن ميرديث Meredith يشير إلى أن المولود الأول يكون أصغر حجماً من المواليد بعد ذلك (٥) .

أما من نشاطه فإن حركاته تكون عشوائية سواء كانت حركات كلية أو جزئية ، فإذا استثير أى جزء من الجسم في النوع الأول من الحركات فإن الجسم يتحول كله كجزء واحد ، وقد يكون أكثر شدة في الجزء المستثير ، والحركة في هذه الحالة تكون غير متناسقة ويكون أكثر أجزاء الجسم نشاطاً هو الجذع والساقان ، وهناك فروق فردية بين الأطفال حديثي الولادة في كمية هذه الحركة . أما النوع الثاني فيتمثل في حركات خاصة كالتركيز البصري على الضوء ، والحركات التلقائية للعينين ، والحركات المنتظمة للقدم ، والتثاؤب ، وتحريك ورفع الرأس ، والحركات العشوائية لليدين والساقين ، ومد الذراعين والقدمين .

وعند الميلاد تكون أعضاء الحس مستعدة للعمل ، إلا أن بعض هذه الأعضاء تكون أكثر اكتمالاً ونشاطاً من غيرها ، فحاسة الشم والذوق والاحساسات الجلدية (كاللمس والضغط والألم والحرارة) كما أن الاحساسات العضوية (كالجرع والمطش) كل هذه تكون أكثر استعداداً للعمل قبل غيرها (مثل النظر والسمع) التي تتأخر قليلاً ، كما أن الاحساس بالألم يرداد بسرعة بعد الميلاد بسرعات مختلفة في مواضع مختلفة من الجسم ، فعتبة الألم تكون أقل في الرأس عنها في الأطراف ، وهناك فروق فردية أيضاً لدى الأطفال حديثي الولادة للاحساس بالألم كما يتضح من شكل (٢) .

تلك باختصار أهم المظاهر التي تهتمنا في دراسة هذه المرحلة التي تقودنا بعد ذلك إلى دراسة الطفولة بمراحلها ، ولن نقسم الدراسة تبعاً لهذه المراحل ، متبعين في ذلك الطريقة العرضية بل نفضل في هذه المعالجة الطريقة الطولية ، فسنناول المظاهر والمهارات التي تظهر على الطفل واحدة واحدة متتبعين تطورها منذ ولادته حتى نهاية طفولته ، مبينين السنة التي يظهر فيها كل تغير حتى نتضح معالم التطور الذي يحدث في هذه الامكانات كل على حدة وسندخل في هذه الدراسة مرحلتا الرضاعة والحضانة ، دون الحاجة إلى فصلها وتمييزها ومنطلق على هذه المراحل معاً الطفولة المتقدمة والمتأخرة مندمجتين ، فتمتد الدراسة في هذا الجزء لتشمل حياة الطفل من الميلاد حتى نهاية السنة الثانية عشرة .



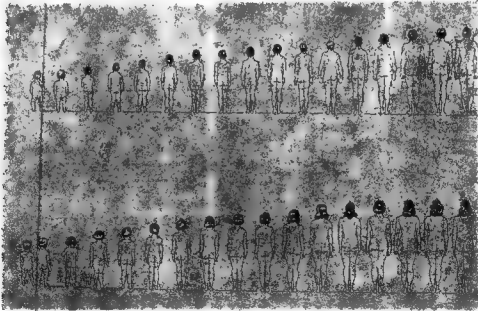
شكل (٢) الفروق الفردية في تنبؤات الارتفاع عند الرضع الذكور والإناث مأخوذ من (١٩)

(الطفولة المتقدمة والمتأخرة)

دورات النمو : ينمو الطفل عادة في دورات ولا ينمو بانتظام ، فالطفل مثلا يزداد وزنه عددا ثابتا من الأبطال شهريا ، أو يزداد طوله مددا من البوصات بانتظام في كل فترة . ولقد بينت دراسة النمو أن هناك أربع دورات للنمو اثنتان منها تتميزان بنمو بطيء والاثنتان الأخريان تتميزان بنمو أسرع من ولادة الطفل حتى استقراء نموه في نهاية مرحلة النفج . وتتم منها مرحلتان حتى نهاية الطفولة المتأخرة . فمن وقت ميلاد الطفل الى نهاية السنة الثانية تزداد سرعة النمو ، يلي ذلك فترة من النمو البطيء وتتم في نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة حوالي السنة الثانية عشرة .

وينطبق هذا على النمو بوجه عام كما ينطبق على الأعضاء الخاصة وأجزاء الجسم المختلفة ، فالنمو بها يتم على دورات منتظمة وثابتة كذلك .

لكل عضو أو جزء من الجسم فترة خاصة من النمو السريع أو البطيء ، وكل منها يصل الى حجمه الناضج في وقت خاص به وهذه الظاهرة يطلق عليها « النمو المنفصل Asynchronous growth » وبالرغم من أن هناك معامل ارتباط موجب بين نماذج النمو في الأعضاء المختلفة أو في المظام فإن في كل مجال من مجالات جسم الطفل تباين كبير في سرعة وبطء النمو



شكل (٣) مميزات الفروق الجنسية في النمو الجسمي مأخوذة من (٧) ويتضح في الشكل دورات النمو في الجنين

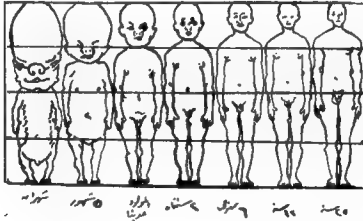
في اية مرحلة من مراحل الطفولة . ويبدو هذا بوضوح أكثر في مرحلة المراهقة كما يتضح من شكل (٤) .

ولقد أوضحت منحنيات النمو المتعلقة بطول القامة والوزن أنه إذا استثنينا السنة الأولى من العمر فإن نمو الوزن يسير بسرعة أكبر من نمو الطول كما يتضح من شكل (٥) . وفي المراحل الأخيرة من الطفولة (الطفولة المتأخرة) فإن الأطراف تنمو أسرع من الجذع ، لدرجة أن الطفل في هذه المرحلة يبدو وكأنه لا يتكون إلا من يدين ورجلين .

وتبدو قاعدة النمو المنفصل أيضا في الوجه، حيث ينمو الجزء الأسفل أسرع مما ينمو الأعلى ، وخاصة بين سن الخامسة والثامنة من عمر الطفل . كما بينت بحث Duggins التي نشرها سنة ١٩٥٠ أن شعر الرأس يزداد حجمه بانتظام خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الطفل ، ثم يسير النمو بدرجة أبطأ بعد ذلك (٦) .

كما أن هذه القاعدة تنطبق أيضا على العضلات والعظام والرتين ، حيث تزداد نموا حتى مرحلة التضج بما يقرب عشرين مرة من حجمها الأصلي ، بينما نجد أن العينين وحجم المخ وبعض الأعضاء الأخرى التي تكون أكثر تضجفا في وقت الميلاد لا تزيد كثيرا من حجمها خلال مراحل النمو .

وبالإضافة إلى قاعدة النمو المنفصل نجد قاعدة أخرى تسير في اتجاه عكس وهي قاعدة « اتجاه النمو » Developmental Direction فهناك اتجاه عام لنمو الوظائف والأعضاء المختلفة ، ففي جميع أجزاء الجسم نجد أن التغيرات في أجزاء الجسم لها قاعدة معينة أيضا ، فالتغيرات في نسب الجسم تكون طفيفة خلال الأشهر الستة الأولى من حياة الطفل ، ومن



شكل (٤) تطور أبعاد الجسم من الميلاد حتى التضج مأخوذة من (١١) ويتضح فيه بحد نمو حجم الرأس وسرعة نمو الأطراف

هذا الوقت حتى نهاية النضج نجد أن حجم الرأس ينمو ببطء والأطراف تنمو بسرعة والجلد ينمو بسرعة متوسطة كما أن المخ ولامع الوجه تنضج وتصل الى نهاية تغيرها في الحجم قبل أن تصل باقى الاعضاء وأجزاء الجلد والأطراف الى هذه المرحلة من نهاية النمو .

ولنتناول الآن نمو أجزاء الجسم ومعالجه بشيء من التفصيل واحدة واحدة من وقت الميلاد حتى نهاية الطفولة المتأخرة دون أن نهتم بالتقسيمات الداخلية في هذه الفترة حتى تتضح وحدة النمو وتكاملها في هذه الفترة التي تعتبر وحدة أساسية في حياة الإنسان ونفصلها فيما يلي :

أ - حجم الجسم وطول القامة والوزن ،

ب - نسب الرأس والوجه ،

ج - نسب الجلد ،

د - نسب الذراعين والساقين ،

هـ - العظام والمضلات ،

و - الأسنان ،

ز - الجهاز العصبي ،

١ - حجم الجسم : طول القامة والوزن

يتحكم في نمو حجم الجسم الهرمون الخاص بالنمو Growth Hormone الذى يفرز من النصف الداخلى للغدة النخامية . فاذا كان إفراز هذا الهرمون بدرجة معتدلة وفي الوقت المناسب فإن حجم الجسم ينمو بدرجة معتدلة ويصبح الجسم عاديا مناسباً لمرحلة النمو التى يمر بها الطفل ، أما اذا قل إفراز هذه الغدة من المعتاد فإن نمو حجم الجسم يتوقف قبل أن يصل الى نهايته المعتادة ولا يصل الطفل الى الحجم الذى يؤهله له امكانياته الوراثية ، أما اذا زاد إفراز هذا الهرمون فإن النمو يزداد عن طبيعته ، ولا يتوقف حجم الجسم على هذا الإفراز وحده بل يتعلق كذلك بإفرازات غدد أخرى كالغدة الدرقية وغيرها .

أما فيما يتعلق بطول القامة فإنه بالرغم من الاختلافات الواسعة التى توجد بين طول قامة الأطفال في مرحلة معينة فإن هناك نموذجاً تشابه فيه جميع أطفال المرحلة الواحدة . ويمكننا أن نضع هذا النموذج في صورة معدلات نعطينا صورة واضحة للنمو العادى للطفل العادى . فالولود في وقت ولادته يبلغ بين ١٩ ، ٢٠ بوصة (نصف متر تقريباً) في طول القامة ، وائشاء السنتين الأوليين تزداد سرعة نمو طول القامة حتى يصل في الشهر الرابع الى ٢٣ بوصة أو ٢٤ بوصة (٦٠ سم تقريباً) وعندما يصل الطفل الى الشهر الثامن يصل

طول القامة الى ٢٦ أو ٢٨ بوصة (٦٥ - ٧٠ سم) . وعند تمام السنة الاولى يرتفع الطول الى ٢٨ - ٣٠ بوصة (٧٥ سم تقريبا) . وفي نهاية السنتين يصل طول القامة الى ٣٢ - ٣٤ بوصة (٨٥ سم تقريبا) . حتى يصل الى سن الخامسة يرتفع طول القامة الى ضعف ماكان عليه وقت الميلاد (متر تقريبا) ومن ذلك الوقت حتى مرحلة المراهقة نجد ان طول القامة يزداد ببطء بمعدل ٣ بوصات في كل سنة . ومن الطبيعي ان يختلف طول القامة في البنين عنه في البنات ، فبما ان مرحلة المراهقة تبدأ في البنين متأخرة عنها في البنات قليلا (قد يكون الفرق ستة اشهر) فان طول قامة الولد غالبا ما تقل بوصة أو نصف بوصة عن البنت العادية ، كما ان هذه المعايير لا بد وأن تختلف باختلاف البيئات ، فقد تنخفض قليلا في البيئات العربية عنها في البيئة الامريكية التي أجريت فيها هذه البحوث ، فالمتحنيان المرسومان في شكل (ه) يمثلان تدرج الوزن والطول لاجل الاطفال الامريكيين .

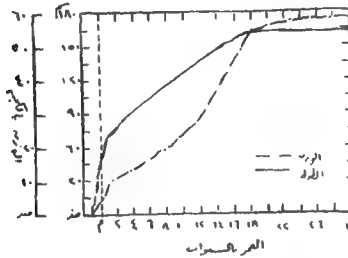
والتنبؤ بطول قامة الطفل يمكن احرازه بقدر لا بأس به من الدقة اليوم باستخدام الاشعة السينية لطول العظام ، وبالإضافة الى ذلك فان قامة الطفل تميل دائما لان تزداد زيادة مرتبطة بطول قامة الوالدين ، وبذلك نجد ان طول قامة الوالدين تصلح في التنبؤ بطول قامة الطفل . وقد وجد بايلي Bayley ان معامل الارتباط بين طول قامة الطفل وطول قامة والديه يزداد كلما نما الطفل وازداد عمره، وهذا يريد من قيمة التنبؤ مع ازدياد مرحلة نمو الطفل (٧) .

اما عن الوزن فان وزن المولود عند الميلاد يتراوح بين ٦ و ٨ أرطال (ما يعادل ٣ او ٣ ١/٢ كيلو جرامات تقريبا) ، وقد يقل الوزن كثيرا من ذلك في حالة بعض الاطفال ، فقد يصل الى نصف ذلك بينما قد يصل البعض الى ضعف ذلك ، ولكن هذا الاختلاف في وزن الاطفال قد يسير بنفس النظام بمعدل ذلك . ففي نهاية الشهر الخامس نجد ان الرضيع العادي لا ينحصر نموه في تغطية الوزن الناقص أثناء الميلاد بل يستطيع ان يضيف عليه بقدر اضافي من النمو ، ففي نهاية الشهر الرابع نجد ان وزن الرضيع العادي يعادل ضعف وزنه عند الميلاد . وفي نهاية العام الاول نجد ان الوزن قد بلغ ثلاثة اضعاف هذا الوزن عند الولادة . وفي خلال العام الثاني والثالث نجد انه يكتسب من ٣ الى ٥ أرطال سنويا ، الا ان الوزن بعد السنة الثالثة يتزايد ببطء نسبيا الى ان يبلغ الطفل بداية المراهقة ، ففي نهاية السنة الخامسة ينبغي ان يصل وزن الطفل الى خمسة اضعاف وزنه عند الميلاد ، وفي بداية المراهقة او عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة يتراوح الوزن بين ٨٠ و ١٠٠ رطلا (ما يقرب من ٤٠ كيلو جراما) .

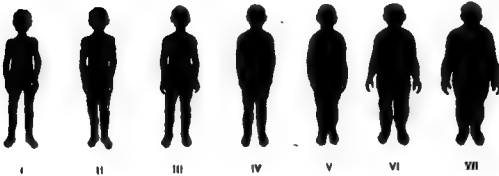
يزداد وزن البنت قليلا عند بداية المراهقة و نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، حيث تزن في المتوسط ٨٨ رطلا بينما يقل الولد العادي أقل من ذلك بثلاثة أرطال تقريبا .

والمعايير التي توضع لكل طفل في أية مرحلة تتوقف إلى حد كبير على البنيان الجسمي
Body built ويمكن تقسيم هذا البنيان الجسمي إلى ثلاثة أنواع :

- ١ - النوع المكتن Endomorph ويتميز بجسم زائد السمكة .
- ٢ - النوع المفتول Mesomorph ويتميز بجسم ثقيل ومتين .
- ٣ - النوع الدقيق Ectomorph ويتميز بجسم طويل ملتف ذي عضلات ملتفة رفيعة نسبياً وعظام طويلة ورفيعة .



شكل (٥) منحنى نمو طول القامة والوزن . مأخوذة من (١٨)



شكل (٦) أنواع البنيان الجسمي مدرجة (I) النوع العليق جيد (II) النوع العليق (III) النوع العليق نوعاً
(IV) النوع المختل (V) النوع المختل نوعاً (VI) النوع المختل (VII) النوع المختل جداً الرسم مأخوذ من (١) .

وازداد الوزن أثناء النمو لا يتوقف على إزداد نسبة الدهن في الأنسجة بل يتوقف أيضا على إزداد حجم العظام والأنسجة العضلات . اما في مرحلة الحضانة فان الإزداد في الوزن يرجع أساسا الى إزداد الأنسجة الدهنية ، نظر الإزداد كمية الدهن في اللبن الذى يعتبر الوجبة الاساسية في هذا السن ، وكلما نما الطفل وتقدم في مراحل نموه فان وزنه يرجع الى نسبة العظام والعضلات أكثر من الأنسجة الدهنية . وفي المراحل المتأخرة من الطفولة تقل أهمية الأنسجة الدهنية عن ذلك حتى تصبح مسئولة عما يقرب من ٢١ الى ٢٩ ٪ من الوزن الكلى للطفل (أ) .

ب - نسب الرأس والوجه :

ينمو حجم الرأس بسرعة أقل نسبيا من باقي الجسم منذ ولادة المولود . فعند الميلاد نجد ان طول الرأس يبلغ ٢٢ ٪ من طول الجسم كله ، فاذا بقيت النسبة كما هي لأصبح طول الرأس في نهاية النضج ما يقرب من ١٦ بوصة بدلا من ٨ او ٩ بوصات كما هي في الواقع . فمن وقت الولادة الى نهاية النضج نجد ان طول الرأس يبلغ ضعف ما كان عليه عند الميلاد بينما يبلغ طول القامة ما يقرب من ثلاثة أمثال مكانا عليه ، واذا رجعنا الى مساحة الرأس وقت الميلاد وجدنا ان المساحة الكلية للرأس تبلغ ٢١ ٪ من المساحة الكلية للجسم ، بينما تصل نفس النسبة الى ١٣ ٪ بعد خمس سنوات و ١٠ ٪ عند نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة ، واذا فحصنا أبعاد الرأس وجدنا ان مؤخرة الرأس تكون أكبر حجما من الجزء الوجهي من الرأس وتكون النسبة بين عرض الرأس وطوله أكبر منها في الأطفال عن الكبار ، فعرض الرأس يكون قد وصل الى نهاية نموه عندما يصل الى الثالثة من عمره ، ولكنه يستمر في الزيادة في الطول حتى بعد نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة .

والنموذج الذى تتبعه زيادة الرأس طولا وعرضا لا يختلف في البنات عنه في الاولاد ، ولو ان رأس الولد يكون عادة أكبر حجما قليلا من رأس البنت في جميع مراحل النمو تقريبا .

ولنتناول الآن نسبة الوجه بشئ من التوضيح : نلاحظ ان الجزء الاسفل من الرأس أثناء فترة الحضانة ومرحلة الطفولة الاولى يكون صغيرا وناقص النمو ، ويرجع ذلك أساسا الى صغر أسنان الطفل الصغير ، وتزداد نسبة الهيكل الوجهي الى الجزء الخلفي من الرأس من بداية الولادة حتى نهاية السنة الثامنة ، وفي هذه السن يختفي مظهر الطفولة الاولى نتيجة لذلك ، حيث تحل مرحلة نمو سريع بين سن الخامسة والثامنة وخاصة بين الاولاد أكثر من اى وقت آخر . ولولا حدوث هذا التغير في نسبة الوجه لاصبحت العين في منتصف الوجه .

وبانتقال الطفل من مرحلة الرضاعة الى مرحلة الانسان الدائمة تزداد الوامة بين الفكين العلوى والسفلى ، وتصبح أسنان الفكين أكثر انطباقا ، وهذا يؤثر بطبيعية الحال على شكل الوجه في الطفل ، وسوء الوامة بين الفكين قد ينتج من عدم انتظام في نمو الفكين أو الاختلاف بين حجم الاسنان العليا والسفلى ، أو عن طريق مص الاصابع وخاصة قبل سن الخامسة ، أو التنفس عن طريق الفم أو الضغط على الذقن وخاصة في النوم على الوجه أو عض اللسان في مراحل الرضاعة .

وقد يؤثر سوء الموازنة بين الكفين على طريق المضغ عند الصغير وبذلك يؤثر على عملية الهضم، وبالرغم من أن هذا المظهر قد يتحسن مع تقدم النمو إلا أن العلاج التصحيحي قد يكون لازماً في مثل هذه الحالات حتى تنمو لدى الطفل معالم صحيحة للوجه مع وجود الأسنان واللثة في نسبها المعتادة، وخطوطها المعتدلة.

ويتقدم النمو تحدث تغيرات في معالم الوجه وشكله، فمنذ البداية تكون مقدمة الوجه كبيرة مستديرة وبارزة، ثم تصبح مسطحة تدريجياً، وتقل في الحجم بالنسبة إلى باقي الوجه حتى يصل الطفل إلى الخامسة من عمره، وتبلغ العينان حجمهما الأقصى كلما اقترب الطفل من نهاية مرحلة طفولته المتأخرة، وتنبأ العينان بعضهما من بعض، كما أن الشفتين الرفيعتين تزدادان امتلاء حتى تصلان إلى شكلهما الثابت عندما ينضج الطفل جنسياً.

ولعل الأنف هو العضو الذي يبدو في الطفولة أقل تناسباً من باقي أجزاء الوجه، فهو يكون في البداية صغيراً وأكثر انبساطاً وتسطحاً على الوجه، ومن سن الخامسة إلى العاشرة ينمو بسرعة أكبر من أي جزء آخر بالوجه، وينتج عن ذلك أن الأنف هو أول أجزاء الوجه التي تصل إلى نهاية نموها، وهذا يحدث في حوالي الرابعة عشرة.

ونلاحظ أنه كلما نمت أعضاء الوجه وقربت من نهاية نضجها يزداد الوجه تحديداً وتثبت ملامح الوجه مع تقدم النمو (١٠٩). (راجع شكل (٤) في هذا البحث).

(ج) نسب الجذع

إن زيادة وزن الطفل أثناء نموه تؤدي طبيعياً إلى صعوبة اتزان الجسم ويجب العمل على تخفيفها قبل أن يتعلم الجلوس أو الوقوف أو المشي، فكلما كبر الطفل فإن التغيرات في نسب الجسم اللازمة لحصوله على الاتزان المناسب تتحقق من طريق استطالة الجذع والساقين والرقبة، وإذا وصل الطفل إلى سن السادسة فإن طول جلعه وعرضه يصل إلى ما يقرب من ضعف طوله وعرضه عند الميلاد، ومنذ ذلك الحين حتى البلوغ فإن طول الجذع يزداد بما يقرب من ٥٠% مما كان عليه، ورقبة الطفل في مرحلة الرضاعة تكاد لا توجد، حيث يستند رأسه تقريباً على كتفيه، وبالتالي يزداد في مرحلة الطفولة الأولى يظهر له رقبة قصيرة مثلثة تنصل بكتفيه المتحدريين. وحوالي سن الخامسة تبدأ القبة في الاستطالة وتبدو أكثر استدارة، بينما يأخذ الكتفان في أن يكونا أكثر عرضاً وأكثر ثباتاً، وكلما انخفض الكتفان مع استطالة الرقبة فإن وزن الطفل يزداداً تناسباً وتوزعاً على أنحاء جسمه.

كما أن شكل الجذع أيضاً تحدث به تغيرات سريعة، ففي السنة الأولى يكون جسم الطفل أكثر سمكاً من أي مرحلة أخرى ويرجع ذلك إلى الزيادة الكبيرة في المحيط العرضي من الطول. وحتى سن الرابعة أو الخامسة يكون شكل الجذع شبيهاً بالكيس حيث لا يتميز فيه خط الوسط بشكل ظاهر، كما يكون الكتفان منحدرين ويكون الصدر مستديراً ويكون البطن بارزاً مستديراً، ومنذ ذلك الحين حتى نهاية مرحلة الطفولة يحدث نقص تدريجي في كثافة وامتلاء

الجلد ، ويتجه الجسم لأن يأخذ الشكل المخروطى أو الاسطوانى المنبسط المنسق الذى يتميز فيه الوسط عن باقى الجسم . وفى هذا الشكل المخروطى فان الاكتاف تأخذ الشكل المستطيل المستعرض وخاصة عند الاولاد ، كما ان شكل البطن ينبسط ويقل امتلاؤه واستدارته وبروزة ، ويصبح خط الوسط ظاهرا بشكل واضح ، كما ان الحوض يصبح أكثر عرضا واقل استقامة .

وبطبيعة الحال فان شكل الجذع عند الكبار البالغين يتأثر كثيرا بالسن الذى تنضج فيه المظاهر الجنسية. فقوم الذكر الذى يتصف بعرض في الكتفين وضيق في المقدين يظهر في الاولاد العاديين ، والبنات اللواتى تبدو لهن اكتاف مريضة هن اللواتى يتأخر نضجهن ، وبوجه عام فانه بدون اعتبار للسن الذى يتم فيه النضج فاننا نلاحظ ان الشكل الصام للجلد عند البنات يختلف عن الشكل العام لدى الولد ، فالاجزاء التى يتميز النمو فيها في الولد غالبا ما يقل النمو فيها عند البنات ، وتعتبر هذه المميزات في كل جنس دليلا على ان النمو عند كل منهما لم يتخذ مجراه الطبيعى ، وقد يحتاج الى العلاج الذى يعيد لكل فرد من الجنسين الشكل المميز لجنسه ، وهذه الفروق بين الجنسين تختلف مرحلة ظهورها بشكل مميل باختلاف البيئة ، فهى عند الشرقيين تختلف الى حد ما عنها عند الغربيين وقد تقل او تظهر بشكل اوضح في بيئة عن غيرها (١١) .

(د) نسب الذراعين والساقين

ان التغيرات التى تطرأ على نسب الذراعين والساقين اثناء مراحل العمر المختلفة هى التى تعطى الجسم صورة الجسم البشرى وتبعده عن الصورة الحيوانية . فعند الميلاد يكون ساقا الوليد قصيرين بشكل ظاهر بالنسبة لابعاد اجزاء الجسم المختلفة ، كما ان الذراعين يكونان زائدي الطول ، وتكون اليدين والساقان صغيرين نسبيا . فحين اذا تصورنا انطباق نفس الوليد على الشخص البالغ فان ساقى الشخص البالغ تلبغان من القصر حدا يجعل مقدميه في مستوى يعادل مستوى الركبتين او اعلى قليلا ، وهذا ما يوضح ضرورة اختلاف السمة التى تنمو بها الاجزاء المختلفة من الجسم .

فالذراعان والساقان تنومان بمقدار ٦٠ الى ٧٥ ٪ من وقت الميلاد الى ان يصل الطفل الى سنتين من العمر ، وعندما يبلغ الطفل سن الثامنة فان الذراعين يرداد طولهما بمقدار ٥٠ ٪ على طولهما في سن الثانية . ونظرا الى قلة سمك الذراعين عادة لدى الطفل بالنسبة لجذعه فان النمو في عضلاتهما في الشخص العادى لا يكون ملحوظا ، ويكون للذراعين عادة شكل اسطوانى عام في هذه المرحلة . وبعد سن الثامنة ينمو الذراعان نموا بطيئا في معدل بالنسبة لطولهما ، بينما نموهما في السمك يرداد بشكل اوضح نظر الازياد عضلات الذراع في السمك والامتلاء .

اما الساقان عند المولود حديثا فتكونان قصيرتين متجهتين بطريقة تجعل بطن القدمين يتجهان كل منهما للآخر . وكلما نما الساقان ازدادا انبساطا واستقامة ، فعندما يصل الطفل الى سن السادسة ينهى ان يكون الساقان والركبتان مستقيمتين لا اعوجاج فيهما ولا تقوس ،

وخلال السنتين الأوليين في حياة الطفل تنمو الساقان بمعدل ٤٠٪ من طولهما الأصلي ، وعندما يصل الى سن الثامنة يزداد طول الساقين بمعدل ٥٠٪ من طولهما الأصلي عندما كان في سن الثانية ، ومعنى هذا أن الساقين ينموان بمعدل أبطأ من نمو الذراعين في بداية مرحلة الطفولة . وإذا طبقنا ما ذكر عن الذراعين فإن الساقين تبدوان رقيقتين وأسطوانيتين حتى نهاية سن الطفولة ، وفي الوقت نفسه عندما يبطيء سرعة نمو طول الساقين نجد أن الزيادة تتم في النمو العضلي لهما وينتج عن ذلك تضخم ملحوظ في شكلهما . ونلاحظ أن الأطفال الذين يكون نموهم مبكراً من الأطفال العاديين يميلون لأن يكون لهم ساقان قصيران مختلفان عند تمام نضجهما ، بينما نلاحظ أن الأطفال الذين يتأخر نموهم عن المعتاد عادة ما يكون لهم ساقان طويلان أسطوانيان .

وإذا تعرضنا لليدين والقدمين وجدنا أنهما لدى الطفل الرضيع ينموان في الحجم كما ينموان أيضاً في الناحية العضلية قبل أن يتم استخدامهما ، فخلال الطفولة الأولى والطفولة المتوسطة (المرحلة المتوسطة بين سنوات نهاية مرحلة الطفولة الأولى وبداية مرحلة الطفولة المتأخرة) نجد أن الأصابع تكون قصيرة بسبب النمو البطيء للعظام ثم يزداد نموها بعد ذلك حتى يصل الى حجمها العادي بعد نهاية الطفولة المتأخرة (حوالي سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة) وهذا يحدث أيضاً في القدمين واليدين على حد سواء في وقت واحد ، ويلاحظ أن الأولاد عادة تكون أقدامهم أكبر من أقدام البنات ، وتصل الى نهاية نموها متأخرة من البنات ، ومن الطريف أن نعرف بأن البحوث قد دلت على وجود معامل ارتباط موجب بين حجم القدم وطول قامة الفرد (١١) .

(هـ) العظام والمضلات

ينحصر نمو العظام في ازدياد حجمها وفي مددها وفي تكوينها ، وهذه المظاهر كلها تتبع نفس السياق الذي سبق أن أوضحناه في ازدياد حجم الطفل ، ومعنى هذا أن النمو تزداد سرعته خلال السنة الأولى من العمر ، ثم تبطيء هذه السرعة نسبياً بعد ذلك حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة (راجع شكل (٤) من هذا البحث) .

ففي الشهور الأولى بعد الميلاد تكون انسجة العظام هشة وأسفنجية التركيب ، كما أنه تنشأ للوليد غضاريف أو أغشية سمكية في الأماكن التي تظهر فيها العظام بعد ذلك ، وتكون عظام الوليد محتوية على مقدار أكبر من الماء والمواد الشبيهة بالبروتين ، كما تحتوي على كميات أقل من المحتويات المعدنية من عظام الشخص الكبير البالغ . كما نجد أن هناك تدفقاً أكبر للدم وكمية من الأوعية الدموية وذلك لتزويد الطفل بالمواد اللازمة للنمو وتكون الاغشية الخارجية للطفل سمكية بالقدرة الذي يمنع به حدوث الكسور والمركبة . وفي ذلك الوقت نفسه تكون العظمة ضميعة الالتحام ببعضها وعلى عكس ذلك كثيراً ما توجد فجوات بين نهايات العظام .

ويكون نمو العظام كما ذكرنا في الطول من أطرافها حيث تتحول مواضع الالتحام بين العظام بعضها ببعض الى مناطق عظمية مع تقدم النمو . ومع وصول الطفل الى نهاية الطفولة

المتأخرة وبداية المراهقة تتوقف العظام من النمو. أما نمو العظام في العرس فينتج عن اضافة أنسجة عظيمة الى حافتها الخارجية فيتضخم السمك وتزداد العظام متانة . وازدياد المتانة والصوبة لا يحدث الا بعد الميلاد ، وتدرج من الجزء المتقدم من السنة الاولى حتى نهاية الطفولة المتأخرة وبداية المراهقة ، وينتج ذلك من تدخل عنصرى الكالسيوم والفسفور وبعض الأملاح المعدنية في تركيب العظام كلما تقدم النمو .

أما ما يتعلق بالعضلات فانها تلعب دورا فعلا في تنظيم نمو الاعضاء الاساسية للجسم كالقلب واعضاء الجهاز الهضمى والغدد ، كما انها المسئولة الاساسية عن قوة الجسم وتأثر النشاط . ففى وقت الميلاد تكون الالياف العضلية في حالة غير ناضجة ، وهذا ما يجعل الوليد ضعيف القوة وقليل النشاط ، وبالرغم من انه لا تنشأ أنسجة عضلية جديدة بعد الميلاد فان الانسجة الموجودة منذ الميلاد تنفر في الحجم والشكل والتركيب ، كما تزداد طولاً وعرضاً وسمكاً وينتج من ذلك زيادة في وزنها .

ففى الشخص العادى نجد ان وزن العضلات يزداد من وقت الميلاد الى نهاية النضج ما يقرب من ٤٠ مرة . وحتى سن الخامسة فان نمو العضلات يتم بنفس نسبة وزيادة وزن الجسم عامة ، ومن الخامسة حتى السادسة تزداد سرعة نمو العضلات وفى هذا الوقت تبلغ زيادة وزن الجسم عموماً ١٥ ٪ تقريباً من وزن العضلات فقط . أما بعد هذه المرحلة فان نمو العضلات يصبح بطيئاً نسبياً، ولكن يتبعها مرحلة تتميز بسرعة النمو ، كما انه مما يلاحظ كذلك ان العضلات فى الطفولة المبكرة تكون محتوية على قدر كبير من الماء وقدر قليل من الاجسام الصلبة والبروتينات اكثر مما يتوفر فى عضلات الشخص البالغ نسبياً . وبالإضافة الى ذلك فانها تكون اكثر رقة واقل متانة فى اتصالها بالعظام ويصل سمكها عند تمام النضج الى ما يقرب من خمسة امثال سمكها عند الميلاد . كما ان تكوينها يتحول من ٧٢ ٪ من الماء و ٢٨ ٪ مواد صلبة الى ٦٦ ٪ من الماء و ٣٤ ٪ مواد صلبة فى البالغ وينتج من ذلك ان العضلات تصبح اكثر صلابة وثباتاً ، فنجد ان الطفل تتولد لديه تدريجياً الدوافع القوية للقيام بالنشاط العضلى . وقد يمدفه ، وهذا ما يحدث كثيراً ، الى التخطير وعدم الاستقرار فى الحالات التى يجد نفسه فيها عديم النشاط .

وكاى وظائف عضوية اخرى نجد ان هناك فرقاً فردية واسعة فى القدرة العضلية لدى الاطفال ، فالافراد الذين يمتلكون العضلات العريضة السمكية يكتسبون قوة عضلية فائقة كما ان ذوى العضلات الصغيرة يبدون قدراً احسن من التأخر فى اوجه النشاط العضلى وبينما نجد ان بعض الاطفال تتمتع عضلاتهم بسرعة نجد ان البعض الآخر لهم عضلات لها قدرة كبيرة على التحمل والمثقة .

وتتوقف حالة عضلات الطفل جزئياً على امكاناته الوراثية وجزئياً على حالته الصحية فى الوقت الراهن وبوجه عام ، ومدى استخدامه لعضلاته ، فحتى فى الطفل الواحد نجد اختلافات فى حالة العضلات ، فهى بعد حالة المرض مثلاً غير حالتها قبله ، حيث نجده بعد حالة المرض

سريع الاجهاد والتعب . وبالرغم من أن الفروق بين نمو العضلات في الجنسين لا تكون ظاهرة بالقدر الكافي في الطفولة فانها تبدأ في الظهور بعد ذلك حيث تصبح عضلات الذكر اكبر وأقوى من عضلات الانثى منذ المراهقة (١٢) .

(١٢) الأسنان :

ينمو للطفل نوعان من الأسنان : اللبنية والدائمة ، وهذان النوعان يختلفان من نواح كثيرة .

(١) هناك عشرون فقط من الأسنان اللبنية ، بينما الأسنان الدائمة عددها اثنان وثلاثون .

(٢) يكون حجم الأسنان اللبنية اصغر من الأسنان الدائمة .

(٣) تكون الأسنان الدائمة أفضل جودة ونوعا من الأسنان اللبنية ، ولذلك تكون أكثر استدامة، وتبدأ عملية ظهور الأسنان منذ الشهر الثالث بعد الميلاد وتستمر هذه العملية فترة طويلة حيث تصل أسنان العقل الى نهاية حجمها من سن الواحدة وعشرين الى الخامسة وعشرين، ويكون ظهور الأسنان اللبنية مصحوبا بالآلام قد تسبب للرضيع فقدما للشهية وقد تجعله قليل الاستقرار ظاهر العصبية ، بينما الأسنان الدائمة قد تبرز من اللثة دون أن تصاحبها أية آلام .

وفي المعتاد تظهر أولى الأسنان اللبنية بين الشهر السادس والثامن ولكن سن الظهور هذا يختلف من طفل لآخر ويتوقف على الصحة والاستعدادات الوراثية والتغذية قبل وبعد الميلاد . كما أن للجنسية والجنس وبعض العوامل الأخرى أثرها في ذلك . وقد اتضح من الملاحظات العلمية أن الطفل العادي عندما يصل الى الشهر التاسع تكون ثلاثة من الأسنان اللبنية قد ظهرت له ، كما اتضح أيضا أن الإناث كقاعدة عامة يظهر السن الأول لديهن قبل الذكور ، ولكن بين الشهر التاسع والسن الثانية فإن الذكور يسبقون الإناث في ذلك .

أما ما يتعلق بالأسنان الدائمة فإن الطفل العادي عندما يصل الى سن السادسة يكون لديه سن واحد أو اثنان ، ويزداد عددها الى ١٠ أو ١١ سنا عند الثامنة ، ثم من ١٤ الى ١٦ سنا في سن العاشرة ، وفي الثانية عشرة قد تصل الى ٢٤ أو ٢٦ سنا ثم الى ٢٨ سنا حوالي سن الثالثة عشرة ، أما الأسنان الأربعة الأخيرة فهي أضرار السن العقل التي تظهر بين السابعة عشرة والخامسة والعشرين وقد لا تظهر اطلاقا .

وقد تظهر حالات تسوس الأسنان حتى قبل أن يكتمل نمو الأسنان الدائمة ، وهذه الظاهرة تظهر بنوع خاص أثناء النمو السريع للطفل حيث تكون مطالب التغذية أكثر الحاحا ، وتكون أغذية الطفل من اصناف ينقصها التنوع المتزن ولذا تظهر كثيرا في مرحلة المراهقة .

والمرحلة التي تفصل بين ازالة الأسنان اللبنية وظهور الأسنان الدائمة تمثل فترة تظهر فيها صعوبات في نطق بعض الحروف، حيث يوجد عادة فراغ في مقدمة الفكين بسبب صعوبة في نطق بعض الحروف ويظهر ذلك من حديث الطفل، ولهذا فإن معظم الاطفال يتعجلون ظهور الأسنان

الدائمة علاوة على ما يحدثه ظهور الانسان النائم من آثار نفسية على الطفل ، فهى دليل على اتجاه النمو نحو الاكتمال (١٣) .

(ز) الجهاز العصبى

ان نمو الجهاز العصبى يكون سريما قبل الميلاد خلال السنوات الثلاث أو الاربعة الاولى . وينحصر نمو الجهاز العصبى في فترة ما قبل الميلاد في ازدياد عدد وحجم الخلايا العصبية بينما ينحصر النمو بعد ذلك في تطور ونضج الخلايا التى لم تكن قد نضجت بعد عند الميلاد . وبعد سن الثالثة أو الاربعة يسير نمو الجهاز العصبى بسرعة بطيئة نسبيا .

اما ما يتعلق بنمو المخ فان دراسته دراسة مباشرة تصبح مستحيلة ، ولكن يمكن دراسته بطريقة غير مباشرة ، وتكون الدراسة تقديرية وليست دقيقة ، ويتم ذلك عن طريق فحص مخ الافراد بعد المات أو عن طريق قياس أبعاد الجمجمة في حالة الحياة .

وتدل هذه الدراسات على ان نمو المخ يكون سريما جدا من الميلاد الى نهاية السنة الرابعة ، وتبطىء سرعة نموه بين الرابعة والثامنة من العمر ، ثم يستمر النمو أكثر بطئا حتى حوالى سن السادسة عشرة أى بعد مرحلة الطفولة المتأخرة بكثير ، وعند ذلك يكون حجم المخ قد وصل الى نهايته ، ونظرا لأن عظام الجمجمة تكون مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا غير وثيق من طريق الأغشية خلال الشهور القليلة الاولى من الحياة فان فراغا كبيرا في حجم الجمجمة يترك لنمو المخ .

ومن حيث وزن المخ فان وزن المخ يبلغ في المتوسط ٣٥٠ جراما ، بينما يتراوح وزن مخ البالغ الكبير من ١٢٦٠ - ١٤٠٠ جراما ، ولعل النمو السريع في حجم المخ خلال السنوات الاولى من الحياة هو أحد الأسباب التى تؤدي الى إعطاء الجمجمة وزنها الثقيل نسبيا وحجمها غير المناسب .

ومهما كانت العلاقة بين نمو الاجزاء المختلفة من المخ والنمو العقلى للطفل فان ملاحظة سلوكه الاطفال تدل على انهم يكونون قادرين على التذكر وترايب المعاني بين الاشياء والاشخاص ، وعلى القيام ببعض الاشكال البسيطة من الاستدلال . وكلما ارتقى النمو ستة بعد سنة تردد هذه القدرات العقلية تطورا واكتمالا . وليس المجال في هذا البحث متعلقا بربط النمو الجسمى بالنمو العقلى فهو موضوع آخر يخرج عن نطاق هذا البحث (١٤) .



عرضنا في الجزء السابق بعضا من أهم مظاهر النمو الجسمى في الطفل من وقت ميلاده حتى نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة وقد رأينا (كما سبق إيضاحه) أن نورد النمو في هذه الفترة التى يمكن تقسيمها الى عدة فترات واحدة واحدة في كل مظهر من مظاهر النمو الجسمى حتى يسهل تتبعه وملاحظة سياق التطور دون قطع الدراسة بطريقة مصطنعة الى أجزاء تحدها هذه المراحل التفصيلية .

وبهنا الآن بعد ان اوضحنا هذا النمو الجسمى في هذه الفترة ان تنتقل من الجانب البنائى Structural الى الجانب الوظيفى Functional فنتتبع النمو الحركى حارشرين في هذا النمو ما يحدث من تطور في أهم المهارات الحركية التى تظهر لدى الطفل خلال هذه الفترة . ويمكن تلخيص أهمية النشاط الحركى في الجانب الآتية :

(١) ان الصحة الجيدة التى تعتبر حيوية بالنسبة لنمو الطفل وسعادته تتوقف جزئيا على تدريبه على المهارات الحركية ، فاذا كان تناسقه الحركى ضعيفا كان ادائه غالبا اقل من زملائه ، ولا يشعر الطفل بارتياح يذكر في قيامه بالنشاط الحركى ، ويقل بذلك دافعه للاشتراك فيه .

(٢) ان النشاط الحركى يخلص الطفل عادة من الطاقة الزائدة التى يزود بها ويجعله مقبلا على النشاط الذى يزيد من قوة عضلاته ويحسن صحته بوجه عام .

(٣) يعتبر النشاط الحركى أسلوبا من أساليب التغيير والترويح على الطفل ، فنشاط الطفل في اللعب بأدوات اللعب في الصغر يساعده على تركيز انتباهه واستخدام وظائفه العقلية ، ومن ثم يساعد على أحداث التغيير والمتعة في حياته .

(٤) كما ان النشاط الحركى يعطى الطفل فرصة للتفاعل الاجتماعى ، فالنشاط الحركى في الاطفال عادة لا يتم حينما يكون الطفل منفردا بل يؤدي الى الاتصال بغيره والتعامل معه .

(٥) يساعد النشاط الحركى الطفل على تنمية مفهوم الذات عنده ، فنجاح ادائه ايا كان يزيد من مشاعره بالامن تجاه البيئة التى يتفاعل معها .

وستتناول فيما يلى النمو الحركى في الاجزاء الآتية من الجسم :

(أ) منطقة الرأس .

(ب) الجذع .

(ج) الأطراف .

(أ) منطقة الرأس .

تبدا في هذه المنطقة بتأخر العين الذى يكون ضعيفا خلال الساعات الاولى من الميلاد ، ولكن ذلك يتحسن بسرعة ، لدرجة ان الوليد العادى في نهاية الشهر الرابع يكون قادرا على اغلب الحركات اللازمة في عينيه ، فهو في نهاية الشهر الثانى يستطيع ان يركز عينه على شيء ثابت وبعد شهر يستطيع ان يتتبع عادة شيئا متحركا . ولكن التناسق اللازم في حركة العين لا يكتمل عادة بشكل يمكنه من القراءة دون اجهاد للعين قبل ان يصل الطفل الى سن السادسة .

ومن الملاحظ ان انمكاسات الابتسام استجابة للمثيرات اللمسية والحركية تظهر على الوليد من نهاية الاسبوع الاول من حياته ، اما الابتسامة (الاجتماعية) لشخص أو استجابة لابتسامة

أخرى لا تحدث حتى الشهر الثالث من العمر . ويرى بعض الباحثين أن هذه الظاهرة تعتبر أولى الاستجابات الاجتماعية للطفل .

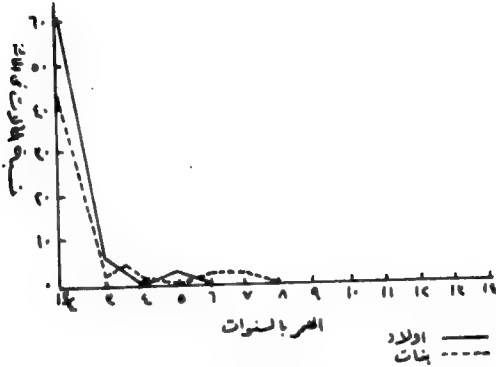
كما نلاحظ أيضا أن أغلب الأطفال الذين ولدوا حديثا يستطيعون أن يرفعوا رؤوسهم للحظات قصيرة ، فالوليد في الشهر الأول قد يحتفظ برأسه أفقية مستقيمة مع جسمه إذا حمل أفقيا ، وبعد شهرين يستطيع أن يرفع رأسه مائلة على الأفق بحوالي ٣٠ درجة وكلما تقدمت الشهور يستطيع أن يرتفع برأسه وصدره أثناء نومه . ثم يستطيع بعد ذلك أن يدير رأسه بإدارة كفيه واستخدام عضلات الجزء الأعلى من الجذع ، ولكنه لا يستطيع أن يحتفظ برأسه راسبة عندما يجلس دون مساعدة إلا عند نهاية الشهر السادس ، وبتقدمه في العمر تطول المدة التي يستطيع فيها الاحتفاظ برأسه على هذا الوضع (١٥) .

(ب) الجذع

أن دوران الجسم من جانب لآخر أثناء النوم لا يتوفر للطفل المولود ، ولكن عندما ينتهي الشهر الثاني فإن الوليد يستطيع أن يتنقل من النوم على جانبه إلى أن يصير نائما على ظهره وفي نهاية الشهر السادس يستطيع الرضيع أن يدير جسمه دورة كاملة . وقد لا يتم له ذلك دفعة واحدة ، بل يتم على مراحل ، وفي دوراته عادة يبدأ بمنطقة الرأس ثم الكتف ثم الجزء الأسفل من الجسم ، ومن طريق الدفع بالساقين يستطيع الرضيع أن يدير كل جسمه .

ويصبح جلده تحت سيطرته قبل أن يتمكن من الجلوس بنفسه فهو عندما يصل إلى الأسبوع العشرين يستطيع أن يجلس بمساعدة محتفظا بجسمه معتدلا . وبين الشهر التاسع والعاشر فإن الوليد العادي يستطيع الجلوس دون مساعدة لدقائق معدودة ، وفي بداية تعلمه الجلوس يميل بجسمه قليلا إلى الأمام ليحتفظ بتوازنه ، كما أن ذراعيه يكونان ممتدين على جانبي جسمه وكما يكون ساقيه مقوسين بقدميه متقابلين ليمطيه هذا الوضع حيزا كبيرا للارتزان .

ومن بين عضلات منطقة الجذع تكون أعضاء الإخراج وتأخر قدرة الطفل للسيطرة عليها وذلك لحاجتها إلى عضلات دقيقة ، فالتحكم في الإخراج معناه كف العمليات التي كانت بطبيعتها لا إرادية . وهذا التحكم لن يتم إلا إذا أصبحت عضلاته قوية ومتآخرة ، حتى يستطيع أن يمنع بذلك الفضلات التي تعمل على الخروج من الجسم . وبالرغم من أن هناك فروقا فردية بين الأطفال في القدرة على هذا التحكم إلا أن هذا يبدأ عادة عندما يتم الرضيع شهره السادس بينما التحكم في المثانة قد يتأخر حتى الشهور الخامس عشر أو السادس عشر حتى السنتين أو السنتين والنصف ، مع حدوث هفوات في حالة مرض الطفل أو إجهاده أو قلقه الانفعالي . أما الامتناع من التبول ليلا فإنه يحتاج إلى سنة أخرى من النمو . ويوجه عام فإن الطفل عند دخوله المدرسة ينبغي أن يكون قد اكتسب عادة التحكم في البول جنبا إلى حالات الإجهاد والقلق الانفعالي والاستثارة (١٦) .



شكل (٧) نمو عادات النظافة في الطفل (التحكم في التبول) مأخوذة من (١)

(ج) الأطراف

من أول ما يظهر في أشكال الحركات المتأخرة في الذراعين ينحصر في الحركات الدفاعية . وتبدو هذه من الأيام الأولى من الحياة . وتكون في بداية الأمر حركات ضعيفة التأخر والتنسيق ولكنها في نهاية الأسبوع الثاني بعد الولادة تكتسب قدراً كبيراً من التأخر - أما الوصول إلى الأشياء والقبض على الأشياء ، ما عدا في الحالات التي تلمس اليد الشيء صدفة ، فإنها تحتاج إلى قدر من التأخر بين العين واليد . حيث يجب أن تعمل العينان معاً ، ويرتبط عملهما بحركة اليدين . وفي المراحل الأولى من التأخر بين العين واليد ينظر إلى الشيء الذي أمامه دون أن يصل يديه إليه . وخلال الشهر الرابع يبدأ بالقبض على الأشياء ولكن بشكل بطيء وغير منتظم ، ويتحسن ذلك بعد شهرين . وبعد عدة شهور يستطيع الرضيع الوصول إلى الشيء بيديه والقبض عليه ثم يحوله مباشرة إلى فمه .

وفي انعكاس القبض على الأشياء Grasping Reflex الذي يظهر عند الميلاد أو بعد ذلك بقليل يقوم الإبهام والأصابع مقام الخطاف ، ويتم ذلك قبل أن يستخدم الرضيع يده لأغراض أخرى وفي هذه الحالة فإن الإبهام يعمل في اتجاه مخالف للأصابع ، ومعنى هذا أنه يعمل كوحدة منفصلة.

وانفصال الإبهام من باقى الأصابع يتم عادة بين الشهر الثالث والرابع ، أما اخذ الأشياء فانه يتأخر حتى الشهر الثامن أو التاسع . كما أن القدرة على القبض على أكثر من شيء واحد أو اخذها معا يظهر في شهور متأخرة . فالطفل المادى في الشهر الخامس ينبغي أن يكون قادرا على أن يقبض على شيء يقدم له ، بينما في الشهر السابع يستطيع أن يقبض على شيئين ، وفي الشهر العاشر على ثلاثة أشياء (١٧) .

ولنبدا الآن بالنمو الحركي في الساقين والقدمين : نلاحظ أن الحركات اللازمة للمشي تبدأ عند الميلاد أو حتى قبل ذلك . فالطفل المولود حديثا يقوم بحركات بقدمية تشبه الركلات أو تشبه الخطو ، ونتيجة لامتداد الساق والركلات فإن الوليد يتعلم التأزر بين عضلات ساقيه وجذعه ، ثم يتعلم بعد ذلك احراز الاتزان بين أجزاء جسمه ، وهذا كله أساسى لعملية المشي ولا يمكن تحقيقه في فترة زمنية بسيطة ، وكثير من الرضع يكون لديهم استعداد للمشي بين الشهر التاسع والخامس عشر ، فعظام وعضلات وأعصاب الساق والجلد تكون معدة لذلك ، ولكن الرضيع يلزمه الاستثارة والمعاونة من الكبار قبل أن يستطيع المشي .

ونشاهد أن الرضيع في نهاية الأسبوع الثاني يستطيع عن طريق حركات ساقيه أن يحرك جسمه من موضعه ، كما أن أول مظهر للانتقال يتم في الرضيع من طريق الرنس ثم الجبو الذى يبدأ في حوالى الشهر الرابع ، ويصل إلى قمة اتقانه بين الشهرين السابع والتاسع . وبعض الرضع لا يعمرون في هذه المراحل وينتقلون مباشرة إلى المشي ، بينما نجد الآخرين يقعون في مرحلة من هذه المراحل فترة قد لا تطول ثم ينتقلون إلى المشي .

وفي المراحل المتقدمة من الحركة التى تسبق المشي نجد أن الرضيع يقوم بحركات زائدة في أنحاء جسمه ، وبالتدريج ينتقل التأزر من الرأس حتى منطقة الساقين ، ويظهر التأزر جيدا ومتقنا في مرحلة الزحف ، ويتقدم هذه المهارات تزداد سرعة الطفل في الانتقال .

ويسبق المشي عادة القدرة على الوقوف ويحدث غالبا أن الوقوف مع المساعدة يسير جنبا لجنب مع الزحف ، والسن المتعاد للوقوف مع المساعدة لمدة دقيقة واحدة هو اربسون أسبوعا حتى خمسين أسبوعا . ولكي يحافظ الرضيع على توازنه فانه يقف متباعد الساقين وأصابع القدم متجهة للخارج والركبتان متقاربتان ، ويتجه الرأس والجزء العلوى من الجسم إلى الامام ، وبالتدرج يقلل الرضيع من الضغط الذى يبذله على من يساعده في الوقوف إلى أن يستطيع الوقوف بمفرده تماما .

ويستطيع بعض الصغار المشي بمجردوقوفهم بينما يتأخر البعض الآخر قليلا من الوقت حتى يكتسب الثقة في نفسه ليخطو الخطوة الأولى . ويحدث المشي التدريجي بمساعدة عادة مع الوقوف في وقت واحد . وفي دراسة لأحد الاطفال وجد أن فترة ٢٥ يوما قد مرت بين الوقوف بمفرده واتخاذ الخطوة الأولى في المشي .

وفى كل انواع الانتقال نجد ان الرضيع يحتفظ برأسه معتدلا حتى يكشف طريقه ، وفى المشى يكون الجسم معتدلا وتكون الحركة عن طريق تحريك الساقين وحدهما ، وكمساعدة لاحتفاظه بتوازنه فان ذراعى الرضيع تتجهان للخارج ، وتنتجه القدمان للخارج ، وتتصلب الساقان ، وتوجه المينان الى الامام دون اهتمام بالنظر الى الارض ، وكثيرا ما يتسبب عن هذا وقوع الصغير أثناء المشى لغيباب ما تحت قدميه عن نظره ولصعوبة اتزانه فى البداية ولقيامه بحركات زائدة لا تفيد فى عملية التحرك .

وبنمو الصغير يحدث تغيران فى عملية المشى :

(١) يتناقص ارتفاع مركز ثقل الساقين

(ب) ويتم بذلك سهولة فى الخطو . فبعد ان كانت الساقان ترتفعان الى اعلى مما يجب فى بداية المشى ، وبعد ان كان يبذل جهدا وطاقة كبيرين فى نقل قدميه وتتابع الحركة فيها بقل الجهد تدريجيا وتزداد الخطوة اتساعا ويقل ارتفاع الساقين ويتم ذلك حوالى السنة الثانية او الثالثة من العمر (١٨) .



اكتساب المهارات فى الطفولة

بعد ان يكتسب الطفل القدرة على التحكم فى حركاته الكبيرة يبدأ فى تنمية مهاراته ، ويقصد بذلك مجموعة النأزرات الدقيقة التى تلعب العضلات فيها دورا هاما . ويمكننا ان نصف المهارة بتصويرات خاصة بها مثل « آلة وسرعة ودقيقة ومرنة » وينبغى الا ننظر الى المهارة على انها عمل مفرد دقيق ، فكل مهارة مهما صغرت « حتى كتابة حرف من الحروف الهجائية هو سلسلة من مئات عمليات التوافق فى خلايا الجهاز العصبي ، وتصبح الحركة المعتمدة على اية مهارة عملية معقدة للغاية تتضمن عمليات من التكامل والتمايز فى الحركات الدقيقة ومراحل متتابعة من المحاولات وحذف الاخطاء . وتنقسم المهارات الحركية الى نوعين مختلفين :

(١) المهارات العضلية الكبيرة Gross Mucular Skills وهذه مثل الجرى والقفز والرفع والتسلق .

(٢) المهارات العضلية الدقيقة Fine Muscular Skills مثل الكتابة والعزف على الادوات الموسيقية الصغيرة ، او القيام بالاعمال الدقيقة التى تتطلب مهارة فى الاداء .

ومن خصائص المهارات ان تعلمها يؤدى الى « المادات الحركية » فانشاط الذى يتكرر حدوده بسهولة وارتياح يؤدى هذا التكرار الى اكتساب المادات التى تسهل من ادائه وتتابع الحركات فيه وتقليل الانتباه عند القيام به ، فتكرار الصغير لعملية الخطو والمشى يسهل من اداء حركاته وتتابعها بعد ذلك ، ويصبح المشى عادة حركية لا تحتاج الى تركيز الانتباه عند الطفل الكبير كما كانت تحتاج عند الطفل الصغير .

والمهارات لا يكفى مجرد النضج *Maturation* في ارتقائها بالرغم من ان الاساس في القيام بها فسيولوجى الطبيعة ، اذ يتطلب نضج الاعصاب والعضلات ومناطق المخ المتصلة بعمليات هذه المهارات ، والتحكم في أوجه النشاط الارادى المتأخر .

فبالإضافة الى النضج فان المهارات تتطلب تدريبا ، ولكن الاهم في التدريب هو كميته ونوعه ودقته ، فبالرغم ان المهارة تكتسب وتزداد إتقاناً مع تكرار المرات المتتالية ، الا ان نوع التدريب لهذه المهارات له أكبر الأثر في إتقانها وسهولة أداء حركاتها بعد ذلك ، وكما سبق ان اوضحنا في الجزء الخاص بالنضج والتدريب فان أهمية التدريب وما ينتجه من محصول وقيمة لا يحصل عليها الطفل الا اذا جاء في الوقت المناسب الذى يرتبط ارتباطا مباشرا بمرحلة النضج الخاصة بالعمليات التي تتضمنها المهارة المطلوبة . ويمكننا ان نفصل ذلك فنوضح العوامل التي يتوقف عليها إتقان الطفل لمهارة معينة :

١ - التدريب في السن المناسب .

٢ - التوجيه والإرشاد بدلا من ترك الطفل ليعتمد على المحاولة والخطأ في أثناء العمليات اللازمة ، وقد يحدث الإرشاد حتميا عن طريق تقليد الطفل لحركات أحد والديه ، وحتى في هذه الحالة يحتاج الطفل الى توجيهه ليحدث التقليد بأسلوب متقن بعيد عن الخطأ .

٣ - الدافع لإتقان المهارة وقد ينتج الدافع من طريق تحقيق الطفل للهدف الذى يصرف من أجله الوقت والجهد . فالطفل الصغير حين يبذل جهده في عملية المشي عند تعلمها ، ويجد أنه قد حقق بذلك احراز الانتقال من مكانه والوصول الى الأشياء التي لم يكن يستطيع الوصول اليها في وضعه الثابت فان ما يصاحب ذلك من ارتياح نفسي ومشاعر الانتصار تساعد الصغير على مواصلة بذل الجهد وتكرار العمليات اللازمة التي تؤدي الى الوصول الى الهدف .



وبعد ، فذلك مجاله من تتبع النمو خلال مرحلتى الطفولة ، وقد قدمنا لها بمرحلة ما قبل الميلاد ، وادمجنا بها الفترات القصيرة التي بها يبدأ نمو الطفل ، وبذلك جعلنا الدراسة تتضمن الطفل من وقت ميلاده الى نهايته طاقته ، أى خلال ما يقرب من اثني عشر عاما . وقد تتبعنا خلال هذه الفترة النمو الجسمي والنمو الحركي ، وحاولنا بقدر الامكان بيان الاممار التي تظهر فيها مراحل التغير في كل جزء من الاجزاء الهامة من جسم الطفل ، وفي كل مظهر من مظاهر نموه وكل مهارة حركية يكتسبها .

الراجع

- (1) Hurlock, E. : **Child development**. Mc Craw-Hill, 1964.
- (2) Havighurst, R. T. : **Leisure and life-style**, Amer. J. Sociology, 1959.
- (3) Shinn, M. W. : **The biography of a baby**. New York : Macmillan, 1900.
- (4) Gesell, A. : **Maturation and the patterning of behavior**. in C. Murchison (Ed), **A handbook of child Psychology**. Worcester : Clark University press, 1933.
- (5) Meredith, H. V. : **Adiscriptive concept of physical development**, In D. R. Harris (Ed.) **The concept of development : an issue in the study of human behavior**. Minneapolis : University of Minnesota press, 1957.
- (6) Duggins, O. H., and M. Trotter : **Age changes in head hair from birth to maturity**, Amer. J. phys. Anthropol., 1950.
- (7) BAYLEY, N. : **Some Psychological correlates of somatic androgyny**, Child Developm., 1951.
- (8) Garn, S. M. : **Fat thickness and growth process during infancy** Num. Biol., 1948.
- (9) Allen, I. : **Facial growth in children five to eight years of age**. Hum. Biol., 1948.
- (10) Meredith, H. V. : **A time series Analysis of growth in nose hight during childhood**, Child Developm., 1958.
- (11) Thompson, H. : **Physical growth**. In L. Carmichael (Ed.) **Manual of Child Psychology**, New York : Wiley 1954.
- (12) Walker, R. N. : **Body build and behavior in young children**, child developm. 1962.
- (13) Massler, M., and B. S. Savara : **Natal and neonatal teeth**. J. Pediat., 1950.
- (14) Flavell, J. H. : **The developmental Psychology of Jean piaget**. Princeton : van Nostrand, 1963.
- (15) Breckenridge, M. E., and E. L. Vincent : **Child Development** philadelphia saunders, 1960.
- (16) Spits, R. A. : **Purposing grasping**. Personality, 1951.
- (17) E. L. Vincent, and P. C. Narin : **Human psychological development**, Ronald, 1961.
- (18) Carmichael L. : **Manual of child psychology**, 1954.
- (19) Lipsitt, L. P. and N. Levy : **Electrotactual threshold in the child** Developm, 1959.

سَيِّد محمد غنيم

النمو النفسي من الطفل إلى الراشد

مقدمة

يلقى علم نفس الطفل اهتماما كبيرا من جمهرة المشتغلين بعلم النفس . وقد يكون مرجع هذا الاهتمام هو الطفل ذاته ، نظرا لما للطفولة من جاذبية شديدة نحسها نحن الكبار تجاه الاطفال . وليس من شك أن غالبية الآباء في الأزمنة القديمة كانوا يحنون أبناءهم ويهتمون بتربيتهم ، كما نحبههم نحن اليوم ونهتم بتربيتهم ، مع اختلاف وجهات النظر الى الطفل والطفولة . لقد اشار فيليب اريسي في استعراضه « للطفولة عبر القرون » (١٩٦٢) الى أن اطفال القرون الوسطى كانوا ابتداء من سن الثالثة أو الرابعة وما بعدها يشاركون في كثير من أنشطة الكبار . ولم تكن للاطفال شخصياتهم المستقلة كأطفال . وقد تطلب الامر مرور مئات السنين في الأزمنة الحديثة ، قبل أن تتغير نظرنا الى الاطفال عامة باعتبار أن لهم شخصياتهم المتميزة عن شخصيات الراشدين . وقد سار المجتمع الحديث خطواته واضحة في فصل عالم الاطفال عن عالم الكبار .

والاهتمام الكبير بعلم نفس الطفل أمر عملي ضرورة فهم الطفل الذي نتعامل معه . فقد أصبح لزاما على الآباء والمربين أن يفهموا الأطفال من أجل أن يتوافقوا معهم ومع مشكلاتهم التي يواجهونها ، وأن يساعدوهم على حل هذه المشكلات بما يهيئ المجال أمام نمو نفسي سليم . فمن خلال الدراسة المنظمة لعملية النمو النفسي والاجتماعي للطفل يمكن أن نقف على ما هو عادي وما هو شاذ في سن معينة ، وأن نعرف الكثير من جوانب شخصيته ، وأن نوجه التوجيه السليم الذي يتوافق مع مرحلة نموه والظروف التي يعيش فيها . وقد يكون هذا الاتجاه من نتائج الأفكار الحديثة ، إذ لم تكن ثمة حاجة قديما ، لفهم الطفل ولا حتى معرفة خصائص المرحلة الثمانية التي يمر بها ، كما كانت تسود علاقته بالكبار بعض الأفكار التي ألحقت في نظرهم اليه وأسلوب معاملتهم معه ، فهو مثلا يرى ولا يسمع ، ومن ثم لسنا في حاجة لمعرفة ما يجري في عقله من أفكار أو ما يتكون لديه من ميول واتجاهات . ولقد حدث تغير ملحوظ في تفكيرنا عندما بدأنا ننظر الى التربية كشئ ضروري بالنسبة للطفل ، وكان هذا التغير نتيجة لما طرأ على العالم من تغير اجتماعي ومن ثورة صناعية ، وما نجم عن ذلك من تغير في اقتصادياته هذا العالم ، والأنوار الوظيفية المعقدة التي ظهرت والتي لا يمكن اكتسابها عن طريق التقليد أو النموذج على نحو ما كانت تسير عليه التربية القديمة .

وإذا كان النظام التربوي القديم يتسم بالشدّة والصرامة في معاملة الطفل ، إلا أن عقلاء المفكرين والمربين سرعان ما أدركوا أهمية الدافعية وأن « الحصان الذي يقاد الى الماء قسرا لا يشرب بالضرورة حتى لو ضرب » ، كما أدركوا أهمية الفروق الفردية بين الأطفال في النواحي الجسدية والعقلية والانفعالية وفي شخصية . ومن هنا ظهرت الحاجة الماسة الى ضرورة ادخال تعديلات على مناهج الدراسة كي تتلاءم ومستويات نضج الطفل . وإذا كان الالتحاق بالمدارس الى عهد قريب قاصرا على طبقات معينة يمكنها الانفاق على العملية التعليمية ، فقد أصبح اليوم عاما واجباريا . وإذا كان الوقت الذي يقضيه الطفل في المدرسة قليلا في البداية ، فقد أصبح في الغالبية العظمى من أنظمة التعليم في العالم اليوم ، يمثل جانبا كبيرا من ساعات نهار الطفل ، هذا بالإضافة الى انشغاله بعد عودته من المدرسة ، بالكثير من الواجبات المدرسية . وقد تطلب هذا الامر وجود قدر كبير من المهارات والقدرات لمواجهة هذه الواجبات ، مما دعا المدرسين الى الاستعانة بعلماء نفس الطفل للجابة على كثير من المشكلات التي تواجههم في العملية التعليمية .

غير أن المشكلات التي تواجه المدرسين ليست شيئا بالقياس لتلك التي تواجه الآباء في تربيتهم للأبناء ، فحين يصبح الآباء أكثر تعلما وثقفا وإدراكا بوعيا ، فانهم يبدأون في إثارة الكثير من الشكوك حول الرغبة في الاتجاه الى أسلوب التربية أو النظام الذي تربوا هم أنفسهم عليه . فربما كانت هناك الرغبة الشعورية أو اللاشعورية في أن يكون أسلوب تربيتنا لابنائنا أفضل بكثير من أسلوب تربية آبائنا لنا . ومن ثم أصبح أسلوب « التنقل والفهم » هو الأسلوب السائد اليوم ، أما الاتجاه الى توقيع العقاب والضرب ، فإنه - إذا حدث - يكون لذنب وقع

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

فيه الطفل ، او يكون نتيجة احساس شخص بالفشل . والواقع ان معظم الاسر اليوم تتخذ اسلوب الفهم والتعقل في معالجة مشكلات ابنائها ، كما تغيرت الكثير من المفاهيم والافكار عن الطفل . فهو اليوم يرى ويسمع ، يل ويؤثر الى حد ما في قرارات الاسرة . وخاصة اذا ما حفزناه الى القيام بمثل هذه المشاركة . والحقيقة ان هذا التغير هو نتيجة لرغبتنا في ان تصبح اكثر ديموقراطية في اسلوب معاملتنا مع الآخرين . ففي المجتمعات الاكثر تقليدية ، تقاس قيمة الفرد الى حد كبير بمركزه ووضعه في البناء الاجتماعي . ولما كانت مثل هذه المجتمعات متجهة نحو الكبار ونحو سيطرة الرجال ، فان مركز الطفل بالمرأة كان فيها وضعيا ومغفونا أو مهملًا ، ونادرا ما كانت تسمع آراؤهم كأفراد .

وثمة سبب آخر للاهتمام الوجه نحو دراسة علم نفس الطفل في السنوات الأخيرة يتلخص في الرغبة في فهم انفسنا كراشدين . فإخذ الأساليب الهامة لفهم الذات او اكتشافها يمكن في دراستنا لسيكولوجية الطفل . فمن خلال دراستنا للطفل ، يمكن ان نشر على بعض المفاتيح لمعرفة غموض انفسنا ومعرفة من نحن . اننا جميعا ندرك اننا الآن وبالتأكيد اكثر مما كنا عليه في طفولتنا ، وان اكتشافنا للاحداث والخبرات التي مرت بطفولتنا من شأنه ان يملأ الفراغ القائم بين انفسنا في الطفولة وانفسنا اليوم . فنحن ندرس تقارير هذه الاحداث والخبرات التي مرت بنا في الطفولة ، بحثا عن انفسنا ، وعن تفسيرات لنجاحنا أو فشلنا ، وعن نواحي الكف والاعاقة التي تعرضنا لها ، واثراها في سلوكنا وقراراتنا وامكانياتنا . وكما يقول **جونجر وموسين وجيجان** ان دراسة سيكولوجية الطفولة تزودنا بالاساس الذي لا بد منه لكي نفهم سلوك الراشدين فهما اكثر دقة . فالبيانات الاكلينيكية المستمدة من توارىخ الحالات الخاصة بالمجرمين والمرضى في العيادات والمستشفيات العقلية تكشف لنا عن ان سوء التوافق الشخصي والاجتماعي الذي يشيع بين الكبار يعود بصفة دائمة تقريبا الى الخبرات التي يقيمها الفرد في حياته المبكرة . ولقد كان **سليجمنوند فرويد** ، ابي التحليل النفسي ، الفضل في ان اظهر بقوة ما لاحداث الطفولة من اهمية ، كما استطاع بتحليلاته النفاذة للمرضى الذين كان يعمل معهم ان يوضح صدق قول الشاعر « الطفل ابو الرجل » (الترجمة العربية ١٩٧٠) .



● المجالات والطرق والنظريات :

وبهذه الان ان تلقى نظرة على مجالات دراسة الطفل وتطورها ، والطرق التي استخدمت في هذا المجال بما يسمح لنا بالقاء المزيد من الضوء على النظريات التي عالجت النمو النفسي للفرد في طفولته ورشده ..

وتبدأ الان بمجال دراسة الطفل :

ارتبطت دراسة الطفل — كمجال من مجالات الاهتمام — بغيرها من المجالات الكبرى . اذ تمتد اصولها القديمة الى الفلسفة والتربية والتاريخ الطبيعي ، كما ترتبط حديثا بمصادر

كثيرة مثل علم النفس التجريبي وعلم النفس الكلينيكي والطب النفسي والفسولوجيا وطب الأطفال وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والفنويات . ورغم اختلاط أصوله ، فمن الممكن النظر إليه باعتباره مجالا شبه مستقل . ومع ذلك فحدوده لا تزال غير محددة ، كما ان أهدافه واهتماماته متنوعة . ومن الممكن ان نشير الى ثلاثة مجالات ينقسم كل منها الى قسمين ، تعتبر بمثابة اطار لجميع ألوان النشاط التي تجرى في هذا الميدان .

فالنساسة قد تتجه لولا : اما الى ناحية البحث أو الى ناحية التطبيق ، أي اما الى الكشف عن كيف يعمل الطفل ، وكيف ينمو ، او الى القيام بعمل اشياء للطفل ومن اجل الطفل . ومجالات التطبيق المتصلة بالطفل كثيرة ومتعددة تتجلى في مجالات الميادانات النفسية ، وميادانات الطب النفسي ، وفي التوجيه المدرسي ، ومحاكم الاحداث وفي برامج توجيه الآباء والابناء .

وقد تتجه النسانية لثانيا : اما الى الطفل المادي أو الى الطفل الشاذ . اعني اما الى النمو الذي يسير سيرة الطبيعي أو الى النمو الذي يشل عن الطريق المادي أو الطبيعي .

وقد يتجه مجال الاهتمام لثالثا : اما الى الطفل نفسه وما يجري به داخليا من عمليات عقلية ونفسية وما يعتره من انفصالات ، أو الى البيئة المحيطة به وكيف تؤثر في سلوكه ونموه من خلال عملية التطبيق الاجتماعي التي تأخذ بها الطفل منذ وقت مبكر في عملية نموه .

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن ناحية الاهتمام ، فان الهدف هو معرفة شيء أو الكشف عن شيء يتصل بالطفل . ولقد تعددت النواحي التي يركز الباحثون عليها دراستهم للأطفال . فالبعض يهتم بالأطفال كأطفال ، أي باعتبارهم مجموعة فرعية مستقلة عن الكبار ، وبالطرق المميزة التي يسلك بها الأطفال جميعا أو الأطفال في سن معينة أو الأطفال من نوع خاص أو الأطفال الذين يعيشون تحت ظروف بيئية معينة على نحو ما يتضح في دراسات **وودكوك (١٩٤١)** ، و **بايبيير وميري (١٩٤٢)** وكذلك في دراسات **جيزل** المستمرة التي أجراها على اعمار خاصة.

اما البعض الآخر فقد ركز الاهتمام على كيف يتغير الطفل أكثر مما ركزه على كيف يسلك في وقت معين . وهذا الاهتمام بالتغيرات النماائية قد يتركز على التغيرات الجسمية ، أو على النمو العقلي أو على النمو الانفعالي أو على النمو عامة . والامثلة في هذا الصدد لا حصر لها ويكفي الرجوع الى ما كتبه **اليزابيث هرلوك** و **شارلوت بهلر** و **أرنولد جيزل** و **جان يياجييه** و **جوردون البورت** وغيرهم كثيرون .

وثمة جماعة ثالثة ركزت اهتمامها على عملية النمو ذاتها مستقلة الى حد كبير أو صغير عن الشيء النامي ، طفلا كان أم حيوانا أم حضارة .، وهذا الاتجاه يتضح على وجه الخصوص في كتاب **هاينز فرنز** حيث تساءل في مقدمة كتابه « علم النفس المقارن للنمو العقلي » من ما هو علم النفس النماائي وما مشكلاته ؟ ورد على ذلك بقوله : ان مفهوم علم النفس النماائي يتضح تماما اذا فهمنا أنه يعنى العلم الذي يختص بدراسة نمو الحياة العقلية والذي يتخذ منهاجا محسدا ، ونعني به منهج ملاحظة الظواهر السيكولوجية من وجهة نظر نماائية .

وهناك جماعة رابعة تهتم بدراسة اطفال مفردين ، وكيف يؤدون وظائفهم ، وكيف يشعرون بذلك اما بقصد التشخيص الاكلينيكي ، أو بقصد البحث في نواحي الشخصية أو نمو الشخصية ودينامياتها على نحو ما يتفصح في دراسات ميري عن المهارات والمصادر التي يستعملونها مع البيئة .

وأخيراً يمكن أن نشير الى الدراسات التي تجرى بطريقة عرضية على الاطفال والتي يستخدم فيها الاطفال كموضوعات للدراسة التجريبية ، لا لأن الباحث يهتم بمعرفة شيء عن الاطفال ، ولكن لأن الاطفال هم الاشخاص الذين في متناول يده ، ويمكنه أن يجري عليهم ابحاثه وتجاربهم باعتبارهم عينات للجنس البشري عامة. ومن أهم دراسات هذا النوع تلك التي تتصل بأبحاث التعليم ، سواء أجريت في العمل أو في الفصل ، والتي تحاول أن تحدد الظروف الخارجية للتعليم ، والتي يمكن فيها أن يستخدم الكبار أو القيران مكان الاطفال . ومع ذلك يمكن القول أنه حتى في هذا النوع من الدراسات التي لا تخبرنا بشيء عن الاطفال من حيث هم كذلك ، فقد يكون لها أهمية تطبيقية بالنسبة للمدرسين أو للآباء .

وهكذا يتبين لنا أن دراسة الطفل تمثل لنا أشياء كثيرة مختلفة يمكن أن يقوم بها أناس كثيرون مختلفون .



● طرق البحث في دراسة النمو

ليس الهدف هنا تقديم عرض تفصيلي لمناهج البحث ، بقدر الإشارة الى بعض الطرق الأساسية والأفكار المنهجية التي ظهرت كأدوات خاصة في دراسة النمو . وقد وصلت إلينا هذه الأدوات من مجالات متعددة ، ومن وجهات نظر مختلفة في دراسة الطفل ، ولذا يحسن النظر إليها في ضوء المشكلات والفروض التي أوجدتها، أعني في ضوء نظرة تاريخية تربط فيها بين الأدوات والحقب الزمنية أو التاريخية التي ظهرت فيها ، بشكل يلقي لنا الضوء على تطور استخدام هذه الأدوات في دراسة الطفل .

ومن الممكن أن نتبع بالدراسة أربعة أنواع من الأدوات الرئيسية هي : طرق الملاحظة ، والطرق العملية ، والاختبارات والمقاييس ، والطرق الاكلينيكية . وكل طريقة منها تقابل حقبة زمنية ظهرت فيها . وهذه الحقب الزمنية الأربع هي الحقبة الطبيعية Naturalist Era والتي بدأت في القرن الثامن عشر وبلغت ذروتها في منتصف القرن التاسع عشر ، وحقبة علم النفس التجريبي القديم ، والتي بلغت ذروتها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم حقبة الفروق الفردية ، والتي سادت الثلث الأول من القرن العشرين ، ثم حقبة دراسة الشخصية والتي بلغت ذروتها في السنوات العشرين الأخيرة من هذا القرن . وهذا التقسيم التاريخي يقوم على المفهوم المتغير للفرد على نحو ما سوف يتضح من خلال المناقشة التالية لها.

أولا : الحقبة الطبيعية : من المعروف ثلثان الاهتمام بدراسة الطفل ليس ولید العصر الحديث ، بل يمتد الى عهود قديمة . فقد ورد في الكتب السماوية ما يشير الى تربية الصغار وتقويمهم ، وكذلك في النظريات التي نادى بها فلاطون في الجمهورية ، وفي كتابات المحدثين من الفلاسفة من أمثال جون لوك ، وجان جاك روسو وغيرهما عن تنشئة الطفل . لقد كان جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) من أوائل المفكرين الذين مهدوا لهذه الحقبة ، فناقش الكثير من الافكار القديمة التي تتصل بتربية الطفل ونشر سنة ١٦٩٣ مقالته « بعض الافكار المتصلة بالتربية » نصح فيها المربين بترك الحرية للطفل كي يعبر عن مشاعره ، والا تقيده حرته الا قليلا . ولم يكن يتفق والآراء التي تلحظ الى تدرب الطفل على الصبينة ، او تاجيرهم للعمل ، لان من واجب الآباء ان يهتموا بتربية أبنائهم وأن يقرأوا الى جوارهم ما يمكنهم ذلك . وكون الآباء نماذج طيبة أمام الأبناء هو أحسن نمط يمكن التأثير به في شخصية الأبناء . ولقد كان **لوك** أحد المفكرين الاقوياء من أصحاب التأثير في تنمية الاسلوب العلمی . فرفض الاعتقاد بأن المعرفة فطرية ، وأكد أن كثيرا من معرفتنا إنما مبعثه الاحتكاك بالبيئة ، وأن هذه النتائج يجب ان تدمج من خلال الطرق التجريبية . وتعتبر أعمال لوك في الإدراك الحسی والتذكروادعای الافكار والانفعالات ونمو اللغة من الأعمال التي ساهمت فيما بعد في ارساء قواعد علم النفس التجريبي .

ولمة مفكر آخر كان له تأثير عظیم على الاتجاهات نحو الاطفال ونمى به **جان جاك روسو** (١٧١٢ - ١٧٧٨) والذي رفض - شأنه شأن لوك - الكثير من الافكار التي كانت سائدة في المصور الوسطى عن الاطفال . أن ما نخرج به من قراءتنا لروسو هو الاحترام الكبير للاطفال كأفراد . فمثلا يجب ألا يصر الآباء على اعتدال الطفل لانه لا يهدف بطبعه الى القيام بالخطيئة . أنه مخلوق طيب بطبعه ، وأن ما يفرسه مجتمع الكبار عليه من قيود وتحريات هو الذي يعرقله ويضطره الى أن يكون شخصا أقل نبالة وفضيلة، وقد كانت نظريته تخالف ما تواضع عليه المجتمع فدعا الى تشجيع الطفل على أن يعبر تعبيراً حرا عن مبادئه من نوازهه الاصيله التي هي في جوهرها واصلا نوازع نبيلة .

لقد بدأت لحبة الطبيعية في اواخر القرن القرن الثامن عشر حين اخذ نفر من الباحثين في دراسة الاطفال باستخدام منهج الملاحظة الفعلية . من ذلك ما قام به المربي السويسري **جوهان هابرنيش** **بستالوتزي** (١٧٤٦ - ١٨٢٧) من نشر مذكرات تقوم على الملاحظة الدقيقة التي قام بها لنمو ابنه الذي يبلغ من العمر الثالثة والنصف . وقد أعلن هو الآخر أهمية فهم الاطفال وسلوكهم . وقد نظر الى الام باعتبارها أول واهم مرب للطفل ، وحفرها على أن تصدق مشاعرها نحو الطفل ، وأن تفتح امامه آفاق هذا العالم وتعبده لاستخدام حواسه وتقوية ملاحظته .

وفي القرن التاسع عشر بدأت تظهر سلسلة متتابعة من تراجم حياة الاطفال . فقد قدم العالم المشهور **تشارلس دارون** (١٨٠٩ - ١٨٨٢) من بين أعماله المديدة ، مقالة أورد فيها ملاحظاته عن طفله الأول . كما قدم العالم الفسيولوجي **ولهم** **تسرى** **برابر** **Preyer** ملاحظاته الدقيقة عن النمو العقلي لطفله خلال السنوات الأربع الأولى من حياته .

لقد لاحظ نمو الانكسافات منذ الولادة ، كما لاحظ اثر الخبرة والتعلم . وبعد كتابه « عقل الطفل The Mind of the Child » وهو خلاصة ملاحظاته احد امهات الكتب القديمة في علم نفس الطفل .

فالمنهج الطبيعي في دراسة الطفل - شأنه شأن المنهج الطبيعي في علم البيولوجيا - يقوم اساسا على الملاحظة والتسجيل الدقيقين لما يقوم به الطفل في موقف طبيعي وفي مجال نشاطه اليومي . فلم يكن الاهتمام موجها اذن بوجه عام نحو تحليل او معالجة التغيرات في الموقف بقصد دراسة الانواع الخاصة للاستجابات او التأثير على النمو .

ولمة مظهر آخر لمنهج الطبيعيين ونعني به الدراسة الطولية Longitudinal والتي تقوم على تكرار الملاحظات على نفس الفرد في فترات متعاقبة (وهذه الطريقة الطولية تختلف عن الطريقة المستعرضة Cross-Sectional حيث ندرس النمو بمقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة) .

والحقيقة ان الكثير من ملاحظات الطبيعيين القدامى تبدو لنا اليوم بسيطة وساذجة . ففى ملاحظات غير منهجية ، ويتم على فترات غير منتظمة . وطالما انها كانت تفتقر الى المقارنات بين الاطفال وبين المواقف والظروف المختلفة للنمو بين الملاحظين ، فانها كانت اذن دراسات غير مضبوطة تماما . هذا بالإضافة الى ان الملاحظين في الاغاب كانوا لا يحجمون عن انحام مشاعرهم الذاتية وتفسيراتهم الشخصية على ما يرونه من سلوك الطفل ، والذي هو في الاغلب ابنه او احد اقربيه . ومع ذلك ، ورغم كل هذه الانتقادات ، فلا تزال مثل هذه التراجيم الاولى مصدر ثروة للمادة المعارضة في نمو الطفل . كما انها تعد بمثابة دراسة للفردية بالعلم الحديث فالباحثون القدامى كانوا يوجهون اهتمامهم الى دراسة سلوك الطفل « بامامة » اكثر من اهتمامهم بدراسة النواحي التي يختلف فيها طفل عن الآخر .

وبطبيعة الحال استمر المنهج الطبيعي في خلال الحقبة الثانية وهي حقبة علم النفس التجريبي القديم ، ولكن بصورة معدلة وحتى وقتنا الحاضر . فالباحثون القدامى الذين اهتموا بدراسة الطفل كانوا اساسا طبيعيين في اتجاهاتهم ولكنهم بدؤوا في تكييف مناهجهم القديمة مع الاتجاه التجريبي الجديد . ومن ثم نجد سير ستانلي هول (١٨٣٦ - ١٩٢٤) والذي كان مهتما ببحث « محتويات عقول الاطفال » يلجأ الى استخدام منهج جديد للبحث هو منهج الاستخبار questionnaire والذي يتألف من سلسلة من الاسئلة وضعت للحصول على المعلومات عن سلوك الطفل والمراقب ، واتجاهاتهم واهتماماتهم ، كما كان يجمع الاستجابات المكتوبة على هذه الاستخبارات من كل من الاطفال وآبائهم على السواء . ويمكن القول ان عمل « هول » الذي استمر في القرن العشرين يحدد بداية الدراسة المنظمة لعلم نفس الطفل . لقد بدأ يركز الانتباه على جوانب معينة من نشاط الطفل ، كما انه يعد من الناحية المنهجية اكثر موضوعية من المناهج الفلسفية وتراجيم الحياة ، هذا بالإضافة الى مكان معالجة نتائج هذه الاستخبارات في صورة كمية .

ثانياً : حقيقة علم النفس التجريبي القديم: وعلى خلاف الطبيعيين الذين اهتموا بالتركيب على الوظائف الكلية للعقل - والطفل دائماً - فان التجريبيين الاول قد ركزوا اهتمامهم على دراسة الوظائف الجزئية كعمليات التفكير والتذكر والادراك والتصور وما اشبهه . ولكنهم كانوا يشبهون الطبيعيين في ناحية البحث عن القوانين العامة او الصور الكلية لهذه الوظائف المجردة النقية . ومن اجل البحث وراء العمومية والنقاء ، تركوا المجال الطبيعي ودخلوا المعمل حيث يمكن تجنب الكثير من تعقيدات الحياة اليومية وتعقد الظروف فيها . وفي المعمل يمكن استخدام الطرق السيكوفيزيكية وتغيير الظروف بشكل منتظم واستخدام كل ظرف على حدة . ولجعل الظروف نقية تماماً لجأ بعضهم الى تخليص المثيرات ، قدر الامكان ، من جميع المعاني على نحو ما فعل ابنجوس في تجاربه المشهورة على التذكر ، والتي استخدم فيها مقاطع صحاء عديمة المعنى ، كما أنهم في بحثهم من العمومية نظروا الى الفروق الفردية التي توجد بين الافراد في الاستجابة للمثيرات المختلفة باعتبارها شواذب تجريبية أو أخطاء في القياس ، ولجأوا الى تكرار الأقيسة من أجل الحصول على متوسطاتها . وبالمثل لم يكن يرحب هؤلاء بالتغيرات أو الاختلافات في الفروق النمائية . فالتجريبيون الاول كانوا مهتمين أساساً بالوظائف الجزئية عند الكبار ودراستها في ظروف نقية قدر الامكان ، بقصد الوصول الى القوانين العامة التي تخضع لها . ولذا كان نصب التجريب المعمل على الاطفال في هذه الحقبة السيكوفيزيكية المبكرة ضئيلاً .

ولكن بعد ذلك ، اخذ علماء النفس المعمل يوجهون اهتمامهم نحو التغيرات النهائية، وأجريت دراسات على التغير مع السن في مظاهر السلوك المختلفة مثل زمن الرجوع ، وفترات التذكر والتسيان وحل المشكلات وغيرها .

يضاف الى ذلك ان المناهج التجريبية في المعمل اصبحت قابلة للتطبيق على عدد كبير من المشكلات خارج جدران المعمل حيث يمكن دراسة الآثار المباشرة والبعيدة المدى لظروف أكثر تعقيداً ، مثل دراسة القيادة السلطوية ضد القيادة الديمقراطية ضد القيادة المطلقة ، أو دراسة منهج تعليم القراءة عن طريق السمع مقابل البصر . والواقع ان المنهج الاساسي للتجريب والذي استعمر من السيكوفيزيقا يتطلب فقط ضبط الظروف والمقارنة بينها .

ثالثاً : حقيقة الفروق الفردية لم تظهر مجال جديد من مجالات الاهتمام في علم النفس العلمي في السنوات الأولى من القرن العشرين . لقد أخذ هذا الاتجاه الجديد مظهرين : الأول النظر الى الناس على أساس وجود سمات متميزة لديهم . والثاني كيفية توزيع هذه السمات على المجموع العام من الناس . فمجال الاهتمام والتركيز في هذه الحقبة لم يكن منصبا على طبيعة الوظائف العقلية أو العمليات العقلية المفردة - كما كان في الحقبة السابقة ، بل على مقدار وجودها وتوزيعها بين الناس .

والفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا الاتجاه ، هي تلك العبارة التي دوى صدها في تلك الأيام والتي ترمز الى تونديك حيث يقول « ان كل ما يوجد ، يوجد بمقدار ، وكل

ما يوجد بمقدار يمكن قياسه » . وفي هذه الحقبة ، كانت الاختبارات كأداة ، هي موضع اهتمام بالغ لدى علماء النفس . نفع بداية الحرب العالمية الاولى ظهرت الحاجة ماسة الى اجراء الاختبارات السيكولوجية على نطاق واسع على المجندين الجدد في الجيش . ومن ثم ظهر العديد من اختبارات الذكاء . وكان من نتيجة ذلك ايضا ان ظهرت الاختبارات الجمعية التي يمكن ان تطبق على عدد كبير من الأفراد في وقت واحد . وبعد الحرب استخدمت الاختبارات العقلية على نطاق واسع في مجال المدرسة وميدان التعليم . ومن قياس الذكاء انتشرت الاستخدامات المختلفة للاختبارات ، فاستخدمت في قياس القدرات الخاصة عند الفرد كالقدرة اللغوية أو الرياضية أو الميكانيكية أو الموسيقية ، كما استخدمت أيضا في قياس الشخصية .

ومن ألفة حركة القياس نذكر **جالتون وجيمس ماكيد كاتل وفوردنيك وترستون وترمان وسبيرمان** وغيرهم كثيرون ممن أتى بعدهم . وكانت حركة القياس والتي تعرف الآن باسم « السيكومترية » ظاهرة من ظواهر علم النفس الأمريكي ، وان كانت هذه الحركة قد بدأت أولا في فرنسا على يد طبيب فرنسي مشهور هو « الفردينييه » ويعتبر بينه أحد الرواد الأول في قياس الذكاء ، حيث وضع اختبارا المشهور وزميله سيمون والذي عرف فيما بعد باسم « مقياس استنفورد - بينيه - للذكاء » - والذي خرجنا منه بفكرة هامة في قياس الذكاء هي فكرة العمر العقلي . وكانت هذه الفكرة هي بداية كثير من الأفكار التي من هذا النوع والتي استخدمت على نطاق واسع بعد ذلك في دراسة الطفل : كالعمر التحصيلي والعمر التعليمي والعمر القرائي الخ . . ومن المهم ان نلاحظ ان قياس السمات على أساس العمر أو أي مقاييس أخرى هو دائما نسبي بالنسبة للمجموع العام من الناس . ومع ذلك فقد عولجت في الأغلب كما لو كانت مقاييس مطلقة تعبر عن المقدار الفعلي للذكاء أو أي سمة أخرى لدى الفرد .

وبجدر بنا أن نشير الى أن اهتمام السيكومتريين الأول بالفروق الفردية كان في الحقيقة موجها الى اختلاف الجماعات في سمة ما في وقت واحد ، وليس الى الطريقة التي بها يختلف فرد عن آخر . ومع ذلك ، فقد طبقت المقاييس العقلية على الأفراد بقصد التصنيف التربوي أو المهني . واستخدام اختبار بينيه أساسا كوسيلة تساعد على تقدير قدرة الفرد على التعليم ، وفي التمييز بين العاديين وغير العاديين .

ولقد حاول نفر من السيكومتريين بذلك الوصول الى تقدير شامل للفرد بتحديد درجته في مجموعة من الاختبارات توضع لقياس سمات مختلفة . ورغم أن هذه الطريقة مكنت المختبر من وضع عدد من الاحكام المستقلة المنفصلة عن الفرد موضع الدراسة ، الا انها لم تبين لنا كيف ترتبط هذه السمات ببعضها بعض .

وفالبا ما يركز السيكومتريون على وسائل القياس ذاتها ، وعلى الانتماء العامة لتفسير الجماعة في حدود منحني التوزيع الاعتدالي ، واغفال الأفراد موضوع الدراسة (أو حتى السمات) . وعلى الرغم من استخدام الأطفال كأفراد عند تطبيق الاختبارات ، الا أن الاهتمام

الرئيسي لحركة القياس لم يكن موجها الى دراسة طبيعة الطفل كطفل . ولكن حديثا ، أصبح المختبرون اكثر مرونة في تفسير نتائج القياس ، واصبحت الاختبارات وسيلة ضرورية وهامة في دراسة الطفل .

ولكن كى تكون النتائج التى نحصل عليها من استخدام الوسائل السيكومترية مفيدة ونافعة ، يلزم ان تتوفر فكرتان أساسيتان في نفس القياس ونعنى بهما الثبات والصدق .

أما الثبات فمعناه ان القياس يعطى اسامانفس التقدير عند اعادة تطبيقه على الافراد .

أما الصدق فمعناه ان الاختبار يقيس ما وضع لقياسه . والاختبار الجيد يمكننا من التنبؤ بما سيكون عليه سلوك الطفل أو الفرد بوجه عام ، فمثلا اختبار الذكاء يمكننا من التنبؤ بعدى تحسن التلميذ أو الطفل في المدرسة ، ومدى استعداده للدراسة في مستقبل ايامه . ولكن الاحكام الخاصة باداء الطفل في المدرسة ليست ثابتة تماما ، حيث تتأثر بعدد كبير من العوامل الأخرى غير الذكاء . وعلى العموم ، فنتائج اختبار الذكاء ترتبط ارتباطا عاليا بالتحصيل ، اعنى ان الذين يحصلون على تقديرات عالية في اختبار الذكاء ، يحتسب ان يكون تحصيلهم للدراسى هاليا ، كذلك والعكس لكن تحدث استثناءات فردية يمكن ان ترجع الى خطأ في احكام المدرسين انفسهم أو الى عمل عدة عوامل أخرى تتدخل الى جانب الذكاء أو الى الاختبارات ذاتها .

ويجب الا يظن القارئ ان الاختبارات كانت هي وحدها الادوات الجديدة التى استخدمت في هذه الحقبة الخاصة بالاقيسة العقلية ، ذلك ان مناهج الملاحظة التى اُبعت في الحقبة الطبيعية قد عدلت وأخذت هي الأخرى صورة كمية . فقد ظهرت لدينا طريقتان جديدتان انتشرتا انتشارا واسعا ، ونعنى بهما مقياس التقدير rating scale والعينة الزمنية time sample وهذه الأخيرة بالذات وضعت للاستعمال مع الاطفال ، وعلى العموم فقد استخدمت كلا منهما استخداما واسعا في دراسة الطفل .

وطريقة مقياس التقدير طريقة يحدد فيها الحكم Judge درجة الفرد بالنسبة لسمه أو مجموعة من السمات كالامانة والتعاون والخضوع والسيطرة . ويمكن ان يكون هذا التقدير نسبيا أى بالنسبة لأعضاء نفس الجماعة التى ينتمى اليها الطفل في ضوء قوائم وضعية توضع لذلك، أو قد يكون تقديرا تقريبا كمي يقوم على اساس الاحساس الذاتي للحكم . وتقوم التقديرات في هذه الحالة على اساس الملاحظات الخاصة التى يقوم بها الحكم للسلوك الخاص للطفل ، أو المواقف الخاصة أو على اساس المعرفة الطويلة الامد بالطفل على نحو ما هو الحال في تقدير الآباء والمدرسين للطفل . وبمقارنة تقديرات نفس الطفل على نفس السمات في اوقات مختلفة ، أو بالنسبة لتقديرات حكاه مختلفين يمكن ان نصل الى معرفة لدى ثبات هذه التقديرات . وعندما تتوفر للتقديرات درجة ثبات عالية ، فان التقديرات تسمح لنا في هذه الحالة باجراء مقارنات بين الافراد ، وبين الجماعات أو بين الظروف - على نحو ما يحدث بالنسبة لمناهج التدريس - التى تؤثر في الافراد أو الجماعات . ويمكن ان تطبق التقديرات على الأشياء كما تطبق

على الاشخاص ، على نحو ما تستخدم مثلا في الحكم على رسومات الاطفال تحت ظروف مختلفة . وتعتبر تقديرات الذكاء احدى الوسائل الهامة التي تستخدم في تقدير صدق اختبارات الذكاء ، رغم أن الاختبارات يقصد منها في الحقيقة أن تحل محل هذه النتائج الذاتية . والمشكلة الرئيسية في مقياس التقدير هي في الواقع تحديد السمات المراد تقديرها بحيث يمكن ان تطبق بطريقة مفهومة على جميع الافراد .

اما النوع الثاني وتقصده به العينة الزمنية فهي طريقة من طرق الملاحظة يتركز فيها انتباه الملاحظ على حدوث او عدم حدوث انواع من السلوك لتحديد سلفا ، وتعتبر ممثلة للسمات المراد دراستها . وتجري الملاحظات على عدد محدود من الاطفال في فترات زمنية ، وتحدد من قبل وتعطى عينة من نشاط الطفل بصرف النظر عن التغيرات والمعارضة ، كالحالة المزاجية للطفل او الاحداث الخاصة وما شابه . فمثلا استخدمت طريقة العينة الزمنية في دراسة العلاقة بين كون الطفل لديه عدد قليل أو كثير من اللعب ، وبين تكرار انفجارات او ثورات الغضب والعُدوان لديه ، وظهور او انتثار سمات معينة كالمصيبة والاتجاهات الاجتماعية في اعمار مختلفة او تحت ظروف مختلفة .

وهناك اتجاه آخر ظهر في الحقبة السيكمترية يلقى الضوء على الاهتمام بالفردية في الحقبة التي تلى ذلك ؛ ونعني به ظهور عدد من **الدراسات الطولية** . ولكن ابتداء من اعمال ستانلي هول تحولت معظم دراسات نمو الطفل الى دراسات مستمرة ، أي مقارنة اطفال مختلفين في اعمار مختلفة . وهذه الطريقة المستمرة اثارت مشكلة منهجية خطيرة وهي هل وصف عمليات النمو التي تقوم على اساس مادة مستمدة من افراد مختلفين في اعمار مختلفة ، يمكن أن تعتبر حقا دراسة أو وصفا للنمو وكانت الدراسات الطولية التي اجريت للاجابة عن هذا السؤال هي تخطيط النمو بالنسبة لنفس الافراد منذ الولادة وما بعدها ، وقد اوضحت بالطبع أن منحنيات نمو الافراد تختلف اختلافا دالا عن المنحنيات التي تجري لها تسويات والتي تقوم على اساس متوسطات الجماعات . ونحن ندين للدراسات الطولية بمعرفة فترات الكمون والطفرة في النمو ، والمساكن النمطية للنمو والتي يسر فيها الافراد المختلفون . ورغم تركيز الباحثين على النمو الفردي ، فان دراسات النمو قد نظر اليها داخل اطار الاقضية ، كما ركزت على الطرق السيكمترية او مقياس السمات الجممية .

رابعا : **حقبة دراسة الشخصية** : ان علم النفس يهتم اساسا بمعرفة كيف يسلك الناس . والسيكولوجيون العلميون الاول وكذلك السيكمطريون ، كانوا مع ذلك مهتمين اساسا بالمشكلة الفنية ، وهي كيف يمكن فصل العمل الانساني من اجل الدراسة السهلة . ولكن ابتداء من منتصف الثلاثينات كان هناك احساس متزايد بالشكوى من مصادر متعددة من ان دراسة الانسان انتهت الى ان تصبح دراسة اجزاء متعددة ، وان الوقت قد حان الى النظر اليه ككل ، وتجميع هذه الاجزاء في كل متكامل . لانه اذا نظر للكائن الحي جزءا جزءا ، فان الخصائص الانسانية المميزة التي تنتمي الى هذا الكل التامى تميل الى الاختفاء : مشاعره واحساساته واهدافه واسلوبه الشخصي .

فالفرء ليس حزمة بسيطة من السمات التى يمتلكها بمقادير تتفاوت فى الكبر والصغر . فسماته المتعددة إنما تخضع - وظيفيا فى نمط منظم - إلى اهتماماته الإنسانية الخاصة ، وأنه مهما كانت لديه سمات مشتركة بينه وبين الأشخاص الآخرين ، فإن هذه السمات تأخذ معناها الفردى الخاص بالنسبة للمحتوى العام الذى يتميز به سلوك الفرد . والحققة أنه تحت تأثير مدرسة الجشطلت ومدرسة التحليل النفسى ، أصبح علماء النفس أكثر اهتماما بمفهوم الشخصية ودراساتها وطبيعة الفردية، وكيف ينتظم الناس مع هذه الطبيعة . وإذا كان السيكونيزم يقيون الأول بحثوا قياس الوظائف النقية « مستقلة عن المعنى ، وإذا كان السيكونمزيون الأول بحثوا قياس الذكاء الخالص مستقلا عن الخبرة السابقة . والسمات الأخرى كالانفعالية ، فإن هذا الجيل الجديد من الباحثين أراد أن يعطى لكل هذه الأمور دورها الكامل ، وأن يرى الإنسان ككل يتفاعل مع بيئته الحقيقية . وبهذا المعنى ، فإن هذه الحقبة الجديدة تعتبر عودة إلى الحقبة الطبيعية ، ولكنها تختلف عنهما فى حيث اهتمامهما بالفرد وبوحدة الشخصية وبالاختلافات والعموميات على حد سواء .

وقد عادت بعض الطرق التى ظهرت فى الحقبة الطبيعية إلى الظهور ثانية ولكن بصورة معدلة . فالتقارير اليومية استخدمت بشكل أكثر دقة، وأمكن تدريب الملاحظين لسلوك الأطفال من أجل أن تكون التقارير أكثر لباثا ودقة ، كما درب الملاحظ أيضا كيف يبقى بعيدا فى نفس الوقت الذى يلاحظ فيه سلوك الأطفال ، بمعنى ألا تصبح مشاعره مختلفة بما يقوم بملاحظته من سلوك الطفل ، أى بعبارة أبسط درب الملاحظ على أن يكون موضوعيا فى ملاحظته . كما عادت إلى الظهور الدراسات الميدانية . فباحث ليفين عن القيادة حاول أن نهىء تجريبيا ، بيئة طبيعية بدرجة كبيرة أو صغيرة لجميع الأشخاص ، كما استخدمت طرق ملاحظة المجال .

غير أن الطرق الحقيقية التى تنتمى إلى هذه الحقبة ، فهى تلك التى أطلق عليها «جوردون البورت » اسم المنهج التامومى nomothetic الذى يهدف إلى الكشف عن القوانين العامة والمنهج المتفرد أو الكليينيكى idiographic الذى يهدف إلى الكشف عن الوحدة المتفردة للكائن الحى . ذلك أن من عادة العلماء أن يتجه اهتمامهم إلى الكشف عن القوانين العام أو القاعدة السائدة فى السلوك الإنسانى ، وإلى وضع المبادئ العامة والكشف عن العلاقات والتفاعلات بين المتغيرات ، أو إلى استخراج معايير النمو . وهم يستعينون من أجل تحقيق ذلك بدراسة مجموعات كبيرة من الأفراد يقومون بدراساتهم أو يطبقون عليهم اختباراتهم وملاحظاتهم بقصد معرفة القوانين العام الذى تخضع له هذه الظاهرة موضوع الدراسة . حقيقة، هناك خصائص عامة مشتركة بين أفراد الجنس الواحد ، وقوانين عامة تنطبق عليهم ، ولكننا مع ذلك لا نجد اثنين من البشر متطابقين تمام التطابق . فالتناس فى تفردهم أشبه بصمات الأصابع ، ومن المستحيل أن نجد بصمتين متشابهتين لشخصين مختلفين . كما أن عالم النفس والمربى كثيرا ما يضطر الواحد منهما إلى أن يركز انتباهه على فرد معين بالذات

ليحاول فهمه فهما دقيقاً شاملاً ، ومن ثم يجد نفسه مضطراً الا يقتصر على مجرد فهم المبادئ العامة للنمو والتطور والقوانين العامة التى تحكم سلوك الفرد ، بل يركز اهتمامه على الفرد ككل . فالخاصية المميزة للانسان هى فرديته ، اعني اعتباره مخلوقاً فريداً في الطبيعة وانه مستقل مكانياً من غيره من الأفراد ولا يشبه تماماً اى فرد آخر ، وإن يسلك في مجاله الخاص في الحياة وعلى طريقته الخاصة .

وفي بداية الثلاثينات شاعت بعض الطرق التى تعنى بالمنحى التفرد والتى من أهمها تلك المسماة بالطرق الإسقاطية ، وهذه التسمية أطلقها عليها لورانس فراك سنة ١٩٣٩ .

وهذه الطرق تواجه الفرد بموقف أو مادة غير محدودة وغير متشكلة وغامضة الى حد ما ليستجيب اليها كما يشاء وكما يحب . والدلالات الخاصة التى يعزوها للموقف تعتبر ذات أهمية بالنسبة له ولطريقة ادراكه لهذا العالم . ومن أشهر الاختبارات الإسقاطية المعروفة والواسعة الانتشار والتى تستخدم على نطاق واسع في دراسة الشخصية اختبار بقع الحبر لهرمان رور شاخ حيث يفسر المفحوص طفلاً كان أم كبيراً ، عدداً من بقع الحبر غير المتشكلة . وكذلك اختبار تفهم الموضوع لعنرى مورى حيث يكون الفرد قصة عن كل صورة من الصور التى تعرض عليه ، يكشف فيها عن مشاعره واتجاهاته نحو الموضوعات الرئيسية التى تتضمنها الصورة . وهناك اختبار تداعى الكلمات لـ « كارل يونج » حيث يستجيب المفحوص لقائمة من الكلمات التى تعرض عليه شفاهة كلمة كلمة ، ويسجل زمن الرجوع والاستجابة التى يذكرها المفحوص ، والذى بواسطته يمكن الكشف عن مجالات الضغوط في حياة الفرد . وإذا كانت هذه الاختبارات قد وضعت للصغار والكبار على السواء ، فإن هناك عدداً آخر قد وضع خصيصاً للأطفال كاختبار اللب (لويبرا دير) واختبار تفهم الموضوع للأطفال . وعلى العموم يمكن القول بأن ليس هناك استجابات صحيحة وأخرى خاطئة للاختبارات الإسقاطية ، وإن ما يراه كل فرد إنما يتشكل وفق ادراكه وحالاته الانفعالية واتجاهاته وميوله وقيمه . وهذه الاختبارات الإسقاطية يمكنها أن تكشف عن التنظيم الداخلى للفرد دون أن يشعر الفرد بذلك ، أو دون أن توجه اليه الأسئلة بطريقة مباشرة على نحو ما نجدهم مثلاً في الاستخبارات التى يحاول المفحوص أحياناً الا يجيب عنها بصراحة أو دقة متناهية .

وفي خلال هذه الحقبة أيضاً كان هناك اهتمام متزايد « بالتجربة الطبيعية » هذا المنهج الذى استخدم في ميادين مختلفة كالنفس والاجتماع والطب ، أو حيث تكون الظروف التى تقوم بدراساتها خارج قدرة الباحث ويصعب عليه اخضاعها للتجريب وعوامل الضبط (اما لأسباب خلقية أو لأسباب عملية) . ولذا فليس على الباحث الا أن ينتظر حتى تفضل الظاهرة بالثول بطريقة طبيعية للاحتلتها . وبدراساتها . والدراسات التى أجريت على اثر اصابات الخ في الانسان تدخل بالضرورة تحت هذا النوع . وبالمثل أيضاً الدراسات التى قام بها شبيث Spitz عن اثر الحرمان المبكر على الأطفال ، وكذلك دراسات آنا فرويد والمجلس القومى للبحوث في امريكا عن الآثار النفسية للكوارث . وبالمثل فإن اى باحث يهتم

بدراسة النمو الشاذ ، نجد مضطرا للتعامل مع مثل هذه الحالات التي يقابلها . وبالطبع يمكن اجراء الدراسة على الحيوان حيث يكون الباحث اكثر قدرة على اجراء التجارب واعداد الظروف التي يستحيل اجراؤها على الانسان . والجدير بالذكر ان جانباً كبيراً من الافكار في سيكولوجية النمو ، يأتي من دراسات اجريت على الحيوانات ويمكن ان نشير الى دراسات ليدل Liddell وغيره على الماخر والخراف ، في علاقة الصفار بالام ، وعلى العصبان التجريبي . ولذلك تعتبر التجربة الطبيعية هي منهج السيكلوجي الاكلينيكي او الطبيب النفسي ، الذي يريد دراسة شخص فرد نتيجة اهتمامه بالان ظروف خاصة ، او البحث عن فروق في الشخصية او في المناهج العلاجية .

تلك هي المناهج الاربعة الرئيسية في دراسة النمو - الملاحظة والتجربة والاختبارات والمقاييس الاكلينيكية . وقد ظهرت بالتتابع نتيجة اهتمامات واتجاهات مختلفة لدى الباحثين ، ولكنها جميعها اثبتت نفعها لعدد من الاغراض في دراستنا للكان الحي الانساني .



● نظرة الى دراسات النمو النفسي

اعتاد غالبية علماء نفس الطفل عند دراستهم لعملية النمو ، النظر الى التغيرات المختلفة التي تطرأ على الكائن الحي منذ اللحظة الاولى التي تبدأ فيها الحياة جنينا في بطن الام ثم تعقبه بالدراسة حتى الرشد . وقد اخذ هؤلاء بفكرة تقسيم النمو الى مراحل زمنية يمر بها الكائن الحي . فهناك مرحلة ما قبل الولادة والطفولة المبكرة والمتأخرة والمراهقة . وعادة يتتبع الباحث داخل كل مرحلة دراسة مظاهر النمو المختلفة وتطورها . فهناك النمو الجسمي والعقلي والاجتماعي والانفعالي . وقد ياخذ الباحث مرحلة بعينها ويعالج فيها جوانب النمو المختلفة ثم ينتقل الى التي تليها وهكذا ، او قد ياخذ مظهرا بعينه من مظاهر النمو ويتتبعه بالدراسة في جميع المراحل ثم ينتقل الى مظهر آخر وهكذا . والنتيجة واحدة في كلتا الحالتين وان اختلف الاسلوب الذي يتبعه الباحث ، ولواظنا على الكثير من كتب علم نفس النمو ، سواء ما كتب منها بالعربية او باللغات الاجنبية ، نجد انها قد سلكت سبيل هذه الدراسة الوضعية او الشكلية . ومن امهات الكتب في هذا المجال ما قدمته البروانست هرلوف في مجموعتها الثلاثية الهامة .

Developmental Psychology (١)

Child Development (٢) و

(٣) و Adolescent Development ، وما قدمه ارنولد جيزل وآخرون في تلك السلسلة الرائعة من كتب النمو والتي تعد دراسة تطويرية عامة من الطفولة المبكرة حتى الشباب والنسي وردت بكتبهم .

(١) Infant and child in the culture of today

و (٢) Child from five to ten

و (٣) Youth والتي ترجمت كلها الى اللغة العربية ، وكذلك كتاب آرثر جيرسلد وآخرون Child psychology . ولا يمكن حصر الكتب التي سارت على هذا النحو في هذا المجال .

غير أن ثمة اتجاهاً آخر ذكر على الكائن الحي ككل واهتم بالإطار النظري العام لعملية النمو واقتربت الدراسة فيه من دراسة لنمو الشخصية . والنقطة هنا في شمولها نظرية دينامية أكثر منها وصفية . فقد ركزت معظم النظريات التي اتبعت هذا المنحى الأخير على دراسة العوامل المؤثرة في نمو الشخصية ابتداء من الطفل حتى الرشد ، وكيف أثرت هذه العوامل او المحددات في بناء الشخصية وفي نوع النمو الناتج عنها . وكان من الطبيعي ان تتعدد أيضا النظريات التي سلكت هذا السبيل . ذلك ان ابناء الشخصية وعملها لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ، وإنما يتطلب الامر الاستدلال عليهما من النمط للاستجابات التي يقوم بها الفرد داخل اطار موافى معين . ولذا فليس مما يثير الدهشة اذن ان تختلف نظرية الباحثين لنمو الشخصية او بمعنى اوسع النمو النفسي للفرد . فاذا كان فرويد مثلاً يؤكد في تحليله للنمو النفسي على تطور الدوافع والانفعالات وبخاصة خلال السنوات الثلاث الاولى من الحياة ، فان كتابا آخرين من اصحاب الاتجاه النعالي من امثال هاينز فريزر وجان بياجيه لا يلقون اهتماما بالكلية الى نمو الدوافع او الانماط الانفعالية ، بل يوجهون اهتمامهم باكماله الى النمو المعرفي ، والتفكير التكيفي ، على حين يتمسك آخرون بالنظرية الفرويدية ولكنهم يدخلون عليها بعض التعديلات والإضافات على نحو ما فصل اريكسون .

واذا كانت النظريات التي كتبت في هذا الاتجاه الثاني كثيرة ومتعددة ، فان ضيق المجال لا يسمح لنا بالتعرض لها جميعها . ولذا سوف يخصص الباحث هنا بالذكر نظريات اربعة لها اهميتها وهي نظرية النمو النفسي - الجنسي لفرويد ، ثم نظرية النمو النفسي - الاجتماعي لاريكسون ، والتي تعد تمديلاً للاولى وازدافاً عليها ، ثم نظرية نمو الذات عند جوردون البورت ، واخيراً نظرية النمو المعرفي عند جان بياجيه . وسوف نشير الى كل نظرية منها بشيء من الاضافة .

اولاً : النظرية النفسية - الجنسية لفرويد :

ان مادة التحليل النفسي وكتاباته لا حصر لها . ومن المستحيل في مثل هذا المجال ان نقدم مرشاً وايضا لمثل هذه النظرية الضخمة . ولذا سوف نقصر انفسنا هنا على الجوانب التي من شأنها ان تسامدنا في التعرف على النمو النفسي عند اصحاب نظرية التحليل النفسي . وبحسن قبل ان نتعرض لمرحلة النمو النفسي الجنسي في نظرية فرويد ان نلقي الضوء على ديناميات الشخصية وبنائها ثم نتعرض لمرحلة النمو .

ديناميات الشخصية :

● ان نظرية التحليل النفسي - ككل النظريات الدينامية - تدور حول القوى او الحوافز ، فهي اساسا نظرية دافعية . والظواهر العقلية ينظر اليها على انها نتيجة قوى متفاعلة يمكن ان تفهم من وجهة نظر تاريخية . وبعبارة ايسر ان فرويد ينظر الى الاحداث الراهنة باعتبارها نتاج نمو سابق تمتد جذوره الى الماضى .

والمصطلح الذى استخدمه فرويد للدلالة على الطاقات او القوى التى تستثير النشاط الانساني هو المصطلح الالمانى Trieb والذي ترجم الى اللغة الانجليزية ، بالمصطلح Instinct والذي يعرف فى اللغة العربية بالفريزة . ولكن هذه الترجمة للمصطلح الالمانى ادت الى الخلط فى فهم هذا المصطلح ، ذلك ان Trieb كما استعمله فرويد ، لا يتضمن معنى النمط الثابت غير القابل للتغير ، والذي يعنيه المصطلح Instinct . فتحت الظروف والتاثيرات البيئية ، يمكن للفريزة بمعانيها فى المصطلح الالمانى ، ان تغير من اهدافها وموضوعاتها .

ومفهوم الفريزة من المفاهيم الاساسية فى كتاب فرويد وتفكيره . ومعظم كتابات فرويد عليها فكرته وهى ان الانسان ولد مزودا بفرائز معينة . ولقد صادق فرويد على وجود نوعين من الحوافز الانسانية او الفرائز وكلاهما بيولوجى فى طبيعته . اما النوع الاول فيتكون من الحاجات الجسمية البسيطة كالجوع والعطش والاخراج والتنفس ، هذه الحوافز او الدوافع تستثيرها التغيرات البدنية التى تحدث داخل الكائن الى العضوى . وشباع هذه الحوافز او الحاجات الاساسية امر حيوى لبقاء الانسان ، كما ان اهدافها لا يمكن تغييرها او تعديلها . ولذا ، فان الاختلاف بين الافراد بالنسبة لهذه الحاجات قليل للغاية ومن ثم فانها تعد قليلة الاهمية نسبيا لعالم النفس .

اما المجموعة الثانية من الحوافز فهي تلك التى وصل اليها فرويد من دراساته للعرض النفسيين . وهذه يمكن تقسيمها الى قسمين : فريزة الحياة وفريزة الموت . الاولى تخدم غرض الحفاظ على الحياة وتكاثر الجنس ، ويطلق فرويد على القوة الحيوية الدافعة لها اسم « اليبسودو » وهو هذا الجزء من تركيب «الهو» الذى يبحث عن اشباعه من الحوافز الجنسية . ومعنى الجنس عند فرويد اوسع بكثير من مفهومه الدارج فى حياتنا اليومية وفى لغتنا الدارجة . فهو يتضمن بالإضافة الى معناه المتصل بالحوافز الجنسية عند الكبار - كل ما يؤدى الى الشعور باللذة من خلال استثارة المناطق الشبقية للجسم ، وهى المناطق التى لها قدرة على اثارة الاحساس السار او الشعور باللذة عند الفرد . وهى غالبا المناطق الحساسة فى جسم الانسان كالشفاه والتجوف الفمى والمنطقة الشرجية واهضاء التناسل . والفريزة الثانية وهى فريزة الموت فهى تخدم افراض الهدم والتدمير .

وتتميز الفريزة عند فرويد بأربع خصائص وظيفية اساسية هى : المصدر والهدف والوضوع والقوة الدافعة . ولتوضيح هذه الخصائص لنفرض ان انسانا ما يحس بالمل

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

اسنانه ، فان نتيجة هذا الاحساس لدفعه من خلال مبدأ التوازن الداخلى الى خفض التوتر على النحو التالى :

المصدر Source : وهو الحالة البدنية للشخص وهو هنا الالم الذى يحسه الفرد في اسنانه .

الهدف Aim : وهو التخلص من الاستثارة أو التهيج البدنى . وهو هنا ازالة الالم الناتج من تسوس السن والعودة الى حالة الارتياح التى كان يحس بها قبل حدوث الالم .

الموضوع Object : وهو يشير الى ضروب النشاط التى تقع بين ظهور الحاجة وتحقيقها . فهو لا يشير الى شيء بعينه أو حالة تشبع الحاجة فحسب ، بل إنه يتضمن كذلك كل أشكال السلوك الذى يحدث مستهدفا الحصول على الشيء أو الحالة اللازمة . وهو في هذا المثال ترتيب موعد مع الطبيب والذهاب اليه والجلوس على الكرسي .

القوة الدافعة Impetus : ويقصد بها قوة أو شدة الحاجة المحركة . فالم الانسان حين تخف حدته أثناء النهار تقل قيمة المثير الى حد ما ، ولكن حين يصبح الالم غير محتمل خلال الساعات الأولى من الليل تزداد قوة المثير بشكل واضح وتصبح القوة الدافعة أكثر شدة فيزداد اصرار الشخص على ضرورة الذهاب الى الطبيب .

ويرى فرويد أن مصدر الغريزة وهدفها يظلان ثابتين طوال الحياة ، ما لم يتغير المصدر أو يزول نتيجة النضج الفيزيقي . أما الموضوع أو الوسيلة التى يحاول بها الفرد اشباع الحاجة فهى تتباين تباينا ملموسا خلال حياة الفرد ، وذلك نتيجة قابلية الطاقة النفسية للازاحة من موضوع لآخر . وإذا كان هذا الابدال أو هذه الازاحة ممكنة بالنسبة للموضوع فهى غير ممكنة بالنسبة لمصدر الغريزة أو هدفها .



✻ بناء الشخصية :

وتكون الشخصية من ثلاثة نظم أساسية: **الهو ، والأنا ، والإنا الأعلى** . ورغم أن لكل جزء منها وظائفه وخصائصه ومكوناته ومبادئه ودينامياته وميكانيكاته التى يعمل وفقا لها ، إلا أنها جميعا تتفاعل معا تفاعلا وثيقا بحيث يستحيل فصل تأثير كل منها من الآخر وتقدير وزنه النسبى في سلوك الانسان . فالسلوك ، في الأغلب ، هو محصلة تفاعل هذه الانظمة الثلاثة . ونادرا ما يتفرد احداها بالعمل دون الآخرين . وسوف نوضح فيما يلى كل واحدة منها على حدة وباختصار .

الهو : لقد كتب الكثير من هذا المصطلح الذي وضعه فرويد . و « الهو » هو النظام الاصلى للشخصية والذي يعتبر أساسا لكل حياة انسانية . فهو يوجد مع الانسان منذ لحظة ولادته ، وبظل معه طول حياته . هو ذلك الجزء من النفس الذي يحوى كل ما هو موروث أو غريزى ، كما يحوى العمليات العقلية المكتوبة التى فصلتها المقاومة من الحياة النفسية الشعورية . فالهو مستودع الطاقة النفسية كما أنه يزود العمليات التى يقوم بها النظامان الآخران بطاقتها .

ويخضع **الهو** لمبدأ اللذة فقط ولا يهتم بأى شيء آخر . أنه هذا الجزء الخام ، غير المرب ، غير المذهب ، الباحث عن اللذة . أنه الزاد الاساسى الذى يحرك الانسان خلال حياته ، انه لا يعرف القوانين ولا يخضع لقواعد ويبحث فقط عن شهواته . انه القوة المحركة لوجود الانسان . وعلى الرغم من أنه ولىق الصلة بالعمليات الجسمية التى يستمد منها طاقته ، فان « الهو » نظام نفسى حقيقى ، وليس لمكان محسوس فى جسم الانسان ، كالقلب أو المخ مثلا .

ولا يمكننا أبدا أن ندرك الهو فى صورته الخام ، وربما كانت أقرب صورة للهو ، ما يبدو لنا فى دراسة الطفل الصغير أو فى سلوك الدهاننى (المريض عقليا) . فالطفل الصغير يسلك سلوكا انانيا تماما ، يهدف الى اشباع رغباته وتحقيق لذاته دون مراعاة لحاجات الآخرين ، فهو يخضع لمبدأ اللذة فحسب . وكذلك الدهاننى الذى يسلك كيفما يحب ويمجبه ، فسلوك الطفل والدهاننى أقرب الى ما يعنيه فرويد بمفهوم « الهو » .

الانا : ومن المفترض أن الهو فى صورته الخام ، اذا ترك لاساليبه الخاصة فقد يحطم نفسه . فهو فى حاجة الى ما يضبط طاقته ويوجهها نحو أكبر اشباع ويقدر ما تسمح به مطالب الحياة ودون أن يهدم نفسه أو يحطمها . ويذهب فرويد الى أن الانا تحقق هذه الوظائف وتحققها جيدا . فالانا تتبع مبدأ الواقع وتعمل وفق العمليات الثانوية . فإذا كان الهو يعمل وفق مبدأ اللذة ويستخدم العملية الاولى وتفريغ التوتر بتكوين صورة لموضوع من شأنه أن يزيل التوتر ، الا أن الكائن الحى يتطلب معاملات مناسبة واشباعا واقعيا ، ومن ثم يفرق الانا بين الاشياء التى توجد فى العقل والاشياء التى توجد فى العالم الخارجى . ومن هنا تطبع الانا مبدأ الواقع الذى يعمل على الحيلولة دون تفريغ التوتر حتى يتم اكتشاف الموضوع المناسب لاشباع الحاجة . فمبدأ الواقع يرحبه مبدأ اللذة مؤقتا ، لان مبدأ اللذة هو الذى سوف يخدع فى نهاية الامر عندما يوجد الموضوع المرغوب فيه ، ومن ثم يخفض التوتر .

فالانا إذن امتداد للهو وغير مستقل عنه أبدا . والانا هو الجزء المنظم وهو الذى يبحث فقط عن ايجاد مخارج تخدم أغراض الهو ، دون أن يترتب على ذلك تعطيله . أن الانا يستمتع بكل الاشباع التى يسمح للهو أن يستمتع بها أيضا ، ولكنه يستمتع بها بذكاء ويتعقل فى ضبط واختيار وتقرير ما يشبع وكيف يشبع . فالانا إذن يخضع لمبدأ الواقع ، يفكر تفكيرا موضوعيا ومعتدلا ومتمشيا مع الاوضاع الاجتماعية التعارف عليها . اما وظيفته

فهو الدفاع عن الشخصية والعمل على توافقها مع البيئة وحل الصراع بين الكائن الحي والواقع أو بين الحاجات المتعارضة للكائن الحي .

الآنا الأعلى : وهذا هو الكون الثالث للشخصية الفرد ، وهو مكون يقع في الطرف الآخر من الهو ، والآنا الأعلى هو الأخير في عملية النمو النفسي لهذه الأبعاد الثلاثة للشخصية . انه الممثل الداخلي للقيم التقليدية للمجتمع ، وهو شيء موجود داخل الفرد وليس خارجه . انه مكون داخلي وليس مجموعة من القوانين الحاكمة ، وعندما ينمى الفرد « آنا أعلى » داخل نفسه ، يكون حينئذ قد أصبح شخصية ناضجة . فالآنا الأعلى هو هذا الجانب الخلقى للشخصية ، انه مثالي وليس واقعيا ، هدفه الكمال وليس اللذة . انه هو الذي يقرر ما اذا كان نشاط ما حسنا ام سيئا وفق معايير المجتمع التي يتقبلها ، والقوانين الاجتماعية لا تعنى شيئا بالنسبة اليه ما لم يتقبلها ويتوحد معها .

ويمكن تلخيص الوظائف الأساسية للآنا الأعلى فيما يلي :

- ١ - كف دفعات الهو وبخاصة تلك الدفعات ذات الطابع الجنسي أو العدوانى ، حيث ان هذه الدفعات هي التي يقابل التعبير عنها من المجتمع بأشد صور الادانة والرفض.
- ٢ - اقناع الآنا بأحلال الاهداف الاخلاقية محل الاهداف الواقعية .
- ٣ - العمل على بلوغ الكمال ، أى ان الآنا الأعلى يعيل الى معارضة الهو والآنا معا ، والى تشكيل العالم على صورته . الا انه يشبه « الهو » في انه غير خلقى ، ويشبه الآنا في محاولته ممارسة التحكم في الغرائز ، ويختلف « الآنا الأعلى » عن « الآنا » في انه لا يحاول ارجاء الاشباع الفوري فحسب ، بل انه يحاول التحيلة دونه على الدوام .

تلك هي ديناميات الشخصية وبناءها في نظرية التحليل النفسي . وفي ضوءها قام فرويد بتفسير أساليب السلوك المختلفة والمراحل النمائية التي تمر بها ابتداء من الطفولة حتى الرشد . ويمثل هذا الانتقال من مرحلة الى مرحلة النمو النفسي الجنسى للفرد ، والذي قد يتخذ صورة سوية أو غير سوية نتيجة المؤثرات المختلفة التي يتعرض لها الفرد . وسوف نشير باختصار الى هذه المراحل المختلفة التي يمر بها الفرد في نموه النفسي من الطفولة حتى الرشد .



❖ مراحل النمو :

ولفظ مراحل يشير الى تتبع نمو الانسان وشخصيته ابتداء من الولادة حتى الكبر . فالطفل قد يمر عبر سلسلة من المراحل المحددة تكوينيا ، ومالم يتعرض هذا النمو في سيره الى تدخل ظروف شاذة أو معوقة ، فمن المتوقع ان يسير على نحو طبيعي ، وعلى شاكلة ما تجده عند الغالبية العظمى من الناس .

أن فكرة بناء الشخصية ونموها عند فرويد أشبه ما يكون بالطريقة التي يقوم بها البناء حائفاً من الطوب حيث توضع طوبة طوبة ، ويسير البناء من أسفل إلى أعلى ، وترتبط قمة البناء بأساسه أو أصله . فشكل البناء وسمكه وجميع خصائصه ترسي قواعده في الأساس الذي يقام عليه . وتفسير شكل البناء تفسيراً ملحوظاً قد يترتب عليه هدم البناء بأكمله . والشخصية بالمثل - في نموها - ترسي قواعدها في السنوات الأولى من حياة الكائن الحي . وهذا الأساس غير قابل للتغير وهو يحدد ما يمكن أن يقام عليه بعد ذلك . فإن كان الأساس ضعيفاً مهزولاً وغير مستقر ، نشأت الشخصية وتطورت بشكل ضعيف مهزول غير مستقر كذلك . ومن هنا جاء قول فرويد أن « الطفل أبو الرجل » ، وأن الأساس الذي يوضع في الطفولة هو الذي يحدد ما سيكون عليه الفرد في الكبر . ولكن ليس معنى ذلك أنه حين ينمو البناء لا يمكن تغييره . أن من الممكن أحداث تغييرات طفيفة ، ولكنها لا تتجاوز أبداً حدود ما يتحملة الأساس أو الشكل الذي اتخذه . فإن حدث هذا التجاوز أثار البناء (على نحو ما نجد في الشخصيات الدهائية والمصايب) . وفي العادة يتغير الكثيرون منا مع النمو ، ولكن احساساً منا بخطر الانهيار ، وخوفاً على انفسنا من اهتزاز البناء ، فأننا نحذر الاعتماد كثيراً عما يمكن أن يتحملة بناء شخصياتنا .

وعلى هذا النحو ، نجد فرويد يعطى أهمية كبرى لعملية البناء طوبة طوبة من أجل بناء شخصية الفرد في المستقبل ، كما يعطى أهمية كبرى للسنوات الخمس الأولى من حياته ، باعتبارها أهم سنى العمر والأساس الذي يقام عليه كل بناء .

ومن حسن الحظ أن عوامل البناء تتوافر للفألية العظمى من الناس . فإبنا ينشأ في أحضان أبوين يتكاتفان معاً على تربيته وتنشئته بشكل يجعل الرحلة الطويلة للحياة تسير في خطى وثيدة مطمئنة متعاقبة . فأكبر العوامل ذات الأثر في نمونا النفسي السوي وصحتنا العقلية في الرشد ، توضع خلال السنوات الأولى من الحياة .

إن الوليد عندما يرى النور لأول مرة تتركز اهتماماته على إشباع حاجاته الأساسية التي يولد مزوداً بها ، وأهمها حاجته إلى الطعام الذي يحصل عليه عن طريق الفم ، وقرباً نهاية السنة الأولى تبدأ عمليات ضبط الإخراج والتدريب على العادات المتعلقة به ، ومن ثم يتركز اهتمامه حول هذه العمليات وتصبح محور التركيز من الناحية الجسمية . وفي حوالى سن الثالثة يبدأ الطفل في استطلاع غوامض تشريح أعضائه التناسلية أو أعضاء المحيطين به . هذا ما يحدث لكل فرد . فكل طفل يمر بثلاث مراحل نمائية رئيسية تقع كلها في السنوات الأربع الأولى من حياته ، ويهتم كل منها بجزء خاص من تشريعات جسمه يكون مؤقتاً موضع الاهتمام الأول بالنسبة للطفل . فهناك الفم ثم الشرج ثم الجهاز التناسلي . وهذه لا تصبح فقط موضوعات الاهتمام الخاص عند الطفل ، بل إن الخبرات التي ترتبط بها تصبح الطرق التي تؤدي إلى الحصول على الإشباع وتؤدي إلى الإحباطات أيضاً .

فالطفل الصغير يركز اهتمامه أساسا طوال السنة الأولى تقريبا في المنطقة الفموية ، ثم ينتقل هذا التركيز بعد ذلك طوال السنة الثانية والثالثة تقريبا حول منطقة الشرج ، ثم يتركز الاهتمام أخيرا حول المنطقة التناسلية ، وذلك بعد سن الثالثة الى سن السادسة . وطبيعي أن ليست هناك قواعد ثابتة محددة لمجرد الزمن الذي يتحول فيه الطفل من خبرة الى أخرى ، لأن ذلك يتوقف الى حد كبير على أسلوب المعاملة الأسرية ، كما أن ليس هناك بالتأكيد فواصل مميّزة دقيقة بين كل مرحلة وأخرى .

« لقد لقد سعى فرويد هذه المراحل باسم «مراحل النمو النفسي الجنسي» وهذا هو التعبير الذي لا زالت تعرف به . . أن هذا التعبير يعنى أن الطفل على طول تطوره النفسي ، يمر بعلامات مميزة ومحددة لمراحل النمو النفسي الخاصة كلما كانت القوى والدوافع الداخلية في هذا الشخص الجديد تحاول أن تصله بالناس المحيطين به ، وأن تجد الطرائق التي تعطيه الاشباع من هذا الاتصال » .

وسوف نوضح مراحل النمو النفسي الجنسي هذه دون الإضافة في ذلك :

(١) **المرحلة الفموية :** ترتبط أول مرحلة من مراحل النمو في تكوين شخصية الفرد بالمنطقة الشبقية الفموية وعلى وجه الخصوص بالشفتين . فالطفل يبدأ عقب الولادة بقليل استخدام الشفتين في الحصول على الطعام ، ويصبح فم الطفل وسيلة الاتصال الهامة بالعالم ، وهو لا يستعمل للحصول على هذا الطعام الشهي اللذيذ الذي من شأنه أن يخفف من حدة التوتر الذي يشعر به في أحشائه فحسب ، بل وأيضا ليستمتع بخنان الأم التي تضمه الى صدرها وقت اشباع هذه الحاجة . ويتكرر هذا الحدث الهام في حياة الطفل كل ثلاث أو أربع ساعات ، كما يكتسب الشخص الذي يحتضنه وهو يطعمه من الثدي أو الرجاجة بمرور الزمن نفس أهمية الطعام .

وليس ثمة شك أن هذا الطعام الذي يحصل عليه الطفل يعتبر مصدر اشباع ولذة . فهو طعام شهى ووليد (وهذا هو مبدأ اللذة) . وسواء كان يحصل عليه من طريق الثدي أو عن طريق الرجاجة ، فإن الوليد في شهره الأول سربما ما يتعلم (عن طريق مبدأ اجبار التكرار) أن التجويف الفمي واللسان والشفتين عند ملامس هذه الأشياء تصبح مصدر لذة وسعادة بالنسبة له (منطقة شبقية) . ومن الطبيعي أن يتعلم الطفل استخدام الشفاه كلما أراد الحصول على هذا الاحساس الساكن أو اللذة ، فهو عندما يحس ثاقبة بالجوع ، تقوم المنطقة الفموية بتوورها وتؤدي به الى التسحور باللذة . ولما كان الطفل في هذه المراحل الأولى من حياته يعتمد كثيرا على العادات التي يكونها ، فانه يلجأ الى استخدام الشفاه في الحصول على اللذة أيا كانت حالة الجوع التي يكون عليها . وبما لذلك ، وبعد أن يكون قد درب الشفاه على أحداث اللذة ، فقد يلجأ الى استخدام الأصابع أو أي مثير آخر (كأصابع القدم مثلا) من أجل الحصول على اللذة سواء كان جائعا أم غير جائع (خفض التوتر) . وهكذا تصبح الشفاه من الآن فصاعدا مصدرا للحصول على اللذة .

ولما كانت الأشياء التي تظهر أولا في نظام ما ، تكون آخر ما يترك هذا النظام ، فإن المرحلة الفنية والمنطقة الشبقية الفنية تكونان على هذا الأساس أطول وأقسوى مراحل حياة الإنسان ، فهو دائما يبحث عن هذه المنطقة الفنية ، وهو يقوم بذلك حتى إذا كان مثل هذا النشاط غير مجد في حل المشكلة أو في خفض التوتر .

(ب) **المرحلة الشرجية** : والمجموعة التالية من الخبرات ذات الأهمية البالغة في تشكيل طباعنا وعلاقاتنا بالناس هي التدريب على عملية الإخراج وعادته . وكما كان الحال خلال المرحلة السابقة لا يتركز الانتباه فقط على جزء معين من تشريح الجسم ، ولكن على وظيفة هامة ترتبط به . وتختلف الاتجاهات التي تتكون في هذه المرحلة اختلافات بينة ، الأمر الذي يتوقف على ما يظنه الآباء أحسن مران ونظام للتدريب يمكن استعمله » .

وحين يتجمع قدر كاف من فضلات الطعام لدى الطفل ، فإن ذلك يسبب له توترا في الأمعاء يؤدي إلى الشعور بعدم الارتياح أو الألم . وطرده الفضلات وإخراجها يزيل عنه مصدر القلق ، ويحدث له الشعور بالراحة . وعند بداية التدريب على النظافة - وهذا ما يحدث عادة في السنة الثانية من العمر - يلتقى الطفل بأول خبرته حاسمة له مع التنظيم الخارجى للدعة غريزية . فعليه أن يتعلم إرجاء اللذة التي يحققها له التخلص من توتره الشرجي ، أى عليه أن يتعلم الخضوع لمبدأ الواقع ، وأن يقوم بعملية الإخراج حين تصل هذه الضغوط إلى حد معين ، وأن يقوم بها في أماكن معينة وليس في أى مكان يشاء . وتتوقف نتائج هذا التدريب على الأسلوب الذي تتبعه الأم في تدريبه على ضبط عملية الإخراج . فإن كان أسلوبا شديدا صارما ، فقد يقبض الطفل على فضلاته ويصاب بالإمساك . وحين يعمم هذا الأسلوب في الاستجابة إلى مجالات من السلوك فيما بعد ، فقد ينمو لدى الفرد خلق قابض ويصبح عنيدا شحيحا ... أما إذا كانت الأم من النوع الذي يتودد إلى الطفل ليخرج فضلاته وتسرع في مديحه عندما يستجيب لذلك ، فإن الطفل تتكون لديه فكرة قوامها أن النشاط الخارجى بأكمله أمر بالغ الأهمية .

وقد تكون هذه الفكرة أساس الخلق والانتاج . وعلى العموم ، يقال أن العديد من السمات الأخرى ترجع جلورها إلى المرحلة الشرجية (هول ولنزلى ص ٧٦) .

وبالتأكيد يستطيع الطفل أن يحس بأن عملية التدريب على الإخراج هامة جدا بالنسبة لأمه وأبيه ، والا فلماذا كل هذه الضجة التي تثار حولها . أنه يتعلم في وقت مبكر أن ما يقوم به من عمل أو مال يؤديه يكون له اثره على المحيطين به . وليس من شك في أن الخبرات التي ترتبط بالتدريب على الإخراج ، وما ينتج من ذلك من اتجاهات الأطفال نحو الآباء ، تضع اللبنة الأولى لكثير من الاتجاهات والأعمال التي يقوم بها الفرد في مستقبل حياته . أنها أول هذه بالتدريج والنظافة ، وربما قد يتعلم منها أشياء أخرى كثيرة . فقد يتعلم من هذه العملية « أن يثابر على العمل حتى ينتهي من العملية الإخراجية » ، وهذه بلا شك خبرة لها علاقة بالثابرة والإصرار فيما بعد ذلك من أيام الحياقي أى عمل تقوم به ، كما قد تفقد هذه الإحساس بالقوة إذ يمكنه التحدى والعناد ومنع الإخراج ، وليس هناك من يجبره على القيام بذلك إذا أراد الامتناع من القيام به .

(ج) **المرحلة الجنسية** . وتتفجر في حياة كل كائن بشري في حوالى سن الثالثة او الرابعة رغبة في استطلاع أمور الجنس ، ويرتبط بهذه الرغبة قدر معين من الاستشارة الجنسية . والمنطقة الشبقية الناشئة التى تلى المنطقتين السابقتين هى الأعضاء التناسلية . ولا شك ان الطفل يستمد لذة من اللعب بهذه الأعضاء . وتكون حياة الطفل الانفعالية اى علاقاته الوجدانية بأفراد الوسط المحيط به في هذه الفترة ، اشبه بالحياة العاطفية للكبار . وفى خلال هذه الفترة (من سن ٣ - ٥) تكون علاقاته العاطفية والاجتماعية بوالديه قد اخذت تنمو وتتعمق ويهيم السبيل لظهور عقدة أوديب . وتستمد عقدة أوديب اسمها من أساطير الاغريق حيث كان أوديب طفلا لآحد الملوك ، ولكن المنجمون أنه سوف يقتل أباه حين يكبر ، فبذله الملك في العراء . ولما كبر أوديب التقى بالملك وتنازع على امر ما ، فقتل أوديب الملك دون أن يعرف أنه أبوه . ثم دخل المدينة وتزوج ملكتها ، وهى أمه ، دون أن يعرف أنها أمه . وقد اخذ فرويد من هذه الاسطورة صورة لما يعانيه الطفل الانسان أبان طفولته المبكرة في صلتة بوالديه والتي تسمى باسم « الصراع الأوديبى » .

ذلك أن أول موضوع يمر بخبرة الطفل - هذا نفسه - هى أمه . انها أول انسان يطمعه ويلبسه ويحببه ويجب كل مطالبه وحاجاته . والطفل يعتمد على الام في هذه المرحلة الاولى من حياته اعتمادا كليا . ومن هذا الاعتماد من أجل الحياة والتوحد معها ، ينمو الاحساس بالحب للام .

ثم ان الطفل بالإضافة الى حبه لأمه واكتشافه لجسمه وأعضائه التناسلية يصبح أيضا على معرفة بالدون الذى يقوم به الاب في حياته . فلاب أنسان أكبر واقوى منه بكثير، وأنه اقل وجودا معه في البيت ، وأنه يشبهه في الجنس ، له انه يشاركه في حب الام ويحظى باهتمامها .

وفى الحقيقة يبدو أن له بعض الاولوية في وقت الام ومحبتها ، وتكون النتيجة الطبيعية لهذا هو الاحساس بمنافسة خفية وغير مقصاحة . وفى المراحل الاولى لهذه المعرفة ، لا يفعل الطفل الذكر شيئا لكبح احساسه بالغيرة . ومع ذلك يبدأ الكبت في الظهور مع استمرار النمو . ثم هو يلاحظ أيضا أنه من الناحية الجنسية ، اقرب شيها بابيه منه بأمه ، وهى حقيقة تؤدى به الى التوحيد مع الاب مثلما توحد مع الام . وينشأ التناقض الوجداني (مبدا الازدواج او الثنائية) من هذه الشحنة الوجدانية نحو شخصين مختلفين كلاهما يعتبر ضروريا وهاما لسعادته وراحته . فهو من ناحية يحب ان يشارك الاب في حب الام ، تلك المشاركة التى لا يحبها نظرا لرغبته في الاستئثار بحبها ، ولكن من ناحية أخرى أكثر شيها بالاب منه بالام ، وهو احساس بالتوحيد يجلب له السرور والرضا . وطالما أنه مع استمرار النمو ينمو أيضا مبدا الواقع ، فانه قد يتوقع نوعا من العقاب يوقعه الاب ، أمضى عقاب الاب له على مشاركته في حب الام . ولما كانت معرفته بالعالم لا تزال قاصرة ، ولما كانت تربيته لا تزال تدور حول المناطق الغميمة والشرجية والجنسية ، فان أى عقاب يمكن أن يوقع به الاب ، سوف يتصل بهذه المناطق الشبقية . ولما كانت الصفة الجنسية الوحيدة التى تعيزه عن الام هى عضوه

الذكرى ، إذن ، فإن هذا العضو هو الذى يمكن أن يوجه اليه الثأر والانتقام من جهة الأب ، حتى يجعله أقرب شيها بالإنثى ويبعد عنه في الوقت نفسه صفته الذكرية الوحيدة . ويشبه ذلك من حيث الأهمية أيضا أن عضو الذكر هو عضو التحريم الذى يجب أن يزال من أجل استبعاد أى احتمال لجرد التفكير في قيام أية علاقة محرمة مع الأم . وهذا الخوف الشديد هو الذى أشار اليه فرويد باسم عقدة « الخصاء » . فالطفل الذكر يخاف من إزالة هذا العضو الذى يجعل منه ذكرا شبيها بالأب مما يترتب عليه فقد التوحد مع الأب ، كما يخاف أيضا من منافسته المستمرة للأب في حب الأم وجذب اهتمامها . ومبدأ الثنائية هذا يترتب عليه ظهور القلق عند الطفل بشكل يعجز معه عن أحداث التوافق إلى أن يدخل مبدأ الواقع ميكانيزم الدفاع عن الانا ونعني به ميكانيزم الكبت . وبذلك يجد الطفل طريقا لحل مشكلته .

ولتعتبر الفترة من الثالثة حتى الخامسة أو السادسة من أقوى فترات النضال العنيف لدى الطفل . ومع ذلك فهي تستمر كاملا حيوي خلال حياة الفرد ، كما يكون لها أثر في اتجاه المراهق نحو الجنس الآخر ونحو مصادر السلطة وفي علاقته بزوجه واطفاله .

هذا فيما يتصل بالولد الذكر . أما عن البنت ، فإن مقدتها تسمى باسم « عقدة الكتروا » . وتتطور علاقتها بابيها تطورا أكثر تعقيدا ، يتأثر بما تستشعره البنت من احساس بالغيرة من الأم لمشاركتها في حب الأب . وما تستشعره من وجودها بغير هذا العضو الذكرى واعتبارها أمها مسئولة عن ذلك . وإلى جانب اتهامها لأمها بأنها المسئولة عن حالة الفقد هذه ، فإنها تتوحد بقوة مع الأب ، لأنه يمتلك هذا العضو الذى تحسده عليه ، ويظهر حسدا واضحا في المقارنة مع أبيها الذي يمتلك شيئا تفقده هي .

ومرة أخرى تظهر الثنائية عند الفتاة . ذلك ان مشاركتها لأمها من حيث افتقارهما إلى شيء ما ، يقوى توحيدها الأولى والأصلى مع الأم ، ويحدث التناقض الوجداني حالة قلق انفعالي عند الفتاة . وقد أطلق فرويد على حالة القلق هذه اسم « حسد القضيب » . وللاصل البنت بسهولة إلى حل هذا التناقض الوجداني مع وجود فروق سيكولوجية عديدة بين الذكر والأنثى . ويستمر هذا الحسد لدى الفتاة فترة أطول ، كما تصبح أكثر تمردا على الأم مع المراهقة ، وتعدل اتجاهها تدريجيا حتى توفق هي الأخرى في الحصول على شريك حياتها بالزواج . ومرة أخرى تكشف - كما نحن تناقضها الوجداني نحو الجنس وذلك في دورها كأم لأولاد وبينات ودورها كزوجة لرجل .

(د) فترة الكمون :

ويدخل الطفل في مرحلة كمون جنسي تبدأ في حوالي سن السادسة أو السابعة أو الثامنة . وفي هذا الوقت يصبح الطفل أكثر اهتماما بالعديد من الأمور الأخرى غير الجنس ، إذ يخصص لمثل هذه الأمور وقتا أطول مما كان يخصصه لها من قبل . ولكن لا يحتمل أن تفوته فرصة استطلاع أسرار الجنس في أى مجال من المجالات التي تتاح له فيها فرصة القيام بذلك . وبغالب ما يحصل الطفل في هذه المرحلة على المتعة من اللعب

والعمل المدرسي ويمكن القول بوجه عام أن الكثير من صراعات الطفل القديمة من الجنس تكون قد تقدمت قليلا في ناحية الاتضاح ، وأن الموضوع كله قد أصبح مفهوما بصورة أفضل .

وبالإضافة الى ذلك ، فإن الأطفال في هذه المرحلة يبدأون في استغلال بعض اهتمامهم وميولهم في غيرهم من الناس كأصدقائهم وزملائهم في المدرسة ، بدلا من أن يكونوا منظوين على أنفسهم . وفي هذا الوقت تتاح لهم أول فرصة لتنمية مشاعر الحب والمتعة والتعلق بالنقاء في عالمهم الذي بدأ يتسع بعض الشيء ، ولو أنه لا زال صغيرا ومعروفا - عالم زملاء اللعب والعلمين والإبطال والنجوم من الذكور والإناث .

(هـ) **المرحلة التناسلية :** والمراحل الثلاث السابقة على مرحلة الكمون - وهى الفعية والشرجية والقضيبية - تعرف باسم **المراحل قبل التناسلية** . وتتميز شحناتها بأنها ذات طابع نرجسي حيث يحصل الفرد على اللذة من تنبيه مناطق معينة من جسمه ، وأن شحناته تستهدف الآخرين لأنهم يتيحون له إشكالا إضافية من اللذة الجسدية فحسب . ومع المراهقة يبدأ بعض هذا الحب يتلمس طرقا تقوده الى اختيارات موضوع حقيقي ، ويشعر المراهق في حب الآخرين ، تحدوه دوافع الإيثار وليس مجرد أسباب نرجسية . فالجاذبية الجنسية والتنشئة الاجتماعية والنشاط الجماعى والتخطيط المهنى والاستعداد للزواج وتكوين الأسرة يبدأ جميعها في التعبير عن نفسها بصورة واضحة . وفي نهاية المراهقة تسبع الشحنات الانفعالية الاجتماعية الغيرة أكثر ثباتا ، ويتحول الفرد من النرجسية او البحث عن اللذة الذاتية الى راشد يسيره الحقيقة الواقعية والمجتمع (هول ولندزى ص ٨٠) .

وأخيرا ، يحسن ان نشير الى أنه على الرغم من أن فرويد قد ميز بين مراحل أربع من النمو النفسى الجنسى ، إلا أن هذه المراحل ليست منفصلة بعضها عن بعض ، أو أن الانتقال يكون فجائيا من مرحلة الى أخرى . وبذلك يكون التنظيم النهائي للشخصية هو نتيجة إسهامات هذه المراحل الأربع .



ثانيا : نظرية أريكسون :

لقد أدخل أريك أريكسون تعديلات على نظرية فرويد في **النمو النفسى الجنسى** في ناحيتين أساسيتين : **الأولى :** التوكيد على التفاعل المتبادل - وربما بصورة أكثر مما عند فرويد - بين المحتوى الاجتماعى والمراحل البيولوجية المعينة التي يمر بها الكائن الحى . **والثانية :** التوسع في المراحل . فبعد ان كانت هذه المراحل أربع عند فرويد (الفعية - الشرجية - القضيبية - التناسلية) ، أصبحت ثمانية عند أريكسون .

وسوف نعرض نظرية أريكسون بشيء من الاختصار مستعينين في ذلك بما قدمه في كتابه « **الطفولة والمجتمع** » طبعة ١٩٧٠ (١٧) ، « **الهوية : الشباب والازمات** » طبعة ١٩٦٨

(١٨) .

وقد اشار أريكسون في بداية حديثه من نمو الشخصية الى أن هناك مسورا كثيرة لخصائص الشخصية السوية واخذ بتعريف **ماري جاهودا** **Mario Jahoda** التي تذهب الى أن الشخصية السوية هي « تلك التي تسيطر على البيئة بنشاط ، وتكشف عن وحدة معينة ، ولديها القدرة على ادراك العالم والدراك نفسها على نحو سليم » . ومن الواضح أن هذه المعايير تعد نسبية إذا نظرنا إليها من ناحية النمو المعرفي والاجتماعي للطفل . فالطفولة تتميز في الحقيقة بالقياب المبدئي لهذه المعايير ، وينموها التدريجي بعد ذلك في خطوات معقدة من التمايز المطرد . ومن هنا ، يرى أريكسون أن من المفيد أن نبين الطريق الاساسي لنمو الشخصية وخصائصها السوية .

ويذهب أريكسون الى أنه عند محاولة فهم عملية النمو ، يحسن أن نتذكر جيدا مبدأ « **التخلق المتعاقب** » (**Epigenetic Principle**) والذي نستمدّه من نمو الكائن الحي العضوي داخل الرحم . ويتميم هذا المبدأ نوما ما ، يمكن القول بأن أي شيء ينمو ، إنما يكون له منذ البداية ، خطة أساسية ينمو وفقا لها ، ومن هذه الخطة الاسمية تقوم الاجزاء ، ويكون لكل جزء بوقت محدد لظهوره ، حتى يكتمل ظهور الاجزاء جميعا ، فتكون كلا وظفيا . هذا ما يصدق بشكل واضح على نمو الجنين ، حيث يكون لكل جزء من اجزائه وقت محدد لظهوره ، والا تعرض للتلف أو نقص التكوين . وعند الولادة يتخلل الطفل عن التبادل الكيميائي الذي كان يتم داخل الرحم ، كي يفسح المجال امام نظام جديد من التبادل الاجتماعي مع مجتمعه الذي سيحيا فيه ، وحيث تبرز قدراته وامكانياته المتزايدة بالتدرج لكثير من فرص النمو . ومن الإجابات التي تظهر داخل الاطار الثقافي الذي يعيش فيه . أما كيف يستمر الكائن الحي النامي في نموه ، لا عن طريق نمو أعضاء جديدة ، ولكن عن طريق التتابع المحدد لظهور القدرات الحسية والحركية والاجتماعية ، فهذا ما تمتلئ به كتب النمو . لقد أمدنا التحليل النفسي بالكثير من المعلومات التي تتصل بالخبرات المزاجية ، وعلى وجه الخصوص بالسرعات الداخلية التي تكشف عن الطريقة التي بها يصبح الفرد شخصية متميزة ، ولكن من المهم أيضا أن نتحقق من أن الطفل السوي في تتابع خبراته الشخصية يمكنه ، إذا منح قدرا معقولا من التوجيه السليم ، أن يخضع لقوانين النمو الداخلية ، تلك القوانين التي تسمح بتتابع ظهور الإمكانيات في تفاعلها الهام مع الشخصيات والمؤسسات الاجتماعية التي يتفاعل معها . وإذا كان هذا التفاعل يختلف من ثقافة لأخرى ، إلا أنه يجب أن يظل داخل اطار « المعدل الطبيعي للسرعة والتتابع السري » الذي يحكم كل تخلق متعاقب . وعلى ذلك ، يمكن القول بأن الشخصية تنمو وفقا لخطوات محددة سلفا في استعداد الكائن الحي العضوي ، من أجل أن يصرّف ويتفاعل ويتجه نحو مجال أوسع من الأشخاص والمؤسسات ذات الأهمية بالنسبة له . ولذا يستخدم أريكسون عند عرضه لمراحل نمو الشخصية تصورا لهذا التخلق المتعاقب في النمو النفسي ابتداء من الطفولة الأولى حتى الرشد .

● **Epigenesis** : التخلق المتعاقب : نظرية تقول بأن الجنين يتكون بسلسلة من التشكلات المتعاقبة (وهي تتناسل التخلق السبقى القليلة بأن جميع أعضاء الجنين موجودة وجودا مسبقا في الجرثومة) .

ومن الطبيعي ان يواجه الطفل في كل مرحلة من مراحل نموه مشكلة أساسية عليه ان يحلها بصورة مؤقتة على الأقل ، اذا أراد ان يتقدم في حيوية ولغة الى المرحلة التالية . وهذه المشكلات او هذه الصراعات بين المشاعر وبين الرغبات لاتحل باكملها على الاطلاق ، فكل تغير في الخبرة والبيئة من شأنه ان يظهر هذه الصراعات في صورة جديدة . على ان من المعتقد ان كل نوع من هذه الصراعات يبدؤ في انقضى صورة واوضحها في مرحلة معينة من مراحل نمو الطفل ، ومتى حلّ هذا الصراع او هذه المشكلة حلا طيبا في ذلك الوقت ، تم وضع اساس التقدم الى المرحلة التالية .

ونقدم فيما يلي وصفا للمراحل النمائية الثمان عند أريكسون .

١ - الاحساس بالثقة الاساسية في مقابل عدم الثقة الاساسية : وعند وصف مجموعة الاتجاهات الاساسية المتعاقبة للنمو ، استخدم أريكسون مصطلح « الاحساس ب » sense of ومع ذلك ، يجب ان يكون من الواضح بشكل مباشر ان مثل هذه الاحساسات ، كالاحساس بالصحة او الحبيوية او الاحساس بالافتقار الي كليهما ، تنطبق على جميع الاشياء التي تنتشر ظاهرة على السطح او توجد في الاعماق . فهي تنطبق على الحالات الشعورية وما قبل الشعورية واللاشعورية . فالثقة ، كخبرة شعورية يمكن ان تخضع للاستيطان ، ولكنها هي ايضا وسيلة للسلوك قبل الملاحظة من الآخرين ، ثم بانها اخيرا حالة داخلية يمكن ان تتحقق فقط من طريق الفحص والتفسير بالتحليل النفسي . وكل هذه الابعاد الثلاثة يمكن الاستدلال عليها حين نتحدث من « الاحساس ب » .

وأول مكون للشخصية السليمة هو « الاحساس بالثقة » . وهذا الاحساس يظهر عادة خلال السنة الاولى من حياة الطفل ، وهو كثير من مكونات الشخصية لا ينمو مستقلا عن غيره من مظاهر النمو الاخرى . والشعور بالثقة لا يعني ان الطفل قد أصبح قادرا على استخدام جسمه في حركة هادفة ، وانه قادر على التعرف على من حوله من الناس والاشياء فحسب ، بل وايضا يستعمل كتعبير موجز عن خاصية مميزة لكل خبرات الطفل المشبعة في هذا السن المبكر .

وأول مظهر من مظاهر الثقة الاجتماعية لدى الطفل في هذه المرحلة هو ما يتجلى في سهولة الحصول على الغذاء ، وعمق النوم ، والشعور بالارتياح عقب القيام بعملية الإخراج . وتساعد خبرة التنظيم المتبادل بين قدراته المستقبلية . واساليب الام التي تزوده تدريجيا باحتياجاته المختلفة ، على احداث التوازن لمشاعر عدم الارتياح . ومع ازدياد ساعات اليقظة ، يجد الطفل ان الخبرات الحسية المتزايدة من شأنها ان تثير لديه الاحساس بالالثقة والتوافق مع مشاعر الارتياح الداخلية ، وتصبح اشكال الارتياح ، وكذلك الناس والاشياء المحيطة به ، امورا مألوفة لديه .

ويستعد الطفل من الثقافة التي يعيش فيها بعض الاساليب الاساسية . ومن ابسطها واسرعها ظهورا ، أسلوب « الأخذ » ، لا بمعنى « ان يذهب ويأخذ » ، ولكن بمعنى ان « يستقبل ويتقبل ما يقدم له » وهذه العملية بسيطة وسهلة . ومع ذلك فان اي اضطراب

فيها من شأنه أن يكشف عن مدى عمق هذه العملية . فهذا الطفل الصغير يتعلم كيف ينظم استعداده « للاخاء » مع أساليب الأم التي تسمح بدورها للطفل أن ينسق وسائله ، عندما تنمى هي وسائلها في العطاء . ونتيجة لهذا كله ينمى الطفل أيضا التوحد مع الأم ، ويصبح أخيرا معليا على نحو ما كانت الأم .

وقد يظهر لدى بعض الأطفال الحساسين على وجه الخصوص أو الذين لا تعرض أحوالهم المبكرة ، قدر من الضعف في أحداث مثل هذا التنظيم المتبادل المبكر ، الأمر الذي يسبب اضطراب العلاقة مع العالم الخارجي بعامه ، ومع الأشخاص المهمين بخاصة . غير أن هناك بالطبع طرقا أخرى لتوكيد هذا التبادل من خلال مواقف أخرى غير المواقف الغمية المستقبلية . فهناك أحاسيس الطفل بالسرون عندما تضمه الأم إلى صدرها أو عندما يتسم له أو يتحدث إليه أو تدله . وإلى جانب مثل هذا التعويض « الأفقي » (الذي يحدث خلال نفس مرحلة النمو) وهناك أيضا التعويضات « الطولية » في الحياة والتي تظهر خلال المراحل التالية من دورة حياة الفرد .

وخلال المرحلة الغمية الثانية ، تنمو لدى الطفل بعض القدرات للحصول على اللذة باتخاذ أساليب أكثر إيجابية وأكثر اندماجا ، وبشكل مباشر . ففي هذه المرحلة تبرز الأسنان ، ومع بزوغها يظهر السرور من القيام بالقضم على الأشياء أو عضها . ويتصف هذا الأسلوب الإدماجي النشط بعبء من الانشطة الأخرى ، فالعين التي كانت من قبل سلبية في استقبالها للانطباعات التي تحدث ، تتعلم الآن التركيز على الأشياء وفصلها وإدراكها على أرضيتها الفاضفة وتبنيها . وبالمثل تتعلم أعضاء السمع أن تميز الأصوات الهامة والتركيز عليها وإدارة الرأس ورأعها ، وتتعلم الأذرع الوصول إلى الأشياء والقبض عليها باليدين بشكل محدد .

ومن الصعب تقدير أزمة هذه المرحلة الغمية نظرا لأنها تتألف من الانفلاق الزمني لثلاث عمليات ثلاثة : (أ) حافز قوى الإدماج وانفراد وملاحظة التوتر المصحوب بعدم الارتياح نتيجة بزوغ السن وغيرها من التغيرات في الجهاز الفموي (ب) المعرفة المتزايدة للطفل بنفسه كشخص متميز . (ج) التحول التدريجي للام بعيدا عن الطفل ، وتجاه أمور كانت قد تطلت عنها إلى حد ما خلال فترات الحمل الأخيرة ، أو المدة الأولى للرعاية ، أو ربما لاستقبال طفل جديد .

وعندما يستمر الأم في تقديم الثدي خلال مرحلة العض ، فإن من الضروري إذن أن يتعلم الطفل كيف يستمر في الرضاعة من غير عض ، وحتى لا يترتب على ذلك أن تسحب الأم الثدي في غضب أو ألم . ويشير العمل الاكلينيكي إلى أن هذه المرحلة المبكرة في تاريخ حياة الطفل تزوده ببعض الإحساس بفقدان الثقة ، وتترك انطباعاته بأن وحدته مع الأم قد تحطمت مرة واحدة وإلى الأبد . وهذا الفقدان المفاجيء لحب الأم الذي اعتاده الطفل - ودون أن يكون هناك بديل مناسب في هذا الوقت المبكر يوضعه هذا الحب من شأنه أن يحدث اكتئابا شديدا لدى الطفل ، أو على أحسن الظروف إحساسا بالانقسام الداخلي وحنينا غامضا للجنة المفقودة . وإزاء هذا التجميع القوي للاحساس بالحرمان والشعور بالانقسام والفقدان يجب أن تؤكد الثقة الأساسية ذاتها خلال حياة الفرد .

ويتضح فقدان الثقة الاساسية في حالات المرض النفسي ولدى حالات النضام الطفلى ، كما تتضح مظاهر فقدان الكامن الطويل الامد لهذه الثقة في شخصيات الراشدين الذين يتسمون بالانسحاب الشديد والبعد عن الناس وبالاكتئاب . وقد وجد بالنسبة لمثل هذه الحالات ، أن اعادة بناء الثقة بالنفس هو المطلب الاساسى للعلاج ، لانه ايا كانت الظروف التى احدثت الاضطراب الذهاني ، فان الشلوك أو الانسحاب الذى يظهر فى سلوك الكثيرين من المرضى ، انما يخفى وراءه محاولة لاستعادة التبادل الاجتماعى واعداد الثقة مرة اخرى .

وأول عمل للانا هو اقامة انماط متينة ثابتة لحل الصراع الرئيسى للثقة مقابل فقدان الثقة ، وهذا بلا شك واجب من واجبات الرعاية التى تقوم بها الام . ويجب أن نوضح هنا ، أن مقدار الثقة المستمد من الخبرة الطفيلية المبكرة ، لا يتوقف على الكميات أو القادير المطلقة للطعام أو على اظهار المحبة للطفل فحسب ، وانما يتوقف ايضا على نوع العلاقة بين الطفل والام . فالامهات يخلقن الاحساس بالثقة في ابنائهن عن طريق هذا النوع من المعالجة التى يتضمن الرعاية الحساسة لحاجات الطفل ، ومن طريق هذا الاحساس العميق بأنه جدير بالثقة الشخصية داخل اطار الثقة في أسلوب حياة المجتمع والثقافة التى يحيا فيها . ومن شأن هذا أن يشكل لدى الطفل اساس الاحساس بالهوية ، والذى سوف ينقسم فيما بعد الى الاحساس بأن الامور « تسير على ما يرام » وأنه « هو » ، وأنه « جدير بثقة الآخرين به » . حقيقة قد يواجه الطفل ، سواء فى هذه المرحلة أو المراحل التالية عليها ، مجموعات من الاحباطات التى لا يمكن للطفل النامى تحملها احيانا ، ولذا يجب الا يعتمد الآباء فى أسلوب تربيته للطفل على وسائل معينة للتوجيه عن طريق المنع أو المنع فحسب ، بل يجب أن يكون لديهم أيضا القدرة على الانعاز العميق للطفل بأن ثمة معان تكمن وراء ما يقدمونه له من اشياء ومن أوامر ونواه . ان الطفل لا يصبح فى النهاية مصابيا نتيجة ما يتعرض له من احباطات ، وانما لفقدانه المعنى الاجتماعى لهذه الاحباطات .

٢ - الاحساس بالاستقلال مقابل الشعور بالخجل والشك وبعد أن توضع بذور الاحساس بالثقة على أساس متين ، يبدأ الانتقال الى المكون الثانى من مكونات الشخصية السليمة ، وذلك فى الفترة ما بين سن الاثنى عشر والخمسة عشر شهرا . وتنصرف معظم طاقة الطفل فى هذه المرحلة الى تأكيد ذاته من خلال الافعال التى يقوم بها من حيث انه انسان له عقل وله ارادة خاصة .

وهناك اساس فسيولوجى للسلوك المتميز فى هذه المرحلة . ذلك أن نضج الجهاز العضلى وما يترتب عليه من تأكد وتوافق بين عدد من الانماط المتصارعة للحركة والفعل ، يعبى المسرح أمام تجربة مجموعتين من الاساليب الاجتماعية فى وقت واحد : القبض والاسترخاء ، الامساك والاخراج . وكما هو الامر بالنسبة لكثير من الحالات ، يمكن أن تودى صراعاتها الاساسية فى النهاية اما الى العدوان أو الى توفعات واتجاهات لطيفة معتدلة . فالقبض أو الامساك يمكن أن يصبح احتجاجا قاسيا أو مدمرا ، كما يمكن أن يصبح نمطا من الرعاية ، بمعنى انه يمتلك ويحتفظ بما يمتلك . وبالمثل قد يصبح الاخراج أو الاسترخاء وسيلة لاخراج عدوانى لقوى مدمرة ، كما يمكن أن يصبح استرخاء بمعنى « دع الامور تمر وتنتهى » .

وفي هذه المرحلة يجب ان يكون الضبط الخارجى من النوع الذى يعيد الطمأنينة مع قدر من الحزم . فالطفل يجب ان يشعر ان الثقة الاساسية في الوجود ، والتي استمر محتفظا بها رغم ثورات المرحلة السابقة وازماتها سوف لا تتعرض للخطر نتيجة هذا التفجر الكامل المفاجيء ، وهذه الرغبة العنيفة المفاجئة للقيام بالاختيار بين ان يحتفظ ببنائة او ان يخرج بمعاد . فالحزم في هذه المرحلة امر ضرورى لانه يجب ان يحميه من الغوضى التى يمكن ان يتردى فيها نتيجة لاحاسه غير المدرب على التمييز والتفضيل ، وعدم قدرته على القبض والاخراج دون تحفظ وحذر . فينبى على الام والبيئة المحيطة به اذن ، ان تعضد الطفل وتشجعه على « الوقوف على قدميه » والاستقلال بنفسه، وان تحميه ضد الخبرات القاسية والعديمة المعنى والتي يسيطر عليها الخجل والشك .

فالبيئة اذن يجب ان توجهه التوجيه الحكيم ، وان تجنبه مشاعر الخجل والشك في قيمته كشخص ، وان تسلك اذاه بحزم وتسامح ، بحيث يستطيع ان يتمتع بكونه شخصا مستقلا ، وان يمنح الاستقلال للآخرين .

ويلهب أريكسون الى أن الخجل انفصال لم يعوس بعد بما فيه الكفاية ، لانه في مجتمعاتنا الحديثة ، سرعان ما تمتصه الخطيئة بسهولة . ويفترض الخجل ان الفرد قد تمرى تماما ، كما يفترض ايضا الشعور بان الآخرين قد اظلموا عليه ونظروا اليه . فهو واع بذاته او خجل من نفسه . لقد رؤى وهو على غير استعداد ان يراه احد . ولعل هذا هو السبب في اننا نعلم احيانا بالخجل في موقف يشعر فيه الفرد ان الآخرين يتفرسون فيه وهو في حالة من العرى الكامل او وهو في ملابس الليل « وبدون سروال » . وكان يمرر عن الخجل كدافع يدفع الفرد « ان يدفن وجهه بين يديه » او « ان يتمنى ان تبتلع الارض هنا او هناك » . ويعتبر أريكسون الخجل أساسا بمثابة ثورة موجهة ضد اللات . فهذا الذى يشعر بالخجل يود لو اجبر العالم ألا ينظر اليه والا يلاحظ ثورته ، يود لو يحطم امين العالم ، ثم هو بالاضافة الى ذلك يود ان يصبح هو ذاته غير مرئى .

والشك قرين الخجل . واذا كان الخجل يتوقف على الشعور بالتمرى والاكتشاف امام الناس ، فان الشك - حسب ما اوصلته الملاحظة الكلينيكية الى الاعتقاد - يتصل بالشعور بان للفرد « قبل ودبر » (اى امام وخلف) وخاصة الدبر ، لان هذه المنطقة الخلفية من الجسم مع تركيزها المتدوائى والليبيدى على العضلات العاصرة والارداف ، لا يمكن ان يراها الطفل ، ومع ذلك يمكن ان تخضع لارادة الغير . « فالدبر » هي تلك المنطقة من الجسم التى يمكن ان يسيطر عليها او يتكسحها - بالخيال او بالفعل - هؤلاء الذين يمكنهم مهاجمة قدرة الفرد على الاستقلال، او الذين قد يصنعون ما تخرجه الامعاء بانه خطأ او عيب في الوقت الذى يشعر فيه الطفل بالارتياح وقت اخراجها . وههنا الاحساس الرئيسى بالشك فيما يخلقه الفرد بوراذه ، يشكل قوام الصور الاخيرة واللفظية للشك القهرى ، والذى يصبر عنه في الرشد في خوف المصاب بالهذاء من المضطهدين المختفين ، ومن الاضطهادات الخفية السرية التى تدبر من الخلف .

وتعتبر هذه المرحلة من مراحل النمو النفسي الحاسمة في تكوين الفرد نظرا لما يوجد فيها من صراع بين الحب والكراهية ، بين التعاون والعدا ، بين حرية التعبير عن الذات وقمع الذات . فمن الاحساس بضبط النفس دون فقدان التقدير للذات ، ينتج احساس مستمر ودائم بالارادة والاستقلال والزهو ، على حين ينتج من الاحساس بعدم القدرة على ضبط النفس ، وان التحكم مصدره خارجي ، احساس مستمر ودائم بالشك والخجل .

ويجدد بنا ان نشير الى ان هذه النتائج المتصلة بالاحساس بالاستقلال والخجل والشك ليست امورا مبالغ فيها نتيجة الاهتمام الزائد بالمشكلات الاكلينيكية ، وانما هي امور نجدها متمثلة « حتى لدى الراشدين الناضجين وغير العصبيين . فهؤلاء غالبا ما يكشفون عن حساسية تنصل « بالفتن بالخبيل لماء الوجه » . وعن « خوف من ان يهاجم من الخلف » ومعظم هذه الاحساسات هي بقايا لمرحلة النمو المبكرة التي يمر بها الفرد من طفولته ، والتي يتغلب على معظمها وهو في طريقه الى الانتقال الى المراحل التالية .

٢ - الاحساس بالمبادأة مقابل الاحساس بالنقص وفي كل مرحلة جديدة تظهر معجزة اخرى تتكشف للعيان وتمثل املا جديدا ومسئولية جديدة للجميع . ومعجزة هذه المرحلة هي الاحساس بالمبادأة . ونحن الان نقرب من نهاية السنة الثالثة حيث تصبح عملية المشي سهلة وميسورة لدى الطفل . حقيقة ان كتب النمو تشير الى ان الطفل يمكنه ان يعيش قبل هذا السن بكثير ، ولكن المشي والجرى يصبحان جزءا هاما من اساليب سيطرة الطفل على البيئة المحيطة به . انه يريد ان يكتشف المجال الحيوي الذي يعيش فيه . فالطفل في هذه المرحلة شغوف بعقد مقارنات بين الاشياء والاشخاص ، ولديه القدرة على الاستطلاع المستمر للفروق في الحجم والتنوع بعماء ، والفروق في الجنس والسن وبخاصة . انه يحاول ان يفهم الادوار المستقبلية والادوار الجديرة بان يتخيلها ، انه يريد ان يكتشف اي نوع من الاشخاص يمكن ان يكونه . وهو يحس فجأة بأنه قد نما وكبر سواء في جسمه او في نفسه ، وأنه قد أصبح أكثر نشاطا وحيوية وأكثر لمانا وكذاك في احكامه وأنه يمتلك مزيدا من الطاقة والنشاط اللذين يسمحان له بان ينسى الفشل بسرعة ، وان يقترب مما هو مرغوب (حتى ولو بدا هذا المرغوب غير مؤكد او خطرا) فالمرحلة مرحلة تعلم نشط عنيف ، تعلم يتقود الطفل من نواحي قصوره وضعفه الى امكاناته مستقبلية وجديدة ، مرحلة اندفاع في المكان عن طريق الحركة العنيفة النشطة ، مرحلة غزو للمجهول يدفعه اليه حب استطلاع شديد . ثم هو في هذه المرحلة يستطيع ان يرتبط وبشكل مباشر برفاقه من نفس سنه ، ويمكنه بتوجيه الاطفال الاكبر منه سنا ، او بتوجيه الكبار من حوله ، ان يتعلم سياسة التعامل مع هؤلاء الرفاق ، سواء في المدرسة او في الشارع او المجتمع الخارجي .

وهكذا تضيف المبادأة الى الاستقلال صفة مباشرة العمل ومواجهته وتخطيطه من اجل ان يصبح نشطا ومتحركا . ويرى أريكسون ان مصطلح المبادأة - رغم ما يحمله من مدلول امريكي ذي صبغة اقتصادية - يعد جزءا ضروريا بالنسبة لكل عمل . فالانسان يحتاج الى

الاحساس بالمبادأة بالنسبة لكل نشاط يقوم به ، وكل عمل يتعلمه أو يؤديه ابتداء من جمع الحصول في الحقل الى القيام بتنفيذ مشروع هندسى .

ويرى أوكسون أن تعلم الطفل في هذه المرحلة هو الى حد بعيد من النوع الاحكامى والعنيف ، انه يبعد الطفل من نواحي قصوره وضعفه ، ويقره في ذات الوقت من امكاناته المستقبلية .

واسلوب الاحكام الذى يسيطر على كثير من مظاهر سلوك هذه المرحلة قد يتخذ العديد من الأنشطة والتخيلات المتشابهة . وتتضمن هذه :

- (١) اقتحام المكان بحركة نشطة وعنيفة .
- (٢) اقحام الطفل بنفسه فيما لا يعنيه من أمور من طريق حب الاستطلاع .
- (٣) اقحام نفسه في آذان الآخرين وعقولهم من طريق صراخه المدوانى .
- (٤) اقحام نفسه على اجسام الآخرين بالهجوم المادى عليهم .

(٥) واخيرا باقحام عضو التذكر - بالتفكير والتخيل - في جسم انثى . وهذه المرحلة هى نفسها المرحلة القضيبية في نظرية الجنسية الطفيلية عند فرويد . انها مرحلة حب استطلاع طفلى واستشارة جنسية واهتمام زائد وانشغال بأمور الجنس كافتقار البنت الى عضو التذكر .

ومرحلة التجول - والنثى هى مرحلة لعب وجنسية طفلية - تضيف الى الاساليب الاجتماعية الاسلمية اسلوبا جديدا لدى الجنسين هو اسلوب « الاحداث أو الصنع making » وهو بالمعنى الطفلى اسلوب « الفوز بشيء » وهذه العبارة توحى بالاستمتاع بالمنافسة والاصرار على بلوغ الهدف واللدّة في الفوز والسيطرة ، وينصب التركيز عند الولد الذكر على الاساليب « القضيبية - الاقحامية » ، على حين تتحول عند الفتاة الى أساليب المسلك المغاير والاختطاف المدوانى أو - في الحالات المعتدلة - اتخاذ أساليب تجعلها جميلة وجذابة . وبذلك ينمى الطفل متطلبات المبادأة الذكرية والانثوية وبعض صور الذات الجنسية التى سوف تصبح مقوما أساسيا من مقومات المظاهر الموجبة والسالبة لهويته المستقبلية ، كما تردّد تخيلات الطفل . فالولد بنفسه في تخيلات قوامها انه أصبح هائلا أو مسدا ، ولكن احلامه تدور حول مخاوف تتصل بالحياة وبالاطراف . فهى مرحلة « عقدة الخشاء » والخوف العميق من الفقد . اما البنت فلديها اقتناع بأنها قد فقدت العضو الذكرى عقابا لها عن تخيلات وافصاف سرية خفية .

وفي هذه السن يكون الضمير قد نما واصبح اعظم حاكم للمبادأة . فالطفل لم يعد موجهًا بناس من الخارج نحسب ، بل أصبح ايضا يسمع « الصوت الداخلى » للملاحظة الذات وتوجيهها وعقابها ، هذا الصوت الذى يعلق على أفعاله ويحذر ويهدده ، وتلك هى بداية

نشوء الاخلاق عند الطفل . غير ان تزمّت الكبار وتحميلهم للطفل أكثر مما يطبق ، سوف يجعل الامر صعبا وخطيرا بالنسبة للروح والاخلاق معا . ذلك ان ضمير الطفل يكون بدائيا وقاسيا وغير متسامح ، وقد ينتج عن ذلك نوع من الحصر الشديد . فاذا كان من المنوع أن يفعل كذا ، فمن الخطورة بمكان ان يفكر حتى مجرد التفكير فيه ، وقد يدفع الى هذا القرار غير وحيد وممرارة واتجاه نفس شرير تجاه العالم . ومثل هذه المشاعر تجبر الطفل على تقييد ذاته ، وقد يصبح هذا التقييد لا شعوريا ويكون جزءا من الشخصية يقوم بوظيفته ويؤثر في سلوكها . ولعل أحد الصراعات العميقة في الحياة هو ذلك الصراع الذي يتكون نتيجة كراهية الاب الذي يكون في بداية الامر نموذجا للضمير ، ولكنه في النهاية يرتكب الخطايا التي لا يتحمل ضمير الطفل اتيانها . وهنا يصل الطفل الى الشعور بان المسألة ليست مسائل اخلاق عامة ، بل هي قوة قسرية وتصفية تفرض عليه .

وهذه المرحلة النهائية لها مزايا ومخاطر. فالطفل في هذه المرحلة يكون أكثر استعدادا للتعلم بسرعة وقوة ومشاركة الالتزامات والاممال التي يقوم بها الغير ، منه في اية مرحلة اخرى ، فهو شغوف لان يتعلم ، ومشوق وقادرفي نفس الوقت على القيام بالاممال التي يشارك ويتعاون فيها مع الاطفال الآخرين من اجل التصميم والبناء ، كما يرحب بالاستفادة من المدرسة ، وان يضاهي النماذج الاصلية التي يراها . انه يظل بالطبع متوحدا مع الاب من نفس الجنس ، ولكنه في الوقت نفسه يبحث عن فرص يتيح له فيها التوحد مع العمل ، مجالا للعبادة دون حدوث صراع طفلي ، اوشعور اوديبى بالذنب ، وكذلك البحث عن توحيد أكثر واقعية يقوم على روح المساواة التي خيراها من العمل مع الآخرين . واذا استطاع الطفل في هذه المرحلة ان يفهم جزئيا بعض الادوار والوظائف التي يستطيع القيام بها كشخص راشد ، فانه سوف يكون مستعدا للانتقال في نمو سليم الى المرحلة التالية .

٤ - **الاحساس بالعمل مقابل الشعور بالنقص :** واذا كان طفل المرحلة السابقة مستعدا لان يتعلم في شغف وسرعة وان يصبح كبيرا ، وان يشارك في الالتزامات والنظام والعمل ، وان يعمل ويشارك في البناء والتصميم فان اطفال هذه المرحلة يصبحون أكثر ارتباطا بالمدرسين وآباء الاطفال الآخرين ، وأكثر ميلا الى ملاحظة وتقليد اممال بعض الناس الذين يمكنهم ادراكها كرجل الشرطة ورجل المطافي والبيستاني . وهذه المرحلة تبدو كلها وكأنها تمهد السبيل للدخول في الحياة . واقتصد بالحياة هنا حياة الدرس ، سواء تم ذلك في الحقل او المسكر او الفصل ، والطفل في هذه المرحلة ينسى الكثير من الآمال والرفيات السابقة ويتصرف الى الاممال الحقيقية . ذلك ان الفرد قبل ان يصبح أباً من الناحية البيولوجية ، عليه ان يعمل أولا ليرى أسرته ، ومع الدخول في مرحلة الكون ينسى الطفل المتقدم بشكل طبيعي نحو التضج او علي الرغبة في ان يوجد انما او أن يصبح أباً او تصبح أما . انه يتعلم الآن ان يكتسب المعرفة عن طريق انتاج الاشياء .

وإذا كان جميع الأطفال محتاجين في بعض الأوقات الى ان يتركوا يلعبون وحدهم او ان يتركوا - فيما بعد - في صحة الكتاب أو الراديو أو السينما أو التلفزيون ، وإذا كان جميع الأطفال يحتاجون في بعض الاوقات الى القيام ببعض الالامب الإيهامية ، فانهم ، ان عاجلا أو آجلا - سوف يحسون بالاستياء والسخط اذا لم يوجد لديهم الاحساس بالقدرة على القيام بعمل شيء ما أو عمله جيدا وباتقان . وهذا الاحساس بالقدرة على العمل هو ما أطلق عليه أريكسون اسم «الاحساس بالإنجاز» أو «الاحساس بالصناعة» ، فبدونه يشعر الطفل بالضيق ، فبالعمل يعرف الفرد ويسرف مجتمعه أنه قد أصبح من الناحية النفسية مؤهلا لان يكون ابا ، حيث يلزمه العمل لرعاية الأسرة من الناحية الاجتماعية ، قبل ان يصبح ابا من الناحية البيولوجية .

وتقول « إيفي هنريك » ان مبدأ العمل يعلم الفرد للة اتمام العمل وإنجازه ، وذلك نتيجة الانتباه المستمر والاجتهاد المتواصل . والإطفال في جميع الثقافات يتلقون خلال هذه المرحلة بعض نواحي التعليم المنظم والذي يأخذ عادة صورة تعليم مدرسي حيث يتجمع الأطفال حول مدرسين مؤهلين جيدا للقيام بمطرية التعليم . وفي المجتمعات البدائية ، حيث لا تعلم منظم ، يقوم الكبار بدور تعليم الصغار الذين يلتقون بهم من الكبار . ويغلب الميل لدى الطفل في مثل هذه الحالات حين يقبل على تعلم صنعة ما . وعلى ذلك ، فان أساسيات التكنولوجيا تنمو عندما يصبح الطفل قادرا على معالجة الأدوات والعدد والسهم التي يستخدمها الكبار من حوله . وحيث يتطلب الأمر ان يصبح المتعلم على قدر من التخصص المهني ، فان واجب المدرسة في هذه الحالة هو ان تزود الطفل باكبر قدر من التعليم الاساسي لانتقان تخصصه . ومن الملاحظ انه كلما أصبح دور التعليم أكثر تخصصا ، وأصبحت المواد الدراسية أكثر عمقا ، قل دور الآباء في العملية التعليمية وأصبح أكثر تحديدا . ومن هنا ، تصبح المدرسة هي المصدر الاساسي للثقافة لها من قدرة وإمكانات على تحقيق اهداف المجتمع التربوية .

والخط الاساسي في هذه المرحلة يكمن في احساس الطفل بعدم الكفاية والنقص . وقد يرجع ذلك الى قتل الطفل في تنمية الشعور بالمباداة في المرحلة السابقة ، او ان وضعه بين اقاربه الذين يشاركونه العمل او الدراسة يشمره بالمجز في التوحد معهم ، او ان مكان التعليم والعمل لا يوفر له من الخبرات والمثرات ما يتحدى قدراته الكامنة . ومن هنا يصبح النجاح في المدرسة احد عوامل الصحة النفسية للطفل ، وكما يقولون النجاح يولد النجاح . ومن شأن ذلك ان يجعل النمو النفسي للطفل سويا وطبيعيا الى حد بعيد . والمدرس الناجح هو الذي يعرف كيف يساعد التلميذ على ان يشق طريقه في المدرسة ، ويعينه على التغلب على مشكلاته المدرسية وعلى العوائق التي تعترض سبيله . انه يعرف جيدا كيف يجعل الطفل يتناول اللعب والعمل . انه يعرف كيف يقدم الجهود الخاصة وكيف يشجع الأطفال على بلل المزيد من الجهد ، وكيف يعالج هؤلاء الذين لا ينظرون باهتمام الى المدرسة ويعتبرونها ممجنا . ولكن من واجب الاسماء ايضا أن يجعلوا ابناءهم يحبون مدرسيهم

ويحسون بالثقة فيهم ، لأن الطفل محتاج الى التوحد مع مدرسه مثلامهو محتاج الى التوحد مع ابيه .

٥ - **الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الدور** وباقامة صلات مبدئية حسنة مع عالم المهارات والادوات ، ومع الدخول في مرحلة المراهقة ، تنتهي فترة الطفولة الحقة ، وتبدأ مرحلة الشباب . وتعود المشكلات مرة اخرى الى الظهور بسبب التغيرات الجسمية والفسيولوجية السريعة ، والتي تصادف في سريعتها سرعة النمو في مراحل الطفولة المبكرة ، وكذلك بسبب الاضافات الجديدة للنمو الجنسي . ويصبح الشاب النامي الذي يواجه بمثل هذه التغيرات اكثر انشغالا بمظهره امام الآخرين ، اكثر مما هو عليه في الحقيقة .

والمشكلة الرئيسية في هذه المرحلة بالنسبة للمراهق هي مشكلة تكوين الاحساس بالهوية ، اى معرفة من هو ، وما دوره في هذا المجتمع ، وهل هو طفل - على نحو ما كان ينظر اليه من قبل - ام راشد - على نحو ما هو صائر اليه الآن ، وهل لديه القدرة التى تجعل منه انسانا له كيانه وقيمته في هذا المجتمع . ومثل هذه المشكلات تحتل مكانا هاما من تفكير المراهق واهتماماته ، كما يصبح اكثر انشغالا واهتماما بالتزويق بين ما تعلمه من مهارات وادوار في مراحل نموه السابقة ، وبين ما هو مقبول اجتماعيا الآن . وهو في بحثه عن احساس جديد بالهوية والاستمرار ، عليه ان يغوص الكثير من المعارك التي سبق ان خاضها من قبل .

وى اريكسون ان التكامل الذى يحدث الآن في صورة هوية الذات ، اكبر من مجموع توحيدات الطفولة . انه نتيجة الخبرة النامية لقدرة الانا على احداث تكامل بين كل التوحيدات السابقة وتقبلات الليبدو والقدرات المتبثقة من المواهب ، والفرص التي تقدمها له الادوار الاجتماعية . فكل هذه التغيرات هي التي تعمل على احداث التكامل الجديد في صورة هوية الذات لدى المراهق .

ويتمثل خطر هذه المرحلة الثمائية في اضطراب الدور *role confusion* وارتباكها . ولتوضيح معنى هذا المفهوم اشار اريكسون الى عبارة وردت في رواية آرثر ميللر *Death of a Salesman* على لسان أحد المراهقين في سياق حديثه مع امه « انسى لا تستطيع ان أمسك بشيء يا امى ، انسى لا تستطيع ان استحوذ على أى نوع من انواع الحياة » . فلذا التغيرات الجسمية السريعة التى تحدث للمراهق سواء من حيث الشكل أو الحجم ، وازاء نضجه الجنسي ، ونظرة المجتمع اليه ، والتغيرات المختلفة التي تطرأ على ادواره الاجتماعية ، لا يملك المراهق الا الاحساس بهذا الاضطراب في الهوية .

وسواء سيطر المراهق على اضطراب الهوية ، او اصبح نتيجة لذلك جانحا او عصابيا او ذهانيا ، فان هذا يتوقف على خبرات الماضي وعلى الشكوك القوية السابقة التي مرت به . فان تم تشخيص هذه الاحداث وعلاجها بشكل سليم ، فسوف يحدث تكامل جديد لدى الفرد ، ويرى طريقه في الحياة . وفي بعض حالات المراهقة ، يكون عدم القدرة

على الاستمرار أو الاستقرار في عمل ما أو في وظيفة واحدة أحد الأسباب التي تؤدي إلى اضطراب الهوية عند المراهق .

ويجد المراهقون راحة نفسية في التواجد معاً ، فهم يميلون إلى تكوين الشل . ومن أجل الإبقاء على وحدة الجماعة أو الشلة ، يتوحد المراهق ، ولو وقتياً وإلى الحد الذي يصل فيه أحياناً إلى فقد الظاهر لهويته ، مع أبطال الشلة . وهذه هي بداية « الوقوع في الحب » والذي ليس اسماً أو كلية ، حباً جنسياً . فحب المراهقة هو إلى حد بعيد محاولة للوصول إلى التعريف بهوية الفرد عن طريق إسقاط صورة الذات المختلطة على الغير ورؤيتها هكذا معكوسة وواضحة بالتدرج . ولعل هذا هو السبب في أن معظم حب صغار الشباب هو حب كلام وحديث .

وصغار الشباب يتعصبون أحياناً بشكل ملحوظ لبني جنسهم ويسلكون بقسوة وعدم تسامح تجاه من يختلف عنهم في اللون أو الأساس الثقافي أو حتى في بعض المظاهر البسيطة كاللزي والشارات وغيرها من الأمور التي ينظر إليها مؤثراً بأنها علامات تشير إلى من ينتمي إلى جماعته ومن هو خارج منها . ومن المهم أن نعرف أن مثل هذا التصلب وعدم القدرة على التسامح يمكن أن يكون أسلوباً دفاعياً ضد الإحساس باضطراب الهوية وتشوشها . فهم يساعدون بعضهم البعض بقوة وحرارة عند الوقوع في مشكلات مع السلطة ويختبرون بصورة حمقاء أحياناً قدرة بعضهم البعض ، ومدى انتمائهم إلى هذه الجماعات من أجل ضمان الولاء لها . واستعداد الشباب للقيام بمثل هذه الاختيارات القاسية وتحملها أحياناً ، يفسر لنا مدى مالبعض المذاهب الفلسفية الدكاتورية أو بعض الجماعات المتطرفة من أغراء على عقول أمثال هؤلاء الشبان . ففي مثل هذه الأحوال يفقد الفرد هويته نتيجة التشوش والاضطراب في التفكير ، حيث لا يفكر إلا بعقلية الجماعة التي تدفعه إلى تحقيق أهدافها ، وأمثال هؤلاء الشباب يتعرضون للانفصال والانزوال عن حياة غالبية المجتمع الذي يعيشون فيه ، كما يفقدون الثقة بأنفسهم ويقدرتهم على توجيه دفة حياتهم بسلام .

ومع أن « الإحساس بالهوية صعب التحقق » إلا أنه يحفظ الفرد وبقية من فوضى الدوافع البيولوجية ، ويمكنه من المحافظة على المبادئ والقوانين ، والوقوف أمام ضمير مستبد قاس شكاك . أما فقدان الهوية أو فقدان الشعور بأن هناك قدراً من « التماثل » والاستمرار ، فإنه يعرض الفرد لصراعاته الطفلية ، ويؤدي إلى اضطرابات انفعالية .

٦ - الإحساس بالسود والتألف مقابل العزلة والقوة المكتسبة في أمة مرحلة يمكن اختباؤها بقدرة الفرد على تجاوزها بطريقة تسمح له بالحصول على فرص أكبر في المرحلة التالية ، لم تكن متاحة له في المرحلة السابقة . فالراشد - الذي يخرج من البحث عن الهوية - يكون مشوقاً ومرحباً أن يدمج هويته بهوية الآخرين . فهو على استعداد للإحساس بالسود والتألف مع أشخاص من نفس الجنس أو من الجنس الآخر أو مع نفسه . فتكون لديه القدرة على أن يسلم نفسه للانتماءات والمشاركات المحصورة مع الغير ، وأن ينمي

لديه القوة الاخلاقية التي تمكنه من ان يفى بتمهلاته حتى لو اقتضى الامر القيام بتضحيات وعود هامة .

وفي مقابل اللفة والود نجد الابتعاد ، امنى الاستعداد للزلة ، واذا لزم الأمر ، هدم القوى والاشخاص الذين يبدو في وجودهم خطر يهدد الذات ولائمة على العلاقات الوثيقة التي تربط الفرد بالآخرين .

واذا تحرينا الدقة ، فان هذه المرحلة هي مرحلة النمو الكامل للتناسلية الحقيقية True Genitality . ذلك ان غالبية حياة الجنس السابقة كانت من نوع البحث عن الهوية او خاضعة للشهوات القضيبيية او الفرجية التي تجعل حياة الجنس نوعا من الصراع التناسلي . اما التناسلية الحقيقية ، فهي من الناحية الأخرى حالة دائمة من السعادة الجنسية المتبادلة . لقد سئل فرويد مرة عما يظن ان الشخص السوي قادر أكثر على فعله . فاجاب « ان يحب وان يعمل » to love and to work . وهذه العبارة البسيطة تدعو الى التأمل العميق ، لانه عندما قال فرويد « ان يحب » كان يعني الحب التناسلي . وعندما قال « يحب ويعمل » فانه كان يعني العمل المنتج عامة ، والذي لا يشغل الفرد الى الحد الذي يفقد الفرد او ينسى حقه او قدره على أن يصبح كائننا محبا ومتناسلا .

واذا كان التحليل النفسي قد قطع شوطا بعيدا في التوكيد على التناسلية كعلاج عام للمجتمع ، وقدم بذلك بضاعة جديدة لكثير من يرغبون تفسير تعاليمه على هذا النمو ، الا انه لم يوضح دائما - في نظر اريكسون - كل الاهداف التي يجب ان تتضمنها التناسلية بالفعل . فمن اجل ان يصبح لهذه التناسلية قيمة اجتماعية مستديمة ، فان الصورة المثلى للتناسلية يجب ان تتضمن : ١ - تبادلية الشبق الجنسي ٢ - ومع شريك يحبه ٣ - ومن الجنس الآخر ٤ - وان يكون مستندا ومرحبا ان يشاركه الثقة المتبادلة ٥ - وان يكون مستندا ومرحبا ان ينظم معه دورات (ا) العمل (ب) والانتجاب (ج) والترويع ٦ - وبذلك يضمن للتناج او الصفار جميع مراحل النمو السوى .

وخطر هذه المرحلة هو الزلة ، اعني تجنب العلاقات التي تسلم الى الود والمحبة والتكاثف ، وقد يؤدي هذا الاضطراب وهذه الزلة الى حدوث مشكلات خطيرة في الشخصية .

(٧) الإنتاجية مقابل الجمود . لقد كان التركيز فيما سبق منصبا على الطفولة والمراهقة . ولكن مع التقدم في السن والوصول الى الرشد واكتمال النضج يبدأ الاحساس الابوى والاحساس الابوى يتضمن النمو التطوري الذي جعل الانسان هو الكائن الحي المعلم والمتعلم على حد سواء . واصرارنا المستمر على تصوير الاطفال والنظر اليهم باعتبارهم معتمدين ومتكبلين دائما على الكبار ، يجعلنا ننسى ايضا اعتماد الجيل الاكبر والمتقدم في السن على الجيل الاصغر منه . ان الشخص الناضج يحتاج دائما الى الشعور بان هناك من يحتاج اليه ، والنضج يحتاج الى توجيه مثلما يحتاج الى تشجيع ممن يقدم اليه ونرماء .

والابوة ، اساسا ، هي الاهتمام بتربية الجيل الجديد الناتج وتوجيهه ، وان كان هناك آباء - اما بسبب سوء الخط أو عوامل نفسية خاصة ، لا يقومون بهذا العمل نحو اولادهم . وقد يتسع مفهوم الابوة أيضا فيشمل مترادفات أكثر ألفة كالانتاج والخلق .

اما الاخفاق في انماء هذا المكون من مكونات الشخصية السوية ، فكثيرا ما يؤدي الى نوع من الانقماش في الذات والاحساس العام بالجمود والفقر الشخصي . فبيدا الفرد غالبا في امتناع ذاته واشباع رغباتها كما لو كان هو الشخص الوحيد أو الطفل الوحيد ، ويتساهل مع نفسه وينتظر من الآخرين التساهل معه ، أي يسلك بطريقة طفلية غير ناضجة .

وثمة حقيقة هامة تتلخص في ان مجرد الطفل أو حتى الرغبة في انجابه ، لا ترفع الى ضرورة الاحساس بالابوة . فبعض صفات الاباء يعانون فيما يبدو من تأخر في القدرة على تنمية الرعاية الحقة لابنائهم ، ويمكن أن ترجع اسباب هذا الاخفاق الى الانطباعات غير السارة في الطفولة المبكرة وفي التوحيات الخاطئة مع الآباء، وفي الحب الزائد عن الحد للذات ، وفي الافتقار الى الثقة في الاطفال أو الرغبة في الشعور بالاستقلال وعدم الارتباط بالغير ، والاحساس بالعزلة . وقد يحدث هذا عند بعض الأشخاص نقصا في الاحساس بتكامل الانا .

(٨) تكامل الانا مقابل اليأس : Ego Integrity vs Deepair وتظهر لمان المراحل السابع السابقة في هذا الشخص الذي نما على العناية بالاشياء والاشخاص ، وعلى ملامعة نفسه مع النجاح والفشل في هذا العالم ، والذي أوجد الآخرين وولد الاشياء والافكار . ولم يجد اريكسون مصطلحا أفضل من مصطلح «تكامل الانا» لوصف هذا الشخص . وهذا المصطلح يشير الى ان الفرد قد أصبح قادرا على توكيد نمو الانا في نزعتها نحو النظام والمعنى ، ونحو التكامل الانفعالي المخلص لحملة صور الماضي ، والاستعداد لتحمل الزعامة والقيادة في الحاضر وإلى تقبل دورة حياة الفرد ، وتقبل ما يتصل بها من اشخاص باعتبارهم ذوي أهمية ومغزى في هذه المرحلة من تاريخهم ماداموا قد أدوارساتهم في هذا السبيل .

كما يعنى « تكامل الانا » ايضا حبا جديدا ومختلفا للابوين، حبا خاليا من الرغبة في ان يكونوا غير ما هم عليه ، أو ان يتخلصوا من ميوبهم وان يتقبل حقيقة ان حياة المرء هي مسئوليته وحده . كما يعنى أيضا احساسا بزمالة الرجال والنساء الذين ساهموا في خلق أنظمة واشياء وأقوال تكشف عن كرامة الإنسانية . وعلى الرغم من معرفته بنسبية جميع الاساليب المختلفة للحياة والتي أعطت معنى للكفاح الانساني ، فإن الشخص الذي لديه تكامل الانا يكون على استعداد للدفاع عن كرامة أسلوبه في الحياة « أمام كل ما يتمرض له من تهديدات مادية كانت أو اقتصادية . فهو يدرك ان حياة الفرد وكرامته متوقفة على تمسكه بأسلوبه الذي يقوم عليه شعوره بالتوحد .

والادلة الاكلينيكية والانثروبولوجية توضح ان نقص أو فقدان هذا النمو لتكامل الانا يتضخ في ناحيتي الاستمواز واليأس . فالتقدير أو المصير لا يتقبله الفرد كإطار للحياة ، كما انه يخاف الموت . وهو يعبر عن اليأس في صورة الشعور بان الزمن قصير ، وانه اقصر من ان يسمح

النمو النفسي : من الطفل الى الرشد

الفرد ان يبدأ حياة أخرى من جديد ، او أن يحاول تجربة طرق أخرى بديلة للتكامل . ومثل هذا اليأس غالباً ما يختفى وراء مظاهر الإشمئزاز وبغض الجنس البشري والاستياء المزدور المرصن لمؤسسات معينة وأشخاص معينين ، وهذا الإشمئزاز وهذا الاستياء إنما يعنيان فقط احتقار الفرد لنفسه وإزدراءه لها .

وهكذا يربط أريكسون بين مراحل النمو والتكيف ، ويربط بين اتجاهه التطيلي واتجاهاته أخرى الأثروبولوجية واجتماعية .



ثالثاً - نظرية نمو الذات عند جوردون البورت

جوردون البورت من كبار المشتغلين بدراسة الشخصية ، وكتب في هذا المجال العديد من الكتب . وقد نظر الى الشخصية من حيث هي أسلوب متميز من أساليب التكيف التي يقوم بها الفرد ، لا توجد عند الولادة ، وان كان من الممكن القول بان بلورها توسع مع الولادة ، ان أساليب التكيف المميزة المبكرة والتي على أساسها يمكن أن نفرق بين طفل وآخر تتفتح في شدة نشاطهم التلقائي وتكراره ، وفي تميراتهم الانفعالية والزاجية ، وأنه ليس من المحتمل قبل بداية الشهر الرابع أن يكون الطفل قد نضج نضجاً كافياً وتعلم تكوين عادات متميزة للتكيف .

ومع بداية النصف الثاني من السنة الأولى تبدأ استجابات الطفل التوافقية المتميزة مع العالم المادي والاجتماعي تظهر بوضوح ، وان الصفات المتميزة التي يمكن ملاحظتها في وقت مبكر من حياة الطفل تميل الى الاستمرار وبشكل ملحوظ يسمح للملاحظ ان يتنبأ بما ستكون عليه شخصية الفرد في المستقبل . فالشخصية اذن نامية متطورة تخضع لمظاهر النمو النفسي السوي وغير السوي ، وفقاً للمحددات المختلفة التي تؤثر فيها ، ووفقاً للظروف التي يمر بها الفرد .

والذات هي لب الشخصية ، بل هي لب كيان الفرد وجوده . وفكرة الذات تنمو وتطورون وتمر بمراحل متعددة في نموها وتطورها . واذا كنا عرضنا للنمو النفسي الجنسي عند فرويد ، والنمو النفسي الاجتماعي بصوره المتطورة عند أريكسون ، فجدد بنا ان نشر أيضاً الى نظرية أخرى تتصل بصميم النمو النفسي للفرد ، وهي نمو ذاته ابتداء من الطفولة المبكرة حتى المراهقة ، وهذه النظرية هي نظرية البورت .

• مراحل نمو الذات عند البورت :

١ - الطفولة المبكرة : من المؤكد أن الطفل ليست لديه أية معرفة عن نفسه « كذات » وهذا ما تكشف عنه الملاحظات المديدة التي قام بها العديد من علماء نفس الطفل من أمثال جان بياجيه وغيره . فالطفل لا يمكنه أن يميز بين ذاته والعالم الخارجي . فهو ينظر الى جسمه كما لو

كان شيئاً غريباً عنه ويلعب بأصابع قدميه كما لو كانت دميته ، أي أنه ليست لديه أية معرفة عن وجود ذات جسمية أو ذات اجتماعية . فالحدود الفاصلة بين ما هو جزء منه ، وما ليس جزءاً منه لم تتضح بعد ، ويحسن أن نفرق بين الشعور ، والشعور بالذات ، فهما ليسا مترادفين لا عند الطفل ولا حتى عند الراشد . فالطفل على الرغم من أنه يحس ويشعر بما يجري حوله من حالات وتغيرات نفسية ، إلا أنه يفتقر في هذه المرحلة الأولى من عمره إلى الشعور بالذات . أما البالغ فلديه الناحيتان معاً ، وإن كانتا غير متماثلتين : فهو يشعر ، كما أنه يشعر بذاته .

والطفل يكتسب الشعور بالذات بشكل تدريجي خلال السنوات الأولى من حياته . وهذه المرحلة الأولى من حياة الطفل والتي تشمل على السنتين الأولىين يسميها بياجيه باسم « المرحلة الحسية الحركية » وفيها يستقبل الطفل انطباعات من العالم الخارجي ، ويستجيب لهذه الانطباعات دون أن تكون هناك ذات وسيطتين هذه الانطباعات وهذه الاستجابات . فهو يحس ويشعر ويستجيب للضغوط الواقعة على سطح الجلد ، ويستجيب للأصوات الهائلة الناعمة الصادرة من الأم ، وردود الأفعال الحسية الحركية هذه تدخل في كل شيء « متشكك » أو كل شيء « غير متمايز » من الذات والعالم الخارجي على حد تعبير بياجيه .

ومع استمرار النمو يبدأ الطفل باكتشاف جسمه . ففي حوالي الشهر الخامس أو السادس يمسك بأصابع اليدين والقدمين ويمسك بالأشياء الصغيرة المعلقة به . ولكن الأشياء والأصابع التي تقبض عليها هي شيء واحد بالنسبة إليه ، شيء واحد لم يتمايز بعد إلى مكوناته . وهو عندما يحمل في قدميه ، يحاول أن يمسك بها وأن يضع أصبع قدمه في فمه ، وهو أن أصابع قدمه فهو يتألم دون أن تكون لديه أية فكرة عن أنه هو سبب الألم . وقد تستثيره رؤية صورته في المرآة وهو في شهره الثامن تقريباً ويحلق فيها ويحاول اللعب معها دون أن يدرك أن هذه الصورة التي يراها هي صورته هو . والجدير بالذكر أن الطفل في العادة يميز صورة والدته في المرآة ، قبل أن يستطيع أن يميز صورته هو بوقت طويل .

ثم هو حين يبدأ يتنقل في أرجاء البيت بالخرف من مكان لآخر ، قد يصطدم بأشياء كثيرة تسبب له ألماً فيبدأ يدرك أن هناك أشياء خارجية جامدة ، وأن الاستخدام بها يسبب له ألماً . أي يبدأ يدرك أن هناك أشياء خارجية عنه . وهو يصل إلى فكرة الشيء الخارجي الذي « ليس هو » قبل أن يتمكن من أن يدرك أنه له ذاتاً متميزة من هذا العالم الخارجي بوقت طويل . وكما يدرك وجود الأشياء الخارجية قبل إدراكه لذاته ، فكذلك يدرك وجود الآخرين قبل إدراكه لذاته . فهو يتعرف على الوجوه المألوفة في البيت من الإيوان والأخوة ، كما يتعرف على الغرباء من البيت . وهذا التعرف على « الغير » يسبق أيضاً التعرف على الذات.

ويذهب البورت إلى أن أول مفهوم لفكرة الذات في هذه المرحلة الأولى هو « الإحساس بأن له جسماً » ، وأن هذا الجسم ، جسمه هو . فالطفل يستقبل سيلاً من الإحساسات العضوية الداخلية ، كما أنه يتأثر أيضاً بالكثير من التغيرات العديدة الموجودة في العالم الخارجي .

النمو النفسي : من الطفل الى الراشد

وبالطبع لا يكون لهذه الاحساسات الجسمية أي أثر في تكوين الذات مالم تكن متكررة . ومعرفة هذا التكرار للاستجابات البسيطة المتلاحقة يتطلب نضجا مناسباً في اللحاء بشكل يسمح بالاحتفاظ بآثار الخبرات السابقة . وكما ينمو الاحساس بالذات الجسمية من الاحساسات العضوية المتكررة التي تترك آثارها في نفس الطفل فإنه ينمو أيضاً من الاجابات المتكررة التي تصدر عن العالم الخارجي . فالاحساس بالذات الجسمية هو في نظر البورت وثيقة وجودنا ، بمعنى أن احساسنا وحركاتنا تعدلنا بمعرفة ثابتة من وجودنا .

ولكن رغم ما للذات الجسمية من أهمية ، إلا أنها ليست كل شيء في تكوين فكرة الذات عند الطفل في هذه المرحلة الاولى من الحياة ، فهناك أفكار أخرى لها أهميتها .

هناك ثانياً : هوية الذات واستمرارها : فأنه هو نفس الإنسان الذي كنت عليه وأنت في سن الثالثة أو الرابعة من عمرك ، رغم أن كل شيء يتصل بك ، حتى خلايا جسمك والبيئة المحيطة بك قد مرت بها تغيرات عديدة جداً . ثم أن كل فرد منا يتعرف على ذاته . فأننا ندرك بعض الأفكار والأحداث التي مرتبذهني بالأمس ، وفي الغد سوف ندرك بعض ما مر بي من أفكار وأحداث في يومى وأمسى . وأنا على ثقة أيضاً من أن هذه الأفكار والأحداث تتصل بشخص واحد هو أنا . ففكرة هوية الذات تعتبر بالغة الأهمية طالما أن التغير هو مع ذلك القاعدة الأساسية للنمو . فزغم ما يطرا على أفعالنا وأفكارنا من تغير ، إلا أن الذات تبقى هي هي مستمرة ومتصلة .

ولعب اللغة دوراً هاماً في هذا الصدد . فعندما يبدأ الطفل التحدث والتعبير عن رغباته يستخدم من الالفاظ ما يشير الى حاجاته ورغباته ، وأنه ، بمعنى « هو » ، يريد أن يأكل أو أن يشرب أو أن يحصل على لعبة ما : فلفظ « أنا » أو ما يشير اليه يعتبر عاملاً واضحاً في علاقه بالعالم الخارجى . ثم أن اسم الطفل الذى يتردد على سمعه في اليوم الواحد مرات عديدة ، قد يساعده أيضاً على أن يدرك ذاته كشيء متميز ومستقل . وهذا الاسم يكتسب معنى ودلالة بالنسبة للطفل في عامه الثانى . ومع الاسم تأتى المعرفة بالوضع المستقل ، وإن له وجوداً مستقلاً عن وجود الآخرين يتمثل في هذه الذات الجسمية التى بدأ يحس بوجودها . وإلى جانب الاسم هناك أشياء أخرى يمكن أن تعد بمثابة نقاط ارتكاز هامة للتعرف على الذات كاللباس ، والأشياء الخاصة . فبعض الأطفال في سن الثانية أو الثالثة ، قد يكشفون عن احساس بالهوية حين ينظرون الى بعض ممتلكاتهم الخاصة كالحذاء الجديد أو حريط الرأس أو الفستان الذى ترتديه .

والى جانب الذات الجسمية وهوية الذات واستمرارها ، هناك ناحية ثالثة تلعب دوراً هاماً في هذه المرحلة من تكوين فكرة الذات هى **رغبة الطفل في إثبات وجوده أو تقديره لذاته** . ففى سن الثانية أو الثالثة يحاول الطفل القيام ببعض الأشياء بنفسه ، كدفع الحشاية بنفسه أو تناول بعض الأشياء واللعب بها بنفسه ، ويتنقل في أرجاء البيت يستكشف ما فيه . وبعدد للة كبيرة في القيام بمثل هذه الألوان من السلوكيات التى — أن أميقت من جانب الكبار — يشعر الطفل كأنها ضربة موجبة لتقديره لذاته . بمعنى أن الذات قد أحبطت أو أميقت ، ونتج عن ذلك

شعور بالضعف أو احساس بالفضب . ويحس الطفل بلذاته ويكون واعيا بها للدرجة كبيرة . ويكون هذا السلوك واضحا لدى طفل هذه المرحلة حتى أن البعض يسميه الحاجة الى « الاستقلال الذاتي » . وهي سمة ملحوظة وبارزة في فكرة الذاتية عند طفل الثانية أو الثالثة . وهذا ما يتجلى في ثورة المعارضة التي تتميز بها طفل هذه الفترة بالنسبة للطعام والملبس واطاعة الأوامر وكل ما يريده الإبداع . فهو ينظر الى أوامر الكبار كما لو كانت تهديدا يهدد تكامله . ولذلك تنضج عنده ظاهرة الرفض ، كما لو كان الرفض بقوله « لا » وسيلة لحماية الذات من كل ما يؤدي الى تحقيرها . ولعل هذه الفكرة ذهب اريكسون في دراسته للنمو النفسي عند الطفل في حديثه عن المرحلة الثانية من مراحل النمو النفسي للطفل والتي سماها باسم الاستقلال الذاتي ، كما سمي الخطر الذي تتعرض له هذه المرحلة باسم الخجل والشك . والفكرتان - تلكا اللتان أوردتهما البورت واريكسون - قريبتان الى حد بعيد .

وعلى ذلك ، فالظواهر المميزة لنمو فكرة الذات في السنوات الأولى من حياة الطفل عند البورت هي :

١ - المظهر الأول : الإحساس بالذات الجسمية .

٢ - المظهر الثاني : هوية الذات واستمرارها .

٣ - المظهر الثالث : تقدير الذات .

ب - مرحلة ما قبل المدرسة :

لكن مرحلة ما قبل المدرسة - وهي الفترة ما بين الرابعة والسادسة - سرمان ما يفقد الطفل فيها هويته ويختلط عنده الوهم بالحقيقة ، ويسيطر على العايش النوع المعروف باسم « اللعب الإيهامي » الذي يتوهم الطفل نفسه فيه فارساً أو شريطاً مثلاً ، ويخلق له من الوهم والخيال أصدقاء : أطفالاً كانوا أم حيوانات . وفكرة الذات الجسمية تكون عنده أكثر وضوحاً ، فجميع أعضاء جسمه هي ملك خاص به وحده .

كما أن طفل هذه المرحلة يكون « ذاتي المركز » الى حد بعيد . فالأطوار الرجمي لتفكره هو ذاته . فالقمر يتبعه في كل مكان وحيثما سار ، والله موجود ليحفظه ويحميه ، كما أن وجهة نظره تعتبر مطلقة . فالآخرون يفكرون على نحو ما يفكر هو ، ولذا فهو ليس في حاجة لان يعبر عن وجهة نظره أو يفسر أقواله وعباراته للآخرين . ولكن مركبة الذات هنا ليست قائمة على معرفة بالذات أو أنها تدور حول الذات ، وإنما هي تصدر عن الطبيعة الشخصية لتفكير الطفل في هذه المرحلة فحسب .

ومن ثم فإن هذه المرحلة تتميز في نظر البورت بمظهرين جديدين ، بالإضافة الى المظاهر الثلاثة السابقة التي تتميز بها السنوات الثلاث الأولى . وهذان المظهران هما :

٤ - المظهر الرابع : امتداد الذات واتساعها .

٥ - المظهر الخامس : صورة الذات .

فالذات تنسج لتشمل أشياء كثيرة ، كما يلعب الاحساس بالملكية في نفس الوقت دورا هاما . فهذه الكرة كرتي ، وهذه الدراجة راجتي وهذه أمي وهذا أخني وهذا بيتي . الخ . وكلها تصبح امتدادا للذات وتشير أيضا الى اتساعها لتشمل العديد من الأشياء . وبطبيعة الحال لا تنسج ذات الصغير في هذه المرحلة لتشمل كل ما يحيط به في دائرة عالمه الكبير على نحو ما نجد مثلا بالنسبة للكبار ، وإنما أساس هذا الاتساع الكبير الذي سوف يحدث فيما بعد يتم وضع بلوره في هذه المرحلة حينما يحصل الطفل بتملك أشياء كثيرة .

وبالإضافة الى امتداد الذات واتساعها ، تأخذ صورة الذات في الاتساع أكثر وأكثر . فمن طريق التفاعل المتبادل مع الكبار والوالدين يمكنه أن يقارن بين سلوكه الواقعي وما هو متوقع منه . فهو ولد مشاغب ، ووالده يريد أنه ولدا هادئا مطيعا لطيفا . ولكن صورة الذات هنا ليست نامية على نحو ما هي في المراهقة . وعلى العموم فبلور فكرة الذات كما هي وكما يريد أن تكون عليه ، تكون موجودة في هذه المرحلة .

ج - مرحلة الطفولة المتأخرة : ومع دخول الطفل المدرسة الابتدائية أي في الفترة ما بين سن السادسة والثانية عشرة ، يزداد احساس الطفل بهويته وبصورة ذاته ، ويقدرته على امتداد الذات . وسرمان ما يتعلم الطفل أن ما هو متوقع منه خارج المنزل يختلف الى حد كبير عما هو متوقع منه داخل المنزل . فمستويات الرفاق في اللعب والمشي والكلام والملبس شيء جديد عليه . ثم هو يحاول أن يدمج نفسه مع جماعات الرفاق وأن يندمج مع الشئلة وفي عالم الواقع ، كما يقلق لاهم الأيها ، ويزداد احساسه بذاته الواقعية . ولذلك نجده يرتبط بالمايير الخلقية واحكام اللعب وقواعدها ويتبعها بكل دقة . ويكون راضيا عن نفسه اذا هو تكيف مع الواقع الخارجى والاحكام الخارجية وامتزج مع الشئلة ونمت صورة ذاته .

وهذه الفترة هي أيضا فترة نمو عقلي . وهي فترة تتميز بالازدياد من الرغبة في المعرفة وحب الاستطلاع وكثرة الأسئلة والاستفسارات . وهذه هي بداية الاحساس بمظهر جديد من مظاهر نمو الذات وهو المظهر السادس عند البلوغ .

٦ - المظهر السادس : الذات منطقية عاقلة ووظيفة الذات هنا كوظيفة « الانا » عند فرويد التي تحاول أن تجد حلا ومخرجاً للمشكلات التي تخلفها النزاعات القرينية والنزعات المكبوتة « الهو » ثم الواقع أو البيئة الخارجية ، ثم الأوامر والنواهي التي تصدر عن الوالدين والمجتمع (الانا الأعلى) . فوظيفة الذات العاقلة هي محاولة تجنب المشكلات والصعوبات التي تثيرها هذه النواحي الثلاث ، ولكنها بالطبع ليست دائما عاقلة تماما ، بل تكون أحيانا مجرد ذات دفاعية تحاول خلق المايز والتبريرات كي لا تجرح الذات . فهي تنكر العوائق الموجودة القائمة وتتلصص وسائل الهروب ووضع الخطط التي هي مجرد حلول مزيفة لمشكلات الحياة .

د - مرحلة المراهقة :

وأخيرا تأتي مرحلة المراهقة وفيها يبحث المراهق من جديد عن ذاته . فهو في طفولته المبكرة قد أحس بهويته ولكنه فقدتها إن شئنا القول في الأسرة وفي الشئلة وفي الولاء لهما . والآن تصبح مشكلة المراهق هي البحث من جديد عن هويته .

وكثيرا ما تواجه المراهق في هذه النشائية صعوبات جمة تزيد من مشكلاته في هذه المرحلة . فأسلوب معاملة الوالدين له مرة كطفل ، ومرة كرجل ، من أسباب مشكلاته وعدم استقراره . فسلوكه وتصرفاته تكون أحيانا سلوك الأطفال وتصرفاتهم ، ولكنه مع ذلك قد بلغ من الناحية الجسمية والجنسية مبلغ النضج الذي يكفي للنظر اليه كرجل .

وصورة المراهق عن ذاته تتوقف على الآخرين وتقبلهم أو نبذهم له . وثورة المراهق وتعمده على السلطة لهما علاقة هامة ببحثه عن هويته وذاته . أنها محاولته الأخيرة للاستقلال الذاتي . وقد يلجأ المراهق الى أساليب تكشف عن قلقه عن بحثه عن شيء لم يصل اليه بعد . فالوان انزى التي يرتديها . وتصفيف شعره بالصورة التي يقوم بها ، وتقليده للإبطال المختلفين ، كل ذلك تعبير عن التلق وعدم الاستقرار . وعادة ما ينظر الآباء الى مثل هذا السلوك وهذه الخبرات نظرة بعيدة من الاحترام والتقدير للمراهق . ولذلك فهو يقوم به في الاغلب خارج البيت وفي صحة الزملاء .

ويكون الصراع حول الحاجات الجنسية واضحا ، وتتناقض وجداناته ، وواقفه ويتذبذب أحيانا بين الإيمان والالحاد . وقد يجد كثير من المراهقين في الدين حلا لمشكلاتهم ، كما تظهر أهداف المستقبل واضحة جلية ، ويحتل التفكير في المهنة التي يعد نفسه لها في المستقبل جزءا كبيرا من تفكيره . كما انه يرسم للمستقبل خطة موضوعة . وهو بهذا يدخل بعدا جديدا على ذاته لم يكن موجودا من قبل في الطفولة . وغالبا ما تكون آمال الشاب بعيدة ومستويات طموحه عالية جدا . ولكن مع تقدم السن سرعانما يتكتشف البعض أن مآلديهم من قدرات واستعدادات أقل مما لديهم من آمال وأحلام ، فيعطل من صورة ذاته ومن مستويات طموحه بما يتفق وقدراته واستعداداته . وهذا دليل على مستوى عال من النضج ، وعلى هذا النحو يضيف البورت البعد السابع في تكوين الذات ونموها وهو :

٧ - المظهر السابع : الجوهر العنيز .

وهذا المظهر الأخير يتميز بالاتجاه والقصد المعرفي مما يساعد على تحديد أهداف الفرد . وليس من الضروري أن تكون الأهداف جامدة وثابتة ، ولكن يوجد هدف رئيسي يهدف الفرد الى تحقيقه فقط . وهذا المظهر الهام في نموات الذات لم يكن موجودا من قبل . فالطفل الصغير الذي يريد أن يكون طيارا أو طبيباً ليس لديه الاتجاه المتصل والجهد التكاملي لبلوغ ذلك وتحقيقه . أما الشاب فهو يرسم ويخطط ويحس بالهدف وينشط الى تحقيقه . وبالطبع يحتاج هذا كله الى قدر من النضج في الشخصية قد لا تجده عند جميع المراهقين . فالبعض قد

يصل الى مرحلة المراهقة دون أن يكون لديه إحساس واضح بالهدف . وهؤلاء في الاغلب لا تكون شخصياتهم ناضجة ، ولذا ، فاحساسهم بالذات لا يزال فجاً أولياً .

ولكن هذه المظاهر المختلفة للذات ليست متباعدة ، فهي جميعاً حالات تكشف عن الذات على نحو ما نحسها ونشعر بها . وكل واحدة منها مرحلة من مراحل نمو الذات ويمكن أن نربطها ببعضها ببعض تحت اسم واحد . وقد اختار البورت لها اسم الذات الممتدة المميزة . وقد أشار البورت الى أنه لم يسمها الذات وكفى ، لان معظم الكتاب Proprium يطلقون اسم الذات أو الانا على مظهر واحد أو مظهرين من المظاهر السابقة . ولهذا فهو يفضل أن يضع لها تسمية جديدة تضم هذه المظاهر الممتدة للذات .

٨ - المظهر الثامن : الذات العارفة

ويعد أن حدد البورت الوظائف الموحدة المميزة للتنوع ، والتي تعتبر موجودة لدينا كلها يتساءل عما اذا كانت لدينا ، بالإضافة الى ما سبق ، ذات عارفة يمكن أن تضاف وظيفتها الى كل الوظائف الاخرى للذات الممتدة المميزة وتعلدها وتدرجها ؟ لقد ذهب وليم جيمس الى أنه لا توجد لدينا مثل هذه الذات العارفة . فهي لا توجد كشيء له كيان يمكن تمييزه من المجموع الكلي للخبرات ، أو يمكن انتزاعه من مجرى هذه الخبرات . فكل لحظة شعورية ترتبط باللحظة السابقة ، وعلى هذا فالذات العارفة توجد مضمحلة على نحو ما ، في قوله « الإلتزام نفسها هي الذات المفكرة » .

أما معارضو جيمس فيقولون إن مجرى سلسلة من الخبرات لا يمكن أن تحول هي ذاتها الى شعور أو وعي بهذه السلسلة كوحدة ، كما أن الإلتزام بالماضي لا يمكن أن تؤخذ بذاتها على أنها هامة أو مثيرة للاهتمام ، ما لم تكن هناك ذات تثير اهتمامها أو تكون هامة بالنسبة اليها . فالذات العارفة هي الحكم النهائي ، وهي التي تثبثق كمستلهم نهائي لا مفر منه .

وسواء اخذنا برأي جيمس أو برأي معارضيه ، فمن الملاحظ أن هناك اتفاقاً بينهم في ناحية أن الوظيفة العرفية ضرورية وحيوية بالنسبة لنمو الذات . فنحن لا نعرف أشياء فحسب ، بل إننا نعرف ونتعرف على اللامع التجريبية لذاتنا الموحدة المميزة ، انني أنا الذي لدى احساسات جسمية ، وأنا الذي لأحظ هويتي من يوم الى آخر ، وأنا الذي لاحظت وأفكر في توكيد ذاتي وامتدادها ، وفيما أبدية من تيارات كما أراقب اهتمامي ، وكفاحي وهكذا . أفكر في وظائف الخاصة الموحدة المميزة ، وأكاد أدرك وحدتها الأساسية ، وأشعر بارتباطها الوثيق على نحو ما بالوظيفة العارفة ذاتها .

ومع ذلك يتبدد البورت الأمر ويرى خطورة هذا القول اذا التزمنا بوجهة النظر العلمية ، فاذا صرحنا بأن الذات «عامل مستقل» داخل الشخصية هي التي تعرف وترى بهدف الخ ، السنا في خطر إذن من خلق شخصية داخل الشخصية ؟ فاذا تصاعنا مثلاً لماذا يعمل هذا الشخص بجد ، فأننا لا نفر شيئاً اذا قلنا لأن ذاته تريد بذلك . فقلنا أن الذات

تفعل هذا أو ذلك ، وتريد هذا أو ذلك ، وترغب في هذا أو ذلك ، إنما يشير مجموعة من المشكلات الصعبة التي هي أقرب إلى الفلسفة منها إلى العلم . ولذا يذهب البورت إلى أنه في بناء الشخصية - إذا فهم فهمًا صحيحًا بما في ذلك البناء الموحد المميز - سوف نجد التفسيرات التي تبحث عنها . فليس من الحكمة أن يتخلى عالم النفس عن مسؤولياته في تفسير مظاهر السلوك المختلفة ويعزو مشكلاتنا إلى وسائل داخلية أو إلى عامل خفي يحرك الخيوط على حد تعبيره . وإذا كان من الممكن - لاغراض فلسفية معينة - أن ننظر إلى الذات كوحدة متصلة ثابتة أو أن نهملها الخلود مثلاً ، فإننا في علم النفس يجب أن نتجنب الفصل القاطع بين الذات « كعامل » ووظائف الانظمة الموحدة المميزة داخل الشخصية .

تلك هي المراحل الثمان التي يمر بها « نمو الذات » منذ الطفولة المبكرة حتى المراهقة عند البورت ، وليس من الصعب علينا أن نجد الكثير من أوجه التشابه بينها وبين مراحل النمو النفسي عند أريكسون ، وأن كانت الأسس النظرية التي يستند إليها كل منهما مختلفة إلى حد ما .



وأبما - نظرية النمو عند جان بياجيه :

وكما هو الحال بالنسبة لفرويد ، فإن جان بياجيه أهتم أيضاً بدراسة المراحل العامة التي يمر خلالها الفرد في نضج النفس العقلي . فنظرته نظرية شكلية تهدف إلى وصف المراحل المختلفة للنمو . ولكنه - على عكس فرويد الذي أكد نمو العمليات الدافعية والانفعالية كالدوافع الجنسية والشاعر المتصلة بها ، فإن بياجيه ركز اهتمامه كله على النمو المعرفي ، أعني العمليات العقلية المميزة للنمو من الطفولة حتى المراهقة والرشد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن أسلوب الدراسة والملاحظة الذي استخدمه كل من فرويد وبياجيه كان مختلفاً ، مثلما اختلفت مفاهيمهما في البحث . لقد درس فرويد النمو النفسي في الطفولة أساساً من خلال وصف الراشدين لحياتهم الوجدانية أثناء فترة الطولية ، وذلك خلال جلسة العلاج النفسي ، أما بياجيه فقد قام بالملاحظة الدقيقة لما يقوم به الطفل من سلوك ودون تدخل مباشر من جانبه . كان يعطي الأطفال مشكلات لحلها ويفحص الطرق التي يتبعونها في حل هذه المشكلات في أعمار زمنية مختلفة . وجزء كبير من أعمال بياجيه الأولى ، والتي نشرت سنة ١٩٢٦ في كتابه الأول « اللغة والفكر عند الطفل » كانت بمثابة تقرير للملاحظات الدقيقة التي قام بها على السلوك اللغوي التلقائي للطفل . كما أن كثيراً من مظاهر السلوك التي أوردتها في دراساته الأولى والتي امتلأت بها ملاحظاته الجديدة التي وردت في كتابه « ميلاد الذكاء عند الطفل » لم تكن نتيجة تدخل مباشر من جانبه كمجرب وباحث . ومع ذلك فقد تضمنت معظم دراساته واحدة أو أكثر من صور التدخل التجريبي البسيطة ، والتي تلخص في إدخال نوع من المثيرات في وقت معين خلال النشاط التلقائي للطفل . ومن هنا كانت معظم دراساته تحمل الطابع الشكلي للتجارب الدقيقة ، بمعنى

أن السلوك موضوع الدراسة منذ البداية بمشراة سمعية بدخلها الحرج . ومن الممكن أن نميز أنوما مختلفة من الأساليب التي اتبعها على ضوء أهمية المشرات والاستجابات اللفظية في الموقف الاختباري .

ولقد كانت وجهة نظر بياجية - كما هو الحال بالنسبة لفرويد - متسقة مع اتجاه داروين في التكيف . فهو ينظر الى السلوك كعملية تكيف مع الحياة ، عن طريقها يؤكد الفرد حالة التوازن بين نفسه والبيئة . فالتفكير التي تحدث في البيئة تؤدي باستمرار الى اضطراب هذا التوازن، ومن الممكن أن يعود الفرد الى حالة التكيف فقط من خلال تغيير الفرد لنفسه (أي اللأمة مع البيئة) أو معالجة البيئة (التمثيل) وينمو التفكير العلى من خلال عملية التغير التكيفي المستمر بين الفرد والبيئة .

دراسة تطور النمو المعرفي عند بياجية :

الهدف من هذه الدراسة هو وصف النمو العلى عند الطفل من الميلاد حتى النضج . لقد قسم بياجية النمو العلى عند الطفل الى أربع مراحل أساسية periods ، مشرا بذلك الى الحقب النمائية الكبرى ، ثم قسم كل مرحلة منها الى مراحل فرعية stages ، مشرا بذلك الى التقسيمات الفرعية الصغرى لكل مرحلة من المراحل الكبرى . فالمرحلة الحسية مثلا تنقسم الى ست مراحل فرعية لكل منها مميزات الخاصة . وسوف نقدم في دراستنا لهذا الموضوع تلخيصا موجزا للمراحل الأربع . ولأن يريد التوسع في هذا المجال ، عليه الاطلاع على الكتب العديدة التي كتبها بياجية وتلاميذه في هذا الصدد .

المرحلة الأولى : المرحلة الحسية الحركية - من الميلاد حتى الثانية Sensorimotor Period

والمرحلة الحسية الحركية للنمو تقابل من حيث الزمن الفترة المحددة للطفولة المبكرة التي تشمل السنتين الأولى من حياة الطفل . والسمة البارزة لهذه الفترة ، كما يراها بياجية ، هي أن الطفل فيها يكتسب المهارات والتوافقات البسيطة التي من النوع السلوكي . والصون الاجمالية العامة في هذه المرحلة المبكرة صور حسية حركية . فهي تنظم المعرفة الحسية وتؤدي الى السلوك التكيفي ، ولكنها لا تكون مصحوبة بأى نوع من التصورات المعرفية أو الدهنية للسلوك والبيئة الخارجية . والطفل في خلال هذه المرحلة ينتقل من مجرد ولید يعمل على مستوى الفعل المنعكس والمستوى المركز حول الذات الى مستوى متسق نسبيا من الأفعال الحسية الحركية ازاء بيئته المباشرة التي يحيا فيها . ولكن التنظيم في هذه المرحلة تنظيم « على » بمعنى أنه يتضمن القيام بالتوافقات الإدراكية والحركية مع الأشياء . أكثر ما يتضمن المعالجات الرمزية لهذه الأشياء .

وفي أثناء هذه المرحلة يكتسب الطفل القدرة على أحداث التناسق بين المعلومات الصادرة عن الاجزاء الحسية العديدة ، وكأنها مصادر مختلفة للمعلومات من الشيء الواحد أكثر نما هي مصادر غير مترابطة . فالطفل يصبح قادرا على النظر الى الشيء الذي يستمع اليه ، كما أن قبضه على الأشياء وسيره توجهه الأدلة السمعية والبصرية واللمسية .

وئمة مظهر آخر لاكتساب الطفل في هذه المرحلة الحسية الحركية يتضح في قدرته على العمل كما لو كان العالم الخارجى مكانا ثابتا ، وليس شيئا يتوقف وجوده على ادراكه له . فالطفل يصبح قادرا على البحث عن الاشياء التى اختفت من امامه ، ويبحث عنها على اساس معرفته بالمكان الذى ذهبت اليه او اختفت فيه . كما ان من الممكن ان يتخذ طريقا - في بحثه عن الشيء - غير الذى اخذه الشيء وكان لديه معرفة بالجال المحيط تسمح له باتخاذ طرق عدة توصله لنفس المكان . كما ان في استطاعته ايضا ان يعود الى النقطة التى بدأ منها ، وربما اخذ طريقا يختلف عن الطريق الذى اتخذه اول الامر .

ثم انه يتقدم على القيام بسلوك موجه نحو هدف ومحكوم منذ البداية بشيء من القصد . فمن الممكن ان ينظم معا عملين لو ثلاثة بقصد الوصول الى نقطة النهاية في سلسلة ما . كما يمكنه - قرب نهاية الرحلة - ان يقوم باعمال جديدة لم يحاول القيام بها من قبل للوصول الى اهداف لم يكن في استطاعته الوصول اليها . وبعبارة أبسط يكون في مقدوره ان يجرب اشياء جديدة ويختبر صوره الاجمالية العامة الواحدة تلو الاخرى ، كما لو كان يبحث عن الامكانيات السلوكية للشيء فى امكانه ان يغير افعاله تلقائيا ومختلرا .

وتعد كتبه الثلاثة الآتية المصادر الرئيسية لهذه الرحلة . الكتاب الاول « ميلاد الذكاء عند الطفل » حيث قدم فيه ملاحظاته من نمو السلوك التكنيى عند الطفل ، كما اشار الى النمو التدريجى للصور الاجمالية الحسية الحركية خلال فترة الطفولة المبكرة . وقد تركزت ابحاثه في هذا الكتاب على الملاحظات الدقيقة والمتعمقة والتى استخدم فيها اساليب التجريب البسيط على اطفاله الثلاثة « جاكين ولوسين ولوران » خلال فترة طفولتهم المبكرة منذ اكثر من اربعين عاما . اما **الكتاب الثانى فهو « تركيب الواقع عند الطفل »** والذى قام فيه بتحليل معرفة الطفل وكيف يمكنه سلوكه الافتراضات العديدة عن طبيعة الاشياء والزمان والمكان والسببية . وفى **الكتاب الثالث « اللعب والاحلام والتقليد »** ففيه يصف نمو اللعب والتقليد خلال فترة النمو الحسى الحركى . وفى صورة موجزة للغاية يمكن ان تقدم الملامح الرئيسية للمراحل الستة الفرعية التى تشتمل عليها الرحلة الحسية الحركية :

الرحلة الفرعية الاولى (من صفر الى شهر) : لا يظهر فيها شيء كثير الى جانب الانعزال المنعكسة التى يولد الطفل مزودا بها .

الرحلة الفرعية الثانية (من شهر الى ٤ شهور) : وفيها تبدأ الانشطة المنعكسة العديدة تخضع لتعديلات مستقلة نتيجة التجربة والخبرة وتناسق بعضها مع بعض بطرق متعددة .

الرحلة الفرعية الثالثة : (من ٤ - ٨ شهور) : وفيها يبدأ الطفل القيام بأعمال موجهة نحو الاشياء والاحداث خارج حدود جسمه بصورة أكثر تحديدا . فهو في محاولاته إعادة ظهور الآثار البشئية التى حققها عفوا ومن غير قصد من قبل ، يكشف عن نوع من التبشير بالقصد او الاتجاه نحو هدف .

المرحلة الفرعية الرابعة : (من ٨ - ١٢ شهرا) : وفيها يتضح القصد بشكل ملحوظ محدد على نحو ما يتجلى في الرسائل والقائيات الاولى .

المرحلة الفرعية الخامسة : (من ١٢ - ١٨ شهرا) : وإذا كان الطفل في المرحلة الرابعة يتقنع بانماط السلوك العاوى والمألوف ويستخدمها كوسائل في المواقف الجديدة ، فانه في هذه المرحلة يجرب ليكتشف وسائل جديدة .

المرحلة الفرعية السادسة : (من ١٨ شهرا الى سنتين) : وفيها يبدأ الطفل القيام بتصورات داخلية رمزية للمشكلات الحسية الحركية ، مخترعا الطول عن طريق سلوك المحاولة والخطا الضمنى ، أكثر منه عن طريق السلوك الصريح . ويحدث هذه التصورات الأولى البدئية يكون الطفل قد تجاوز أساسا مرحلة النمو الحسي الحركي ليدخل في مرحلة ما قبل العمليات .

ويكتشف الطفل قرب نهاية هذه المرحلة الأولى من المراحل الكبرى ، عن استبصار وفهم ملحوظ بالبيئة التي يعيش فيها . ففي إمكانه استخدام الاداة للوصول الى الأشياء . كما يمكنه التنبؤ بالنتائج المباشرة نسبيا لما يحدث من أفعال ، وأن يدرك أسباب الأحداث التي تحدث . ويمكنه أيضا أن يستخدم الآخرين كموامل مساعدة لتحقيق النتائج التي يريدها . وهذه القدرات كلها قدرات محدودة . ولكن مجرد كونها موجودة يعتبر في حد ذاته انجازا في هذه المرحلة . ولتحقيق هذه الانجازات يجب مواجهة بعض المتطلبات الهامة التي منها :

١ - اكتساب صور إجمالية عامة (سكيمات) تكون مضبوطة داخليا وقابلة للانتقال . فالطفل يجب أن يكتسب ذخيرة من الصور الإجمالية العامة التي تعمل بهدوء خلال قدر من الضبط الداخلى ، كما يجب أن تكون قادرة على الانتقال أيضا . فكل صورة إجمالية يجب أن تكون مترابطة داخليا باتساق وانتظام . فالسلوك هو نتاج أفعال حركية يؤدي كل فعل منها ويهدوء الى الفعل الذى يليه . وهذه السهولة في اداء الوظيفة تتضمن ما أسميناه بجودة الضبط الداخلى ، أما قابلية الصور الإجمالية للانتقال والحركة فتتضمن قابليتها لتكيف بالنسبة لمجموعة من المواقف والأشياء . لطفل الثانية يمكنه أن يلتقط الأشياء بشيء من الدقة ، ويمسك كل شيء بدقة وسهولة وبلا تردد ، وأن كان القبض على الأشياء يتغير ويتكيف تبعا للظروف المختلفة .

ب - مفهوم الوالع : وبالإضافة الى ما يجب أن يكون لدى الطفل من ذخيرة الصور الإجمالية الصامة ، فمن الضروري أن يميز الخصائص الرئيسية لبيئته . ففي طفولته الأولى يفترض أن الأشياء الخارجية لها صفة الدوام والاستمرار النسبى ، وأنها تستمر في الوجود حتى ولو لم تصبح موضوعا لادراك مباشر . فالعلاقة الحسية تتغير تغيرا جوهريا حين يفلق الطفل عينيه أو يدبر رأسه أو عندما تتحرك الأشياء ذاتها في البيئة أو تغير شكلها . ويسمى يياجه هذا الافتراض بهوية الأشياء الدائمة باسم « مفهوم الشيء » . فنحن ننظر الطفل بعيدا من الشيء ، أو عندما يختفى الشيء من نظره ، يجب أن يكون الطفل قادرا على الرجوع اليه والبحث عنه وتوقع ظهوره ثانية . والمادة الأولى لهذه السمة من سمات النمو هي استجابة الطفل لاختفاء الأشياء من مجال

ادراكه . ومع ذلك ، فليس يكفي مجرد أن يعرف الطفل أن الشيء المختفي لا يزال موجودا ، بل يجب أن يكون قادرا على تنظيم معرفته عنه حتى يكون بحثه وتنقيبه مناسباً . ومعنى ذلك ، أنه يجب أن يفهم أو يدرك أن الأشياء والأفعال مستقر في مكان وزمان متصلين ، وأن هذا المكان الذي يوجد فيه يحوى الأشياء كما يحوى جسمه أيضاً . والحقيقة أنه يعمل كما لو كان جسمه شيئاً في المكان شيبها ببقية الأشياء الأخرى .

ج - التعرف على السبب والنتيجة : وبالإضافة الى مالمديه من ذخيرة الصور الإجمالية وفكرته من المكان الخارجى ، فمن الضروري أن يكون قادرا على معالجة مشكلات تتضمن السبب والنتيجة . ومرة أخرى ، قد يبدو الأمر بالغ الصعوبة عندما نحاول تحديده . ذلك أن العلاقة العائنة بين حادثتين ينم ادراكها فقط خلال أدلة معينة مثل التجاور والتقارب المكاني في تتابع الأحداث الوسيطة . ولكن واحدة من هذه ليست مؤكدة تماما . فالطفل قد يفسر قدمه في الهواء ، وقد ينجم عن ذلك حركة كرة موجودة الى جوار قدمه . ومع ذلك فليس من الضروري أن يؤدي نفس الفعل الى نفس النتيجة . إلا أنه اذا أمكن للطفل أن يحدث مرات عديدة نفس النتيجة ، فقد يسلك على نحو كما لو كان يعتقد أن نفس القدم يحدث بطريقة آلية حركة الكرة . ومن الملاحظ أنه قرب نهاية هذه المرحلة يصبح الطفل أكثر وعياً ومعرفه بالأحداث الوسيطة ، كما يحدث تقدم ملحوظ في التعرف على العوامل الخارجية المتضمنة في تتابع الملمية .

المرحلة الثانية : مرحلة التفكير التصوري من الثانية حتى السابعة Preoperational Period
وبلى المرحلة الحسية الحركية مرحلة أخرى تستغرق عدة سنوات تنمو خلالها بالتدرج الصورة المعرفية الداخلية للطفل من العالم الخارجى وقوانينه وعلاقاته الكثيرة . وتسير هذه المرحلة بطريقة تدرجية : فالصورة الإجمالية التصورية الأولى هي مجرد نسخة داخلية للصور الإجمالية الحسية الحركية . ومع ذلك وبالتدرج ، تنتظم الصور الإجمالية التصورية في أنظمة مترابطة يسميها بياجيه ادائية أو إجرائية operational . وهذا معناه أن الأفعال الداخلية التي هي عناصر النظام تخضع لقوانين عقلية معينة كالمجموعات والتجميعات . وحين يحدث ذلك فإن الطفل يكون قد وصل الى مرحلة العمليات الملمية Concrete operations .

ومرحلة ما قبل العمليات هي أساسا مرحلة انتقالية لا تتميز بحدوث أى توازن أو البات . فنهاية المرحلة الحسية الحركية تمثل نوعا من التوازن على المستوى السلوكى ، كما أن مرحلة العمليات المحسوسة أو الميائية (المرحلة الثالثة) تمثل توازنا جديدا على مستوى أعلى ، بينما هذه المرحلة الثانية هي انتقال بين مرحلتين الأولى والثالثة . وإذا توخينا الدقة ، يمكن القول بأن بياجيه قد قصر نفسه على مراحل ثلاث فقط من مراحل النمو الفكرى . وهو بالفعل فعل ذلك في بعض كتبه ، وهي : المرحلة الحسية الحركية التي تنتهي بالسنة الثانية ، ومرحلة العمليات

المحسوسة او العيانية والتي تنتهي عادة باكتساب قوانين التجميع والمجموعات المختلفة ، ثم مرحلة العمليات الشكلية والتي تبدأ عادة من الحادية عشرة او الثانية عشرة . وكل مرحلة من هذه المراحل الثلاث السابق الإشارة اليها تتميز ببلوغ حالة من التوازن والثبات . يميزها عن غيرها من المراحل .

وان كنا من اجل التوضيح سنأخذ بفكرة جعل « مرحلة ما قبل العمليات » مرحلة قائمة بداتها رغم كونها انتقالية .

وفي هذه المرحلة نلاحظ وقوع الطفل في أخطاء ظاهرة واضحة في مجال تفكيره التصوري أو العقلي . فهو يقع في تناقضات ظاهرة أحيانا . فقد يذكر في لحظة ما ان الشيء (أ) اكبر من الشيء (ب) ، ثم يعود بعد ذلك ، فيقول ان الشيء (ب) اكبر من الشيء (أ) دون ان يدرك التناقض الظاهر بين هذين القولين .

وفي هذه المرحلة أيضا يقوم الطفل بمحاولاتنا الاولى غير المنظمة نسبيا في الاتصال بمالم الرموز، هذا العالم الجديد الغريب بالنسبة اليه . ويميز بياحيه أحيانا مراحل فرعية ثلاثا داخل هذه المرحلة الثانية الكبرى وهي :

١ - بدايات التفكير التصوري (من ٢ - سنوات) .

ب - التصورات أو الحدوس البسيطة (من ٤ - ٥ ١/٢ سنة) .

ج - التصورات أو الحدوس المفصلة (من ٥ ١/٢ - ٧ سنوات) .

واذا نظرنا بدقة الى طبيعة التصورات ، نجد ان أساس عملية التصور هي القدرة على التمييز بين الدال Signifiant و ' المدلول عليه ' Signifie .

ومن ثم القدرة على استدعاء أحدهما والاستدلال عليه بمجرد ظهور الآخر أو انوارحه . وقد أطلق بياحيه على هذه العملية اسم « الوظيفة الرمزية » La fonction symbolique . وعلى الرغم من ادراكه ان الطفل في المرحلة الحسية الحركية يكشف عن نوع من الاستدلال البسيط ، كاتخاذ الدليل الادراكي علامة على ان شيئا ما على شكل الظهور - انه لا يمكنه القيام بالتمييز بين الدال والمدلول عليه . ، هذا التمييز الذي يحدد لنا امتلاك الطفل للوظيفة الرمزية والتي تسمح له بالانتقال بين الدكاء الحسي الحركي والدكاء التصوري . تطلق المرحلة الحسية الحركية لا يمكنه ان يستمدى ذهنيا الدال (سواء كان كلمة أو صورة) ، وابتداء من سن السنة والنصف وظهور اللغة عند الطفل ، نلاحظ تمايزا تدريجيا بين الدال والمدلول عليه . فالطفل يمكنه ان يستمدى صورة الشيء الغائب بواسطة شيء آخر (أي بالتصور) . وهذا التمايز بين الدال والمدلول عليه هو أساس ظهور الرمز . والرمز هو الذي يسمح لنا بالقيام بعملية التصور . فمن طريق قطعة الخشب يتصور الطفل وجود سيارة يتمثل فيها لعبته .

وليس ثمة شك أن الذكاء التصوري بامتلاكه الوظيفة التصورية يختلف اختلافا واضحا عن الذكاء الحسى الحركى الذى يقتصر عليها . ويمكن أن نوجز هذه الفروق فى النقاط التالية :

أولا : أن الذكاء الحسى الحركى يصدر عن الأفعال أو الإدراكات المتتابعة التى يدركها الطفل الواحدة تلو الأخرى . أما التفكير التصورى فلديه القدرة من خلال وظيفته الرمزية هذه على إدراك مجموعة من الأحداث المنفصلة فى صورة واحدة . فهو وسيلة أسرع وأكثر مرونة ، يمكنه استمداء الماضى وتمثل الحاضر والتنبؤ بالمستقبل فى فعل واحد منظم ومختصر زمنيا .

ثانيا : أن الذكاء الحسى الحركى يستند أساسا إلى المكان القريب ، أى المكان الذى يمكن للطفل إدراكه فى المحيط الذى يوجد فيه . فهو لا يستجيب إذن للمكان البعيد (كالجبال والنجوم باستثناء القمر) وبالمثل يستند الذكاء الحسى الحركى إلى الزمان الحاضر . فليس هناك توقع سوى لمستقبل مباشر قريب ، كما أن ليس هناك استجابة ، سوى لماضى قريب حيث يواصل القيام بمثل ما تركه منذ لحظة وجيزة . أما التفكير التصورى فبهد قريب مجال المعرفة إلى مكان بعيد ، وإلى زمان يتجاوز الماضى والمستقبل القريبين ، أى أنه يتميز بالامتداد فى الزمان والمكان .

ثالثا : لما كان الذكاء الحسى الحركى ذكاء فعليا أو ذكاء عمليا ، فإنه يقتصر على تتبع الأهداف المحسوسة للفعل أكثر من طلب المعرفة والبحث من حيث هما كذلك . أما التفكير التصورى فهو بطبيعته يهتم بتنظيم أفعاله من حيث هى قائمة على أشياء ، أكثر من اهتمامه بتسجيل « النجاح أو الفشل التجريبيين » . فالتفكير التصورى يهتم إذن بتأمل الفعل أكثر من اهتمامه بالفعل نفسه .

رابعا : وبواسطة قدرته على الخروج من نطاق الحاضر المباشر ، فإن التفكير التصورى يمكنه أن يمد مجاله إلى خارج نطاق الأفعال المحسوسة الواقعية للذات ، وخارج مجال الموضوعات الواقعية المحسوسة فى البيئة . وهدف هذا التحرر من الواقع المحسوس هو معالجة الرمزية لأحداث غير محسوسة (على نحو ما يحدث فيما بعد فى التفكير العلمى والرياضى عند الكبار) .

خامسا : لما كان الذكاء الحسى الحركى قاصرا على الأفعال الحسية الحركية أكثر من تصورات الواقع ، فهو بالضرورة حادث خاص أو مسألة فردية . أما الذكاء التصورى فهو من ناحية أخرى يمكنه أن يصبح - بل هو يصبح بالفعل - اجتماعيا من طريق مجموعة الرموز المتعارف عليها والتى يشارك فيها أفراد الجماعة كلها .

وعلى ذلك ، فظهور الوظيفة الرمزية لدى القدرة على التمييز بين الدال والمدلول عليه - والقيام بعملية الاستدلال بينهما ، يؤدى إلى صورة عقلية ذات إمكانات أبعد مدى بكثير من أية صورة من صور الذكاء الحسى الحركى .

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن نقدم باختصارهم الخصائص المميزة لمرحلة التفكير التصوري:

١ - **مركزية الذات** : فطفل مرحلة التفكير التصوري أو مرحلة ما قبل العمليات ، يكون - بالنسبة للتصورات - مركزي الذات ، تماماً مثلما كان طفل المرحلة السابقة بالنسبة للأفعال الحسية الحركية . ولصفة التمرکز الذاتي في مرحلة ما قبل العمليات ، نتائج كثيرة أهمها : أن الطفل يكشف باستمرار من عجز نسبي في الأخذ بعين الاعتبار بوجهة نظر الغير كأحد الاحتمالات الممكنة ، وأن يحاول أن ينسق وجهة نظره مع وجهات نظر الغير .

ويمكن أن نوضح ذلك بمثال بسيط من الغيبرات التي تمر بنا في طفولتنا وتتمثل مع **تقديم السن بالفرد** . أن من يركب منا سيارة مثلاً في ليلة مقمرة ، يبدو له القمر كما لو كان يسير معه ويتبعه . ونحن جميعاً نعلم بطريقة أو بأخرى أن هذا مجرد خداع ، وأن من بين المبررات التي تدفعنا الى عدم الإخذ بمثل هذا الاعتقاد الذي يلازمنا في طفولتنا المبكرة ، أن نفترض مثلاً أن هناك شخصين يركبان سيائتين تسيران في اتجاهين متضادين . فإذا أمر كل منهما على أن القمر يتبعه ويسير في اتجاهه هو ، كان معنى ذلك أن القمر يسير في نفس الوقت في اتجاهين متضادين . وفي هذا بالطبع تناقض واضح . ومثل هذه النظرة تتطلب من الفرد فصل المظهر من الحقيقة . فالقمر ثابت ونحن الذين نسير ونتحرك . ومثل هذا الفصل بين المظهر والحقيقة يتطلب من الفرد الأخذ بعين الاعتبار لوجهات نظر الغير ، الأمر الذي لم يصل اليه الطفل في تصوراتهِ بعد ، وشبه بهذا أيضاً ما نجده لدى الطفل في مجال اللغة والاتصال حيث يبدو أنه يقوم بجهد قليل حقاً لتكييف لفتته وحديثه لحاجيات المستمع .

ونتيجة لانتقار الطفل الى الأخذ بوجهة نظر الغير ، نجده لا يحس بالحاجة الى تبرير أفكاره للآخرين أو البحث عن التناقضات الممكنة التي تكمن في أفكاره ومنطقه . فهو حين ينقل فكرة أو أفكاراً الى أطفال آخرين ينقلها كما لو كان الآخرون يفهمون أفكاره ووجهة نظره . ويعتقد بياجيته اعتقاداً جازماً أن الطفل يصبح على معرفة بنفسه ويصبح قادراً على تبرير أفكاره والارتباط بالمعايير المنطقية والاجتماعية من خلال التفاعلات المتكررة مع الآخرين ، وبخاصة تلك التي يجد فيها الطفل نفسه مضطراً المرة تلو المرة أن يصرف دون الآخرين ، وأن يستمع لوجهة نظرهم وأن يدخلها في اعتباره . ومن هنا ، فإن التفاعلات الاجتماعية هو الذي يعظم مركزية الذات عند الطفل . ومع ذلك ، فهنا التمرکز حول الذات طور من أطوار النمو لا بد أن يمر به طفل هذه المرحلة .

٢ - **فكرة الثبات** ومن الفروق الهامة بين الإدراك الحسي والتفكير التصوري أن التفكير يربط الماضي بالحاضر مما يساعد تفسير المشكلة التي تواجه الفرد ، بينما الإدراك يتحدد بالمادة التي تقع تحت حواس الفرد بشكل مباشر . وهذه السمة للتفكير تعتبر ذات أهمية

في نظر بياجيه ، وتكوين المفهوم يعتبر أمراً هاماً بالنسبة لتفكير الطفل في هذه المرحلة . واحدى المشكلات الكبرى بالنسبة لطفل هذه المرحلة قد تكون عدم قدرته على ادماج المادة التي يستمدّها من خبراته الماضية من أجل الوصول الى احكام صحيحة يستحيل الوصول اليها بدونها . ولقد عالج بياجيه موضوع الثبات في مجالات متعددة فدرس فكرة الثبات المكاني وثبات الكم المتصل وثبات الكم المنفصل ، ويكفى أن نشير الى مثال واحد وليكن ثبات الكم المتصل من أجل أن نعرف الى أي حد يجد الطفل صعوبة في الوصول الى هذه الفكرة .

« أعطيت قطعتان من الصلصال من نفس الشكل وبنفس الحجم ونفس الكم . شكلت احدهما على هيئة قرص مستدير والاخرى على هيئة اسطوانة مستطيلة . ثم وجه السؤال الى الطفل : هل نفس كمية الصلصال واحدة في الاثنتين (ثبات المادة) ؟ وهل لدينا نفس الوزن ؟ هل لدينا نفس الحجم ؟ ... وقد وجد أن الطفل في بعض الاحيان لا يقول بالثبات . فيقول مثلاً : إن هذه أكبر لأنها طويلة ورقيقة ، وفي مرحلة ما قبل العمليات لا نجد ثباتاً . أما في سن السابعة فإن الطفل يصل الى فكرة ثبات الكم . وفي سن ٩ - ١١ سنة ، نجده يصل الى فكرة ثبات الوزن . أما فكرة ثبات الحجم فإنه يصل اليها في حوالي سن ١١ - ١٢ سنة .

المرحلة الثالثة : مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية : من السابعة حتى الحادية عشرة . Concrete Operations

وفي حوالي سن السابعة يكتسب التنظيم الفكري للطفل من البيئة المحيطة به ، صفة الثبات والتماسك بفضل تكوين مجموعة من التراكيب العرفية . وفي هذه المرحلة يبدأ الطفل في أن يبدو معقولا ومنظما في توافقاته مع البيئة ، بمعنى أنه يبدو أن لديه أطرا فكريا ثابتا ومنظما يستخدمه في تعامله مع عالم الأشياء المحيطة به . ففي استطاعته أن يرتب مجموعة من الأشياء حسب حجمها ويدخل أشياء جديدة داخل المجموعة . وفي إمكانه أن يفهم أن عدد الأشياء في مجموعة ما ، لا يتغير بمجرد إعادة الترتيب المكاني لهذه الأشياء . ومن الممكن أيضا أن يفهم الكثير من العلاقات البسيطة بين أصناف أو أنواع الأشياء . فعنلا يمكنه أن يدرك أن ضففا ما لا يمكن أن يحتوي على اعداد أقل مما يحتوي عليه أي من الأصناف العرفية الداخلة تحته . وباختصار يكتسب الطفل في هذه المرحلة مفهوما بدائيا عن الزمان والمكان والمدد والمنطق . وهذه المفاهيم التي في ضوئها تنتظم فكرتنا عن الأحداث والأشياء.

وإذا كنا قد أوضحنا أن طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية (المرحلة الثانية) يختلف تفكيره عن طفل « المرحلة الحسية الحركية » من حيث أنه يعمل على مستوى التصور الذهني في مقابل مستوى الفعل المباشر فإن طفل مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية والتي نحن بصددّها يختلف في تفكيره عن طفل المرحلتين الأولى والثانية . فهو يختلف

من طفل المرحلة الحسية الحركية من حيث انه يعمل على مستوى العمليات ، اى الاداء العقلى غير المحدد ، وليس على مستوى الفعل المباشر، كما انه يختلف عن طفل المرحلة التصورية من حيث انه يعمل وفق نظام أو نسق معرفى متكامل ، به ينظم العالم من حوله . فاذا كان تفكير طفل المرحلة التصورية يقتصر الى الثبات والتنظيم الذى يجعله يسلك أحيانا بطريقة منطقية وأحيانا يفشل فى مواصلة القيام بنسق منطقي بسيط فى الظاهر ، فان طفل مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية - والمرحلة الشكلية التى تليها - يكون تفكيره ثابتا ومستقرا ، ينتج عن تنظيم « الأفكار الأدائية أو الإجرائية فى أنظمة مترابطة تمكن الطفل ان يسلك بثبات وبصورة منطقية ، وان يستخرج من افكاره ما تتضمنه من نتائج . ولذا يقول بياجيه « ان طفل مرحلة العمليات المحسوسة أو العيانية يسلك فى مجموعة متنوعة من الافعال ، كما لو كان لديه تنظيم تمثيلي غنى متكامل يصل فى حالة توازن مع عمليات الالامه . وهذا هو جوهر الخلاف بين هذالمرحلة والمرحلة السابقة عليها . والحقيقة أن نمط ما يتجلى فى المرحلة التصورية يمكن ان يفيد فى مرحلة العمليات المحسوسة .

وحين تبلغ الأعمال المعرفية العقلية هذا المستوى الخاص من الثبات والتنظيم ، اى حين تنتظم فى وحدات تامة متماسكة وتركيب محدد قوى ، هنا يطلق عليها بياجيه اسم « العمليات العقلية » . ومن هنا جاءت التسميات العديدة للمرحلة الثانية وهذه المرحلة الثالثة ثم المرحلة الرابعة ، فقد سميت هذه المراحل على التوالى باسم « مرحلة ما قبل العمليات العقلية » ومرحلة « العمليات المحسوسة أو العيانية » ومرحلة « عمليات التفكير الشكلى أو المنطقى » . ان طفل مرحلة ما قبل العمليات العقلية لديه بالطبع افعال تصورية . ولكن هذه الافعال التصورية التى تسمى أحيانا باسم « الحدس » إنما هى تعبيرات معرفية منفصلة ومتفرقة ولا تتجمع فى كليات متماسكة . ومن هنا يمكن القول بأن « العمليات على نحو ما حددها بياجيه هى الملكة الخاصة بمرحلة الطفولة والتأخر و مرحلة المراهقة .

اما ما نوع الاداء الذى يسميه بياجيه باسم العمليات *operations* ، فان أى عمل تصورى ذهنى يكون جزءا متكاملًا من شبكة أعمال مترابطة ، يعتبر أساسا « عملية » . ولقد اشار بياجيه الى العديد من هذه العمليات . فهناك عمليات الإضافة المنطقية (الجمع) ، وعمليات الطرح والضرب والقسمة ، سواء فيما يتصل بالانواع أو العلاقات . وهناك العمليات العقلية العددية المختلفة الانواع ، والتى أطلق عليها اسم العمليات المنطقية الاخص *Infralogical Operations* وتتضمن الكم والزمان والمكان وغيرها . وهناك أيضا العمليات التى تتصل بنظام القيم والتفاضل المتبادل بين الافراد . ولعل الاشارة الى العديد من هذه العمليات ، ما يجعل القارئ على الفيقها . من ذلك مثلا : عملية الاستجابة لجموعة من الأشياء المتشابهة فى ناحية معينة وتكوين نوع من الانواع ، وعملية ضم الانواع معا (الجمع

المنطقي (الأنواع) وتكوين فرع أشمل وأعم يضم هذه الأنواع جميعا كضم نوع النباتات ونوع الحيوانات لتكوين نوع الكائنات الحية، ثم هناك عملية العود ثانية إلى الأنواع الأصلية من طريق الطرح المنطقي، أي فصلها واستخراجها ثانية من النوع الذي يضم الأنواع إلى آخر هذه العمليات المتعددة التي أشار إليها بياجيه في هذه المرحلة والتي ليس هنا مجال التوسع في شرحها .

ومن الممكن أن نلخص أهم منجزات مرحلة العمليات المحسوسة أو المعيارية بقولنا أن تفكير طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكشف عن تقدم ملحوظ إذا قورن بتفكير طفل مرحلة ما قبل العمليات المنطقية أي المرحلة التصورية . ولعل أهم منجزات هذه المرحلة هي أن تراكيبها المعرفية تتألف من أنظمة تكون في حالة توازن، أعني تتألف من كليات متماسكة من العمليات القابلة للانعكاس، والتي تمكنه من إيجاد التنظيم والثبات بين الأشياء والأحداث في العالم المحيط به، بشكل كان يستحيل على طفل مرحلة ما قبل العمليات أن يقوم به . فإذا كان طفل مرحلة « ما قبل العمليات » يميل إلى العمل فقط في ضوء الواقع الظاهري الذي يقع أمام ناظرية، فإن طفل مرحلة العمليات المحسوسة يبدأ بمد تفكيره من الواقع إلى الممكن، وهذا النمو هو نتيجة طبيعية لتكوين التراكيب المحسوسة . فلو أخذنا متسلسلة مكونة من عناصر ثلاثة محسوسة ولتكن أ، ب، ج (الواقع) فإن طفل مرحلة العمليات المحسوسة يكون أكثر استعدادا من طفل مرحلة ما قبل العمليات للتنبؤ بإمكان تطبيق هذه العلاقة على عناصر جديدة مثل د، هـ (أي الممكن) . وهذه الخطوة تعتبر من أهم الخطوات تمهيدا للانتقال إلى المرحلة الرابعة والآخرى .

المرحلة الرابعة : مرحلة العمليات الشكلية ابتداء من سن الحادية عشرة Formal operations

وبدا هذه المرحلة من حوالي سن ١١ - ١٢ سنة وتصل إلى حالة توازن في حوالي سن ١٤ - ١٥ سنة . وهي مرحلة بداية التفكير المنطقي عند الكبار . فالواقع في هذه المرحلة يمكنه أن يتعامل بنجاح ليس فقط مع عالم الواقع المحسوس (على نحو ما كان في المرحلة السابقة) بل وأيضا مع عالم المجردات والقضايا المنطقية . فهو يفهم المبادئ الأساسية للتفكير العلمي والتجريب العملي، ويستطيع القيام بتجارب، واستخلاص التضمنات الصحيحة على الأقل في بعض الحالات .

وتعتبر مرحلة العمليات المنطقية أو الشكلية تنويعا للنمو العقلي . فهي بمثابة حالة التوازن النهائي التي يسر نحوها التطور العقلي المعرفي منذ بدايته الأولى. لقد عالج بياجيه هذا الموضوع في مؤلفات عديدة أهمها كتابه الذي ألفه مع نيلدير عام ١٩٥٥ والذي ترجم إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩٥٨ تحت عنوان « نمو التفكير المنطقي من الطفل حتى الرشد » والخاصية

الميزة للتفكير الشكلي ترجع بلا شك للدور الذي يقوم به « الممكن Possible » في علاقته بالواقع « Réel » فالتفكير الشكلي - اذا قورن بالتفكير في مرحلة العمليات المحسوسة - يكون بذلك صورة جديدة من صور التوازن التي يسير نحوها هذا التطور العقلي . ولعل مما يلقي الضوء على هذه العمليات الشكلية أن نربط بينها وبين العمليات المحسوسة السابقة عليها والتي صدرت عنها . **فطفل المرحلة المحسوسة أو الميائية تواجهه صعوبات منها :**

١ - أن العمليات المحسوسة ميائية ، أي محسوسة وغير مجردة ، بمعنى أن تركيبها ونشاطها التنظيمي يتجه نحو الأشياء والاحداث المحسوسة الموجودة في الواقع المباشر . حقيقة أن تكوين الانظمة المحسوسة يسمح بيمض الانتقال والسير نحو الممكن أو غير الموجود ، الا ان هذا السير أو هذه الحركة يكون نطاقها محدودا ويتألف غالبا من تعميمات بسيطة التركيب موجودة على محتوى جديد (على نحو ما سبق أن أشرنا في معرفة الطفل امكان نقل العلاقة ١ ، ب ، ج ، وتطبيقها على د ، هـ) ، كما أن نقطة البدء بالنسبة للعمليات المحسوسة - كما هو الحال أيضا بالنسبة لما قبل العمليات - هي دائما - « الواقع أكثر منه الممكن » . فطفل المرحلة من ٧ - ١١ يعمل كما لو كان واجبه الأساسي هو تنظيم وترتيب ما هو موجود أمامه مباشرة . أما الانتقال البسيط المحدود للتنظيم والترتيب على أشياء ممكنة ، فهو أمر يقوم به عند الضرورة . ولذا فهو ينظر اليه كحالة خاصة من النشاط . أما مالا يستطيع طفل مرحلة العمليات المحسوسة أن يفعله ، ويستطيع الراشد القيام به ، فهو يمثل جميع الاحتمالات الممكنة منذ البداية ومحاولة الكشف عن أي هذه الاحتمالات يوجد فعلا في المادة الراهنة . وبهذا الأسلوب الأخير يصبح الواقع حالة خاصة من الممكن . وهذه هي إحدى خصائص العمليات الشكلية المنطقية .

٢ - وكون طفل مرحلة العمليات المحسوسة لا يزال مقيدا - نسبيا - بالظواهر الخارجية ، فهذا من شأنه أن يخلق صعوبة أخرى . أن عليه أن يتغلب على الخصائص المتعددة للأشياء والاحداث (كالكتلة، والوزن والطول والزمن ... الخ) واحدة واحدة، لأن وسائله المعرفية ليست « شكلية » بدرجة كافية ، ولا منفصلة او مستقلة بدرجة كافية عن الموضوع الذي تحمل عليه من أجل أن تسمح بتمايز الشكل من المحتوى . فالطفل بعد أن يصل الى فكرة ثبات الكم ، يظل لفترة غير قصيرة ، عاجزا عن بلوغ فكرة الثبات بالنسبة للوزن والحجم .

٣ - أما الصعوبة الثالثة فهي أن انظمة العمليات المحسوسة المتعددة ، تعتبر بمثابة نقط تنظيم أكثر وأقل انفصالا من ٧ - ١١ سنة، فهي لا ترتبط فيما بينها لتكوين نظام متكامل بسيط ، نظام يمكن للطفل أن ينتقل من تركيب فرعي الى تركيب فرعي آخر بالنسبة لمشكلة واحدة . فبينما يوجد لدى طفل مرحلة من ٧ - ١١ سنة نوعا عمليات القابلية للانعكاس (وهما

النفي والتبادل) ، فانه لا يوجد لديه مع ذلك نظام كلى شامل يسمح له بتنسيق الاثنين معا ، وحل المشكلات ذات المتغيرات المتعددة والتي تتطلب هذا التنسيق . فالتركييب المعرفية تعجز اذن من الترابط فيما بينها في نظام كلى موحد لازم للقيام ببعض العمليات المعقدة .

وفي ضوء هذه الصعوبات التي نجدها في مرحلة العمليات المحسوسة ، يمكن ان تنتقل الى دراسة اهم خصائص التفكير الشكلي الذي يتميز به تفكير الراشد . وكثير من خصائص تفكير هذه المرحلة ليست مترابطة بسهولة احداها بالآخرى بطريقة ذهنية واضحة ، ولكنها تعتبر مهمة في نمو قدرة الفرد على حل المشكلة .

خصائص التفكير الشكلي :

الخاصية الاولى : تتصل بالتطور او بالنمو لقدرة الطفل على فهم العلاقات المنطقية بين الانواع . فاذا كان طفل مرحلة العمليات المحسوسة يمكنه فهم العلاقات المنطقية بين الانواع التي تعرض او تقدم اليه ، فان الراشد في مرحلة العمليات الشكلية عليه ان يدرك يوضح او ان يتحقق من العلاقات الممكنة ، بحيث يمكنه تصميم مواقف تروده بالمعلومات او المعرفة التي يحتاج اليها .

الخاصية الثانية : هي أن جزءا من قدرة الطفل على ادراك جميع الامكانيات يتمثل في سهولة وقدرة الطفل على التفكير التوافقي او الترابطي . وبعبارة اخرى يتمثل في قدرته على مراجعة كل الاختيارات بطريقة منتظمة تسمح بالانتقال خلالها تنابعا اذا لزم الامر ، ويعرف انه استنفذها جميعا . وقد وصفت العلاقات الممكنة المختلفة بين الانواع في نظرية المنطق الشكلي . ويكون طفل مرحلة العمليات الشكلية قادرا - بطريقة حنسية - على استعمال النسق الكامل للمنطق الشكلي من اجل الحصول على المعرفة التي يريدها .

الخاصية الثالثة : هي التفكير الذي طرا على العلاقة بين الواقع والممكن . وهي اهم الخصائص جميعا ومنها استمد يباجيه بقية الخصائص الاخرى . فبدلا من ظهور « الممكن » في صورة امتداد محفود وسيط الواقع او للافعال التي تجري في هذا الواقع ، فان العكس هو الذي يحدث اذ يصبح الواقع تابعا للممكن . فالراشد على عكس طفل مرحلة من ٧ - ١١ سنة - يبدأ نظره الى المشكلة موضوع البحث بمحاولة النظر في جميع الاحتمالات والعلاقات الممكنة التي تصدق على المادة . ومن ثم يحاول خلال الجمع بين التجريب والتحليل المنطقي ان يصل الى معرفة اى هذه العلاقات الممكنة تصدق في الحقيقة على هذه المادة . فالواقع اصبح ينظر اليه كمجموعة فرعية داخل وحدة تامة من الاشياء التي تسمح المدة بظهورها كقروض . فهو ينظر الى « الواقع » كجزء موجود داخل وحدة « ممكنة » .

فنحن اذن بازاء خطوة في غاية الاهمية من خطوات النمو الفكري ونعني بها التحرر من عبودية الملازمة لواقع الباشر على نحو ما وجدنا في الرحلتين السابقتين . وهذا التحرر يأخذ شكلا جديدا في المراهقة والرشد يتمثل في قلب دور الواقع الى ممكن . وليس هذا بالامر اليسر ، اذ هو بمثابة اعادة توجيه اساسي نحو المشكلات المعرفية . فالراشد لم يعد يشغل نفسه بثبات وتنظيم الاشياء المحسوسة وهي التي تتصل اتصالا مباشرا بالحواس ، وانما تظهر لديه خلال الاعادة الجديدة للتوجيه ، القدرة على تصور كل ما يمكن وجوده .

ان التفكير الشكلي هو في اساسه تفكير « افتراضي - قياسي Hypothetico déductif » والقياس لا يقوم هنا مباشرة على حقائق مدركة في العالم الخارجي ، وانما على منطوقات افتراضية ، اي على قضايا تقوم على فروض ، ان يضع المعطيات من حيث هي معطيات بسيطة مستقلة عن حقائقها الواقعية الخارجية . فالقياس يتألف اذن من ربط هذه المعطيات او الفروض فيما بينها واستخلاص النتائج الضرورية المترتبة على ذلك ، حتى ولو لم تتجاوز حقيقتها التجريبية حدود الممكن . فهذا القلب لدور كل من الممكن والواقع - اكثر من اية خاصية اخرى - هو الذي يحدد التفكير الشكلي . وقد اوضح بالارد Ballard هذه الحقيقة في قوله : ان الاستدلال لا يقوم على الافتقادات وانما على فروض . فاذا سلمنا بالافتراضات: كذا ، وكذا ، فإنه يتبع اذن ان نصل الى كذا وكذا من النتائج . وطفل المرحلة من ٧ - ١١ سنة يقيم استدلالات لا على اساس معطيات المشكلة وفروضها ، بل على اساس الواقع والحقيقة . اما الراشد ، فإنه يستدل على اساس التسليم بصديق او كذب الافتراضات التي يبدأ منها استدلالاته .

تلك هي المراحل الأربع للنمو المعرفي ابتداء من الطفولة المبكرة حتى الرشد ، اي ابتداء من النمو الحسي الحركي حتى التفكير المنطقي . وليس ثمة شك ان وراء هذا النمو هدف . لقد كشف لنا هذا النمو من تقدم مستمر ومتصل نحو حالة من التوازن Equilibre يسير نحوها الذكاء . لقد كان هذا الذكاء في بداية الامر امتداد للمجال الإدراكي الذي يفترق الى وجود القابلية للانكاس ، ثم مع بداية ظهور العمليات أصبح المجال أكثر اتساعا وأكثر قدرة على القيام بالعمليات العقلية المختلفة ، وأكثر تحمرا من الأشياء الواقعية والمحسوسات ، كما أصبح أيضا أكثر ثباتا وانتظاما على نحو ما يتضح لنا بشكل ظاهر في المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل النمو العقلي وهي مرحلة التفكير الشكلي . فنمو الذكاء يتحدد أساسا في نظرية يياجه باعتباره تقدما نحو التوازن .

وليس من شك ان ثمة عوامل أساسية هي التي تفسر لنا هذا المسير نحو التوازن . والنضج هو أحد هذه العوامل ، وهو التفتح الطبيعي الذي يطرا على الكائن الحي ، ثم الخبرة وهي العامل الثاني . فالتعلم عملية هامة تفسر اكتساب الإنسان لكثير من الخبرات التي تمر به

في الحياة . ولا يمكننا بحال من الاحوال أن ننكر أثر التعليم أو أثر تراكم الخبرات المكتسبة من البيئة التي نعيش فيها . ثم هناك ثالثا الوسط الاجتماعي . فقد لا يكتسب الطفل مثلا فكرة الشيء (كفكرة الثبات) من البيئة المادية وتفاعل معها ، وإنما قد يلقي هذه المفاهيم والافكار عن طريق الوالدين والمدرسين أو المحيطين به . غير أن كل واحد من هذه العوامل لا يكفي لتفسير التنظيمات المعرفية ، ولذا ينتهي بياجيه الى تقديم نظريته التي تقوم أساسا على فكرة التوازن . فبسبب احتواء الانظمة العقلية المنسقة على تناقضات ذاتية ، وبسبب ما تحدثه لدى الطفل من صراعات ، فإن الطفل يجد نفسه مدفوعا بقوة لاحداث التناسق بين افكاره واعادة تنظيمها في كل منسق متوازن . وهذه هي عملية احداث التوازن عند بياجيه .



وبعد ، فقد استعرضنا أربع نظريات من نظريات النمو النفسي ، يمثل كل منها اتجاها من الاتجاهات الهامة في نظريات النمو النفسي . فهناك نظرية النمو النفسي الجنسي عند فرويد ، ونظرية النمو النفسي الاجتماعي عند أريكسون والتي أدخلت بعض التعديلات والإضافات على النظرية الأولى ، ثم هناك نظرية نمو الذكاء عند بيالورث ، وأخيرا نظرية النمو العقلي المعرفي عند بياجيه . وإذا أمعنا النظر في هذه النظريات النمائية الأربع ، نجد تقاربا واضحا بينها حاول الباحث بيانها في التخطيط التالي :



تخطيط للعلاقة بين النظريات النمائية لكل من
فرويد - أريكسون - البورت - بياجيه

المرحلة العمرية	المراحل النفسية الجنسية عند فرويد	المراحل النفسية / الاجتماعية عند أريكسون	مراحل نمو الذات عند البورت	مراحل النمو العقلي عند بياجيه
من صفر الى ٢	الفمية	الاحساس بالثقة مقابل عدم الثقة	الاحساس بالذات الجسمية	المرحلة الحسية الحركية
من ٢ الى ٣	الشرجية	الاحساس بالاستقلال مقابل الشك والتخجل	هوية الذات تقدير الذات	المرحلة التصورية أو مرحلة ما قبل العمليات العقلية
من ٣ الى ٦ (ما قبل المدرسة)	القضيبية (الأوديبية)	الاحساس بالمباداة مقابل الشعور بالذنب	امتداد الذات صورة الذات	
من ٦ - ١١ (المدرسة الابتدائية)	الكمون	الاحساس بالإنجاز والاثم (الصناعة والعمل مقابل النقص)	الذات منطقية عاقلة	مرحلة العمليات المحسوسة أو الميائية
من ١٢ - ١٧ (المدرسة الثانوية ثم الرشد واکتمال النضج)	التناسلية	الاحساس بالهوية مقابل اضطراب الهوية . بالود والتألف مقابل العزلة . الإنتاجية مقابل الجمود . تكامل الانا مقابل اليأس	الجوهرة المميز الذات العارفة	مرحلة التفكير الشكلي أو المنطقي

المراجع

أولا : المراجع العربية :

- ١ - جابر عبد الحميد جابر ومحمد مصطفى الشبيبي : النمو النفسي والتكيف الاجتماعي - القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٦٢ .
- ٢ - جون كونجر وويل مونس وجيردم كيجان سيكولوجية الطفولة والشخصية . ترجمة احمد عبد العزيز سلامة وجابر عبد الحميد جابر . القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٧٠
- ٣ - سيد محمد خليم : اللغة والفكر عند الطفل . الكويت . عالم الفكر . المجلد الثاني - العدد الاول - ابريل / يونيو ١٩٧١
- ٤ - سيد محمد خليم : النمو العقلي عند الطفل في نظرية جان بياجيه (الجزء الاول) القاهرة - حويلات كلية الآداب بجامعة عين شمس - ١٩٧٢ - العدد ١٢ .
- ٥ - سيد محمد خليم : النمو العقلي عند الطفل في نظرية جان بياجيه (الجزء الثاني) القاهرة - المطبعة العالية - ١٩٧٢ .
- ٦ - سيد محمد خليم : سيكولوجية الشخصية : معانيها ، قياسها ، نظرياتها - القاهرة - دار النهضة العربية - ١٩٧٥ .
- ٧ - هود . ف . لتديج : نظريات الشخصية ، ترجمة فرج احمد فرج وآخرين - الهيئة المصرية للتأليف والنشر القاهرة - ١٩٧١ .

ثانيا : المراجع الأفرنجية :

7. Allport G. : *Personality. A Psychological Interpretation.* New York, Holt Richart and Winston, 1937.
8. Allport G. : *Becoming : Basic considerations for a Psychology of Personality.* New Haven. Conn. Yale Univer. Press 1955.
9. Allport G. : *Personality and Social Encounter.* Boston. Beacon Press 1960.
10. Allport G. : *Pattern and Growth in Personality.* New York, Holt, Rinchart and Winston 1961.
11. Aires P. : *Centuries of Childhood.* New York, Knopf. 1962.
12. Bandura A. & Walter R. H. : *Social Learning and Personality development.* New York, Holt Rinchart & Winston 1963.
13. Barker R., Kounin J. & Wright H. : *Child Behavior and Development.* New York, McGraw Hill Book Company, 1943.
14. Bishchof L. J. : *Interpreting Personality Theories.* New York. Harper and Row, 1964.
15. Carmichael L. (ed.): *Mannual of Child Psychology*, 2nd ed. New York, Wiley, 1954.
16. Cashdan A. & Whitehead J. (eds). *Personality Growth and Learning.* London, Longman Group Ltd. 1971.
17. Erikson E. H. : *Childhood and Society.* Penguin Books 1970.

18. Erickson E. H. *Identity : Youth and Crisis*. New York. W. W. Norton & Comp. 1968.
19. Flavell J. H. : *The Developmental Psychology of Jean Piaget*. Princeton Von Nostrand 1963.
20. Freud S. : *New Introductory Lectures on Psychoanalysis*. New York, Norton 1935.
21. Freud S. : *The Ego and the Id* (1923). Hogarth, 1947.
22. Freud S. : *Beyond the Pleasure Principle*, New York, Liveright 1950.
23. Gesell A. & Ilg. F. L. : *Child Development*, 2nd ed., New York Harper 1949.
24. Hurlock E. B. : *Developmental Psychology*. New York. McGraw-Hill Book Comp., 1953.
25. Hurlock E. B. : *Adolescent Development*, (2nd ed.) New York, McGraw Hill Book Comp., 1955.
26. Hurlock E. B. : *Child Development*, (5th ed.) New York, McGraw Hill Book Company 1972.
27. Inhelder B. et Piaget J. : *De la logique de l'Enfant a la logique de l'Adolescent*. Paris. Presses. Univer. France, 1955.
28. Jersild A. T., Telford C. W. & Sawrey J. M. *Child Psychology* (7th ed.) New Jersey, Prentice Hall Inc. 1975.
29. Kegan J. & Moss H. A. : *Birth to Maturity: A Study in Psychological Development*. New York. Wiley 1962.
30. Medinnus, G. R. & Johnson R. : *Child & Adolescent Psychology*. New York. John Wiley & Sons Inc. 1969.
31. Mussen P. H., Conger J. J. & Kegan J. *Child Development and Personality*. New York, Harper and Row 1963.
32. Piaget, J. : *La g n se du nombre chez l'Enfant*. Delachaux et Niestle Neuch tel, 1941.
33. Piaget J. : *La Naissance de l'Intelligence chez l'Enfant*. Delachaux et Niestle Nechatel, 1948.
34. Piaget, J. : *Play, Dreams and Imitation in Childhood*, New York, Norton, 1951.
35. Piaget, J. : *Essai sur les Transformations des op rations logiques*, Paris, Presses Univer. France, 1952.
36. Piaget J. : "La formation des connaissances." *Bull. Psychol.* Paris 1955—1956, pp: 148-156, 268-495, 701-727.
37. Piaget J. : "Les relations entre la perception et l'intelligence dans les development de l'enfant." *Bull. Psychol.* Paris, 1956-1957. 10, 376-381, 751-760.

38. Pichon E. : *Le Developement Psychique de l'Enfant et de l'Adolescent*. 2 ieme ed. Paris Masson & Cie (Ed). 1947.
39. Rayner E. : *Human Development; an Introduction to the Psychodynamics of growth, maturity and ageing*. London. George Allen & Unwin Ltd. 1971.
40. Reese H. W. & Lipsitt L.P. : *Experimental Child Psychology*. New York Academic Press 1970.
41. Riegel, K. F. : „History as a Nomothetic Science. Some Generalizations from Theories and Research in Developmental Psychology,” *J. of social issues* 1969 Vol. XXV No. 4.
42. Riegel K. F. *The Changing Individual in the changing society*. New York, Academic Press 1972.
43. Riegel K. F. : “Influence of Economic and Political Ideologies on the development of Developmental Psychology,” *Psychol. Bulletin*, 1972, Vol. 7 No. 2 129-141.
44. Ruch F. & Zimbardo P. *Psychology of Life* 8th ed. London Scott, Foresman and Company 1971.
45. Stone F. & Church J. *Childhood and Adolescence. A psychology of growing Person*, 7th ed. New York. Random house 1957.
46. Watson R. I. & Lindgren H. C. *Psychology of the Child*, New York, John Wiley & Sons Inc. 1973.

محمّد جواد رضا *

الانفصال عن العالم والرحيل إلى الأعماق

الواح ملونة من أزمات الطفولة والشباب في المجتمع المعاصر

الواح الأول

العالم الكئيب

« يتهايمون معا ...
هادئون بلا معنى ...
كالربيع في الأشباب ...
أو اققدام الفئران على الحصاد الهشيم ...
في مخزننا الجاف ...
صور بلا هوى ... ظلال بلا ألوان ...
قوى مشلولة ... إيماءات بلا حراك ...

(*) عميد كلية الآداب والتربية في جامعة الكويت واستاذ التربية القارنة فيها . له العديد من الكتب والبحوث المنشورة منها (فلسفة التربية والرها في تفكير معلم المستقبل) ، (التربية والتبديل الاجتماعي في الكويت والخليج العربي) ، (التربية والمراعاة الاجتماعي) ، (التعليم التأسوي) و (ظاهرة العنف في المجتمعات المعاصرة - تفسير سايكو سوسيولوجي) .

الرجال الجوف ...

سقط القناع ...

يتساندون ...

خوذا مملوءة قشاً ...

تسى . اس . ايليوت

« الرجال الجوف »

مجموعة قصائد

١٩٠٩ - ١٩٢٥

● ● ●

« أرى أفقاً بنجيع الدماء

تكوّر واختفت الأنجم

وحبلاً من الأرض يرمى به

كما قذف الصائد السلم

إذا مدّ كئالاً له ناكث

تصلبى ليقطعها مبررم

تكوّر من جثث حوله

فخام وأمجادها اغضم

وكفأ تمثّل وراء الحجاب

فترسيم في الأفق ما ترسيم

وجيلاً يروح وجيلاً يجم

ونصارا أراءهما تفرم

وبأ ويح خائفة من غد

إذا نفّس الغد ما يكتلم »

محمد مهدي الجواهري

١٩٤٩

■ ■ ■

« سمعت صوت بندق . شمعت بالدمر . كانوا يطلقون نيران بنادقهم ومسدساتهم في الليل ولم استطع النوم . كنت مَرْبُوعَة وفزعَة من أنهم قد يشرعون بنادقهم على نوافذ غرفتي ويطلقون النار علي . نمت ليلتُله مع أمي في فراش واحد . كان هناك مخزن قريب من بيتنا لتلهمه النيران . كانوا يوقدون النار في كل شيء . خيل لي يومئذ أن العالم كله يحترق . . . »

من اعترافات طفلة بنت أربع سنوات
أيام العنف الأسود في واتس - لوس أنجلوس

١٩٦٥

« ... لقد استمرت الحرب الفيتنامية طويلا حتى لم يعد يوجد الآن فرد واحد في فيتنام يملك اية فكرة عن كيف كانت الاحوال قبل الحرب . ان اطفالنا يجهلون معنى السلام ، واذا تخيلوه فانهم يتصورونه مكانا جميلا واوقاتنا مرحة خلوا من المشاكل والازمات والمسؤولية ، نوعا من انواع الجنة على الارض ... »

« من رسالة لعالم نفسي فيتنامي موجهة الى الاستاذ موريس فريزر وقد نشرها في صدر كتابه :

Children in Conflict, Penguin Books, 1974.

• • •

القوح الثاني

السقوط النفسي

مند اربعين عاما تقريبا كتب رئيس جامعة ييل J. R. Angell الدكتور أنجل يقول : ان ما بين ١٠ - ١٥ ٪ من طلبتنا الجامعيين يعانون من امراض نفسية معاناة حقيقية تهدد بتدمير فاعليتهم وسعادتهم . وفي الاجتماع السنوى للجمعية الطبية الملكية البريطانية عام ١٩٦٠ اشارت التقارير الى ان ١٤ ٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من امراض نفسية على درجة غير يسيرة من الشدة . وفي المؤتمر العالمي الاول حول الصحة العقلية لطلبة الجامعات المنعقد في جامعة برنستون في نفس الوقت تقريبا أكدت البحوث المقدمة في المؤتمر ماذهب اليه الرئيس أنجل عام ١٩٣٦ مع التنبيه الى زيادة النسبة وبروز ظاهرة الانتحار بين الطلبة (١) . في سنة ١٩٦٦ كتب نيكولاس مولييسون Nicholas Maleson يقول ان مايقارب ٢٠ ٪ من طلبة الجامعات البريطانية يعانون من اضطرابات نفسية معوقة لتقدمهم العلمي على درجات متباينة من القوة . (٢) وفي سنة ١٩٧٠ نشر انتوني رايلى Anthony Ryle الامور الطوى في جامعة سسكس Sussex في كتابه «**الصعاب العقلية**» ان حوالى الثلث من طلبة الجامعات البريطانية معرضون للاصابة باضطرابات نفسية على درجات متباينة من الشدة . (٣) وفي سنة ١٩٧٦ نشر كل من ميلر وهيلر ان في جامعة صغيرة مثل جامعة سوانسي هناك ما بين ٣٠٠ - ٤٠٠ طلبة وطالبة يعانون من امراض نفسية جدية، وان مستشفيات الجامعة وعياداتها النفسية تواجه وضعا صعبا للغاية في تلبية الحاجات العلاجية لهؤلاء الطلبة . ومن الدراسات التحليلية التى قام بها هذان

(١) Davy, B. W. ; The Source and Prevention of mental ill health in University Students, proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.

(٢) Maleson, N.B. ; A Handbook of British Student Health Services, London, Pitman, 1966.

(٣) Ryle, A. ; Student Casualties, Pelican Books, 1970.

الباحثان تبين أن ١٤ ٪ من الطلبة الجامعيين يشكون من التعاسة في علاقاتهم الشخصية ،
١٠ ٪ يقاسون من أحاسيس الكآبة و ٧ ٪ كانت مشاكلهم تنجم عن مصاعب دراسية . (٤)

في المؤتمر الدولي السابع للمائدة المستديرة لتقدم الارشاد النفسي المنعقد بين الحادى عشر
والخامس عشر من شهر ابريل ١٩٧٦ فى جامعة فيرزيبورج فى ألمانيا الاتحادية وجه الاستاذ ارنولد
W. Arnold رئيس جامعة فيرزيبورج السابق ورئيس قسم علم النفس فيها ، وجه الانتباه الى
ما أسماه « الأخلاقيات النفسية الجديدة » New Psychological Ethics فى معرض
التحليل منها . قال الاستاذ ارنولد :

« يجب التذكير بحالات مأسوية ومرضية فى المجتمع الحديث . فى جلسات الارشاد النفسي
غالباً ما يسمع الواحد منا عبارات تصدر عن الأطفال الصغار . . ان أمى لم تكن ترغب فى
مجيئى الى هذا العالم وهى حتى الآن تعبر عن ضيقها بوجودى معها . . »

ثم يعقب الاستاذ ارنولد على هذا بقوله :

« . . ان هذه المرحلة الانسانية تملن من قلق وجودى ، وهى دعوة للبحث عن يمكن
الوقوف به ، انها التماس للشقة والحب ولإمكانية الاعتماد على شخص ما . ان كل الأخلاقيات
النفسية القديمة قد تلاشت من الوجود الاجتماعى تقريباً . كثيرون يشعرون بأنهم وحيدون
ومهجورون . وإذا كان الأطفال والشباب يصون انهم مرفوضون وغير مرغوب فيهم من قبل اولياء
امورهم ومن امهاتهم على وجه التخصيص فانهم يقفون على ارض يوار ، فى حالة من القنوط الكامل
من أى رجاء . . . » (٥)

• • •

الروح الثالث

الضحايا

بتاريخ ٧ سبتمبر ١٩٧١ كتب أحد الأطباء العموميين فى مدينة « لندن برى » يقول معقبا على
ضحايا الحرب الأهلية فى أيرلندا : -

« انى أحب أن أناشد أولئك المشتغلين فى الاقتناع السياسى والعاملين فى منطقتى كريكمان
ويوك سايد شيئاً من الحلم والتبصر فى عواقب ما يفعلون . خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية

Miller, P. — Miller, T. ; Student Problems, Remedies and Satisfactions, (٢)
British Psychiatry, Sep. 1973.

من أهم ان تلاحظ هنا ان الجامعات العربية لاتنشر ولا تملك معلومات معاملة عن الاوضاع النفسية والمقلية لطلابها ، ولذا
يبقى مشاكلهم النفسية ومعاناتهم مقصورة عليهم وغير مصنوعة بها فى العالم الخارجى .

Arnold, W. ; Counselling Activities in Modern Society, Proceedings of (٥)
Seventh International Conference for the advancement of counselling, 11-15, April, 1976,
Würzburg.

دعيت لمعالجة بعض ضحاياهم . أحد هؤلاء الضحايا حاول الانتحار منذ ذلك الحين أكثر من مرة . وأحدهم الآخر تطلب علاجاً عاجلاً في حالة القلق العنيف الذي سيطر عليه . ان عدداً كبيراً من الناس الطبيين يسقطون يومياً فريسة الخوف مما يحمله الاقتتال اليهم وهم لهذا يعتمدون اعتماداً متعادياً على المهدئات الطبية كي يستطيعوا مواصلة حياتهم اليومية . ان عواقب هذا الإكثار المكثف على هذه المهدئات الطبية هي اوضح من ان يستطيع أحد التنبؤ بها « (٦) » .

في وقت قريب من هذا الوقت كتب باحث آخر في آثار الحرب الأهلية في إيرلندا على الأوضاع النفسية والعقلية للأطفال والشباب يقول ان التعرض لتجربة تفجير القنابل والابارات النفسية والاستفزازات يوما بعد يوم صارت تضاعف حالات الكآبة والمماناة العصبية ، حتى صار يمر على كل يوم موكب طويل من المراجعين في العيادة يروون قصصاً مخيفة من معاناتهم من الخوف والمماناة المعقدة لشخصياتهم ولهذا أجدني ملزماً ان اصف لهم كميات كبيرة من المهدئات الطبية والسكنات . ولأول مرة في حياتي المهنية أجدني مضطراً لاعطاء الحبوب النومة بمقادير كبيرة نسبياً للأطفال لاصحدهم على النوم ، ولتتمكنهم من مواصلة ادائهم لواجباتهم المدرسية . ولأول مرة في حياتي المهنية أيضاً بدأت اخاف على سكان مدينتي - ديري - من انهم لن يستطيعوا اجتياز مرحلة الاضطرابات العنيفة هذه من دون تعرض نظام حياتهم الاجتماعية للانهيال التام . (٧)

لقد ترتب على حياة العنف والقتل والدمار التي عاشتها بلغاست والندن الإيرلندية الأخرى منذ اندلاع الحرب الأهلية في سنة ١٩٦٩ ظهور نوعين من الأمراض النفسية بين سكان هذه المدن وخاصة الصغار منهم .

أولاً : كانت هناك الهزات النفسية الشديدة التي كان يبثلى بها الافراد الذين كانوا يتعرضون بصورة مباشرة الى المظاهرات والاشتباكات الدموية في الشوارع . وغالباً ما كان يمكن معالجة الآثار المترتبة على هذه التجارب ، وذلك بالمهدئات الطبية أو دخول المريض الى مراكز العلاج النفسي والعصبي لفترات قصيرة .

ثانياً : زادت نسبة الابتلاء بالأمراض النفسية ذات الطبيعة التعجيزية للمصابين بها ، والتي تتطلب علاجاً أكثر تعقيداً ، كحالة المرضى الى المعالجين النفسانيين ، أو التزامهم بدخول مستشفيات الأمراض العقلية لفترات طويلة . ومن الملفت للنظر ان هذا النوع الثاني من الأمراض النفسية ظهر على نطاق أوسع في المناطق المجاورة لمناطق الصراع الدموي العفلي . ان هذه الظاهرة تتفق مع الاستنتاجات العامة المستخلصة من أيام الحرب العالمية الثانية ، والتي أثبتت انه في زمن الاضطرابات والحروب تزداد ظواهر الانهيار العصبي والأمراض العقلية في المناطق التي « يتوقع » فيها الناس اشتعال الاضطرابات أكثر من تلك الاماكن التي تصبح مسرحاً فعلياً للصراع ، وهذا ما صار الاطباء النفسانيون يطلقون عليه اسم « عقدة الغزو » (٨) The Invasion Complex

Belfast Telegraph, Sept. 7, 1971.

(٦)

Sinclair, F., Belfast Telegraph, Sept. 16, 1971.

(٧)

Fraser, M., Children in Conflict, pp. 81-82, Penguin Books, 1974.

(٨)

لقد خرج الأستاذ فريزر من دراساته التي أجراها على آثار النزاع الدموي الإيرلندي على الأوضاع النفسية للأطفال ، خرج بنتيجة كبيرة وهي انه ليس هناك اى طفل ممن يعيشون في ظروف الاضطرابات وقد نجا من الوقوع في نوع من أنواع القلق المبهض واضطراب النوم ، والخوف من الاضطراب للانفصال عن أبويه وعائلته ، او من رفض المدرسة لقبوله فيها ، او من فقدان الشهية والاضطرابات المعوية والتفوطية والبولية ومن أنواع الصداق .

لقد جمعت لدى الدكتور فريزر اعداد كبيرة من عينات ضحايا الامراض النفسية الناجمة عن احوال القتال اليومي في شوارع بلفاست وغيرها من مساح القتال في المدين الايرلندية ، وكلها حالات مأسوية بالقياس الى صغر اعمار الضحايا وما سيترب عليها بالنسبة لقابل حياتهم . **والحالتان التاليتان يمكن ان تكونا مثيلين منبئين عن آثار هذا الخراب النفسي البكر .**

● **مارجريت ،** طفلة في الثالثة عشرة راجعت الاطباء بسبب نوبات افهام متكررة وامراض قلق شديد جراء مشاهدته من مناظر الاقتتال الدموي في شوارع بلفاست . اضطرت عائلتها الى تغيير سكنها بعد اندلاع الاضطرابات عام ١٩٦٩ وعندما احرق جميع المنازل حول بيتها . وعلى الرغم من ان منزل العائلة لم يدمر تدمرا كاملا الا ان العائلة تعرضت للاستفزاز والابتزاز وتعرضت لممتلكاتها للنهب . وبعد فترة من الاستقرار في سكن مؤقت اشترت العائلة منزلا جديدا في مكان آمن سرعان ما اصبح هو الآخر واحدا من اسوأ نقاط الاضطرابات . انفجرت المظاهرات والاشتباكات بعد خمسة اسابيع من نزول العائلة في منزلها الجديد . ولعدة ليال اصبحت شوارع الحي الجديد ميدان معركة حربية حقيقية بين الفرقاء المتقاتلين من جهة ، وبينهم وبين رجال الجيش والامن من جهة اخرى ، وكثيرا ما وقع الصدام في حديقة المنزل الجديد الذي نزلته عائلة مارجريت .

عندما وقع هذا للمرة الاولى ، راحت مارجريت تصرخ وتلحق وخرت مغشيا عليها وكان لا بد من نقلها الى المستشفى حيث جاءت نتائج كل الفحوص البدنية سلبية . اخرجت مارجريت من المستشفى ولكنها - وعلى الرغم من تمتع منطقتها السكنية ، بعد ذلك بهدوء نسبي - ظلت تتعرض لنوبات الاغصام سواء في المدرسة ام في البيت ، واضطرب أكلها وبدا وزنها في الهبوط .

كانت مارجريت ثانی طفل في عائلة مكونة من سبعة أطفال . كان أبوها عاطلا مزمنًا ، وكان هو وأماها يعانيان من توتر عصبي مزمن وسرعة انفجار عاطفي منذ ان بدأت الاضطرابات في بلفاست . لم يكن في تاريخ طفولة مارجريت ما يثير الانتباه . كانت دائما خجولة مترددة ولكن مشاكلها مع اقرانها بدأت بالازدياد منذ انفجار الاضطرابات السياسية في أغسطس ١٩٦٩ . منذ ذلك الوقت بدأت مارجريت تعاني من فقدان القدرة على النوم توهمًا ان دارها ستحرق وانها ستحترق معها . كذلك صار الخوف الشديد يمتزجها من ظواهر اخرى ، مثل الضوضاء والضجيج والصراخ الجماهيري في الشوارع ، الامر الذي تحول الى خوف من الدهاب الى المدرسة ، تاخذت تقصر في أداء واجباتها المدرسية ، وهذا أدى بدوره الى انحطاط مستواها الدراسي .

ظلت ظاهرة الانغماء تتكرر عند مارجريت لأشهر عدة وبخاصة كلما شاهدت تجمعات من الناس حتى حين لم يكونوا في حالة تظاهر ، وكذلك عند سماع الاشارات العابرة الى حوادث الاشتباكات الدموية او اخبار الصراع السياسي من ايوبها او من جيرانها . ولقد حاول الاطباء الذين تولوا علاجها في مستشفى الأمراض العقلية ان يوضحوا لها العلاقة بين ظاهرة الانغماء المتكررة عندها وبين التجارب القاسية التي مرت بها ، وان الثانية هي سبب الاولى وان ليس هناك أى سبب تشرىحي او عضوي او فسيولوجي للانغماء . وقد احرزت بعض التحسن بعد لاي ، الا ان مستواها العلمي استمر في الهبوط ، الامر الذي اوجب نقلها الى صفوف ضفاف المتعلمين .

●●● هاروي ، كانت في العاشرة من عمرها حين جاء بها الى العيادة لأول مرة بسبب تعرضها لنوبة صرع ناجمة من حالة من القلق الشديد . وكانت ماري اصغر اربعة اطفال في عائلتها ، وكانت العائلة تعيش في واحدة من اسوأ مناطق بلغاست اضطرابا واكثرها اقتتالا .

اختفى ابو ماري دون ان يعثر له على الرلدة لثمانية اشهر قبل جلبها الى المستشفى ، والمعتقد انه كانت هناك اسباب سياسية وراورجيله . وقد تعرضت والدتها لحالات من الكتابة الشديدة بسبب الحوادث الدموية الاخيرة في بلغاست . كانت ماري قد تعرضت لحالات صرع ثانوية قبل ١٩٦٩ ، غير انها كانت نوبات عابرة وقليلة صارت تتكرر بعدد اكبر وبدرجات اعلى من الحدة بعد انفجار الصراع السياسي . وقد قصت ماري بدايات انهيارها النفسي على طبيبها على الوجه التالي :

« في أحد ايام افسطس ١٩٦٩ جاءت مجموعة من رجال الشرطة الخاصة الى الشارع الذي نطقن فيه وبنلوا بطلقون الرصاص على المتظاهرين اثر احراق معمل صغير يقع في الشارع الذي كنا نقيم فيه . وطلبت مني امي الصعود الى الطابق الاعلى من الدار ووضعني في احدى حجر النوم وتركني وحدي ولكنها نسيت ان تسحب مستأثر الحجرة التي وضعتني فيها . وجلست عند حافة الشباك انظر الى مايجري في الشارع كما لو كنت في حالة شلل كلي . لم اكن خائفة في تلك اللحظات وانما المنظر كان يبدو كمالو كان فيلما سينماليا . بعد يومين من ذلك الحادث كنت ورقيقان في طريقنا الى المدرسة ، وكنا نركض لاننا كنا متأخرات وفجأة عاودتني صورة الناس يترافضون في الشارع ومن ورائهم رجال الشرطة الخاصة بينادقهم ورشاشاتهم . بفتة احسست ان ساقى يتربها ضعف شديد ثم سقطت الى الارض ولم افق الا في المستشفى حيث اخبرني الشرطي اني تعرضت لحالة انغماء .

ذات مرة قالت لي امي اوقدى طباخ الغاز . وفجأة تذكرت قتابل الغاز التي كان رجال الشرطة يطلقونها على المتظاهرين فبدأت اشفق شهيقا سريعا ، واخذت يداي ترتعشان ثم تهاويت الى الارض ولم افق الا في المستشفى . في اليوم التالي . في المدرسة . كنا في دوس اللغة وكان الموضوع الاصوات التي تخرجها الاشياء المختلفة . سألتنا المعلمة ماهي الالة التي تخرج الصوت . تنكاليك . تنكاليك . فتذكرت من دون اي شيء آخر صوت سيارة الاطفاء واحسست يدي ترتجفان ، ولم افق الا وانا ساقطة على الارض في حالة انغماء اخرى ... »

استمرت مارى معوقة بهذه النوبات التي كان يسبقها ارتفاع مفاجيء في حدة التنفس . وكانت أشياء كثيرة تسبب تعرضها للاغماء ، مثل انين جرس المدرسة او رؤية الشرارات الكهربائية حتى رؤية الاطفال يركضون وهم يخرجون من المدارس .

اعيد ادخالها الى مستشفى الامراض النفسية ثم اُحيلت الى عيادة نفسية للاطفال وهناك وجد من الضروري حجب الاخبار التلفزيونية عنها ، وحيل بينها وبين سماع الاحاديث عن القتال او المظاهرات نظرا لاتضاح العلاقة بين القلق وسرعة التنفس الذي اصبح النمط الذي يقود الى ظاهرة الاغماء لديها . لقد اوشكت ذات مرة ان تتعرض للاغماء بسبب رؤيتها لعبة عند احد اصدقائها على شكل دبابة نفائسة للهب فما كان من المسؤولين من علاجها الا ان يبعدوا اللعبة منها لاتقاذها . (٧)



على ان ضحايا الطفولة والشباب لا يقتصرهم مصاص الحروب العنقودية الشجرة وحدها . فقد يكون في الحرب الصامتة المعلقة عليهم من الآباء والامهات احيانا ما هو اشد تكللا بهم واكثر تخريبا لادساعهم النفسية والعقلية ، وذلك بسبب ما يمسقطه هؤلاء الآباء والامهات احيانا من آلامهم الماضية على اولادهم وبناتهم ، وبما يقتضونه من اولادهم وبناتهم من تعويضات نفسية عن فشل قديم عانوه ، او مرارة نفسية قاسوها في طفولتهم وظل جرحها يكبر معهم حتى اذا كبر اولادهم وبناتهم ورشدوا غنواهم المثابة التي توفى لهم فيها ديونهم القديمة على آباءهم وامهاتهم . ولنجتزئ هنا بمثلين اثنين .

● **المستر ميلر** مواطن من مدينة نيويورك وهو يعيل من الاطفال سبعة يضاف اليهم زوجته وامه وهكذا يستوى عدد افراد الاسرة عشرة . والمستر ميلر ليس من ذوى الدخول الواسعة ، وكبرى بناته هي دوروي في المرحلة النهائية من الدراسة الثانوية . ودوروي ترغب ان تظهر من المظاهر باجملها ، وهي كاية شابة في عمر هاستهويها فغان الشباب من عطر وحلي وملابس وحفلات وغير ذلك . وهي تدرك ان موارد العائلة المالية لا تكفي لنوالها ما تريد . وهي ذات الوقت حريصة على كرامتها واسم عائلتها . والمدارس في الولايات المتحدة تدرك حاجات الشباب ، وتعيان كثيرا من الاسر قد تعجز عن الوفاء لابنائها وبناتها بما يريدون . ولذلك فهي - اى المدارس - تضم الى اجهزتها الادارية اجهزة متخصصة بتشغيل الطلاب في العطل الصيفية الطويلة في المصانع او منتجعات الاصطياف والاستجمام وتضرب بذلك عصافيرين بحجر واحد ، فهي اذ تريح الاسرة المعسرة او المضيق عليها في الرزق من قدر من تكاليف المدرسة فانها في الوقت ذاته تنيل الاولاد والبنات فرصة الخبرة العملية ، وتعلم الاعتماد على النفس واحترام الكد من اجل العيش بكرامة ، ثم تعيد الاولاد والبنات في آخر الصيف الى منازلهم بجيوب مملوءة بمقادير محترمة

من المالم تضمن لهم ما يشتهون من متع الشباب. وكانت مدرسة دوروي تقدم هذه الخدمات لطلابها شأنها شأن المدارس الاخرى . وتقدمت دوروي الى مكتب تشغيل الطلاب لتلتص عملها خلال الصيف ، ووفرت لها المدرسة عملا مربحاً احد المصايف الجميلة . فلما اشعرت دوروي اهلها بالترتيب الصيفي انفجر الاب مغضباً من اقدام ابنته على ذلك ثم راجع المدرسة ناقماً ومعتزساً ومحتجاً . وبعبادلو الامر في المدرسة من نعمة الرجل واعتراضه على حين كانوا يظنون انهم قد احسنوا اليه والى ابنته ، فيناقشونه في الامر ، ويتلذذ الرجل في البداية بان الامر يتناهي وحيه لابنته ، فهو لا يريد لها ان تتحمل متاعب العمل في هذه السن المبكرة . فلذا نوقش في ان البنت هي الراقية في العمل وهي الساعية اليه قال ان كرامته تأتي عليه ان يرسل ابنته للعمل في الفنادق . فاذا انبىء بان اسرا اكبر من امرته دخلوا فيه في المجتمع ذكرا ترسل بناتها للعمل دون ان تجد في الامر حرجا قال انه يخشى على ابنته من ذل الرجال في تلك الاماكن ، الامر الذي يثير دهشة المسؤولين لان ايا من البنات اللواتي سبق لهن العمل في الماضي لم تتعرض لكرهه فما الذي خوف المستر ميلر من مثل هذه المحاذير ؟ هنا جاب ميلر انه متأكد من ذلك .

— وكيف تأكدت من ذلك ؟

— ان هذا شأني الخاص ...

— ولكنه شأن المدرسة ايضا ؟ فالمدرسة ليست أقل حرصاً على شرف بناتها من اولياء امورهن ؟

— اني اعلم مالا تعلمون .

— واني لك هذا العلم الذي لانعلم يا مستر ميلر ؟

— ان القضية بسيطة ... يأتي الرجل المصطاف المور الى هذه الاماكن هرباً من زوجته او من عمله . . فننتقل به الفتاة من طريق خدمته على المائدة ، فتمسكه فيستهيها فيترك لها في اليوم نصف دولار على المائدة ، ثم يصير نصف الدولار دولاراً في اليوم التالي . . ثم يتجاوز الامر الدولار الى دعوة لرقصة على ساحل البحيرة تحت ضوء القمر . . ثم الى هدية صغيرة ثم هدية اكبر . . وهكذا تبدأ الفتاة تنجر الى الشرك المتصوب لها حتى تكتشف في نهاية الطريق انها دفعت الكثير لقاء ثمن بئس .

كان المستر ميلر يقول هذا بكل اخلاص للمسؤول عن تشغيل الطلبة ، ويتلذذ به الحليلة دون ارسال ابنته للعمل والمسؤول فاجر فاه عجبا ودهشة مما يقول هذا الاب الغيور . فلما تم المستر ميلر حديثه قال له المسؤول : —

— انك يامسدي تثير عجبنا الى حد الخوف . . فهل لك ان تعطينا واقعة واحدة مصداقاً لما تقول وعلى ما تلقيه من التهم ؟

فما كان من المستر الا ان يبلغ به الغضب مدهاء فينفجر صارخاً في وجه المسؤول ...

- آية بينة تريد ... ؟ كل الرجال يفعلون هذا ... لقد كنت أنا نفسي افعله ودحا طويلا من الزمن .

بعد ذلك تهاوى ميلر على مقعده كمن القى من كاهله ثقلا كبيرا واستراح . ورفع الحجاب امام مسؤولي المدرسة . اذن كان المستر ميلر يصارع كئامه هو وأخطائه هو وضحاياها هو من خلال اعتراض على مميل ابنته . كانت الامام والاطباء والضحايا تثر في صدره أن الرجال كلهم على شاكلته ، وان ابنته لن تكون شيئا مختلفا من اللواتي سقطن في شباك ابوها . واذن لم يكن هناك حب أبوي ولا كرامة شخصية يأتیان على الرجل ارسال ابنته للعمل وانما كان هناك الخوف ... الخوف من ان تدفع ابنته لمن حرمت بنات الآخرين التي استباحها في شبابه ... لان الآباء الذين ياكلون اهنابا لم تنضج نضج نضج أسنان ابناهم ، كما يقول الانجيل .

●●● الآن تيودور شاب في التاسعة عشرة من عمره ، وهو مخفق في عمله الجامعي نتيجة احساس عميق بالعجز في المساهمة في رسم مستقبله وتخطيط حياته القابلة وهو يعاني من القلق وضالة الشعور بالرضا عن نفسه وعن الحياة . لقد كان طفلا وحيدا لأبويه اللذين كانا يتمتعان بمركز اجتماعي محترم وقد حرصا منذ البداية على حمايته من حقائق الحياة المؤذية . وكان كلما سأل أبويه بعض الأسئلة أجيب من قبلهما « انتظر حتى تكبر » . وكلما حاول ان يقوم ببعض الاعمال على مسؤوليته الخاصة سألوه « او تظنك قادرا على القيام بذلك ؟ » . وكلما حاول ان يناقش مستقبله المهني معهم قالوا له « ان أمامك الكثير من الوقت لتفكر في ذلك ، اما في الوقت الحاضر فان واجبك الوحيد هو الالتحاق بالجامعة » . وكانت الهواية الوحيدة التي سمح له بممارستها هي لعبة « الجولف » وكانت تلك هي الهواية الوحيدة لأبيه ايضا . وعندما الحق بالجامعة سأل أبويه « ما الفرص من ذهابي الى الجامعة ؟ » وكان الجواب « اننا سنقرر ذلك فيما بعد بطبيعة الحال » . كان الأبوان يفكران في مستقبله المهني الا انهما جعلتا ذلك سرا مكتوما ليتأكدا من طاعته المطلقة لتوجيهاتهما . اخيرا بدأ الشاب يحس بالرهق من هذه الحياة التائهة التي كان يحيها . ثم جاء اليوم الذي كان لا بد ان يجيء في هذه الحالة وكل حالة اخرى مشابهة لها عند الاطفال المبكرين وصرح الشاب قائلا « اننى اشعر باننى مثبط . اننى لا أدري الى أين اسير ولا الى أين اذهب . اننى لا احس باننى اساهم في تقرير مصيرى . عندما اسأل مسؤولا فاني لا احصل على جواب . حتى حينما ادخل على ابوتى وهما منشغلان يحدثن من الاحاديث فانهما يسكتان فجأة . اننى لم اشعر بأية لذة من حيالى في المستتين أو السنوات الثلاث الاخيرة . انى شديد القلق . انى اعتقد ان الأمور تماكسنى بشكل سيء تماما (١٠) » .



اللوحة الرابع

الرفض

الاستاذ - اريد ان اعرف الفلسفة وادامطالة الشعر وارساله بهذه الصورة المبعثرة .

الطالب - هل يزعجك ذلك ؟

الاستاذ - كلا ... ولكنى من جيل متقدم على جيلك ولم يكن من اللوق الهام في زماننا ارسال شعور الرجال بالشكل الذى تفعلون انتم الآن .

الطالب - اعتقد انها قضية ذوق شخصي .

الاستاذ - ولكنها ظاهرة عامة والظواهر العامة لا يمكن ان تترجم عن الذواق شخصية . ولو كانت قضية ذوق شخصي لاختلف الشباب فيها . واذا كانت ظاهرة اجتماعية عامة ثابتة - وهى كذلك فعلا - فلا بد لها من فلسفة . ان الظواهر الاجتماعية فى السلوك الانسانى هى قوانين غير مدونة ولكنها فاعلة فى السلوك .

الطالب - لم اخبرك الحقيقة ... ولكن ماهو فرضك على وجه التحقيق ؟

الاستاذ - حب الاستطلاع ومحاولة فهم الدوافع الانسانية .. انا معنى بمشاكل الانسان ... وابا ادرك ان الظواهر السلوكية لا بد ان تكون رموزا لاشياء اعماق جلدورا فى النفس البشرية ...

الطالب - صدقت ... ان الشعر الطويل المرسل المشوش والقذر احيانا هو رمز لشيء اعماق منه بكثير .

الاستاذ - هو رمز على ماذا ؟

الطالب - الرفض .

الاستاذ - ولكن رفض ماذا ؟

الطالب - قيم المجتمع ؟

الاستاذ - اى من قيم المجتمع ؟

الطالب - قيمه الاستهلاكية . قيمه الامتصاصية . ان روح الاقتناء والاستزادة والانفراد بالاشياء والتكثر منها والتنافس عليها بدأت تدمر الاسس الانسانية للمجتمع . الناس يتنافسون على اقتناء البيوت الفخمة والاثاث الفخم وامتلاك اكثر من سيارة واحدة واكثر من جهاز تلفزيون . حتى الكلاب والقطط أصبحت مما يتنافس فيها الناس . بهذا صرف النظر عن الانسان نفسه الذى يفترض ان يكون الناية العليا من الحياة كلها ، من الوجود . لقد وضع الانسان فى خدمة الاشياء بدلا من ان تكون الاشياء فى خدمته . اليس ذلك شيئا مأسويا ؟

الاستاذ - نعم .. هو مأسوى بالفعل .. ولكن ما علاقة ذلك كله بالشعر الطويل المنشور .
الإنسان صاحب العقيدة يكافح من أجل افكاره بشعر ومن دون شعر . . . وهل يعنى كون
بعض الرؤوس صلعاء أن أصحابها ليسوا من أصحاب الافكار الانسانية العالية ؟

الطالب - أنت الآن تمزح ...

الاستاذ - بل أنا جاد .

الطالب - حسنا اذن . لنبدأ من هذه النقطة . لوعدنا الى الوراء قرنين او ثلاثة قرون
سنجد ان الشعر الطويل للرجال كان ظاهرة قمامة . حتى الانبياء . . عيسى وموسى عليهما
السلام مثلا . . . تجدهما مصورين او منحوتين بجذائل طويلة مرسلة على اكتافهما وذوائب اطول
مدلاة على جباههما . طغ كنانس الدنيا كلها فلن تجد المسيح مصورا في تمثال واحد من دون
جذائله وذوائبه . هذا هو الاصل الثقافي للشعر الطويل المرسل عند الرجل . رجال الصحراء
العرب الى اليوم يتزينون بشعور طويلة تحت كوفياتهم المهففة في الهواء . ان لهذا التعلق
بالشعر الطويل سببا بطبيعة الحال . ان الشعر اكثر من أى شيء آخر يعطى الرجل شخصيته
المتفردة المتميزة . وعندما تجزئ فروة راسه بتغير شكله كليا وربما اضطربت أوضاعه النفسية .

الاستاذ - ولكن هل تحمل هذه القضية كل هذه المضامين ؟ الا ترى انك تحمل الاشياء
فوق طاقتها ؟

الطالب - عموما ... ليست هذه « هي » القضية ...

الاستاذ - ما « هي » القضية اذن ؟

الطالب - الإنسان « هو » القضية .. ان حضارتكم الراهنة تمجد الابداع الانساني ولكنها
تدمر الكائن المبدع نفسه . هذا من صنع البورجوازيين .

• • •

الروح الخامس

القنوط

الاستاذ - ولكن من أين جئت بفكرة تدمير « المبدع » ؟

الطالب - ان الاعتناء على الإنسان يسداميكرا . منذ الطفولة المبكرة . انهم يحاولون صلب
في قوالبهم الوردة ، يجب ان تكون صورة أخرى مكررة عن ملايين صور الرجال الجوف . الم
تسمع بكتاب « أندريه جيد » ، أينما المالكات . انى اكرهك ؟

الاستاذ - بل سمعت به .

الانفصال من العالم والرجيل الى الأعماق

المطالب - لقد كان جثرا ضد معاملة الأطفال على أنهم راشدون صغار . لقد كرر سارتر الشكوى ذاتها والاحتجاج ذاته في كتابه « التكملة » (١٩٦٣) وقد حاول سارتر في هذا الكتاب التنبيه الى ان خير طريقة لتفادي جعل الناس نوريين هي توفير تربية ديموقراطية اصيلة لهم .

الاستاذ - ولكن البورجوازيين الذين هاجمتهم قبل قليل لم يبنوا مجدهم ونفوذهم على هذه التربية الديموقراطية الاصيله ؟

المطالب - ان البورجوازي يفسر وجوده على هذه الارض بأنه نوع من انواع الحق الالهي . اما البروليتاري فلا يملك مثل هذا اليقين ، لانه لا يتمتع بنفس الضمانات التي يتمتع بها الطرف الآخر .

الاستاذ - ما الذي يمنعه من ذلك ؟

المطالب - لان الصناعة كما يقول « اندريه مالرو » دمرت صورة الله في الضمير الانساني وبهذا محت من امام الانسان كل ما يترس طريقه، وعنلما وصل نهاية اعابيه لم يجد الا الموت كما وجده رانسي امام جسد حبيبته . (١١)

الاستاذ - ولكن الا ترى أنك تتخذ موقفا مفرقا في التشاؤم من العالم ؟

المطالب - ابدا .. انه عالم عيش قائم على الخديعة .

الاستاذ - الخديعة ؟

المطالب - نعم الخديعة .. انها في المركز من المأساة الانسانية المعاصرة .. او لم تسمع بمحنة « هنري مارتان » التي هي رمز لازمات كل الشباب المخدوع في هذا العالم ؟

الاستاذ - بلى سمعت به اليس هو صاحب « سارتر » الذي ...

المطالب - بلى انه هو . لقد انضم مارتان الى المقاومة الشعبية الفرنسية سنة ١٩٤٥ وهو في السابعة عشرة من عمره ، وأبلى بلاء حسنا ، ثم نقل الى البحرية الفرنسية بعد الحرب ، وأرسل الى الهند الصينية حيث أوحى اليه انه ارسل للمشاركة في تحرير شعوب المنطقة من الاحتلال الياباني . غير انه سرعان ما اكتشف انه كان متوقفا منه ان يسهم في ابقاء تلك الشعوب تحت السيطرة الفرنسية الاستعمارية ، فأحس بالخيانة وحاول ثلاث مرات شراء حريته من الجندية واخفق فيها كلها فما كان منه عام ١٩٤٩ الا ان قام بتوزيع منشورات مناهضة للحرب في قاعدة طولون العسكرية انتهت به الى السجن خمس سنوات .

الاستاذ - هل كان في مقدوره ان يغير العالم وحده ؟

المطالب - كلا .. وتلك كانت خطيئته المهلكة .. انه أراد ان يعلن حربا على النظام العالمي الفاسد ، وان يتودها ويخوضها وحده ، على حين ان المخدوعين في العالم كثير كثير ، افرادا كانوا أم جماعات .

(١١) رانسي مصطلح ديني فرنسي مألوف بين ١٦٣٦ - ١٧٠٠ ~ وانتهى عاشقاً مات بين يدي عشيقته . لقد طرح مالرو افكاره هذه في رواية « الملاحون ١٩٢٨ » و « العمل ١٩٣٧ » .

الاستاذ - وكيف تخدم الجماعات ؟

الطالب - ان خدمة الجماعات لا تختلف من خديمة الافراد الا بالدرجة فقط . الم تقرأ ما كتبه « توينبي » عن خديمة الرجل الاسود في الولايات المتحدة .

الاستاذ - وماذا قال توينبي ؟

الطالب - قال توينبي ان «الزنبي الامريكي» وعد أولا بأن تحريره من الرق ، ومن ثم توحده مع الرجل الابيض سيضمن حدا لضمّة مركزه الاجتماعي ومستواه المعاشي . ولكن في كل مرة كانت آمال الزوج تخيب . وكان من نتيجة ذلك تبعاً له ان اصبح الزنبي حائراً ضائعاً شاكاً تأكل المرأة قلبه ، وقد دفع ذلك فيما دُفَسَ اليه الى ان تنجّه قطاعات من المجتمع الزنبي الامريكي الى الابيان بحياة جديدة قائمة على الانفصال الكلي عن الرجل الابيض ، انفصال قائم هذه المرة على اختيار السود ومن صنهم يجري تحقيقه بوسائل العنف (١٢) .

الاستاذ - اذا كان العالم يبدو لكم مراجعاً مجيباً من العبثية والخديعة والافتراء ، فأنتم لا تبقون على باب من ابواب الرجاء مفتوحاً أمام مسؤوليات المستقبل .

الطالب - نعم هو ذلك . القنوط من الامل هو العقلائية الوحيدة التي تجعل العالم محتتملاً ، وهي التي تحل هذه التجربة البهضة - الحياة - الى حالة من حالات الوهم . لقد كتباً صامويل بيكيت Samuel Beckett (١٣) لذلك منذ ١٩٣٨ في شخصية مورتى .

الاستاذ - وما هي رؤيا بيكيت عن العالم من خلال مورتى ؟

الطالب - محض عبث لا مبرر له ولا طائل تحته . فانت تعرف ان مورتى مواطن من مواطني دبلن يعيش في لندن على الصدقات ، وهو وحداني ذاتي سيء العشرة يؤمن بأن عقله عبارة عن « مجال ضحل كبير مغلق انغلاقاً تاماً بالنسبة للعالم الخارجي . وهو يريد ان يوصد بوابات عقله من دون العالم الذي يهضمه عبثيته وبطلانته وفوضاه ، وهي امور لا تترك له فرصة للتوافق مع هذا العالم ، ولذا فهو يرى ان المكتف الوحيد للعالم هو « عقله » الذي هو المكان الاوحد حيث يستطيع ان يجد السلام الداخلي فيه ، وحيث لا يكون الا « هبوة » في ظلام الحرية المطلقة . الطريق التي يسلكها مورتى الى الرحيل السامعاه الداخلية هي ان يربط نفسه عارياً الى كرسي هزاز ثم يهتز ويهتز حتى « يجبي عقله » .

ان رحيله بعيداً من زعزعات العالم الخارجي « عالم الامتداد » وتقدمه الى « كهف النفس » ذلك الكهف الباطني العظيم يتعمد بحبه لمعادرة اسمها سلباً وهي « مخلوق شهواني » تبحث

(١٢) Toynbee, A., *Experiences*, p. 248, Oxford University Press, 1969, London.

(١٣) صامويل بيكيت كاتب مسرحي ايرلندي ولد عام ١٩٠٦ واختار باريس منذ صغر شبابه مستقراً له حيث نشر اكثر مسرحياته باللغة الفرنسية وبني مجده الادبي هناك وهو يعد الآن بالإضافة الى برخت ويونسكو اطباء الحرية المسرحية العالمية في الاربعمائة سنة الأخيرة . ومن اهم اعماله « مورتى » ١٩٦٢ و « في انتظار جودو » ١٩٥٢ و « نهاية اللعبة » ١٩٥٧ و « كيف الحال » ١٩٦١ .

عن مركز اجتماعي محثوم بافترائها بمورفي وحملها اياه على البحث عن عمل . غير ان العمل الذي يحصل عليه مورفي يكون في مصحة للأمراض العقلية . في هذا المكان يجد مورفي « ملاذه من الدنيا » وبحس بنوع غريب من السعادة بسين المتأئين عقليا ، لانهم ولجوا المنطقة التي يحاول هو الوصول اليها من طريق كرسية الهزاز . على ان سعادة مورفي لا تدوم طويلا لانه يحترق ذات يوم هو وكرسية الهزاز .

يتترك مورفي وراءه وصيته بوصي فيها ان تحرق رفاته وان توضع بقاياها في كيس من الورق وان تحمل الى مسرح « آبي » السدي » انقضت فيه أسعد ساعات هذه البقايا ، وان تنثر في مجارى مياه ذلك المسرح دون احتفال او اظهار للحنن . ولكن حتى هذه الأمنية الأخيرة كانت غير ممكنة التحقيق ، ذلك ان الصديق الذي حمل رماد رفات مورفي - وقبل ان ينفذ الوصية - يدخل في شجار مع عامل البار في المسرح فيقذفه بكيس الرماد في لحظة غضب ويتناثر الرماد على الجدران وأرضية البار ويصبح في التو موضع الدهس والنخس بنعال السكران ، وهكذا ينفذ جسم مورفي وعقله ونفسه مبعثرة على أرض البار . وقبل ان يبرز فجر اليوم التالي تكون الأرض قد كنست من « الرمل والبيرة واعمقاب السكران والزجاج والكبريت والبصاق والقيء » المختلطة ببقايا رفات مورفي .

الاستاذ - لا امل اذن امام الانسان في شيء من الخير او الرجاء فيه ؟

الطالب - لا بل هناك امل .. هو اقرب الى البطلان منه الى الحقيقة .. هو الامل في الامل ..

الاستاذ - لا افهم ؟

الطالب - انه وجود المرتقب الذي يريتنا ببيكيت كيف ان كل الناس تتوقفه ، ولكنه لا يجيء .. ومع هذا فهم يحلمون بمجيئه وهم لا يريدون ان يخسروا هذا الحلم لانه هو الشيء الوحيد المتبقى لهم . (١٤)



(١٤) في ملتفت مسرحية « في انتظار جودو » نسمع هذا الحوار بين صطوكين ينتظران جودو على قارعة طريق وقد عشيما الجوع :

استراجون - هل انت متأكد ان هذا هو المكان الذي علينا ان ننتظره فيه ؟

فيلاديس - لقد قال بهورال الشجرة . ماذا تريد ان تقول ؟ اننا في المكان الخطأ ؟

استراجون - كان يجب ان يكون هنا .

فيلاديس - انه لم يؤكد انه سيأتي

استراجون - واثقا لم يات ؟

فيلاديس - سوف تأتي لهذا

استراجون - ثم بعد ذلك

فيلاديس - يستعمل

استراجون - المسافة هي

فيلاديس - الى ان يأتي

اللوحة السادسة

الصياح

الاستاذ - ألا ترى ان ييكيت وامثاله ليسوا ممثلين للعالم ، وان الوضع الانساني ليس بالسوء الذي يصورونه به ؟

الطالب - ولكن الكتاب من طبخته هم ضمير العالم .

الاستاذ - ليست هناك معايير هادية في هذه الدنيا غير رؤى هؤلاء الكتاب ، وغير الصراع السياسي والكفاح الدموي ؟

الطالب - مثل ماذا ؟

الاستاذ - خذ القيم مثلا .. ألم تكن حتى الآن دليلا هاديا للبشرية ؟ ألم تكن مصدرا من مصادر الاستقرار النفسي للإنسان العادي ؟

الطالب - الإنسان العادي الذي لا يفكر بطبيعة الحال ... ذلك هو الذي تريد .. أليس كذلك ؟

الاستاذ - أبدا .. الإنسان الفكر هو الذي يعرف القيم ويميزها ويسترشد بها .

الطالب - قد يكون الامر كذلك ولكن المشكلة هي انه ليست هناك قيم متفق عليها أصلا ، ولذا فاننا نسنا في وضع أفضل من وضع مورفي في انفصاله عن العالم .

الاستاذ - وكيف ذاك ؟

الطالب - القيمة شيء نسبي ، والنسبي قابل للتعليل والتأويل .. وما كان كذلك لا يمكن الاعتماد به .

الاستاذ - ومن أين جاءت نسبية القيم ؟

الطالب - جاءت من غياب الإجماع عليها . فهناك من يرى ان القيمة شيء ذاتي ، وانها لا توجد الا كمواظف أو احساسيس بالرغبة أو النفور ، بالحب أو الكره ، بالاحترام أو الإزدراء نحو شيء معين أو نحو شخص معين . فالاكل والشرب والاستمتاع بالموسيقى أو تأمل غروب الشمس كلها قيم لانها تثير فينا احساسا للذبا ، وتقديرا ، وتوهجا في المشاعر . انها تعطينا تجارب شخصية في طبيعة الاحساسات التي نلها . وهذا لا تكون القيمة الا اهتماما أو متعة يعطي الاشياء معنى في نظرنا عندما نرغب فيها أو نحس بالحاجة اليها . حتى عندما تكون القيمة في الشيء فعلا فان الشيء نفسه لا يكتسب من الأهمية الا بمقدار رغبة الإنسان فيه أو حاجته اليه ، وكما يقول بيري R. B. Perry فان « أي شيء مهما كان - يكتسب قيمة » عندما يحظى

باهتمام الإنسان به أيا كانت درجة الاهتمام ، بالضبط كهدف الرامي الذي لا يصبح هدفا الا عندما يقع التصويب عليه من قبل رامي معين » . (١٥)

ويوضح بلانكو هذه الحقيقة بشكل أدق في قوله « ان القيم تنتسب الى العالم الداخلي ، عالم العقل . ان اشباع الرغبة هو القيمة الحقيقية ، أما ما يساعد على تحقيق الرغبة او اشباعها فهو مجرد أداة . القيمة هي دائما خيرة ، وليست شيئا . الأشياء يمكن ان تكون قيمة ولكنها لا يمكن ان تكون قيمة على الاطلاق . اننا نعكس القيمة الداخلية على العالم الخارجي ونسيفها على الأشياء التي تحقق الرغبة او تساعد على تحقيقها » . (١٦)

الاستاذ - اراك تغلوا تغلوا شديدا في نفي واقعية القيم الإنسانية ، وتنفي عنها صفة الموضوعية والحقيقة ، على حين اني أعلم ان قيم الأشياء فيها وليست في الإنسان ، وفي تخميني انه لو لم تكن الأشياء قيمة بلدها لما قيمها الإنسان . الإنسان يكتشف قيمة الأشياء فقط . ولا ريب ان هناك ميزة او خاصية او نظاما للخصائص والمزايا في « الشيء » تجعل الحكم عليه ضروريا ومعقولا في وقت ما لانها تثير فينا استجابة تقييمية Appreciative Response . بعبارة اخرى .. ان فيها شيئا مستقلا يلد العين والاذن او الحاسة الخلقية او الملكة الجمالية في الإنسان . وعلى هذا فان الإنسان لا يهتم الا بتلك الأشياء التي تبدو له ذات قيمة أصلا .

الطالب - قد يكون هذا حقا ... ولكن اكتشاف قيمة الشيء لا يتحقق الا من خلال التجربة الفردية ، اي الانفعال بالأشياء ، وهذه قضية ذاتية صرف .

الاستاذ - هذا حق ولذا فاننا يجب ان نعمل بين أمرين مهمين ، بين التجربة النفسية المصاحبة للحكم على الشيء من جهة ، وبين « الشيء Object » أو « الوضع Situation » الذي تحكم عليه .

الطالب - كيف تفصل الانفعال عن موضوعه ؟ ألا يبدو ذلك صعبا ان لم يكن مستحيلا ؟

الاستاذ - لا استحالة في الأمر . خذ مثلاً أحكام الناس على الجو من حيث هو حار او بارد . اننا هنا لا نقول ان أحكامهم نفسها حارة او باردة لانها أحكام موضوعية من جهة ، ولان ما هو حار او بارد انما هو موجود خارج الإنسان . وفي هذه الحالة نستطيع ان نختبر دقة أحكامهم بقايس الحرارة فوسكون صوابها او خطأها - اي الأحكام - مرهونا بمدى توافقها مع ما يشير اليه ميزان الحرارة حتى في الحديث عن الجمال ... اننا لا نقول عن شيء انه جميل ما لم يكن فيه ما يبرر هذا الحكم كالوانه مثلا او تناسق إبعاده أو هيئته . قيم الأشياء هي في الأشياء ذاتها غير ان

Perry, R. B. ; *General Theory of Value*, pp. 115-116, Longman's Green (١٥) and Company, New York, 1926.

Parker, D.H., *Human Values*, pp. 20-21, Harper & Brothers, New York, (١٦) 1931.

اكتشافها ليس ميسرا للجميع لأنه رهين بالخبرة والمثقة ، فالإنسان الدواثة هو الذى يميز الطيب من الخبيث وعندما يعجز الناس عن اكتشاف قيم الأشياء فانهم يبرهنون على عجزهم ليس غير .

الطالب - انك لم ترد الامر وضوحا .. كل ما فعلت انك خلطت « الشيء » بـ « التجربة » او « الموضوع » بـ « الإنفعال » وجعلتهما شيئا واحدا .

الاستاذ - تلك هى بالضبط طبيعة الأشياء . لأن القيمة - فى التحليل الاخير للأشياء - هى ذات طبيعة علاقئية ، بمعنى ان كلا من العوامل الذاتية والموضوعية ضرورية لخلق القيمة ، ذلك ان عملية خلق القيمة او ايجادها او احداثها هى علاقة خاصة او معرفة بعلاقة خاصة تتكشف لاشخاص حساسين او قادرين على التفهم . ان القيمة هى حصلة تفاعل متغيرين او اكثر فى حالة معينة . وهناك خصائص او حالات بيئية تثير فى الأجهزة الحسية تلك الاستجابات الفريدة التى نسميها احكاما اخلاقية ، فى مثل « هذه الحالات لا يمكن الجواب على السؤال .. » هل الجمال موضوعي ام ذاتي بكملة نعم اولا ، الجواب الصحيح هو ان الجمال صفة او خاصية فى شيء معين تكون من قدرة ذلك الشيء على احداث اللذة فى ذات متاملة . ان السؤال .. هل الجمال موضوعي ام ذاتي ؟ مشابه منطقا للسؤال .. هل حالة التسمم موضوعية ام ذاتية ؟ ان تجربة اللذة مثل الموت .. انها ليست طاقة ولا قدرة ... انما هى حدث بعض الأشياء قادر على التسبب به فى بعض الناس على حين ان الجمال - من الناحية الاخرى - هو مثل التسمم ليس حدثا ولا خاصية وانما هو طاقة او قدرة تملكها بعض الأشياء ... لاحداث اللذة فى بعض متامليها ... » (١٧)

الطالب - لقد اعطيت للقضية عمقا عقلانيا جدليا ومزلتها من ملاساتها الحياتية . ان جيلنا ينظر الى القضايا الاخلاقية على انها مشاكل عملية محمولة فى الرحم الاجتماعى ولا يمكن التماسها فى الجدليات الميتافيزيقية . الفقر والعوز والبطالة واستغلال الانسان للانسان والعبودية الفكرية .. هذه كلها ليست امورا جدلية محضة .. انها من افرازات التركيبة الاجتماعية التى تحتوى الانسان ولا سبيل الى تبديلها الا بتبديل التركيبة الاجتماعية ذاتها . عندما طرحنا قضية القيمة طرحناها على انها أداة استهداف فى الحياة العملية ، أداة للبحث عن الخلاص الانسانى .

الاستاذ - ومن قال ان مسألة القيمة متعزولة او قابلة للعزل عن مشاكل الحياة الانسانية وعن معاناة الانسان ؟ الاخلاق عموما ليست نظاما فى بناء القيم الضابطة للسلوك الانسانى فرديا كان ام جماعيا . بوهكلا فان الحديث فى القيم ان هو الا المدخل الطبيعي الى مناقشة النظام الاخلاقى الوجهة للمعاملات الانسانية والاجتماعية منها على وجه التخصيص .

الطالب - هذا حق .. لولا انك اضعيت على المعالجة درجة عالية من الضبابية اللغوية التى اضعفت المعالم الاساسية للمعضلة الانسانية .. معضلة الاهداف وعيشة الوجود وسقوط

الانفصال من العالم والرحيل الى الامتاع

الانسان في محاولة ابتداء النظم الاجتماعية التي تعطي الوجود الانساني على الارض معنى ، وتعيّنه على ملء فراغ الزمن الضائع في انتظار جود والذي يعرف الجميع انه لن يجيء .

الاستاذ - القضية هنا تصبح قضية اختيار ، اختيار التفسير الاتي بالنبوة والمالء لفراغ الزمن ، وهذه مسألة اخلاقية صرف .

الطالب - ولكن المسألة الاخلاقية ليست اقل ضبابية ولا غشبية من مسألة القيمة ، والمسقوط في غيابها الاختيار الاخلاقي ليس اصعب من ضياع الطريق امام الباحثين في معنى القيمة .

الاستاذ - ومع هذا فلا بد من الاختيار . تريد الحق . . ان السلوكية الاخلاقية للانسان تبدأ بالاختيار اصلا . لقد كان المتدينون الأوائل والميتافيزيقيون اخلاقيين من الطبقة الاولى رغم ان اخلاقياتهم قد لا تقدم حلا لمعضلات عصرنا .

الطالب - هل كان في غيبياتهم حل حتى لأزمات عصرهم ومبودياتهم هم انفسهم ؟

الاستاذ - ربما لم يكن . . ولكن الرؤية كانت واضحة عندهم . وهذا ما منحهم السلام العقلي على الأقل .

الطالب - ولكنه كان سلاما مكدوبا . . كان تسليما ولم يكن سلاما .

الاستاذ - كانت الطريق امامهم منورة . كانت عقيدتهم هي مجموعة الحدود التي قضت بها القوة العليا ، ارادة الله . ومع تطور المفهوم الديني اصبح وجود الانسان كله رهينا بطاعة هذه التماثيل ، كما صارت هذه الطاعة البرر الوحيد لوجود الانسان على الارض والسبيل الى مثوبته في الحياة الاخرى ، وقد اكسبه ذلك درجة عالية من التبل .

الطالب - الطريقة هذه لم تكن عقلانية ، ولهذا حاول الانسان عقلنتها .

الاستاذ - قاده هذا الى المثالية الاخلاقية . ابتدأت هذه المثالية بافلاطون وانتهت بـ « كانت » الذي كان واحدا من ابرع الفلاسفة الميتافيزيقيين ومبلور الاخلاقية الميتافيزيقية في كتابه (ميتافيزيقية الاخلاق) *Metaphysics of Morals*) **وقد العقل العملي** *Practical Reason* . لقد اطلق كانت على فلسفته الاخلاقية اسم « الاخلاقية الصورية *Ethical Formalism* » هل قرأت كانت ؟

الطالب - اجل قرأته وامررف قوانينه الاخلاقية العامة ، وامررف شروطه لاخلاقية الفعل الانساني وهي ثلاثة (اولها) مبدأ الكونية بمعنى ان الفعل الاخلاقي ينبغي ان يبتنى ليس من الرغبة او الميل ولكن من مبادئ يمكن تعميمها على كل الظروف والاحوال وان تصدق في كل تلك الظروف والاحوال ايضا . و (ثانياها) مبدأ الانسانية كفاية في ذاتها ، بمعنى ان الانسان هو غاية الحياة العليا على هذه الارض ، ولا يجوز استعماله اداة لغاية اخرى كما في الرق او البغاء او الاستغلال الاقتصادي . **والمبدأ الثالث** هو مبدأ الاستقلال ، بمعنى ان المبادئ الاخلاقية

التي يطيعها الانسان لا ينبغي ان تفرض عليه من الخارج ، بل ينبغي ان يفرضها هو على نفسه ، اى ان يختارها بارادته الحرة ، وهو يملك الوسيلة لذلك متمثلة في العقل والاحساس الفطري بالواجب المنبثقين من الداخل ، داخل الانسان ، والذين هما برهان ذاته العليا .

الاستاذ - الست ترى في هذه المجموعة من القوانين نظاما متكاملًا للسلوك السوى وطريقا الى الرقعة الانسانية ؟

الطالب - بلى ، لولا ان مثالية كانت افغلت حرب المصالح الاقتصادية بين الطبقات ورمعت نفسها بالمقم . حتى قبل ظهور ماركس والماركسية ظهر الأخلاقيون النفعيون مثل **جرمي بنتام** J. Bentham (١٧٤٨ - ١٨٣٢) و**جسون ستيوارت ميل** J. S. Mill اللذين بنيا نظريتهما في الاخلاق على القول بان اخلاقية الفعل الانساني مرهونة بنتيجته ، فان كانت النتيجة جيدة او ممتعة كان الفعل اخلاقيا ، والا فانه غير اخلاقي ، وان يكن ميل قد حاول التقليل من خطر هذه النزعة الفردية بربطه مبدا « النفع » لا بالفرد وانما بالجماعة او « بحدى صلاحيته في تحقيق السعادة العظمى » ، اى سعادة المجتمع . لقد قال ميل في هذا الصدد « ... ان سعادة الغالبية من الناس هي الميار الاخلاقي الوحيد لالتماس الخطا والصواب في السلوك الانساني ، وما دما نعيش في مجتمع غير عادل فان البعض منا يجب ان يضحي بنفسه او مصالحه في سبيل الآخرين ، وهذا هو جوهر الاخلاق ... » .

الاستاذ - هل لك من مأخذ على التفسير النفسى للاخلاقي ؟

الطالب - اكثر من مأخذ واحد . **اولا** ان ميل اعترف اننا نعيش في مجتمع غير عادل ولكنه ربط صلاح هذا المجتمع او اصلاحه بالنزعة الفرية ، التضحية بالذات في سبيل سعادة الآخرين ، وهو يعلم جيدا ان هذه دعوة غير مستجابة في المجتمع التجارى الذى كان يعيش فيه والذي كان يقوم على الربح وعلى الازدياد منه . **ثانيا** ان المجتمعات لا تصلح بالصدقات . لا بد لك من نظام ثابت في تقرير الحقوق والضعفانات للانسان ، ولا بد من وضوح العلاقة ولبانها بين الجهد والمكافأة . ان شرا ما يهدد المجتمعات ان تظهر فيها طبقات طفيلية غير منتجة تعيش على جهود الناس المنتجين .

الاستاذ - لقد حاول **ديوى** وغيره من « الاخلاقيين التحليليين » ان يطرحوا بدلا عقلانيا من كل المذاهب المتقدمة . وكان **ديوى** John Dewey (١٨٥٩ - ١٩٥٢) في كل حياته مثالا للمفكر العلمي الذى يسترشد بالتجربة ويعتمد نتائجها معيارا لتحليل الاوضاع الانسانية والنظم الاخلاقية . وقد ربط في كتابه « **الطبيعة الانسانية والسلوك الانساني** » Human Nature and Conduct (١٩٢١) ، ربط الاخلاق الى علم النفس الاجتماعى رافضا بذلك التسليم القديم بوجود « قيم خالدة » تقرر مسبقا ما هو خطأ وما هو صواب ، ومؤمنا بان القيم الاخلاقية الحقيقية يجب ان تمر باستمرار بعمليات تحويل واعاد بناء من خلال التفكير الناقد وعلى ضوء التبدلات في الوضع الاجتماعى الانسانى وعناظم المعرفة الانسانية . لقد رفض **ديوى** التنليم بصواب تلك

الاشياء التي يمكن البرهنة نظريا على انها نافعة ومرضية في جميع الاحتمالات المتوقعة ولجميع الاطراف المعنية . و رقم تقدير ديوى للتاكيد الذي وضعه النفعيون على نتائج الفعل كميما لا خلاقيته الا انه لم يوافقهم على ربط المعايير الاخلاقية بالذلة المستخلصة من فعل من الانفعال وذلك لانه اعتبر الدوافع والشخصية والذات جزءا لا يتجزأ من السلوك ولا يمكن اهماله . وعلى هذا الاساس رفض التسليم بوجود فضائل محددة ومتفق عليها لان هذه الفضائل غالبا ما ترتبط بالمادة والعرف السائد في وضع اجتماعي معين ، وهما عرضة للتبديل بتبديل ذلك الوضع . (١٨)

الطالب - لقد كان ديوى محلا مختبرا للمشاكل الاجتماعية فاضطر الى اغفال دور نظام توزيع القوة الاقتصادية في صياغة الاهداف الاخلاقية للمجتمع ، وكان عليه ان يولى قوانين الحركة الاجتماعية الواقعية مكانا اكبر من اطاره النظري للاخلاق .

• • •

الروح السايك

التحليل

خارج اطار المبينة الوجودية وسقوط النظم الاجتماعية في بلوغ الوضع الانساني الامثل . .
كيف نفسر لزمات الشباب في المجتمع المعاصر ؟ لا انتمائته العقلاية او الدينية ؟

حاول هيرت ماركوزه في كتابه « الانسان ذو البعد الواحد » (١٩٦٤) تفسير ذلك بخواء الحياة الانسانية الداخلية الحديثة من تلك التجارب المتوارة باطنيا للوجود الانساني ، تلك التجارب التي كانت تعطي انسان ما قبل الثورة الصناعية ازدهارا باطنيا من خلال الاتحاد مع الله ، او التوحد مع النظام الطبيعي للكون . فرغبة ماركوزه (١٩) الاساسية في هذا الكتاب هي « ان التقدم التكني حين ينسحب على نظام كامل للسيطرة والتنسيق يخلق انماطا من الحياة

(١٨) للتوسع في هذا التجليل الاخلاقي ، راجع كتاب

A History of Modern Philosophy by: Wm. K. Wright, pp. 546-549, Macmillan Book Company, N.Y., 1965..

كذلك راجع كتاب « فلسفة التربية والزها في تفكير معلم المستقبل » للدكتور محمد جواد رضا ص ١٢٢ - ص ١٢٢ ، نشر جامعة الكويت ١٩٧٢ .

(١٩) ولد هيرت ماركوزه في برلين سنة ١٨٩٨ وتلقى دراسته الجامعية في جامعتي برلين وفرايبورغ حيث نال في الاخرة دكتوراه الفلسفة وكان موضوع رسالته « نظرية هيغل Hegel في طبيعة الوجود وعلاقتها بفلسفة التاريخ » . عندما استولى النازيون على السلطة هرب الى سويسرا ، ومنها الى الولايات المتحدة واستقر في جامعة كولومبيا حيث نال اليها بالاشتراك مع ماكس هورفاير « معهد الابحاث الاجتماعية » من مدينة فرانكفورت . بين ١٩٥٤ - ١٩٦٧ عمل في التدريس في جامعة براندس ، ومنذ ١٩٦٧ وهو يدرس في جامعة كاليفورنيا . من اهم كتبه « ايريس والحضارة » « الانسان ذو البعد الواحد » « العقل والثورة » « الفكرية السوفيقية » .

والسلطة التي تمتص قوى المعارضة للنظام القائم ، أو تفند أى احتجاج ضده باسم التطلمات التاريخية للتححر من الكبح والسيطرة . حتى الفكر يتم اخضاعه بحيث لا يعود مصدرا لنقد الحياة الاجتماعية » .

ان ظروف العمل في المجتمع الصناعي الرعوى تميل الى جعل العامل سلبيا . ذلك ان اتسياب الانتاج في مصنع شبه اوتوماتيكي ودرجة المهارة العالية لدى العامل وزيادة نسبة المستخدمين كل ذلك من شأنه ان يقضى على اى شعور بمعارضة نظام العمل ، وهكذا تهيم مؤسسات دولة الخدمات Welfare State على حياة الذين يعمون بنمها ومزاياها وذلك من خلال سيطرتها على مستوى معيشتهم ، لان زيادة الاستهلاك كقيلة كما يقول ماركوزه باضعاف حوافز تقرير المصير حرصا على التمسك بما هو متوفر لها من نعم الحياة الباطلة ولكن الخلابة .

الى تفسير قريب من هذا التفسير ذهب **ارنولد توينبي** في تفسير ثورة الشباب وازمائه بان التقدم الصناعي تسبب في « انعدام اللابائية الفردية وانسحاق الفرد في آلية الحياة الميكانيكية من جهة ، وفي آلية الحياة الاجتماعية من جهة اخرى . ذلك ان الفردية التنافسية المميزة للمجتمع الراسمالي . . . وتعاونية النمل او النحل الشيوعية والقومية ذات الطبقة القليلة . . . كل واحدة منها تمثل الاخرى وكلها تمثل التكنولوجيا في . . لا شخصيتها impersonality وان تنظيمها اجتماعيا ذا طبيعة لا شخصية يناقض جوهر الطبيعة الانسانية ، ولهذا فهو تنظيم مقدر على الطبيعة الانسانية ان ثور ضده . وعندما يستجاب احتجاج الطبيعة الانسانية المبرر تماما سواء بشكل صوري موروث او بالصمت الخالص فان الكائن البشرى سيجد نفسه مسوقا الى استنتاج انه لا يعمل غير العنف المادى سيكون قادرا على جلب الانتباه له كائنات وسط العلاقات اللاشخصية التي يجد نفسه فيها » . (٢٠)

على ان ماركوزه H. Marcuse يضع تأكيدا خاصا على اثر النزعة الاستهلاكية الجديدة في مطمئنة السلوك العقلاني للانسان الحديث . والفرضية الاساسية هنا هي ان تكنولوجيا المجتمعات الصناعية الراقية قد جعلت في استطاعة هذه المجتمعات ازالة التناقضات الخارجية وذلك من خلال امتصاص جميع أولئك الذين كانوا في ظل النظم الاجتماعية السابقة يشكلون اصواتا او قوى رافضة ومثقة . والتكنولوجيا تفعل ذلك جزئيا من خلال خلق الكفاية والوفرة المادية وهكذا يتحرر من الحاجة المادية التي اعتبرها ماركس شرطا مسبقا للحريات الاخرى مدخلا لتوليد عبوديات جديدة ، فمن خلال تلبية احتياجات الافراد المادية تزول اسباب الانشقاق والاحتجاج وينقلبون الى ادوات سلبية بيد النظام الاقتصادي القائم .

ولكن الا يبدو هذا تناقضا ؟ ينفي ماركوزه التناقض باشاراته الى انه عندما يتم اشباع حاجات الفرد الى السلع المادية على حساب احتياجه واحتياج الآخرين الى الحرية وغيرها

من القيم يفقد الانسان حرية اختيار مصيره . ويطلق ماركوزه على النوع الاول اسم الاحتياجات الباطلة ، وهو يضمن حكمه هذا ان الناس العاديين ليسوا هم الذين يقررون - في المدى البعيد - حاجاتهم الحقيقية . بمعنى ان الانماط الحياتية ترسم لهم من قبل الآخرين لانهم ليسوا احرارا في التفريق بين الباطل والحقيقي من الحاجات . وهكذا يكون للانماط الاستهلاكية في مجتمع الوفرة تأثير مزدوج طبقا لتفسير ماركوزه . فهي اذ تلبي احتياجات الانسان المادية التي قد يتقوده الحرمان منها الى الاحتياج والثورة فانها تحمّلهم الناحية الأخرى على التكيف لفرائض الوضع القائم والتسليم بها . ذلك انه « اذا كان العامل ورئيسه يتمتcan بنفس البرامج التلفزيونية ويروان نفس دور اللهو . واذا كانت الموظفة الضاربة على الآلة الطابعة تستطيع ان تتزين بنفس المستوى الذي تتزين به ابنة صاحب العمل الذي يعمل عنده . واذا كان الزوجي يستطيع امتلاك سيارة كاديلك ، واذا كان هؤلاء جميعا يقرأون نفس الصحف ، اذا كان ذلك كله كذلك فانه لا معنى بالضرورة زوال الطبقات ، بل هو يدل على بعد المدى الذي يذهب اليه المجردون من أسباب الهمينة الاجتماعية جراء ركضهم وراء الحاجات الباطلة التي تخدم هدفا واحدا هو الحفاظ على الوضع الاجتماعي والاقتصادي القائم . ان تكيف المجردين من اسباب القوة الاجتماعية بقوالب الاستهلاك هذه يعزز وسائل الانتاج واسع النطاق mass production ولكنه لا يخلقه » .

لقد بنى ماركوزه نظريته في ميويدية الانسان الجديد للحاجة المادية على فرضية ابعده عمقا في الحضارة المعاصرة ، اذ هو يرى ان هذه الحضارة قد فصلت فصلا يكاد يكون مأسويا بين العالمين الداخلي والخارجي للانسان . في هذه الحضارة ظاهرتان مركزيتان ، الأولى هي انتقالها من فترة اليقين والتوثق بصواب اخلاقياتها ايان ازدهار المهد البورجوازي الى فترة لاحقة اساسها الارتياح والرفض . ففي فترة اليقين نشأ تمييز جلي بين العالم العقلي والروحي من جهة ، والعالم المادي من جهة اخرى . العالم العقلي والروحي يفرض على الفرد متطلبات تتجاوز تلك التي يفرضها العالم المادي . ويفترض في الفرد في الاطار الاول ان يطور نفسه داخليا وفق تلك المتطلبات ، ومثل هذا التطوير ممكن من دون حاجة الى اجراء تغيير في العالم المادي المحيط بالفرد .

هذا التصددع المتعالي يعتبر جزءا من طابع الثقافة البورجوازية . وكلما ازداد التصددع تعاضلت الحاجة للتعبير عن الذات بمفاهيم : العالم الداخلي . وهنا يصبح مفهوم السعادة في صورتها الرومانتيكية مفهوم ذلك الجزء من الشخصية الذي يكافح لتحقيق رغبته التي خلقتها الضرورة من دون تعبير ولا انجاز . اما القطاعات غير الروحية فهي قطاعات الحياة المادية . ان الروح تنشأ جمالا مثاليا وسعادة مثالية غير ممكنة التحقيق . ومنعما لا يتمكن البورجوازي من شيء غير الحفاظ على نظامه الاجتماعي والاقتصادي من خلال « تسييس » هذا النظام شيئا فشيئا واخضاع الفرد لمطالب هذا النظام ، عندئذ يكون حتما مهاجمة « العالم الداخلي » للفرد ؛ ذلك العالم الذي يستطيع فيه الفرد ان يحتفظ بقدر ضئيل من الحرية الخاصة المنحرة من المطالب

الخارجية للعالم البورجوازي . ولكن اذا كانت متطلبات العالم المادى الخارجى تقود بالضرورة الى الاعتماد على العالم الداخلى ، فان القيد الموضوع على الحرية يعنى نقضا للسعادة ، وهذه هى الظاهرة الثانية التى يفترضها ماركوزه سبباً ازمت الانسان المعاصر . **ان الحرية والسعادة - عند ماركوزه - ترتبطان ببعضهما ارتباطاً شديداً ، والسعادة بوصفها « تحقيقاً لجميع الطاقات الكامنة فى الفرد تفترض الحرية فى وجودها ، بل انها هى الحرية ذاتها »** . ولما كان الفلاسفة الاخلاقيون سواء منهم من عاش فى العالم القديم او فى العصر البورجوازي قد وعوا عجز الانسان امام محيطه الخارجى ، فقد رفضوا اى احتمال لقبول اية سعادة معتمدة على ظروف المحيط الخارجى ان تكون هدف الانسان . (٣١)

لقد قادت فكرة الحرية المحدودة فى العصر البورجوازي وفى الاطر الثقافية البورجوازية الى فكرة اشد تزمناً ومحدودية عن السعادة ، ومن هنا غدت فكرة التمتع فى المجتمع البورجوازي مرتبطة بحرية الفرد القيدة بضرورات العمل ومقتضيات السوق الاستهلاكية . التمتع هنا تنقيد بفكرة الفراغ وهذا سبب لدنى قيمتها نسبياً ، وهذا التدنى يصدق على حرية الجنس بصورة خاصة . فقد كتب « سينوزا » يقول من التمتع الحسية « اننا نستطيع ان ننغمس فى الملذات على ان يكون ذلك الى الحد الضرورى للحفاظ على صحتنا » . وكتب « فيشته » فى اتجاه مماثل يقول « انه لامر مغاير للترف والانسانية الاصيله ان تتحول طاقة الانسان عن انجاب النسل الى وسيلة للمتعة الحسية » (٣٢) . لقد كان الجنس من جهة نظر سينوزا وفيشته موضوعاً فى خدمة حاجات المجتمع البورجوازي التامى يومئذ . وعلى الرغم من ان الفصل بين التمتع وانجاب الاطفال امر واضح فان الانجاب المتزايد يقدم للدولة البورجوازية ماتحتاج اليه من الممبال والجنود فى وقت مما . او على الاقل هذا ما يذهب اليه علماء الاجتماع الاشتراكيون مثل **الاستاذ الكساندر سينزالى** الذى ينظر الى هذه الازدواجية او الانشطارية على انها نتيجة طبيعية للزدواج فى الاسس الاقتصادية للمجتمع البورجوازي ، اى فى ملكية وسائل الانتاج بين اولئك الذين يعملون ولا يملكون . . . واولئك الذين يملكون ولا يعملون . يقول **سينزالى** مدلاً على رايه « ... خذ مثلاً على ذلك الازدواج الخلقى للمجتمع البورجوازي الذى يسهم كثيراً فى زيادة التوترات الخطيرة ذات الثمن الباهظ وفى زيادة الحساسية الفردية والخوف وحالات المرض العقلى . فمن السهل جداً تحت هذه الظروف ان يكون الشخص رب عائلة طيباً ، او ان يكون عدواً من اعداء تعذيب الحيوان ، ولكنه فى الوقت نفسه يستسيغ استغلال عماله بلا خجل او ان يهدم

(٢١) لتوسع فى نظرية ماركوزه من الناحية السيطرة الجديدة راجع كتابه

One dimensional Man, Sphere Books, London, 1972.

خصوصاً ص ١٦ - ص ٢٨ .

(٢٢) Russell, B., History of Western Philosophy, p. 557, Unwin University Book 1969.

حياة عوائل الآخرين من منافسيه او ان يقوم بترويج الدعاية للحرب . الازدواج الخلقى هو التفسير . ان عبارات مثل .. « التجارة تجارة » .. او .. « حسنا تلك قضية سياسية » .. هذه العبارات وامثالها تكشف عن وجهة نظر مخيبة وداعية للتخوف . ان التهديم القاسي لحياة الناس ، السلوك الذى لا يرتضيه الانسان الشهم ممكن الوقوع جنا في الدوائر التجارية وفي الحياة السياسية . الازدواج الخلقى مرة اخرى . هل هذه حقا قضية اخلاقية محض ؟ على العكس تماما ففي المجتمع الذى تنقسم فيه العملية الانتاجية بين العاملين والمالكين ، ويميز فيه بين العمل والمال لا يستغرب ابدا ان يكون الازدواج الخلقى انكاسا للازدواج في الاوضاع المادية » (٢٢)

• • • الروح الثامن

المخرج

القول بانفصال الشباب عن العالم لا ينبغي ان يؤخذ على إطلاقه . لأن العالم الذى انفصل عنه الشباب ليس عالم الانسان نفسه وانما هو عالم القيم الباطنة التى تصدرت الى هذا الجيل تركمة « ثقيلة » وميراثا قبيحا من رواسب الماضى البشرى الثقيل بالنظم والاستغلال والازدواجيات الاخلاقية التى افترستها عصور التخلف والاعتبارات الطبقيّة الاستغلالية التى زينها في عيون التقنيين على هذا الجيل الجهل والحرمان والاسر الاجتماعي . فهو اذن لم يكن انفصالا بقدر ما كان رفضا . وقد وعى هذه الحقيقة اكثر الباحثين في ازمان هذه الاجيال الرافضة واعتبروا مسؤوليتهم الاخلاقية نحوها هي في التمتع في تحليل هذه الازمان وتشخيص مسببات الرفض ، وعدوا ذلك وفاء منهم ببعض ما لهذه الاجيال عليهم .. ، هذه الاجيال التى استطاعت لأول مرة - ربما - في تاريخ الانسان ان تمتلك الوعى والدكاء والشجاعة لكى تختار حياتها الخاصة وقد كان جان بول سارتر اول من حاول تنبيه المجتمع الانسانى المعاصر الى ما في حركة الرفض الشابة من اخلاقيات صميمية تستحق لا الدراسة والفهم وحسب وانما هي تستحق الاحترام كذلك . ففي مقابلة صحفية اجرتها معه مجلة ال « نوفيل او بيزورفاتور » في ١٩٦٨/١١/٤ واذاعتها اذاعة الكوسمبورج قال سارتر معقباً على ثورة الطلبة الفرنسيين : -

« .. ان العنف هو الوسيلة الوحيدة الباقية امام الطلاب الذين لم يتحولوا بعد الى شريحة من النظام الاجتماعى الذى اقامه آباؤهم للاحتجاج على هذا النظام . ففي مجتمعنا الغربية المترهلة صار الطلاب قوة النضال اليسارية الوحيدة . وما العنف اليسارى نفسه الا ردا على العنف الدائم الذى يمارسه المجتمع الرأسمالى ضد كل افرادة . واذا ما حكمتنا - بناء على اكثر التقارير الصحفية حيادا - نجد ان شرطة القمع الفرنسية تصرفت بشكل غريب من الوحشية عند محاولة احتواء ثورة الطلبة في مايو ١٩٦٨ . ولم يكن ذلك العنف الا نموذجاً لما يمكن ان تكون عليه الحرب الطبقيّة في فرنسا من عنف وفظاعة ... » .

وفي نفس الوقت تقريباً نشر **ماركوز** دراستهما أسماء ب « التسامح القمعي » في المجتمعات الغريبة ، وفي تلك الدراسة كشف عن اعجابه بالطابع الجمالي للحركات الطلابية التي أسماها « لغة الروح » ووجد فيها « موقفاً جديداً مقولاً مقترفاً عن مفهوم وثقافة السوق » .

والى نتيجة مشابهة توصل الاستاذ **لويس فيور** Lewis Fower في كتابه الموسوم « صراع الأجيال Conflict of Generations » عام ١٩٦٩ . فقد تبين للاستاذ فيور من خلال سلسلة الدراسات التي نظمها حول تمرد الطلبة « أن هناك ميلاً ثابتاً في سلوك الشباب الى الرغبة في تحطيم هيمنة الآباء على الأبناء والتحرر منها ، وذلك من خلال الثورة على القيم الثقافية القائمة على التسليم بهذه الهيمنة اخلاقياً وفعلياً . وهم حينما يقومون بالثورة على الوضع الاجتماعي القائم ، ومنعاً يحاولون تحطيم قيمه ومؤسسته فكأنهم يقولون لانفسهم ... حسناً . هذه كلها من صنع آبائنا واجدادنا وهي قيودهم التي يمسكوننا بها ويفرضون ارادتهم من خلالها علينا .. ونحن لا نستطيع ان نتحداهم أو نثور عليهم مباشرة ، ولا ان نقلت من قبضتهم عنوة فلا أقل من ان نحطم ما يبنوه من قيم ومؤسسات ، ونسفه ما التزموا به من مثل وانماط في العيش وبهذا لن يبقى لهم شيئاً يسيطرون به علينا . » (٣٧)

حتى الجامعات العربية في تقاليد التحرر العقلي لم تجد في حركات الرفض الطلابية « نذيراً بمرحلة انهيار جامعي في العالم . واتما وجدت فيها شيئاً يستحق الدرس والفهم . بمعنى آخر هي وجدت في هذه الحركات باباً من ابواب الحقيقة . الجامعة التي لا تبخل بالاموال وطاقات العلماء توفرها للدراسة الاميبا او الدودة الصغيرة ليست اكثر مسؤولية نحو دراسة الانسان وفهم مشاكله . لقد جاءت ثورة الطلاب مقترفة بفراغ الجامعة من الظفر بالاعتراف لها بحقها المطلق في طلب الحقيقة المادية مع بقاء الحقيقة الاجتماعية معلقة غير محسوسة . واذا كان للبشرية اجوبة حاسمة حول اسباب مرض السل وعلاجه مثلاً فهي لا تملك مثل هذا الجواب عن قضايا الظلم والمعدل ، والحرب والسلام والفقر والغنى ، الانتاج والتوزيع ، التمييز والمساواة . ان هذا كله جزء من الحقيقة التي التزمت الجامعة بالبحث عنها وفيها ، ولن يقلل من قيمته ان الطلاب هم الذين يثرونه . ولن يقلل من قيمته ان الطلاب قد يضطئون الوسيلة الى انارته . ان اخطاهم لا تهون ولا تستطيع ان تهون من حقيقة ان الحرب على الحرب في فيتنام بدأت في حرم الجامعات الامريكية ، وان الزكاة لها كان الدم المطلوب في كلية ولاية كنت Kent State College . لقد كان اول من اخترق الجدار المضروب بين الشعبين الصيني والامريكي فرق من طلبة الجامعات الامريكية من لامبي كرة المضادة . كما أن اقوى الاصوات المرتفعة ضد التمييز العنصري في الغرب هو صوت الطلاب سودا كانوا ام بيضا . وعلى الرغم مما اتهمت به الحركة الطلابية العالمية من طغيان النزعة اللاعقلية Anti Intellectualism عليها فان سلوك الطلاب عموماً يتميز باهتمامات اخلاقية من نوع معين ، اهتمامات اخلاقية تقوم على رفض التاريخ الذي لم تجد فيه دليلاً آميناً

الى حل المشاكل التي ترتطم بها ، بل وللمهاجرين مسؤولية عنها . ان الاهتمامات الاخلاقية عند الشباب الجامعي المعاصر هي من دون ادنى ريب خير مطلق . وعلى الرغم مما يراه منتقso هذه الحركات الطلابية فان هذا الانشغال الاخلاقي بقضايا الحرب والسلام ، التمييز والمساواة ، الفقر والفنى ، الحرمان والبلخ ، الجهل والتعليم هو خير من اللامبالاة بها التي ربما كانت البديل المحتمل لهذا الانشغال الاخلاقي . كما ان انشغال الشباب الجامعيين بخفايا الاوضاع السياسية يفضل - يقينا - استفراهم بالانزواء والالعاب الرياضية والذائد الاخرى . وعلى الرغم مما تنهم به الحركة الطلابية المعاصرة من تميز بشعور عظيم بالمباشر immediacy ، المباشرة الرومانية على وجه التحديد وان اهتمامهم لا يتجاوز الحاضر المباشر ، ولذا فان التاريخ لا يحمل لهم حكمة معينة تمكنهم من رؤية الحاضر في اطار واسع من العلاقات ذات المعنى بالنسبة لهذا الحاضر ، على الرغم من هذا فان الحركة الطلابية لم تقفل العوامل التاريخية التي قادت الى قيام الحاضر المرفوض . حتى لو كانت هذه التهمة صحيحة - وهي قد تصح - فان المؤسسات التعليمية التي تولت تربية هؤلاء تحمل مسؤولية هذا التقصر ، فلو كانت قد عمقت من رؤيتهم في حركة التاريخ لما ابتلوا بهذه المباشرة في الرؤية الاجتماعية (٢٥) .

ان الاشارة الى تقصير المؤسسات التربوي في تعميق الرؤية الاجتماعية عند الشباب تقود بالضرورة الى الدور السلبي الذي لعبته هذه المؤسسات في تربية الناشئة اجتماعيا . ذلك ان المدرسة كانت في الغالب اداة بيد المهيمنين اجتماعيا يستعملونها لتثبيت الاوضاع التي تعزز مصالحهم وامتيازاتهم ، ولذا فان ثورة الطلبة تعني في بعض مآثره الثورة على المؤسسة التربوية نفسها التي احسوا - حين صدمهم الواقع - وكأنها قد خدعتهم من انفسهم ومن هذا الواقع في وقت معا . لقد اكتشف الفرنسيون مثلا ان سببا رئيسيا من اسباب هزيمتهم في الحرب العالمية كان وضع التربية الفرنسية في اهداف الطبقة الاجتماعية الفرنسية ، ان الهزيمة والظلم ما كانا ليحلا بالامة الفرنسية لولا ضعف الايمان واخطام وخيانة الفئات المسيطرة في البحر والجيش . . في السياسة والاقتصاد . . وفي الصناعة والتجارة . . اولئك الذين كانت دعواهم انهم خربجو احسن معاهدنا العلمية وقمة نظامنا التربوي . . اولئك الذين كان جبينهم فاضحا جدا . . » (٢٦)

واذا كان « تقرير الجزائر » اشار اشارق مابرة « الى دور التربية الفرنسية في الهزيمة القومية فان « تقرير لجنة لانجفين » Langevin (١٩٤٧) كان اكثر صراحة في تحميل التربية الفرنسية كفلا كبيرا من مسؤولية الهزيمة القومية لانها وضعت نفسها في خدمات الاحتياجات الثقافية للطبقة البورجوازية واهدافها وقيمتها الفكرية على حساب احتياجات الاكثية المطلقة من الشعب الفرنسي ، فانطبعحت بالاحتكارية من جهة ، وبالتخلف الفكري والتقني من جهة اخرى ، حتى اذا جاءت الحرب لم تكن جماهير الشعب مباداة تعبئة كافية لمواجهة الغزو النازي . وليست التربية الفرنسية في ظروف ما قبل الحرب الكونية الثانية وما اخفاها الا مثلا نموذجيا للتربية

(٢٥) من محاضرة الدكتور محمد جواد دغا بعنوان « الجامعة في مركز الاصلاح » التي في جامعة الكويت مساء ١٩٧١/١٢/٥ .

(٢٦) تقرير الجزائر ، الصادر من « اللجنة التربوية لاصلاح التعليم » ١٩٤٤ .

عندما لا تكون في خدمة الاكثية الصامتة من أبناء الشعوب . من هنا جاء انفصال الشباب عن العالم ، الذي صنعت له وفرسته عليهم النظم الاجتماعية المحترقة وادواتها التربوية . ومن هنا ايضا جاء رحيلهم الى الاعماق .. اصماقهم هم .. ضمايرهم وعوالمهم الداخلية التي تنبها الى وجوب حمايتها من العدوان الخارجي عليها كما صورده ماركوزه . واذا كان الانفصال عن العالم يعنى رفض نظام قيمي عقيم ، فان الرحيل الى الاعماق لم يكن هو الآخر محض هرب من قيم مرفوضة وحسب ، وانما كان جهدا ايجابيا موظفا في البحث عن نظام قيمي بديل ملائم لومى الانسان الجديد ، لنفسه وقيمته المكتشفة ، على انه راس المال الحقيقي في هذا الكون ، او انه هو القيمة الواقعية العليا على هذه الارض .



السوح التاسع

التربية العربية المعاصرة وتطلعات الشباب العربي

لا تختلف تطلعات الشباب العربي في هذه المرحلة من تاريخ الامة العربية عن تطلعات اترابهم وازمائهم في انحاء العالم الاخرى ، اللهم الا في افعال ابلاد هذه التطلعات والازمات ما هي اهل له من عناية السلوكيين العرب ، وهم - اى الشباب - ما يزالون قارة عذراء لم ينزل على شواطئها مستكشف حتى الآن ، واقيانوس لم يحاول احد سبر اغواره ولا دراسة عواصفه واهاسيره الا نادرا ، (٢٧) ولذا فان احتمالات اتهامه بالروق من العرف او الدين او التقاليد هي اسهل ما تجابه تطلعاته به وهى اغلب ما تقابل معاناته به ايضا . من يدري ؟ فربما كان الاحساس الطبقي لدى بعض الاكاديميين العرب ازاء الشبيبة العربية مسؤولا عن هذه الغربة الضاربة بينهم وبين من يفترض انهم يتحملون مسؤولية تربيتهم وقيادتهم الروحية والاخلاقية .

يضاف من تعقيد هذا الموقف المعقد ان المؤسسات التربوية العربية - مدرسة كانت ام جامعة - ما تزال اداة مطروما في يد القوى المهيمنة في المجتمعات العربية ، وهى في الغالب قوى محافظة على قدر ما تكون المحافظة درعا ودريئة لامتيازاتها الاجتماعية ، وهى مهياة لقبول التقدم والتطور اذا ما اطمانت الى ان التقدم والتطور لن يضرها تلك الامتيازات بشيء ، وهى تستعمل المؤسسة التربوية لخدمة هذا الوضع استعمالا واقميا وذكيا ولكن من دون ان تحسب حسابا لافرازاته المستقبلية غير القابلة للتنبؤ .

لقد فرض هذا الوضع على المؤسسة التربوية العربية المعاصرة واجبا ازدواجيا على درجة عالية من التناقض والتعقيد . ففي الوقت الذى يطالب فيه المجتمع مؤسساته التربوية ان تحفظ له موارثه الثقافية وقيمه المنحدرة اليه من ماضيه والتي يعتبرها هويته الخاصة ، والاجبة الجيدة والصحيحة على كل المشاكل التي تواجهه ، في هذا الوقت بالذات هو يطالب

(٢٧) راجع كتاب (فلسفة التربية وآثارها في الفكر العلمى المستقبل - دراسة بحرية) جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .

هذه المؤسسات التربوية أن تيسر له مبدل التقدم من مواقفه التاريخية الموروثة ، وان تعينه على قبول العصر الذي يعيش فيه ومن تقبل روحه العلمانية على وجه التخصيص . بعبارة أخرى انه يريد من مؤسساته التربوية أن تكون أدوات محافظة وتبديل في وقت واحد ، وهذا مالا تستطيع مؤسسه اجتماعية الوفاء به ما لم تكن مؤسسة منافقة استرضائية .

لقد كتب هذا الدور الازدواجي على التربية العربية المعاصرة ان تسقط في حلقة مفارقة ينظر فيها الى الطلاب على أنهم - مادة - تربوية من حق النظم التعليمية أن تصوغهم على هواها وحسب اجتهداها ، ومن واجبهم ان يتكيفوا - للقوالب المعدة لصيغهم فيها . فيما وراء المنهج والكتاب كان الطلاب كما مهملا . لقد ضرب هذا الموقف العقلي بين الطلاب وبين نظمهم التعليمية أكثر من سد ، ودفعهم الى التماس التعبير عن أنفسهم في الحركات الاجتماعية خارج معاهد العلم ، ولم تعد المدارس ولا الجامعات عندهم الا اماكن لتلمس فيها الشهادة . ولقد كان لهذا معنى واحد هو ان مؤسساتنا التربوية فقدت القدرة على القيادة الاخلاقية لروادها . . . (٢٨)

لقد حمل هذا التنازل معه المبرر الاخلاقي للشباب العربي لآخذ مهمة صناعة مستقبلية في يديه ، والبحث عن أو الكفاح من أجل دور متميز له في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ امته مع كل ما يصاحب ذلك أو يستتبعه من هم المروق والزندقة الاجتماعية .

لقد كان من واجب الاكاديميين العرب ، والسلوكيين منهم بوجه خاص ، ان يوجهوا فكرهم ويعتصموا العلم الى دراسة هذا القدر الجديد الذي كتب على الشباب العربي ، فیر أن شيئاً جوهرياً لم يحدث في هذا الصدد ، وظلت ادبيات الحركة الطلابية العربية مهملة اجمالاً تاماً رغم ما فيها من صدق المفوية وسطوع البراءة ووضوح الالتزام الوطني والقومي . اننا نشك كثيراً ان تكون هذه الادبيات قد حظيت بشيء من القراءة الناقدة اصلاً .

احب ان اقف هنا عند نماذج مختارة من ادبيات الحركة الطلابية العربية ، وان احاول النفاذ من خلالها الى بعض تطلعات شبابنا ، وان اوجه عنايتي السلوكيين والاجتماعيين وعلماء السياسة والاقتصاد العرب الى ما فيها من محتوى انساني وقومي فني من جهة ، وإلى ضرورة تركيز اهتمام حقيقي بهذه الظاهرة الاجتماعية العربية البعيدة التي لن نغفل في شيء ان ندير لها ظهورنا ونكتفي بالنظر اليها من عل على انها لونها من المحاولات الطلابية القاصرة ، فقد كتبت في وقت متأخر جداً ان القصور كان حيث كنا نظن الكمال ونفترسه .

١ - جاء في نشرة معنونة « دراسات » صادرة عن المكتب الطلابي القومي في بغداد ما يلي :

« ان الفكر البورجوازي الذي تسير الدوائر الامبريالية لتحقيق مصالحها يؤكد على مفهوم العلم العلم ويدفع بالكثير من العلماء لان يعتبروا الوصول الى انجاز اختراعاتهم هدفاً بحد ذاته . ان مهمة الانجاز العلمي هي هدف العالم ، اما استعمال هذا الانجاز في أي مجال فهو من

اختصاصات السلطة البوجوازية وحدها . وهكذا تصبح غاية الفني والمهندس والعالم وسيلة للنظام ، وبالطريقة نفسها يفقد الفكر البورجوازي ضمن العالم بالتفسيرات الذاتية والشروح الفردية . فممنما تصبح الحرية الفردية لا حدود لها على شرط ان لا تصطدم بالمصالح البورجوازية ، وعندما يسمح المجتمع البورجوازي للأفراد ان يتحركوا ضمن اختصاصاتهم الفردية على شرط ان يتحركوا أمر استعمال انجازاتهم في يد السلطة يحدث دائما ان يستعمل العلم وانجازاته في كثير من الاحيان كسلاح لتهديد الانسانية ... » .

٢ - جاء في كلمة « الاتحاد الوطني العام لطلبة اليمن » التي القيت في « الندوة الطلابية المالية المنعقدة في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية من ٢٣ - ٢٧ مارس ١٩٧٤ ما يلي :

اننا كاتحاد وطني عام لطلبة اليمن ، كحركة طلابية يمنية ديموقراطية وتقدمية تؤمن بان نضالات الطلبة من اجل ديموقراطية التعليم يجب ان تربط بنضالات اوسع الجماهير الشعبية والكادحة في بلادهم من اجل التحولات الاجتماعية والاقتصادية التقدمية ، من اجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي لتحقيق غد الاشتراكية الخالي من استغلال الانسان لاخيه الانسان . وما لم تربط نضالات الطلاب من اجل تعليم ديموقراطي بنضالات اوسع الجماهير الشعبية الكادحة من اجل صنع غدها الانساني المتطور والمزدهر فان الفشل الدريع سيكون حليفها دوماً وابدأ ، وستصطدم في النهاية بصخرة الواقع التي لا ترحم .. ولن تستطيع الاحلام والاماني ان تتجاوز تعقيدات الواقع وتكيفها ... » .

٣ - جاء في التقرير العام الذي قدمه « الاتحاد الوطني العام لطلبة اليمن » عن الاوضاع التربوية في اليمن في الندوة المذكورة ما يلي :

« تحتل المناهج أهمية خاصة فائقة في العملية التعليمية . فمن خلالها يتحدد محتوى التعليم العام . ان التطور التعليمي في أي بلد كان لا يقاس بتوسعة الكمي فحسب ، ذلك ان الهدف ليس عدد من يتخرجون من مؤسسات التعليم وانما المسألة المركزية هي نوعية هؤلاء . لقد عانت بلادنا من المناهج الدراسية الاستعمارية التي كانت تهدف الى خلق جيل يمتدح عن وطنه . لذا فقد احتلت مسألة تغيير المناهج الدراسية اهتمام الثورة في بلادنا منذ الايام الاولى لاستلام السلطة . وكانت أولى المحاولات لتغييرها هي استبدال المناهج القديمة الاستعمارية بالمناهج المصرية والعراقية وبعض مناهج الدول العربية الوطنية الأخرى . كما بذلت محاولات في ١٩٦٩ من وزارة التربية والتعليم لايجاد منهج وطني . الا ان تلك المحاولة لم تكن لتخرج عن اطار الباس الواب يمنية على مناهج الدول العربية الشقيقة » .

بعد ذلك يحاول الاتحاد ان يطرح تصور من المساق الذي يجب ان تسير فيه التربية اليمنية الديموقراطية الشعبية في رسم لها الاهداف التالية :

١ - ان تحقق المناهج ربطا بين العلوم الانسانية والطبيعية وافكار الطبقة العاملة ، اي استخدام المنهج الجدلي في تفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

٢ - ان تحقق المناهج بناء جيل يبنى متزود بمعارف عن تطور وطنه وشمولية تاريخه ، فعلى المناهج الجديدة ان تركز على ما يتعلق بالوطن اليمني سواء في تاريخه او جغرافيته او ثرواته الطبيعية ، وكذا علاقة تلك بالدول المختلفة في العالم .

٣ - على ان يركز محتوى المناهج عند معالجتها للدراسات اليمنية على الجوانب التقدمية . ففي التاريخ مثلا ينبغي التأكيد على دور الشعب في صنع التاريخ مغايرة لمناهجنا القديمة المرتكزة على اساس دور الافراد في صنع التاريخ . وفي دراسة الجغرافيا ينبغي التركيز على قدرة الشعب بفضل نظامه التقدمي على استغلال الثروات الوطنية . وفي جانب الادب اليمني ينبغي التركيز على الجانب التقدمي في تطور الادب اليمني .

٤ - تحقيقا لمبدأ ربط المدرسة بالمجتمع والنظرية بالتطبيق فان المناهج الجديدة ستحوى منهاجا للبوليتكنيك . . » .

هذه نماذج قليلة من ادبيات الحركة الطلابية العربية الشابة . وهي ولا ريب تنضج بالثألية والقطعية والنهائية في الاحكام مما قد لا يتفق حتى مع المنطق الجدلي في تفسير حركة التاريخ . وهي قد تكون بصورة من الصور ممثلة لمجمل هذه الحركة . وليس هناك من يدعو الى قبول مقولاتها تبليغا عفويا ولا الى شرائها من باعها المتحمسين . في تقديرنا ان هذا ربما اضر بالحركة اصلا . ولكن الشيء الخطير هو ان تترك هذه الحركة من دون حفول بها ، ومن دون دراستها دراسة منهجية ، ومن دون تحليل متواصل لتطلعاتها ومقولاتها . وهناك خطر اكبر في اشعارها بانها لا معنى شيئا للحلقات الاكاديمية العربية ، وايسر ما سينجم من هذا الافعال او التغافل هو جهل الحركة والاعترا ب من مفاهيمها الاساسية . ومن هنا تأتي القيمة التي لا تحتمل المبالغة لتكريس اهتمام فعلي بافرات هذه الحركة فكريا وسلوكيا وجرها الى دائرة الجذب الاكاديمية المتتمة بمنعق البحث العلمي وتقييمها تقويما موضوعيا . فلقد يتاح لنا انئذ ان ندعى اننا قد وفينا لورثتنا في الغد القريب او البعيد بعض ما كان لهم في ذمنا من دين ، واننا استطعنا ان نزيد من وضوح الرؤية امامهم ، وان نقابل من احتمالات سقوطهم في الاجتهادات البتراء .

مراجع البحث

أولا - في اللغة العربية

- ١ - محمد جواد رضا - فلسفة التربية وإلها في الفكر علمي المستقبل ، جامعة الكويت ، ١٩٧٢ .
- ٢ - محمد جواد رضا - الجامعة في مركز الانحلال ، معاصرة الكويت في جامعة الكويت بتاريخ ١٩٧١/١٢/٥ .
- ٣ - اللجنة التربوية الفرنسية لاصلاح التعليم - تقرير الجزائر - ١٩٤٤ .

ثانياً - في اللغة الإنجليزية

1. Arnold, W., *Counselling Activities in Modern Society*, Proceedings, IRT Conference, Würzburg, 1976.
2. Beckett, S., *Murphy*, 1938.
3. Cantril, H., *Tensions that Cause Wars*, University of Illinois Press, Chicago, 1950.
4. Davy, B. W., *The Source and Prevention of Mental Ill Health in University Students*. Proceedings of the Royal Society of Medicine, England, April 22, 1960.
5. Ducasse, C. J., *Art, The Critics and you*, Oscar Priest, New York, 1944.
6. English Pearson, *Emotional Problems of Living*, Norton Company, 1960.
7. Feuer, L., *Conflict of Generations*, Basic Books, New York, 1971.
8. Fraser, M., *Children in Conflict*, Penguin Books, London, 1974.
9. Malleon, N. B., *A Handbook of British Student Health Services*, London, Pitman, 1966.
10. Marcuse, H., *One Dimensional Man*, Sphere Books, London, 1972.
11. Miller & Miller, *Student Problems, Remedies and Satisfactions*, British Psychiatry, September 1973.
12. Parker, D. H., *Human Values*, Harper & Brothers, New York, 1944.
13. Perry, R. B., *General Theory of Value*, Longman's Green and Company, New York, 1926.
14. Ryle, A., *Student Casualties*, Pelican Books, 1970, London.
15. Russell, B., *History of Western Philosophy*, Unwin University Press, 1969.
16. Sinclair, F., *Belfast Telegraph*. Sept. 16, 1971.
17. Toynbee A., *Experiences*, Oxford University Press, 1969.
18. Wright, Wm. K., *History of Modern Philosophy*, Macmillan Book Company, New York, 1965.

عبد الرحمن عيسوي *

النمو الروحي والخلقي والتنشئة الاجتماعية في مرحلة الطفولة والمراهقة

في بحثنا في النمو الروحي وعملية التنشئة الاجتماعية في مرحلة الطفولة ينبغي ان نؤكد ان الدين لا تقتصر آثاره ووظائفه على مرحلة واحدة من مراحل العمر ، وانما يشمل اثره كافة مراحل النمو الانساني ، وان كان هذا التاثير يختلف من مرحلة الى اخرى .

وعلى الرغم من ان القيم الدينية والسلوك الديني يؤثران بصورة او باخرى في كل جوانب حياة الفرد الا ان تأثيرهما اكبر في حياة الفرد الانفعالية *The Individual's Emotional Life* وللدين أهمية كبرى في مرحلتى الطفولة والمراهقة حيث يمر الطفل بمرحلة تكوين الشخصية وصلها وحيث تلعب العوامل الانفعالية دورا هاما في حياته .

(*) استاذ علم النفس المساعد بجامعة الاسكندرية وجامعة بيروت العربية .

والمعروف ان مرحلة المراهقة ، كما يزعم بعض علماء النفس ، مرحلة شك ونسب
rejection للقيم والمعايير الدينية التي سبق ان تلقاها الطفل من الكبار ، وقبلها من طبيب
خاطر .

وعندما يصل الطفل الى درجة من النضج العقلي تسمح له بإعادة النظر في هذه القيم والمعايير
فانه يتناولها بالتقدير والفحص والتمحيص ، وتنتهي عملية النقد هذه اما بقبول هذه القيم او رفضها
او تعديلها .

ومن الاهمية بمكان ان تجرى الدراسات والبحوث التي تكشف عن الآثار التي يتركها قبول
الدين او نبذ على صحة الطفل النفسية وثباته الانفعالي ، بمباراة أخرى هل يضيف الدين الى
التكيف او الى سوء التكيف النفسي ، هل يسهم الدين في تحقيق الصحة النفسية والثبات الانفعالي
ام يؤدي الى مزيد من الشعور بالذنب والى تنمية ضمير حاد وخائف يؤنب صاحبه ويلومه على كل
كبيرة وصغيرة ؟

نفسية ظاهرة التدين في الطفولة والمراهقة

وفي تفسيرنا لظاهرة التدين نستعرض آراء كل من ف . مري و ر . مري F. Merry and R. Merry
حيث يفترضان ان ظاهرة التدين ظاهرة غريزية بمعنى وجود غريزة دينية لدى
الفرد (a religious instinct) . فتبعاً لهذه النظرية يعتبر الطفل طبيعياً متديناً ، وإذا أعطى
الفرص المناسبة فانه يكون المفاهيم الدينية اللامعة ذات المعنى والدلالة . ويمتقدان ان الطفل منذ
سن مبكرة يبي بطريقة غريزية وجود قوة عليا يلجأ اليها للحماية ، ولديه اتجاهها اتجاه غريزي
فطري نحو الاحترام والعبادة (1) .

ويتعارض هذا الرأي مع رأي آخر يزعم ان الطفل شرير بطبعه او بالفطرة ، لانه وراث الخطيئة
الاصلية التي اتركها آدم في جنة عدن . ولذا كان لابد من ان تستخدم أكثر الاساليب صرامة في
تأديب الطفل وقمع هذه الطبيعة الشريرة وجلبه الى حظيرة الدين والصواب . ولكن كثيراً من
علماء الدين الحديثين يرفضون الزعم بان طبيعة الطفل طبيعة شريرة بالوراثة ويمتقدون ان الاطفال
يولدون وهم لا طبيون ولا اشرار ، ولكن يولدون باستعدادات او امكانيات عامة هي التي يوجهها
المجتمع فيما بعد اما الى القنوات الصالحة او الشريرة .

ويؤيد سكوت C. Skinner هذا الرأي بالقول بان الكائن البشري يولد بحالة حيادية حيال
الدين . فالوضع مثلاً ليس متديناً ولا هو ضد الدين بل انه يمتلك الاستعدادات Potentialities
للتكيف ، والتي تجسّد النمو ممكناً نحو التدين او نحو معارضة الدين .

(١) لم يعد يستخدم اصطلاح التفرقة في علم النفس واصبحت هناك اصطلاحات أخرى كالدافع والباحث والحوافز
وكذا تجريمات نظمية طليقة للدلالة على بعض امساح السلوك علماً بان السلوك وحده هو الذي نلاحظه .

Merry, F. and Merry, R., The First two decades of life, Harpers and Brothers, N.Y. 1950. P. 482. (١١)

متى يبدأ الشعور الديني لدى الطفل ؟

وإذا ما تساءلنا عن السن التي يبدأ فيها الطفل في الشعور بالخبرة الدينية فإنا لا نجد (٢) اتفاقاً كاملاً بين الباحثين حول هذه السن، فمنهم من يرى بعض المظاهر الدينية في سلوك الأطفال الصغار ، ومنهم من يرى أن الطفل لا يقوى على إدراك المفاهيم الدينية إلا بعد الوصول إلى مرحلة متقدمة من النضج العقلي .

فطبقاً لآراء **إلج F. Ilg** يستطيع الطفل التمييز بين العوالم والخطأ ، وبين الرديء والحسن في سن السابعة ، أما فيما قبل سن الرابعة فهو غير قادر على فهم الآراء الدينية ، وعندما يبلغ الطفل سن الأربع سنوات يبدأ في توجيه مثل هذه الأسئلة ذات الطابع الديني والفلسفي :

- ١ - من الذي صنعك ؟
- ٢ - من الذي صنع هذه الأشجار ؟
- ٣ - من هو الله ؟
- ٤ - ما الذي يشبهه ؟
- ٥ - هل الله رجل طيب ظريف ؟
- ٦ - هل هو يحب الطوى ؟
- ٧ - هل يشبه الله أبى ؟
- ٨ - أين يقيم الله ؟
- ٩ - وهل يرانا الآن ؟
- ١٠ - هل يردى جلباباً فضفاضاً ؟

ولذلك فلا عجب أن نجد طفلة صغيرة (سن أربع سنوات) كانت تسير في يوم مطير وكانت تمشي مع أمها فنظرت إلى أعلى السماء وقالت : (شكراً لك يا الهى لجعل الطريق جافاً في بعض الأماكن أنك ترى أنني أولدى حديثاً الجديد) (٣)

وخلال هذا الرأي يذهب **فالنتين Valentine** إلى القول أن الطفل لا يستطيع أن يدرك معاني المصطلحات **The abstract terms** كـ معنى الشفقة والله والعدالة والإحسان ... الخ ، قبل سن الثالثة أو الرابعة عشرة . (٤)

-
- | | |
|---|-----|
| Skinner, C., <i>Child Psychology</i> , the Macmillan Co. N.Y. 1949, P. 276. | (٢) |
| Ilj, F., <i>Child Behaviour</i> , Hamish Hamilton, London, 1955, P. 292-303. | (٢) |
| Valentine, C., <i>The Normal child and some of his abnormalities</i> , A Pelican Book, 1962 P. 271-275. | (٢) |

ومهما يكن فإن الأطفال ولا شك لديهم بعض الإنكار الدينية التي توصف بأنها أفكار مشخصة ومجسدة وشخصية وحسية .

ومنذ وقت مبكر (١٨٨٠) طلب ستانلي هول G. Stanely Hall من مجموعة من الأطفال الصغار أن يصفوا تصوراتهم من الله ، وفيما يلي بعضاً من استجاباتهم ؟

(الله رجل كبير ربما لونه أزرق يرى غالباً جداً في السماء أو في السحب أو في الكنيسة بل حتى في الشارع . انه يصعب اللعبات والأطفال والكلاب والأشجار والنقود . الخ ، ويممّل الملائكة لحسابه . الخ .

وعندما يموت الناس انهم فقط يذهبون أو يوضعون في جحر أو في صندوق أو في صرية تنقل سوداء ، ويذهبون إلى الجنة أو يصعدون إلى السماء أو يرفقون أو يلقون في السماء حيث يسكن الله بهم . . . وعندما يذهب الأطفال إلى الجنة تقدم لهم الحلوى والبنادق واللعب وكل ما يوجد في محلات لعب الأطفال ، والكتب المصورة وأوراق اللعب ، وتخدم لهم الملابس الأنيقة والساعات الذهبية والمثلجات ، ولا توجد هناك مدارس ويلعبون البلى والورق .

وفي دراسة أخرى على مجموعة من أطفال المدرسة الابتدائية أظهروا خطأ بين مفهوم الله ومفهوم « السيد المسيح » ومبروا من مفاهيم وصفات مشخصة من الذات الإلهية ، وغيرها من المفاهيم الدينية ، فهم يصفون الجنة بأنها تشبه الدخان أو الماء أو الهواء ، ويمتثلون السيد المسيح كحامى حمى الناس ، فهو يأخذك إلى الجنة إذا كنت طبيباً ، ويشفيك إذا كنت مريضاً . ويدرك طفل في سن ٦ سنوات وظيفة الله بالقول بأن « الله شخص ما في السماء أو في الجنة يعنى بكل شيء ويرعاه ويعالج كل شيء حتى لا يعتري الناس أى مشاعر رديئة أو تسود بينهم » ، ولكن أطفال هذا السن يمانون من خلط أراء فكرة (ان الله خلق كل شيء من لا شيء) ويرجع سوء الفهم هذا إلى نزعة الأطفال لأرجاع كل الأفكار المعنوية إلى معان مشخصة مجسمة تقع في إطار خبراتهم .

ولقد عبر عدد كبير من الأطفال الصغار (٦٤٠ طفلاً) من أطفال الصف الرابع الابتدائي في المجتمع الأمريكي من فكرة يوم الحساب The Judgment Day حيث وافقت نسبة ٣١٪ من مجموعهم على القضية الآتية :

يحتفظ الله بسجل كبير يسجل فيه أفعالنا السيئة .

بينما أقر ٤٣٪ منهم أنه تعالى لا يفعل ذلك و ٢١٪ كانوا في حالة شك وتردد ، بينما وافق نحو ٥٠٪ منهم « بأننا إذا صلينا بجديّة كافية من أجل سطوع الشمس أو هطول الأمطار فإن الله سوف يفرّ القوس من أجلاً » (٥)

• • •

خصائص الفكر والشعور الديني في الطفولة والراهقة

يعبر الأطفال في الغالب عن خيال حر وغير تقليدي في أفكارهم عن الدين. ولقد حل هارمس Harms سنة ١٩٤٤ بضعاً آلاف من رسوم الأطفال الصغار من (٣ - ٦ سنوات) التي تمثل أفكارهم من الله ، ووجد أن معظم الصور المرسومة تعبر عن الله كنوع من شخصية الاساطير ، يرتدى الملابس الفضفاضة (٦) ولقد افترض هارمس ثلاث مراحل للنمو الديني في الطفولة هي :

١ - مرحلة الصورة الاسطورية The Fairy Tail tage حيث تسود الأفكار والمعتقدات الخيالية او الوهمية .

٢ - المرحلة الواقعية realistic stage وفيها يرفض الأطفال خيالاتهم السابقة ، ويعتقدون بالتأويلات القائمة على اساس الظواهر الطبيعية .

٣ - المرحلة الفردية The individualistic stage وفيها يبدأ الطفل في اختيار العناصر التي ترضى حاجاته ويواضعه من الدين ، أي ينتقى العناصر الدينية التي تشبع حاجاته الفردية . (٧)

وعلى الرغم من اختلاف تصورات أو مفاهيم الأطفال عن الله وعن النار وعن الجنة ، وما أشبه ذلك عن المفاهيم التيولوجية التقليدية ، إلا أن ذلك لا يعني أن الأطفال لا يشعرون بالرهبة والتقديس والاحترام نحو الذات الالهية ، وأن كان كثير من هذه الآثار يتوقف على الطريقة التي يتعلم بها الأطفال المبادئ الدينية .

يقول مري ومري « وهناك أدلة كثيرة على أن التعاليم الدينية المبكرة من قبل المنزل والكنيسة هي العامل الأساسي في تحديد الاتجاهات الدينية اللاحقة . أن المنهج المستخدم في تقديم المفاهيم الدينية للأطفال له أهمية عظيمة » . (٨)

ولا شك أن مفاهيم الطفل عن الدين تختلف اختلافاً كبيراً عن أفكار الكبار وعن خبراتهم ومشاعرهم ، ولذلك فالجوانب الدينية في حياة الطفل أقل خضوعاً لفهمنا عن جوانب شخصيته الأخرى ، فالنضج العقلي Mental maturity يساعد الطفل على أن يستبدل مفاهيم الطفولة الساذجة والمتخصصة بمفاهيم أكثر عمومية وأكثر تجريداً ، تكلماً تقدم الطفل في السن أصبحت علاقته بالله أكثر شمولاً وأقل تشخيصاً ، وتصبح الجماعات الطفل الدينية أقل تمرركزاً حول ذاته self-centered وأقل انانية ، ويصبح أقل اهتماماً بالحياة الأخرى . ومعنى هذا أن الدين لا يصبح له دور فعال في حياة الطفل إلا إذا تناول تصورات ومفاهيم تدور حول حياة الطفل الدنيوية

(٦) Argyle, N., (cited in) the religious behaviour, Routledge and Kegan Paul, London, 1958.

(٧) Cole, L. and Hall, L., Psychology of Adolescence, Holt, Rinehart and Winston, N.Y. 1960

(٨) Merry F. and Merry, R., op. cit. P. 490.

المباشرة ولم يقتصر على الحياة الأخرى ، وإذا ما ساءلنا عما يحدث في فكر الطفل الديني عندما يصل الى مرحلة المراهقة لوجدنا أن هناك عملية انتقال أو تحول من تلك الاستجابات التي تثيرها الضرورة الخارجية الى تلك الاستجابات التي تثيرها الضرورة الداخلية ، أي من الدوافع الانانية الى الدوافع غير الانانية ، ولكن هذا لا يعني أن نستنتج أن الشعور الشخصي بالواجب والمسئولية والاحساس بالمثل العليا والسلوك الفيرى ليست معروفة قبل هذه السن ، وأنها تظهر فجأة عند البلوغ Puberty ، وهناك كثير من الأدلة التجريبية التي تؤكد حدوث النمو التدريجي وليس النمو أو الانتقال الفجائي من مرحلة الى أخرى .

وتبدو القدرة على التجريد بتقدم الطفل في السن ، ولقد وجدت نسبة مئوية كبيرة من الأطفال الصغار الذين وافقوا على القضية الآتية « أن الله عبارة عن شخص ما يرافقك ليرى أنك تتصرف تصرفا حسنا وهو الذي يعاقبك إذا لم تكن طيبا » . بينما كانت هناك نسبة أكبر من الأطفال المتقدمين في السن (١٨ سنة) الذين ابدوا موافقتهم للقضية الآتية : « أن الله قوة غريبة تعمل من أجل الخير أكثر من كونه شخصا » .

وبالتقدم في السن تبدو نزعة التسامح نحو آراء الديانات الأخرى لدى المراهقين . (٩)

ولقد وجد أن الأطفال الكبار في السن أكثر استعدادا للموافقة على القضايا مثل : « أن الكاثوليك واليهود والبروتستانت متساوون في الطيبة » ، أو ليس من الضروري أن تذهب الى الكنيسة لتكون مسيحيا ، والمراهقون المتقدمون في السن (١٨ سنة) كانوا أقل إصرارا على أن « الناس الطيبون يؤدون الصلاة بانتظام » .

وفي إحدى الدراسات التي تناولت عينات من الشباب من (١٦ الى ٢٤ سنة) تبين أن ارتداد الكنيسة تنخفض بالتقدم في السن .

أما فكرة الطفل عن الدين فإنها فكرة محسوسة ملموسة وينطبق هذا على صورة الملائكة والحياتين ، أما العبادات كالصلاة فإنها وسيلة الطفل الصغير في الحصول على مطالبه . ولكن بتقدم الطفل في العمر يدرك أن دعوته لا تجاب كلها ، فلا بد أن يؤمن بقيمة العمل حتى تجاب مطالبه .

أما المفاهيم الدينية فإن الطفل الصغير لا يفهم معناها لأن قدرته العقلية لا تقوى على إدراك المعنويات المجردة كالخير والشر والصلاح والتقوى ، ولكنه يدرك فقط الأمور الحسية الملموسة التي يستطيع أن يشاهدها ، وأن يحس بوجودها . وعندما يصل الطفل الى مرحلة الطفولة المتأخرة يستطيع أن يناقش الأمور الدينية . ويأخذ الطفل في الاتيان ببعض الأسئلة التي تدور حول الخلق والموت والحياة والبعث وأصل العالم .. وهكذا . وفي أول الأمر يقبل ما يلقى عليه من إجابات ثم يتقدمه في العمر يعيد النظر فيه .

(٩) Kahlen, R., *The Psychology of Adolescence*, Harpers and Brothers, N.T. 1952, P. 439

وفي بداية مرحلة المراهقة ميل المراهق إلى الشك في القيم الدينية التي تعلمها في مرحلة الطفولة، ويمتزج عن فهم المعاني الدينية والفلسفية العميقة، ويظل يشك في هذه القيم حتى أواخر مرحلة المراهقة. وعندما يبلغ المراهق حوالي سن السادسة عشرة فإنه يتحول نحو الدين مرة أخرى، ولذلك تترافق هذه الفترة بفترة اليقظة الدينية.

لعل مناقشات المراهق وجدله العنيف على وجود اليقظة الدينية، حيث يميل إلى مناقشة أمور مثل الثواب والعقاب، أو الجنة والنار والبمته والخلود والقضاء والقدر والجبر والإختيار. وقد تزداد وطأة الشك الديني عندما يموت أحد أبناء أو أصدقاء المراهق المقربين. وعندما يقترب الفرد من مرحلة الرشد يتحول من الشك إلى اليقين، فيفكر تفكيراً هادئاً في الأمور الدينية، ويظهر عندئذ الشعور بالتسامح نحو أصحاب الديانات الأخرى (١٠).

وبالرغم من أن كثيراً من علماء النفس يزعمون أن فترة المراهقة تمر بحالة ارتباك خلقى وتطرف سياسى، وتفرق في القيم، وقبول القيم الدينية أو رفضها، ولكن هذا لا يحدث إلا بالنسبة لقلة بسيطة من المراهقين، أما الأغلبية الساحقة فإنها تظل محتفظة بالاتجاهات الدينية التي يعتنقها والوالدان، ويمتنعون مبادئ تشبه مبادئ الوالدين في الفلسفات السياسية والأخلاق والجنس وما أشبه ذلك.

ففي إحدى الدراسات وجد أن: ٨٤٪ من المراهقين أعضاء في الكنيسة، وأن ٥٠٪ يرتادون الكنيسة بانتظام. وأن ١٠٪ لم يذهبوا للكنيسة. وأن ٧٥٪ يعتقدون اعتقاداً راسخاً في وجود الله (١١).

ويتقدم الطفل في العمر ينمو عنده الشعور بالتسامح الدينى، وبالحرية الدينية religious liberalization ويحدث التحرر الدينى فيما بين سن ١٢ و ١٥ سنة وعلى ذلك تزداد نسبة عدد المراهقين في هذه السن الذين يوافقون على عبارات مثل:

(١) ليس من الضروري أن تذهب للكنيسة لكي تبقى مسيحياً .

(٢) الكاثوليك والبروتستانت واليهود كلهم متساوون في الطيبة . بينما تقل نسبة الموافقة على عبارات مثل :

١ - كل لفظة في الإنجيل صادقة .

٢ - الله يراقبنا ويماقب فاعل الشر .

• • •

(١٠) د. هـ. الوادى البهى السيد، الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلى الشيخوخة، دار الفكر العربى سنة ١٩٦٨ .

(١١) Mussen, P.H., The psychological development of the child, Prentice-Hall, U.S.A. 1963.

أثر الخبرة الدينية في عملية التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية :

هناك عوامل متعددة تلعب دوراً هاماً في عملية التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية Socialization * من ذلك جماعة الأنداد والزملاء والأسرة والمدرسة والراديو والتلفزيون والصحف والمجلات والاندية والمسكرات والمؤسسات الدينية وثقافة المجتمع ككل .

منذ اهتمام أساتذة هول وتلميذه دانييل Daniels (١٨٩٣) وأستار بوك Starbuck (١٨٩٩) الذين كانوا يعتقدون أن التحول الديني جزء هام من خبرة المراهق منذ ذلك التاريخ ، اهتم علماء النفس بأثر الدين على النمو . حقيقة لا نعرف إلا القليل من التأثير المباشر للدين على السلوك لأن وضع محكات متميز مسألة صعبة . فكيف يمكن فصل الشخص المتدين عن غير المتدين لتحديد أيهما يختلفان في السلوك والقيم ؟

من بين المعايير المستخدمة عبارات الفرد نفسه ، هل يزعم هو أتمائه الديني أو عدم أتمائه ؟

ولقد أسفرت الدراسات التي تناولت معنات الجانبين أنهم يقررون في المقابلات وعلى الاختبارات النفسية أن لديهم بعض الارتباطات الدينية ، ولكن استخدام مزيد من الأسئلة يوضح أن معظم هؤلاء الجانبين لا يدخلون الكنيسة ولو مرة واحدة في السنة . وهكذا فإن أتمائهم الديني Their religious affiliation هو « أتماء لفظي وليس سلوكي » ، وعلى ذلك فيلزم محك آخر غير محك الانتماء . بل أن ارتياد الكنيسة Church attendance كما استعمل في كثير من الدراسات لا يصلح كمؤشر حقيقي لتدين الفرد الأصيل ، فهناك بعض الأشخاص الذين يرتادون الكنيسة لأسباب غير دينية كاللهاب نتيجة لاضطراب أو إدمان أو مجرد العادة ، أو حبا في الظهور أو الطموح الاجتماعي ، أو للشعور بالسمو أو للتمتع بالصحبة الاجتماعية ، أو مجرد قضاء وقت الفراغ أو التخلص من الشعور بالوحدة والعزلة . وهناك دراسات استخدمت اختبارات لقياس المعرفة الدينية كما فعل **مالديول** ، ولكن حتى هذا المنهج لا يكشف عن الاعتقاد الديني الحقيقي ، وعلى ذلك فإن النتائج التي نحصل عليها من هذه الأبحاث يجب أن تؤخذ بكثير من التحفظ ، فمعظم المعلومات تعطى معلومات من بعض الجوانب « الصورة » من الدين أو الرسمية ومن السلوك كالعلاقة بين ارتياد الكنيسة والسلوك ، ولا تعطي صورة عن الرابطة بين الانغماس العميق في الدين وفي السلوك . إننا نتوقع أن الخبرة الدينية تؤدي إلى تغيير كل الاتجاهات الاجتماعية الريفية كالاعتقاد في الإخاء بين بني الإنسان ، وتغير السلوك النوعي المحدد كما يقاس على الاختبار للنفس مثلا . (١٢)

(٨) تشير هذه العملية إلى امتصاص الطفل للقيم للجموع ومعاييرها واتساب أفعال السلوك المكتوبة .

Ibid, P. 488.

اليقظة الدينية في مرحلة المراهقة :

ومن الظواهر الدينية البارزة في مرحلة المراهقة ظاهرة التحول الديني The religious conversion ولقد افترض استاربوك Starbuck منذ وقت مبكر (١٨٩٦) أن هناك علاقة وثيقة بين بداية المراهقة وبين التحول الديني. (١٣) ولكن الدراسات الحديثة لا تؤيد وجود يقظة دينية فجائية في المراهقة، وتؤكد مثل هذه الدراسات أن نمو الأفكار الدينية عملية تدريجية مستمرة تحدث بدون طفرة تصاحب سن البلوغ ، أو تدفق أو انفجار فجائي يصاحب مرحلة البلوغ . ويتأثر الاتجاه الديني في المراهقة بلقاء الطفل في المراحل السابقة من تصاليم دينية ، فكلما كانت هذه التصاليم أكثر ضيقاً أو أكثر رسمية أو صورية كان المراهق أكثر ميلاً للاعتماد من حظيرة الدين .

وليس هناك أدلة لتأييد الفرض القائل بأن التغيرات البيولوجية في البلوغ تؤدي إلى حدوث أزمة انتعالية تؤدي بدورها إلى اليقظة الدينية religious awakening .

وتكشف الدراسات المبكرة التي أجريت في حوالي سنة ١٩٠٠م كدراسة استاربوك أن التحول الديني يحدث في السن ما بين خمسة وعشرين عاماً ، إلا أن الدراسات المتأخرة نسبياً (١٤) كدراسة كلارك E.T. Clark سنة ١٩٢٨م حول سيكولوجية اليقظة الدينية وضحت أن متوسط سن حدوث هذه اليقظة هو ١٢ سنة، وهي سن مبكرة قليلاً من بداية البلوغ ، والأكثر احتمالاً أن حدوث أي تكثيف intensification في الميول الدينية أو الخبرة الدينية يرجع إلى النضج العقلي intellectual maturation أكثر من البلوغ في حد ذاته . فلقد وجد هولنجورث L.S. Hollingworth سنة ١٩٢٣ أن تكثيف الميول الدينية يحدث في الأطفال الموهوبين عقلياً في سن الثماني سنوات لأولئك الذين يصل عمرهم العقلي إلى اثني عشر عاماً .

إن استعراض التراث السيكولوجي يعكس وجهات نظر متباينة حيال مسألة زيادة أو نقص الشعور الديني في مرحلة المراهقة ، فتبعا لوجهة نظر جاريسون K. Garrison يؤدي نمو دائرة معرفة المراهق ، ونمو عادات أفضل في التفكير إلى تساؤل المراهق وتشككه في كثير من الأشياء أو الأفكار التي قبلها سابقاً دون نقد أو تمحيص .

إن شك المراهق يشار عن طريق بعض المبادئ والمعلومات العلمية ، ومن طريق رغبته (١٥) في اكتشافه نفسه بنفسه ومحاولته ربط العالم مع خطة الحياة العامة وذلك بتفكيره الخاص . ويؤيد جيسيلد هذه الفكرة بالقول بأن الأطفال يصبحون قادرين على التفكير في الأفكار المجردة عندما يصلون إلى المراهقة . أنهم يكتسبون فهماً أكثر عمقا عن معنى دينهم ، وسوف تزداد قدرة المراهق

(١٤) Carmichael, L., Manual of child psychology, J. Wiley, N.Y. 1954, P. 699.

(١٤) Ausubel, D. Theory and Problems of adolescent development Grune and Stratton, N.Y., 1954, P. 270.

(١٥) Garrison, K., Psychology of adolescence, Prentice-Hall, 1955 P. 162.

على اختيار وفحص معاني الأفكار والعقائد والمبادئ والقيم التي سبق له ان قبلها من طيب خاطر بلا نقد أو تمحيص ، قبلها من الآباء أو الكبار أو المعلمين .

وخلافا لهذا الرأي يقول كول Cole (سنة ١٩٦٤) ان الطفل يبدأ في التشكك في كل مظاهر السلطة ورموزها authority figures عند بلوغه مرحلة المراهقة وربما يعتمد من دور العبادة ، ويثور على سلطات الأسرة والمدرسة ، وان كان هناك عدد كبير من المراهقين ما يزال يعتبر الدين مصدرا مكنيا للرضا والاثارة النفسية والانفعالية والعقلية ، ففي نظره يأخذ كثير من الاطفال بعد سن الخامسة عشرة في التفكير النقدي في المسائل الدينية ، وعند وصول مرحلة الرشد يستقر بهم الحال الى وضع غير مبال نسبيا ، وان كان اتجاههم (١٦) هو اتجاه تسامح نحو الديانات الأخرى وأربابها (١٧) . أما أوزايل B. Ausubel فيرى ان التناقض الديني تثير الاكتشافات العلمية في ذهن المراهق ، وهو تناقض سطحي ، ولا يؤثر في جوهر الإيمان الديني religious faith ولقد درس فورستر F. Forrester الاتجاهات الدينية لدى مجموعة من المراهقين تتراوح أعمارهم من ١٣ الى ١٧ سنة . ووجد أنهم يرغبون في ان يصبح الدين علما ، وأنه من الأفضل ان نملك سلوكا مسيحيا من امتلاك العقائد الدينية الصحيحة ، وان الخدمات الاجتماعية أكثر أهمية من العبادة ، ووجد ان العناصر الصوفية في الدين mystical elements ليس لها ايجابية قليلة بالنسبة للمراهقين .

ويمر النمو الديني في الفرد بمراحل مختلفة تختلف باختلاف عمر الفرد ، لان فكرة الطفل عن الدين تختلف من فكرة الراشد الكبير . ففكرة الطفل الصغير عن الله فكرة مادية مجسمة مشخصة . وعندما سئل عدد من الأطفال الصغار عن فكرتهم عن الله قالوا : « انه رجل مجوز له لحية بيضاء ، ويلبس ملابس بيضاء فضفاضة » . أما التفكير الديني في مرحلة المراهقة فيمتاز بأنه تفكير نقدي ، حيث يلجأ المراهق الى نقد الأفكار التي تلقاها من الآباء والمدرسين والكبار في مرحلة الطفولة ، وكان قد قبلها عن طيب خاطر . وللدين أهمية خاصة في مرحلة المراهقة ، حيث يلجأ المراهق للدين لكي يجد فيه مخرجاً من مشكلاته ، ولكي يجد فيه المسند الذي يحقق له الشعور بالأمن الذي فقده بسبب الصراعات التي تدور في نفسه .

ويفترض بعض علماء النفس ان مرحلة المراهقة مرحلة كفر والحداد ، ولكن يبدو ان التفكير النقدي هو الذي يدفع المراهق لاعادة النظر في العقائد التي سبق له ان تلقاها ، ويساعده على ذلك زيادة نضجه العقلي وتحرره الفكري . ولقد أجرى جيلاند Gilliland بحثاً على الشباب في سن المراهقة ، وتناول بالاسئلة موضوعات مثل وجود الله والخلود والمعجزات التي قام بها الانبياء والحياة الأخرى ، والاعتقاد في وجود الجنة والنار وفي وجود الشياطين ، وبين ان غالبية الشباب

Cole, L. and Holl, IK, Op. Cit. P. 477.

(١٦)

Ausubel D., OP. Cit. P. 270.

(١٧)

(*) يحتر الدين بالنسبة لكثير من الكتاب والعلماء والمفكرين مثراً عظيماً في حياتهم وابدانهم ونبوغهم الفنى .

يعتقدون (١٨) في صحة هذه المبادئ الدينية ، ولكن هناك نسبة قليلة لا تعتقد ، ونسبة أكثر منها في حالة تردد وعدم يقين .

وهناك من المفكرين من يعتقد ان فترة المراهقة ليست فترة اضطراب خلقي أو ديني . « وعلى النقيض من الفكرة التي كانت تشيع سابقا نجد المراهقين لا يمرون بفترة من ثورة الاصطراب الاخلاقي والديني ، ولكن المراهقين بالطبع على درجة كافية من الفهم والحكمة بحيث انهم يرون ذلك التناقض الذي يقوم بين المعتقدات التزمته من ناحية ، والجانب العقلي من ناحية اخرى ، وهم يتلمسون للحياة معنى وقيمة . وقد تمتلئ نفوسهم في بعض الاحيان تحمسا وشوقا زائدين الى اعادة تنظيم الكون . ولكن هذه المثل العليا لا تتعارض أو تتصارع مع الواقع تصارعا يؤدي الى الارتداد عن الدين أو الاضطراب الخلقي . ان النزعات الخلقية والدينية اذا اوسيت قواصدها في الطفولة تستمر الى المراهقة ثم في مرحلة الرشد عند غالبية الشبان (١٩)

• • •

النمو الخلقي في مرحلتى الطفولة والمراهقة

مفهوم الاخلاق :

ينبنى تحديد التصود بامصطلح «الاخلاق» Morality فهل الاخلاق هي ما يقرره المجتمع حتى ولو كان خطأ ؟ ام ان الاخلاق هي ما يعتبره الفرد عدلا Justice وشفقة Kindness وايثارا Altruism وما الى ذلك من القيسم الخلقية المطلقة ؟

لا شك ان مفهوم الاخلاق كمفهوم نابع من المجتمع هو مفهوم دينامي في طبيعته ، بمعنى انه يتغير من جيل الى جيل ، ومن مجتمع الى آخر ، وينمو ويتطور أو يتعدل .

ويعرف هادفيلد J. Hadfield الاخلاق بالقول :

« هناك معنيان عريضان لمصطلح «الاخلاق» أحدهما بمعنى الامتثال Conformity لمعايير المجتمع norms or mores وعاداته ، والمعنى الآخر هو اتباع الغايات والاهداف الصحيحة » (٢٠) النوع الاول : يجعلنا آليا نتبع الصادات ونمثل السلوك الجماعي ، ونرعى التقاليد

Gilliland, A.R., „Changes in religious beliefs of college students” in J. (١٨) Soci. psych., P. 37.

(١٩) جلن مايرزيلر ، ستيوارت جونز ترجمة د. احمد عبد العزيز سلامة ، د. فهد الدين ابو الصب ، سيكلوجية المراهقة للمربين ، دار النهضة العربية - القاهرة .

Hadfield, J., Child hood and adolescence, Penguin Books, 1964 P. 141. (٢٠)

الاجتماعية . وطبقا للمعنى الثانى فان الفاضلات الصحيحة كالكرم والولاء والامانة تعدخيرة في ذاتها وينبغى اتباعها بصرف النظر من عادات المجتمع ومعاييره . (٢١)

والاخلاق بمعنى الامتثال لقيم المجتمع وانماط سلوكه تختلف من مجتمع الى آخر .

ويستخدم احيانا اصطلاح الخلق character ليعنى السلوك الخلقى moral behaviour ولكن اصطلاح الخلق يشير الى درجة التنظيم الخلقى الفعال لكل قوى الفرد . ويشير الى الاستعداد « النفسيفيزيى » الدائم الذى يقع البواعث تبعاً لبدأ تنظيمى معين . ومعنى هذا الاشارة الى الاخلاق morality خلق داخلى يكمن فى داخل الفرد نفسه . وهكذا نرى ان اصطلاح الخلق يشير الى سمات الشخصية اكثر من اشارته الى الاخلاق التى تتضمن قوة ارادية كافية لتوجيه السلوك نحو نوع ما من القيم . وتهتم الاخلاق بنوع خاص بقوى الفرد الارادية واهداف كفاحه واتجاهاته . (٢٢)

ويقصد بكلمة الاخلاق Morality من الناحية السلوكية الامادات والتقاليد والآداب والمثل المرعية في مجتمع ما ، وعلى ذلك فالقيم الخلقية تختلف من مجتمع الى آخر ، كما تختلف فى نفس المجتمع من عصر الى آخر ، وتختلف فى نفس المجتمع وفى نفس العصر باختلاف الطبقات الاجتماعية . فالبادئ التى تصلح للمجتمع الاشتراكى لا تصلح للمجتمع الراسمالى ، كذلك اخلاقيات المجتمع الديموقراطى تختلف من اخلاقيات المجتمع الديكتاتورى ، فالفرد الذى يعيش متكيفاً في مجتمع راسمالى يصبح غير متكيف اذا ما نقل الى مجتمع شيوى مثلاً . وطبقاً لوجهة النظر « الامتثالية » ما على الفرد الا ان يقبل قيم الجماعة التى ينتمى اليها حتى يعيش فى سلام ووثام معها ، ولكن رغم وجود هذه الفروق الثقافية فى مفهوم الاخلاق الا ان هناك بعض المبادئ الخلقية « المطلقة » العامة التى تصدق فى كل مكان وزمان ، ومنها الصدق والامانة والولاء ... الخ .

ويعرف الخلق بأنه تكامل الامادات والاتجاهات والمواظف والمثل العليا بصورة تميل الى الاستقرار واللبات ، وتصلح للتنبؤ بالسلوك القبل . (٢٣) فالنمو الخلقى لدى الطفل يسير من مجرد الرغبة فى تحقيق اللذة والسعادة الى التقيد بالمبادئ الخلقية والاجتماعية السائدة فى المجتمع الذى يعيش فيه الطفل .

ويتقدم الطفل فى العمر تتحول القوى الراضعة من كونها قوى خارجية اى صادرة من الخارج ، من الآباء والأمهات والمدرسين ، الى ان تصبح قوى ذاتية داخلية هي ضمير الطفل ، ويتكون هذا الضمير عن طريق امتصاص قيم الآباء واكتسابها ، وبذلك تصبح معايير الطفل نفسه .

(٢١) داجع كتاب « علم النفس ومشكلات الفرد » للكتاب ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، معرفة الاتجاهات المختلفة فى تعديد السواء والاعتراف .

(٢٢) يختلف معنى الاخلاق بالمعنى السلوكى كادات فردية وجماعية من الاخلاق بالمعنى النفسى ethics او علم الاخلاق .

(٢٣) دكتور فؤاد البهى السيد ، الاسس النفسية للنمو من الطفولة الى الشيخوخة ، دار الفكر العربى بالقاهرة / ١٩٦٨ .

ويقودنا هذا الموضوع الى التساؤل ايهما تصبح له القيمة العليا والمطلقة : الفرد ام المجتمع؟

في ضوء الخبرات المستمدة من المجتمعات الديمقراطية والدكتاتورية يتضح ان الامل الوحيد في الإصلاح والتقدم يكمن في النشاط الحر لأعضاء المجتمع . وليس هناك ضرورة لاتخاذ موقف دون آخر في أيهما تكون له السيادة : الفرد ام المجتمع، إذ الواقع أنهما يعتمدان على بعضهما البعض ، وهناك علاقة تفاعل قوية بين الفرد والمجتمع . فصالح المجتمع من صلاح أفراده وصالح الأفراد يؤدي الى صلاح المجتمع برمته .

ومن الناحية السيكلوجية فان مفتاح الاخلاق هو شعور الفرد بالواجبات والالزام في كل من الفكر والعمل .

وعلى ذلك فان السلوك الذي يقوم به الفرد خوفا من عقاب المجتمع ليس خلقيا بالمعنى السيكلوجي ، ويصبح خلقيا عندما يصدر عن شعور الفرد بالواجب أو بالولاء أو الصطف أو الشفقة أو الرحمة أو الحب أو الشرف وغيره من الانفعالات المشابهة . ولكن هذه الانفعالات ليس من الضروري أن تكون صحيحة اجتماعيا ، ذلك لأنها قد تنشأ أصلا من الأخطاء التي يركبها المجتمع ضد الأفراد .

ولا يمكن قبول الافتراض ان الانسان خير محض أو شر محض ، انما تسود آراء الكثيرة من العلماء بأن في الانسان الشر والخير معا ، وتفتح هذه الفكرة الأفاق واسعة امام المجتمع ومنظاته التربوية لتنمية الجوانب الخيرية في الانسان وسيطرتها على جوانب الشر فيه ، ولتعليل الاساليب التربوية دورا هاما في توضيح مفاهيم الخط والصواب ، وخاصة لدى أولئك الذين يعتبرهم الخلط وعدم القدرة على التمييز بينهما . فكثير من الناس ، وخاصة الشباب ، يقفون موقف الحرية ازاء الوعد والارشاد من قبل الكبار من ناحية وسلوكهم الفعلي المعطى من ناحية أخرى . على ان مجرد المعرفة النظرية بالخير أو الشر لا تضمن بالضرورة عمل الخير . المهم هو الإرادة التي تفعل الخير وتجنب الشر الى جانب ضرورة توافر الامكانيات البيئية والانفعالية والجسمية لممارسة الخير . فلقد وجد ان قوة الإرادة تتأثر بتماطى الفرد بعض العقاقير . (٢٤)

الانماط الخلقية :

يصنف الناس احيانا الى انماط خلقية مختلفة تبعا لنوع الاخلاق الذي يتبعونه :

- ١ - النمط النفمي The expedient type ونفيه يسلك الفرد فقط سلوكا خلقيا للحصول على أغراضه الذاتية .
- ٢ - النمط الامتثالي conforming type وهو النمط الذي يفعل صاحبه ما يفعله الآخرون ، وما يقولون أنه ينبغي عليه ان يفعله .

(٢٤) Johnes, V., Character development in children : an objective approach, in Manual of child psychology, ed. by, Carmichael, L., P. 821.

٣ - النمط العقلي أو النمط ذو الضمير الحي The rational or conscientious type
وله معايير الخاصة الداخلية في الصواب والخطأ

ولبما لهذه المعايير بحكم على تصرفاته . وهونمط ابشاري altruistic ويمثل على مستويات الأخلاق . وله مجموعة من المبادئ الخلقية الثابتة المستقرة والتي توجهه . انه عقلاني وواقعي Realistic في تقويمه لما هو خير له ولغيره من الناس (٢٥) . وهو غير مضطر لعمل كثير من التفسيرات أو التأويلات الخلقية لانه يتبع «حرفية» القانون الخلقى ، اما الشخص النسبى في مذهبه الخلقى relativist فانه يأخذ في الحسبان النوايا والدوافع والإصرار أو التعمد والنتائج العملية لعمله ، وكما يقول فروم E. Fromm في ضوء الأخلاق السلطوية تضع السلطة * ما هو خير للإنسان ، وتضع القوانين والمعايير للسلوك ، اما في الأخلاق الإنسانية فالإنسان نفسه هو موضوع المعايير وهو الذى يضع هذه المعايير ، انه مصدر المعايير والمسئول والمنظم ، وهو أيضا الموضوع الذى تنطبق عليه هذه المعايير . (٢٦)

خصائص الفكر والسلوك الخلقى في الطفولة والمراهقة :

يضاف الى المشاكل السابقة مشكلة عمومية المبادئ الخلقية أو خصوصيتها ، بمعنى هل يكون الطفل الأمين في البيت آمينا في المدرسة وفي النادي وفي العمل وفي الامتحان وفي اللعب وفي جميع المواقف والأماكن أم ان الأمانة تتوقف على الموقف الذى يوجد فيه الفرد ومقدار حاجاته الى «الفش» مثلا ؟ وعلى دوافع الفرد وحاجاته ؟ لقد دلت دراسة هارتشورن وماى (١٩٤٨) Hartshorne and May على عدم وجود ارتباط دى دلالة بين الفش في المدرسة والفش في المنزل Cheating at home and at school ، ولكننا اذا اخذنا الأخلاق بمعنى الشعور بالذنب لتجنبنا الصواب الناتجة من الاتجاه الامتنالى السلوكى ، اذ من الممكن أن يخضع الفرد للأغراء Temptation ومع ذلك يشعر بالذنب نتيجة لامتلاكه معيارا داخليا .

يسير الطفل في بدء حياته بمنطق « اللذة » أى انه يميل الى تكرار السلوك الذى يجلب له اللذة المباشرة ويجنبه الألم . ويتكون ضمير الطفل عن طريق مجموعة الأوامر والنواهي التى يتلقاها من الوالدين اللذين يقومان بوظيفة التسمير في بدء حياة الطفل . فالطفل الصغير لا يسرق لأن «ماما» تقول لا تسرق ، ولأن السرقة تفضب « ماما » .

Jersild, A., The Psychology of adolescence, P. 368.

(٢٥)

Fromm, E., Man for himself : an inquiry for the psychology of ethrics,

(٢٦)

Rinehart, N.Y 1947.

(*) داجع أنواع القيادة وأثر كل منها على السلوك والشخصية في كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعى » دار النهضة العربية - بيروت .

وهنا ينبغي ان نتساءل عن العوامل التي تؤثر في مجرى النمو الخلقي في حياة الطفل ؟

العوامل المؤثرة في النمو الخلقي :

لقد تساءل كثير من الكتاب : هل يرجع السلوك الخلقي الى الوراثة ام الى البيئة والاكتساب ؟ يحنوي التراث السيكولوجي على كلا الاتجاهين أي الاتجاه الوراثي والاتجاه الاكتسابي . ومن بين الدراسات العديدة التي تؤيد العوامل الفطرية في الاخلاق The innate factors دراسة الأمر التي انتشر الجنوح والأجرام بين أعضائها بكثرة كبيرة عبر الأجيال المتعاقبة (٢٧) . ولقد افترض قديما بعض العلماء وجود حس خلقي داخل الانسان ، ولكن اذا كان للاخلاق حس مستقل فإين يقع هذا الحس من الجسم ؟ وفي غضون القرن الثامن عشر سادت حركة طيبة افترض انه نتيجة لاصابة الفرد بمرض ما فانه يفقد حسه الخلقي ، بينما تبقى قواه العقلية سليمة ، واطلق على هذه الحالة المرضية اصطلاح الجنون الخلقي moral insanity (٢٨) وبفترض هنسري مودسلاي Henry Maydsley أن معظم المجرمين الصغار ضعاف اخلاقيا في القوة الخاصة بتكوين الحدس الخلقي ، وكان يعتقد ان الطفل قد يكون ماهرا عقليا ولكنه اعمى خلقيا ، وأن هذا الضعف الخلقي الوراثي يبدو انه ينتشر في أسر معينة عبر الأجيال المتعاقبة . ومن ناحية بناء الشخصية وجد أن كثيرا من الامراض السيكوباتية والمصابية ترتبط بالجنوح (٢٩) وكان لمجودوزو Cesare Lombroso يعتقد بوراثية الاجرام . ويعتقد بعض الناس بان الطفل يولد مزودا بضمير معين يساعده على التمييز بين الصواب والخطأ ، بل يزعم البعض ان الطفل يرث بعض السمات الخلقية المحددة كالامانة والصدق ، ولكن هذه الفكرة تخلص الآباء والعلمين من مسؤولياتهم ازاء تربية الطفل تربية خلقية سليمة حيث لا يعزون السلوك غير المرغوب الى فشلهم وانما الى نقص وراثي أو فطري لا يمكنهم التغلب عليه .

ولكن الضمير في واقع الامر يتكون خلال الشعور بالالتزام او بالواجبات الاجتماعية ، تلك العمليات التي تحول الضبط الخارجي الى ضبط داخلي (٣٠) . يقول وليام مكديوجل McDougall مؤيدا للاتجاه الوراثي للعقل البشري : ان هناك نزعات فطرية او مورثة هي المنابع الاساسية او القوى الدافعة لكل من الفكر والسلوك ، وهي الاساس الذي تنمو عليه خلق واردة الافراد والامم بالتدرج تحت توجيه الكليات العقلية (٣١) .

(٢٧) Kanner, L., Child Psychology, Charles C., Thoms, U.S.A. 1957, P. 679.

(٢٨) Burt, C., The Young delinquent, univ. of London, Press, 1957 P. 34—40.

(٢٩) Ibid.

(٣٠) Hawkes, G.R., Behaviour and development from 5-12 Harpers and Brothers, N.Y. 1962, PP. 122.

(٣١) لم تعد فكرة الكليات ماثولة في الفكر السيكولوجي الحديث واصبح ينظر للعقل البشري على انه وحدة .

أما فرويد Freud ف يرى أن غريزتي الجنس والحفاظ على الذات هما العنصران الأساسيان في الدافعية الإنسانية human motivation وتتضمن غريزة المحافظة على الذات ، من بين ما تتضمن حماية معايير الفرد الخلقية والاجتماعية ويفترض أدلر Adler وجود نزعتين مسئولتين عن ارتباط الإنسان بأخيه الإنسان ، وهما :

١ - الرغبة في القوة الشخصية والسمو .

٢ - الشعور الاجتماعي .

ولكن مثل هذه الاتجاهات التي تختزل الدافعية الإنسانية في شكل عامل أو عاملين بالغ في تبسيط التنظيم الدافعي في الإنسان .

وتدلنا الدراسات الانثروبولوجية التي تناولت بعض المجتمعات البدائية على أن القيم الخلقية ليست عالمية ، ومن ثم ليست موروثة ، وعلى سبيل المثال فإن مجتمع الأرايش Arapash ليس في حاجة إلى كثير من الوسائل التربوية التي تروعه على ممارسة السلوك الخلقي ، وانما يظهر هذا المجتمع كثيرا من مظاهر الإيثار والتضحية (٣٢) للقتال .

وفي مجال تأييد وجهة النظر الوارثية في نمو القيم الخلقية ربما نشر إلى الفروق الملاحظة بين الذكور والإناث في الأخلاق . فلقد وجد أن الإناث أكثر تأثرا بالنداء الانفعالي في الحياة الدينية ، بينما الذكور أكثر جذباً بالشرف والعقاب الخلقي والنشاط الاجتماعي . وبالنسبة للمدوان فلقد أعطى بايل وماريكارد Bize and Maricard (١٩٣٧) حقنا من الهرمون المنشط للذكور لعدد من الصبيان الصغار ووجد زيادة واضحة في العدوانية في كل العلاقات الاجتماعية . كذلك أعطى كلارك وبرش Clark & Birch هرمونات ذكورية وأتوة لقرود ذكر ، ووجد أن الهرمون الذكري يؤدي إلى زيادة السيطرة الاجتماعية عند الحيوان ، وأن الهرمون الأنثوي يؤدي إلى خضوع الحيوان ، ويؤكد هذا فكرة زيادة النزعات العدوانية في الذكور عنها في الإناث . وفي مجال الفروق الجنسية في الأخلاق أيضا هناك ما كشفت عنه دراسة تيودور - هات Tudor-Hart حيث وجد أن الإناث يلقين أكثر من الذكور كثيرا من الأكاذيب التقليدية مثل : أمي ليست في المنزل (٣٣)

أنا سعيدة لرؤيتك .

لقد قضيت وقتا ممتعا في حفلتكم ؟

مثل هذه الأكاذيب اعتبرتها نسبة أكبر من البنات من البنين « ضرورية » كذلك اعتبرت نسبة أكبر من البنات الأكاذيب الاجتماعية « ضرورية » (نسبة ٣٢ ٪ في مقابل ١٨ ٪ من الذكور) ومن

(٣١) Mead, M., Sex and temperament in three primitive societies, Routledge and Kegan Paul, 1948, P. 137.

Jones, V., OP. cit.

(٣٢)

أمثلة الأكاذيب الاجتماعية « الكذب للاحتفاظ بالأسرار » و « الكذب لحماية من القرامة » وما إلى ذلك . وفي دراسة شيلي Sheely (١٩٤٨) التي تناولت ٨٠٠ طفل تتراوح أعمارهم من ٩ إلى ١٦ سنة وجد الذكور أكثر عدوانا وسيطرة وأقل خوفا وأكثر تفخرا من الإناث اللائي كن أكثر شكا وخيالا ، وأكثر خضوعا وطاعة للضوابط الاجتماعية ، ولقد وجدت نسبة الذكور إلى الإناث في الأحداث الجانحين الأمريكيين تساوي ٦ - ١ .

ولكننا يجب أن نلاحظ أن هناك فروقا كبيرة في نوع الجرائم التي يرتكبها أفراد كل جنس ، كذلك هناك فرق في المستويات الخلقية التي يضعها المجتمع على أفراد كل جنس . فالعروف أن الأسرة أكثر تسامحا في قبول المخالفات التي يرتكبها الولد الذكر . كذلك فإنه يفترض أن الأب - أكثر من الأم - هو الذي يمثل السلطة الخلقية الرئيسية في الأسرة ، وأنه أيضا الموضوع الخلقى الذي يتقمصه الولد والبنات على حد سواء . أن الأب أكثر تمثيلا للمعايير الاجتماعية ، وهو أكثر قدرة على القيام بعملية الضبط والربط في الأسرة .

وفي هذا الصدد افترض فرويد أن الذات العليا أو الضمير في النساء أضعف منها في الرجال . ويرجع السبب في ذلك إلى بقاء البنات مدة أطول من البنين في مرحلة جمود مقدة الكتر Electra* .

وخلافا لوجهة نظر فرويد هذه يعتبر ثيرمان وويلور أن البنات يمثلن أكثر من البنين لقواعد الآباء والسلطة . كذلك تعاني البنات من مشاكل مدرسية ومنزلية أقل من البنين ، وأن نسبة جنوح الأحداث بينهن أقل من مثيلتها عند البنين . وفي دراسة ثرستون وكيف Thurstone and Chave من الاتجاه نحو الكتيبة وجد أن النساء أكثر استعدادا للذهاب للكنيسة من الرجال . (٢٤)

ويرى فرويد Freud أن احساس بالعدل وقهره من القيم الخلقية أقل في النساء منه في الرجال ، ويرجع ذلك في نظره إلى طرق تكوين الذات العليا عندهن ويقول فرويد : « إن السمات الخلقية التي أثارها النقاد في كل الأزمنة فسد النساء - أي أن احساسهن بالعدل أقل من احساس الرجال ، وأنهن أقل استعدادا للخضوع لضرورات الحياة الهامة ، وأنهن أكثر تأثرا في أحكامهن بمشاعر الحب والعداوة - كل هذا يفسر بالرجوع إلى التمديدات التي تحدث في تكوين ذواتهن العليا » .

وبعد أن تعاطف الآلات ينتج من جوانب شخصية أكثر من المبادئ والقيم المجردة . وفي هذا الصدد يقال أن النساء يتأثرن في الأحكام الخلقية والجمالية بالأسلوب والشعور أكثر من التأثر بالعقل .

(٢٤) Thurstone, L. and Chave. E., The measurement of attitudes. The University of Chicago Press, 1951.

(٢٥) تشير هذه الحالة إلى ارتباط الفتاة بآبيها مع كراهية الأم والشعور بالفرة نحوها ، وقلة مقدرة أديب في الطفل الذكر التي تشير إلى ارتباط الطفل جنسيا بأمه والفرة من الأب وما يصحب ذلك من شعور بالذنب والصراع الإنساني لدى الطفل .

ولقد وجهت انتقادات عديدة لفكرة وراثية الاخلاق ، فعلى سبيل المثال ، وجد هارتسون ومائ ان الامانة تختلف باختلاف المواقف ، فالطفل قد يكون اميناً في المدرسة خائناً في المنزل . ويؤكد الاتجاه البيئي في نمو الاخلاق دور الاسرة والمدرسة والمسجد والكنيسة او الجماعات البشرية ، كجماعة الاصدقاء والزعماء والحركة الاجتماعية ووسائل الاعلام والاتصال الجماهيري كالراديو والتلفزيون والسينما والمسرح والصحف والمجلات مما يؤكد اثر المنزل على الاخلاق ، ما وجد في احدى الدراسات من ان ٨٧٪ من الاثلاث الجانحات اتين من بيوت محطمة ، حيث يقل تأثير المنزل ، وتقل فرص تدريب الطفل على السلوك الخلقى .

وفي دراسة اخرى وجد ان ضعف التدريب والتاديب كان سببا في ٩٠٪ من الانحرافات السلوكية . ولا شك ان الطفل يبنى مفهومه من الصواب والخطا من الامثلة التى يتلقاها من الكبار الراشدين . ولقد وجدت معاملات ارتباط كبيرة نسبيا بين فكرة الاطفال عن الصواب والخطا وبين افكار الكبار المحيطين بهم وكانت معاملات الارتباط كما يلى :

معامل الارتباط

٠.٥٥	الاطفال والآباء
٠.٣٥	الاطفال والاصدقاء
٠.١٤	الاطفال ومعلمو الاندية
٠.٠٦	الاطفال والمدرسون
٠.٠٢	الاطفال ومعلمو مدارس الاحاد

ويبدو ان الآباء لهم اكبر قدر من التأثير في تكوين مفهوم الطفل عن الخطا والصواب . ولقد تبين انه كلما زاد اتصال الطفل بالتصاقا بالكبار زاد تأثيرهم عليه وعلى سلوكه ، وتلعب علاقات الحب والعطف والحنان والدفع دورا هاما في تنمية الضمير القوي في الاطفال .

فأسلوب التربية القائم على اساس الصبر الذى يؤدى الى تنمية الضمير . اما الحماية الزائدة او الخضوع لرغبات الطفل المبالغ فيها فانهما يؤديان الى زيادة نزعات الطفل نحو العصيان والطغيان والمبالغة في المطالب . اما الاطفال الذين خضعوا لسيطرة الامهات والتحكم الزائد والتأنيب المبالغ فيه والذين كانوا يمنحون المكافأة لخضوعهم التام ، أصبحوا منسحبين وخجولين . (٣٥)

ويعتبر المنزل من القوى المؤسسات الاجتماعية في نقل ثقافة المجتمع للطفل ، انه يكمل وظائف المؤسسات الاجتماعية الاخرى كالحكومة والمدرسة والمسجد . بل انه يبدأ في « عمله هذا » قبل ان يبدأ الطفل في الاحساس بدور هذه المؤسسات . كذلك تلعب المدرسة دورا هاما في

نمو السلوك والقيم الخلقية في الطفل ، فتلقد لوحظ أن السلوك الخلقي للأطفال يتدهور عندما تضعف الإدارة المدرسية .

ولكي يمارس الطفل السلوك الصواب لابد من معرفة الصواب والخطأ والتمييز بينهما ، وليس هذا التمييز أمرا سهلا ، إذ يختلف الأفراد في تقدير الصواب والخطأ . ففي إحدى الدراسات قررت ٩٠ ٪ من مجموعة من الأطفال الصغار أن ٩ مواقف من مجموع ٦٤ موقفا مدرسيا هي مواقف صحيحة أو صواب ، وعندما حكم المدرسون على هذه المواقف قرروا أن ١٢ موقفا صحيحة فقط ، وقرر هذه النتيجة ٩٠ ٪ من المدرسين ، وعلى الرغم من أن المعرفة النظرية بالصواب والخطأ لا تضمن بحد ذاتها ممارسة الصواب وتجنب الخطأ إلا أن المعرفة مهمة ، لأن الفرد لا يختار الصواب في موقف لا يعرفه ، اللهم بمحض الصدفة البحتة . (٣٣١)

ومن العوامل المؤثرة في السلوك الخلقي ارتياد أماكن العبادة ، فلقد وجد أن للخبرة الدينية أثرا كبيرا على النمط القيمي للأطفال وللشباب . ولقد وجد « هارتشون وماي » أن مقدار الفسق يقل بارتياح الكنيسة . كذلك وجد أن الأطفال الذين يرتادون الكنيسة يحصلون على درجات أعلى في اختيار « مساعدة الغير » أو النزعة نحو مساعدة الآخرين .

وبالنسبة لأثر المجتمع أو الحياة الاجتماعية ككل يقول عالم الاجتماع الفرنسي دوركايم Durkheim « أن الحركة الاجتماعية العظيمة هي التي تخلق الجريمة . ففي الماضي كان الناس يرتبطون بروابط وثيقة بأسرهم التي كانت توحد وتضبط سلوكهم . » (٣٣٢)

وقد أدى **النمو الاجتماعي** إلى النزوح للمدن الكبرى وتحطيم الروابط الأسرية القديمة ، وأصبحت الوظيفة أو المهنة تمارس بعيدا عن دائرة الأسرة ، ولقد تحلت القيم القديمة دون أن يبتكر غيرها ، فأصبح هناك فراغ قيمي يحتوى الفرد المعاصر . لقد أصبح أبناء المجتمع الحديث أكثر عزلة وانسحابا ومن ثم فضعف التأثير الاجتماعي عليهم .

كذلك تؤثر **الطبقة الاجتماعية** على نوعية الأخلاق التي تنمو في الطفل ، فلقد وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية والاقتصادية الدنيا أكثر تسليطا في اتجاهاتهم ، فقد طالبوا بانزال العقاب ، كملاج لعمل الخطأ أكثر من أطفال الطبقات العليا . ولقد وجد أن أطفال الطبقات الدنيا ينظرون للسلوك في ضوء الصح والخطأ ، بينما يحكم أطفال الطبقات العليا على السلوك طبقا لنتائج العملية . كذلك وجد أن أطفال الطبقات الاجتماعية الدنيا كانوا أكثر قبولا وتسامحا أزاء الأفعال الخاطئة ، وذلك بالمقارنة بأطفال الطبقات العليا ، وعلى سبيل المثال عندما سئلوا عما إذا كان « السكر » خطأ ، كانت هناك النسب المثوية الآتية التي أقرت أن السكر خطأ :

أطفال الأحياء الشعبية القديمة	٪
Ibid	(٣٣٧)
Ibid	(٣٣٨)

١١٪	اطفال مناطق نصف قلوة
٢٠٪	اطفال الطبقة الاجتماعية المتوسطة
٣٤٪	اطفال الطبقة الاجتماعية العليا

ولقد نسر هذا بأن أبناء المناطق الشعبية المتدنية المستوى أكثر الفة مع السكر من زملائهم من أبناء الطبقات العليا .

ويقترح **بريكنريدج** Breckenridge العوامل الآتية كأساس لنمو الأخلاقي الجيد :

١ - صحة جسمية جيدة لمقاومة الإغراء ، وللتحرر من الشعور بالمرارة أو النقص ، ومن وجود دوافع الانتقام .

٢ - الأمان الانفعالي لامكان الشعور بالحب تجاه الآخرين .

٣ - توفر وظيفة مناسبة ومنافذ للتعبير أو التعريف .

٤ - تدريب مستمر في التحكم والضبط الذاتي للمساعدة في التخلص من البواش الطفلية .

٥ - وجود افق اجتماعي مستمر الانساع لتنمية القدرة على اكتساب المصارف ، وعلى التسامح وعلى التعاطف ، وعلى الفهم وتنمية الرغبة الاصلية لتقدير حقوق وواجبات الناس الآخرين .

٦ - الطموح نحو الرغبة القوية في عمل الصواب ، بحيث يجد الفرد الشعور بالرضا والسعادة نتيجة لعمل الصواب . وفي الفالب ما ينمو هذا الطموح نتيجة للتعاليم الدينية . (٣٨)

ولا يمكن تغيل حدوث النمو الخلقى بمحض الصدفة ، بل أنه يحتاج الى جهود واساليب مدروسة ، ويتطلب تخطيطا دقيقا للمواقف التي تضمن التعاون والضبط الذاتي ، ونمو روح الجماعة . كذلك ينبغي تشجيع الطفل على تعميم المبادئ الخلقية ، ويمكن اشراك التلاميذ في مشروعات خدمة البيئة لتنمية الشعور بتحمل المسؤولية وتقدير الصالح العام وحمايته . وإلى جانب المؤثرات الخارجية ففي مرحلة المراهقة توجد دوافع داخلية نحو التعاون ونحو تقدير العدالة ونمو الشعور بالولاء للجماعة ولقواعدهم وغير ذلك من المبادئ السلوكية المثالية . ففي المراهقة تنمو النزعات المثالية والتزمة نحو اصلاح العالم ونحو البذل والتضحية الذاتية ، وينبغي توجيه هذه المثالية نحو السلوك الخارجى الحقيقى كما ينبغي اشعار المراهقين بانهم مرغوبون ومطلوبون كما ينبغي أن يجدوا المنافذ الإيجابية البناءة لتصرف طاقاتهم الزائدة . وأخيرا فاننا في معرض الجدل بين تأثير البيئة والوراثة ، ينبغي أن نؤكد بأن الانسان يتأثر بكل من البيئة والوراثة معا ،

وان العلاقة بين البيئة والوراثة هي علاقة تفاعل، أى تأثير متبادل قوى ، ولكننا ينبغي أن نضع مزيداً من الأهمية للعوامل البيئية، لأن ذلك سوف يوسع من قدرتنا على مساعدة الأطفال نحو النمو الجيد ، والإيمان بإمكان اصلاح الاعوجاج . ان ارجاع السلوك الانساني الى العوامل الوراثية وحدها يضيق من امكانية تعديل السلوك المتخرف وتوجيهه نحو الصواب . ولاشك أن ما يولد به الطفل من استعدادات وامكانيات يمكن صقلها وتشكيلها وتوجيهها وحسن استغلالها عن طريق الخبرات التى يمر بها الطفل ، والفرص التى تحتاجه ، والإشراف الذى يلقاه .

المثال والقدوة :

كيف يختار الطفل الصغير مثاله الأعلى الذى يقتدى به ؟

نتيجة لالتصاق الأطفال الصغار بأبائهم يختارون منهم مثالهم الأعلى . وفى إحدى الدراسات وجهت للأطفال الاسئلة الآتية :

١ - من هو الشخص الذى تعجب به أشد الإعجاب ؟

٢ - من هو الشخص الذى ترغب أن تشبهه من هؤلاء الناس الذين تعرفهم أو سمعت أو قرأت عنهم ؟

ولقد اختار الأطفال الصغار (سن ٦ - ٧ سنوات) مثالهم الأعلى من بين أفراد الدائرة الضيقة لمعارفهم كالأباء والأمهات . وعلى حد قول فالتين : « بازدياد السن تنسع خبرات الطفل، وبذلك يصبح الأشخاص الذين يختارهم الطفل مثالا أعلى من بين الأشخاص الذين قرأ عنهم فى التاريخ أو فى الأدب أو فى الإنجيل ، أو من بين الشخصيات العامة الشهيرة . (٣٩)

على كل حال وجد أنه بعد سن الثالثة ممتدة يعود الطفل للاختيار من دائرة المعارف المقربين . ومن المعروف أنه بالتقدم فى السن ينمو اتجاه التسامح نحو المذاهب الدينية المختلفة وأربابها ، كما تنمو نزعات الشك والنقد تجاه العقائد الدينية التى تعلمها الطفل من قبل .

ولقد وجد معامل ارتباط سالب بين عامل العمر الزمنى وبين قبول المعتقدات الدينية .

كذلك كلما تقدم المراهق فى السن زاد قدرته على التفكير فى الأمور المجردة ، وكلما قلت نزعته نحو « الأخلاق الموضوعية » أو الواقعية أو المطلقة حلت محلها الأخلاق النسبية ونمت نزعات التحرر والمرونة فى وجهات النظر .



مراحل النمو الخلقى :

على الرغم من أننا نستطيع أن نحدد مراحل معينة للنمو الخلقى ، إلا أن النمو الخلقى ، كغيره من مظاهر النمو الأخرى ، يحدث تدريجياً لا فجائياً ، وليس هناك انتقال فجائي أو طفرى من مرحلة إلى أخرى ، فالطفل لا يتحول من الطقولة إلى المراهقة بين عشية وضحاها ، بل إنه من الممكن أن يحدث نوع من النكوص regression أو الارتداد من مراحل متقدمة إلى مراحل سابقة عندما يتعرض الفرد لصعوبات نفسية حادة ، فالنمو لا يسير باستمرار في خطوط مضطردة . كذلك هناك فروق فردية واسعة individual differences في الوصول إلى أى من هذه المراحل ، ولا توجد فواصل حاسمة فاصلة وقاطعة بين هذه المراحل ، ولكنها تتداخل فيما بينهما (٤٠) . ففي المراهقة تظل هناك رواسب من الماضى الطفولى وفى الشباب تبقى بعض سمات المراهقة . ويصف جيرسيلد Jersild حركة الانتقال من مراحل أقل نضوجاً إلى المراحل الأكثر نضوجاً في النمو الخلقى بما يلي :

- ١ - المفهوم العام لما هو صواب ولما هو خطأ يحل محل القواعد النوعية المحددة .
- ٢ - المعايير الداخلية تحل تدريجياً محل الطاعة للأوامر والنواهي الخارجية .
- ٣ - زيادة فهم (قواعد المباراة) نتيجة الاحترام المتبادل والموافقة أكثر من كونه نتيجة لطاعة الأوامر التمسكية .
- ٤ - نمو قدرة متزايدة واستعداد أكبر لاختلاف الظروف المحيطة بالسلوك الخاطئ في الاعتبار بدلاً من الحكم الآلى على العمل الخلقى .
- وبالنسبة للسلوك الإنسانى ككل يمكن النظر إليه على أنه يسير تبعاً لمستويات أربع يمكن أن تتخذ دليلاً على النمو الخلقى للطفل ، هذه المستويات هي :
- ١ - السلوك غير المتعلم أو السلوك الفريزى يتعدل بالنتائج الطبيعية للسلوك ، ومن أمثلة ذلك تعلم الطفل تلقائياً ألا يصدم رأسه ضد الأشياء الحادة أو الساخنة .
- ٢ - الثواب والعقاب كما يمارسهما الآباء والمعلمون وغيرهم من الكبار ، أى الفسوابط الخارجية .
- ٣ - القبول وعدم القبول الاجتماعى وخاصة من قبل الجماعة التى ينتمى إليها الطفل .
- ٤ - الأثر حيث تحرك الفرد وتسيره الرغبة فى عمل الخير العام ، ويمثل هذا أعلى المستويات الخلقية .

وفي الطفولة المبكرة يكون سلوك الطفل ليس خلقيا أو لا أخلاقيا ، أن حاجات الطفل الرضيع تشبه حاجات الحيوان ، بمعنى أنها فيزيقية-حسية ومباشرة، فيحاول أن يحصل على الإشباع المباشر لحاجاته وأن يتجنب الألم . وفي محاولاته لإشباع حاجاته يكون الطفل الصغير أنانيا متسلطا ومن خلال شعوره بالدفء والبرد والامتلاء والفراغ يحصل الطفل الصغير على الشعور بالخبرات الجيدة والخبرات (١) الرديئة .

ولقد ميز **بياجية Piaget** بين نوعين من الأخلاق :

١ - النوع الأول الذي يظهر مبكرا ، أو هو ما أطلق عليه اصطلاح (الأخلاق الموضوعية) **objective morality** وهنا تكمن الصحة والخطأ في بعض مظاهر السلوك ، ويمكن ادراكهما موضوعيا ، وهما يبنان أو واضحا بلأتهما ، فالطفل الصغير يعتقد أن أى شخص يستطيع أن يدرك خطأ أخذ أى شيء يخص الغير أو يخص شخصا آخر ، وبما لراى **بياجية** فإن الأطفال في سن الثماني سنوات يحكمون على أى سلوك ربما لتتألمه بصرف النظر عن الدوافع أو النوايا . التى تكمن وراء السلوك . وعلى ذلك فالطفل الذى كسر ، عرضا أو مصادفة أو قضاء وقدر ، مشرة أطباق هو أكثر « شقاوة » أو خطأ أو مشاغبة من ذلك الطفل الذى كسر عامدا متعمدا كوبا واحدا . ويعرود الزمن يصبح الطفل قادرا على استيعاب الافكار المجردة حول الخير والشر بوجه عام .

ويعتقد **بياجية** أن هناك انتقالا من الضبط الخارجى ومن الواقعية الخلقية الى النسبية الخلقية .

حيث يصبح حكم الطفل الخلقى نسبيا وليس حرقيا . يبدأ الطفل في تكوين فكرته من الصواب والخطأ عن طريق اكتشافه أن إشباع حاجته في الحب والدفء لا يتأتى الا عن طريق إرضاء أمه ، وعن طريق الحصول على موافقتها ، وهذا يضع الأسس الأولى نحو التعامل مع الناس ، فموافقة أو رفض الآباء تمثل الجذور الأولى للمعايير الخلقية . وفي دراسة هارتشون وماى وجد أن الأطفال من سن تسع سنوات يعملون طبقا للخير العام ويتعاونون فيما بينهم وتثيرهم دوافع الاحسان .

ويقرر **الـ Ilg** أن الطفل عند سن ثمانى سنوات يستطيع أن يميز بين الخطأ والصواب والخير والشر ، وفي الفترة ما بين ٥ ، ٧ سنوات تحدث زيادة في السلوك التعاونى وفي ادراك حقوق الآخرين .

وعلى الرغم من أن الجنوح يزداد انتشاره في مرحلة المراهقة ، إلا أن جذوره الأولى ترجع الى الطفولة المبكرة ، ولاشك أن النمو الداخلى الخلقى عامل أساسى محدد في إزالة السلوك

الجانح . في الطفولة المبكرة لا يدرك الطفل الصراع بين الامانة والولاء للاصدقاء . وكلما تقدم الطفل في السن كان أكثر وعياً وادراكاً لهذا الصراع ، وكلما تقدم الطفل في السن أيضاً كان أكثر قدرة على إدراك المطالب الثقافية والتوقعات الاجتماعية .

أما عن تطور الحكم الخلقى عند الطفل ، ففي مرحلة الطفولة المبكرة يسير الطفل حسب ما أسماه بياجيه « الخلقية الموضوعية » ومعنى ذلك أن العالم عبارة عما نشاهده فقط ، وليس هناك وجهات نظر متعددة ، وليس هناك نسبة ، فالاشياء إما بيضاء أو سوداء ، صواب أو خطأ ، فعلى قدر فهم الطفل فإن الآباء في نظره يعرفون كل شيء ، فإذا قالوا أن هذا خطأ فإنه خطأ ، فكل ما يقوله الآباء أو يفكرون فيه فهو صواب .

فالاطفال يحكمون على الأشياء حكمًا موضوعيًا ، أي دون أخذ الدوافع في الاعتبار ، تلك الدوافع التي دفعت الطفل نحو هذا السلوك ودون اعتبار للظروف المحيطة والملابس ، بل يتبعون « حرفة النص الخلقى » أو حرفية القاعدة في العايق . فالعقاب يتناسب مع حجم الخسارة المادية التي أحدثها الطفل ، وليس وفقًا لدوافع الطفل أو نواياه أو « سيق الإصرار والحرص » .

وعلى كل حال طبقاً لمنطق بياجيه فإن الطفل بالتدريج يتعلم أن القواعد الأخلاقية التي يضعها الكبار ليست مطلقة ، وبذلك يمكن تعديلها لكي تناسب الظروف المحيطة بموقف معين .

في المراحل المتقدمة تظهر المرونة في الأحكام الخلقية ، وعندئذ يدرك الطفل أن القاعدة الخلقية يجب أن تتعدل طبقاً للظروف ، بحيث تحقق الصالح العام والخير الأكثر ، فالطفل الذي تأمره الأسرة بالعودة فوراً بعد الخروج من المدرسة والذي ينفذ ذلك في حالة تعطل المواصلات العامة « بالشعبطة » في إحدى سيارات النقل ، وبذلك يعرض حياته لخطر الموت في سبيل تنفيذ تعليمات الأسرة بلقى عقاباً غير مفهوم بالنسبة له ، ففي هذه المراحل المتأخرة يدرك الطفل أن الحكمة في طاعة القوانين والقواعد الخلقية تكمن في تنفيذ روح القانون أكثر من حرفية القانون . (٤٢)

علاقة الذكاء بالأخلاق :

في بعض الدراسات وجد أن نسبة ذكاء مجموعة من الأطفال الأحداث الجانحين هي ٩٢٫٥ بينما كانت نسبة ذكاء مجموعة مماثلة من غير الأحداث الجانحين ١٠١٫٨ . إلا أن انخفاض الذكاء ليس عاملاً أساسياً في حدوث معظم حالات الأحداث (٤٣) الجانحين .

(٤٠) يشير الصراع لحالة نفسية فيها تجالِب الفرد بين هدفين أو مشرتين قد يكون احدهما مشراجبداً والآخر ضاراً ، أو كلاهما ضاراً أو كلاهما غير ضار الصراع الفرد بين الرغبة في التراء والغف من العقاب أو تلقيب الضمير . وهناك صراع الآبال - الإحجام ، وصراع الآبال - الآبال ، وصراع الإحجام - الإحجام .

(٤١) Breckenridge, M.E. and Vincent, E.E. Child development physical and Psychological growth through the school years, W.B. Saunders Co., London, 1949.

(٤٢) Brooks, A., Child psychology, Methuen and Co., London, 1951, P. 409.

لقد أجرى عدد كبير من الدراسات لتحديدكم وكيف العلاقة بين الذكاء والأخلاق . وفي مثل هذه الدراسات يقارن الاطفال اصحاب الذكاء المرتفع بالاطفال متوسطى او ضعيفى الذكاء ، يقارنون فى مستوياتهم الخلقية . ففى احدى الدراسات التى اجراها تيرمان Terman على ٣٢٥ طفلا ذكيا تزيد نسبة ذكائهم عن ١٣٠ وجد أنهم يتفوقون فى السلوك الخلقى على المجموعة الضابطة من الاطفال من ارباب الذكاء المتوسط . ولقد استنتج تيرمان ان الاطفال المتفوقين عقليا يتفوقون من الاطفال متوسطى الذكاء على اختبارات الامانة والصدق والسمات الخلقية المشابهة . وهنا يجب ان نتحفظ فى تفسير هذه الفروق وارجاعها الى الذكاء وحده ، ذلك لأن احدا لا يستطيع ان ينكر تأثير البيئة المنزلية وغيرها من العوامل الاجتماعية على الانحراف وعلى النمو الخلقى . لقد درس تأثير الذكاء على المستوى الخلقى من طريق مقارنة نسبة الاطفال ضعاف العقول بين جسامات الاحداث الجانحين . وعلى سبيل المثال وجد بيرت A. Burt % فقط من الاطفال ضعاف العقول بين الاحداث الجانحين (نسبة ذكاء اقل من ٧٠ %) وقد وجد كل من هيلى وبرونر فى دراستهما من الاحداث فى شيكاغو ويستون ١٣ % من ضعاف العقول ، اما هذه النسبة فى المجتمع العام فلا تتجاوز ١١/٤ % . (٤٤)

وفى نفس الوقت وجدت نسبة الجنوح الى الصعبة السبئية عند ٦٢% من الحالات . كذلك وجد هارتشون وماى معامل ارتباط قدره (٠.٥٥) بين الذكاء والفش ، بمعنى انه كلما زاد الذكاء قل الفش ، وكلما قل الذكاء زاد الفش . ويبدو ان تأثير الذكاء على الاخلاق نوعيا اكثر من كونه تأثيرا عاما ، فالاطفال الاكثر ذكاء كانوا اكثر تعاونا من الاطفال الانبياء والمتوسطين ، ولكن العلاقة بين الكرم والذكاء كانت ضعيفة ، اما العلاقة بين الامانة والذكاء فكانت عالية (٥) .

وفى احدى الدراسات وجد ان طفل التسع سنوات الموهوب عقليا يصل الى مستوى نمو خلقى يماثل طفل الرابعة عشرة من الاطفال غير المنتقين . ولكن الذكاء يساعد فى سرعة حدوث النمو مهما كان الاتجاه الذى يتخلده هذا النمو ، فاما : اخلاق حسنة او « جرائم خطيرة » . كذلك فلقد وجد ان الاطفال الاكثر ذكاء اقل غشاقى امتحاناتهم ، ولكن ليس ذلك بالضرورة لانهم اكثر خلقا ، بل ربما لانهم اكثر قدرة على حل أسئلة الامتحان بدون اللجوء الى الفش . ويبدو منطقيا ان نقول ان الطفل الذكى والطفل الغبى يختلفان فى قدرتهما على التنبؤ بنتائج اعمالهما ، كما يختلفان فى قدرتهما على الرؤية البعيدة للمزايا البعيدة فى الاهداف الرقبة ، وتفصيل ذلك على الاشباع المباشر لحاجاتهم الراحنة .

• من المعروف ان نسب الذكاء ١٠٠ تشير الى الطفل متوسط الذكاء وهو الطفل الذى يساوى عمره الفعلى عمره الزمني .

Jones, V., Op. Cit. P. 793.

(٤٤)

(٥) : راجع كتاب المؤلف « القياس والتجريب فى علم النفس والتربية » دار النهضة العربية - بيروت لتحديد معنى الترابط والطية والفرق بينهما .

وكما زاد ذكاء الفرد كان الفرد على اختيار العناصر المناسبة من بيئته وعلى تشكيلها وتسخيرها بما ينخدم أغراضه . كذلك لا يتعلم الذكي والفهمي بالتساوى حتى من نفس الموقف، أو من نفس البيئة ، والفروض أن يساعد الذكاء الفرد على الاستفادة من بيئته الى أقصى حد ، وعلى تعديلها اذا كانت غير مواتية ، وعلى تكييف نفسه للمواقف الصعبة . ولقد دلت دراسة تيرمان أن الأطفال الموهوبين يتفوقون على الأطفال المتوسطين في السمات والقيم الموجبة نحو النجاح الدلائل أكثر من السمات والقيم الموجبة نحو المسؤوليات والخدمات الاجتماعية، فالملحوظ أيضا أن الإذكياء يرتفع عندهم مستوى الطموح، وتنفذ المجموعة الموهوبة على المجموعة المتوسطة تفوقا أكثر دلالة في الإرادة والثابرة ، وتنفذ أقل في المشاركة الوجدانية والرقه ، كذلك وجد هارتشون وماي معاملا ارتباط قدره ١٦.٠ بين الذكاء ومساعدة الآخرين ، ومعاملا ارتباط قدره ٠.٩ بين الذكاء وروح التعاون .

ولكن لا ينبغي الاعتقاد بأن الضعف العقلي أو البقاء يؤديان بحد ذاتهما الى الجنوح ، هناك دائما عوامل متوسطة كثيرة ، فانخفاض الذكاء مثلا قد يقود الى الفشل والإحباط ، كما يقود الى كثير من الصعوبات في التحصيل الدراسي . كذلك فان مستوى طموح الفرد ينخفض في حالة الضعف العقلي .

كيف ينمو ضمير الطفل :

يظهر الضمير أو الذات العليا في اصطلاحات التحليل النفسي ، في سلوك الطفل تدريجيا . ففي بداية حياة الطفل يرغب في الاشباع المباشر لدوافعه أو لحاجاته بصرف النظر عن الاعتبارات الأخلاقية أو العملية ، فهو يطلب الطعام ويطلبه لأن وفي هذا المكان .

وبالتقدم في العمر يمتدئ السلوك الاندفاعي خلال الخبرة ، فيتعلم الطفل أن بعض استجاباته سوف يثاب عليها ، وأن بعضها الآخر سوف يجلب له العقاب ، وأن بعض مطالبه لا يمكن تلبيتها في الحال ، وأن بعضها الآخر لا يمكن تحقيقه مطلقا . وبمرور الوقت يصبح تجنب بعض مظاهر السلوك الذي كان يحدث نتيجة لقوة خارجية يحدث الآن نتيجة « للسلطة الداخلية » فيكف الطفل من الإتيان بالسلوك الخاطيء حتى في غياب الكبار ممثلي السلطة الخارجية في الطفل . وهنا يشعر الفرد بالذنب عندما يفشل في مقاومة الإغراء .

وتبعاً لنظرية فرويد هناك في كل شخص منطقة من الدوافع غير المستأنسة تشبه الحيوان في طبيعتها ، وعند الميلاد تحتوي هذه المنطقة على مجموعة من البواث العامة « الغريزة » ، وهي ما أطلق عليه اسم **الذات العنيفة** Id في هذا الدافع توجد قوتان مختلفتان هما :

١ - الدافع نحو الحياة ونحو الخلق والحب ، وهو الذي يسميه فرويد رغبة الحياة أو غريزة الحياة .

٢ - والدافع العدواني الهدام وهو ما أطلق عليه رغبة الموت أو غريزة الموت . وتبعا لوجهة نظر فرويد فإن الطفل تحكم « آنا الدنيا » حياته . فهو بلا قيود أو شعور بالأسف يسعى لتحقيق لذاته ، ويعبر عن دوافعه « الهدامة » نحو موضوعات العالم الخارجي .

وتشير آنا الدنيا في اصطلاحات فرويد الى الطبيعة البدائية وغير المفكرة واللامعقولة ، والتي تستهدف اشباع الفرائز مباشرة اشباعا كليا وعليها . ولكن بمرور الوقت ينمو تحكم الطفل ، ففي البداية يكون الطفل غير خلقى وغير اجتماعى ولا يتوقف عن السلوك غير المقبول الا في حضور الكبار اصحاب السلطة في العقاب .

اما **العنصر الثاني** في الشخصية الإنسانية في الفكر الفرويدي فهو الذات الوسطى Ego وهي مبراة من القدرة على التعامل عقليا بمعقولة مع الواقع ، وتنمو الذات الوسطى من الذات الدنيا، وتنمى مع مبدأ الواقع ، وتمثل العالم الخارجى وقيوده وتكاليفه وفروضه ومستلزماته . وهي القوة التى تدرك الحدود او الفواصل الواقعية التى تمنع من حدوث الاشباع المباشر لدوافع « الذات الدنيا » فتبعا لمنطق الذات الوسطى هذه فان تأجيل الاشباع يضمن لنا اشباعا اكثر كمالا في المستقبل . وتحتوى الذات الوسطى على اجزاء شعورية واخرى لا شعورية ، وهي التى تتصل دائما بالعالم الخارجى ، وتهتم بما يجرى في بيئة الفرد ، وعليها ان تفى بمطالب الواقع ، ومن ثم فانها تنادى الطفل الصغير قائلة : انك ينبغي ان تطيع امك ، لانها سوف تصفحك ان لم تفعل ذلك .

وعليها ان تشبع المطالب الداخلية للذات العليا وتقاوم ضغوط الذات الدنيا التى تدعو للانطلاق . وعلى ذلك فللذات الوسطى ثلاثة اسياذ هى :-

١ - البيئة او الحياة الخارجية او المجتمع .

٢ - الضمير

٣ - الذات الدنيا

وعلى ذلك فكلما نجحت الذات الوسطى في التعامل مع هذا المثلث تعاملنا حسنا وتحسن توازن الشخصية او اتزانها النفسى .

اما **العنصر الثالث** في تكوين الشخصية فهو تبعا لنظرية فرويد الضمير او الذات العليا ، وهنا نتساءل كيف يتكون او ينمو ضمير الطفل الصغير ؟

كلما نما الطفل نمت المعايير الداخلية ، تلك المعايير التى نسميها صوت الضمير الذى يرشد الفرد في سلوكه وفي احكامه الخلقية .

ويمثل الضمير معايير الفرد وقيمه ومبادئه ومثله العليا . انه السلطة الضابطة العليا في الانسان ، فاذا لم يستجب الفرد لندائه فانه سوف يعاقب عن طريق قوة داخلية من خلال الشعور بالذنب وكرهية الذات وتبليها . ويعطى فرويد أهمية كبرى لنمو الضمير في نضج الفرد،

فالفرد يظل غير ناضج حتى يعطى الاحترام اللاتم لقوانين المجتمع الذي يعيش فيه ، وحتى يصبح لديه ذوق جيد ، وبطبع القانون ، يحترم حقوق الآخرين ، ويشمر بالواجب .

ويلعب الضمير دور الأب ، او الأمر والمراقب او الملاحظ او الشرطي على كل حال من الذات الدنيا والذات الوسطى . انه يعمل كقاضٍ للأخلاق يحكم تبعا للمبادئ « المثالية » أكثر من المبادئ الواقعية ، انه يعمل من اجل الوصول بتصرفاتنا نحو الكمال المثالي . ويقال انه يحدد السلوك ، يقيمه او يمنعه ، ويتحكم في ضبطه ، وعلى الرغم من طبيعة الضمير الخلقية الا انه اذا أصبح حاداً او قاسياً أكثر من اللازم فإنه يظل يخز ويؤنب صاحبه على كل كبيرة وصغيرة ، بل حتى على مجرد الانكار السيئة ، حتى تلك الإنكار التي ينجح الفرد في اخفائها من الناس لا تنجو من عقاب الضمير عليها . وتؤدي حدة الضمير الى تكوين شخصية هياية مترددة . فاذا زادت سيطرة الضمير في الشخصية يصبح الفرد مبداً لمجموعة من المبادئ والتقاليد ، ومبداً لمشاعر الذنب والتائب القاسية . يقول فرويد ان الحياة الشخصية تشبه جبل الثلج العالم iceberg يفوق معظمه تحت سطح الماء . وعلى ذلك فالصراعات التي تحدث بين الذات الوسطى والذات العليا هي على المستوى اللاشعوري غير المرئي . وللمحافظة على توازن الفرد ينبغي ان تكون العلاقة بين الذات الدنيا والوسطى والعليا علاقة وثام وانسجام وتوازن . ولا ينبغي ان يكون الضمير قاسياً او حاداً جداً ، لأن ضعفه أكثر من اللازم يؤدي الى نشأة الانحراف السيكوباتي .

واخيراً فإنا ينبغي ان نشير الى انه رغم تقسيم فرويد العقل الإنساني الى هذه العناصر الثلاثة الا ان العقل الإنساني في الواقع وحدة ديناميكية متكاملة متفاعلة ، بل ان الإنسان نفسه وحدة جسمية نفسية واجتماعية متكاملة متفاعلة ، وان هذه العناصر ليست الا تجريدات عقلية لوصف انماط معينة من السلوك ، وليس العقل البشري مقسماً الى موجودات مستقلة بعضها من البعض (٤٦) فلا ينبغي ان نتصور ان الذات الدنيا والوسطى والعليا كائنات صغيرة تكمن داخل الإنسان ، وانما هي مجرد تجريدات يضمها الباحث الملاحظ لوصف انماط معينة من السلوك .

ولا شك ان فهم الضمير عملية اساسية في فهم سلوك الإنسان كله ، وهنا نتساءل عن العوامل المؤثرة في نمو الضمير ، وعلى الفور تبرز امانت الثلاثة عناصر اساسية هي :

١ - قيم الثقافة او مبادئها التي تكون جزءاً أساسياً من الشرعية التي تنتقل للطفل عبر الآباء والأمهات ، وتختلف تلك القيم من ثقافة الى أخرى ، فعلى حين نجد ان العدوان سلوك غير مرغوب فيه في اطار بعض الثقافات نجد ان تأكيد الذات تؤكد وتنتج ثقافة أخرى ، بينما تشجع ثقافة ثالثة الاعتراف الشخصي .

٢ - **نمو الطفل العقلي** ، فالطفل الأكبر سناً والأكثر نضوجاً من الناحية العقلية أكثر قدرة على إدراك وفهم ما نتوقه منه ، أنه يستطيع أن يفهم أسباب بعض التبولد والمعايير ، كما أنه يستطيع أن يفهم بعض المبادئ ، وأن يطبقها على العديد من المواقف . كذلك فإنه يستطيع أكثر من زميله الصغير ، أن يدرك المفاهيم المجردة التي تكمن وراء المسائل الاجتماعية مثل الإيثار أو المساواة أو العدل أو الحق أو الخير أو الصدق أو الشفقة .

٣ - **علاقة الطفل بأبويه** . هناك بحوث كثيرة استهدفت معرفة التأثير الوالدي على نمو ضمير الطفل . في دراسات « التنميط » التي أجراها كل من سيرز وماكوبي وليفين 1957. Sears, Maccoby and Livin طلب من أمهات الأطفال أن يحددن علامات نمو الضمير في سلوك أطفالهن . واتخذ لذلك معيارين هما :

١ - نزعة الطفل لكي يمثل الدور الأبوي ، أي بمحاولاته تعليم أخواته وأخوته وأصدقائه معايير الآباء .

ب - سلوك الطفل الذي يعقب عمل الخطأ ، أي محاولاته الاعتراف بهذا الخطأ أو الاعتذار عنه أو بإصلاح ما أفسده . وحدد مقدار نمو ضمير الطفل على هذا المقياس المكون من خمس نقاط هي :

١ - لا دليل على النمو إطلاقاً : حيث ينكر الطفل ، ولا يبدو عليه عدم السعادة عندما يكون « شقياً » .

٢ - أدلة بسيطة على وجود الضمير .

٣ - نمو متوسط للضمير : بما لا يعترف بالخطأ مباشرة ، ولكنه يبدو خجولاً أو جباناً ونادراً ما ينكر أخطائه .

٤ - ضمير لا يستهان به ونام بدرجة كبيرة .

٥ - ضمير قوي : حيث يشعر الطفل بالتماسة عندما يكون « شقياً » ودائماً يعترف ولا ينكر أبداً ، ولديه حاجة قوية للعفو أو الحصول على تسامح الآخرين .

وتتم عملية امتصاص الطفل لمعايير الكبار عن طريق عملية التقمص أو التوحد . فالتقمص القوي لشخصية الآباء يساعد على نمو ضمير الطفل . فلقد وجد (تبعاً لدراسات ميسون ودستلر 1960) Musson and Distler أن صبيان سن الحضنة الذين كانوا أكثر ذكورة ، وبما يسبب تقمصهم لشخصية آبائهم كانوا أيضاً متقدمين في نمو الضمير . كذلك وجد (في دراسة ستين) بعض الأدلة التجريبية أن الأطفال في مواقف الإفراء يقلدون النموذج الذي يخضع للإفراء ، ويوحى هذا أن الآباء يعملون كنموذج لابنائهم فيما يختص بالسلوك الخلقي ، فقد اهتم البحث العلمي بعاملين أساسيين فيما يتعلق بنمو الضمير .

١ - نوع التأديب الأبوي .

ب - دفء علاقة الاب - الطفل ، فيما يتعلق بالنشاط التأديبي في المنزل . كشفت دراسة التنميط أن الاسلوب السيكولوجي أى الاتجاه الموجه بالحب ، ذلك الذى يتمثل بالمدح والفقر ، وسحب الحب ، ساعد في نمو الصغير أكثر من الاسلوب المادى الفيزيقي المتمثل في المكافأة المحسوسة والحرمان والعقاب الفيزيقي.

وفي دراسة **مالك كوتون Mackinon** على طلاب الجامعة وجد ان الذين تجاوزوا المنوعات كانوا أولئك الاطفال الذين كان آباؤهم يتبعون نظاما فيزيقيا في التأديب أكثر منه نظاما سيكولوجيا .

ولكن هناك دراسة حديثة نسبيا (١٩٦١) أجراها كل من **بارتون وماكوبى والينسميث Burton, Macoby and Alinsmith** على اطفال سن الأربع سنوات من مقاومة الاغراء في الفشل لم تؤيده هذه النتائج ، ففى هذه الدراسة الأخيرة كان العقاب البدنى مرتبطا بمقاومة الاغراء أكثر من العقاب السيكولوجي أو استخدام العقل . ويدوان الاسلوب الفيزيقي والمباشر يؤثر في الطفل الصغير ، ولكن تحمل محطه الاساليب السيكولوجية التى تشجع التقصص مع الآباء يتقدم الطفل في السن ويحصل مزيد من النمو المعرفي **cognitive development** ويشبه التميز بين مناهج التأديب الفيزيقيّة والنفسية التميز بين اسلوب الاستقراء واسلوب الاحساس **induction and sensitization**

وقد قام بهذه المحاولة **ارنو فريد سنة ١٩٦١ Arnofred** . من بين الاساليب الاستقرائية استخدام الاستدلال مع الطفل او اعماله او نبذه او استخدام الشرح والتفسير ، ويثير مثل هذه الاساليب في الطفل ردود فعله لتجاوزاته ، وربما تصبح ردود الفعل هذه مستقلة عن المصادر الاصلية للعقاب . وعلى سبيل المثال فان الاستدلال مع الطفل الصغير يشرح النتائج والنتيجات لفعل ما ، سوف تشجعه على فحص واختيار تصرفات ، وعلى قبول المسؤولية من هذه الافعال .

وعلاوة على ذلك فان هذا المنهج ينمى قدرة الطفل على التعاطف او وضع نفسه في مكان الغير والاندماج ذهنيا في موقف الشخص الاخر عن طريق تحديد الآثار الضارة لسلوكه بالنسبة لوالديه والآخرين .

اما اسلوب الاحساس او الحساسية فيتقصر العقاب البدنى والرجز والتعنيف والتوبيخ . هذا الاسلوب يحصل الطفل شديد التأثير للخوف من العقاب الخارجى الذى يعقب تجاوزاته او اخطائه ، كما يعطى أهمية كبرى لمطالب الآخرين وتوقعاتهم . ومن طريق استخدام منهج « استكمال القصص » مع اطفال الصف السادس في احدهى المدارس الأمريكية وجدت علاقة بين نوع الاستجابة الخلقية للطفل واسلوب أمه في التأديب ، فالاطفال الذين استخدمت أماتهم الاساليب الاستقرائية كانوا أكثر ميلا لاستخدام أفكارهن الإصلاح او الترضية

وفكرة القبول في قصصهم ، بينما الأطفال الذين استخدمتهم امهاتهم الاسلوب الحسى عبروا عن نتائج خارجية لتجاوزاتهم في قصصهم .

ويصدد اسلوب الاباء التأديبي ايضا ميرز « هوفمان » Hoffman (١٩٦٣) بين التأديب التوكيدي القوى والتأديب غير التوكيدي وغير القوى ، النوع التوكيدي ، يتضمن العقاب البدنى والحرمان المادى ويؤدى هذا الاسلوب الى توجيه خلقى خارجى قائم على اساس الخوف من العقاب من الاكتشاف .

اما النوع الثانى فيتضمن سحب الحب ، وانماطا من التأديب الاستقرائى ، ويؤدى الى تكوين اتجاه خلقى داخلى يتميز بشعور قوى بالذنب . ولقد وجد « هوفمان » تأييدا لفكره بان المنهج الاستقرائى يؤدى الى شعور اكثر قوة من منح سحب الحب نظرا لفشل هذا الاسلوب الاخير في توجيه تفكير الطفل الى الامم التى يشعر بها الآخرون نتيجة لاختلاله . ان الادراك او الوعى بمشاعر الآخرين والتحقق من ان الطفل هو المتسبب في عدم راحة الآخرين ينهى ان يعمل على تنمية ضوابط واخيلة قوية (٤٧) .

ولقد وجد ان الاساليب الموجهة بالحب تنتشر بين امهات الطبقة الاجتماعية الوسطى ، اما الانماط الفيزيكية من التأديب فممتشرة بين امهات الطبقات الاجتماعية الدنيا . وفى دراسة « آرون فريد » اختارت امهات الطبقة الوسطى « الاستقراء » ، بينما اختارت « الاحساس » امهات الطبقة الدنيا . ان الاسلوب الفيزيقي المنتشر في بيوت الطبقة الدنيا لا يشجع التقصص ولا يؤدى الى تقوية الضوابط الداخلية The inner controls ولم تسفر الجهود التى بذلت لربط الضمير بممارسات محددة نوعية لتربية الطفل عن نتائج واضحة ، ربما لان الجو السيكلوجى العام في المنزل هو الاكثر اهمية من اى اسلوب نوعى محدد في تربية الطفل .

فلقد وجد ان التهديد بالنسحاب الحب ، وهو منهج سيكلوجى ، ليس له تأثير كبير اذا كانت الام « باردة نفسيا » او كانت ثابطة لطفلها اصلا .

وعلى العكس من ذلك فان هذا المنهج اثبت فاعلية كبيرة عندما كانت علاقة الطفل بامه علاقة قبول ودفع . ان الطفل غير القبول ليس لديه ما يخسره بممارسة العمل غير القبول .

لقد وجد ١٨٪ فقط من الاطفال المتبذون هم الذين حكم عليهم بان لديهم ضمير قوى بالمقارنة مع ٣١٪ من المجموعة المقبولة .

كذلك وجد ان الاطفال الذين يقلبهم آباؤهم كان لديهم ضمير اقوى من الاطفال الذين ينقلبهم الاباء .

ولقد وجد ان هناك سمتين في الاسرة ترتبطان بنمو الضمير او الذات العليا في الاطفال،
أى بوجود ضمير فعال يواجه السلوك ويرشده ، وهاتان الصفتان هما :

١ - الثبات او الديمومة consistency

٢ - اتحاد بين الثقة المتبادلة والقبول .

فالنمط الثابت للضبط الابوي وللتوقعات يعطى مواقف واضحة جلية لنمو السلوك
الايجابى ، وعلاوة على ذلك فان جو الثقة المتبادلة يساعد الطفل لامتناس قيم الآباء ومعاييرهم
فيقبلها الطفل على أنها معاييرهم .

ان نمو الضمير ينبغى أن يفهم لكى يفهم نمو الشخصية برمتها ، ذلك لان الطريقة التى
يعمل بها الفرد صراعاته العقلية هى جانب ثابت من جوانب شخصيته .

وليس هناك اقوى من توفير جو من الحب والدفع والحنان في العلاقة بين الآباء والاطفال
في نمو الضمير وامتلاك الضوابط الداخلية وتبنى قيم الآباء ومبادئهم ، تلك التى تعكس بدورها قيم
المجتمع ومعاييرهم .

وفي بداية المراهقة تلعب الثقة المتبادلة والقبول والثبات المتحد مع الدفع ، تلعب دورا
هاما في نمو الضمير القوي (٤٨) .

والآن لنتناول عملية التنشئة الاجتماعية بالمرض والتحليل لبيان الصلة الوثيقة بين النمو
الخلقي والروحي في هذه العملية .



تعريف عملية التطبيع الاجتماعى وأهميتها :

ان تحديد النمو الاجتماعى مسألة صعبة ، وذلك نظرا لتعدد الدراسات التى تناولت
موضوعات يمكن أن تخرج تحت هذا العنوان ، فدراسة الانفعالات والطموح والقيم والمعادنات
السلوكية والعلاقات الاجتماعية واللغة ، ودراسة موضوعات مثل الغضب والعدوان والفرقة والامان
والسعادة والضحك والتعاطف والسلوك الجنسى كلها تتصل بالنمو الاجتماعى ، كذلك هناك
دراسات متعددة تتناول موضوعات النمو الاجتماعى دون أن تحمل هذا العنوان ، ومن امثلة ذلك
دراسة جنوح الاحداث ونمو الاخلاق .

اما السلوك الاجتماعى فيقصد به السلوك الذى يتاثر بوجود الآخرين وسلوكهم ، او ذلك
السلوك الذى ينظمه المجتمع ، او السلوك الذى يقصد به التأثير في الآخرين كالتقادة مثلا فهو

سلوك يقصد به التأثير في اتجاهات الآخرين وفي سلوكهم . أما النمو الاجتماعى Social growth
Social interaction فيقصد به نمو الفرد في السمات التى تسهل التفاعل الاجتماعى
أى الإخذ والعطاء والتأثير والتأثر بالجماعة .

أما التطبيع الاجتماعى أو التنشئة الاجتماعية socialization فيقصد بها العملية التى
يكتسب الطفل بموجبها الحساسية للمثيرات الاجتماعية ، كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة
والتزاماتها، وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين ، وإن يسلك مثلهم ، فهى العملية
التي يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيا ، وتتضمن هذه العملية تعليم العادات الاجتماعية
والاستجابة للمثيرات الرمزية ، كما تعرف بأنها العملية التى تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم
مع بيئته الاجتماعية ، ويتم اعتراف الجماعة به وبصحيح متعاون معها وعضوا كفؤا فيها .

أما التوافق الاجتماعى فيقصد به تلاؤم الفرد وسلوكه لظروف المجتمع ومتطلباته ،
وبذلك يصبح التكيف الاجتماعى social adjustment حالة تلاؤم للمجتمع الذى يعيش فيه
أو البيئة الاجتماعية والوفاء بظروفه وشروطه ومتطلباته .

التأثير الاجتماعى social influence ويتضمن نوعية الأشخاص الذين يعرفهم آباء
الطفل والذين يتبادلون وإياهم الزيارة - ويقدر الطفل آباءه ، وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية
الوسطى ، أن يعرفونهم من أشخاص ، ولما يبدو أنه من حكمة ومعرفة . يقول الطفل : بابا ليس ضخما
أو قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير والناس المهيمون يدونه لبيوتهم ، ويغضرون أسبوعيا مبلغا
ضخما من المال (٤٩) .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع أطفال الطبقات الوسطى للضبط الأبوى ، ويسدو أن
التعليم الاجتماعى عموما يتقدم أسرع عندما تفوق نسبة التعزيزات الإيجابية ، أى المكافآت ، نسبة
العقاب .

كذلك وجد أن الثبات والديمومة في المعاملة تساعد في تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل
سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرهق في تصافيه .

أهمية عملية التطبيع الاجتماعى :

لأنك أن عملية التطبيع الاجتماعى هى أكبر إنجازات الفرد ، حيث يؤدى الفشل فيها الى
أن يعيش الناس حياة بائسة تامة ، ويعانون من سوء التكيف Maladjustment كما يخلطون
البؤس لغيرهم من الناس . بل أن الحروب ليست النتيجة للفشل اللدريج لعملية التنشئة الاجتماعية
في الجماعات ، وتحدث الصعوبات والأمراض الآتية نتيجة للفشل في عملية التنشئة الاجتماعية :

١ - اللهاان العقلى أى المرض العقلى أو الجنون Psychosis

Deilinquency	٢ - الجنوح أو الانحراف السلوكي
Alcohol addiction	٣ - ادمان الكحول
Psychopathy	٤ - السيكوباتية والجريمة .
Homosexuality	٥ - الجنسية المثلية
Mental deficiency	٦ - بعض أنواع الضعف العقلي
Neurosis	٧ - المصاب النفسى أو المرض النفسى .

ولسوء الحظ فان أكثر المجتمعات تقدما من ناحية العلوم الطبيعية والانتاج التكنولوجى مازال يفتقر الى علم صحيح للتنشئة الاجتماعية ، كما يحدث فى المجتمع الأمريكى الذى تنتشر فيه مثل هذه الاضطرابات والجرائم أكثر من غيره على الرغم مما حققه من تقدم علمى وقضى . اننا فى حاجة الى علم يحدد معالم عملية التنشئة الاجتماعية ، ولذلك نجد من يقول ان كل علم النفس « هو عبارة عن علم نفس اجتماعى » . ومن اكبر الفروض التى ينبغى امتناقها ان عملية التطبيع الاجتماعى عملية تعلم فى المحل الاول ، فليس الخير او الشر فطريا فى الإنسان ، ويحدث هذا التعلم نتيجة لتوجيهات الآباء ، ونتيجة للخبرة الشخصية للطفل ونتيجة للضغط الجسمى والعقلى والنفسى والاجتماعى . ويحدث التعلم على المستويين الشموى واللاشعورى .

ومن المبادئ الهامة فى عملية التطبيع ان هناك فروقا فردية واسعة فى مدى تطبيع الافراد او خضوعهم لعملية التطبيع . ولقد سقطت فكرة « البذرة السيئة » التى كانت توحى بالانتقال الورائى لسمات الشخصية الاجرامية والسيكوباتية . بل اننا لم نحصل على مسلات واضحة بين الحالة الوراثية ومعظم الامراض العقلية والنفسية بل حتى الضعف العقلى . ولكن هناك تفاعل قوى وفعال بين الجيلة أو الاستمدادية وبين البيئة الاجتماعية والمادية . هذا التفاعل قد يجعل من السهل او الصعب على طفل ما أن ينمو راشدا سويا منتظما عاقلا .

ولقد لاحظ بعض الباحثين تأثير حالة الحمل والولادة على شخصية الطفل . فقد لاحظ سوتناج (٥٠) (١٩٤١) ان الاطفال الذين مروا بحمل صعب كانوا أكثر نشاطا أو اندفاعا وتهيجا ، كذلك كشفت الدراسات الطولية للنمو longitudinal studies ان التفاعل بين البيئة المادية والاجتماعية من ناحية والتكوين الجسمى physique وكذلك وقت الوصول الى النضج الجسمى ومستوى النشاط يؤدي الى تأثيرات مختلفة على الشخصية .

وتلمب العوامل الآتية دورا هاما فى عملية التطبيع الاجتماعى :

١ - مركز الطفل أو تربيته فى وسط اخوته ، فالطفل الوحيد غير الطفل الاخير غير الوسيط ،

(٥٠) راجع « بحث حلقى للمؤلف عن « سيكولوجية المرأة العربية الطفل » ، البيئة العامة للكتاب . مصر (تحت الطبع)

والطفل الرغوب فيه غير المنبؤ ، والوحيد على عدد من البنات غير الموجود مع عدد كاف من البنات غير الموجود مع عدد كاف من الذكور... الخ .

٢ - سن الآباء ، فطفل الآباء المتقدمين في السن غير طفل الآباء الشباب .

٣ - البيئة المادية والاجتماعية المحيطة بالطفل .

٤ - الذكاء ، فالطفل ضعيف الذكاء اقل حساسية للمؤثرات التي تؤثر في التنشئة الاجتماعية .

٥ - التكوين الجسمي للطفل ، فالطفل القوي البنية غير الطفل الضعيف .

٦ - العلاقة بين الآباء والأطفال ونمط عمالة الطفل .

٧ - المستوى الاجتماعي والاقتصادي للأسرة .

٨ - انشاء الاسر قالي جماعات الاكثرية او الاقلية في المجتمع .

تتبع الدوافع الاجتماعية من المواقف التي يمتص منها الفرد المؤثرات الاجتماعية . هذه المؤثرات تكون في اول الامر خارجية بالنسبة للفرد . ان عملية نمو وتعلم التفاعل الاجتماعي والتي ينتج عنها ان يمتص الفرد Internalization المؤثرات الاجتماعية وبذلك تصبح مثيراته هو شخصيا ، وذوقه ورغبانه ، هو ، هذه العملية هي عملية التطبيع الاجتماعي (٥١) .

ان النتيجة النهائية لتنشئة الفرد الاجتماعية تظهر في اتجاهاته الاجتماعية social attitudes وافعاله واقواله في التعبير عن هذه الاتجاهات . كما تظهر في تعامله اليومي مع غيره من الناس وتفاعله مع الجماعات الاخرى ، ومسح نواحي ثقافته ، ويؤدي مثل هذا الاحتكاك الى نشأة اتجاهات محددة نحو هذه الاشياء . فالانسان لا يولد راسخا او شيوعيا او جمهوريا او ديموقراطيا ... الخ وانما هو يتعلم ان يكون ايا من هؤلاء بالخبرة والتجربة . (٥٢)

مراحل النمو الاجتماعي :

يذهب إيركسون Erikson (١٩٥٦) الى القول بان عملية التطبيع الاجتماعي تمر بثماني مراحل او اطوار ، وهو في ذلك متأثر بمفاهيم فرويد في هذه المراحل ، ولقد افترض هذه المراحل ، ليس بناء على اممال تجريبية ، ولكن من خلال عمله الطويل بالملاج النفسي ، وخاصة مع الأطفال والمراهقين ، من ابناء الطبقات الاجتماعية الدنيا والوسطى والعليا . وهذه المراحل مرتبطة اقل بالنظام المعنوي منها عند فرويد ، ولكنها اكثر ارتباطا بالتعلم الذي يحدث في المراحل المختلفة . ويعتبر إيركسون ان كل مرحلة مبارزة من لزمة نفسية تتطلب الحل قبل الوصول الى

(٥١) Sherif, M. and Sherif, G. An outline of social psychology Harper and Row, N.Y. 1956.

(٥٢) راجع باب الاتجاهات في كتاب المؤلف « علم النفس الاجتماعي » دار النهضة العربية - بيروت

المرحلة اللاحقة . ويعتبر هذه المراحل كالتطابق المعمارية: فالتعليم المرضى وحل كل مشكلة ضروري اذا كان للطفل أن يمر بالمراحل اللاحقة بنجاح ، بالمثل فان أساس المنزل يعد ضروريا بالنسبة للطابق الاول منه ، الذي ينبغي أن يكون قويا بدوره لتعضيد الطابق الثاني ... وهكذا .

وهذه المراحل التمتلي هي : -

١ - تعلم الثقة في مقابل عدم الثقة *mistrust-trust*
وتقابل هذه المراحل مرحلة الرضاعة ، وتشمل العام الاول او الثاني اذا تناولنا الطفل تناولا حسنا وتمت تغذيته وجبه ، فانه ينمي في نفسه الشعور بالثقة والامان ، والشعور الاساسي بالتفاؤل . واذا عومل معاملة سيئة فانه يفقد الثقة والامان . وجدير بالذكر ان فرويد اطلق على هذه المرحلة اسم المرحلة القمية :

٢ - تعلم اللدانية او الاستقلالية في مقابل الشعور بالعار . ويعتقد اريكسون أن الأزمة النفسية الثانية تحدث في الطفولة المبكرة (من ٢ - ٤ سنوات) وتقابل المرحلة الشرجية عند فرويد ، وهي المرحلة التي يحدث فيها أكثر مظاهر التعليم وضوحا وضبطا ، ونعني التدريب على عادات الاخراج ، ويخرج الطفل الذي يلقي معاملة والديه حسنة من هذه المرحلة متاكدا من ذاته ، سعيدا مبتهما يتمكن من الضبط الجديد القوي ، ويشعر بالفخر أكثر من شعوره بالعار .

٣ - تعلم المبادرة *learning initiative* في مقابل الشعور بالذنب .

ويعتقد اريكسون أن هذه الأزمة تحدث في سن اللعب او سنوات ما قبل المدرسة ، وتبدأ تقريبا من سن ٣ ١/٢ سنة ، وفي انائها يتعلم الطفل ، الذي ينمو نموا صحيا ، أن يتخيل وأن يوسع مهاراته من خلال اللعب النشط من كل الانواع بما في ذلك اللعب الخيالي ، كما يتعلم التعاون مع الغير وأن يقود غيره بالمثل كما يتبع أو ينقاد للغير . أما اذا اعاقه الشعور بالذنب فانه يصبح خائفا يقف دائما على هامش الجماعات ، ويستمر في الاعتماد على الكبار بدون حاجة فعلية الى ذلك ويميل نموه في مهارات اللعب *play skills* وفي الخيال . وتقابل هذه المرحلة تقريبا المرحلة القضيبية وعقدة أوديب في الفكر الفرويدى *A Phellic and Oedipal Stages* .

٤ - تعلم الاجتهاد *industry* في مقابل الشعور بالنقص *inferiority* .

وتحدث في سنوات المدرسة الابتدائية وقد تمتد لتشمل بعض سنوات المدرسة الإعدادية ، وهنا يتعلم الطفل اتقان المهارات الأكثر رسمية اللازمة للحياة ، كالتعامل مع الجماعة تبعا للقواعد والتقدم من الألعاب الحرة الى اللعب المنظم عمدا او المشكل طبقا للقواعد ، وقد يتطلب فريق اللعب ، وكذلك اتقان الدراسات الاجتماعية والقراءة والحساب . وهنا يشعر الطفل أن عمل

الواجبات المنزلية أصبح ضروريا ، وأن التأديب الذاتي يزداد تدريجيا . وهنا يصبح الطفل ، الذي فقد الثقة ، شككا في المستقبل ، والطفل الذي يشعر بالذنب من المراحل السابقة يشعر الآن بالهزيمة والنقص .

وتقابل هذه المرحلة مرحلة الكون عند فرويد .

٥ - تعلم الهوية identity في مقابل اضطرابات الهوية ، وتحدث هذه الازمة النفسية في نظره في سن المراهقة ، من حوالي ١٣ - ٢٠ سنة . فقد أصبح الطفل الآن مراهقا ، يستطيع ان يجيب اجابة مرضية سعيدة للتساؤل : من اكون انا ؟

ولكن احسن المراهقين كيفا يعانون من بعض الاضطراب في الهوية identity diffusion وخاصة الذكور ، حيث يعانون من جنوح بسيط يظهر في شكل عصيان أو تمرد rebellion والخجل والشك الذاتي ، وهنا تنمو نظرة المراهق للمؤمن - ويكتسب اليقين الذاتي في مقابل الشك الذاتي والحساسية الذاتية . فيقوم بادوار ايجابية في الغالب بدلا من اعتناق الهوية السلبية (كالجنوح) فيحاول المراهق الناجح ان يحصل على بعض الانجازات بدلا من الشلل من جراء مشاعر النقص . وفي المراهقة المتأخرة يكتسب المراهق الرجولة ويكتسب المراهقة الانثى صفة النسائية ، وأحيانا يسمى للتعبئة والتدريب بنمى نمطا من المثل المرغوبة ، وفي الغالب ما يلعب المراهق عدة ادوار حتى يجد اكثرها ملامحة له .

٦ - تعلم الصداقة الحميمة intimacy في مقابل العزلة . لأول مرة يشعر المراهق الناجح بالصداقة الحميمة والحقة .. التي يمكن ان يقوم على اساسها الزواج الناجح أو الصداقة المستديمة .

٧ - تعلم الانتاجية generativity في مقابل الاستغراق في الذات self-absorption في مرحلة الشباب المبكرة يتطلب النمو النفسي تعلم الانتاج سواء في الزواج أو الابوة وفي العمل وفي الابداع أو الابتكار .

٨ - تعلم التكامل integrity في مقابل اليأس despair اذا مرت الأزمات السبع الماضية بنجاح فإن الشباب الناضج يصل الى قمة التكيف الى التكامل .

فهو الآن يثق في نفسه ويشعر بالاستقلال ، ويعمل بجدية ، ويجد لنفسه دورا محددا في الحياة وينمى في نفسه مفهوما من الذات self-concept ويكون سعيدا بهذا المفهوم . يصبح ودودا دون توتر أو ذنب أو اسف أو بعد عن الواقعية ، ويصبح فخورا بما يتكر أو ينتج من اولاد وبعمله أو هواياته . أما اذا فشل في حل أى من الازمات السابقة فإنه يشعر باليأس والاشمئزاز .

هذه المراحل ليست الا وصفا لفظيا لكيفية نمو الشخصية . ذلك لان المهم هو تحديد الظروف البيئية التي تساعد الطفل على نمو هذه الصفات الإيجابية وغيرها .

ان التطبيع الاجتماعي هو عملية تعلم تحصيل الكائن البشرى من جالة الطفولة او الرضاعة ومن حالة الضعف والانانية الى حالة الراشد المثالي الذى يدين بالامتثال المقبول sensible conformity مع وجود سمات الاستقلال والابتكار (٥٣) والخلق والابداع .



التنشئة الاجتماعية في الطفولة المبكرة :

تستخدم المجتمعات طرقا مختلفة في العناية بالطفل ، بل انه في داخل المجتمع الواحد تختلف هذه الطرق من طبقة اجتماعية الى اخرى . ان المؤثرات الثقافية تبدأ في التأثير في شخصية الطفل في اليوم الاول من ميلاده ... وتؤثر الام في الطفل عن طريق اسلوب معاملتها اياه في التغذية وطرق اطعامه . والمعروف ان الام تسمى لتحقيق هدفين من وراء تفضيته هما :

ا - تفضيته

ب - تدريبه على تناول الطعام بطريقة صحيحة .

التغذية مسألة فيسيولوجية وان كان هناك بعض الثقافات التى تفضل الاطفال السمان ، بينما هناك ثقافات اخرى تفضل الاطفال الناحلين . وتستهدف « ام » الطبقة المتوسطة ان يتدرب طفلها على تناول طعامه بدون ضوضاء او احداث اصوات ، وبدون ان يسكب على نفسه ، وان ياكل كل الطعام من طبقه ، وان يستخدم ملعقة وشوكة وسكين بطريقة سليمة . بل ان نظام تغذية الاطفال يتغير داخل المجتمع الواحد بمرور الوقت ، فقد تغيرت هذه العادات في المجتمع الامريكى منذ عام ١٩٢٠ حتى يومنا هذا عدة مرات على القليل فيما يختص بمدد الوجبات وموعدها كل وجبة . ففي العشرينات كان اطباء الاطفال يوصون باتباع نظام منظم في تغذية الاطفال مكون من ٣ وجبات يوميا . اما المستشفيات فكانت تتبع نظام تقديم اربع وجبات يوميا هي كالآتي :

١ - الساعة ٦ صباحا

٢ - الساعة ١٠ صباحا

٣ - الساعة ٢ بعد الظهر

٤ - الساعة ٦ مساء

٥ - الساعة ١٠ مساء

٦ - الساعة ٢ صباحا .

اما الآباء فكانوا يرغبون في اتباع نظام يشبه نظام الكبار في الطعام ، ولذلك حذفوا وجبة السادة الثانية صباحا ، ولكن الثقافية ينبغي ان تجرد نمو الطفل عن طريق وضع أنظمة صارمة في تغذيته ، وبالطبع لم يكن نظام الاربع وجبات هذا ملائما لكل الاطفال وكان على الآباء ان يتحملوا بعضا من صراخ الطفل قبل الوجبات .

وفي الاربعينات بدأ يتحول الاتجاه نحو نظام الطلب الذاتي Self-demand schedule وبموجب هذا النظام يقدم الطعام للطفل كلما يكي طلبا له . والتقييد الوحيد الذي وضع في احدى الدراسات كان ضرورة انقضاء ساعة كاملة بين اى وجبة والاستجابة لطلب الطفل للطعام . ولقد تبين ان معظم الاطفال كانوا يطلبون الطعام بعد ثلاث ساعات ، ونادرا ما كانت تصل هذه المدة الى اربع ساعات وخاصة في الاسبوع الاول من الميلاد . وكانت هذه المدة اطول اثناء الليل عنها اثناء النهار (٣.٦ في مقابل ٢.٩ ساعة) وبالطبع يتغير النظام المرغوب بتقديم الرضيع في السن . واستمر هذا الاتجاه في التزايد حتى اصبح هناك حاجة الى الاستفادة من نظام الانتظام في الوجبات . ومزايا الطلب الذاتي اى الايمان بنظام معين دون ان تكون مبيدا لهذا النظام ، مع مراعاة فردية كل طفل . والقصد من خضوع الطفل لنظام الوجبات الثلاث او الاربع ، هو خضوعه للمعايير الحضارية فيما بعد ، ويؤثر الغذاء تأثيرا اكثر عمقا في شخصية الطفل اذا لاقى صعوبات فيما يختص بالغذاء حيث يشعر بعدم الامان ولا يحتاج الطفل فقط لتفريغ زجاجات الطعام في جوفه بطريقة آلية بل انه في حاجة الى الحس . ولقد وجد الطفل في حاجة الى الانتصاب لمدة ساعتين يوميا والا فطر الى مص اصابه او ملابسه او لعبه أو أشياء أخرى . كذلك لعملية الطعام اثر نفسي قوى اذا تمت بطريقة ناجية او قاسية تؤدي الى صعوبات انفعالية يعاني منها الطفل . (٥٤)



المؤسسات التي تسهم في عملية التطبيع الاجتماعي:

تتبادل عن المؤسسات التي تسهم في عملية التطبيع الاجتماعي هذه ، ومن اول هذه المؤسسات التي تؤثر في نمو الطفل الاسرة ؟

دور الآباء :

ان عملية التطبيع الاجتماعي لا تعتمد على الطفل وحسب بل على الآباء ايضا ، لانها على القليل بمفهوم الضبط الاجتماعي ، لا تحدث الا اذا كان الآباء يعززون سلوك الطفل او يكافونوه عليه ، فاذا لم يتم الآباء بدور تقديم التعزيزات والمكافآت للطفل فان عملية التطبيع الاجتماعي سوف تتأخر او تعاق . ويتحقق تعزيز سلوك الطفل عن طريقة عناية الآباء بجسمه ودفئه ومأكله ومشربه ، على شرط ان يتم ذلك كله بطريقة رقيقة في اثناء تغذيته وتنظيفه

واستحمامه وتغيير ملابسه ووضع في الفراش على شرط ألا يتم ذلك ببرود أو بطريقة آلية ميكانيكية ، وإنما يصاحبه تقبيل الطفل « الدندنة » أو التودد إليه والترتيب عليه ولس جسمه ولذليكه والفناء له حتى ينام .

ولقد وجد رينجولد (١٩٥٦) Rheingold أن حاجيات الطفل المصحوب بالمشيرات الاجتماعية بما في ذلك الاتصال الجسدي به ، يؤدي إلى خلق طفل أكثر استجابة من الناحية الاجتماعية من قضاء مثل هذه الحاجات بطريقة فائرة باردة وبكفاءة ولكن دون علاقات شخصية ولكن مثل هؤلاء الأطفال يسرعون في النمو الاجتماعي عندما يتغير نمط معاملة الآباء معهم ، ويشعرونهم بالرعاية والرفقة والحب ، كذلك وجد أن الرضيع يصبح قادراً على الاستجابة الاجتماعية وتزداد عنده عندما يستجيب الكبار بطريقة اجتماعية لاستجابات الطفل الصوتية المعبرة Vocal responses وينبغي تدريب الطفل على الاستجابة الاجتماعية أو توجيهها إلى القنوات الصحيحة عندما يبدأ في اظهار مثل هذه الاستجابات ، وذلك حتى تصبح مقبولة لدى الآباء والأخوان والأخوات ، ثم المجتمع ككل ، بحيث يظهر الطفل الاستجابات اللائمة في السن اللائمة ، فاستجابات الفناء وإشارات « باي باي » مناسبة لسن عام واحد ، ولكنها غير ملائمة لسن مدرسة الحضانة ، كذلك تبليبل الفراش مقبول في سن عام واحد ، ولكنه غير مقبول في سن الأربع سنوات . وبالمثل البكاء من أجل الطعام مناسب في سن ٩ شهور ، ولكنه غير ملائم في سن ٩ سنوات مثلاً . فهناك حاجة إلى مزيد من الضبط والتوجيه لسلوك الطفل منذ الوقت الذي يبدأ فيه في عمل الاستجابات الاجتماعية حتى يصبح مدنياً أو متحضراً خاضعاً للقانون ، ونسبياً راشداً كبيراً ، وغيرياً أو غير إنساني .

وتبدأ عملية الضبط الاجتماعي والتكيف أو التلاؤم مع تفاعل الطفل مع الآباء ثم مع أسرته ، ثم تستمر مع زملاء اللعب والأقارب والمدرسين ، وينبغي على أي مؤسسة تعمل لتحقيق التطبيع الاجتماعي أن تقدم نمطاً من الآتي :

١ - المكافآت

٢ - القبول

٣ - السماح

٤ - العقاب

بحيث يكسب الطفل الاتجاه نحو طاعة القانون واللياقة الاجتماعية في سن الرشد ، وبحيث يصبح سعيداً وهادئاً قادراً على القيام بدور الذكر أو الأنثى المطلوب ممن هم في مثل سنه ، وقادراً مهنيًا على كسب عيشه .

نمط الآباء في التصرف :

لا شك أنه ، للمرور في مراحل النمو المبكرة ، هناك حاجة ماسة إلى توجيه الطفل ومن البديهي أن يكون المنزل هو المصدر الأول لتقديم مثل هذا التوجيه ، ويمكن تمييز منهجين في مثل هذا التوجيه هما : -

١ - اتجاه سيكولوجي قائم على الحب والمكافآت غير السالبة . هنا يسمح الحب أو يهدد بسحب ، كما لا تعطى للطفل زجاجة الطعام في نفس اللحظة التي يطلبها فيها . وإذا أصبح « شتيا » ينزل من الأباء وهو يشناق الى النشاط واللمب، ولكن ينبغي أن يبقى لبعض الوقت داخل عرته أو حجرته . يرى الطفل مثل هذه النماذج من الحرمان كتهديد بانسحاب الحب ، ولذلك فإنه يعمل ، فيما بعد ، على تعديل سلوكه لكي لا يفقد هذا الحب . وهناك أشكال أكثر تعقيدا من التهديد بسحب الحب كالحرمان من الملاطفة أو العناق أو الترييت أو الابتسامة أو كلمة المديح التي يتوق إليها الطفل .

٢ - يعتمد المنهج الثاني على الأشياء المادية، ويتراوح ما بين انزال العقاب البدني الى حرمان الطفل من الطعام لتحويله الى السلوك الطيب . في حالة منح الحب تعمل على توضيح أن المعنويات تلتفت انظار الآخرين وانتباههم، لها أهمية خاصة . ويعلمه الأباء الضبط الذاتي خوفا من فقدان الحب .

أما المنهج السوء فإنه يعلم الطفل الخوف من الأشياء المحسوسة المادية ، وهنا يقول الطفل لنفسه لابد أن تكون حسن السلوك حتى لا ينكشف أمرك وتزال العقاب ، فالضبط هنا من خلال الشعور بالعار . أما في منهج الحب فالضبط من خلال الشعور بالذنب ، ولكن إذا كان الشعور بالذنب قاسيا جدا فإنه يشل حركة الطفل ونشاطه . أما الشعور بالعار فيعتمد على توقع رجل الشرطة في كل مكان يترصد الطفل للأخطاء .

ولقد اضع إن منهج الحب أكثر فاعلية من الناحية الاجتماعية بحيث يتجنب الطفل الخلل في غيبة الكبار أو ممثلي السلطة ، ويمكن تمييز نوعين من التعزيز في معاملة الأباء للطفل :

١ - تعزيز ايجابي reinforcement ويمثل في عبارة الأم « ماما تحبك لآنك عملت كذا وكذا .. او ماما سوف تمطيك كذا وكذا اذا عملت كذا ... »

٢ - تعزيز سلبي ، ويمثل في قول الأم لطفها « ماما لن تحبك اذا عملت كذا وكذا .. او ماما سوف تصفك اذا عملت كذا وكذا »

وواضح ان التعزيز الإيجابي يمنع المكافآت، أما السلبي فيعطي العقاب ، وهنا تسأل ، أيهما أكثر فاعلية في تعليم الطفل الثواب أم العقاب ؟ هناك أدلة تجريبية مؤداها ان الطفل يتعلم أسرع اذا تلقى كلا من الثواب والعقاب في التعزيز ، فالتعزيز الإيجابي لتعليمه ما ينبغي أن يعمل ، والتعزيز السلبي يعلمه ما لا ينبغي عمله . وعلى ذلك فإذا تلقى الطفل تعزيزات من النوعين فإنه يحاط علما بصورة أكثر شحولا مما لو تلقى تعزيزات من نوع واحد .

وتتضح هذه الفكرة من أبحاث كل من هارتوب وموز وسيجار Martup, Moore and Sager الذين وجدوا (١٩٦٣) ان الأطفال الذكور الصغار يتعلمون الأدوار الجنسية الملائمة اذا منحت لهم المكافآت على السلوك بطريقة فيها ذكورة ، ويبحثون عن اللعب الذكورية ، وبما يتبعون عندما يعملون أعمالا بنائية أو أنثوية أو يبحثون عن لعب ودمى البنات ، وبالنسبة للإناث ، على

العكس من ذلك ، فكانت تعطى لهم المكافآت عندما يحثون عن الأشياء « البنائية » بما في ذلك اللعب ،
وكن يهملون عندما يتصرفون بطريقة « سلبية » أو يسمعون للحصول على لعب الصبيان ، بل إن فاعلية
التعزيزات تتوقف على الطريقة أو الأسلوب الذي يمنع به التعزيز . فلقد وجد أن التعزيز ، سواء
كان إيجابيا أم سلبيا ، عندما يمنع مباشرة وبثبات أو ديمومة واستمرارية وبسخاء أو بكرم فإن
التعلم يتم بسرعة أكثر منه عندما يكون مؤجلا ، أو بدون ثبات أو ضعيف أو هزيل أو قليل ، ولكن
هذا الفرض يحتاج الى كثير من الدراسات ، لأن كمية التعزيزات تبعا لهذا الفرض ، تغير كمية
التغيير في السلوك ، ومعنى هذا أننا إذا أردنا أن نضاعف من السلوك الحسن في سلوك طفل
ما فأننا نضاعف من مقدار ما تعطيه له من مكافآت . كذلك فإن التعزيز الجزئي يحصل
الطفل نواحا الى المزيد من التعزيز ، فيواصل العمل الجيد ، أما إذا حصل على كل التعزيز
فإنه يفقد الاهتمام بمزيد من تحسين السلوك .

الى وجود الأب في الأسرة :

ما هو التأثير الذي يتركه وجود الأب في الأسرة على شخصية الطفل لقد أجريت دراسات
كثيرة منها دراسة سيمز Sears (١٩٥١) ووجدان الصبيان الذين نشأوا في بيوت مع الآباء كانوا
أكثر عدوانا على القليل في خيالهم من زملائهم الذين غاب الأب عن منزلهم .

كما كانوا أكثر ثقة ، وكانوا أكثر استعدادا لتأجيل الحصول على مكافأة صغيرة في سبيل
الحصول على مكافأة أكبر ، ولكننا مؤجلة . كذلك وجد أن الأطفال الأكبر سنا والأكثر ذكاء كانوا
أكثر استعدادا لتأجيل الإشباع المباشر . كذلك وجد مولتون Moulton (١٩٦٦) أن الآباء الأكثر قوة
وحبا هم أكثر قدرة على إنتاج أطفال يضبظون أنفسهم بواسطة ضمايرهم ، وأن الأطفال
الذكور الذين يتأخر آباؤهم بالقوة والحب كانوا أكثر ذكورة منهم عندما تكون الأم هي الشخصية
القوية والمحبة . كذلك وجد جروسيك Grusec (١٩٦٦) أن الكبار الذين يكافئون كثيرا يحصلون
الطفل أكثر استعدادا لنقد نفسه (أكثر عما يلوم الآخرين مثلا) وذلك بالمقارنة بالآباء الذين لا يكافئون
أطفالهم سواء كانت المكافأة بالمعطاء أو المقاب .



مصادر القوة في عملية التنشئة الاجتماعية :

يحدد ولوتز Wolowitz (١٩٦٥) مصادر القوة التي يتم خلالها تقديم التعزيزات بأنها : -
١ - القوة الفيزيقية ، ويدركها الطفل مبكرا ، ويستمد أن والده يمتلكها أكثر من
والده .

٢ - القوة الجنسية ، ولا يدركها الطفل إلا متأخرا نسبيا حيث يدرك أن والده به مثلان
قوة جنسية ، وإذا كانت العلاقات الجنسية مجرد علاقات شهوانية أو بهيمية بحتة فإن فكرة
الطفل عن الجنس تنمو سيئة .

٣ - الحكمة ، وللأسف فإن الحكمة في المجتمع العاصر لا تبدو محترمة كما ينبغي .

٤ - التأثير الاجتماعي ، ويتضمن نوعية الأشخاص الذين يعرفهم آباء الطفل والذين يتبادلون وإياهم الزيارة ، ويقدر الطفل آياه وخاصة طفل الطبقة الاجتماعية الوسطى ، لمن يعرفهم من أشخاص ، ولما يبدو منه من حكمة ومعرفة ، يقول الطفل . . « بابا ليس ضخما أو قوى الجسم ، ولكنه يعرف الكثير ، والناس المهمون يعزونه لبيوتهم ، ويحضر البيت اسبوعيا مبلغا ضخما من المال (٥٥) » .

وربما يرجع لهذا السبب خضوع أطفال الطبقات الوسطى للضبط ، ويبدو أن التعليم الاجتماعي عموما يتقدم أسرع عندما تفوق نسبة التميزرات الايجابية اى المكافآت نسبة العقاب .

كذلك وجد ان الثبات أو الديمومة في المعاملة تساعد في تعلم الطفل ، حيث يتعرف على تعديل سلوكه بحيث يحصل على ما يريد ويتحاشى ما يرغب في تحاشيه .

تفسير عملية التطبيع الاجتماعي :

هناك نظريات كثيرة لتفسير عملية التطبيع الاجتماعي . ان نمو الفرد يتوقف على مدى رؤيته وردة فعله لقوى التطبيع الاجتماعي التي يستخدمها المجتمع معه . يضع المجتمع الصورة التي يرغب ان يكون عليها نساؤه ورجاله . ويضع عدة قواعد لارشاد الآباء والمعلمين في ذلك ، ولكن كيف يرى الطفل هذه العملية ؟ وما هي المفاهيم والقوى التي تكمن في داخل الطفل والتي تعدد نوع استجابته لهذه المؤثرات الاجتماعية ؟

هناك اتجاهان نظريان في عملية التطبيع الاجتماعي هما :

أولاً : نظرية التحليل النفسي ونظرية التعلم الاجتماعي ، فكلاهما يرى ان الراشد الكبير هو المحصلة النهائية لعملية تعلم الأسرة والبيئة كما يراها الطفل ، وكما يؤثر فيه ، اى تعاليم الأسرة والبيئة . فاذا كانت هذه القوى معتدلة كان الطفل سعيداً ، واذا كانت مؤذية أو ضارة كان الطفل تمساً . فالكائن الحي تصقله وتشكله خبراته ، فيصبح جيداً أو سيئاً تبعاً لجودة أو سوء مثل هذه الخبراته .

تصنع النظرية التحليلية توكيدا اكثر من نظرية التعلم الاجتماعي ، على بعض مراحل النمو التي تؤثر فيها الخبرات اكثر من غيرها من المراحل . وهذه السن تبدأ من الميلاد حتى سن السابعة . أما نظرية التعلم الاجتماعي فتري أن الطفل كائن قابل للتعديل والتغيير في اى سن كانت .

ثانياً : الاتجاه الثاني يذهب الى الزعم بأن قوى النمو في داخل الكائن البشرى هي في الاساس خلاقة ، فاذا كان الطفل مقبولا ، واذا لم توجد الابواب امام ابداع حاجاته ، فانه ينمو شخصا سعيدا خلقيا واجتماعيا . مثل هذه النظرية لا تقلل من اثر التعلم . وانما هي فقط تدعى انه اذا أعطى الطفل ظروفًا بناءة فانه سوف يوجه نفسه نحو القنوات البناءة . ونحو

التعلم النشط دوراً أقل في هذه النظرية عنه عند فرويد وفي نظرية التعلم الاجتماعي. والعنصر الأساسي في بيئة الطفل هو القبول ، وكان جان جاك روسو هو أول من قال بمثل هذه النظرية في كتابه « اميل » وما زال يمتنقها كثير من علماء النفس من أمثال كارل روجرز وماسلو Maslow وجيلز Gessell وروجرز Rogers وإن كانوا يختلفون عنه في بعض التفاصيل .

ويمكن تشبيه هاتين النظريتين بحالات من مجال البستنة فالنظرية الأولى ينطبق عليها المبدأ القائل : كما ينشئ الجذع نمو الشجرة على غوازه .

وعلى ذلك يوصى بتوفير البيئة الجيدة ذات التربة الصالحة والضوء والماء والتخصيب الضروري ، ولكن التعليم أو التشذيب الفعال والتشكيل والتطعيم والتسميد لابد من ممارستها. والنظرية الثانية أيضاً تطالب ببيئة ذات تربة ملائمة وضوء وماء وربما أيضاً سماد ، ولكنها تميل إلى الاعتقاد بأن الطبيعة لديها أفضل مفرق من كيف تنمو الشجرة .

فالتقليم والتطعيم والتشكيل والتسميد والتلقيح التمهيني تترك كلها للمجرى الطبيعي للحدوث وللطبيعة المفترية للكائن. النظرية الأولى تنادي بمزيد من التعلم النشط كعمل مرغوب ، والثانية تنادي بقليل من هذا التعلم . وطبقاً للنظرية الأولى فإن الطفل سوف يصبح اجتماعياً وغريباً وإثاريًا ووالقا من نفسه للحد الذي يلزمه لكي يكيف نفسه مع الآخرين ولكن يشبع حاجاته . وتتوقف سهولة هذه العملية على مدى كفاءة المعلم ومهاراته ، وعلى مدى ملائمة وكفاءة وفعالية عملية التدريس . وطبقاً للنظرية الثانية فإن بذور عملية التنشئة الاجتماعية تكمن في الناس ، وسوف تصل إلى أقصى درجات النضج في بيئة تمتاز بالقبول واللفظ ، ولكنها بيئة سلبية . وربما يضع جيزل كثيراً من الأهمية للاستعدادات الموروثة للوراثة أكثر من كارل روجرز ، فجيرل لا يقبل القول بأن إعطاء الفرد البيئة المناسبة سوف يؤدي إلى نموه النمو الملائم .

والواقع أننا لا نعرف الصحيح من هاتين النظريتين ، بل ربما لا نصرف إذا كان كلاهما صحيح أم خطأ ، فكلأهما يضع وزناً كبيراً على جوانب البيئة في التنشئة الاجتماعية . فالنظرية الأولى يمكن وصفها بأنها نظرية تعليمية ، بينما النظرية الثانية ارتقائية . ويمكن اعتبار فرويد ممثلاً للنظرية الأولى وجيزل ممثلاً للثانية . النظرية الفرويدية تؤكد دائماً النزعة الاجتماعية النظرية في الإنسان ، بمعنى أن الطفل الصغير الاناني يجب أن يتحول إلى شخص راشد كبير إيثاري قادر على تأجيل لذاته .

ونظرية التعلم الاجتماعي لا تضع التراضات إزاء هذه المسألة ، ولكنها تفترض أن الإثارة وتأجيل أشباع الذات يتم تعلمهما أكثر من كونهما فطريتين ، ويضع جيرل كما يضع فرويد تأكيداً كبيراً على توابع ونواحي النمو ، ولكن فرويد لا يضع كل الأهمية - كما يفعل جيرل - للوراثة كعامل محدد للفروق الفردية بين الناس :

الشيوخوخة في المجتمع الانساني المتغير *

أحمد أبوزيد

اعتبر ذلك ايلانا بيده الاهتمام بميدان جديد من ميادين البحث الاجتماعي ، كان مهملًا الى حد كبير حتى ذلك الوقت ، واخذ اهتمام السوسولوجيين والانثربولوجيين يزداد

حين اصدر عالم الاجتماع البريطاني المعاصر بيتر تاونسند Peter Townsend كتابه المتع من « الحياة العائلية لدى كبار السن The Family Life of Old People (١)

(١) سبق ان اصدرت المجلة عددا خاصا بالشيوخوخة ، ونظرا لأهمية الموضوع توالي المجلة نشر بعض الدراسات الأخرى من حين لآخر - التحرير .

(١) اعتمد تاونسند في تأليف كتابه على دراسة عميقة أجراها في الفترة بين ١٩٥٤ ، ١٩٥٧ في حي Bethnal Green في لندن ودرس الناحية مالتى حالة للشيوخ متقاعد من العمل . وكان السبب الرئيسي وراء هذه الدراسة هو الازدياد الضخم بالقلق في بريطانيا على المسنين الذين كانوا يتزايدون في العدد بسرعة عالية والذين كانوا يعانون من الوحدة والعزلة والافتقار نتيجة لتسريحهم بالأعمال من وظائفهم والفرص ومن الدولة على السواء . وليس أدل على ذلك من أن ١٤٪ من سكان النقلة كانوا معاقين على المشي ومتقاعدين عام ١٩٥١ ، وهي نسبة عالية ، وكان هناك احساس بأن هذه النسبة في ارتفاع مستمر . وقد شملت عينة الدراسة حالات من المسنين وكانت كل مقابلة تستغرق حوالي مساعتين كانت تستخدم فيها الاستمارة والمقابلة المقترحة ، وكثيرا ما كانت زيارة المؤلف تكرر لنفس الأشخاص مرتين وثلاث مرات وأحيانا أربع مرات لاستكمال المعلومات ، ولكن الباحث كان يعتمد بالإضافة الى ذلك على بعض المصادر الأخرى التي تلى موزعا من التسود على وضع الشيوخ والمسنين بصفة عامة .

خاصة أساسية في دورة الحياة بأكملها ، وكانوا بالتالي يميلون الى فهمها على أنها جزء له مقراء في عملية الحياة ، بينما كان الأطباء يهتمون بالشيخوخة نظرا لما يلعبه الطب في علاج امراض الشيخوخة ومحاولة اطالة الحياة عن طريق التغلب على المرض والعجز (٢) . وكان قد سبق ذلك كله مرحلة كان الاهتمام فيها بدراسة الشيخوخة يعتمد على التأمل النظري البحث في الأغلب ، وأن كانت هناك الى جانب ذلك بعض المحاولات الجادة للقيام بالبحوث الامبيريقية او حتى التجريبية التي لادامى اللغوض فيها هنا . ولكن على الرغم من هذا كله فان دراسة تاونسند تعتبر أحد المساهمات الرئيسية في البحوث الاجتماعية العلمية الدقيقة، بحيث يمكن القول انها ارسيت قواعد الدراسة السوسبيولوجية في هذا المجال الهام ، وبحيث نجد عددا من تلاميذ تاونسند يكرسون جهودهم للدراسة الشيخوخة من زواياها المختلفة ، ويصدرون في ذلك عددا من الكتابات والدراسات التي شجعت على القيام بدراسات مماثلة خارج بريطانيا ، مما ادى الى آخر الامر الى ان اصبح علم الشيخوخة علما اجتماعيا يقدر ماهو علم بيولوجي ، بل لقد اخذ علماء الاجتماع والانثروبولوجيا في السنوات الأخيرة يسيطرون سيطرة كبيرة على دراسات الشيخوخة ، ويسلطون كثيرا من الاضواء على النواحي والمظاهر الاجتماعية لمشكلة الشيخوخة ، وهي المظاهر التي لا يعطيها الأطباء وعلماء البيولوجيا ما تستحقه من عناية وذلك بسبب تخصصهم الدقيق . ولكن المهم هنا هو ان الاهتمام بدراسة الشيخوخة من الناحية الاجتماعية اهتمام حديث نسبيا رغم ما احرزته من نجاح وتقدم . وان معظم المحاولات التي يابدونها تدرس المشكلة في جامعات وفئات معينة بالبلدات ، او في مجتمعات محلية محددة

بدراسة الشيخوخة كظاهرة اجتماعية ، وبحياة كبار السن والشيخوخة في المجتمع العربي المتقدم ، والعلاقات الاجتماعية التي تقوم بين مختلف الاجيال ، والدور الذي يلعبه الشيخوخة في حياة المجتمع المعاصر والمشكلات التي يعانون منها ، ونظرة المجتمع والدولة اليهم والخدمات التي تقدم لهم ، ويقارنون هذا كله بما يحدث في المجتمعات التقليدية والمتخلفة او النامية والجماعات « البدائية » التي لم تصل بعد الى مرحلة التصنيع ، والتي لا يزال نظامها الاقتصادي يعتمد على اشكال أكثر بساطة ، مثل الجمع والاتقاط او صيد السمك او قنص الحيوان او الرعي او الزراعة البسيطة .

وليس معنى هذا ان دراسة تاونسند كانت أول دراسة على الاطلاق يطبق فيها المنهج العلمي وتتم بطريقة علمية منظمة ودقيقة . بل الواقع انه هو نفسه كان قد تأثر بعدد من الدراسات التي ظهرت من قبل ، والتي عالجت مشكلة الشيخوخة في بعض المجتمعات المحلية في بريطانيا ، كما انه يبدو ان عددا من الدراسات حول الموضوع ذاته كانت قد اجريت في بعض الدول الأوروبية ، وبخاصة في فرنسا ، حيث نجد بالبلدات سلسلة طويلة من مشروعات البحوث الكبرى عن سيكولوجية الشيخوخة تتم تحت اشراف سولان بيكو Suzanne Becand التي كانت تهتم في المحل الأول بتغيرات السن واثرها في الذاكرة ، وفي الوظائف العقلية والسيكولوجية ، وكذلك تأثير التعليم على تراجع هذه الوظائف عند المسنين . كذلك كانت هناك دراسات كثيرة تعالج الشيخوخة من الناحيتين البيولوجية والطبية ، خاصة وأن علماء البيولوجيا في دراساتهم للكائنات العضوية العليا ذات دورة الحياة القصيرة كانوا يعتبرون الشيخوخة

(٢) انظر في ذلك John E. Anderson, "Research on Ageing" in Burgess, E. W. (ed.) : Ageing in Western Societies, A comparative Survey, Chicago University Press, 1960, 1969.

المعلومات المتعلقة بالشيخوخ والشيخوخة في هذه المجتمعات الأخيرة بوجه خاص . والواقع أن كثيرا من النظم الاجتماعية لدى القبائل الأفريقية والأمريالية و قبائل الهنود الصمر وغيرها يصعب فهمها أن لم يؤخذ في الاعتبار موقف تلك المجتمعات من الشيخوخ والمكانة الاجتماعية التي يتمتعون بها هناك ، والأدوار التي يقومون بها ، والوظائف التي يؤديها في تماسك الجماعة .

فالمجتمعات القبلية التي توصف عادة في الكتابات الأنثروبولوجية بأنها مجتمعات بدائية أو « متخلفة » تختلف في نظرتها إلى الشيخوخ والشيخوخة اختلافا كبيرا من المجتمعات الحديثة المتقدمة ، وبخاصة المجتمعات الصناعية . وربما كان السبب الرئيسي في تلك الاختلافات هو أن الظروف والأحوال العامة في المجتمع « البدائي » أو البسيط أو المتخلف لا تسمح إلا لنسبة ضئيلة جدا من السكان بأن تعيش حتى مرحلة الشيخوخة المتقدمة ، وذلك نظرا لانخفاض مستوى العناية الطبية والتربية الصحية أو التثقيف الصحي هناك ، وتفشي الأمراض والأوبئة والمجاعات التي تقضي على نسبة كبيرة من السكان في مرحلة الطفولة أو الشباب . ولذا فإن الشيخوخة كعملية بيولوجية تكاد لا تكون مفهومة تماما عند هؤلاء « البدائيين » حيث يموت الناس في العادة في سن صغيرة نسبيا وهم لا يزالون قادرين على العمل وعلى المشاركة في الحياة . ومن هنا فإن عدد الأشخاص الذين يحتاجون فعلا إلى الرعاية في الجماعات القبلية قليل نسبيا ويكاد لا يعتبر عبئا على الجماعة إلا في الحالات التي يتعرض فيها المجتمع ككل إلى المجاعات الشديدة . وعلى ذلك فإن الشيخوخة من حيث هي مشكلة تحتاج إلى حل ليست قائمة هناك بنفس المعنى الذي نجهده في المجتمع الصناعي الحديث الذي وُلّف فيه الشيخوخة مشكلة ضخمة تحتاج إلى تكوين مؤسسات تتولى أمر

لتحقيق أكبر قدر ممكن من الدقة العلمية ، ولإمكان التعمق في التحليل . وعلى الرغم من تزايد الدراسات والبحوث الاجتماعية والأنثروبولوجية والسيكولوجية في هذا المجال، فإن هذه الدراسات والبحوث لا تزال قليلة إذا هي قورنت بما حققه الأطباء وعلماء البيولوجيا الذين كان لهم غير شك فضل السبق في دراسة ظاهرة الشيخوخة عند الإنسان .

وعلى أية حال فإن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا في دراساتهم للشيخوخة يأخذونها على أنها أكثر من مجرد تغييرات بيولوجية وفسولوجية وفيزيائية تطرا على الجسم البشري نتيجة للتقدم في السن ، ويعتبرونها ظاهرة اجتماعية تتمثل في موقف معين ينفقه المجتمع من الفرد ويفرض عليه بمقتضاها قيودا وحدودا وقواعد سلوكية يلتزم بها ، كما تتمثل من الناحية الأخرى في موقف معين أيضا ينفقه الفرد نفسه من نفسه ومن الآخرين ، ويشتمل في التزامه بتلك القواعد والقيود والمبادئ التي يضعها له المجتمع ، كما يتمتع من كثير من الأمور التي كان يبيحها لنفسه قبل أن يصل إلى تلك السن . ويقول آخر أن علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا يعتبرون الشيخوخة إحدى الراحل التي يمر بها الفرد خلال دورة الحياة ولإبسها مظاهر سلوكية وقيم اجتماعية معينة ، كما أنها في الوقت ذاته منزلة اجتماعية يحتلها الفرد بحكم السن التي وصل إليها ، ودور اجتماعي يلتزم بالتزام به وأدائه . . . وربما كان هذا أوضح في المجتمع البدائي والتقليدي منه في المجتمع الصناعي الحديث .

(١)

لقد اهتم علماء الأنثروبولوجيا بالذات بدراسة هذا الموضوع وتتبع ظاهرة الشيخوخة في الأساطير والتراث القديم وفي المجتمعات القبلية « البدائية » ولدينا ذخيرة هائلة من

الاقتصادي ، إذ أنهم يظلمون بدور حيوي له أهميته في عملية الإنتاج ، ونعني به الشعائر والطقوس السحرية والدنيوية التي تعتبر عنصرا أساسيا لضمان نجاح أية عملية إنتاجية ، ويستوى في ذلك صيد السمك أو قص الحيوان أو تغليح الأرض أو بلر أو حصص المحصول أو غير ذلك . فهذه كلها أنواع من النشاط الاقتصادي لا يمكن البدء فيها إن لم تسبقها شعائر وطقوس معينة يقوم بها الشيوخ ، وتعتبر مهدة لذلك النشاط ومتمة له . ومن هنا فإن علماء الأنثروبولوجيا الذين اتبعت لهم فرصة دراسة الدور الذي تلعبه هذه الممارسات السحرية والدنيوية في الحياة الاقتصادية يعتبرونها بالعقل جزءا من عملية الإنتاج ، مما يعني بالتالي أن الشيوخ يسمون بالعقل أيضا في الإنتاج ، وأن كان المجهود الفيزيقي الذي يبذلونه في ذلك عديم الأثر ، أو على الأقل غير واضح تماما .

والأمثلة كثيرة على ذلك :

فبعض علماء الأنثروبولوجيا من أمثال مالمينوفسكي Malinowski وإيفانز بريتشارد Evans-Pritchard وفيرث Firth يميزون بين « أنواع » السحر المختلفة حسب وظائفها ، ويذكرون ضمن هذه الأنواع السحر الانتاجي Productive الذي يهدف إلى تحسين الانتاج ووسائله وتنظيم العمل ، والتحكم في عوامل الطبيعة التي تساعد على ذلك مثل المطر . ومالمينوفسكي بالذات يعطى لهذا السحر جانباً كبيراً من اهتمامه ، وهو يدرس عناصر الانتاج في المجتمع البدائي وبخاصة مجتمع التروبرياندي Trobriand الذي درسه ، ويشير بوجه خاص إلى ما يسميه بسحر الحدائق Garden Magic ، وهو السحر الذي يمارسه الناس هناك بقصد تحقيق محصول وافر من نبات اليام Yam الذي يعتبر الغذاء الرئيسي عندهم ، وبدون ممارسة هذا السحر لن تغلح

الشيوخ والعناية بهم ، ووضع القوانين والقواعد والتنظيمات التي تنظم حياة هؤلاء الشيوخ ونهزم بتوفير مستوى اقتصادي واجتماعي معين لهم بعد أن استغنى المجتمع من خدماتهم . وليس ثمة شك في أن التكافل الاجتماعي القائم على أساس الروابط القرابية في المجتمعات البسيطة والتقليدية ، والذي يقضى على أعضاء الجماعة القرابية الاهتمام والعناية بأمر أفراد الجماعة من الشيوخ والمقدمين في السن ، يساعد مساعدا فعالة على حل مشكلات الشيوخ في تلك المجتمعات . وما يخفف من وطأة الشيوخ على الشيوخ أنفسهم وعلى بقية أفراد الجماعة في وقت واحد أن تلك المجتمعات البسيطة وبخاصة « البدائية » منها تحاول بقدر الامكان الافادة من هؤلاء الشيوخ ومن خبراتهم العميقة في شؤون الحياة ، ومن هنا فإنها تحدد لهم مركزا معيناً ودورا يمتنع عليهم ادائه ، وانواما محددة من النشاط الاجتماعي - أو حتى الاقتصادي - تتناسب مع مفههم الفيزيقي النسبي بحيث لا يشعر المجتمع بأنه يتحمل نهمهم مسؤوليات ثقيلة أو أنهم يشكلون عبئا يصعب حمله ماداموا يؤدون لهذا المجتمع وظيفة لها أهميتها بالنسبة اليه على ما ذكرنا من قبل .

والواقع أن الشيوخ خلق المجتمع « البدائي » والتقليدي تعتبر في حد ذاتها إنجازا له أهميته ومكانة متميزة ، وتجلب لصاحبيها الاحترام الذي يتناسب مع المركز الاجتماعي السامي الذي يحتله في الحياة الاجتماعية . فاهمية الفرد في المجتمع البدائي لا ترتبط بالفروءة بقدرته على الانتاج الاقتصادي ، أو على الاصح بالمجهود الفيزيقي الذي يبذل في عملية الانتاج . إذ ليس من شك في أن العمل الشاق الذي يتطلب لياقة بدنية عالية وقدرة فيزيقية كبيرة إنما يظلم به الشبان . ولكن هذا لا يعنى اطلاقاً عدم مشاركة الشيوخ في النشاط

على العموم باسم « صانئ المطر » . ومهمة « صانع المطر rain-maker » هي القيام بالصلوات والادعية الخاصة بالاستسقاء واستنزول المطر في سنوات الجذب ، ولذا كانت وظيفته من أهم الوظائف المكمل للحياة الاقتصادية في تلك الشعوب . (٤)

ومن التسليم بأن أفرادا قلائلا فقط هم الذين يمارسون هذه المراسم والطقوس في تلك المجتمعات نتيجة لضربهم ودرابتهم بفنون السحر ، فإن القيام بهذه الممارسات يعتبر وقفا على الشيوخ والتقدمين في السن ممن يصدقون هذه الفنون ، بل أنه ليس من المفروض ان يقوم بإداء دور « شيخ الأرض » أو « صانع المطر » أو أن يمارس سحر الحقائق وغيره من أنواع السحر الانتاجي الأخرى إلا من يكون قد بلغ مرحلة معينة من العمر هي مرحلة الشيخوخة ، أي أن هذه الأدوار تعتبر بالضرورة من أدوار الشيخوخة ومن أوجه النشاط التي ترتبط بالضرورة بتلك المرحلة . وربما كان هذا أوضح في المجتمعات القبلية التي تقوم تنظيمها الاجتماعي على ما يعرف باسم نظام أو نسق طبقات العمر age-set system.



الزراعة ولن تحقق محصولا وفيرا . ويقوم الشيوخ بإداء تلك الممارسات والطقوس ، ويعتبر ذلك هو الأسهم الذي يسهمون به في النشاط الاقتصادي ، على الأقل في ميدان الزراعة (٥) كذلك نجد منذ كثير من القبايل الأفريقية تدخل العناصر الغيبية المتعلقة بالألهة والأرواح والعوالم في النشاط الاقتصادي ، وهي عناصر يشرف عليها الشيوخ وكبار السن في تلك الجماعات . فالشعوب النيلية مثلا تعرف ما يسمى بنظام « شيخ الأرض » ، وهو من الرؤساء الدينبيين الذين يتمتعون بقوة روحية خارقة ، وبمكانة دينية عالية ، ويشرف على توزيع الأرض في كل موسم زراعي بين العائلات المختلفة التي يحق لها زراعة تلك الأرض ، كما أنه يقوم بالصلوات والادعية والطقوس قبل الشروع في زراعة الأرض حتى يضمن نجاح الحصول وإبعاد الآفات من الزراعة . وتعتمد هذه الشعوب أن زراعة الأرض بدون الرجوع إلى هذا « الشيخ » وبدون القيام بهذه المراسم والطقوس ، سوف يؤدي بالزرع والمحصول . وهذا نفسه يصدق على بعض الزعماء الروحانيين والدينبيين في تلك المجتمعات القبلية ذاتها ، وفي بعض المجتمعات النيلية الحامية في شرق أفريقيا والذين يمارسون

(٢) النظر بوجه خاص كتاب مالتينوفسكي من حقائق الرجان وسحر الحقائق وهو بعنوان :

Malinowski, B., Coral Gardens and Their Magic.

كذلك راجع ما ذكرناه في ذلك المصد في الجزء الثاني من كتابنا : البناء الاجتماعي (الانساق) ، صفحة ١٢٨ خاصة حيث نقول ان الاستاذ مالتينوفسكي يذكر في كتابه Argonauts of the Western Pacific كثيرا من الطقوس التي يمارسها سكان جزر التروبرياند قبل الخروج الى رحلات التبادل القروية باسم الكولا ، وانهم يمارسون سحر الحقائق أو « سحر الزراعة » حتى يضمنوا ليس لطف لجاح الحصول ، بل ولكي يحصلوا أيضا على ثمرات كبيرة من نبات الأيام الذي يمتصون بزراعته . « فسكان هذه الجزر يتنافسون فيما بينهم على الحصول على بذرات كبيرة الحجم يتظنون منها مصدرا للتفاخر فيما بينهم . ولكنهم يصلون الى ذلك ليس لطف بفضل الجهود الكبيرة التي يبذلونها فلا في الزراعة والعناية بالطبوعول ، بل وايضا عن طريق ممارسة نوعين من السحر ، احدهما يهدف الى نجاح زراعة الشسفي وكبر حجم العشرات التي تنبت لاربعه ، والاخر يهدف الى افساد زراعة لير من الزراع الذين يتنافسون معه . وكان من نتيجة ذلك ظهور نوع ثالث من السحر يحاول كل منهم ان يظلم به ليعمل السحر الذي يوجه خصومه الى زراعته وهكذا » . وليس من شك في ان الشيوخ وكبار السن هم الذين يقومون بهذه الممارسات السحرية التي تلزم تأثيرا مباشرا في الحياة الاقتصادية .

Seligman, C. G. and Brenda Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan,

(٤)

Routledge 1932, pp. 195-200 ; 326-34 and 398-404.

المنزلة . وعلى هذا الأساس فإن (طبقة العمر) تختلف تماماً عن (مرحلة العمر) التي تطلق عادة على تلك الأقسام المعروفة التي تنقسم إليها حياة الفرد من حيث هو فرد من الطفولة إلى الشيخوخة ، وذلك بعكس الحال بالنسبة لطبقة العمر التي لها معنى اجتماعي وجماعي ، ولا ينظر للفرد فيها إلا باعتباره عضواً في تلك الجماعة أو (الطبقة العمرية) .

فكانه يمكن حصر الفوارق الأساسية بين هذين النوعين من التقسيم ، أي طبقات العمر ومراحلها ، في نقطتين : الأولى هي أن الرجل الفرد لا يستطيع بحال أن يغير طبقة العمر التي ينتمي إليها . فولادة الفرد أو تكريسه في طبقة عمر معينة يمتد انتماؤه إلى تلك الطبقة طيلة حياته . بينما هو ينتقل بالطبع وبحسب نموه من مرحلة عمر معينة إلى المراحل التالية بمرور الزمن وبفعل تقدمه في السن . والنقطة الثانية هي أن فكرة التماسك والتمايز التي تعتبر ركناً جوهرياً في (طبقة العمر) لا تظهر على الإطلاق في (مرحلة العمر) . فطبقة العمر هي جماعة من الناس تتميز بانحادها وتضامنها في أداء واجبات وأعمال معينة مرسومة ، كما تتمتع كوحدة بحقوق وامتيازات محددة ، وتؤدي - كوحدة أيضاً - وظائف معينة في الحياة الاجتماعية بشكل لا يتوفر في مرحلة العمر . وهذا هو ماسبق أن ألمنا إليه حين ذكرنا أن طبقة العمر لها معنى اجتماعي بينما يصطبغ مفهوم مرحلة العمر بصبغة فسيولوجية غالبية . ومع ذلك ، فهناك علاقة وثيقة بين الاثنين ، إذ لا يمكن فهم نظام طبقات العمر إلا بدراسة هذه الطبقات في ضوء علاقتها بالمراحل العمرية التي يمر بها الإنسان في حياته ، وذلك على أساس أن احتلال الطبقة

ويظهر نظام « طبقات العمر » في عدد من المجتمعات « البدائية » التي يقوم التفاضل الاجتماعي فيها على أساس السن أو العمر وليس على أساس الثروة مثلاً كما هو الحال بالنسبة للثاللية العظمى من المجتمعات . وليس المقصود من (العمر) هنا السن الفسيولوجية أو المراحل العمرية التي يمر بها الفرد في حياته من الطفولة إلى المراهقة والشباب إلى الرجولة الكاملة ، إنما المقصود هو تقسيم أعضاء المجتمع - وبخاصة الذكور منهم - إلى جماعات وفئات طبقية بحيث تشمل كل جماعة منها جميع الأفراد الذين ينتمون إلى سن معينة ، مما يؤدي في آخر الأمر إلى ترتيب السكان جميعاً في طبقات تلو احداها الأخرى ، ويقف كل منها موقفاً معيناً من بقية الطبقات التي تملؤها أو تأتي دونها في السلم الاجتماعي ، كما تعمل الطبقة الواحدة وتصرف في كل شؤون الحياة الاجتماعية ككل أو كوحدة متماسكة . (٥)

فكان طبقة العمر هي جماعة محددة منظمة تضم جميع الأشخاص الذين ينتمون إلى سن واحدة ، وغالباً ما تتألف من الذكور وحدهم . وتتكون طبقة العمر في المادة من الأشخاص الذين يكرسون معاً في وقت واحد . وبمجرد التحاق الشخص بطبقة عمر معينة نتيجة تكريسه فيها فإنه يظل معتبراً عضواً في تلك الطبقة طيلة حياته . ويطلق على كل طبقة عمر في كثير من الأحيان اسم واحد يعرف به أفراد الطبقة جميعاً ويشتركون في حملته ، كما أنهم يشغلون جميعاً نفس المركز الاجتماعي ويتبعون نفس أنماط سلوكه في مصالمتهم بعضهم بعضاً ، ويتخذون موقفاً واحداً إزاء غيرهم من الناس ممن ينتمون إلى طبقة العمر التي تملأ طبقته أو التي تكون أدنى منها في

(٥) يوجد هذا النمط من التمايز الاجتماعي في مجتمعات معينة بالذات في إفريقيا وأمريكا وبعض جزر المحيط الهندي وعلى قبائل استراليا ، ولكنه لا يمثل بوضوح وفيه في أي منها كما يمثل في شرق إفريقيا منذ مجموعة الشعوب المعروفة باسم النسيوب نصف Hamites Half-Hamites وبخاصة منذ القبائل النيلية الطبيعية أو النيلو حامية Nilo-Hamites وهي كلها مجتمعات تتلبد بتقسيم سياسي معين .

بوظيفة المحاربين الا بعد تقاعد الطبقة التي تقوم بالفعل بهذه الوظيفة وتنازلها عن السلطات المخولة لها لتلك الطبقة الجديدة الناشئة . ويتم هذا في معظم المجتمعات التي تعرف هذا النظام كل خمس عشرة سنة ، وبمقتضى ذلك تحدث نقلة الى أعلى في كل مكونات البناء الاجتماعي مع احتفاظ البناء ذاته بشكله وبالنسب القائمة بين تلك المكونات . أى ان الطبقات كلها تنتقل من مرتبة إلى أخرى أعلى منها في ترتيب تصاعدي كلما تكونت طبقة جديدة ، ولكن العلاقات النسبية بين الطبقات التي تشغل مختلف المراتب تظل كما هي بدون تغيير . واختلاف الطبقات يستتبع بالضرورة اختلاف المرتبة والمركز . والطبقة تعتبر في أدنى مستويات التمايز الطبقي بعد تكوينها مباشرة وتصل الى أعلى تلك المستويات حين تقترب نهايتها ، أى حين يموت معظم افرادها بفعل السن وتلك تختفي من الوجود .

ويختلف عدد المراتب الاجتماعية التي تمر بها طبقة العمر الواحدة من مجتمع لآخر وان كان ثمة ميل عام الى التمييز بين ثلاث مراتب أساسية هي البطولة والرجولة الكاملة والشيخوخة . وقليل من هذه المجتمعات يعتبر الطفولة مرتبة تشغلها الطبقة لفترة معلومة من الزمن . ولكل مرتبة من هذه المراتب وظيفة خاصة بها . فالبطولة وظيفتها الحرب كما سبق أن ذكرنا ولكن هذه الوظيفة تتضمن بالضرورة وظيفة أخرى هامة هي الوظيفة الاقتصادية ، لأن الحرب في كثير من الأحيان يكون القرض منها شن الاغارات على معسكرات الاعداء لسرقة الماشية (الإبقار) التي تلعب دورا هاما جدا في الحياة الاجتماعية كلها علاوة على قيمتها الاقتصادية ، وذلك على اعتبار ان الماشية هي أداة دفع المهر ودفع الدية وتقديم القرابين والاضحيات الى الآلهة في تلك المجتمعات الوثنية وهكذا . وتربط مرتبة الرجولة الكاملة بالاستغفال بامور الحياة المعنية

مركزا اجتماعيا معينا ، وانتقالها من مستوى اجتماعي الى مستوى آخر أعلى منه يرتبط بالانتقال التدريجي بين مراحل العمر المختلفة ، كما ان الطبقات التي ينقسم اليها سكان المجتمع تنوزع في المادة بين مختلف المراحل العمرية (انظر في ذلك مقالنا من : « نظام طبقات العمر - دراسة في الانثروبولوجيا المقارنة » - مجلة الآداب جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣) .

وليس هنا مجال تفصيل القول في الشعائر التي تمارس لتكوين طبقة جديدة او لاحاق الشبان المراهقين بهذه الطبقة الجديدة ، وهي الشعائر التي تعرف عادة باسم شعائر التكريس Initiation ceremonies ويكفى ان نقول ان هذه الشعائر هي التي تحدد تكوين الطبقة والأشخاص الذين ينتمون الى الطبقة الواحدة ، وانها قد تستغرق عدة سنوات حتى يسمح لمعد كبير من الشبان بالدخول فيها لتكوين طبقة واحدة قوية ومتماسكة ومتعاونة ، وذلك قبل أن يطلق موسم التكريس ولعمري سنوات أخرى طويلة تتراوح بين سبع سنوات وخمس عشرة سنة قبل أن يبدأ موسم جديد للتكريس لتكوين طبقة جديدة وهكذا .

وتعرف الطبقة الجديدة دائما باسم طبقة الابطال المحاربين لانهم يتولون الوظيفة الحربية ، أى الدفاع عن ارض القبيلة او الهجوم على القبائل الاخرى المعادية . وتظل هذه الطبقات تمارس هذه الوظيفة حتى يتم تكوين طبقة عمرية أخرى ترويع طبقة المحاربين من وظيفتها وتحتل مكانها ، بينما ينتقل المحاربون القدامى الى مرتبة اجتماعية أعلى هي مرتبة شيخوخة العشرة ، وهذا يؤدي بالضرورة الى لرحلة جميع الطبقات الاخرى الموجودة بالفعل ونقلها الى مراكز أعلى من تلك التي كانت تشغلها قبل تكوين الطبقة الجديدة ، أى أن الطبقة الناشئة لامتداس حقها في القيام

طبقات الشيوخ كلها في هذه المهمة التربوية الحيوية بالنسبة للمجتمع وللمحافظة على كيانه واستمرار تقاليده وقيمه الاجتماعية والثقافية . بل ان الحرب الهجومية ذاتها او الاغارات التي هي وظيفة طبقة الأبطال المحاربين لا يمكن ان تبدأ الا بعد استئذان شيوخ العشيرة ولتقى بركاتهم ودعواتهم التي تعتبر عنصرا أساسيا هاما لنجاح الاغارة او الحملة . والواقع ان الانتصار في الحرب ونجاح الحملة أو فشنها هو مسئولية الرؤساء الشعائريين أو السحرة ورجال الدين قبل كل شيء ، لأنهم هم الذين يعينون الوقت الملائم للحرب الناجحة ، وهم الذين يضمنون بذلك نجاح الحملة وانتصارها .

فواضح إذن من هذا كله ان الشيوخ في هذه المجتمعات يتصدون في وظائفهم المجال الاقتصادي البحث ، ويلعبون دورا أكبر وأوسع وأشمل بحيث يتفلقون في كثير من نواحي الحياة الاجتماعية بطريق مباشر أو غير مباشر ، ويؤثرون في كل مجالات الحياة . وهذا معناه في آخر الأمر ان لهم في تلك المجتمعات التي يطلق عليها اسم المجتمعات البدائية دورا ايجابيا واضعا يساعد على تشكيل الحياة الاجتماعية واستمرارها . وقد تختلف تفاصيل هذا الدور من مجتمع لآخر وإنما المهم هو ان الشيوخ في كل هذه المجتمعات يشاركون مشاركة فعلية وفعالة في حياة المجتمع ، وأنهم يشعرون بذلك ، كما ان المجتمع ذاته يشعرهم بطلبة الوقت بحاجته اليهم . وهذه كلها مواقف تكاد لاتجد لها مثيلا في المجتمعات الصناعية المتقدمة والمجتمع الحديث على العموم .

(٢)

هذا الوضع يعتبر في حقيقة الامر هو الوضع المنطقي في كل المجتمعات الانسانية التي تلعب الروابط العائلية والقرابية فيها دورا هاما في الحياة اليومية، وبالذات في الحياة الاقتصادية، بحيث نجد ان أعضاء الجماعة القروية يعتبرون

والاقتصادية والسياسية ، وافراد الطبقة التي تشغل هذه المرتبة يدخلون في تأليف مجالس الوحدات الاقليمية والقبلية التي تنظر في المنازعات الداخلية بين افراد القبيلة وتحاول انهاء الصراع ، أي ان وظيفتهم في الاغلب وظيفة سياسية . وأما مرتبة الشيوخ فأنها ترتبط بوجه خاص بالوظيفة الدينية . فطبقات الشيوخ هي التي تشرّف على أمور الدين وعلى الطقوس والشعائر باعتبارهم أكبر الأحياء سنا في المجتمع والقرى بهم بذلك الى الموت وإلى العالم الآخر وادانهم بالتالي الى الآلهة ، ولذا يلجأ الناس اليهم في المعات والازمات ، كما يطلبون اليهم التحكيم فيما قد ينشب بينهم من خلافات ويقبلون آراءهم ويخصعون لشؤونهم ونصائحهم نظرا لكثافتهم الدينية المتأخرة .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن نظام طبقات العمر في ذاته وإنما الذي يهنا هو تبيين دور الشيوخ في بعض المجتمعات (البدائية) والوظيفة التي يقومون بها في تلك المجتمعات وهي وظيفة أساسية وهامة ، لم تحديدها لهم حسب نظام محكم دقيق في جملة ، وبأخذ في الاعتبار القدرات الجسمية والكفاءة الذهنية وما يكتسبونه من خبرة وتجربة نتيجة لتقدمهم في السن . ومما له دلالة هنا ان تكوين الطبقة الجديدة التي سوف تحتل مرتبة البطولة لا يتم الا بموافقة الشيوخ أو اعلی طبقة من طبقات الشيوخ في حالة تمدد هذه الطبقات في المجتمع ، وان الفتیان انفسهم هم الذين يلجأون الى شيوخ العشيرة طالبين اليهم الاذن بالتكريس . ويخضع الفتیان أثناء شعائر التكريس ذاتها وفي خلال المدة التي تستغرقها تلك الشعائر والتي قد تمتد الى عدد من السنين لنوع من الاشراف من طبقة الشيوخ ، كما أنهم يتلقون كثيرا من التعاليم والتوجيهات والدروس التي تتعلق بنوع السلوك المنتظر منهم بعد التكريس ، وتماون

والتماسك بين افراد الطبقة وفي الامتناع من التزاوج فيما بينهم او من بين اولاد بعضهم بعضا على اعتبار ان العلاقات الجنسية بين الاخوة والاخوات وفريتهم علاقة محرمة ، بل ان طبقة العمر الواحدة تنظر الى الطبقات التي تعلوها على انها طبقات ابناء واجداد اجتماعيين تقع عليهم كل المسؤوليات التي يجب ان يضطلع بها الآباء والاجداد الحقيقيون ، كما انها تنظر من الطبقات التي تصفها ان تلتزم ازواجهما بنفس الالتزامات التي يلتزم بها الانشاء الحقيقيون . فكان نظام طبقات العمر - بشكل ما ومن زاوية معينة - نوع من التنظيم القرابي الاجتماعي او التمثيل الذي يلجأ اليه المجتمع القبلي لكي يحافظ به على كيانه واستمراره وعلى تماسكه ، على اعتبار ان اقوى اشكال التماسك في المجتمع البسيط هو ذلك الذي يقوم على اساس القرابة .

وللمجتمعات البسيطة اساليبها الخاصة في تشكيل نظمها الاجتماعية بحيث تتخذ في آخر الامر شكل التنظيم القرابي او على الاقل تقوم على اساس العلاقات القرابية والعائلية الحقيقية او الاجتماعية (المثخلة) وبذلك يركز التكافل الاجتماعي في هذه المجتمعات على قاعدة قرابية وليس على مجرد المصالح الاقتصادية او السياسية . وليس أدل على ذلك من النظام المعروف باسم النظام الطومني Totemism الذي يشيع في كثير من

الشيوخ والمسنين عاملا من عوامل قوة الجماعة واستمرار وجودها وبقيائها . ويصل الامر في بعض الاحيان وفي بعض المجتمعات الى حد ان نجد الشخص يبيع المرتبة الاجتماعية التي يحتلها بحكم السن ، الى من هم اصغر منه سنا لكي يشترى مرتبة اجتماعية اعلى تربط بدرجة اعلى من الشيخوخة . وهذا هو ما كنا نقصده حين ذكرنا ان الشيخوخة تعتبر في ذاتها نوعا من الانجاز في مثل تلك المجتمعات . وليس أدل على ذلك من ان المجتمعات البسيطة تترجم تنظيماتها الاجتماعية المختلفة في حدود الفاظ وعلاقات قرابية وعائلية على اعتبار ان هذه العلاقات هي الاساس القوي الذي يمكن ان تقوم عليه حياة المجتمع وتماسكه وتضامنه واستمراره . ونظام طبقات العمر ذاته الذي اشرنا اليه في الفقرة السابقة لا يفرج من ذلك في آخر الامر . ذلك ان الانتماء الى اى طبقة عمرية انما يتم بعد ممارسة شعائر التكريس التي بمقتضاها يصبح جميع افراد الطبقة اخوة واخوات على ما ذكرنا . (٦) وهذه اخوة اجتماعية او اخوة مثخلة او متوهمة fictitious كما يجب بعض علماء الانثروبولوجيا ان يصفوها ، وليست اخوة بيولوجية او حقيقية ، ولكنها تخضع مع ذلك لجميع القواعد والالتزامات والحقوق والواجبات والمسؤوليات التي تخضع لها الاخوة الحقيقية . ويمثل ذلك في التماون

(٦) كتسبب طبقة العمر وجودها التمايز وكيانها التماسك بعد ان يتم بالفعل تكريس كل افراد الذين تتألف منهم ، اى انها لا تظهر كوحدة وظيفية الا بعد التكريس . ونظام معظم حفلات التكريس على المستوى الجماعي ، ويعتبر الختان اهم عنصر فيها ، كما يتفرغ الفتيان لانها لكثير من التعذيب والتائب التي تطفل في الشدة والقسوة من جميع الاخر ، مثل خلع بعض الانسان ، او تشليخ الجبهة والرأس ، او الوطر بالاسنوفه والشعيرات ، او الجعد بالسيف ، وهذه كلها عمليات تهدف الى اختيار قوة احتمالي للتيان على علاقة الصمغ كما انها تصعد للقيام بدور الاطفال الحائرين على ما ذكرنا . وليس من شك في ان الانتماء الى طبقة واحدة والمرد بقرّة التكريس والطموع لتلك الشعائر القاسية العتيقة التي قد تتضمن احيانا قولة افراد الطبقة لفترة معينة من بقية المجتمع لتعلق بينهم نوعا من (الاخوة) الاجتماعية التي لا تعتمد على روابط الدم ، ولذلك على اساس ان افراد الطبقة ينتسبون في المادة الى عشائر مختلفة داخل القبيلة الواحدة ، ويساعد على خلق علاقة (الاخوة) الاجتماعية نفس عملية الختان او التشليخ الجماعية حيث يمارسها على جميع افراد الطبقة شخص واحد في وقت واحد ، مستخدما في ذلك سلاحا واحدا لا يتم بتقليبه بعد كل عملية فتختلف العماد بما لذلك مما يوجد نوعا من الرابطة بينهم . انظر في ذلك كتابنا : « البناء الاجتماعي » ، الجزء الثاني - انسان ، ص ٢٠٠ .

ومتعامكة . وبهذه الطريقة يتمكن المجتمع البسيط أو البدائي أن يقضى على المشاكل التي تعاني منها المجتمعات الأخرى نتيجة لشيخوخة بعض أعضائها وتقدمهم في السن .



ويمكن أن نجد مثيلا لذلك في المجتمعات التقليدية التي لا يزال يقلب عليها طابع الحياة الريفية ، بل وأيضا في المناطق الريفية في الدول المتقدمة . وليس من شك في أن الثورة الصناعية وما تروى عليها من أثار في بناء العائلة هي المسؤل الأول عن ظهور مشكلة الشيخوخة بالحجم الذي نراها عليه في المجتمع الحديث ، وهذه مسألة سوف نعرض لها بالتفصيل فيما بعد ، ولكن الذي يهمنا الآن هو أنه قبل هذه الثورة الصناعية في أوروبا كان الشيخوخ وكبار السن يجدون أشباههم في انتمائهم العائلي ، حيث كان النمط السائد للعائلة هو العائلة الممتدة *extended family* التي يجد فيها الفرد - بصرف النظر عن سنه - الأمان والاطمئنان والاستجابة والاعتراف بالكيان ، وحيث كان الشيخوخ يؤدون وظيفة اجتماعية حيوية تمثل - في أبسط صورها - في تقديم خبرتهم ونصائحهم وإرشادهم لأولادهم الكبار البالغين على ما يقول بيرجس *Burgess* (٧) .

والمعروف أن العائلة الممتدة تركز أساسا على مبدأ استمرار الأجيال المنحدرة من صلب رجل واحد في العيشة معا بحيث يؤلفون وحدة اجتماعية واقتصادية متعاونة ، بمعنى أن الرجل لا ينفصل حين يكبر ويتزوج عن (بيت) العائلة بل يظل محتفظا بعشورته وانتمائه إليه ، وبذلك فقد تضم العائلة الممتدة أفرادا ينتمون إلى ثلاثة أجيال أو أربعة ،

المجتمعات الإفريقية القبلية وفي استراليا وغيرها ، والذي يؤدي في آخر الأمر إلى إيجاد روابط قرابية اجتماعية بين أشخاص لا يرتبطون في حقيقة الأمر بأية روابط قرابية نيزيقية أو دموية . فأعضاء الجماعة الطوطمية يعتبرون أنفسهم متحدرين من سلالة ذلك الطوطم (وهو حيوان أو نبات أو قوة طبيعية تلعب دورا هاما في حياة الجماعة) ويحملون اسمه ، وبذلك يعتبرون أنفسهم أخوة وأخوات ، ويحرم عليهم بالتالي الزواج فيما بينهم . ومع أن أفراد الجماعة الطوطمية قد يكونون مجتريين كل التبعثر وتكاد لا توجد بينهم روابط قرابية حقيقية فإن هذا لا يقلل بحال من قوة الروابط القرابية الاجتماعية . والذي يهمنا هنا بصفة خاصة هو المسؤوليات التي تلقى على أعضاء الجماعة الطوطمية ، بصرف النظر عن وجود أو عدم وجود علاقات قرابية حقيقية ، وهذه المسؤوليات والالتزامات لها إلى جانب مفرها القراي دلالات اجتماعية واقتصادية تمثل في التعاون المتبادل الذي يعتد إلى رعاية الشيخوخ والمسنين من أعضاء الجماعة .

وهكذا نرى أن المجتمعات البسيطة أو البدائية « تستطيع بأساليبها وأجراءاتها الخاصة في خلق روابط قرابية اجتماعية أو متخيلة حتى بين الأقارب إنما تنهى لنفسها نوعا من (الضمان الاجتماعي) ضد الأزمات التي تمر بها من ناحية ، بحيث يصلح هذا الضمان الاجتماعي لتأمين حياة أعضاء الجماعة تحت الظروف القاسية التي تسود في تلك المجتمعات . ويمتد هذا الضمان الاجتماعي بحيث يشمل طبقة الحال الشيخوخ وكبار السن باعتبارهم أعضاء في الجماعة (القرابية) أو باعتبارهم أقارب وعلى أساس أن الوحدة القرابية هي بالضرورة وحدة متعاونة

أخذت في الاعتبار المركز الاجتماعي لتلك العائلات بصرف النظر عن الميول الشخصية . ولا تزال بقايا هذا النظام موجودة الآن في بعض مناطق الريف الأوروبي . وكل هذا من شأنه توفير قدر من الطمأنينة والاستقرار والاحترام للأجيال السابقة وكبار السن الذين يتدخلون في معظم الأمور التي تعتبرها أمورا خاصة وشخصية مثل مسألة اختيار الزوجة .

وهذه كلها أمور مؤلفة لدينا ، ونحن نعرفها من خبراتنا ومن حياتنا اليومية حيث أنها تسود في المجتمعات الريفية الشرقية ، ولكن هناك كثيرا من الشواهد التي تشير إلى أن هذا هو الوضع في بعض المجتمعات الريفية في أوروبا وأمريكا ، حيث لا تزال الروابط العائلية تتميز بدرجة عالية من القوة والتماسك ، وحيث لا تزال أنماط العلاقات القرابية تكشف عن مدى الاحترام الذي يتمتع به الشيوخ الذين يلعبون دورا فعالا في حياة العائلة . (١) وقد يحسن بنا أن نشير هنا إلى بعض ما يسجله علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع بهذا الصدد في المجتمع الريفي في الغرب وتكتفي بمثال واحد

يتعاونون معا في الحياة اليومية ، ويقوم بينهم نوع من التكافل الاجتماعي الذي ينبع من شعور كل فرد بالمسؤولية نحو الآخرين اجتماعيا واقتصاديا . ونظرا لأن هذه العائلة تستمد قوتها إلى حد كبير من الأجيال السابقة ومن كبار السن والشيوخ الذين يوجهون كل شئونها ويتحكمون إلى حد كبير في تصرفات الأعضاء الأصغر منهم سنا فانهم يحظون لذلك بكثير من المهابة والاحترام . ولقد كان هذا النمط من التنظيم العائلي يسود كثيرا من المناطق الريفية حتى في أوروبا ذاتها ، كما أنه كان يوجد طبيعة الحال في المجتمعات الأكثر بساطة والمجتمعات التاريخية ذات الحضارات القديمة ، ولا يزال هو النظام السائد في المجتمعات الشرقية على ما ذكرنا . واستمرار هذا النمط من التنظيم العائلي يدل على تماسك الأجيال والتمسك بالتقاليد كنتيجة حتمية لاستمرار بقاء الأبناء وزوجاتهم وأولادهم داخل نطاق العائلة ، وذلك فضلا عن ارتباط العائلات المختلفة ببعض من طريق الزواج والمصاهرة فالعائلة الممتدة هي التي تعدد في الأغلب أعضائها العائلات التي يمكن لهم الزواج منها

(أ) الواقع أن بعض علماء الاجتماع البريطانيين الذين درسوا التجمعات العائلية في بعض المناطق المتخلفة في الصين الصناعية بالبحر الأحمر وبالذات في تشين قد سجلوا وجود بعض بقايا العائلة الممتدة في الأحياء الصناعية التي يسكنها العمال والتي يعملون فيها في الوقت ذاته ، أي الأحياء التي تعتبر منطلق عمل وسكني وألمة معا وبذلك تكون مناطق ملقاة إلى حد كبير إذ تتم كل أنواع النشاط الاجتماعي التي يقوم بها السكان داخل حدود تلك المناطق ، كما أن الرجل حين يتزوج فإنه يميل إلى الإقامة بجوار أسرته وبخاصة أسرة أمهات كانت تعيش في المنطقة ذاتها . ومن هنا فإن شكل العائلة الممتدة هو الشكل الأمومي ، وأن نواة هذه العائلة الأمومية الممتدة تتألف من الجدة (ألام) وبناها وحفيداتها وهذه مسألة قد تبدو غريبة إن لم يدرس هذا الموضوع ، كما أنها تختلف اختلافا كبيرا عن الاعتقاد السائد من أن نواة العائلة العائلية في المجتمعات الغربية الصناعية هي الروابط العائلية الأبوية التي تعتمد على الذكور لا الإناث . وقد أشار إلى هذه الظاهرة كل من تاونسند ، الذي سجلت الإشارة إليه ، ويونج وييلموث Young and Willmott اللذين اشتركا معا في دراسة بعض الأحياء المتخلفة في لندن ، واللذين اعتبر دراستهما تمهيدا للدراسات التي قام بها تاونسند فيما بعد . ومن الغريب أن نجد أن هؤلاء العلماء الثلاثة يجمعون على أن التماسك في تلك المناطق الصناعية أكثر ارتباطا بأهاليها وأحوالهم ، ولهم هؤلاء الأتارب التماسك من ارتباط الرجل بالقرابة من كلا الجنسين حيث يفضل الرجل في العادة أن يقيم علاقاته الاجتماعية مع أصدقائه وليس مع الأزواج . وقد أشارت إليزابيث بوت Elizabeth Bott إلى ذلك في دراستها القيمة من Family and Social Network حين ذكرت أن أحد الرجال الذين كانت تعتمد عليهم في بحثها قال لها إن « الرجال لهم أصدقاء ، أما النساء فلن لهن قريات وأنه ليس للنساء صديقات وإنما لهن أمهات فقط » . ويبدو ذلك واضحا بشكل لحي من التعاون المتبادل بين القريات وقت الحاجة والشدة . وهذه كلها مظاهر سائدة في المجتمعات البسيطة والتقليدية المتخلفة .

والتوبيخ والمقاطعة والنيل وغير ذلك . ولا
يعنى هذا اطلاقا ان الشباب لا يختلفون مع
الشيوخ ، او انهم يقولون دائما وجهة نظرهم
وأراءهم ومواقفهم ، اذ كثيرا ما يعبرون عن
معارضتهم للشيوخ وانتقادهم لأرائهم وأفكارهم
التقليدية القديمة ، ولكن هذا يتم في حدود
معينة مرسومة ، وان كان الشباب فيما بينهم
كثيرا ما يسخرون منهم دون ان ينسوا مع
ذلك نسق القيم الذى يمثل الشيوخ فيه
الحلقة الرئيسية التي تربط افراد العائلة
بعضهم ببعض ، والذى يتمتعون فيه باكثر
قدر من الاحترام والمهابة والتبجيل . ومع ان
الشباب يريدون دائما بطبيعة الحال ان يكون
لهم كياناتهم المستقل المتمايز عن الشيوخ فانهم
لا يجراون في كثير من الاحيان على الانصاح
عما يدور في افهامهم . وينمكس احترام المجتمع
لكبار السن والشيوخ في كثير جدا من التصرفات
المادية في الحياة اليومية ، وهي تصرفات قد
تبسو عديمة الاهمية لأول وهلة ولكن لها دلالتها
العميقة . فالشيوخ يجلسون دائما في صدر
المكان على المقاعد المجاورة للشار للتدئسة ،
بينما يجلس صغار السن في مؤخرة الحجرة .
والشيوخ هم الذين يتكلمون بينما ينصت
صغار السن والشباب ، وحتى حين يكون
الكلام موجها الى احد هؤلاء الشباب فكثيرا
ما يجيب كبار السن عنه ، بل وقد يصل الحال
بالشباب بان يتعزى من الكلام الا حين يؤذن له
بذلك . ومن الطريف ما يلاحظه المؤلفان من ان
« افضل فنان شائ ، واكثر قطعة خبز ،
والبيضتان بدلا من البيضه الواحدة ، وما الى
ذلك تقدم كلها للشيوخ » دليلا على الاحترام
والاعزاز والرعاية ، وهما يريان انه بدون هذه
اللفظات الصغيرة تفقد حياة الجماعة الرفيعة
طعمها ومعناها ، كما يصعب على الباحث
ان يفهم العلاقات الاجتماعية بل وبناء المجتمع
كله ان لم يأخذ هذه الامور في الاعتبار . (٦)

لذلك ، مستمد من الدراسة القيمة التي قام
بها اثنان من العلماء هما آرنسبرج وكيمبول
على المجتمع الريفي في ايرلندا ، ومن المنزلة
الاجتماعية العالية التي يتمتع بها الشيوخ
هناك ، والدور الاجتماعي الذى يقومون به في
حياة المجتمع كنتيجة طبيعية لقوة الروابط
العائلية وتماسك الوحدات القرابية هناك .

ولقد لاحظ الباحثان ان الفلاح الايرلندى
يعيش في العادة الى سن متقدمة ، ومع انه من
الصعب رد طول العمر في المجتمع الريفي
الايرلندى الى اسباب معينة بالذات مثل الطعام
والمناخ او العوامل السلبية او العناية الطبية التى
يحظى بها الرجل الاوروبى عموما ، الا انه ليس
ثمة شك في ان الفلاحين الايرلنديين - كما
يقول الباحثان - يعيشون طويلا ويتغلبون
على الامراض ، لان لديهم ما يعيشون من اجله ،
وهو كثير . ذلك انهم في مجال حياتهم الخاصة
يظنون بكثير من الاحترام ويتمتعون بكثير من
القوة والسلطة والتفوق . وسلوك الفلاح
العادى هناك ومواقفه ومواقفه واتجاهاته
وحديثه في الحياة اليومية تشير كلها الى ذلك
الاحترام الذى يتمتع به الشيوخ والمسنون في
المجتمع ، وان هذا الاحترام وتلك الرعاية
للسن وللشيوخة يعتبران جزءا من اخلاق
المجتمع الريفي وقيمه ، وان الطفل يتعلم منذ
صغره كيف ينبغي عليه ان يسلك ويتصرف
مع الذين يكبرونه في السن ، وبخاصة
الشيوخ ، ليس فقط داخل عائلته وانما
في نطاق المجتمع ككل ، وهذا في حد ذاته يساعد
مساعدة فعالة واكيدة على تحديد المراكز
الاجتماعية والراتب التي يحتلها افراد المجتمع
بحسب تقدمهم في السن ، كما يحدد انماط
السلوك التي يجب اتباعها ، لدرجة ان المجتمع
يفرض الجزاءات والعقوبات على كل من
يخرج على قواعد السلوك التي يجب مراعاتها
نحو الشيوخ ، وهي جزاءات تتراوح بين اللوم

والتي كان الشيخوخة يؤدون دورهم الواضح الحيوي فيها طالما كانوا قادرين على الحركة وعلى إبداء الرأي في شئون الجماعة التي ينتمون إليها . ولقد تغير هذا كله تغيراً جلياً بدخول التصنيع إلى المجتمع وظهور مراكز صناعية متقدمة كانت تعتبر - ولا تزال - مراكز جذب السكان ولابد من الجماعة ، نظراً لما تتيحه من فرص جديدة للكسب والعمل لا تتوفر في المجتمع الريفي الذي يعتمد على الزراعة وغيرها من أشكال النشاط الاقتصادي الأكثر بساطة . ولقد ترتب على ذلك الحراك السكاني من أجل الالتحاق بالمصانع كثير من التغيرات الهامة التي تتمثل في انفصال الأفراد عن عائلاتهم الكبيرة الممتدة ، وتكوينهم عائلات صغيرة أو عائلات نووية - حسب التعبير الشائع في الكتابات السوسولوجية والانثروبولوجية - تتألف من جيلين اثنين (جيل الوالدين وجيل الأولاد) بدلاً من الأجيال الثلاثة أو الأربعة التي تتكون منها العائلة الممتدة ، وضعف الروابط العائلية والعلاقات القرابية نتيجة لذلك ، والفصل بين مناطق السكن والإقامة ومناطق العمل ، بعد أن أصبح الشخص يعمل في المصانع الكبيرة التي تقام في أماكن معينة بعيدة عن السكان ، بعد أن كان يعمل مع أعضاء عائلته في نفس موطن إقامته الأصلي ، وازدياد الاتجاه إلى الفردية نتيجة لاستقلال الفرد اقتصادياً عن عائلته الممتدة ، وتبعثر أعضاء العائلة الواحدة بين مختلف مناطق العمل والصناعة ، والتحاقهم بأعمال مختلفة بحيث أن الزوجين كثيراً ما يعملان في مهن وأماكن مختلفة ومتباعدة بعد أن كانت وحدة العمل والنشاط الاقتصادي تجمع بينهما ، بل وبين كل أعضاء الوحدة القرابية ، وظهور التخصص الدقيق وبخاصة في مجال الصناعة مما أدى إلى تباعد أعضاء العائلة الواحدة في عمليات الإنتاج الاقتصادي بعد أن كانت وحدة الإنتاج قبل الثورة

وهذه كلها كما ذكرنا من قبل أمور مألوفة وشائعة في مجتمعاتنا العربية التي يقوم تنظيمها الاجتماعي على أساس روابط القرابة والدم والمصاهرة ، وحيث لا تزال العائلة الممتدة هي النمط الغالب ليس فقط في المناطق الريفية بل وإيضاً في المراكز الحضرية والمدن . والمهم هنا هو أن هذه الروابط القرابية القوية هي التي تساعد الشيخوخة على الاستمرار في أداء الدور الذي يتلاءم مع سنهم ، كما تساعد المجتمع على الاعتراف بهذا الدور وتقبله ، وبالتالي على تقبل الشيخوخة واحاطتهم بالرعاية والاحساس طيلة الوقت بالحاجة إلى وجودهم الذي يعتبر (بركة) في أعين الأحياء . ومن هنا تعتبر الشيخوخة ليس مجرد إنجاز كما قلنا ، بل أنها تعتبر قيمة يحافظ المجتمع عليها ويستمرشدها بتعاليمها .

(٣)

هذا الالتزام بمساعدة المتقدمين في السن والشيخوخة والذي يرتبط بالعائلة الممتدة وبالروابط القرابية القوية لم يلبث أن طرأ عليه كثير من الضعف والوهن بتقدم المجتمع الإنساني ، وتحول الكثير من المجتمعات من الحياة الزراعية البسيطة إلى التنظيم الصناعي الأكثر تعقيداً ، والذي أدى إلى ظهور أنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والقيم الأخلاقية التي لم تكن معروفة من قبل . ذلك أنه قبل الثورة الصناعية التي بدأت بوادئها الأولى في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم وضعت معالمها في القرن التاسع عشر ، كان النمط العام للحياة الاجتماعية في المجتمعات القريبة هو نفس النمط الريفي الذي لا يزال يسود في المجتمعات التقليدية البسيطة ، والذي كانت الروابط العائلية والقرابية تلعب فيه دوراً أساسياً فعالاً في كل مجالات الحياة ،

الصناعية هي الوحدة القارية المتحدة على ما سبق أن ذكرنا (١٠) ، ولقد كانت النتيجة الحتمية لهذا كله هي أن أصبح الشيوخ يمثلون عبئاً على العائلة . فالعائلة الصيفية أو النواة لم تعد - بحكم تكوينها وبحكم الظروف التي تعيش فيها - تعمل أو تستطيع اعالة الشيوخ أو استيعابهم أو العناية بهم ، بل أن الشيوخ لم يعودوا يؤلفون جزءاً في تكوين هذا النمط من العائلة نظراً لأن الرجل ينفصل عن عائلته بمجرد أن يكبر ويتزوج أن لم ينفصل عنها قبل ذلك ويرحل للمصل في مكان بعيد . (١١) ومن ناحية أخرى فإن التغيرات التي طرأت على طبيعة العمل وطبيعة العملية الإنتاجية أدت إلى أن تصبح الوحدة الإنتاجية تقوم على أساس المصالح الاقتصادية بعد أن كانت تقوم على أساس روابط الدم والقرابة . فالعمال الذين يعملون في أي صناعة من الصناعات وفي أي مصنع من المصانع لا تربطهم ببعض ولا بصاحب

العمل سوى روابط المصلحة المشتركة . فصاحب العمل يحتفظ بالعمال طالما كانوا على درجة معينة من الكفاءة والمهارة واللياقة البدنية التي تؤهلهم للقيام بالعمل الذي يوكل إليهم على الوجه الأكمل ، والا استغنى عنهم بحجة عدم حاجة العمل إليهم أو عدم إمكانهم تحقيق المستويات المطلوبة في الإنتاج . ويتضح ذلك بآجلى صورة في استغناء العمل عن العاملين حين يصلون إلى سن معينة تقل عندها قدراتهم وكفاءتهم ومهارتهم . وهي أمور غير مالوفة في المجتمعات التقليدية البسيطة أو أساليب الإنتاج الاقتصادي التقليدي . ومن هنا كان الرأي الذي يذهب إليه الكثيرون من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا من أن مشكلة الشيوخة والإحساس بها كمشكلة اجتماعية تحتاج إلى حل ، إنما هي وليدة الثورة الصناعية وما أدخلته من تغيرات على أساليب العمل والإنتاج، وما ترتب على ذلك من تغيرات

(١٠) تربط فكرة التخصص وتقسيم العمل بالعنى الحقيقي للكلمة بالمجتمعات الأكثر تطوراً ، وبخاصة المجتمعات الصناعية ، فدرجة أن أصبح نظاماً لازماً للصناعة الحديثة يرتبط بها ارتباطاً قوياً في الإعلان ، وبعبث نجد أن الكثيرين من الكتاب يكتفون على الشوب (البدالية) والبسيطة باعتبارها بالتخصص . والقصد بالتخصص وما يرتبط به من تقسيم للعمل هو توزيع الأدوار المختلفة على أشخاص مختلفين بطريقة تكلل في آخر الأمر تطبيق هدف واحد متكامل ومحدد بحيث يقوم الأفراد بأداء أدوار معينة والنجوها . والنسق الصناعي بالذات يستمد أكثر من غيره من الانساق الاجتماعية والاقتصادية على الثقة المتبادلة في التخصص وفي تقسيم العمل والتفويض بين الأدوار المختلفة التي تؤلف كلها في الوقت ذاته وحدة متماسكة متكاملة . ولعب الكثير من الكتاب أيضاً الدور التنقيقي في التخصص يؤدي في آخر الأمر إلى كفاءة المصنع وكفاءة العملية الإنتاجية وبسيط العمل ، وذلك نظراً لأن العمال يصبحون أكثر كفاءة ومهارة في إنجاز أعمالهم ، والانتباه العام على أي حال في الإنتاج الصناعي يميل إلى المبالغة في التخصص وتقسيم العمل بحيث أصبحت الناحية الفنية التي يتضمنها الدور الذي يقوم به أي عامل من العمال مجهولة تماماً لعمال الآخرين الذين يشتغلون في نفس الصناعة الواحدة ، ولتكم يؤدون فيها أدواراً مختلفة ، وأن بعض هذه الأدوار يكاد لا يعرف منها أو أهميتها إلا الذين يمارسونها بالعلم . والأكثر من ذلك أنه في بعض الأحيان قد يجعل العامل نفسه أهمية العمل الجزئي الذي يقوم به بالنسبة للعملية الإنتاجية ككل . ويذكر عالم الاجتماع الأمريكي ماكيفر Mac Iver في هذا الصدد أن أكبر مسؤوليه التخصص وتقسيم العمل هي أنهم يجعلون الناس بمثابة أجزاء في آلة واحدة كبيرة . فبعضهم يصبح بمثابة (الكباس) وهكذا ، وبذلك يصبح العمل وعمله مجرد أجزاء صغيرة لا قيمة لها في ذاتها وبذاتها ، انظر في ذلك :

Mac Iver, R. M. ; Community : A Sociological Study, Macmillan, London 1936, pp. 359-62.

Clark Tibbitts, " Retirement Problems in American Society ", in Eisenstadt (ed.)

Comparative Social Problems, Free Press, N. Y. 1964, p. 195.

زيادة إنتاج العامل وتضاعفه من ناحية ، وعدم حاجة الصناعة في كثير من الأحيان إلى كل الأيدي العاملة المتاحة ، وإحلال الآلة محل الإنسان وبخاصة حين تتقدم السن بؤلاء العمال ، كل ذلك ساعد على تضخم مشكلة الشيخوخة بحيث أصبحت تحتاج إلى تضافر كثير من القوى لدراستها وإيجاد الحلول المناسبة لها وذلك بعد أن فقدت العائلة الممتدة وظيفتها ومبررات وجودها .

ولقد شغلت الأذهان مشكلة السن التي يمكن عندها أن يتقاعد المرء عن أداء عمله المألوف المعتاد ، أو التي ينبغي على المجتمع أن يجبره عندها على التخلي عن عمله والكف عن ممارسته ، وإن كان يبدو أن معظم الدول في الوقت الحالي ترى أن السن المناسبة لذلك هي الفترة بين سن الستين والسبعين ، وإن كان هذا التعديد لا يخلو من التعسف . ذلك أن مثل هذا التعديد ، وإن كان يرتكز بغير شك على كثير من الاعتبارات الاجتماعية والعملية بفعل الفوارق والاختلافات الفردية ، مثل القدرة الفيزيائية العقلية على العمل والأداء ، والحالة الصحية عند مختلف الأفراد ، والوضع المالي للفرد وحاجته إلى العمل وإلى المحافظة على مركزه الاجتماعي ومكانته في العائلة والمجتمع ، وقدرته على الاحتفاظ بعمله وممارسته على مستوى معقول ومقبول . ولعمرة شواهد وأدلة كثيرة تشير إلى أن معظم الذين يحالون إلى العاشق بلوغهم سن التقاعد التي ترتبط بمرحلة الشيخوخة من وجهة نظر المجتمع إنما يميلون إلى الاستمرار في أداء عظمهم ، أو على الأقل القيام بعمل ما يستطيعون أن يكسبوا منه بعض الدخل من ناحية ، وإن يرتبطوا عن طريقه من ناحية أخرى بالحياة الاجتماعية وبالمجتمع مما يشعروهم بأنهم لا يزالون قادرين على أن يؤديوا أعمالا يحتاج

في العلاقات داخل الوحدة الإنتاجية وبين المشتركين في العمل الواحد . (١٢) واحد المظاهر الهامة لهذه الشيخوخة وما يترتب عليها من تغير العلاقات داخل العمل هو ظاهرة التقاعد من العمل أو الإحالة إلى العاشق حين يبلغ العامل سنا معينة يفترض عندها أنه لم يعد قادرا على العمل والإنتاج حسب المستويات المطلوبة على ما أشرنا إليه .

ويمتد التقاعد من العمل - من حيث هو نظام اجتماعي له قواعده المحددة - ظاهرة حديثة نسبيا حتى في المجتمع الأوروبي والأمريكي ، كما أنه يشكل نوعا من التحدي لنمط جديد من الحياة يختلف كل الاختلاف عن النمط المألوف الذي اعتاده المرء أثناء حياته العاملة النشيطة . ففي المجتمعات الريفية وقبل الصناعية ، أو المجتمعات التقليدية والسيطة عموما وكذلك في العصور السابقة على الثورة الصناعية نجد أن نسبة ضئيلة جدا من السكان هي التي كانت تعيش حتى سن متقدمة وتصل إلى مرحلة الشيخوخة الفيزيائية ، أي أن عدد الشيخوخ في هذه المجتمعات قليل نسبيا بحيث لا يؤلفون مشكلة اجتماعية خاصة ، وإن العائلة الممتدة كانت تتحمل مسؤولية العناية بهم وبليل الرعاية الضرورية لهم ، فضلا عن أن الشيخوخ أنفسهم كانوا يسهمون في مختلف أوجه النشاط الاجتماعي والاقتصادي بما يتناسب مع حالتهم الفيزيائية والذهنية . إلا أن تقدم الخدمات والرعاية الصحية وتقدم الطب وما ترتب عليه من اطالة فترة الحياة وبالتالي ازدياد عدد الشيخوخ في المجتمعات الأكثر تقدما ، وكذلك الإنجازات العلمية والتكنولوجية التي أمكن تحقيقها وما ترتب عليها من ظهور اختراعات كثيرة ، واستخدام القوى الميكانيكية والآلية في الإنتاج بدلا من القوى العضلية ، مما أدى إلى

بالحبة والعطف ، أمضى حب الآخرين وعطفهم وحنوهم ورعايتهم لهم . ومع أن معظم هذه الدراسات تبين أن غالبية الشيوخ المتقاعدين يتكيفون بشكل أو بآخر مع ظروفهم الجديدة ، فتمت أعداد كبيرة منهم تشهر بالضيق والحيرة وانعدام الهدف وخلو الحياة من معنى ، وإن كان ذلك لا يمتنعهم من أن يبذلوا الجهد للتشبث بأدوارهم القديمة التي كانوا يقومون بأدائها ، أو بالبحث من دور جديد مفيد وفعال ، وتوفر درجة معقولة من الأمن والطمأنينة . ومع ذلك فإن ثمة انقذات في كل هذه الدراسات والبحوث على أن الشيوخ المتقاعدين في المجتمعات الصناعية الحديثة يعانون من انخفاض واضح في مستويات الحياة سواء في السكن أو في نوع الطعام أو في الحالة الصحية ، وذلك فضلا عن الانسحاب الجزئي أو الكامل من الحياة الاجتماعية ، أو على الأقل القدرة على المشاركة بطريقة فعالة في المناشط الاجتماعية المنظمة . ولكن لعل أشد ما يثير في نفوسهم الألم هو الشعور بأنهم يمثلون عبئا على أولادهم . ويزيد من حدة هذا الشعور انصراف الأجيال الشابة عن إعطاء هؤلاء الشيوخ ما يحتاجون إليه من رعاية وعطف وعناية نتيجة لانشغالهم هم أنفسهم بأعباء الحياة المتزايدة في القسوة (١٥) .

وكان لابد لهؤلاء الشيوخ من أن يعثروا على بديل يعوضهم عن المصادر السابقة التي يستمدون منها العطف والمحبة والإعزاز ، والتي تزودهم بشبكة العلاقات الاجتماعية التي كانوا يدخلون طرفا فيها . قاستقلال الأبناء اقتصاديا وانتقالهم من موطن الإقامة

إليها غيرهم من الناس ، وإن لهم بالتالي وظيفة يقومون بها في المجتمع الذي ينتمون إليه . ولكن الوضع يختلف بطبيعة الحال بالنسبة لصاحب العمل الذي يرى أن العنصر الأساسي الحاسم في ذلك هو مدى كفاءة العامل أو الموظف وقدرته على الإنتاج ، فضلا عن الرغبة المبرورة في استخدام ثلث أصغر منا لقدرتهم ليس فقط على العمل بل وأيضا على التكيف مع الأوضاع الجديدة المتغيرة وعلى استيعاب التجديدات ، بل والقدرة على الابتكار وعلى الخلق والتجديد . (١٦)

وإذا كان التقاعد يعني بداية مرحلة جديدة بالنسبة للشيوخ فإنها مرحلة لا تخلو من متاعب ومشكلات وصعوبات ، وربما كان أصعب هذه المشكلات التي تواجه الإنسان بعد تقاعده هي مشكلة التكيف مع الأوضاع الجديدة التي يجد نفسه فيها . وقد أجريت بعض الدراسات في الخارج حول هذا الموضوع لمعرفة مدى قدرة الأشخاص الذين ينتمون إلى مهنة وأعمال وطبقات اجتماعية ومستويات ثقافية مختلفة على التكيف مع هذه الأوضاع الجديدة التي تحيط بهم ، ويبدو من تلك الدراسات أن المشكلات الرئيسية التي يحس هؤلاء الشيوخ المتقاعدون بضرورة إيجاد حل لها هي مشكلة ضمان توفير دخل يكفي لاشباع حاجاتهم ومتطلباتهم ، بحيث يتوفر لهم مستوى معين من الحياة الكريمة الصحية التي لا تخلو من ممارسة بعض النشاط والمشاركة في حياة المجتمع ، ثم إيجاد فرص كافية للاتصال بالآخرين وخلق ملاقات اجتماعية ومصادفات جديدة ، ثم الرغبة الشديدة في الاحساس

Tibbitts, op. cit., p. 196.

(١٦)

(١٤) من الدراسات الهامة التي عرّفت لهذه المشكلات :

Susan H. Kubie and Gertrude Landau, Group Work with the aged, International Universities Press, N.Y. 1953 ; Retirement Policies and the Railroad Retirement System, Washington D.C. : Government Printing Office, 1953 ; Heron, A., Preparation for Retirement ; Solving New Problems, National Council of Social Service, London 1963.

وتقوم بوظائفها فيما يتعلق بالعناية بهؤلاء الشيخوخ ، وذلك رغم الفجوة الواسعة الهائلة التي تفصل بين الحكومة والفرد . والملاحظ أنه على الرغم من تزايد عدد الشيخوخ والمسنين في كل المجتمعات الإنسانية بدون استثناء ، نتيجة لتقدم الرعاية الصحية والخدمات الطبية بالذات ، أن الشيخوخ لا يؤلفون قوة ضاغطة على الحكومات في أي من تلك المجتمعات ، حتى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، بحيث يضطرونها إلى الاستجابة لطايلهم . أي أن الشيخوخ - من حيث هم فئة متميزة من بقية فئات المجتمع - يفتقرون إلى التنظيم القوي الفعال المؤثر ، وإن كانت النقابات والإتحادات المعالية والمهنية المختلفة قد استطاعت أن تحقق الكثير من المزايا لأعضائها الذين يصلون إلى سن التقاعد ، بحيث توفر لهم في شيخوختهم درجة معينة من الحياة الكريمة المربحة . ولكن الشيخوخ - كشيخوخ ، أو كقوة بصرف النظر عن أصلهم أو مهنتهم أو تخصصاتهم الأصلية وغير ذلك من عوامل التفاوت والتفاضل - ينقسم ذلك التنظيم الذي يمكن أن يضمهم جميعا ويتكلم باسمهم كقوة ، ويطلب بحقوقهم كما هو الحال مثلا في تنظيحات الشباب . وليس من شك في أن الحكومات تعمل في الوقت الحالي اهتماما متزايدا لمشكلات الشيخوخ والشيخوخة وتضع القوانين والتشريعات التي تكفل ضمان حقوقهم . ولكن مهما يكن من أمر هذه الجهود فإن الحكومات بكل تنظيحاتها ومؤسساتها وأجهزتها التي تسخرها للسهر على رعاية الشيخوخ لا يمكن أن تكون بدلا حقيقيا يحل محل العائلة الممتدة القديمة رغم قصور الإمكانيات المادية للعائلة . لكل هذه المؤسسات والأجهزة لا تستطيع أن تعطي الشيخوخ ما يحتاجون إليه حقاً من دعم الصداقة والرقة الحقيقية التي يشعر بها المرء بين أفراد عائلته وبخاصة حين

الأصلي ولبعضهم البحث عن عمل يعتبر بغير شك خسارة عاطفية هائلة للأبناء الشيخوخ يصعب عليهم تعويضها ، كما أنه يفرض على هؤلاء الشيخوخ حياة الوحدة والعزلة من العلاقات القرابية والمعالية التي كانت تؤلف جزءا كبيرا من نشاطهم واهتماماتهم اليومية . ويزيد ذلك الشعور بالوحدة والعزلة من حياة المجتمع حين يفقد المرء زوجه أو أصدقاءه مما يضع كثيرا من القيود والتحديدات على عالمه الاجتماعي وعلى نطاق علاقاته الشخصية بأفراد المجتمع الذي يعيش فيه . وهذا الانسحاب من المجتمع والحياة الاجتماعية يتم تدريجيا بحيث لا يكاد المجتمع أو حتى الفرد نفسه يشعر به في أول الأمر إلى أن يسلم الفرد في النهاية إلى نوع من العزلة تكاد تكون تامة ، ويعيش بقية الفرد نفسه في ظل النسيان ممن يعيشون حوله كما بينت دراسة فانوسند ، وإن كان الكثيرون من الشيخوخ ، وبخاصة الذين قاموا بأدوار هامة أثناء حياتهم العاملة والنشيطة ، كثيرا ما يقاومون هذا الميل إلى التراجع والانسحاب من الحياة العامة ، ويعاولون الاستمرار بقدر الإمكان في ممارسة نشاطهم بشكل أو بآخر ، لأنهم يجدون من الصعب عليهم النزول عن المكانة التي كانوا يتمتعون بها أو التفرغ إلى حقوقهم وسلطتهم . ولكن النتيجة النهائية على أي حال والطابع العام السائد الذي يطبع حياة الشيخوخ هو ازدياد الشعور بالوحدة والانزوال والانحصار داخل دائرة من العلاقات الاجتماعية التي تفسق بالتدريج (١٥) .

وهذا كله من شأنه أن يلقي مسئولية رعاية هؤلاء الشيخوخ والمسنين على عاتق المجتمع ككل ، أو على عاتق الدولة التي تعين عليها آراء هذه التنظيرات الميقة في العلاقات القرابية والمعالية التقليدية أن تحمل محل العائلة الممتدة

الى الشيخوخة الفيزيكية . ولذا فان المهم عند اصحاب هذا الاتجاه هو الكشف عن مصادر القوة الكامنة في الفرد ، وعن القومات الاساسية في شخصيته وتكوينه **لأن** تساعد على الاحتفاظ باستقلاله وكيانه المتميز ، وانه لا بد للمرء من ان ينتبه في مرحلة مبكرة من حياته الى مرحلة الشيخوخة التي سوف يصل اليها في وقت من الاوقات ، ان طالت به الحياة وطال به العمر ، وان يستعد لهذه المرحلة ليس فقط بتوفير ما قد يحتاج اليه حينئذ من مال او ممتلكات ، بل وايضا عن طريق تنمية اهتمامات جديدة يمكن ان تملأ عليه حياة الوحدة والوحشة والفراغ . وهذا كله كفيل في آخر الامر بان يجلب الشخص المسن الى حياة المجتمع من جديد ، بحيث يشارك في حياته وحياة الجماعة ويقوم بدور ايجابي فعال في حياة ذلك المجتمع .

واما الاتجاه الثاني فانه على العكس من ذلك تماما يأخذ في الاعتبار سلبية الفرد وبخاصة حين يصل الى مرحلة الشيخوخة . فالشيخوخ بحكم واقمهم وضعفهم وتدهور قواهم الفيزيكية والذهنية لا يستطيعون ان يهتموا بانفسهم او ان يعطوها ما تستحقه من عناية ورعاية . كما ان الفرد بطبيعته قلما ينتبه اثناء شبابه الى ما سوف يؤول اليه امره بمضى السنين . وبذلك فانه قلما يأخذ عده للمستقبل ، وان يعمل مقلما على توفير ماسوف يحتاج اليه حين يصل الى الشيخوخة . ولقد وصلت الحياة الحديثة الى درجة من التعقيد يصعب معها الشيوخ من ان يواجهوا وحدهم وبدون عون من الدولة ذاتها ، ومن هنا كان اصحاب ذلك الاتجاه يرون ان من اهم مايجب على الدولة ان تضطلع به هو ان توفر للشيوخ والمسنين والعجائز من اعضاء المجتمع الضمائم المادية والاجتماعية التي تسمح لهم بان يمضوا الفترة الباقية من حياتهم دون ان يشغلوا انفسهم بأمور العيش

تتقدم به السن . ولذا فانه رغم كل الجهود التي قد تبذلها بعض الحكومات والهيئات لتهيئة واعداد بيوت للشيوخ والعجائز وتزويدها بمختلف وسائل التملية والتنظيف ، ومحاولة شغل اوقات هؤلاء الشيوخ فان الشعور والانزعاج والتمركز حول الذات يظل مسيطرا عليهم . ويكتشف هذا الشعور عن نفسه في كثرة الشكوى والتلمس التي تميز حياة الشيوخ ، وهي شكوى تمتد في كثير من الاحيان الى كل الاوضاع العامة السائدة في المجتمع ، وتتخذ شكل المقارنة بما كان يحدث في العهود السابقة ، وان كانت هذه الشكوى تصل الى ذروتها فيما يتعلق بانصراف الابناء والاقارب من الاهتمام بهم واعطائهم ما يستحقونه من رعاية ، وما هم بحاجة اليه من عطف .

وعلى أية حال فاللاحظ هو ان الحكومات في محاولتها رسم سياساتها الخاصة برعاية الشيخوخة تتخذ بوجه عام احد اتجاهين متعارضين تماما .

فاما الاتجاه الاول فانه يقوم اساسا على الايمان باستقلال الفرد في اتخاذ قراراته ورسم حياته بنفسه دون تدخل من السلطات ، وان ذلك يجيب ان يكون الحال فيما يتعلق بالشيوخ . ولذا يرسم اصحاب هذا الاتجاه سياستهم على اساس ضمان تحقيق استقلال هؤلاء الشيوخ والمسنين والعجزة وتوفير حرية الحركة والعمل لهم بحيث يستطيع كل منهم ان يأخذ زمام المبادرة بنفسه مثلما كان يفعل خلال مراحل حياته السابقة قبل ان يصل الى مرحلة الشيخوخة . وهذا معناه ان رعاية الدولة للشيوخ يجب ان تأخذ في الاعتبار امكان توفير الظروف التي تساعد الفرد على ان يختار بنفسه أسلوب حياته اثناء الشيخوخة ، وهذا الاتجاه يسخر من الاعتقاد السائد من كثير من الناس من ان المرء يفقد استقلاله وقدرته على اتخاذ القرارات حين تتقدم به السن ويصل

الشيخوخة والمعجزات في المجتمع العربي المعاصر ، كما أن الجامعات العربية لم تول هذا الموضوع ما يستحقه من عناية واهتمام ، على الرغم من أن العالم العربي مقبل الآن على تغيرات سريعة وعميقة نتيجة للاتجاه نحو التصنيع والتحديث ، وما سوف يترتب عليهما من تغيرات في البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية وأنساق القيم والثقافة التقليدية والعلاقات بين الناس وبخاصة داخل نطاق العائلة . وإذا كان

الشيخوخة في مجتمعاتنا لا يزالون يجلون الكثير من الرعاية والاحترام والمراعاة ، ولا يزالون يلعبون دورا في الحياة الاجتماعية ، وإن كان يختلف من مجتمع لآخر ، فإن ذلك يرجع في المحل الأول إلى روح التكافل الاجتماعي الذي يركز كما رأينا من قبل على الروابط القرابية والعائلية التي تستمد قوتها من القيم التقليدية المتوارثة ، وهذا كله سوف يتعرض للتغير بغير شك نتيجة للاتجاه نحو الحياة الحديثة ، وبذلك فإن مكانة الشيخوخة والنظرة إليهم وإلى الشيخوخة سوف تتغير بدورها . وقبل أن تظهر المشكلة بنفس الحجم الذي نجده في المجتمعات الأوروبية الحديثة قد يكون من الخير أن نعد لها العدة من الآن من طريق الدراسة والبحث ، ليس لكي نمنع وقوع المشكلات والصعوبات المتعلقة بالشيخوخة ولكن لكي نخفف من وقعها ومن أثارها بقدر الإمكان . وسوف يتطلب ذلك بالضرورة اتخاذ خطوات إيجابية مبرمجة لتحديد موقف المجتمع من الشيخوخة وإعدادهم لمواجهة الظروف الجديدة التي سوف يجدون أنفسهم حيالها .

والذي يبدو للمرء من دراسة الأوضاع في المجتمعات الصناعية الحديثة هو أنه مع التسليم بكل ما قطعت المدينة الغربية الحديثة في مجال إطالة فترة الحياة بالنسبة للعائلة

أو الخوف من المرض . ويقول آخر فإن ما يحتاج إليه الفرد حين تتقدم به السن ويصل إلى مرحلة الشيخوخة هو مختلف الخدمات الاجتماعية والصحية والترفيهية دون أن يحمل هو نفسه ما لا يطيق من أجل البحث عنها ، أو من أجل أن يثبت لنفسه وللآخرين أنه لا يزال قادرا على المشاركة في حياة المجتمع والقيام بدور إيجابي يعود بالنفع على الآخرين . (١٦)



وإيا ما يكون موقف الحكومات والمؤسسات من الشيخوخة والشيخوخة فالشيء الواضح الآن هو أن الشيخوخة تعتبر من أهم المشكلات الرئيسية التي تواجه المجتمعات الحديثة والتي تشغل بال الكثيرين من العلماء من مختلف التخصصات . ولقد كان معظم اهتمام العلماء في الماضي موجها إلى النواحي الطبية والبيولوجية كما ذكرنا ، وفي هذين المجالين بالذات تمثل أهم الإسهامات في بحوث الشيخوخة ، ولا تزال هذه النواحي تحتل حتى الآن بكثير من العناية ، بينما قلل جدا من البحوث تعرضت للجوانب الإنسانية والاجتماعية للمشكلة رغم أنها تتصل في المحل الأول بالفرد من حيث هو إنسان وعضو في مجتمع . ولقد جاءت هذه الإسهامات متأخرة نسبيا ولكنها حققت كثيرا من النجاح وكشفت عن ميادين كثيرة غنية وعميقة ، وإن تكن هناك ميادين أخرى أوسع وأرحب وأعمق لا تزال مجهولة وتحتاج إلى كثير من البحوث والدراسات الميدانية الجادة في مختلف المجتمعات والثقافات . ومما يؤسف له أننا هنا لم نكد ننسبه إلى هذا الموضوع الحيوي ، ولم نتم حتى الآن أية دراسات جديّة حول المشكلات الاجتماعية الواقعية التي يواجهها

الحياة ، وتميزه تماما عن مرحلة النضج والرجولة الكاملة فان الباحثين عموما يميلون الى أن يعتبروا الشيخوخة مجرد امتداد بالنسبة وتميس لمرحلة النضج والرجولة ، وأنها بذلك تمثل نوعا من التراجع والتدهور والاضمحلال والهبوط من المستويات والمعايير التي يحققها الإنسان الناضج المكتمل الرجولة حين يبلغ أواسط العمر ، وذلك بدلا من أن ينظروا الى الشيخوخة على أنها تمثل نوعا من التحدي لنمط من الحياة له آفاق مختلفة وجديدة تماما في تجربة الحياة . والواقع أن هناك من الأسباب والمبررات ما يدعو لأن ننظر الى الانتقال لمرحلة الشيخوخة وما يصاحبه من تغيرات هامة وحيوية في شخصية ونفسية وعلاقات الشخص بالمجتمع بنفس النظرة التي ننظر بها الى الانتقال من المراهقة الى النضج ، وإلى أن نمطي لمرحلة الشيخوخة نفس العناية التي حظيت بها مرحلة المراهقة . بل أن مجالات البحث في مرحلة الشيخوخة باعتبارها تجربة فريدة ومتميزة في حياة الإنسان ، وما قد يمر به المرء من تجارب وتعرض له من امسايب وأنماط سلوكية جديدة قد تجعل البحث في الشيخوخة أكثر إثارة من البحوث التي أجريت على مرحلة الشباب مثلا .

لم هناك نقطة أخيرة يوجه النظر إليها كثير من العلماء وهي أن الباحثين حين يتكلمون عن الشيخوخة يركزون كلامهم في الأغلبي على « المشكلات » ويكادون لا يتكلمون عن إنجازات الشيخوخة أو إمكاناتها أو عن الفرص المتاحة للشيخوخ في حياتهم الجديدة أو التي يجب العمل على استغلالها والإفادة منها . فهم يصورون الشيخوخة كما لو كانت « لعنة » - كما يقول سيمونز - بدلا من أن يعتبرونها مرحلة عادية وطبيعية من مراحل العمر التي

العظمى من السكان في تلك المجتمعات نتيجة لتقدم الطب بالبلات فان هذه المدينة الحديثة ذاتها أساوت أساوة بالغة لكثير من الأساليب القديمة التي كان الشيوخ يعتمدون عليها في تكيفهم مع واقع الحياة ومع الظروف الجديدة التي يواجهونها بحكم شيخوختهم . بل أنه يمكن القول أن أساليب المدينة الحديثة في حل مشكلات الشيخوخة تكشف عن كثير من نواحي النقص والقصور إذا هي قورنت بالأساليب والإرفاض التقليدية القديمة التي كانت تسهم اسهاما كبيرا في أن يمضي الشيوخ الفترة الأخيرة من حياتهم وهم يتمتعون بغير قليل من الطمأنينة والسعادة وراحة البال ، وهي العناصر التي تؤلف ما يجب بعض الكتاب أن يسموه « الشيخوخة الناجحة » ، إيا كان المقصود من هذه التسمية . وربما كان الدرس الذي يمكن استخلاصه من كل البحوث والدراسات التي أجريت حتى الآن عن الشيخوخة في مختلف الشعوب والمجتمعات هو - كما يقول سيمونز Simmons (١٧) - أن المقومات الأساسية للشيخوخة الناجحة - بالإضافة الى الراحة النفسية التي أشرنا إليها - تتركز بعد كل شيء على قدرة الأفراد أنفسهم على التلاؤم بتجاح مع الاطوار الاجتماعي السائد في العصر الذي يعيش فيه هؤلاء الأفراد ، وقدرتهم على تأكيد حقوقهم في اطالة فترة اسهامهم في الحياة الاجتماعية ، وإجبار المجتمع على الاعتراف بهم لأطول فترة ممكنة ، ثم قدرتهم على أن يتركوا متى ينبغي عليهم أن يتوقفوا عن ذلك كله .

ولعل مما يلفت النظر حقا في موضوع الشيخوخة أننا نجد أنه في الوقت الذي اهتم فيه العلماء والباحثون من مختلف التخصصات بدراسة المراهقة كمرحلة فريدة في تجربة

(١٧) Simmons, Leow. ; " Social Participation of the Aged in Different cultures ", The Annals of the American Academy of Political Science, Vol. 279, p. 50.

قدرات وكفاءات ومهارات وخبرات يستطيعون ان يقدموها للمجتمع وأن يفيدوا بها غيرهم . ان علينا أن نكشف عن القدرات والامكانيات الكامنة عند الشيخوخ ، وأن نعمل على تنمية هذه القدرات والامكانيات وتطويرها الظروف الاجتماعية القائمة . وهذا كله سوف يتطلب في آخر الامر أن نراجع موقفنا ونظرتنا الى الشيخوخة ، وأن نعيد تقييمنا لأماليب البحث والدراسة والموضوعات والجوانب التي يمكن ان نهتم بها في دراستنا للشيخوخة وحياة الشيخوخ .

سوف نصل اليها جميعا ، ان لم يكن هناك من الاسباب ما يمنع دون ذلك ، وأن لم تحدث الوفاة في سن أصغر لسبب من الاسباب ، والتي يجب لذلك ان نهىء انفسنا لها باعتبارها تجربة تستحق أن يخوضها الانسان بكل قوة وعمق . ومن الملاحظ أيضا ان معظم الدراسات التي أجريت على الشيخوخة تميل الى توكيد وابرار ما يقدمه - او ما يجب ان يقدمه المجتمع للشيخوخة والمسنين والمجانز بدلا من أن تحاول البحث عما يمكن لهؤلاء الشيخوخ والمسنين والمجانز ان يكتشفوه في انفسهم من



أهم المراجع

- Birren, J. E. ; (ed.) Handbook of aging and the Individual, Chicago 1959.
- Bromley, D. B. ; The Psychology of Human Ageing, Penguin, London, 1966.
- Burgess, B. W. ; (ed.) Ageing in Western Societies, Chicago 1969.
- Clark, F. Le Gros ; Growing Old in a Mechanized World, Nuffield Foundation, London 1960.
- Comfort, A., ; The Process of Ageing, Signet, N.Y. 1964.
- Eisenstdt, S. N. ; Comparative Social Problems, Free Press, N.Y., 1964.
- Felstein, I. ; Later Life : Geriatrics Today and Tomorrow, Penguin, London 1969.
- Gilbert, Jenne G. ; Understanding Old Age, Ronald Press, N.Y. 1952.
- Havighurst, R. J. and Albrecht Ruth ; Older People, Longmans, N.Y. 1953.
- Lehman, H. C. ; Age and Achievement, Princeton U.P. 1953.
- Munn, N.L.; Evolution and Growth of Human Behaviour ; Houghton Muffin, Boston 1955.
- Rosset, E. ; Ageing Process of Population, Pergamon Press, Oxford 1964.
- Sheldon, J. H. ; The Social Medicine of Old Age, O.U.P. 1948.
- Towns ead, P., The Family Life of Old People, Penguin, London 1963.
- and Wedderburn, Dorothy ; The Aged in the Welfare State, Bell London 1965.
- Zubek, J. P. and Solberg, P. A.; Human Development, McGraw-Hill, London, 1954.

ميكالانجلو

(بمناسبة ذكرى مرور خمسمائة عام على مولده)

د. ثروت عكاشة

عام واحد للالتحاق بيدرسة النحت في حدائق آل مديتشى حيث عاش بين تماثيل المصر الكلاسيكى التى تضمها مجموعة لورنزو العظيم . وهناك ينحت رأس تمثال لجنى صغير (فون) يراها الأمير لورنزو حاكم دوقية فلورنسا فتبهره مواهب الصبى ميكالانجلو ، ويدعوه للإقامة في قصره وسط مجموعة الفلاسفة والادباء والشعراء الذين صاغوا فلسفة المذهب الانسانى خلال مناقشات طويلة ، كان ميكالانجلو يتشربها وتسلل الى أعماق نفسه ، فاذا بها تشكل خليفته الفكرية التى تظل متوثبة في وجدانه طوال عمره .

منذ خمسمائة عام على وجه التحديد وشمس النهضة الإيطالية توهج ، ولد طفل انفصل من إيامه الأولى من أبيه القاضى المتقاعد وعن أمه ليعيش في كنف زوجة عامل في محاجر الرخام ، فاذا الطفل يرضع مع لبن حاضنته حب الرخام ونحته وتشكيله ، واذا بأمه تموت بعد ستة أعوام وهو بعيد عنها فحرم من حنانها الى الأبد .

وما يكاد يبلغ الثالثة عشرة من عمره حتى ينضم الى مرسم الاخوة « جيرلا نغايو » ليتدرب على انجاز رسوم الفريسك الجدارية، لكن هواية النحت تجتذبه الى ترك الرسم بعد

هدفاً : الكسب العمال ، والطموح للمحاربين ،
والهيام بالحقيقة المطلقة للفلاسفة ، كما قسم
التعليم الى مراحل ثلاث : الجهل والراى
والعرفة . وجعل للنفس الانسانية ثلاث
ملكات : الشهوانية والوجدانية والعقلانية ،
وزعها على ثلاثة مواضع : المدة والصدر
والراس . وجعل للملكة العقلية اسماً المهام
وهى نشدان الخلود ، فالانسان يحكم ذكاله
« كالشجرة لا تضرب بجذورها فى الارض بل
تشب بفصولها الى السماء » . ومن ثم كان
العنصر العقلانى فى النفس هو الذى يرتفع
بنا من الارض « الى اشباهنا القابضة فى
السماء » . وهو ما سوف نرى تطبيقه
العملى للمذهب فى تصوير ميكلانجلو بسقف
مصلى سيستينا .

كما تصور أفلاطون صعود الانسان من
ادنى مراتبه حتى بلوغ أصله الالهى . وفى
هذه العودة الى العالم الالهى ، تدرك النفس
الاله ، وهى مازالت فى اسار سجنها البدنى
تصارع من أجل ذلك ، وتبذل الجهد والعناية
فتنتقل من المحدود المتناهى الى اللامحدود
اللانهاى ، حتى تنفصل من الاسر المادى الى
الحرية الروحية والخلود .

ولذلك كان الأفلاطون يكن للحياة الدنيوية
احتقاراً عميقاً ، فهو يصدىها عبثاً قليلاً واعتوبة
للانسان على نسيانه لاصله الالهى وانجذابه
الى عالم الحس ، مخلفاً وراءه عالم التأمل
العقل الذى سقط منه فى الاصل ، على
ما سوف نرى فى تمثيله للأسرى .

ويسمعا أفلاطون فى « المائدة » صوت
أريستوفانس شاعر الملهة يتحدث عن الحب
قائلاً : « سمعت على لسان الكاهنة ديونيميا
أن الكائنات كانت مركبة : اما من جنس مذكر
خالص أو جنس مؤنث خالص ، أو من الجنسين
مما . وعندما تماثلت هذه الكائنات على الآهة

كان دماء المذهب الانسانى قد اكتشفوا فى
الحضارة اليونانية القديمة أنماطاً فكرية وفنية
أكثر ثراء وخصوبة ، فتأقوا الى التوفيق بين
الافتكار والاشكال الوثنية وبين الاعراف
المسيحية ، ورواوا فى الأفلاطونية مثلكهم
الأعلى ، فهماءوا بتطبيقها فى سلوكهم ومنجزاتهم .

على أن تأثر ميكلانجلو بأفلاطون كان مرتبطاً
على عدة نقاط فى فكره ستكون نبراساً نستهدى
به فى أعمال ميكلانجلو الفنية . كانت محاورة
أفلاطون « تيماسوس » عن الخلق والتكوين ،
وكذلك محاورة « المادية » (سمبوزيوم) عن
الحب والجمال أكثر ما شدد ميكلانجلو الى
أفلاطون ، ولم يلبث أن صاروا السلف الفلفى
لجميع أعمال ميكلانجلو الفنية .

شده الى الأفلاطون نظركه الفلسفية الى
المثلث والدائرة والمربع بوصفها الاشكال
الخالدة التى تهيم مفتاحاً لطبيعة الكون الحقبة
حتى قال فى محاورة فيليبوس : (ليس ما أعنيه
بجمال الاشكال ما يراه الناس عادة جميلاً
أو يحسونه كذلك وراء ما يرونه من كائنات
أو صور لهذه الكائنات ، وإنما الجميل عندى
قد يكون حزمة من الخطوط المستقيمة وما
ينتج منها من مسطحات وكثل شكلها
الفرجاء والمثقلة والمثلث ، لكنها فريدة فى
ذاتها ، ينطلق جمالها من نبع روحها ، يعيش
لأصقا بها الى الأبد » .

وأنفراه التثليث الأفلاطونى الذى قسم
الوجود الى مستويات ثلاثة هى عالم الوهم
والخيالات ، وعالم الصيرورة المادى المتغير ،
والعالم العقلى ، والنسب على أساسها قسم
المجتمع البشرى الى طبقات ثلاث أيضاً :
المتجنون من العمال والزراعى ، والمحاربين ،
والفلاسفة والحكام ، ورمز لهم على التوالى
بالنحاس والفضة والذهب ، وحدد لكل طبقة

والتصوير والعمارة والشعر . وإذا كانت عظمة الإنسان تكمن في استهاته بالمعيات المادية وشحده لقدراته العقلية والروحية ، فلا بد من أن نصد ظهور ميكلانجلو أحد الأحداث العظمى في تاريخ الإنسانية .

ولما كان العمل الفني بالنسبة لميكلانجلو هو أن يشارك على الدوام في عالم الأفكار ، جاءت كل إنجازاته الفنية فلسفية كما هي جمالية ، وثنية كما هي متدنية ، وأفلاطونية كما هي مسيحية .

ففى عالم النحت حمل تمثال (باخوس) إله الخمر المبكر (لوحة ١) بصمات وثنيتة الدفينة بحيث لا تكاد تفرق بينه وبين تماثيل العصر الكلاسيكى ، ومالبث تمثاله التالى « الملدراء الآسية (بيتيا) » أن كشف عن أيمانه الدينى الصادق (لوحة ٢) .

وفى عالم التصوير جمعت رسوم سقف مصلى سيستينا المرافات الوثنيات (لوحة٣) جنبا الى جنب مع الإنبياء العبريين (لوحة٤) كما افسحت المكان للنظرية الأفلاطونية عن العودة الى العالم الالهى ، الى جانب نظرية الخلاص المسيحية .

وتجىء لوحة يوم الحساب في منفيها وضراوتها الشبيهة بسفر الرؤيا في الروعة والترهيب لتتجاوز الشخصيات الأسطورية مثل شخصية خارون حارس العالم السفلى لدى الأفريق مع شخصيات المهدين القديم والجديد .

وتعمل سنوات حياته الأخيرة مرحلة من التبتل والورع المسيحي لم تنطق معها شعلة الأفلاطونية في أعماقه . ففى الوقت الذى كان يمنع جهده كله لخدمة العقيدة المسيحية كان

عاقبتها بأن شطرها الى أنصاف . ومن هنا جاء نزوع الإنسان اما الى مثيله أو الى الجنس الآخر وفق الكائن الذى انحدر عنه .

كذلك كانت تلج على ميكلانجلو نظرة أفلاطون بأن الإنسان قد عب مرة من مياه نهسر النسيان فأنسى أصله الالهى ، حتى اذا رأى امرأة جميلة ذكرته بأصله الالهى . ولكن لا يلبث الاغراء الجسدى والجمال الزاوى أن يشده الى جمال الحقيقة الأبدى . . . ثم فى النهاية الى تأمل حقيقة الحق والشبر الخالدة .

وأخيرا رأى ميكلانجلو فى المثل الأفلاطونية روحانية مطلقة ، ومشق الجمال بوصفه مثالا مطلقا أزليا أبديا ، تحتفظ الروح الإنسانية بذكرى مهمة لما يشته فى ماض بعيد سابق على الحياة فوق الأرض ، فلا تنفك - الروح - تمسك ذلك الجمال وتصبو اليه وتبحث عنه .

لقد آمن ميكلانجلو ان على العاشق أن يسمو من الحب الجسدى الى الحب الروحى ، الى حب الجمال المثالى الذى هو جزء من القداسة والخير . وذلك هو المجال الذى يشتاقه العباقرة والفلاسفة ويطمحون اليه .

كان ميكلانجلو ثنائيا شكلته الفلسفة ، شأنه شأن الفنان فيدياس الذى عاش خلال العصر الذهبى الكلاسيكى ، غير أن صوت سافونا رولا الراهب المسيحي الثائر كان يطارد ميكلانجلو ، بينما كان ذهنه مؤهلا لتمثل التجريدات الأفلاطونية . فكان قلده أن يظل عقله العاصف نهيا لهاتين الفلسفتين المتصارعتين خلال أعماقه حتى آخر حياته ، مترجما رؤاه فى اشكال درامية مرئية ، فأبدع لنا روائع خالدة فى عالم النحت

داخله من صراع . كان إيمانه التقليدي بالشكل قد وثق روابطه بالنحت أكثر من التصوير مع أنه كان عبقريا في كليهما ، كما شدد هذا الإيمان التقليدي بالشكل الى الجسد الانساني في الوقت الذي استهان فيه بمشاهد الطبيعة . غير أنه لم يكن راضيا عن التقديس الممنوح للشكل في عصره ، فاطلق في مقابل الشكل نقيضه ، وهو الطاقة الكامنة فيه ، التي تطمح الى التحرر من سجن الشكل ، لكنها لا تملك الا التمرد وتمزيق بعض القيود ، التي لا تتيح لها الا ان تطل برأسها فحسب ، بينما يبقى الجسد كله سجيناً .

وقد تجلى كفاحه ضد قواعد الشكل المألوفة في عصره في افتتاحه بموضوع الارقاء والأسرى المفلوجين ، الذي يعد صياغة جديدة لموضوع هيلنستي قديم ، هو صراع لاوكون وكاهن أبولو الطروادى ضد الأفعى الضارية التي أرسلتها الآلهة المناصرة للاغريق ففتكت به هو وبنيه . فنشهد في تماثيله التوكيد على المضلات المتوترة ، بصفتها بأعنة الحركة المهددة بتفجير أسللال الشكل ، والمعبرة عن تبرم الارقاء الساخطين بأغلالهم التي تقيد أطرافهم ، بينما يتجلى الانفعال محتدما في أجسادهم وهي تصارع لتحرر نفسها من قالب الصخر الذي يحاصرها ويعطوق حركتها والذي توقف أزميل المشال قبل انفلات الارقاء من ربقتهم .

لقد تجسدت أزمة الشكل في أوج عصر النهضة في منحوتات ميكلائيلو حيث يبدو الشكل وكأنه يصارع ضد ضغط خافق في التماثيل التي تتجلى قوتها المعبرة في كونها لم تكتمل .

ومن بين تماثيل الارقاء انسان بمتحف اللوفر ، يعد تمثال العبد المفلول اقربها الى الاكتمال (لوحة ٧) .

ينظم شعرا يقبض بالوهج الأفلاطوني الذي تجلى من قبل :

- في تماثيل العذراء حين عبر عن اتحاد الجمال الجسدي بالجمال الأبدى .

- وفي تمثال موسى حين ربط بين قسوى لانسان المادية والمعنوية وبين الخير الأبدى .

- وفي وقومه تحت سيطرة الاشكال الأفلاطونية الخالدة التي تهيء مفتاحا لطبيعة الكون والتي تلمسها في سقف مصلى مسيئنا (لوحة ٥) .

- وحتى في أشكاله المعمارية المجردة نجده يقيم الأعمدة وكأنها الأسرى ، تشدها القيود فلا تستطيع فككا من فقل الحمل المادى الذي لا مفر من حمله (لوحة ٦ ثم ٩ ب ، ١٠ على حين تحوم القبة الشامخة غالبا في الكمال الهندسى للشكل الدائرى ، الرامز للسמות التي هبط منها الانسان والتي يجب ان يلمس طريقه نحوها من جديد .

**اتنا تلف اليوم في خشوع وذهول ونحن
نتلم هذه المبصرة الفلدة التي يؤت في
محاللات فنون لربة هي النحت والتصوير
والعمارة والشعر .**

● ● ●

وقد نلن فئاتو عصر النهضة أنهم توصلوا الى القواعد الجمالية النهائية المحددة للشكل . وما ينبغي أن ينطوى عليه من توافق ، خلال فترة التطور التي أعقبت جوفو ومقراتشو وبلغت ذروتها برفائيل ، وإذا بميكلائيلو يقرب عرش الحائط بهذه القواعد في مستهل القرن السادس عشر . وكان ولعيا بما يعوج في وجدانه من قلق وما يمتلئ في

ويبدو كأنه يمثل فتى نائماً يقض مضجعه حلم مرعب ، أكثر مما يمثل أسيراً يحتضر كما يخلو لبعض مؤرخي الفن تسميته . فبينما نجد القيود مجرد شرائط رقيقة تعجز عن أن تكون وثاقاً ، تتجلى الروح الحبيسة التي تعلبها ذكرى أصولها الإلهية ، وكأنها وجلت راحتها في النوم بعد عذاب نفسي مزق .

ويصور التمثال الآخر المصروف باسم **العبد المتمرد (لوحة ٨)** حنف صراع كائن مغتول المضلات كتب عليه أن يصبح كفاحه هباء .

وفي كلا التمثالين نشهد نفس الصراع اليائس مع القدر . أنها مأساة الإنسان الذي بعد الزمن من إمكاناته ، ويعيه إدراك سر الوجود ، ويتطلع رغم فئاله إلى الخلود ، ولا يموته قيود الجسد من أن يطعم بحرية بلا حدود .

« ليس فن النحت ياسيدتي هو تشكيل قطعة صخر صلبة ، ولكنه تحرير للشكل من سجن الصخر ، بإزالة الزوائد عن الصورة التخيلية في اللين لتشكل الكامن في الصخرة » .

هكذا كان التمثال لميكلانجلو شكلاً كامناً في كتلة رخام ، ينتظر يد أستاذ النحت البارع كي يولد على يديه ، وكأنه يعبر من خلال تعاقبه عن فكرة أفلاطون بأن نفس الإنسان ما نوال سجنه في جسده حتى ترقى إلى الكمال بواسطة قوة خلاقة تفوقها سموا ورفعته .

وفي تمثال العذراء الأمية « بيتا » لوحة ١١٤٢) يكشف جمال التنفيذ ودقة التفاصيل وإثارة المشاعر من أن ميكلانجلو كان ما يزال واقفاً تحت تأثير طراز النهضة الفلورنسية .

فبدوا كأنهم يمثلون فتى نائماً يقض مضجعه حلم مرعب ، أكثر مما يمثل أسيراً يحتضر كما يخلو لبعض مؤرخي الفن تسميته . فبينما نجد القيود مجرد شرائط رقيقة تعجز عن أن تكون وثاقاً ، تتجلى الروح الحبيسة التي تعلبها ذكرى أصولها الإلهية ، وكأنها وجلت راحتها في النوم بعد عذاب نفسي مزق .

ويصور التمثال الآخر المصروف باسم **العبد المتمرد (لوحة ٨)** حنف صراع كائن مغتول المضلات كتب عليه أن يصبح كفاحه هباء .

وفي كلا التمثالين نشهد نفس الصراع اليائس مع القدر . أنها مأساة الإنسان الذي بعد الزمن من إمكاناته ، ويعيه إدراك سر الوجود ، ويتطلع رغم فئاله إلى الخلود ، ولا يموته قيود الجسد من أن يطعم بحرية بلا حدود .

ولا شك في أن أشكال أرقاء ميكلانجلو ذات وشائج قديمة مع نقوش أفواص النصر والأضرحة والتوابيت الرومانية ، فإن نماذج الأرقاء المغلولين يمكن اقتفاء أثرها في المنحوتات الهيلنستية التي تصور ماركسياس التمس وأبوللو يسلمه حياً لتجاسره وتحديه له في مباراة موسيقية . كما أن التشبه بين هذا العبد المغلول وذالك المتمرد ، وبين الابن الأصفر في مجموعة تمثال الكاهن لاوكون في فيرجانية إلى تعليق جديد .

ونلمس نفس الأثر في تمثالين الأسيرين المعروفين باسم أسيرى بوبولي (لوحة ٩ ، ١٠) . والمعروف أنهما قد صمما كتمثالين كاربائيد بطرفي قاعدة ضريح البابا يوليوس الثاني عام ١٥٣٢ ، غير أنهما استبعدا ، فأعادهما ميكلانجلو إلى الدوق كوزيمو دي ميدتشى الذي احتفظ بهما في كهف بهدائق

شخصية مثالية للبابا يوليوس الذي كان مشرعاً للقوانين شأن موسى العبري (لوحة ١٣) ،
 (ب) • ويبدو موسى وكأنه تجسيد لقوى الطبيعة ، أو بركان بشري موثق على ثورة غاضبة على عصيان البشر . ففي سكونه نذير عاصفة ساخطة ، وتكاد قسامته تنطق بالوصايا العشر ، وتحكي لنا قصة صموده جبل سيناء وحديثه مع ربه . وتكاد نحس أنه قد اتخذ جلسته هذه ليحاسب البشرية من فوق منصة القضاء . ومنذ عهد قريب أبدى المثال الفرنسي أوجست رودان ملاحظة وجيزة بأنه يمكن درجة التمثال من فوق جبل دون أن يتهم منه أي جزء أساسي » .
 ويكشف هذا التماسك عن قدرة ميكلانجلو على تطويع الرخام إلى الحد الذي يعتشد فيه بالقوى التعبيرية والجيشان الستكن في ثنائيا الإطواء والكماسر وعصلات الراعين المفتولة ، والعقلانية المسيطرة على ملامح الوجه ، والزاج الناري للتهب .



وفي تماثيل ضريح مدينتي تنجلي من جديد روعة النحت التي تجلت في تمثال موسى وتكون كل مجموعة من مجموعتي النحت الشهيرتين من شخصية جالسة في لياب الحرب المدمرة داخل كوة ، مع شخصية رمزية راقدة على كل جانب من جانبي التابوت . فيعتمر لورنزودي مدينتي (لوحة ١٤) بخوذة مجسدا الرجل المفكر ، على حين يحمل جوليا نودى مدينتي عصا القيادة مجسدا رجل الآثر البطولية (لوحة ١٥) . وهكذا يمثل أحدهما حياة التامل والآخر حياة الحركة المفعمة بالنشاط . ولم يفسد ميكلانجلو على شخصيات آل مدينتي الجالسة أية ملامح ذاتية ، وهو ما أصاب أهل فلورنسا بالدهول أمام هذا المفهوم المثالي . وقد طمأنهم

الجليلة التي لا تهون من شأنها دموع أو أنات . فضلا عن أن ميكلانجلو قد استباح لنفسه تناول مقاييس أشكال بحرية توجب تأثيرها التعبيري ، وتؤكد التوافق والانسجام في تصميمه ، كما أكثر من الإردية ليضمّن فيضا من الإطواء والخطوط ، وصاغ جسد المسيح أصغر حجما من العذراء ليحقق التوازن في تكوينه ، وأقام مثاله المثلث بلا كوة داخلها أو خلفية معمارية تدعّمه ، فكان تمثال العذراء الآسية بمثابة إعلان لاستقلال النحت ، كما ينفرد بأنه العمل الوحيد الذي وقعه ميكلانجلو .

وعندما طرد أهل فلورنسا أسرة مدينتي وأسسوا الجمهورية عام ١٤٩٤ بإزعامة الراهب سافونارولا مضوا يجسدون انتصارهم في أعمال فنية ذات صبغة وطنية بطولية كان أحدها تمثال عملاق لدواد (لوحة ١٦) ، (أ ، ب) قائل الطاغية جالوت . وهو تمثال هرقل الطامع ، هائل الضخامة يبلغ ارتفاعه حوالي ستة أمتار ، يقف عاريا ممكبا بقلاده منتظرا وصول جالوت عدو شعبه .

ولو أننا وقفنا عند حد تأمل جسد داود وحده ، لخيّل لنا بتوتره وجيوشه أنه ينتمي إلى العهد الكلاسيكي ، وإلى الطابع الهليني على وجه التحديد أكثر مما يحمل طابع القرن السادس عشر . ولكننا ما نكاد نتطلع إلى رأسه حتى ندركه القوي الروحية التي لم يبرمها إلا أقدمون ، وهي تنطلق بازدياد المتحمسية .

وقد أنجز ميكلانجلو تمثال موسى ليقام في ضريح البابا يوليوس الثاني المصروف باسم البابا الزهيب ، وكان قوى الفكر عامر النفس بخشية الله . وإذا كان ميكلانجلو قد تعفيل موسى على أنه تجسيد للإرادة القوية فقد أراد له في نفس الوقت أن يكون صورة

المختلفة ، وهو ما ينفرد برنارد برنسون بتسميته « القيمة الممسية » . كما أنه اختار موضوعاً لرسمه الجسد البشري الذي كان موضوع تماثله ، مؤمناً بأنه ليس مثل الجسد البشري العارى شيء قائد على التعبير من نفسه ، وعن تنبيه وعينا بكل ما يطيرا من تغيرات ، وليس مثله شيء يمكن أن نلحظه نحن ، بمجرد تماثله لنا في الصورة التي يتبدى فيها في الحياة اليومية الواقعية ، وليس مثله شيء يمكن أن يثير احساسنا بأننا جميعاً نشترك في تجربة الحياة ، وهو ما جعل ميكلانجلو لا يرى في عالمنا كله شيئاً يستحق النحت والتصوير غير الجسد الانساني ، ليس الإنسان العادي الذي يدب فوق الأرض كما تدب الآلاف ، بل جنس انساني خاص يتميز بالجلال ، والطاقة ، والقدرة على التعبير والآثار ، وقد كان ميكلانجلو نفسه انساناً متميزاً ، بهياً وحيداً ، زاهلاً في متع الحياة المادية . بل أن المرأة الانثى الناعمة الجمال والدافقة الفتنة لم تجتذب في حياته الخاصة ، ولم تشده في حياته الفنية الا في عمل فني واحد لم يلبث أن اهمله وراء ظهره ، ليقدم لنا جنساً من عالم خياله ومثله .

كان حرص ميكلانجلو على العرى في الاجساد البشرية التي يصورها قائماً على ايمانه بأن الأردية تمثل عائقاً في ترجمة حركة الجسد البشري، وفي إثارة احساس المشاهد بالضغوط التي يقاومها الجسد ، والمقاومة التي يبذلها، والنضج الخفي السجين بأعماله . وما دامت الأردية تحول بيننا وبين التآثر المباشر بالطاقة التي يعيشها الجسد المصور ، كان من الضروري تصوير الجسد عارياً ، حتى يمتلك ناصية القدرة على آتاة حسنا بالحركة المتماثلة في توتر عضلاته ، وإرتعاش بشرته واسترخاء وضعته ، وتميز أعضائه من ربة الكتف الى التورتات التي تطفو فوق جسده كله وكأنها

في سخرية وثقة بالنفس ثبت صدقها قائلاً بأن احداً لن يذكر بعد ألف عام ما كان عليه شكل الدوقين .

وعند قدمي جوليانو يرقد تماثلاً الليل والنهار . وتمثل الليل (لوحة ١٦) انثى تغفو في نعاس ثقيل . ونحن اذا اطلنا النظر في تكوين هذه الانثى التي تتفجر الالة ، والتي قد تغرينا فيها اللداء الشبيهة الريانة الممتلئة ، والتي قد تخدمنا سيقانها البضة الفارحة ، فان قدراً اكبر من التأمل سيكشف لنا عن اختباء ملامح غلمانية وراء كل هذا .

فان افسحنا صورة هذه الانثى مكاناً في ذاكرتنا دقائق قليلة ، ريشاً نلتقي بصور غلمان ميكلانجلو المصورين على سقف سيميتينا حيث أخفى وراء فتوة غلمانيتهم سحراً اثروباً دقيقاً ، سوف تصل في النهاية الى اكتشاف عالم غريب من غلمان ميكلانجلو وفتيانه لم يعرفه بعد عالمنا الواقعي .

ويمثل النهار (لوحة ١٧) عملاق هرقلي الطابع مغتول العضلات يلتفت برأسه من فوق كتفه ، غير أن وجهه غائم التسمات .

فاذا انتقلنا الى تابوت لرونزو نرى الجلال مشرقاً على جسدي الراقدين بين النوم واليقظة . ويمثل الرجل الغروب (لوحة ١٨) على حين تمثل المرأة الفجر (لوحة ١٩) وهي صنو الانثى الغافية التي تجسد الليل في ضريح جوليانو .



دلف ميكلانجلو من عالم النحت الى عالم التصوير مزوداً بملكة اعطاء صورة القدرة على الالة احساس المشاهد ، فيوجهه بأنه يلمس بأصابع كفه وأصابعه الجسد المصور حتى لتدور أنامله مع انثناءاته واستداراته

اتبثافات طاقة دقيقة من جسد عملاق ...
فهذه العلامات كلها توظف في الدهن على الفور
اسم ميكلائجلو .

وقد أصبحنا الآن قادرين على ان نفهم لماذا
ينبغي ان يهتم بالمرى كل فن يدور حول
الجسم البشرى ، ولماذا استحوذ الصرى
على الفن الكلاسيكى في مختلف أطواره ، ليس
فقط بوصفه افضل وسيلة تبعث الحياة في
الفن ، بل لكونه كذلك اكثر الموضوعات أهمية
في العالم الانساني . وكان ميكلائجلو اول
فنان بعد عصر النحت الاغريقى يترك تماثلاً
هوية المرى في فن تصوير الشخص ، فمن
قبله كان المرى يدرس كوسيلة علمية تعين
على تصوير الانسان المكسو بالثياب ، ولكنه
اكتشف أهمية المرى كناية في نفسه ، وكهدف
نهائى لفنه ، فالفن والمرى بالنسبة اليه
مترادفان .

ولن نجد في غير أعمال ميكلائجلو - اذا
ما طرحنا جانباً روائع الفن الاغريقى - اشكالاً
تعزى احساسنا بقوة اثر الصورة علينا ، وتصل
حركاتها الى وجداننا مباشرة ، فتلهمه بنفس
القدر من العمق .

واننا نلقى عمق ايمان ميكلائجلو بالجسد
البشرى المصارى كموضوع اساسى للفن
التشكيلى ، في انه حين كلف في غمرة الحماس
الذى صاحب قيام الجمهورية بفلورنسا
برسم لوحة بطولية تزين القاعة الكبرى
للمنخدة لامقار مجلس المدينة الجديد ، لم
يختار ميكلائجلو من مصرحة كاسكتينا التى
نشتت خلال الحرب بين بيزا و فلورنسا عام
١٣٦٤ الا لحظة غريبة هي تلك التى كان
الجنود الفلورنسيون يستحمون اثناءها في نهر
الارنو ، بينما كان التطهير يتطلق معلناً هجوم
العدو .

لقد جاء اختياره لهذه الزاوية من الموضوع
نتيجة ايمانه بقوة الجسد البشرى المصارى
على حمل جميع الافكار والمواقف والتنمية
عن مختلف الانفعالات . ولا شك انه كان اقدر
على ان يجسد افكاره وانفعالاته في عراة النهر
اكثر مما يجسدها في حركة الجنود المتطمين
صهوات البجاد . ومن المؤسف ان المخطط
المبدئى الكامل لهذه اللوحة بحجمها الاصلى ،
وهو التصميم الذى نسميه « بالكرتون » لم
يتبقى به الزمن اذ فقد بعد ان تحدث عنه
بينتينوتو شليني بأنه كان اعظم عمل قدمه
ميكلائجلو ، وأنه يمثل بحق « اكاديمية الرسم
العالمية » بل انه يفوق في عظمتة سقف
سيسيتينا الذى ستمعرض له الآن . (لوحة
٢٠) .



ولقد اضاف ميكلائجلو مثلاً اعلى للجمال
مقرونا بالقوة ، وروياً لانسانية عظيمة كان
يتوق الى رؤيتها تدب على ارضنا يوماً من
الايام . فنحن لن نلتقى كثيراً بمثل هذه
الفحولة والنفق وقوة التأثير ، وتجسيد حلمنا
بروح عظيمة تسكن جسداً جميلاً ، مثلما
نلتقى بالاشكال المرسومة على سقف مصلى
سيسيتينا . لقد اثم ميكلائجلو ما بدأه ازانثسيو
وهو ابتداء نمط انساني مؤهل اى تأهيل ،
الذى يخضع الارض ويسوسها نحو التائق
والحق والخير والجمال .

كان ميكلائجلو مكثراً على تشييد الضريح
الذى اراد يوليوس الثاني تشييده لنفسه ،
غير ان البابا مالبث ان نجاه عن هذا العمل
الذى كان قد منحه فكره وقلبه ، وكان على
وشك ان يمنحه بقية عمره ، فقد كان يتضمن
نحت اربعين تمثالاً يفوق كل منها الحجم
الطبيعى للانسان ، اكمل منها تمثال موسى
الذى عرضناه منذ لحظات ، ولو انه ظل

هذا المذاب ليجد وجدانه وقد غاب في هذا العالم السحري . فما بالنسبة حين نذكر أن ميكلانجلو قد اضطر ، لانجاز هذه الرسوم ، أن يضطجع على ظهره طوال أربعة اعوام . وقد مبر من هذا العقاب الذي ينوء بحمله البشر في كلمات بالغة البساطة والرفعة بأحدى قصائده جاء فيها ما ترجمته :

« الى السماء تشفع لحيى .

والى الوراء ينثنى فقاى .

مثبتا فوق عمودى الفقرى .

وترقوى لتتصب عالية كأنها قيثارة .

وعلى وجهى ترسم لوحة ثرية ملونة .

من قطرات الفرشاة الشخينة والدقيقة » .



هجر ميكلانجلو من ناحية المبدأ فكرة زخرفة الاسطح المستوية بتصميمات زخرفية مقتبسة من عالم الاشكال النباتية ، فحيث يتوقع المرء أن يشهد نبتة متحوية يجد مكانها أجسادا بشرية ، ولا شيء غير الاجساد البشرية . ثم ما يلبث أن يدرك الايقاع المتناغم الذى يربط بين هذه الكتل ويفصل بينها .

لقد اختار ميكلانجلو أن يروى قصصه عن طريق الاجساد العارية — كما مر بنا — ونحن ندرك من القاء أول نظرة على هذه الرسوم الفسيحة غياب الابنية ومشاهد الطبيعة الا رموزا موجزة كالشجرة الوحيدة التى تمثل الجنة ، وعشبة هنا وأخرى هناك تشير الى خصوبة الارض ، وهكذا استخدم ميكلانجلو وسائل التعبير فى ايجاز بليغ فى هذه التصاوير . وكان المزج بين ايقاع الخطوط

يتابع هذا العمل الخارق رغم كل ما تعلمه من قدرته الملهة فى نحت الرخام الذى كان سريع الاستجابة لضربات أزميله الحاسمة ، لأمضى مشرين عاما فى انمامها .

وقد حقق الكثيرون على البابا الذى ازاح مثالا مبغريا عن النحت ، ليفرقه فى تصوير سقف مصلى سيستينا بمبنى الفاتيكان ، الا ان احدا لا يملك الا أن يعترف الآن أن هذا القرار الذى اتخذته البابا كان أقرب ما يكون الى الالهام الاسطورى . ذلك أن هذا العمل قد فجر طاقات ميكلانجلو الخبيثة ، وأباح له التعبير عن رؤيته الباطنية للعلاقات الانسانية والمصير البشرى . وقد ترك البابا ليكلانجلو الحرية فى اختيار الموضوع الذى يصوره ، وهو استثناء لم يتمتع به أحد فى هذا العصر الذى كان الفنانون يلتزمون فيه بنصوص القصص الدينى وتعليمات القساوسة . وقد استطاع ميكلانجلو أن يعمل خياله فى القصص الدينى وان يصور: عملا يبهز مشاهديه . والذين شاهدوا تصاوير هذا السقف من نقاد الفن على مر التاريخ وقفوا مذهولين أمام هذا الموضوع الذى لعب فيه خيال ميكلانجلو دورا كبيرا بعد أن استمد من نصوص سفر التكوين ، فلم يتفقوا على تفسير واحد . غير أنهم احصوا جميعا هذه الوحدة المتوحدة المشبوبة التى ربط بها ميكلانجلو جسد الانسان بمعقله وروحه . فاعجبوا بكل ما ينشئ به الجسد من القوة العضلية التى كانت طابع تماثيل الكودوس الاغريقية ، كما انههروا بما يشع حوله من القوة المعنوية الدفافة فى صور العرائف والانبياء ، وأن كان من الواضح أن ميكلانجلو قد منح الروح اهتماما يفوق مامنحه للجسد .

وليس من شك فى أن متابعة رسوم السقف تسبب عذابا كبيرا للمشاهد حين يضطر الى ثنى عنقه الى الخلف طويلا ليستكمل جوانب هذه الملحة الهائلة ، غير أنه سرعان ما ينسى

بحكم ملكاتهم العقلية السامية . وصوره في المنطقة المتوسطة بين المثلثات واللوحة التسع .

- على حين صور في المساحة العليا قصة الخلق والإنسان وعلاقته المباشرة بالله ، والتي تبدو لنا من خلال التقسيم المعماري مشرفة علينا من أعلى مستوى كوني .

وبلغت مساحة السقف التي صورها ميكلائيل حوالي ثلاثة آلاف وخمسمائة متر مربع ، ويضم التكوين لاثمئة شخصية . وقد رسم ميكلائيل المخطط البدئي (الكرون) على الورق أولا ثم قسمه الى اجزاء يتسع اليوم لتنفيذ احدها وراء الآخر .

وبدل خروج ميكلائيل عن رسوم المخطط البدئي على ان عنصر الارتجال قد صاحبه انهاء العمل . وكانت الوانه محددة بالوان سطح الفريسك ، وكلما تقدم العمل كان يؤثر تدرجات اللون الرمادي الذي كان يسبح على اشكاله المصورة طابع التمايل المنحوت . وقد كان الشائع ايامها ان يحولى القيام بهذه الاعمال الكبرى الاستاذ بمساعدة تلامذته ، ولكن الثابت ان ميكلائيل قد قام بتصوير السقف كله وحده ، واقتصر عمل المساعدين على التجهيزات الاولى فحسب .

واذا كان ميكلائيل قد وقع اختياره من سفر التكوين على قصة الخلق من بدايتها حتى انتشاء نوح بالخمر . فقد شاء لنا ان نطلع هذه القصص مصورة على سقف المصلى بادئين من النهاية ، لانه رسمها بطريقة عكسية ، فبدأ بنوح وانتهى بلوحة فصل النور عن الظلمة .

فما تكاد ندلف الى القاعة حتى يعلنوا نوح بجسده المستلقي عملا (لوحة ١٢١ ، ب) .

والايحاء بالمعق وسيلة اعانته على رواية القصص بهذا الإيجاز الفريد .

ولو اننا تأملنا تصميم ميكلائيل لسقف سيستينا لوجدناه تكوينا عضويا متماسكا تسيطر عليه فكرة فلسفة وفنية موحدة ، يمزج في ايقونوغرافيته بين اللاهوت التقليدي العبري المسيحي والفلسفة الافلاطونية التي نشر بها - كما مر بنا - في صباه انهاء اقامته بقصر لورنوردى مدينتى ، وهى التي شكلت وجدانه لبقى الى آخر حياته مسيحيا مؤمنا بالافلاطونية ، اى مؤمنا بوجود قوة خارقة تعمل قوة الانسان وتوجه حركته ، هى قوة الالهام .

قسم ميكلائيل فراغ السقف الى الاشكال الهندسية الافلاطونية التى ذكرناها من قبل وهى المثلث والدائرة والمربع . (لوحة ٥) .

ثم عاد ميكلائيل فقسم التكوين ثانية الى ثلاث مناطق تلمب فيه كثافة الضوء دورها . تفعلى ادناها واشدها قنامة البنيقات الثماني المثلثة وبنيقات الازكان الاربعة على شكل المقرنصات . وتشمل الثانية الفراغ المحصور بين البنيقات المثلثة والمنطقة الثالثة العليا المخصصة للوحات التسع الرئيسية .

وتواكب هذه التقسيمات من الناحية الرمزية مستويات الوجود الافلاطونية الثلاثة التى سبق ذكرها .

- **عالم الوهم والخيالات** : وقد عبر عنه ميكلائيل بالانسان غير الملم الذى لم يتلق الوحي بعد ، وصوره في ادى المستويات على البنيقات المثلثة الثماني .

- **وعالم الضرورة المادى التحيز** ، وعبر عنه ميكلائيل بإنبياء العهد القديم والمرافات الوثنيات الذين يتوسطون بين الانسان والاله

من شجرة معرفة الخير والشر التي تنتصب بينهما . لكن ميكلانجلو لا يقتنع بتقليد الأسلاف بل يبتكر تكوينا جديدا ، كما أنه لا يصور الفؤاية كما كانت تصور قبله عملية سلبية بل يحيلها الى فعل ايجابي يختاره الانسان بارادته . فيصور حواء في وضعة الاسترخاء المهدودة في التصوير الروماني مولية ظهرها للشجرة ملتفة لعنة عابرة نحو الحية التي لها جلد امرأة ، وتتناول التفاحة متثاقلة ، وصور آدم في الشطر الايسر من الصورة ضخم الجسم ادنى مرتبة من الانسان ، وهو يمد يده الى غصن الشجرة الممتد فوق حواء ، التي يبدو جسدها ناعما شهوانيا ، ويؤكد حركة ذراعيها المدودة غصن مواز ينبت من جذع شجرة في الخلفية .

وكما خلق ميكلانجلو تكوينا جديدا لقصة الفؤاية ، فقد أعرب من خلال جسد حواء من فكرة جديدة ايضا هي ان الكسل الانثوي المترب يوقظ الرذيلة في أعماق الانسان .

ولا تضم جنة عدن سوى اوراق شجر قليلة ، فام يشأ ميكلانجلو ان يجسد المكان بأسلوب مادي . ومع ذلك فهو يحتال كي يوحى بالترب والحركة بواسطة خطوط الارض والابحاء بمق الفراغ . وكلاهما يتباين مع الارض المستوية الجرداء في النصف الايمن من الصورة ، مجسدا شقاء آدم وحواء بعد طردهما من الجنة حين ازاحهما الى طرف الصورة الايمن ، محنرا فجوة عميقة بينهما وبين الشجرة .

ويفسر بعض المؤرخين الثنائية التي تجمع بين الحية واللاك المنتقم في مشهد الطرد من الجنة باللوحة بأنها نطوى على فكرة ان الجريمة والعقاب مثل اللة والامر ، هما مظهران توأمان للشر .

وكما يصور ميكلانجلو نوحا الانسان فريسة لشهواته الجسدية يصوره كادحا من اجل لقمة العيش ، فجعله على يسار اللوحة يحترق التربة القاحلة قوى البدن واهن الروح ، كما أوقف أبناءه حوله ، دون ان يبدو عليهم الاسى لشهود عورة أبيهم ، ودون ان يتعجلوا باخفافها بالرداء كما جاء في سفر التكوين ، بل جعلهم شهود المصير المساوي للانسان نفسه الذي ينبغي له ان يلهب ويكد ويخطو الى الشيخوخة ، وينتهي الى الموت . وتذكرنا وضعة نوع المستقلية بالهة الاتهار الرومان ، وقد مالت رأسه في هذه اللوحة على صدره في ارهاصة بلهفة بالنهاية المرتقبة وهي الموت .

لم تأتى لوحة الطوفان (لوحة ٢٢) ، التي تذكرنا أشكالها بالجندو المرأة المستحجين في نهر الارنو خلال معركة كاسكيئا . وتكشف لنا عن فكرة ميكلانجلو في تمثل الفراغ اللاحاء بأن الشخص وفادة صوب المشاهد من وراء الجيل متعاقبة عصية على الاحصاء ، فلا يسع المرء الا التسليم بضخامة الحشد المتدفق . وترمز هذه اللوحة للمآزق الذي يسقط فيه الانسان عندما تحاصرهموامل الطبيعة القاسية التي لا يملك معها الا الاستسلام .

وتصور اللوحة الثالثة (لوحة ٢٣) نوحا وابناءه حول المذبح وهم يقدمون القرابين ويجمعون القود ويشعلون النار ليتنسب الله رائحة الرضا من ذبائحهم التي يضحون بها شكرا لله على نجاتهم من الطوفان .

وما تكاد المساحة المتاحة لميكلانجلو تسع حتى تضاعف قدراته فنراه في لوحة خطيئة آدم وحواء وطردهما من الجنة يبسط جناحيه محلقا الى ذرى لم يبلغها أحد من قبل او من بعد (لوحة ٢٤) . كان من قبله يصورون خطيئة الانسان بواسطة شخصين واقفين متواجهين يربط بينهما مشهد تناول التفاحة

عملية عقلانية خالصة . ثم نشهد بعد ذلك الموضوع الرئيسى في عملية الخلق وهو خلق آدم (لوحة ٢٦) وهو أحد الأعمال النادرة التى تجمع بين العظمة الفائقة والبساطة المجردة ، حتى بالنسبة لأولئك الذين لا ينفعلون فى سر الأعمال الفنية . فمعناها واضح ومؤثر من الوهلة الأولى ، ويؤيد شغف المراء بها كلما طال تأمله لها ، إذ نرى الجسد الانسانى فى روعة ليس لها مثيل سابق ، مستلقيا على الأرض فى الوضعة التى اعتدنا ان نرى عليها التماثيل اليونانية لالهة الانهار والخمر، الذين ينتمون الى الأرض ولا يتطلعون الى الفكاك منها .

ويتجه الاله الخالق فى سحابة سماوية تضم زمرة من اللائكة صوب جسد آدم الخادم المتصق بمضجعه الصخرى . ونثال الانسان يمد يده حتى تكاد تلمس يد الله ، وكان شحنة كهربائية تسرى بين اصابعهما . ومبر هذه الشحنة الدافقة فى هذا النموذج الطبيعى الفذ ، خلق الله النفس الانسانية . فما يكاد الاله يلمس طرف اصبع آدم الممتدة حتى تدب فيه الحياة ، فتنتطلق القوى الكامنة فى جسده ، التى تتجلى - رغم عجزه عن الحركة - فى انشاده ساقه اليسرى ، وبروز جلعه المصور بالواجهة وتوتر عضلات ساقه اليمنى المصورة بالجانبية . ولكن آدم يتقبل الحياة على مضض وهو ما يعبر عن ذلك التشاؤم الذى يشيعه احتقار افلاطون للحياة الدنيوية واعتباره لها عبثا ثقيلا وعقوبة للانسان على نسيانه لاصله الالهى ، واتجاذبه الى عالم الحس ، مخلفا وراءه عالم التأمل العقلى . ومن خلف الله وفي ظل عباره تترامى حواء غامضة مستخفية وكأنها ما تزال كائنة فى اصفاءه ترهص بما سوف يكابده آدم على يديها من شقاء .

• • •

ونلاحظ اختلاف تعبير آدم فى مشهد الطرد منه فى مشهد الغواية ، إذ يبدو مدركا خطيئته وان مضى فى طمأنينة وكبرياء ، محاولا ان يدفع بحركة ذراعيه حد السيف الذى يهدده به اللالك المنتقم . على حين بدت حواء منكشمة محاولة ان تحتوى بظله وهى تسرع الخطى وقد انحنى ظهرها والتفتت بوجهها نحو الجنة آسية وكأنها تسترق نظرة اخيرة .

وهكذا نرى فى الشطر الايسر من الصورة مشهد الغواية والخطيئة حيث تتجلى الرغبة العمياء ، بينما نرى فى الشطر الايمن مشهد الطرد حيث تتجلى المعرفة والتدم .

وتشمل اللوحات الخمس التالية مراحل خلق الله للكون والطبيعة .

ففى لوحة خلق حواء (لوحة ٢٥) يبدو الاله يهوه لأول مرة وهو يخلق الانثى بإشارة أمرة من يده التى لا تلمس جسد حواء أو شلع آدم كما اعتاد المصورون من قبل ، وإنما يتجلى داخل أطوار مبادته وقد أمال التفكير العميق رأسه ، وحواء تنهض بطريقة تعرب بوضوح من أنها طوع أمر الله ، وتتسم إيماءة الدهشة والعجب المرتسمه عليها - وكأنها فى صلاة ورمة ضارعة - بجبال انهائى أودع ميكلانجلو فيه مفهومه عن الجمال الجسدى ، بينما يرقد آدم مستندا الى صخرة ، متكوما كأنه جثة هامدة ، وقد اندفع كتفه الأيسر الى الإمام ، وقبضت يده برخاوة على جلع خشبى . ويساير الضغط المحيط للتل شكل جسم آدم ويحتويه ، على حين يتوازى مع شكل حواء واتجاهها جلع شجرة مثلب الافسان . لقد احتشد كل شئ فى المساحة المتاحة وشارف الحواف حتى لم يعد مكان للاله الخالق لكى ينتصب فيه . وتكتشف هنا مفهوم ميكلانجلو الافلاطونى من الخلق ، بأنه

والغريب في هذه اللوحة تكرار صورة الله، حيث يستدير فنراه من الخلف مندفعاً وكأنه أعصار صوب عمق الصورة ، غير أن هذا التكرار تقليد فني قديم ، فلو أنا فطينا نصف الصورة لتجلى لنا كيف أن تكرار الشكل منفلتاً ، هو جزء جوهري من الأثر الشامل للحركة المدومة .

وبين الأيجاز المتتابع في تصوير المخلوقات، أن فكرة ميكلانجلو هي تصوير طبيعة الله الخلاقة أكثر مما هي تصوير الأشياء والكائنات التي يخلقها .

وفي النهاية نصل إلى اللوحة مع لوحة فصل النور عن الظلمة (لوحة ٢٩) حيث ينبثق الوضوح من العلماء ، وتتماقن الحكمة المسيحية الداعية إلى معرفة الحقيقة كطريق لتحرير النفس ، مع النصيحة الهائلة الإلهية لسقراط . « اعرف نفسك » . أن مفهوم الله قد تطور : من اتخاذ شكل الإنسان في لوحة خلق حواء ، إلى التجلي في الروح الكونية في اللوحات التالية ، ثم يستحيل في هذه اللوحة تجريداً شاملاً نابضاً في ملكوت الوجود الخالص ، بعد أن أصبح الجسد زمراً للروح واتشحت قسمات الوجه بالضبابية .

لقد تحقق الهدف الأفلاطوني الجديد لاحتداد الروح من الله عن طريق التدرج من قيد البينقيات ، إلى البصرة التنبؤية العرافات ، وأخيراً صعود سلم القصص الديني نحو ضوء المعرفة النقي ، للوصول إلى نقطة الدوبان والتلاشي في حرية اللاهائية .

ومن بين كافة المحاولات التي قام بها الإنسان الفاني المحمود كي يقدم صورة للطاقة المطلقة بلا حدود ، نجد هذه اللوحة أكثرها اقناعاً ، وإن لم تكن أشدها واقعية . ولا غرو فإن الصور الفوتوغرافية الحديثة لتكوين رؤوس اللذنيات النجمية تعرض نفس هذه الحركة الشبيهة بالدوامة .

وتتوالى مشاهد مراحل الخلق المبكرة في تصاعد دافق بالحركة والحيوية .

ففي لوحة فصل اليابسة عن الماء (لوحة ٢٧) تتفجر قدرة الإله مانع البركة ، وهو يندفع من خلفية الصورة بأسطاً يديه فوق سطح الماء ، فنظن إلى أن ميكلانجلو قد نقل الشعور بالسلام الذي ينطلق من هذا المشهد بإيماءة من الله وكأنه يبارك الكون . كما تعمد التعبير عن التضائل النسبي للذراع اليمنى ، وغمر التكوين المساحة التي حدها إطار الصورة تماماً .



ثم نشهد الله بعد ذلك يخلق الشمس والقمر والنجوم (لوحة ٢٨) بأشعارات أمرة للإيحاء بضرورة إخضاع هذه العناصر النارية اللتهبة بالحزم والقوة لا باللين وال مباركة .

وهنا يغدو الله تجسيدا « لفكرة الخلق » نفسها شأنه شأن الأجرام السماوية ، فينبثق في فلكه ينثر النجوم والكواكب التي تنطلق بدورها في المدار الذي يرسمه لها .

ونلمس في هذه اللوحة بوضوح ازدياد الدينامية في اندفاع الإله إلى الأمام بأسطاً ذراعيه إلى أن يوقف مسيرته بحيث ينحني جلعه إلى الوراء ، كي يتسنى له أن يخلق الشمس والقمر أثناء هذه الوقفة المأبرة . ومع أن كلا للراعيين يومئذ بحركة الخلق إلا أن الذراع اليمنى تبدو أقوى تأثراً ، ليس فقط لأن الله ينظر في اتجاهها بل لأنه قد لحقها نصيب كبير من التضائل النسبي .

كذلك فإن المساحة التي تمثلها صورة الله أكبر من سابقتها ، حتى لا تترك موضع قدم لغراغ زائد لا ضرورة له .

حلقة أخرى من الاتيباء والشهداء والنساء
العبريات والقديسات العذارى. والمرافات
الوثنيات .

ويشرف من إحدى الكوتين العاليتين
جماعة من الملائكة يحملون صليب المسيح ،
ومن الكوة الثانية جماعة أخرى يحملون العمود
الذي عذب عليه . وتبدو الملائكة بلا اجنحة ،
والقديسون بلا هالات في أجساد عملاقة ،
تحرك محتلمة كأوراق الشجر الصخرية في
أتون العاصفة .

ويصع القسم الأوسط بحشود البشر ،
بعد الفراغ من الحساب ، حيث يرقى الطائون
الى الجنة ، بينما يتهاوى العصاة في الجحيم
(لوحة ٢٢) ، ورسل الرب تنفخ في الصور ،
بينما يحمل ملاك صغير كتاب الحسنات
الدقيق ، وينود ملاكان قوبان يحمل كتاب
السيئات البالغ الثقل والضخامة .

ويحتجز ميكلائجلو القسم الاسفل لصورة
الجحيم اليوناني (لوحة ٢٣) كاشفا بذلك
المنبع الثاني لفكر ميكلائجلو الذي شكلته
المسيحية الافلاطونية ، حيث يبسط خارون
ملكته في العالم السفلي حول نهر ستيكس
الى اليمين ، وحيث تحشد زبائنه وزبائنه .

على حين يتدافع الى اليسار الموتى مبهوتين
من قبورهم يوم القيامة والذين يتطلع اليهم
المسيح في جلاله لحظة وصولهم الى الجحيم ،
شاهرا يده اليمنى في حركة تلقى الرعب
وهو يصغر حكمه عليهم بالهلاك ، مشيرا
بيمينه الى الطامعين ليشهدوا جرح جنبه
الدامي (لوحة ٢٤) .

لقد بحثت هذه اللوحة انتفاضة هائلة في
فن التصوير ، وخظت أسلوبا جديدا مثله
الاعلى :

- كونية الفضاء الانهائي .

لقد استطاعت تصاوير سقف مصلى
سيستينا هي والتصاوير الجبرائية لرفائيل
في غرفة التوقيع بمبنى الفاتيكان أن تنقل من
فكر ايطاليا في عصر النهضة أكثر مما نقلته
آدابها المكتوبة . كما أنها كشفت عن عمق
بصرية ميكلائجلو وقدرته على التنبؤ بما يوحى
للمشاهدين بأنه فنان كل العصور ، وربما
بصفة خاصة عصر الرومانسيين ، وهذه هي
الصفة التي تميزه عن منافسه المبكرى
رافائيل .

ونستطيع قبل مغادرة سقف المصلى أن
نتمهل لحظة أمام **تصاوير الغلمان الصراة**
(لوحة ٣٠) لنقارنها بتمثال **الإنسي الفسافية**
التي ترمز لليل (لوحة ١٦) ، وذلك التي ترمز
للفجر (لوحة ١٩) والتي رجوت استضافتهما
في الذاكرة عدة دقائق ، ولنتأمل جيدا هؤلاء
الغلمان الذين يمتلكون من السحر والفننة
والإثارة ما يستطيعون به منافسة جميلات
الفتيات ، ليس في بشرتهم المقنولة ، ولا في
رقة اللامع ، ولا استدارات المناكب ورشاقة
السيقان ، ولا في اثبات الانداء وانسداد
الشعور ، بل كذلك في التننى والتساود في
الوضعة المثيرة والفتنة الدامية ، المترددة
الحائرة بين الجسادة والحياء .

في أى مالم رأى ميكلائجلو ذلك الجنس
البشرى الغريب ؟ لا شك أنه جنس ابتدعه
هو بخياله . ولعل لوحة يوم الحساب
(لوحة ٢١) هي أشهر تصاوير روما الجدارية ،
وهي بلا شك أكبرها حجما ، إذ تغطي مساحة
قدرها ستة عشر مترا في اثني عشر مترا .
وقد توزعت رسومها على ثلاثة أقسام رفق
التثليث الافلاطوني : تسود في أعلاها مملكة
السماء بتوسطها المسيح في جلاله على عرش
السحب يوصفه قاضيا والعلاء الى جواره .
ومن حوله حلقة من الرسل وآباء الجنس
البشرى المذكورين في التوراة تحيط بهم

مجاله تخطيطية ، أو على خطاب أو ظهر فاتورة حساب ، مما يجعلنا نرى بوضوح أنه كان يسجل خواطره - أو على الأقل مسودتها - على أول ورقة تقع بين يديه .

وتحمل اشعار ميكلانجلو التي تبلغ حوالي المائتين وخمسين قصيدة طابع التكثيف لانفعالاته ، بلا تكلف أو اسهاب مصطنع أو بلاغية لفظية ، فالشعر هو مملكة ميكلانجلو الخاصة . ولم يكن يكتب اشعاره للصامة بل لنفسه هو ، أو لانسان بذاته . ومن ثم كان ديوانه الشعري أشبه بيوميات لمواطنه، ومرة لقلبه ، وسيرة ذاتية عاطفية وروحية.

وفي عصر كان كل عمل فني خاضعا للتقاليد أكثر مما هو الحال الآن ، كان على ميكلانجلو رغم تفوقه على غيره في التعبير عن نفسه الحقيقة ، ورغم أن ممارسته للشعر قد بقيت في إطار الهواية بعيدا عن الاحتراف ، أن يلتزم بالتقاليد الفنية التي لا يستقيم الشكل الشعري من غيرها ، ودون أن يكون مع ذلك مؤمنا بها ، وذلك ما هو بصنعة الشعرية عن مستوى رفاقه .

كان عالم الشعر ملاذ ميكلانجلو ، يفرغ إلى خلوته كلما أجبت انفعالاته عذاب القلق في أعماقه . وما أكثر ما كان يهرب إلى الشعر . فما كانت حياته إلا قطعة متصلة من العذاب الداخلي العاصف الذي يتضائل أمامه كل حزن هابر . وكان احتدام مشاعره يشده إلى عزلة موحشة ، يرفض داخل أسوارها رؤية الأصدقاء ، ويسمر عليه أن يعيش في سلام حتى مع نفسه ، لكنها كانت تتيح له اشباع حاجته إلى التأمل والتركيز الهائل لانجاز أعماله الإبداعية . ومع ذلك فكم كان رقيق المشاعر مع بسطاء الناس ، عطوفا حانيا على الفنانين الناشئين ، كلما عرف الانفلات لحظات خارج أسوار العزلة .

- والانفلات عن أسوار الزمان والكان .

- وتحريك الوجدان البشري بإثارة الشفقة والرحمة .

على أن هذه اللوحة التي أحدثت هذا التأثير الهائل على المصورين المعاصرين قد أثارت عدااء محمومًا من جانب رجال الدين والفكر الذين كانوا يقاومون حركة الإصلاح الديني . وهكذا امتدت أبداً التزم لتفطى معظم الاشكال المعارية في لوحة يوم الحساب.

• • •

فاذا تركنا عالم النحت والتصوير والمعارة ودلفنا إلى عالم الشعر وجدنا الباب مفتوحا إلى أعماق ميكلانجلو ، فليس غير الشعر ساعرا يزيح بصاه الستر .

وكان ميكلانجلو واحدا من أعظم أربعة أو خمسة شعراء إيطاليين في عصره ، وإذا كان أشدهم صدقا فقد كان أقلهم شائنا من ناحية الصنعة الشعرية ، فكان تعبيره الشعري من أكثر الاسمار الفنية الإيطالية تركيزا وغموضا ، حتى كان بعض ناشرى شعره يتبعون كل قصيدة بشرح هو في حقيقته ترجمة نظرية بالإيطالية الحديثة .

وليس يعني هذا أن لفته نفسها كانت عميرة بالنسبة للقارئ المعاصر ، ولكنه الفكر وراماه الذي يلبس ساطعا وخفيا في آن معا . والواقع أن شعر ميكلانجلو هو شعر ذاتي بحت . وأغلب الظن أنه لم ينظم قط قصيدة دون أن يكون واقعا تحت تأثير انفصال ما ، فلم يكن ينظم إلا مدفوعا بحاجة قوية ، أو ممزقا بعذاب، أو محاصرا بماطفة وكشف مخطوطاته التي خلفها عن تلقائية الهلmates . فقد كانت كثرتها مسجلة على طرف رسم أو

تجملنى لا أعبأ بالشجر ،
ولا أخشى الموت .

حتى إذا ما أطلت المرأة على أفق حياته
أقبلت في ثياب سيدة مترهبة تعيش في دير
القديس سلفستر بروما تحمل أربعين عاما من
الثقافة الرفيعة والورع والفضيلة ، وتمنحه
أهم ما كان في حاجة إليه : حنان الامومة الذي
لم ينعم به لوفاة والدته في طفولته ، وطمانينة
النفس التي كان يطاردها شعوره بالاثم
وخوفه من عذاب النار . بينما كانت **فيتوريا**
كولونا تبشر بمقيدة جديدة تجعل من الإيمان
وحده مخلصا من كل الآلام .

وهكذا وجد ميكلانجلو أخيرا المرأة الصديق
والمرأة المراء ، والمرأة الطمانينة ، والمرأة
الخلاص .

وايقظت فيتوريا المسيحية ، في أعماق
ميكلانجلو ، فاشتعل بحماس خلاق ، وعكف
على انجاز أعمال فنية دينية تمثل فكرة
الخلاص بواسطة السيد المسيح ، كانت قمتها
لوحة يوم الحساب التي واكب تنفيذها هذه
العلاقة المتسامية .

وحين ماتت فيتوريا بعد أن أضاعت حياة
ميكلانجلو عشرة أعوام بكى العملاق كطفل
رضيع فقد إلى الأبد أمه ، والتفت التشاؤم
ثانية حول وجدانه ، وصيغ شعره بالأسى
وتوقع الموت وراح يقول : -

« أتق أن الفناء مقبل

لكننى لا أعلم موعد أقدامه

العمر قصير

لم يبق لى منه سوى القليل

حتى الآننى لم تعرف طريقها إلى خلوته ،
فماش دون أن يتخط زوجة أو خلية مع أن
صداقته بمسامديه ونماذجه كانت تفوق في
عنفها وصدها أعق العلاقات البشرية .

ولست نظرت له للحب بعيدة عن النظرة
الإفلاطونية : فالجمال البشرى يوقظ في النفس
أصالتها الإلهية ، ويرتقى بها إلى عالم الآلهة
أن هى انسحبت من الانجذاب الجسدى
وهامت بالروح . وهكذا أحب ميكلانجلو
صديق عمره تومازو كافاليري النموذج الذي
التقى فيه جمال الروح بجمال الجسد ، فخلد
صداقتهما في قصائد من شعر أخاذ ، ترجمته
هو وغيره عن الفرنسية لا الإيطالية :

« بلا روية انطلقت إليك .

فلننتنى على شاطئ جدول نحيل .

أعبره دون أن يبلل مؤه ما فوق قمى .

لكن .. ها أنذا مد خلفت الشاطئ .

محاصرا وسط خضم محيط هائل .

تشمخ أمواجه من كل جانب .

آه لو كنت مستطيما العودة للشط .

لهزلت سريعا .

لكننى مائمت بلفت مكانى .

فلا صنع من قلبي صخرة .

واخوض بها اليم .

واسمك في روحى وكيانى .

يملؤنى ربا وعذوبة .

ثم يخلطنا دون حراك

في نفس الوضع الذي يلتقنا فيه » .



ومع احساس ميكلانجلو بأقترب الموت
دب فيه التخاضل فلم يعد يكمل رسومه او
تمائله، وأخذ يشوه نسب الجسم التشريحية
عامدا ، ففتح الابواب على سمعتها أمام المنسوخة
المتكلفة « مازيزم » ثم لطرأ الباروك .

كتب الى فاسارى مؤرخ فناني عصر
النهضة عام ١٥٥٩ قبل وفاته بخمسة أعوام:
« ليس ثمة فكرة في أعمالي لم يتشرب اليها
الموت » ، وأصر على قضاء بقية إيامه في خدمة
بلاط البابا بروما لعله يظفر بالخلاص .

وانتقل العبقري العملاق الى عالم الخلود،
وبقيت تماثيل باكخوس ودلود وموسى والعذارى
الآسية ، وتصاوير سقف مصلى سيستينا
ولوحة يوم الحساب لتذكر الأحياء بأن رجلا
فلذا قد شارك بأزميله وفرشاته في صنع
عصر كامل هو عصر النهضة الإيطالية ، وفي
دفع البشرية خطوة حاسمة على طريق التقدم .
كان اسمه وسيتقي ميكلانجلو . . . أو الملائكة
ميكانيل .

الحياة الدنيا تستهوى حواسي

بينما تستحشني روعي للقاء الموت .

العالم ضريع شرير

يعصف بالأشياء بضربات علوية

النور انطفأ

نوشى منه كل امان .

ينتصر الزيف

ويستخفي الحق

وا اسفاه . . وياه ، متى يتحقق امل المؤمن
بك ؟

وطول الانتظار: يفتك بالأمال

ويترك الروح فريسة للموت .

ما قيمة النور الغامر . . الذي تعد به

مادام الموت سيقبل بفتة .

وتبقى المرء أمامه بلا حول ولا قوة



الراجع

- Bottari, Steffano Michelangel. La Cappella Sistina. Bratelli Fabri — Albert Store 1968.
- Berenson, Bernard Italian Painters of the Renaissance vol. 2. Florentino and Central Italian Schools. Phaidon, London. New York, 1968.
- Clar, Keneth Civilisation, a personal view. British Broadcasting Corporation and John Murray 1969.
- Forlani, Anna Michelangelo. Prатели Fabri Editori 1963.
- Fleming, William Arts and Ideas, Holt, Rinehart and Winston New York 1961.
- Goldscheider, Ludwig Michelangelo. Complete edition. Phaidon 1959.
- Huygho, René l'Art et l'Amé. Flammarion 1960.
- Pope Hennessy, J. Italian High Renaissance and Baroque Sculpture, 1963.
- Revel, Jean - Francois Michel-Ange: Le Secret d'un coeur révélé par les Sonnets. Collection Génies et Realités. Paris Hachette 1961.
- Redig de Campos D. Michelangelo ... Cappella Paoline in Vatican. Collezione Silvana Milano 1956.
- Vasari, Giorgio Life of Michelangelo Buonarroti, The Folio Society. London 1970.
- Wolfflin, Heinrich Classic Art. An Introduction to the Italian Renaissance, Phaidon. London, New York 1968.

— العهد القديم من الكتاب المقدس .





(لوحه ۱) باکخوس



(لوحة ٢) العذراء الآسية (بيينا) الفاتكان



(لوحه ۲) سقلم مصلی سیتینا عراقه کومای



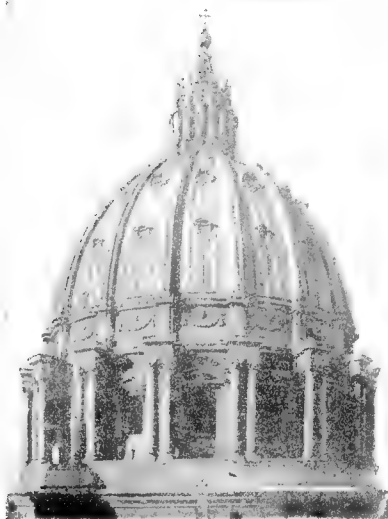
(لوحة ٤) سقف مملى مسيحية النبي يونس والحيوت



(لوحه ۵) سقف صلی سیستینا



(لوحة ١٦) نموذج خشبي لقبة كنيسة القديس بطرس بروما



(لوحة ٦٦) قبة كنيسة القديس بطرس بعد الانتهاء منها



(لوحة ٧) العبد الفلول - متحف اللوفر



(لوحة أ) المبد التعمد - متحف اللوفر



(لوحة ١٠) أسير بوبولي اللاتحي



١ لوحة ٩) أسير بوبولي



(لوحة ١١) الطراء الآسية «تفصيل» وجه المسيح



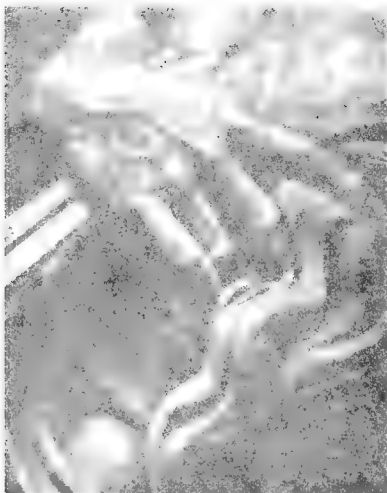
لوحة (١١٢) داود



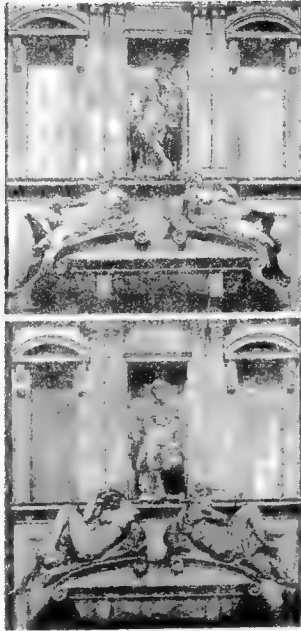
(لوحه ۱۲ پ) داود



(لوحة ١٢) موسى



(لوحة ١٢ ب) موسى - تفصيل اليد اليمنى والحية



(لوحة ١١) ضريح لورنزو

(لوحة ١٥) ضريح جوليانو



(لوحة ١٦) جوليانو - الليل



(لوحة ١٧) فرسخ جوليانو - النهار



(لوحة ١٨) مخرج لورنزو - القروب



(لوحة ١٩) صريح لورينزو - الفجر



(لوحة ٢٠) دراسة لمعركة كاسكينا



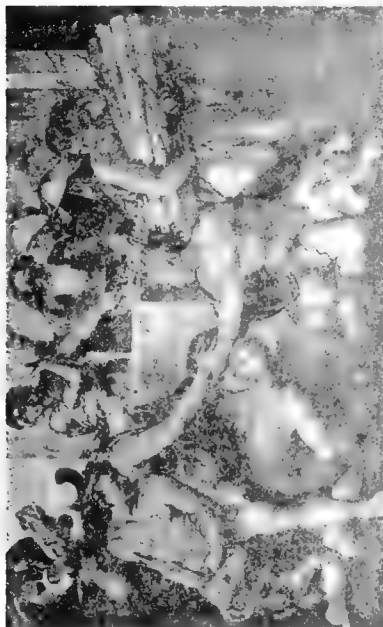
(لوحة ٢١) سقف مصلى سيستينا - نوح لولا



(کوفتہ ۴۱ ب) سفلی سپینا - لوح ۲۷



رجم ٢٢ - سفنملى سينيئا - العراق



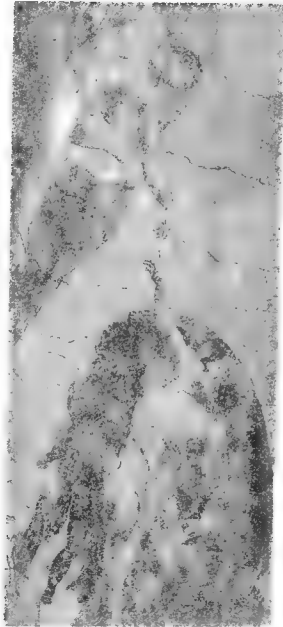
١ - نوحه ٢٢ - سقف معماري مستطير - نوح ٢ - نوحه ٢٢ - سقف معماري مستطير



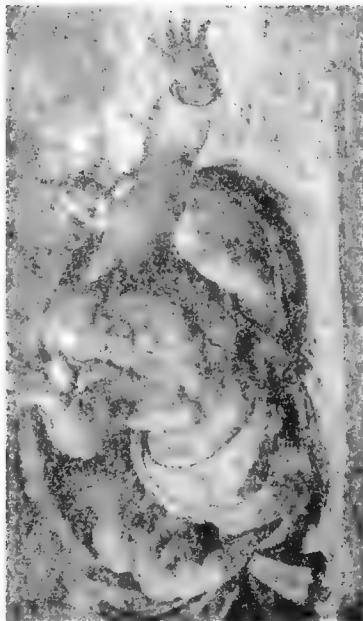
(لوحة ٢٤) سقف معبد سيوتيا - خليفة آدم وحواء ورعها من الجنة



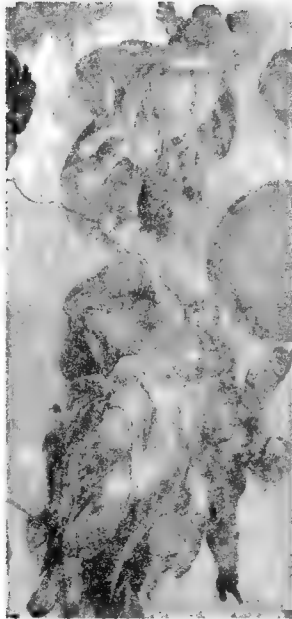
لوحتہ ۲) سفصل سیتنا - خان حیدر



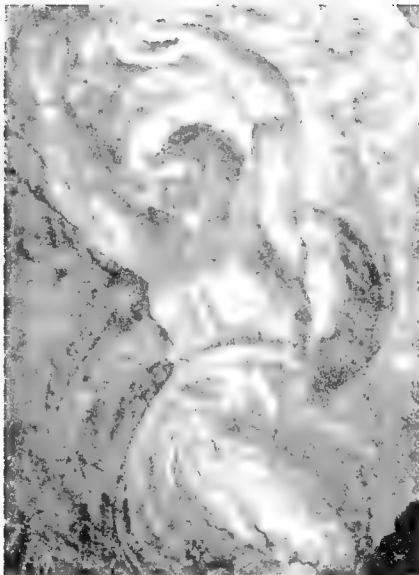
(لوحة ٢٦) سقف معبد سينسيتا - طاق آدم



(لوحة TV) سلفد معلى ميخائيل لعل البابسة ميخائيل



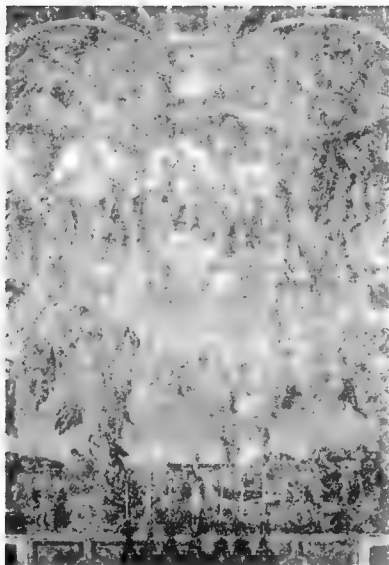
(لوحة ٢٨) سقف كهف سميتا - جبال الشامي والشمس



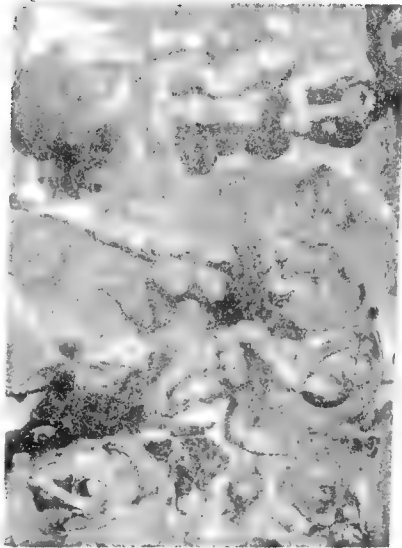
(لوحة ٣٩) سلف معلى سيستينا - مشهد فصل الثور عن الظلمة



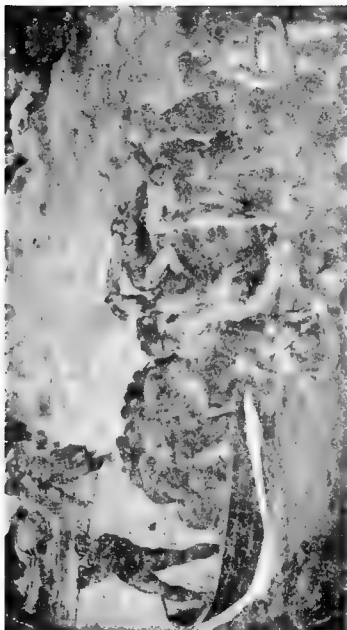
(لوحة ٣٠) سقف معبد سيسينا للام عار (البيوت)



(لوحة ٢١) مصلى سيستينا - لوحة يوم الحساب



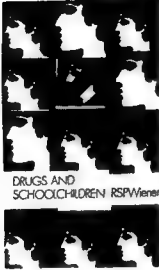
(لوحة ٢٢) معلق مستحثة - تفصيل من لوحة يوم الضباب - المساهم
بهايون إلى الجضم



(لوحة ٣٢) معلى سبيتييا - تفاصيل من لوحة يوم الحساب
(الجحيم)



(لوحة ٢٤) مصلح سيستينا - تفصيل من يوم الحساب - السبع في
جلاله بومله لافسيا



المخدرات وطلبة المدارس

تأليف: ر. س. ب. وايسنر

عرض وتوايل الكتوبر: عدنان الدوي

في الجامعة المذكورة . اما كتابه هذا فهو حميلة البحث العلمى الذى تقدم به لنيل درجة الدكتوراه في جامعة لندن .

ينقسم الكتاب الى اقسام ثلاثة خصص القسم الاول كمدخل نظرى لعرض ابعاد مشكلة المخدرات بوجه عام وبيان اهداف الدراسة وإيجاز بعض الدراسات العلمية التي تناولت هذه المشكلة . وقد خصص القسم الثانى لعرض ماهية الدراسة الميدانية حيث تناول طريقة البحث وكيفية اختيار عينات البحث وعمليات الاستبيان وجمع المعلومات المطلوبة . اما القسم الثالث فقد تضمن خلاصة النتائج وبعض التوصيات المتصلة بموضوع المشكلة . كما ذيل الكتاب بملاحق خاصة باستمارات البحث والاستبيان وبعض الرسائل المتداولة لغرض جمع المعلومات المطلوبة .

ان موضوع العقاقير المخدرة يشكل موضوع الساعة في اوليته بين البحوث والدراسات الاجتماعية والنفسية والطبية، والطبية العقلية والقانونية المعاصرة . لقد ظهرت كتب عديدة ودراسات علمية لا حصر لها تناولت هذا الموضوع ، الا ان الجديد في هذا الكتاب انه يعالج جانبا حيويا من هذه المشكلة ، وهي ظاهرة تفشى هذه السموم المخدرة بين فئة طلبة المدارس من المراهقين الذين لا تتجاوز اعمارهم التاسعة عشرة .

مؤلف هذا الكتاب الدكتور برايسنر من الباحثين العلميين المتخصصين في معالجة المشكلات الاجتماعية الذين يعملون في مدرسة لندن للدراسات الاقتصادية ، كما قد درس علم النفس في جامعة سدن باستراليا ، وعمل فترة ما في المعهد القومى لعلم النفس الصناعى

وعلى الرغم من أن الباحث في كتابه هذا لم يهدف إلى معالجة مشكلة المخدرات بوجه عام ، إلا أنه أفرد ما يزيد على المسميين صفحة من كتابه لمعرض أوعية أكاديمية نظرية لموضوع المخدرات ، وهذا لا شك يعكس اهتمام الباحث بالأطار النظري العام الذي يشكل المدخل الأكاديمي للدراسة موضوع الكتاب .

وإذا كان الإنسان قد استخدم العقار المخدر منذ آلاف السنين إلا أن هذه العقاقير المخدرة لم تصبح مشكلة ذات أبعاد اجتماعية ونفسية وطبية وقانونية إلا خلال القرنين الماضيين . أما اليوم فقد بلغت مشكلة العقاقير المخدرة أبعاداً خطيرة لدى الكثير من المجتمعات المعاصرة ، وليس أدل على ذلك من بعض الإحصائيات العالمية التي تشير إلى أن عدد الأشخاص الذين يتناولون نبات الماروانا يزيد على المائتي مليون شخص في جميع أنحاء العالم . وهناك إحصائيات عالمية لعام ١٩٦٢ تشير إلى أن عدد الذين يتناولون بعض العقاقير المهدئة والمنشطة بصورة غير مشروعة يزيد على عشرة ملايين شخص في العالم . أما في الولايات المتحدة الأمريكية فإن مشكلة المخدرات تجاوزت أبعادها التقليدية المألوفة ، حيث يشير المكتب الفدرالي للمخدرات إلى إحصائية صدرت في صمام ١٩٦٥ أن عدد الممنعين على عقار الهيروين وحده بلغ (٨٩٦٠٥٥) شخصاً ، هذا على الرغم من تلك العقوبات الشديدة التي تضمنها القوانين الجزائية الأمريكية لمنع تداول هذا العقار منذ عام ١٩١٤ .

ما هو المقصود بالعقاقير المخدرة ؟

هناك تعريف عام ورد بقاموس أكسفورد الإنجليزي يعرف العقار بأنه كل مادة طبية جوهريّة مضبوطة أو غير مضبوطة تستخدم بصورة نقيّة أو في تركيب كيميائي خاص . وهذا التعريف لا شك لا ينصرف إلى العقار المخدر الذي يتناوله الشخص بصورة غير مشروعة ، فالعقار لا يصبح مشكلة إذا استخدمه صاحبه

لأغراض طبية علاجية مشروعة أو تحت إشراف طبي . أما العقار المخدر الذي يمنع القانون تداوله فهو كل مادة كيميائية تؤدي إلى تغير محسوس في مزاج الشخص الذي يتناوله ، وإلى تبدل واضح في شعوره وفي إدراكه ، وذلك حين يستخدم هذا العقار بصورة غير مشروعة وبأسلوب يخالف معايير المجتمع ونظمه . ولكن ما هي تلك المواد المخدرة التي يمنع القانون تداولها خلافاً للأغراض الطبية المشروعة ؟

أن العقاقير المخدرة التي يشيع استعمالها اليوم بين غالبية الشباب والراغبين هي الأنواع التالية :

(١) مركبات الأفيون opiates وبوجه خاص مركب الهيروين heroin .

(٢) مركبات نبات القنب cannabis

(٣) عقاقير الهلوسة وبوجه خاص المركب المعروف LSD .

(٤) مركبات الأمفيتامين amphetamines

(٥) مركبات حامض البريتوريك barbiturates .

(٦) المركبات التي تشتمل على الأمفيتامين وحامض البريتوريك معا .

ولعل من الضروري أن نتناول هذه العقاقير بتعريف موجز لبيان بعض صفاتها المميزة وتاثيراتها المختلفة .

أولاً - مركبات الأفيون : وقد عرف الإنسان الأفيون opium منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، أما عقار الهيروين heroin وهو من مركبات الأفيون فقد ظهر في ألمانيا منذ عام ١٨٩٨ وهو عقار يجري تصنيعه من

أما التأثيرات الشائعة لهذه المركبات فهي طلاقه اللسان وأحلام اليقظة وزوال التلصق والمواقف الباطنية لحرية النشاط والشعور بالمرح والتغير والارتخاء . كما وهناك خطأ شائع يدعو الكثير للاعتقاد بأن لهذه المركبات تأثير معين في زيادة الطاقة الجنسية ، ولكن الثابت علمياً أنه لا توجد علاقة بين مثل هذه المركبات وبين زيادة الحيوية الجنسية ، ولكن ربما لبعضها تأثير في إطالة العملية الجنسية . أما بعض التأثيرات الضارة لمثل هذه المركبات فهي لازالت موضوع خلاف كبير . فقد يجد البعض أن الاعتقاد على هذه المركبات لمدة طويلة يؤدي إلى تدهور القدرات الذهنية ويضعف القدرة على مواصلة العمل المنظم ، كما يؤدي إلى اضطراب العلاقات الاجتماعية بالآخرين ، وهو في الغالب يقود إلى حالة الإدمان على المخدرات . إلا أن منظمة الصحة العالمية لا تؤكد ظهور حالة الاعتماد البيولوجي نتيجة تناول هذه المركبات ، ولكن مثل هذه المركبات تؤدي إلى حالة الاعتماد النفسي . كما يرى البعض الآخر أن هذه المركبات هي أقرب في تأثيرها إلى تأثير الكحول ، وهذا يجعلها بعيدة عن مركبات الأفيون ، إذ أن استعمال مركبات نبات القنب بصورة متتالية، كما يراها البعض ، لا تزيد في خطورتها عما يتعرض له الإنسان نتيجة أسرافه في تناول الكحول . إلا أن هناك من يعتقد بأن تناول هذه المركبات يشكل جواز سفر للمبور إلى إدمان عقاقير مخدرة أخرى أشد خطورة كالهروين حيث تؤكد غالبية الإحصائيات وجود مثل هذه العلاقة .

ثالثاً - عقاقير الهلوسة hallucinogenics
ومن أبرز أنواعها العقار الشائع باسم LSD والعقار DET والعقار DMT . وربما يكون عقار LSD أكثرها شيوعاً لسهولة الحصول عليه . وهذه عقاقير في الغالب تؤدي إلى تغيرات محسوسة في التفكير وفي الإدراك

عقار المورفين ويطلق عليه علمياً مصطلح diacetylmorphine . ولا شك أن مركبات الأفيون ومنها عقار الهروين تعتبر من أخطر العقاقير المخدرة ، حيث تقول منظمة الصحة العالمية أن هذا العقار يؤدي إلى حالة الإدمان addiction حيث تتبلور الرغبة الشديدة لاستمرار تناول العقار بأية وسيلة كانت والرغبة المستمرة لزيادة كميته ، وبالتالي الاعتماد المباشر على العقار يوماً بعد يوم . ويرى الكثير من العلماء أن هذا العقار يؤثر على الجهاز العصبي المركزي ، وإلى هبوط الفعاليات الجثمانية والعقلية واحتقان حدقة العين والأمساك المعوي وانقطاع طمث النساء وفنور في الرغبة الجنسية وغير ذلك من الأمراض الأخرى . ولا شك أن إدمان عقار الهروين يفقد الممن قدرته على مواصلة حياة اجتماعية سوية وتكوين علاقات سليمة بالآخرين ، كما وأن الممن للإسعى في الواقع إلى عقد صداقات جديدة خارج إطار علاقته بالممنين من أمثاله ، ولذلك فهو غالباً ما يفضل العزلة على تكوين صداقات جديدة .

رابعاً - مركبات نبات القنب cannabis
وهذه عقاقير عرفها الإنسان منذ عام ٢٢٣٧ قبل الميلاد ، وهي تستخرج من أوراق أو بذور أو قشور نبات يصرف بالقنب cannabis sativa ومن أشهر أنواعه الماريوانا marijuanna وتستخرج من الأزهار المجففة لأننى هذا النبات ، والنوع الثاني هو الحشيش hashish وهو يستخرج من مسحوق النبات المجفف بعد مزجه بالمادة الصمغية التي تكسو قشرة هذا النبات . وهناك أكثر من ثلاثة وتسعين اسماً يطلق على مستحضرات نبات القنب ، إلا أن الشائع منها الماريوانا والحشيش والكيف والداجا والجانجا .

تسبب بعض الإحصائيات الأمريكية الصادرة في عام ١٩٦٥ إلى أن عدد الوصفات الطبية التي صرفت من قبل الجهات الصحية بصورة مخالفة للقانون تجاوزت ٣٨٠.٠٠٠ وصفة طبية . أما تأثير هذه المركبات فيقول الأطباء المتخصصون أنها تزيد من ارتفاع ضغط الدم وارتخاء العضلات واتساع حدقة العين ، وهي في الغالب تساعد على زوال الإرهاق الجسدي والعقلي وتضاعف الحيوية وتزيد الثقة بالنفس . ويؤكد بعض الأطباء أن تناول هذه المركبات بصورة معتدلة وبكميات صغيرة وفي أوقات متفاوتة لا يثير مشكلة ادمان بالمعنى الطبي ، إلا أن تناولها بكميات كبيرة وبأوقات متكررة يؤدي إلى حدوث تأثيرات سلبية كحدوث زيادة مفرطة في الحيوية ربما تقود إلى بعض النتائج غير المرغوب فيها اجتماعيا ، كما قد تؤدي إلى حالة الانهيار أو إلى ادمان عقاقير مخدرة أخرى .

خامسا - مركبات حامض البريتيوريك Barbiturates وهذه تدخل في الغالب تحت مركبات الإفتمامين إلا أنها تختلف في تأثيراتها الكيميائية والنفسية ، فالإفتمامين عقار منشط يضعف حيوية الجهاز العصبي ، بينما تعتبر مركبات حامض البريتيوريك عقاقير مسكنة مهدئة خافضة للحياة . ولعل مركبات حامض البريتيوريك أقل خطورة من مركبات الإفتمامين ، وذلك لعدم شيوعتها بين الشباب والمراهقين على نطاق واسع .

والدراسة الميدانية أو البحث العلمي موضوع هذا الكتاب جاء عرضه في القسم الثاني والثالث من الكتاب . ففي القسم الثاني طرح الباحث خطته في البحث والطرق التي استخدمها في جمع البيانات المطلوبة ، وكيفية اختيار عينات البحث وتنفيذ خطوات البحث . أما القسم الثالث فقد خصصه الباحث لنتائج البحث وتطليل المعلومات المتحصلة وطرح بعض التوصيات .

وفي الزواج ، ولكنها لا تؤدي إلى اضطرابات دائمية في الشخصية . وقد اكتشف مقار LSD علميا منذ عام ١٩٢٨ ، إلا أن الاهتمام بدراسة آثاره تبلور خلال عام ١٩٤٣ . ويمكن إيجاز أبرز الآثار الجسمانية التي تنشأ من تناول هذا العقار بأنها تشتمل على اتساع حدقة العين ونبات نسبة ضغط الدم ورمشة سريعة وحادة في الرتبة وزيادة في النبض وضعف واضح في النطق . أما الآثار النفسية فيمكن تلخيصها بظهور حالة امتزاج بين الذات والعالم الخارجي وظهور الشعور بالانحدار مع كل الانسياق أو حالة انقسام من الذات ، أو حالة انقسام من العالم الخارجي . ويقول أحد العلماء بأن هناك حالة انتحار واحدة تحدث بين كل (٢٥٠٠) حالة ممن يتناولون هذا العقار . كما ويتفق غالبية العلماء على أن غالبية الذين يتناولون هذا العقار يعانون من بعض الاضطرابات العاطفية أو أنهم يعانون من اضطراب واضح في شخصياتهم .

رابعا - مركبات الإفتمامين وهذه تشتمل على مجموعة كبيرة من العقاقير يزيد عددها على العشرين ، ويشيع تسميتها بالعجوب المنشطة للحياة أو تلك التي تصرف بـ PEP-PILLS وهي إما أن تكون من مستحضرات الإفتمامين بصورة نقية أو مختلطة بمركبات حامض البريتيوريك . أما المراهقون فهم يطلقون على هذه المركبات تسمياتهم الخاصة مثل مصطلح METH أو DEXIES أو BENNIES أو PURPLE HEARTS . والأصل في هذه المركبات أنها تستعمل لأغراض طبية خاصة مرهفها الطب الأميركي منذ عام ١٩٢٧ تحت اسم البنزيرين BENZEDRINE لالتهاب حالات الاضطرابات النفسية والعصبية الكحولية وبعض الاضطرابات النفسية والأعراض غير المشروعة جاوز أهدافها المشروعة ، حيث

٢ - لم يجد الباحث اختلافات تتصل بالجنس ، أى بين الذكور والإناث ، ولكن ظهر أن غالبية أفراد الجنسين يمثلون سناً متقدمة نسبياً ، وأن غالبيتهم قد اعتادوا على الانقطاع عن الدراسة بصورة متكررة ، كما أن غالبيتهم أيضاً لا يلجأون إلى آبائهم لحل ما يعترضهم من مشكلات ، وأن هؤلاء الآباء في الغالب يتميزون بلين واضح وعدم اكتراث بضغط سلوك ابنائهم أو الإشراف على تربيتهم .

٣ - لقد ظهر أن نوعية النشاطات التي يمارسها أفراد الجماعة التي تستخدم العقاقير المخدرة في أوقات فراغهم هي أقرب إلى تلك التي يزاولها البالغون بوجه عام ، كالتردد على المقاصف ودور الرقص ودور التسلية ، وأن هذه الطائفة تنفق الكثير من المال على التدخين وعلى المشروبات الكحولية وعلى العناية باللبس وتيسير العقاقير المخدرة ، ويميل أفراد هذه الطائفة إلى الاختلاط بمن يكبرهم سناً ولا يجدون حرجاً في تقليد الأنماط السلوكية الخاصة بالبالغين ، ولذلك فإن أفراد هذه المجموعة يسلكون سلوكاً يفوق سلوك الأطفال الذين هم في سنهم .

٤ - ويتميز أفراد عينة البحث بأنهم أقل احتراماً وأكثر اندفاعاً في سلوكهم ، وهم يعلمون الكثير من المخدرات واستعمالها ومزاياها .

٥ - وقد ظهر أن أفراد عينة البحث يعتقدون بأن تناول العقاقير المخدرة يريد من جاذبيتهم الجنسية لدى الجنس الآخر .

أما القسم الثالث فقد تضمن توصيات الباحث بهدف تقرير سياسة تربوية تعليمية تتعلق بموضوع مشكلة المخدرات بين طلبة المدارس . ويعتقد الباحث بادية ذى بدء بأن مشكلة تعاطي المخدرات بين طلبة المدارس

ويقوم البحث على خطة اختيار مجموعتين من الأطفال أحدهما مجموعة بحث ضمت (١٠٣٩) طالباً من طلبة المدارس ممن تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة ، وقد اختارهم الباحث كعينة للطلاب الأطفال الذين يعتقد أنهم تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم ، وهم يمثلون أربع مناطق جغرافية مختلفة من منطقة مدينة لندن . أما المجموعة الثانية فهي مجموعة ضابطة تمثل عدداً مماثلاً من الأطفال الذين اتكروا استعمالهم للعقاقير المخدرة بشكل من الأشكال طيلة حياتهم .

وعلى الرغم من أن الباحث شعريصوبة التأكد من صحة استعمال الأطفال للعقاقير المخدرة ، وذلك بمجرد الاعتماد على ادعائهم الجرد ، فقد قام بتجربة تحضيرية أولية تناولت مجموعة صغيرة من الأطفال لمعرفة مدى إمكانية الاعتماد على مجرد الانصاء باستخدام العقار المخدر ، وقد دلت نتائج هذه التجربة الأولية على إمكانية الحصول على مثل هذه الاعترافات إلى حد ما .

ويظهر أن البحث كان يقوم على فرضية أولية وهي إمكانية تشخيص بعض الاختلافات بين طائفة الذين يستعملون العقاقير المخدرة وبين أولئك الذين لم يستعملوها ، وقد أمكن اختبار هذه الفرضية بطرح استبيان مفصل على الطائفتين لتحقيق هذا الغرض . ويمكن تلخيص أبرز النتائج التي توصل إليها الباحث بما يلي :

١ - ظهر أن نصف أفراد مجموعة البحث قد اعتادوا على استعمال عقاقير مخدرة بصورة فعلية وأن ٧٥٪ منهم قد تناولوها بصورة غير منتظمة ، كما تأيد أن بعضهم تناولوها من أجل لتأثيرها بينما تناول البعض نوعاً واحداً أو نوعين أو ثلاثة أنواع من هذه المخدرات .

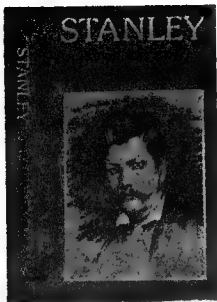
لم تبلغ بعد مرحلة خطيرة من حيث انتشارها أو شيوعها . ففي تقدير الباحث أن أقل من ١٠ ٪ من طلبة المدارس ربما تناولوا بعض العقاقير المخدرة في فترة من فترات حياتهم تحت دوافع التقليد أو لفرض الظهور على الأقران .

ويرى الباحث أن القيام بحملة إعلامية أصلحية بهدف تبصير الأطفال بخطر المخدرات وإلأارها السيئة قد تكون في جدياها أقرب إلى تلك الحملات الإعلامية العقيمة التي تقوم بها بعض الجهات الصحية من وقت لآخر لتبصير أطفال المدارس بأضرار التدخين ومساوئه . ويفسر الباحث عدم جدوى هذه الحملات الإعلامية الواسعة بأنها قد تزيد من وعي الأطفال بوجود مثل هذه المخدرات التي يجهلون موضوعها جهلا تاما ، ولذلك فإن مثل هذه الحملات تعرف الأطفال بوجود مشكلة المخدرات ، الأمر الذي يفهمهم إلى تجربتها بدافع الفضول ويوصفها عادة شائعة غير ضارة بدليل أنها شائعة بين عدد كبير من الأطفال في كل مكان .

وربما يكون لبعض الأفلام الخاصة بموضوع المخدرات فائدة إرشادية في هذا الباب ، إلا

أن الدراسات العلمية المتيسرة في هذا المجال لم تؤيد بالرأى القاطع إيجابية مثل هذه الأفلام التعليمية ، ولذلك فإن الباحث يعتقد بإمكانية القيام بحملات إعلامية بين الأطفال ، ولكن على أسس محددة وأهداف مدروسة ، وبناء على دراسات ميدانية لتحديد نطاق هذه الحملات ونوعية المعلومات التي تقدم للأطفال وكيفية تقديمها والأشخاص الذين يقومون بعمليات التوعية المطلوبة ، إلى غير ذلك من المتطلبات الأخرى .

وعلى العموم فإن مثل هذه الدراسة الرائدة أن لم تأت بالشوء الكثير الجديد في ميدان واسع كبير فهي بلا شك قد ألقت الضوء على زاوية حيوية من هذا الموضوع حيث أظهرت نوعية الأطفال الذين يستخدمون العقاقير المخدرة ، ولكن ينبغي أن لا يقف البحث عند تشخيص الأفراد الذين يستعملون هذه العقاقير المخدرة ، بل بمتابعة وملاحظة حياتهم لمعرفة من يعتاد منهم على هذه العقاقير في مستقبل حياتهم ومن ينقطع عن استخدامها لأكثر من سبب ، وبالتالي معالجة أولئك الذين تصبح العقاقير المخدرة مشكلة كبيرة في حياتهم ومشكلة أكبر بالنسبة لمجتمعاتهم .



ستانلي المستكشف المغامر

عرض وتحليل . الدكتور عبد الرحمن الشرنوبلي

عقولهم ، لا تزال جداوله متقدمة حتى الآن .
فرحلات ستانلي التاريخية ظلت وستظل من
اعظم ماسجلته قصص الرحلات اثاره في تاريخ
كشف افريقيا .

لقد قام ستانلي بأربع رحلات ناجحة الى
اواسط هذه القارة . كانت رحلته الاولى خلال
عامي ١٨٧١ و ١٨٧٢ ، وكانت الغاية منها
البحث من الدكتور لفنجستون الذي سافر
الى القارة في مهمة كشف بتكليف من الجمعية
الجغرافية الملكية البريطانية ، ولكن بعد ان
اعتلت صحته وانقطعت اخباره ، كان لابدين
البحث عنه ، وتقصى اخباره ، فكان ان سافر
ستانلي موفدا من قبل الجريدة الامريكية التي
كان يعمل بها آنذاك وهي جريدة النيويورك
هيرالد .

صدر هذا الكتاب في عام ١٩٧٤ ، اي بعد
مائة عام تماما على بدء ستانلي رحلته الشهيرة
الى افريقيا ، حيث كشف مصب نهر الكنفو
الحقيقي . الف هذا الكتاب الصحفي «ريتشارد
هول» واصدرته دار جوليتر للنشر في لندن
ويبدو ان موضوع هذا الكتاب لم يكن ليشغل
بال مؤلفه لولا ان اتيحت له الفرصة كمصحفي
- لكي يعيش في قلب القارة الافريقية لمدة
سنوات ، استطاع فيها ان يغطي بقلمه احداث
الثورة الكونغولية في بداية الستينات ، بنفس
التدبر الذي استطاع فيه ان يغطي بقدمه كل
المناطق التي بلغها ستانلي في النصف الثاني
من القرن التاسع عشر ، ان لم يكن قد زاد
عليها .

من هنا نستطيع القول بان بريق تلك القارة
وسحرها ، الذي طالما سلب الاوروبيين

الجهد الذي بذله ستانلي بين مستنقعات افريقيا وغاباليا وطوبتها وامراضها ومواطنها وسوف يدرك القارئ مباشرة ان الجهد الذي بذله المؤلف في رحلته لكي يستفيد منها في كتابة مؤلفه الذي بين ايدينا من ستانلي ، لم تحقق شيئا ولم تات بجديد . الامر الذي يدفعنا للتصور بان المؤلف قصت لديه فكرة الكتابة عن ستانلي ، بعد عودته كمراسل صحفي من القارة الافريقية .

لقد اصطحب « هول » معه الى افريقيا كتاب ستانلي : « كيف وجدت دكتور ليفنجستون » ، ومن ثم اصطحب في رحلة « هول » خيال ستانلي مع مواقع اقدمه ووقتها ، فبذلت رحلة ستانلي كما لو كانت قد تربعت تماما امام اعين ريتشارد هول ، الذي تحركت مشاهره نحو ستانلي ، فتحول من ناقد عليه - كشان الكثيرين ممن يعرفون حقيقته - الى متعاطف معه .

هذا هو ذا كتاب « ستانلي » يقسمه المؤلف الى ثلاثة اقسام لتضم سبعة وعشرين فصلا قصيرا . القسم الاول يتناول فيه رحلة ستانلي الرئيسية (١٨٧٤ - ١٨٧٧) ، والقسم الثاني ينقلنا الى شخصية ستانلي وطفولته ونشأته وحيه ، بالاضافة الى عودته من جديد الى الاستطرد في سرد ظروف كشفه ورحلاته وعلاقاته في افريقيا . ثم ينتهي بالقسم الاخير ليحكى قصة المانسة التي تميزت بها حياة ستانلي ، حتى: بعد ان نجح في تحقيق الكثير من آماله وطمحاته ، حتى مات في العاشر من مايو عام ١٩٠٤ .

زودنا ريتشارد هول في كتابه بالتيقن واربعتين رسما وصورة ولاشك كان خلقها جهد كبير بذله المؤلف لكي يحصل عليها من مصادرها المتباعدة ، ربما ساعدته على ذلك

اما الرحلة الثانية ، فكانت في الفترة من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧ . وكانت غايتها كشف المنطقة من زونبار شرقا حتى مصب نهر الكونغو على المحيط الاطلسي غربا ، وكان بعد نجاحه فيها اول رجل ابيض يكتشف مجرى هذا النهر العظيم .

ولم تخرج رحلته الثالثة (١٨٧٩ - ١٨٨٤) من كونها رحلة تقليدية كما يحلو للبعض ان يطلق عليها ، الا انها كانت الرحلة التي مهدت لحكم الملك ليوبولد وسيطرته على الكونغو بواسطة ستانلي واهوان آخرين .

امارحلته الرابعة والاخيرة (١٨٨٦ - ١٨٨٩) فقد جاءت لتلبية للعوة من بريطانيا لاتخاذ امين باشا الذي تخرج موقفة وانقطعت اخباره بعد الثورة المهدية ، وحقق فيها هورا شبيها بجهوده في رحلته الثانية .

هذه كانت رحلات « هنري مورتون ستانلي » التي سجلها في مؤلفته الخاصين :

The Dark Continent How I found Livingstone وفيها كل الامارة ، وكل القموش ، وكل المبالغة . الامر الذي جعل العالم ينظر الى هذا الرجل ستانلي - كمعجز عصره وبطل زمانه .

وحينما يقوم المرء في قراءته لهذا الكتاب ، سوف تعود به الذاكرة الى راحة التاريخ الذي ميز القرن التاسع عشر وتاريخ الكشوف الجغرافية فيه كشف منابع النيل ، كشف بحيرات وسط افريقيا ، وكشف مصب ومجرى نهر الكونغو .. لاشك ان هذا الإطار التاريخي في حد ذاته ينبغي الا يجعل من ريتشارد هول بطلا حينما يغطي نفس الاجزاء التي جابهها ستانلي واكثر ، فالأولف حينما يعلن عن ذلك صراحة ، انما يعترف ضمنا بمقدار

« اليك يك » وفشل في ذلك الحب اثر ؟ ترى . . هل كان لبحثه من رجل يتبناه في نيو اورلينز مهما كانت شخصيته ، وبأى أسلوب ممكن (حتى تحقق له ما أراد على كبر) اثر في غموضه وحزنه ؟ ام لانه كان يتصف بالشذوذ الجنسي كما قال بعض علماء النفس عنه بعض اصدقائه المقربين ؟ بالها من تساؤلات مزعجة تحيط به حقا ويكفي ان تثار . . مجرد افاره ، لكي ندرك خلفيات هذه الشخصية والغموض الذي يكتنفها .

لقد كان « ريتشارد هول » مستعدا لتبني وجهة النظر التقليدية من ستانلى البارد المعقد ، الذى تربط باسمه مظاهر الرعب والقسوة . ولقد كتب يقول : ان الخوف فى دراسة شخصية ستانلى ، كتمسك جدار عمودى صلد من الجرائيت . الامر الذى يفسر احجام الكثيرين من الكتاب والمحللين عن الكتابة عن الجوانب الخاصة جدا من حياة ستانلى ، رغم انه كان من اجرا مفامرى القرن التاسع عشر ، واكثرهم اصرارا ونجاحا على الاطلاق .

لكن . . لماذا كان انطباع العالم عن ستانلى الى هذا الحد من السوء طالما لم يفس الكتاب والمحللون بين جوانب شخصيته وحياته الشخصية ؟ لقد نقلت رواية جوزيف كورنارد : « قلب الظلام » ، صورة ملطخة بالرعب والفرع والدماء واهدار الحقوق الانسانية على ارض هذا الجزء من افريقيا الذى طرقه ستانلى . وكان دور هذا الاخير فى تلك الرواية ، دور الخادم الانتهازى الذى بنى للملك ليوبولد امبراطوريته فى افريقيا . فكان لا بد ان يكون قاسيا دمويا ، لما ارتبط به تاريخ السيطرة والاستعمار من امور لانسانية فى تلك البقعة من العالم .

مهنته كصحفى ، وعلاقته بالسوكالات والشخصيات الصحفية .

لقد ضمن ريتشارد هول كتابه بالاضافة الى المقدمة التقليدية فى بدايته ملحقاتضمن كلمة شكرين قدم له يد المساعدة فى انجازه هذا ونهرا للامان ، وآخر للاشخاص بالكتاب وقائمة جيدة ومطولة بالمراجع والصادر تسما وفقا لترتيب فصول الكتاب ، وعلق على كل منها .

هكذا . . وعلى امتداد اربعمائة صفحة تضمنت كافة محتويات الكتاب ، استطاع المؤلف الصحفي ان يمزج بين روح البحث والرواية ، ليخرج حقيقة ملاصق وقسمات ستانلى . لقد اجهد المؤلف نفسه كثيرا لكي يبعث اللثام عن الشخصية الحقيقية لهذا الرجل الذى طالما اخفاها عن الناس . ولقد حقق المؤلف غايته ، اذ يدرك القارى ، عقب سرد المؤلف لطفولة ستانلى وظروف نشأته ، التفسير الحقيقي للغموض المتعمد الذى ميز ستانلى وتصرفاته ، فكان حرينا ابدا مفتقرا الى الثقة بالنفس .

ان المؤلف يعرض حقائق هذه النشأة ، ويترك للقارى يتساءل : ترى بعد ان قرأت هذا الجزء من ستانلى . . هل كان لاصل نشأته تأثير على شخصيته اذ انه حقا « ابن زنا » لسيده تلمى (Blizebith Parry) من ويلز ام لدخوله اصلاحية الاحداث فترة من الزمن ؟ فقد دخلها وهو فى السابعة من عمره وهرب منها بعد تسع سنوات ليعيش بعدها حياة التشرذ والسعى المضني للرزق ، معتمدا على نفسه ، خلال سنوات العذاب والمهانة فى إنجلترا والولايات المتحدة . ام كان لحبه من تلك الفتاة ذات السبعة عشر ربيعا

اليه معونة عاجلة . وير ستانلى بوعده فعلا
ووصله ما يريد في اقسطنى عام ١٧٨٢ .

لقد ذهل ستانلى - الذى طافت مقالته
من هذه المهمة الناجحة كل ارجاء العالم -
منذما سمع اسمه يتردد كبطل من الابطال ،
واصبح العالم المفتون بنظر اليه كبطل الساعة ،
لقد استطاع ان ينقل الدكتور لفنجستون ،
ويعيد للعالم صلت به ، بل ويحقق مع كل
هذا جانباً من الكشوف الجغرافية التى ذهب
من اجلها لفنجستون (٣) ويمود بالاخبار
والحقائق والنرايب معا .

لكن ستانلى الذى استطاع ان ينقل
لفنجستون وفريقه لم يكن ليقتنع بهذه المهمة
التي اتجزها في افريقيا . انه مجرد صحفي
يتابع الاخبار ويحقق الحوادث ويراسل
صحيفته . لا . . هذه المرة لا بد من سبر
اغوار افريقيا . نعم ، ساكون مكتشفا . .
هكذا اراد وصمم وخطط لمهمته القادمة . .
لقد جربت بنفسى الامر ، ونجحت فيما عجز
منه آخرون ، بل واشتركت مع لفنجستون
نفسه في جزء من المحاولة . . لماذا اذن لا اكون
في سجل الخالدين من امثال بورتون وسبيك
ولفنجستون نفسه ؟ . اننى ستانلى المنقلد .

لقد تردد وارتاب في امكانيات نجاحه في
بادئ الامر ، بل داخله شعور بان السدفة
وحدها كانت وراء خروجه سالماً من رحلته
الاولى . وان الحظ لاشك سوف يخلدله هذه

الا ان افكار المؤلف قد تغيرت تماماً عن
ستانلى - على حد قوله - عندما سلك نفس
الطريق الذى سلكه صاحبنا من قبل في رحلة
بحثه عن الدكتور لفنجستون .

يقول ريتشارد هول : لقد احسست بمقدار
الجهد الجهد الذى بذله ستانلى وهو يخترق
تلك المسافات منذ قرن مفسى . لقد ادرك
المؤلف ان ستانلى حجب شخصيته الحقيقية
خلف مظاهر كاذبة ، او على الاقل ، لا يعرفها
العالم عنه . لقد وقف « هول » امام النصب
التذكارى الحقيقى لستانلى وقال : ينبغي ان
يكون الكونزو باسره صاحب هذه الحدود
الترامية فى افريقيا (١) ، هو النصب التذكارى
الحقيقى لهذا الرجل .

لقد كان ستانلى عدواً حقيقياً لدائه . ولقد
كان تعاميه من اظهار بعض الحقائق ، سبباً
كافياً للانتقام من روعة انجازاته . ان
المؤلف يحاول السمو والتحقيق بستانلى
كواحد من اكبر اصحاب الانتصارات في العالم ،
ليمحو السمعة السيئة التى التصقت بهذا
الرجل . الا ان الانسانية لن تغفر له ما ارتكب
في حق ابنائها من جرائم في سبيل تحقيق
غاياته .

نجح ستانلى في رحلته الاولى وعاد باخبار
مطمئنة عن الدكتور لفنجستون (٢) الذى
رفض العودة معه ، مفضلاً استمرار عمله ليتم
كشوفه ، فتركه ستانلى على امل ان يرسل

(١) يشترك الكونزو بعهوده مع عشر دول مجاورة تصيف به من جميع الاتجاهات تاريخياً .

(٢) اوفد لفنجستون من قبل الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية عام ١٨٦٦ لعل لغز شبكة التصريف النهري
في وسط افريقيا ، وبصيرت هذه الكتلة ، ويذل الجهد لتطبيق منع تجارة الرقيق في اكبر اسوائله .

(٣) انتزحت الفرصة ليصحب الدكتور لفنجستون فسرارمه وحققا معا كشف الاجزاء الشمالية من بحيرة تانجانيقا ،
ولما انها ليست ضمن منابع النيل ، كما اعتقد « بورتون » كان قبل .

ان التفاصيل الدقيقة التي يذكرها المؤلف ليست جديدة على الجغرافيين ، الا ان المتبع للرد السلس الجذاب الذي تميز به أسلوب ريتشارد هول يتكشف مقدار مفامرة ستالنكي بحياته وسميته ورجاله ومستقبله . كان انتهازيا يعارب مع الاقوى من الجماعات الافريقية المتصارعة ، وحدث هذا عندما انضم الى رجال مملكة متيسا Missa عند القوما Voma عند الطرف الشمالي لبحيرة فكتورا ، ونفس القدر كان قاسيا لا يعرف الرحمة . . فقد قتل امامه العشرات ، وهو واقف يتسلى بمنظرهم ، حدث هذا وسجله بالصورة ريتشارد هول مع وصف دقيق لطريقة الامداد المحلية هناك ، وقد وقف ستالنكي يشاهد ويتمعن .

اخيرا وصلت جماعة الى بوما عند مصب الكنتو . يالها من مفامرة حقيقية رأى فيها ستالنكي لم يره انسان ن نقائض الطبيعة . . كم مرة اجتمعت فيها المشاكل مع المظهر الطبيعي الرائع لقلب افريقيا . كم مرة سقط امامه المرضى على بسط خضراء بين افناء يمجز امهر الفنانين عن رسمها ، او حتى تخيلها . وهم كان مضحكا فعلا منظره بلباسه الفرنجي بين جماعات فشكت عليه قبل ان يحاول حتى ان يقترب ليكتشف ما يريدون . كل هذا غير ذي موضوع امام ستالنكي الآن . لقد حقق انتاجا هائلا قفص بعده عائدا مرة اخرى الى زوايا عن طريق راس الرجاء الصالح .

الا ان ريتشارد هول يعود مرة اخرى الى شخصية ستالنكي في قسمه الثاني ولا يستطرد في نتائج رحلة ستالنكي . فمن هو ستالنكي هذا ؟ وما هو الاسم الحقيقي له ؟ ماهي ظروف نشأته المشينة البائسة ؟ .. انها ولا شك

المرة . لقد كان ستالنكي قليل الثقة بنفسه دائما لقد كان يتصور ان الرحالة والمستكشفين يكونون من علية القوم وكبراهه ، ابناء الاسر العريقة من الضباط والرياضيين الا انه - ولاول مرة - يصمم على كسر هذا الحاجز النفسي الذي افتمطه بنفسه . لقد قرر ان يغير اسمه فرضا على العالم باسمه لابد ان يحدث هذا . . نعم لا بد .

ان المؤلف ريتشارد هول يتحدث بأسهاب في القسم الاول من الكتاب عن ادق التفاصيل المتعلقة بفتاة حبه (اليك بيك) ، شكلها ، عمرها ، وداورها ، ثم عن تفاصيل اتفاقه معها على الزواج قبيل رحلته . . ذلك الزواج الذي لم يتم قط . ثم يقدم سردا لتحركاته بين نيويورك ولندن ، ومناطق اخرى من العالم وكيف سبق له ان ولد علاقته بالعديد من الشخصيات الانجليزية حينما كان ضمن فريق المراسلين لجريدة النيويورك هيرالد ، وكيف كان « وقحا » في شجاره بالجمعية الجغرافية الانجليزية ، حينما ساورتها الشكوك حول رحلته لاتخاذ لفنجستون ، ولماذا وصفته الملكة فكتوريا بعد ان دعي لمقابلتها بقصرها بأنه رجل عنيد وقبيح .

ان ستالنكي مرة اخرى في لندن يحاول ان يعد لرحلته انسب الظروف ، كما سعى للاتصال بمصادر جديدة لتمويل رحلته الثانية ، ونجح في اجتذاب جريدة اللدلي لجانفاب التي وافقت على الاشتراك مع النيويورك هيرالد لتمويل المشروع . هكذا أصبحت رحلته بعثة اتلوج امريكية ، وفر لها قسيسا من لندن ، والاخوين Pocock ادوارد وفردريك ، والاقرقي الخطن الذي رافقه من زوايا Kalulu ، مع بعض كلابه .

استفسارات بعيدة كلما من خراطير المهتمين بدراسة تاريخ الكشوف الجغرافية التي ارتبطت في جزء منها - بشخصية ستانلي . ولكنه كصحفي ، تحركه كوامن المهنة و « غريزتها » ، فبسي بصير لتحقيق سبق لا جدال ، حول هذه الشخصية ، والجوانب النفسية التي تحكم في تصرفاتها .

ولد جون رولاندز (John Rolands) وهو الاسم الحقيقي لستانلي ، من ابنة جرار كانت تعمل في مخبر عند أطراف مدينة (Denbigh) الصغيرة ، الواقعة في شمال شرق ويلز في ٢٨ من يناير عام ١٨٤١ (٤) . ويقال ان المخبر الذي كانت تعمل فيه هذه السيدة واسمها البرايت بارى (Elizabeth Parry) كان يقع خلف مكتب للشئون القانونية والمحاماة ، يعمل به شخص يدعى فوغان هورن (Vaughan Horne) الذي وقع بها حبسا ، وتورطت معه في علاقة غرامية حملت خلالها منه سفاحا هو جون رولاندز (ستانلي فيما بعد) . الا ان ابوة هذا الرجل لجون ، او حتى ابوة غيره لهذا الطفل ، لا تزال لغزا غامضا ، خصوصا وان امه قد انجبت بعده ، وخلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت ميلاده ، انجبت ثلاثة أبناء آخرين غير شرعيين . يالها من امرأة سيئة السمعة ذلك ، ويالها من نشأة قائمة لجون !

لقد وجد نفسه هو في سن السادسة - أي جون رولاندز - بين اسوار اصلاحية للاحداث (مثل فبراير عام ١٨٤٧) . ولا

يزال اسمه مدونا في سجلات الاصلاحية وقد كتب امامه اصطلاح (لقيط) . وفي هذه الاصلاحية حيث بقي تسع سنوات ، تلقى كل تعليمه . وكان مجيدا للرياضيات والجغرافيا والرسم ؛ الا انه كان سيئا السلوك ، مشاغبا . فقد حاول الهرب من الاصلاحية مرتين وفشلت ، ولكنه حينما تسلق سطور هذه الاصلاحية للمرة الثالثة واستطاع ان يتخطاه ، اطلق ساقبه للريح هاربا والى الابد من هذا المكان البغيض .

اتجه بعد هربه الى مسقط رأسه ، ولكنه لم يجد أرضا صلبة يقف عليها ليحصل حتى على قوت يومه . . انه ابن تلك السيدة سيئة السمعة . ولكنه نجح بعد اسابيع قليلة في الحصول على وظيفة مساعد مدرس بمدرسة (St. Asaph)

وتحدث « ريتشارد هول » عن كيفية التوصل الى حقيقة اسم ستانلي الحقيقي وذلك من طريق خطاب ارسله الى خاله في ليفربول ، عقب هربه من الاصلاحية ، لكي يساعده في الحصول على عمل . لم ينتج تنقلاته وظروف عمله وكيف كان فاسعيف السيطرة على الطلاب ، وكيف كان فاشلا في الحصول على وظيفة بمحطة سكة حديد (مولد) . وحينما وفر له خاله وظيفة كاتب في مكتب للتأمينات في ليفربول تركها ليحصل ماليا خصوصا .

وفي خضم يأسه واهواره على عمل ، تسائل : الا يمكن ان تكون ليفربول بداية النهاية لشقاء السنين الماضية ؟ الهجرة في

(٤) لم يجد ستانلي مطلقا تاريخ ميلاده يوما من عهد . وكان يفسر ان يقول انه من مواليد عام ١٨٤٢ . كتب على قبره انه ولد في العاشر من يونيو عام ١٨٤٠ . ويذكر سجل وفيات التايز انه ولد « حوالي » عام ١٨٤٠ . اما دائرة المعارف البريطانية فتذكر ان طنبتها العابرة عرفت ميلاده عام ١٨٤٢ . كما يذكر هاموس ناشيونال بيوجرافي ، ان ستانلي من مواليد عام ١٨٤١ .

لم يدم عمله خلال الحرب الأهلية ، فقد كان جنديا فيبوليا ، ولكنه مرة أخرى كان مشبوه التصرف كالمترتبة ، يحارب مع الجانبين . وأصبح يحس في قرارة نفسه بأنه فعلا كالمترشد الذي يعيا حياة مشبوهة يعوزها الاستقرار .

وفي أجازة له كان يقضيها في أوروبا زار مدينته (Benbigh) وكتب في سجلها اسمه الحقيقي : أنا جون رولاندز اللام في البحيرة الأمريكية ، ملتحق بالفرقاطة Teconderoga ، ولعمل حاليا في تركيا . وكتب تاريخ الزيارة : ١٤ ديسمبر ١٨٦٦ .

وحيثما قام برحلة الى لندن ، استطاع ان يقابل مندوب جريدة النيويورك هيرالد ، وهو الكولونيل اندرسون (Finally Anderson) عام ١٨٦٧ ، ووطد علاقته به ، الأمر الذي مهد لستاتلي ليصبح مراسلا لنفس الجريدة فيما بعد ، بل بعد قليل جدا من تركه عمله بالبحيرة الأمريكية في نفس السنة (١٨٦٧) .

بدأ عمله مراسلا بمخالفة أوامر المسؤولين في هذه الجريدة الذين طلبوا إليه ان يتجه غربا من لندن ، ولكنه رفض واتجه شرقا .. هكذا . كما أخفى اسمه الحقيقي - وإلى الأبد هذه المرة - ولم يكن قد استقر على اسمه الأوسط حتى أصبح بورتون . هنري بورتون ستاتلي ، ذلك المراسل الصحفي لجريدة نيويورك هيرالد الأمريكية ، الذي تنقل بين الحبشة والهند والاسكتلندية والقاهرة وغيرها من مدن شرق إفريقيا والشرق الأدنى .

ومن خلال العودة الى الحديث عن مفامراته في إفريقيا بعد هذا السرد الطويل والدقيق من

ذروتها ، والبناء يستقبل ألف أسرة مهاجرة الى العالم الجديد اسبوعيا . والبناء خاص بالسفن ، والبجارة بالمشرات والمئات .

نجح ستاتلي في العمل على ظهر السفينة وندرمير (Windermere) المتجهمة الى نيو اورليانز كموظف للكبان ، لقد رأى الاهوال في أول رحلة له استغرقت سبعة اسابيع . لقد وجد نفسه مرة أخرى قريبة للوحدة والانزعاج والمهانة ، كما قاسى كثيرا من نومه تحت القاعد ، ومن اضطراب مسحته بتأثير دوار البحر ... وغير ذلك كثير .

وحيثما دخلت السفينة الى المسيسيبي ، وقمت عينة على عظمة هذا النهر ، وشاهد ما موزه من شقاء الاسابيع الست ، وفي وصف ادبي رائع يتعمق المؤلف من هذا الشهد مسيطرنا : انه الجنوب ، أرض القطن والزئوج وملاك الاقطاميات الزرامية الهائلة من المهاجرين الاوروبيين .

وحيثما كان العجوز « ستاتلي » الذي يعمل سمسارا للقطن بين الزراع على امتداد المسيسيبي ، وتجار نيو اورليانز ، وقمت ميناء على جون رولاندز الذي يادره بالسؤال في رنة حريئة شيقة : سيدي ... هل تريد غلاما يكون في خدمتك ؟

بعد ان ربح العجوز ستاتلي الذي لم في ينجب ولم يتخذ من قبل ولدا ، وكذلك زوجته ، بمقدم هذا الغلام ، لم يلبث ان طرده لقله حيائه ولسوء اديه ، ولكنه بعد ان استقام ومارس العمل الشريف ، وحقق أرباحا سال لها لمابه ، استقل في أعماله وكان معيا مخلصا لعمله لدرجة كبيرة . وكان قد عرف آنذاك باسم هنري ، انه الآن هنري ستاتلي .

الزعيم العربي (Tippu Tib) الذي ساعده في الهبوط الى نهر الكونغو .

ويكتب المؤلف عن رحلته في مجرى هذا النهر الكبير بأسهاب ، ويكتب عن تفاصيل توزيع قوائمه او افراد حملته في النهر والبر ، وكيف تعرضت جماعة النهر الى متاعب جمة اربطت في معظمها بالاندفاع الشديد للمياه والشلالات ، بنفس القدر الذي تعرضت فيه جماعات البر لمتاعب المستنقعات والغابات والأمراض والحيوانات المفترسة . ولكنه بعد كل هذا ، استطاع ان يبلغ مدينة بوما Boma على مصب هذا النهر ، ولقد اكد المؤلف - وهو موفق في هذا كل التوفيق - على وقفة الركب عند الشلالات التي سميت فيما بعد بشلالات ستالي (يناير ١٨٧٧) ، والمدينة الصغيرة التي عرفت كذلك فيما بعد بمدينة ستالي (ستالي فيل) . وأخيرا . . . عاد « ستالي » الى زنجبار بطريق البحر عن طريق رأس الرجاء الصالح . وهكذا وفق المؤلف في عرض هذا الجانب ، ولكنه عرض اساسه المعلومات التاريخية التي اتي بها غيره من قبل . ولقد سجل خط سير الرحلة على الخريطة الوحيدة بالكتاب ، التي وضعها « ديكونرا » للفلاف الداخلي للكتاب .

حكى « ستالي » وكتب ونشر العديد من المقالات من رحلته الرئيسية هذه . وكان من بين ما ذكره طواف العالم وفتن رجال اعمال اوروبا واقتصاديينا ، حديثا مسهبيا عن الاقتصاد الفاني الممكن قيامه في افريقيا ، نخيل الزيت ، الاخشاب بانواعها ، والمطاط . . . وغيرها كثير كثير . فسال لعاب القوم ،

حياته الشخصية ، يعود « ريتشارد هول » مرة اخرى ليحكي ادق علاقاته مع جماعات الكشف التي صاحبت من الاهالي او المرافقين البيض ، ومقدار حرصه على الحصول على اية مكاسب ترفع الى حد الشهرة او الفنى ، وفي سبيل ذلك استخدم اسلوب الرزقة تارة والمهادنة تارة اخرى والقمع والمكر والخداع تارة ثالثة ، حتى انه صالح لمرءى جماعة الوطنيين التي كانت تصاحبه في احدي رحلاته ، بالقتل رميا بالرصاص . ولقد سجل ريتشارد هول هذه الحادثة بين حوادث اخرى تم من نفس شرسة بعيدة من الرحمة ، كما صور لنا كيف كان ينتقل من ورطة الى اخرى خلال تجواله في وسط افريقيا بين وحوش مفترسة ، وغابات هائلة كثيفة ، وامراض قاتلة ، وشلالات رهبة ، بالاضافة الى ما ذكره من مشاكل « ستالي » مع بعض الشخصيات والجمعيات العلمية ، ووصف مفصل للقاءه بالدكتور « فنتجستون » .

حينما توجه ستالي الى زنجبار عام ١٨٧٤ - كما يقول « ريتشارد هول » - حقق بعد انطلاقه منها اهم هدف له ، حينما اطمان الى انه اتي بجديد حينما اكد ان بحيرة فيكتوريا بحيرة واحدة ، واكتشف لأول مرة وادي نهر كاجيرا كمنخرج وحيد لهذه البحيرة . ثم اتجه الى تنجانيقا ، ووصل الى اوجيجي ، ودار محاذيا سواحلها بقرابه واثبت انها بحيرة مغلقة لا علاقة لها بنهر النيل كما قال « يوتون » من قبل ، والتقى - بعد ان عبرها الى الجانب الغربي - بالشيخ حميد بن محمد

بين صفحاته ، قصة الصراع العالمي الدموي على أرض أفريقيا ، قصة الصراع على الأرض والرجال والثروات ، أجرت فيها أراض أفريقية ، وبيعت أخرى ، ودار قتال على انتزاع ثلاثة من أبنائها .. وهكذا سار الشوط بأفريقيا الصابرة .

ان المؤلف يختم كتابه بعرض لشخصيات مجهولة وقفت وراء ستالي تدفعه وتؤكده ، مالا وعطفا وحيا . ولكنه أبدا لم يشير حتى آخر أيام حياته حينما وافته المنية صباح العاشر من مايو عام ١٩٠٤ . فرغم أنه منح الجوائز والتقدير من الملوك والعظماء ودور الصحف الكبرى في أوروبا وأمريكا ، إلا أنه لم يذعن بجوار العظماء في كنيسة « وست منستر » بجوار لفنجستون كما أراد لنفسه في بداية الشوط . لقد رفض رئيس الكنيسة دفنه بها بدون إبداء الأسباب . ويبدو أن شعورا خفيا لدى ستالي كان يحركه نحو عدم الثقة بما يود أن يبلغه ، فكتب في مذكراته بالحرف الواحد : « أنني لم آت إلى الدنيا من أجل الحصول على السعادة ، أو السعي إليها ، فقط أيت من أجل عمل خاص تؤديه ... » .

ان الكتاب يزخر بالتحقيقات الدقيقة التي تتتبع حياة الرجل ، ساقها « ريتشارد هول » بأسلوب ذكي ، ولكنه بسيط وسلس وجذاب ، شأن الكتابة الصحفية المتمرس التي تخطب العامة والمتقنين على حد سواء . والكتاب بهذا الأسلوب حين يجمع بين البحث الدقيق لبعض القضايا التاريخية والجغرافية مما لا ينسج المجال لمرسه في هذا السياق ، وبين الرواية الجذابة المثيرة المصورة ، هذا بالإضافة إلى قرب المؤلف الشديد من دقائق أسرة

وتشكلت الرابطة الدولية للكونف (٥) برأس مال بلجيكي ألماني إيطالي ، لكن حماس مساهمة ملك بلجيكا « ليوبولد » كان ينبيه بأن لمر ما ينتظر تلك المنطقة .

وبالتدريج ، تحول ستالي إلى خادم مخلص للملك « ليوبولد » حينما سافر للمرة الثالثة عام (١٨٧٩) وظل حتى عام (١٨٨٤) جمل الكونغو خلالها مزرعة هائلة لهذا الملك . فكانت الشرارة الأولى التي أحرقت هذه القارة فيما بعد .

وفي عام ١٨٨٦ - علمت أوروبا بحمصا وعزل الحاكم المصري للمنطقة الاستوائية - الذي لم يكن مصريا أبدا - بعد قيام الثورة المهدية ، ولا بد من العمل على انقاذه . وعندما تشكلت لجنة الانقاذ هذه ، كان على رأسها « ستالي » ، وكيف لا . ألم ينقد ذكور « لفنجستون » من قبل ؟ .

وصل « ستالي » فعلا إلى حيث التقى بأمين باشا على شاطئ بحيرة البرت ، وبدلاً من انقاذه ، عرض عليه العمل كمدير في خدمة الملك « ليوبولد » بشروط مالية لم يوافق عليها « أمين باشا » . وفي طريقه إلى الساحل الأفريقي ، استطاع ستالي مقدة عدة اتفاقيات مع الزعماء الوطنيين من النوع الذي أحكم قبضة الاستعمار على مناطقهم فيما بعد ، حتى كانت معاهدة (ماكينون) المعروفة التي أبرمت بين الشركة البريطانية لشرق أفريقيا وحكومة الكونغو .

وهكذا تدخل أفريقيا دورا لا يستغرق « ريتشارد هول » كثيرا في الحديث حوله ، ولكن التاريخ الأفريقي يعرفه ويسجله بدقة

لم يغفل الكتاب من بعض الأخطاء المطبعية - شأن بعض الكتب التي تخرجها دور النشر الانجليزية في الآونة الأخيرة للأسف على غير ما عودتنا . والكتاب يفتقر الى ترتيب افكاره ترتيبا علميا،بالإضافة الى ان المؤلف استخدم عناوين فصوله بأسلوب مثير فيه تورية . ومع كل هذا ، فان الكتاب بحجمه وأسلوبه ومصوره ومستنداته ، يرقى الى مصاف الكتب التي يسمي المرء لاقتنائها .

« ستانلي » وأرفيفها « سواء في اتجلترا او الولايات المتحدة » مع التجربة الخاصة والمباشرة للمؤلف في افريقيا ، يجعل كل هذا من كتاب « ستانلي » المستكشف الغامر ، كتابا مفيدا بحق لما يضيفه من جديد ، ويعدل مسار بعض الأفكار عن هذه الشخصية ، ولكنه لم يأت بجديد في مجال الكشف أو التحقيق التاريخي الذي كان يميدا عنه كل البعد .



من الكتب الجديدة

كتب وصلت إلى إدارة المجلة، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الأعداد القادمة

1. Clark, W., Ronald, *The Life of Bertrand Russel*, Jonathan Cape and Weidenfeld & Nicolson, London 1975.
2. Frye, Richard N. , *The Golden Age of Persia, The Arabs in the East*, Weidenfeld Nicolson, London, 1975.
3. Haswell, Margaret, *The Nature of Poverty, A Case-History of the First Quarter Century After World War II*, Macmillan Press Ltd., 1975.
4. Howe, Michael, *Learning in Infants and Young Children*, Macmillan Press Ltd., 1975.
5. Swingewood, Alan, *The Novel and Revelation*, Macmillan Press, 1975.



عالم الفكر

المجلد السابع - العدد الرابع - يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧

أزمة البيئة
الإنسان بين العلم والبيئة
البيئة والجريمة
بيئة العصر بين البقاء والفاء

رئيس التحرير: أحمد مشاري المدوافي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * يناير - فبراير - مارس ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص ١٩٢

المحتويات

الإنسان والبيئة

٢ بقلم التحرير	التمهيد
١٢ الدكتور أحمد أبو زيد	أزمة البيئة
٣٥ الدكتور محمود أحمد الشرييني	الإنسان بين العلم والبيئة
٧٢ الدكتور حسن صادق الرضاوي	البيئة والجريمة
١٢٧ الدكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبلي	بيئة العصر : بين البقاء والفتنة

★ ★ ★

أفاق المعرفة

١٦٩ الدكتور منصور أحمد منصور	الدوافع والحوافز بين النظرية والتطبيق
١٨٩ الدكتور عبد الوهاب حويد	طوبى الأعمام بين الإبقاء والإلغاء

★ ★ ★

أدباء وفنانون

٢١١ الدكتور مناف منصور	ميخائيل نعيمة .. ناقلاً أدبياً
-----	--------------------------	--------------------------------

★ ★ ★

عرض الكتب

٢٤٧ بقلم الدكتور أسعد عبد الرحمن	قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧ - ١٩٧٢
 الدكتور نوره السامندر	النمو الإنساني في عصر التطور
٢٤٧ مراجعة الدكتور اسحق بطوبيا الفلج	

المراسلات التي ننشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحكمهم

الانسان والبيئة

تقديم

شهدت السنوات العشر الأخيرة زيادة كبيرة في اهتمام العلماء والمخططين والسياسيين ورجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع بمشكلات البيئة ، والتغيرات التي تطرأ عليها وأساليب التعامل معها والاضرار التي تلحق بها نتيجة لمبالغة الانسان في استغلال مواردها الطبيعية ، وإلى أى حد ينمكس هذا كله على حياة الانسان والمجتمع . وواضح ان هذا الاهتمام لم يكن قاصرا على البحث عن مدى مايمكن ان تقدمه الطبيعة للانسان من ثروات ، أو الطريقة المثلى التي يمكن للانسان ان يكشف بها من هذه الثروات والموارد ، وافضل الأساليب لاستغلالها ، وإنما كان ، بالإضافة إلى هذا كله ، يحاول الكشف عما لحق بالبيئة الطبيعية من اضرار وأذى قد يصعب علاجها أو تلافيها نتيجة لسوء الاستغلال وسوء الفهم . وقد انعكس هذا الاهتمام في ثلاثة أمور : -

الأمر الأول : هو كثرة الكتابات التي تهدف إلى تنبيه الأذهان إلى الاخطار المحدقة بالبيئة الطبيعية وطريقة المحافظة عليها ، والإبقاء على ما يعرف باسم التوازن الإيكولوجي (أى التوازن بين كل

عناصر البيئة من ناحية وبين الانسان والبيئة من الناحية الأخرى) وكذلك الاخطار التي سوف تحيق بالانسان والمجتمع ، والتي قد تودي بهما كليهما ان لم يغير الانسان من سياسته وموقفه من الطبيعة . وتحمل هذا الكتابات غير قليل من التشاؤم والشك من مستقبل البيئة والحياة الاجتماعية السليمة . ورغم ما قد يكون في هذه الكتابات من مبالغة وتهويل فانها تكشف بغير شك من جانب هام من العلاقات المتقدة المتشابكة بين الانسان والطبيعة ، وهو جانب يستحق ان يلقى الكثير من العناية والاهتمام ، نظرا لارتباطه الوثيق المباشر بمستقبل الجنس البشرى .

الامر الثاني : هو اهتمام المحافل الدولية والمنظمات العلمية بعقد المؤتمرات والندوات التي تعالج فيها مشكلات البيئة بوجه عام ، وأثر هذه المشكلات على الحياة الاجتماعية وعلى الحضارة . وكان من اهم هذه المؤتمرات الدولية مؤتمر اخطار البيئة الذي عقد في استكهولم عام ١٩٧٢ ، وحضره مئات من المهتمين بشئون البيئة من مختلف التخصصات ، ثم ما ارتبط بهذا المؤتمر من اهتمام الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة باجراء عدد كبير جدا من الدراسات والبحوث الميدانية في مختلف انحاء العالم ، للتعرف على التغيرات التي يحدثها الانسان من طريق مشروعات التنمية الاقتصادية في البيئة الطبيعية ، وانعكاس هذه التغيرات آخر الامر على حياة الانسان نفسه . ويكشف هذا الجانب بصورة واضحة من العلاقة الوثيقة بين الانسان والبيئة ، وهي علاقة عضوية ، فلما كانت تلتى ما تستحقه من عناية واهتمام . وسوف يجد القارئ في هذا العدد كثيرا من الاشارات الى هذا المؤتمر والنتائج المترتبة عليه .

الامر الثالث : هو الاهتمام الذى تبديه الآن بعض الدول المتقدمة والصناعية باتشاء وزارات واقسام وادارات واجهزة حكومية لشئون البيئة، يكون من اهدافها وضع الخطط لاحكام السيطرة على البيئة ، وتنظيم عمليات الاستغلال بطريقة محسوبة بدقة ، حتى يمكن المحافظة على تلك العلاقة الدقيقة القوية بين الانسان والطبيعة . وربما كان من آخر هذه الوزارات ما لجأت اليه بريطانيا في اكتوبر عام ١٩٧٠ من تعيين وزير دولة للبيئة تخضع لاشرافه ثلاث من أهم الوزارات التى كان يشغلها دائما وزراء لهم مكانتهم وأهميتهم فى الحياة السياسية الحزبية وهى وزارة النقل ، ووزارة الاشغال العامة ، ووزارة الحكومة المحلية والسكان . ومن اهم ما يظطلع به وزير الدولة لشئون البيئة التنسيق بين أعمال هذه الوزارات بما يكفل ضمان المحافظة على البيئة المحلية والعمل على تحسينها وتوفير حياة أفضل للأهالى . والواقع ان بعض الدول الأخرى سبقت بريطانيا في هذا المضمار ، اذ كانت كل من السويد وفرنسا قد أنشأت وزارات لشئون البيئة معنى في المحل الأول بأمر المحافظة على جمال البيئة الطبيعية ، كما كانت الولايات المتحدة الأمريكية تهتم اهتماما خاصا بتكوين هيئات من العلماء والمستشارين والأخصائيين فى شئون البيئة ، يضعون خبراتهم تحت تصرف رئيس الدولة حيث يقدمون له النصائح والمشورة في كل ما يتعلق بأمر البيئة ، وبخاصة المحافظة عليها وتحسينها وحفظ ذلك التوازن الأيكولوجى الدقيق .

وبواضح من هذه الاتجاهات الثلاثة ان معظم الاهتمام الذى تبديه الهيئات والاجهزة المتخصصة بل وحتى العلماء الافراد انفسهم في معالجة شئون البيئة تتصل بامور محددة يمكن اجمالها في التالى:

١ - الاعتراف بموقف الانسان المادى الطبيعية ، واستخفافه عموما بمكوناتها ، وعدم ادراكه لمدى الاضرار التى يلحقها بها ، وكذلك عدم ادراكه ان مصادر الثروة الطبيعية محدودة نسبيا ، وانها تستهلك نتيجة للزيادة الهائلة المطردة في عدد السكان، مع عدم ترشيد الاستهلاك وازدياد حاجيات الانسان والرغبة في اشباع هذه الاحتياجات .

٢ - على الرغم من اهتمام هؤلاء العلماء وتلك الاجهزة والهيئات بتحديد مدى الضرر الذى يلحق بالبيئة فان هذا الموقف ينطوى الى حد كبير على كثير من السلبية نظرا لعدم الاهتمام ، او ربما عدم القدرة على ابداء اقتراحات محددة تتعلق بإمكانية انقاذ البيئة من سوء استعمال الانسان والوسائل التى تحقق ذلك ، وربما كان هذا العجز ناشئا من عدم وضوح الرؤية امام الكثيرين من مكونات البيئة والعلاقة بينها وبين حياة الانسان ، وبخاصة الحياة الاجتماعية ، بكل ما تشتمل عليه من نظم وقيم وعادات وتقاليده ، وان كان هذا الوضع قد تغير في السنوات الاخيرة كما يظهر في النقطة التالية .

٣ - النظر الى المشكلة نظرة تكاملية شاملة، بمعنى ازدياد الادراك بين العلماء بان مشكلة تلوث البيئة والافراد التى تلحق بها هي مشكلة انسانية تتعلق في المحل الاول بسلوك الانسان وموقفه من الطبيعة، وان اى محاولة لحل مشكلات البيئة يجب ان تنبع اساسا من معرفة وادراك طبيعة العلاقات بين الانسان والبيئة ، ومواطن الخلل في هذه العلاقة حتى يمكن معالجتها على اسس سليمة . بل ان الكثير من العلماء يعتبرون ما نسميه الآن بمشكلة البيئة انما هي مشكلة سلوكية في المحل الاول ، ولذا فان الحملة المعروفة باسم « الصراع من اجل البيئة » تؤكد على هذه الناحية السلوكية ، وترى ان علاج الموقف يجب ان يبدأ بالانسان نفسه باعتباره هو العامل الاساسي في الاستفادة من البيئة ، كما انه هو السبب المباشر في تلويثها ، وانه هو الذى يمانى من هذا التلوث في آخر الامر .

والواقع ان العلاقة بين الانسان والبيئة علاقة قديمة بقدر ماهي وثيقة ، وان كان شكل هذه العلاقة يختلف من عصر لآخر ، بل ومن مجتمع لآخر ، بما لدى تقدم المجتمع لو تأخره وانماط الحياة السائدة في هذه المجتمعات . ومع ذلك فان هذه العلاقة كانت تتصف دائما باغارة الانسان على الطبيعة ومحاولته تغييرها بدرجات متفاوتة وهو في هذا كله كان يؤثر فيها تأثيرا سيئا ، ويعمل على استهلاك مواردها الطبيعية بشكل او بآخر ، وان كانت هذه التغيرات وتلك التأثيرات السيئة الضارة اكثر وضوحا في الوقت الحالى وفي المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا بالذات نتيجة للعوامل التى سوف نعرض لها .

ولقد كانت هذه العلاقة تتخذ في المراحل الاولى المبكرة من تاريخ الجنس البشرى بوجه عام شكلا يتميز بتغلب سطوة الطبيعة وسيطرتها وقسوتها على الانسان المبكر ، الذى كان يبدو

عاجزا الى حد كبير عن امكان اخضاع البيئة لمتطلباته ، وإنما كان يشكل ظروفه ومواقفه وحياته لشروط البيئة التي يعيش فيها ويعمل على ان يكيف نفسه مع الأوضاع الايكولوجية العامة . ويقول آخر كان الانسان في هذه المراحل الاولى المبكرة يقف من البيئة موقفا يتصف بالسلبية الى حد كبير ، اذ كان يقنع باستهلاك ما تقدمه له الطبيعة من موارد ، وبخاصة تلك التي يعتمد عليها في طعامه . كما انه كان عرضة لكثير من الكوارث الطبيعية والأمراض المختلفة ، التي لم يكن يدرك لها معنى أو يعرف لها سببا أو تفسيرا، وبذلك كان عاجزا تماما عن التحكم فيها وتجنبها ، أو على الأقل تخفيف نتائجها السيئة . ومن هنا كان يرد هذه الكوارث والأمراض الى قوى خفية غامضة اقوى منه واكثر قدرة وعنفا ، وبذلك لم يكن امامه سوى الاستسلام لها . ولم يكن الانسان المبكر قادرا من ناحية اخرى على التنبؤ بما سوف يحدث له في المستقبل القريب نظرا لمجره عن فهم المنطق الذي تسير عليه الطبيعة والقوى التي تحركها ، ولذا كان يسلم قياده لهذه القوى تماما ويتقبل بالتسليم كل ما يصدر عنها ، بل انه كان يعمل على ان يتقرب اليها ، ويتضرع ويتدلل لها مادام عاجزا عن التحكم فيها . ويذهب كثير من العلماء ، وبخاصة علماء الانثروبولوجيا ، في القرن التاسع عشر الى ان هذا الموقف المستسلم العاجز امام الطبيعة والقوى الكونية هو الذي ادى في آخر الامر الى ظهور الدين ، وتحديد العلاقة بين الانسان والكون بكل ما فيه من خوارق وفجبيات ، فالدين في نظر هؤلاء العلماء يقوم اساسا على فكرة التسليم بوجود قوى - ايا ما تكون طبيعتها - يعترف الانسان بضعفه امامها ، ويسلم بقوتها وقدرتها على التحكم في مصيره وتسيير حياته ورسم قدره .

ورغم كل ما يبدو في هذه النظريات من طرافة فمن الصعب تصور الانسان في اى مرحلة من مراحل تطوره وحياته سلبيا تماما ازاء الطبيعة، وإنما الأغلب ان الانسان بحكم طبيعة تكوينه وملكانه وقواه الطبيعية كان يقف موقفا اشد ايجابية من البيئة مما تحاول هذه النظريات تصويره وإبرازه ، وان كان هذا الموقف الايجابي اقل وضوحا مما هو عليه الآن بطبيعة الحال ، وذلك بحكم المرحلة التي كان يمر بها ، وبحكم تخلفه التكنولوجي وقلة امكانياته المادية في الماضي . بل انه يمكن القول ان الانسان حتى في أبسط اشكال حياته كان يقوم بنفس الدور الذي لا يخلو من تدمير الطبيعة أو بعض مظاهرها ومقوماتها ومكوناتها ، والحاق الاذى بهذه الطبيعة وذلك في اثناء معركة الحياة التي كان يخوضها حتى يضمن بقائه ووجوده واستمراره

ظهر هذا مثالا في مرحلة قنص الحيوان التي تعتبر من المراحل المبكرة في تطور المجتمع الانساني . فقد كان الانسان المبكر - على ما يبدو ببالغ وفعالي مفعالة شديدة في مطاردته الحيوانية الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر فيها ويعمل على قنصها والعيش على لحمها ، وانتهى الامر به الى القضاء تماما على كثير من فصائل الحيوانات واختفاء شكل من اشكال الثروة الحيوانية ، الطبيعية ، وهذا في حد ذاته يعتبر تغييرا هاما في البيئة الطبيعية لا يمكن التهوين من شأنه . كذلك ظهر هذا الموقف الايجابي من ناحية ثانية في اكتشاف الانسان للنار ،

واستخدامها على نطاق واسع في حرق الخشب والحطب بل وأحيانا في اشمال غابات بأكملها ومناطق واسعة من الحشائش ، وما كان ينتج عن ذلك من تلوث للبيئة ، وإن كان هذا التلوث ضئيلا في تلك الأزمنة نظرا لصالحة عدد السكان وتأخر حياتهم التكنولوجية . ولكن ينبغي ألا نفعل هنا عما كانت تسببه الحرائق من تغيير في الطبيعة ، سواء كانت هذه الحرائق تنشعب بطريقة تلقائية وطبيعية نتيجة لبعض التغيرات الكونية ، أو تشتمل بطريقة متعمدة ومن صنع الإنسان نفسها في الغابات ومناطق المراعى والأحراش. وكل هذا معناه أن تأثير الإنسان في البيئة كان قديما ويرجع الى أقدم المصور ، كما يرتبط بكل أشكال الحياة الاجتماعية والاقتصادية مع اختلافات في الكم وليس في النوع . وهذا لا ينفى بطبيعة الحال أن مشكلة اختلال العلاقة بين الإنسان والبيئة مشكلة حديثة لم تظهر إلا بعد أن أحرز المجتمع الإنساني تقدما ملحوظا في التقدم الصناعي والتكنولوجي وبخاصة منذ القرن التاسع عشر .

وليس ثمة شك في أن ارتقاء المجتمع الإنساني وتقدمه يرتبطان - في أحد جوانبهما على الأقل - بالقدرة على السيطرة على الطبيعة ، وتسخير البيئة واستغلال مكوّناتها لصالح الإنسان، وكذلك القدرة على التحكم في هذه البيئة وتطويع مواردها لخير الإنسان وإشباع احتياجاته ومتطلباته . ويقول آخر فإن تقدم الإنسان والمجتمع يمكن أن يقاس ليس فقط بمدى تحرر الإنسان من سلطة البيئة وسيطرتها ، بل وأيضا في قدرته على إخضاعها لرعايته والتحكم في مكوّناتها . والواقع أن التقدم التكنولوجي الرائع الذي أحرزته الناس خلال جميع مراحل تاريخ التطور البشري ، والذي وصل إلى ذروته في القرن الحالي ، قد ساعد على تصور الطبيعة على أنها شيء يمكن غزوه والتحكم فيه وتطويعه واستخدامه لإشباع احتياجات الجنس البشري التي كانت ولا تزال تزايد باستمرار وأطراد . ولقد ترتب على ذلك كله أن بدأت النظرة إلى الطبيعة والسلي البيئة تختلف ، كما بدأت اتجاهات الإنسان ومواقفه وقيمه المتصلة بالبيئة والطبيعة يطرأ عليها كثير من التغيير نتيجة لهذا الإدراك ، أمضى إدراك الإنسان لقدرته على توجيه الطبيعة ، بل وضرورة التحكم فيها . فلقد أصبح الإنسان يشعر أنه فوق الطبيعة، أو على الأقل أنه يسير مع الطبيعة على قدم المساواة ، بعد أن كان عبدا لها ولثوراتها ونزواتها وعنفوانها وجبروتها .

كل هذا معناه في آخر الأمر أنه من الخطأ أن ننظر إلى مشكلة البيئة على أنها مشكلة فيزيقية بحتة ، بحيث نفعل إصاهاها الاجتماعية والإنسانية، وذلك لأن الإنسان هو بالضرورة أحد العوامل أو العناصر الأساسية في البيئة ، باعتباره على الأقل عامل التغيير فيها وموضوع التأثير بها والتأثير فيها ، سواء كان ذلك التأثير يتخذ شكل المحافظة ، أو الإبادة وأحداث الضرر ، كما أن حياته هو هي التي سوف تتأثر بشكل مباشر في آخر الأمر بما يطرأ على البيئة من تغيرات نتيجة

لسلوكه وتصرفاته وموقفه منها . ولو أننا سلمنا بذلك واعتبرنا الإنسان هو أحد مكونات البيئة الأساسية فإن أية دراسة للبيئة لابد أن تكون بالضرورة دراسة تكاملية شاملة ، ولا بد من أن تتعرض لكثير من الأمور المتشابكة المعقدة التي يمكن أن نشير إلى بعضها هنا ، مثل : -

١ - الأسس الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية لمشكلات البيئة أو المشكلات الإيكولوجية ، وهي أسس معقدة إلى أبعد حدود التعميد .

٢ - الظروف الإيكولوجية من حيث أنها تنعكس ، ليس فقط على نوع الحياة التي يحيها الأفراد والمجتمعات ؛ بل وإيضاً على نفس مشكلة الوجود الإنساني وإمكان استمرار الجنس البشري في الوجود ، وإمكانات الإنسان على التكيف .

٣ - النتائج السيئة المترتبة على التنفريات الإيكولوجية سواء على المستوى المحلي أو الإقليمي أو العالمي .

٤ - الأمراض والمشكلات الاجتماعية التي تنجم عن التنفريات الإيكولوجية ، وهي مشكلات يمكن حلها اجتماعياً من طريق إعادة النظر في النظم الاجتماعية السائدة في المجتمعات المختلفة ، وإعادة تشكيل هذه النظم ، وكذلك إعادة النظر في سلوك الإنسان إزاء البيئة ، وموقفه منها ونظرته إلى الطبيعة . وسوف يقتضى ذلك ، في آخر الأمر ، ضرورة أن يراجع الإنسان نفسه ويعيد النظر في القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المعاصر ، من حيث انعكاسها على معاملة الطبيعة (وسوف يجد القارئ في مقال الدكتور حسن المرصفاوي مثالا للعلاقة بين البيئة وبعض الأمراض الاجتماعية ، والجريمة بالذات) .

٥ - التفاعل القوي بين كل الظواهر البيئية والاجتماعية وتساندها الوظيفي ، وهي أمور تتصل اتصالاً وثيقاً بالمشكلات الإنسانية . (وثمة أمثلة كثيرة لذلك يجدها القارئ في مقالات الدكتور محمود أحمد الشربيني ، والدكتور محمد عبد الرحمن إكثرونوي ، والدكتور أحمد أبو زيد) .

وكل هذا خلق بآن يبين لنا في آخر الأمر أن الإنسان الذي يلحقها الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها إنما تنجم عن افتقار الناس أو معظمهم على الأقل إلى وجود نسق متماسك من القيم المتعلقة بطريقة معاملة الإنسان للبيئة والاهتمام بها ، والحد من المبالاة في الإقبال على التكنولوجيا الحديثة التي قد تسهل حياة الإنسان وتقدم له كثيراً من الخدمات وتوفر عليه كثيراً من الجهود والوقت ، ولكنها تلحق في الوقت ذاته أشد الضرر والأذى بالبيئة كما هو الحال مثلاً في تلوث الهواء والماء نتيجة لانتشار الصناعة وما يتخلف عنها من نفايات وبقايا وأبخرة ودخان ورماد وغير ذلك .

ولقد دفع ذلك الكثير من المفكرين الى التنادافضرورة الوصول الى ما يطلقون عليه احيانا اسم « اخلاقية الارض » - كما ترد في مقال الدكتور ابو زيد - اى وجود نظرة جديدة أو اتجاه جديد وموقف جديد لملاقة الانسان بالبيئة . وفي ذلك يقول الامتاذ ليوبولد Leopold وهو من اكبر المهتمين بالمشكلات الايكولوجية وممن بذلوا جهودا كبيرة في تدعيم فكرة المحافظة على الارض : « اننا نحقق فكرة اخلاقية المحافظة على الارض حين ننظر اليها على انها مجتمع ننتمي اليه وبذلك يمكننا ان نستخدم الارض بطريقة تنم عن الحب والاحترام . وليس هناك سوى هذه الوسيلة لكى تسامد الارض على الصمود امام وطاة الحياة الآلية التى تسم الانسان الحديث ، كما ان هذا هو الطريق الوحيد اماننا نحن لكى نحصد من الارض المحصول الجمالى الذى هي قادرة على ان تنبت . بفضل العلم - وتسهم به فى الحضارة الانسانية . ان النظرة الى الارض على انها مجتمع هي الفكرة الاساسية فى الايكولوجيا ، كما ان حب الارض واحترامها هو امتداد طبيعى للأخلاق الانسانية . ولقد ادرك الانسان منذ زمن بعيد ان الارض قادرة على ان تنبت محصولا ثقافيا وحضاريا خليقا بالاحترام ، ولكن هذه الحقيقة غابت عن الاذعان فى المصور الحديثة ، » (انظر كتابه : Game Management)

والواقع اننا نستطيع ان نميز فى هذا الصدد بين موقفين مختلفين لشد الاختلاف يقفهما الانسان من البيئة الطبيعية التى يعيش فيها . فاما الموقف الاول فيتمثل فى اهتمام ثلة قليلة - ولكنها تتزايد فى العدد باستمرار - من الناس ممن يهتمون بالمحافظة على البيئة وما بها من جمال طبيعى مع عدم الرغبة فى ادخال اية تعديلات على مقوماتها الطبيعية او التعديل فيها ، على اساس ان اى تعديل يدخله الانسان عنوة واقتدارا فى الطبيعة سوف يؤدى الى اختلال التوازن الايكولوجى ، وبالتالي الى ظهور كثير من المضاعفات والتأثيرات الجانبية الضارة السيئة . الا ان هذه الدوى تجد كثيرا من المارضة والقائمة من ثلثات كثيرة جدا من الناس فى مختلف المجتمعات ، وهي ثلثات تنهم اصحاب حركة « الصراع من اجل البيئة » بانهم ينتمون الى قطاعات متميزة اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، وتعيش فى عزلة تامة بحيث لا تكاد تشعر باحتياجات الطبقات الاخرى الفقيرة التى تريد ان ترفع من مستواها الاقتصادى والعيشى والاجتماعى من طريق التنمية الاقتصادية التى تحتاج بالضرورة الى ادخال تعديلات فى البيئة ، تتمثل فى ايسر صورها فى استغلال الموارد الطبيعية . فكان اختلاف المواقفين من البيئة يمس - الى حد ما على الاقل - اختلاف المستوى الاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى المجتمع ، بحيث تصدر الدعوة للمحافظة على البيئة والابقاء على مقوماتها الطبيعية من الجماعات والثلثات القادرة اجتماعيا واقتصاديا ، والتي تريد ان تتمتع بما تقدمه البيئة من جمال طبيعى ، ولذا

فهى تعارض أى تدخل من جانب الإنسان ، وتعتبره تشويها وإساءة الى هذا الجمال ، بينما يقف المهتمون بتنمية المجتمع والمستغلون بالتخطيط فى الناحية الأخرى ، ويرون انه لا بد من استغلال الموارد الطبيعية حتى ولو كان فى ذلك القضاء على كثير من جمال الطبيعة ، وذلك على زعم أن التقدم العلمى والتكنولوجى الذى يحقق رخاء الإنسان والمجتمع لن يقصر عن إيجاد وسيلة للتغلب على أخطار البيئة وحل مشكلاتها ، وأنه مهما يؤخذ على التصنيع مثلا من أضرار يجلبها على البيئة وتؤدى الى تلوث الهواء والماء وما الى ذلك فإنه فى آخر الأمر وسيلة فعالة لرفع مستويات كثير من الناس ، وتوفير مستوى كريم وحياة كريمة لكثير من الطبقات الكادحة . وقد تكون هذه المشكلة بعيدة فى الوقت الحالى عن أذهان الناس فى المجتمعات المتخلفة والنامية ولكنها قائمة بالفعل ، ويدور حولها كثير جدلا من الجدل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهى تعكس فى آخر الأمر الصراع الدائر بين الذين يملكون والذين لا يملكون . وليس من شك فى أن الطبقات الفقيرة فى أى مجتمع تهتم أولا وقبل كل شيء بتوفير العيش لها ، ولا تكاد تعتبر جمال الطبيعة جزءا من عملية الحياة .

ومع ادراك هذه الحقائق كلها ، والتسليم بمدى ما تتعرض له البيئة من أخطار ، فالظاهر انه من الصعب التغلب على هذه الأخطار وإبقائها تماما ، وأنه يتعين على العالم أن يقبل هذه الحقيقة الواقعة ، وأن يتعين عليه فى الوقت ذاته أن يثمر على حلول تقلل من هذه الأخطار التى يبدو أنها تهدد نفس وجود الإنسان والحياة ، وهذه هى الفلسفة التى تختفى وراء الدعوة الى « المعركة أو الصراع من أجل البيئة » التى أشرنا إليها ، وهى معركة علمية وتكنولوجية واجتماعية وسياسية معا ، تهدف الى تنبيه الأذهان وتجنيد كل القوى للوقوف فى صف البيئة وممها ضد عوامل التخريب ، كما تحرس أشد الحرص على تحديد مصادر هذا الخطر حتى وإن كان يصعب التغلب عليها .

والواقع أن المتخلفين بهذه المسألة يرون أن الخطر الأكبر الذى يهدد البيئة ناجم عن مشكلة أخرى هامة تهدد العالم الآن وهى مشكلة تزايد السكان تزايدا رهيبا فى كل أنحاء العالم وبالاتى فى العالم المتخلف ، وهذه مسألة سبق أن عالجناها فى العدد الرابع من المجلد الخامس من هذه المجلة (المشكلة السكانية) . ولكن الجديد هنا هو أن الازدياد المطرد فى مطالب السكان الذين يتزايدون باطراد نتيجة للتقدم التكنولوجى والصناعى من ناحية ، والحاجة الماسة الى توفير أعداد متزايدة من المساكن لهم وما يرتبط بهذا كله من امادة تخطيط للمدن والمناطق السكنية والمستوطنات البشرية آيا كان نوعها من ناحية أخرى ، كل هذا يستلزم بالضرورة الإشارة على المناطق الخلوية ؛ بل وأحيانا على الاراضى الزراعية

لتوفير المسكن ، وهذا في حد ذاته يشكل خطورة بالغة على البيئة الطبيعية يحس بها سكان المدن المزدهرة بالسكان . ويزيد الأمر سوءاً ضرورة العمل على توفير وسائل المواصلات والنقل لهذه الأعداد المتزايدة ، وهذا يتطلب ليس فقط شق كثير من الطرق في هذه المناطق وتخصيص مساحات متزايدة من الأرض لكي تجري فوقها وسائل المواصلات ، بل إن انتشار هذه الوسائل ذاتها يجلب معه كثيراً من الضجة والضوضاء ، التي يعتبرها الكثيرون صورة أخرى أو شكلاً آخر من أشكال تلوث البيئة ، وذلك فضلاً عن ازدياد مخلفات المكان من نفايات وفضلات .

وهذه كلها أمور معروفة تناولتها كل الكتب التي تدور حول تلوث البيئة ، وسوف يجد القارئ لها صدى في أكثر من مقال في هذا العدد ، بل وفي أعداد سابقة من المجلة .

ولكن الطريف في الأمر حقاً هو ما يضيفه كثير من العلماء المحققين إلى هذا كله من أن التحركات السكانية من مكان لآخر ، وبخاصة أثناء المظاهرات ، له دخل كبير جداً في تغير البيئة وغزو الطبيعة والإغارة عليها والحاق الكثير من الأضرار بها . ولقد ساعد على ذلك كله انتشار استخدام السيارة كوسيلة عادية ومألوفة من وسائل الانتقال ، ويذهب بعض المشتغلين بمشكلات البيئة الطبيعية والعمل على المحافظة عليها إلى اعتبار السيارة أمدى أعداء الطبيعة ، وبالتالي أمدى أعداء حركة المعركة من أجل البيئة ، ذلك أنه قبل انتشار استخدام السيارة على هذا النطاق الواسع ، وحين كان الإنسان يستخدم وسائل النقل العامة ، كانت تحركاته أثناء المظاهرات قاصرة على الأماكن المحدودة التي تصل إليها هذه الوسائل ، فلما أصبح للإنسان وسيلة انتقاله الخاصة به ، والتي تتمثل في السيارة بالذات لم يعد هناك ضابط أو قيد على تحركاته ، وأصبح الإنسان حراً في أن يذهب إلى حيث يشاء وإلى حيث تستطيع وسيلته الخاصة أن تنقله ، وبذلك أمكنه ارتياد مناطق كثيرة وعديدة وبعيدة لكسب بعض فيها عطائه ، وازداد بالتالي تهجمه على جمال الطبيعة وانتشار التخريب والدمار . فليس أقدر من الإنسان على تشويه جمال الطبيعة البكر في الأماكن التي يمضي فيها عطائه وأوقات راحته بما يحدثه من تغير وما يتركه وراءه من مخلفات ، ويزداد هذا الدمار بطبيعة الحال بطول فترة العطلة . وهذه حقيقة ياخذها في الاعتبار الكثيرون ممن يمارضون الآن فكرة جعل الأسبوع أربعة أيام عمل فقط بدلاً من خمسة أو ستة أيام لراحة وقت أطول للتراف والراحة والترفيه للناس مادام الإنتاج لن يتأثر بتقصير مدة أيام العمل نظراً لازدياد الاعتماد على الآلات في الإنتاج . وليس ثمة غبار على توفير الراحة ذاتها للناس ، إنما المشكلة الحقيقية هنا هي ما يلحقه الناس أثناء هذه المظاهرات أيام الراحة الطويلة من أضرار وأذى بالبيئة الطبيعية ، وربما كان هذا أيضاً هو أحد العناصر التي تتضمنها حركة إحياء أخلاقيات

للارض . ومن يدري فقد يكون في نجاح الدعوة الى ضبط النسل وبرامج تنظيم الاسرة علاج ، ولو جزئي ، لبعض مشكلات البيئة والمحافظة عليها ، ما دامت هذه البرامج ستؤدي في حالة نجاحها الى خفض عدد السكان ، وبالتالي الحد من انتشار المستوطنات البشرية والمساكن والطرق ووسائل المواصلات في النقل وحرية الانتقال .

ومع التسليم بهذا كله فان المشكلة المويصة التي يبدو انها تواجه العلماء الآن هي : كيف يمكن التوفيق بين الرغبة في المحافظة على البيئة الطبيعية من ناحية وتحقيق برامج التنمية الاقتصادية وتوفير حد ادنى لرفاهية الانسان من ناحية اخرى؟ او يقول آخر كيف يمكن التوفيق بين رغبات الاغنياء والقادرين والموسرين الذين يحاولون الاحتفاظ بجمال الطبيعة ، ورغبات ومطالب الفقراء الذين لا يهمهم في المحل الاول شيء قدر توفير العيش ؟ وكل هذا خليق بان يكشف لنا عن مدى صدق ما سبق ان ذكرناه من ان مشكلة العلاقة بين البيئة والانسان هي مشكلة اجتماعية في المحل الاول ، تتعلق بتحقيق مستوى معين وشكل افضل للحياة ، سواء في المجال الجعالي الفني او الاقتصادي . ولا تزال الحلول تموز الانسان ، ولا يزال المفكرون يحاولون الوصول الى التوفيق بين هاتين الناحيتين تحت ظروف اجتماعية باقاة القسوة .



أحمد أبو زيد

أزمة البيئة

لا يحدث سوى مرة واحدة في كل قرن ان تستطيع
أحدى القضايا الهامة أن تفرس نفسها على الناس جميعا
من مختلف الأجناس والطبقات والأديان . ولقد أصبحت
مشكلة البيئة الفيزيائية التي نعيش فيها إحدى هذه القضايا .

(وليام روكهاوس)

أفلحت « قضية البيئة » في أن تفرض نفسها بشكل قوى منذ أوائل السبعينات ، وذلك
حين ظهر ما يعرف باسم « حركة البيئة Environment movement » ، ولو أن الآراء
لأزوال مختلفة اختلافا شديدا حول مدى عمق هذه القضية أو المشكلة ، وإلى أى حد يمكن أن
تؤثر في مصير الإنسان بوجه عام وحياة شعوب ومجتمعات معينة بالذات . وعلى ذلك فإن الآراء
تكاد تجمع على أن العالم كله مقبل على « أزمة بيئية » أو « أزمة إيكولوجية » قد تقلب الأوضاع
الاجتماعية والاقتصادية السائدة الآن في المستقبل القريب أو البعيد . بل أن الذين يظهرون شيئا
من التشكك في ضخامة المشكلة وأهميتها الثماينون يحكامهم على الأوضاع القائمة في المجتمعات
التي يعيشون هم فيها دون أن يقللوا من خطورة المشكلة بالنسبة للعالم ككل ، بمعنى أنهم لا يسطون

لمشكلة البيئة أولوية مطلقة ، وذلك على أساس أن مجتمعاتهم وشعوبهم تتعرض لآخطار ومتاعب أخرى يجب حلها أولا قبل الاهتمام بمشكلة البيئة التي يمكن تأجيل حلها الى أن تحل هذه المشكلات المأجلة .

ولقد بدأت « حركة البيئة » بما يطلق عليه الآن اسم « يوم الأرض » Earth Day وذلك حين تقدم في عام ١٩٧٠ عدد كبير من المتحمسين في بعض دول العالم المتقدم ، وبخاصة في أمريكا ، ببعض النداءات التي تدعو الى بلل الجهد لاتقاذ البيئة من التلوث . ولم تلبث هذه الدعوة أن وجدت صدى كبيرا لدى الكثير من الناس ومن العلماء من مختلف التخصصات ، بحيث تبلورت بعد عامين اثنين في شكل مؤتمر عقده هيئة الأمم في استكهولم ، واشترك فيه عدة آلاف من العلماء والسياسيين والمخططين الاجتماعيين ورجال الصحافة ، وكان بذلك من أكبر المظاهرات العلمية - بل والفوقانية أيضا - التي شهدتها العالم في أي وقت من تاريخه . (١) وبعد هذا المؤتمر انتشرت الدعوة الى تطهير البيئة مما يلوثها انتشارا واسعا بحيث خصصت لها الدول الكبرى ميزانيات ضخمة . ويكفي للتدليل على ذلك ان نذكر انه في عام ١٩٧١ أي قبل انعقاد المؤتمر نفسه بعام كامل ولكن بعد أن كانت الأذهان قد تنهت فعلا الى خطورة المشكلة - اتفق رجال الصناعة في أمريكا مايريد على ثلاثة بلايين من الدولارات لمعالجة مشكلة تلوث الماء والهواء فقط، بينما وضعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية خطة لاتفاق لثلاثة بلايين دولار على برامج البيئة المختلفة خلال الأوامم العشرة ابتداء من عام ١٩٧٢ ، أي بواقع ثلاثين بلايين دولار كل عام . وفي الوقت ذاته خصصت بريطانيا أكثر من ثلاثة بلايين من الدولارات لتطهير أنهارها ، كما خصص الاتحاد السوفييتي بلايين دولار لتطهير مياه نهرى الفولجا والأورال وحدهما من كل عناصر التلوث . وهذه المبالغ الضخمة الهائلة خليقة بان تكشف لنا عن حجم المشكلة ، ومدى احساس الدول الصناعية المتقدمة بها .

ولكن ربما كان أفضل مقياس لنجاح هذه الحركة هو رد الفعل المضاد لها . فلقد تعرض « أنصار البيئة » أو أصدقاؤها لكثير من الهجوم والنقد والتشكيك ، كما وصفت الحركة ذاتها بالمبالغة والتحويل والمقالة التي لاتقوم على أساس سليم . وقد تزعم هذه الدعوة عدد من رجال الصناعة أنفسهم ، نظرا لأن انتشار الحركة واستعداد الناس لتصديقها وقبولها قد كلفهم الكثير من الأموال التي انفتحت على (تنظيف) البيئة وتطهيرها من التلوث . كذلك ذهب بعض الممارضين الى أن هذه الحركة تسببت بشكل مباشر في خلق « أزمة الطاقة » التي عانت منها أمريكا معاناة شديدة ، وهي أزمة يمكن أن تهدد مستقبل الصناعة ، وبالتالي مستقبل أمريكا والقوى العاملة في الصناعة ، تهديدا مباشرا لو أنها استمرت وصدق الناس كل النتائج الوخيمة التي

(١) الواقع ان فكرة هذا المؤتمر كانت اسبق على ذلك الى بما التفتح فيه عام ١٩٦٨ وان كانت هذه النداءات والحركات وجهت الانتظار الى اميتها . وقد أطلق على المؤتمر اسما مؤخر هيئة الأمم المتحدة من البيئة الانسانية .

يرى أنصار البيئة أنها سوف تلحق بالإنسان والعالم لو ظلت درجة التلوث على ما هي عليه ، ولم تتخذ الإجراءات السريعة الحاسمة لوقفها . كذلك تعرضت الحركة لهجوم من زاوية أخرى مختلفة تماما ، وهو هجوم يرمى أنصار البيئة بأنهم فئة من المثاليين الذين عزلوا أنفسهم عن الاتصال بالعالم الخارجى ومشكلاته الحقيقية نتيجة لنوع الحياة التي يحيونها ، والتي تمنأى في الأغلب بارتفاع المستوى الاقتصادى والثقافى ، وهم بذلك لا يهتمون بالأم ولا متطلبات الطبقات والشعوب الفقيرة التي تعطى الأولوية المطلقة لمشكلة الفقر وكسر حلقة الفقر والخروج من دائرته ، وإن التوقف عن الصناعة أو تحديد الانتاج كوسيلة للاقلال من درجة التلوث لن يحقق هذه الغاية التي يحلم بها الفقراء ، وهم يعد كل شيء يمثلون القطاع الأكبر من الجنس البشرى .

والطريف هنا أن هذه الانتقادات التى وجهها رجال الصناعة الى أنصار البيئة وجدت ترحيبا شديدا من بعض الشعوب الفقيرة والمتخلفة والنامية التي نظرت الى الدعوة الى المحافظة على (نظافة) البيئة ، ولو كان ذلك على حساب الانتاج الصناعى ، على أنها حركة استعمارية جديدة تقوم على أساس تثبيط هم الدول النامية عن الأخذ بسياسة التصنيع ، وتحاول صرفها عن تنفيذ برامجها فى التنمية الاقتصادية التي تركز الى حد كبير على التحول التدريجى الى الصناعة كوسيلة لرفع مستوى الحياة فيها اقتصاديا واجتماعيا ، او على الأقل كوسيلة تتخلص بها من كثير من مظاهر التخلف والفقر المضرية عليها . ويقول آخر فإن هذه الدول النامية اعتبرت حركة البيئة حركة معادية للتحرر الاقتصادى من ربطة الدول الصناعية المتقدمة . وقد انعكس ذلك بوضوح خلال جلسات مؤتمر استكهولم ، إذ كانت النغمة السائدة بين عدد من ممثلى العالم الثالث هي أن « البيئة النظيفة » ليست ضرورة عالية ، وإنما هي مجرد نوع من الترف يجب أن يستمرى بالعملة الصعبة ، وأن لمن هذا الترف قد يكون غالبا جدا بالنسبة لبعض المجتمعات قد يكلفها فرصة التقدم والرفى . ولم يكن ممثلو هذه الدول ينصتون الى كل حجج أنصار البيئة التي تقوم على مبدأ ضرورة تضامير جهود كل الدول والشعوب والمجتمعات لأصلاح البيئة ، وأن ذلك يجب أن يتم بسرعة حتى لا يجد العالم نفسه فى مأزق قد يكلفه وجوده نفسه ، وأن الوسيلة الوحيدة لتجنب هذا المأزق هو أن يتحكم العالم كله وبكل مجتمعاته فى درجة النمو الاقتصادى والسكانى على السواء . ولقد ذهب الدكتور بول ارلينش Paul Ehrlich فى كتابه الشهير « القنبلة السكانية The Population Bomb » الى احتمال وقوع هذه الكارثة الأيكولوجية المدمرة حوالى عام ٢٠٤٠ لو استمر العالم يسير فى هذا الطريق الخطر الذى اختاره لنفسه .

وأيا ما تكون الحقيقة وراء هذه الاتجاهات المتعارضة فهناك كثير من الأوضاع والحقائق التي يجب أن تؤخذ دائما فى الاعتبار ، وهي حقائق تحمل كثيرا من التحذير من الاخطار التي تحيط الآن بالعالم والتي يجب الانتباه اليها . مثال ذلك ان كثيرا من المباني الأثرية فى أوروبا كالكنايس

والكاندرايات التي ترجع الى القرون الوسطى ، والتي تعتبر من اكبر مظاهر الحضارة الفريسية بدأت تعاني من سحب الدخان والغازات والرماد المتصلد من المصانع ويكاد بعض اجزائها يتدهاى بتأثيرها . ولقد أوصت إحدى اللجان التي كلفتها اليونسكو في أوائل السبعينات بدراسة حالة هذه المباني الأثرية الخالدة بأن تقوم الهيئة بتغليف الأكروبول كله بالزجاج لكي تمنع منه آثار التلوث المدمرة ...

والظاهر أن كل مظهر من مظاهر النجاح الفائق يقتضى تمنا غالبا للغاية . والظاهر أن هذا هو الوضع أيضا بالنسبة للبيئة ، بحيث يمكن القول أن تنفيذ أى مشروع من المشروعات الضخمة التي تؤدي الى حدوث بعض التغيرات في البيئة الطبيعية لغير الانسان وصالحه كثيرا ما يحل بين طيها بعض الآثار الجانبية الضارة التي يلحق منها بعض الأضرار في التوازن البيولوجي . وربما كان أفضل مثل لذلك هو التغيرات البيولوجية التي تحدث الآن في مجرى نهر النيل وارضى الدلتا الخصبة بعد اتمام السد العالي وبحيرة ناصر . فعلى الرغم من كل ما حققه لأن السد العالي الذي يعتبر من مفاخر الهندسة الحديثة ، ومن أضخم المشروعات التي تهدف الى التنمية ، وعلى الرغم من كل ما قد يحققه في المستقبل سواء من حيث زيادة مساحة الأرض المزروعة وتعميم الري الدائم بدلا من ري الحياض الذي كانت تعتمد عليه مساحات كبيرة من الوجه القبلي ، وكذلك توليد الكهرباء بكل ما سوف يترتب عليها من نتائج اقتصادية ومظاهر حضارية ، فإن الثمن البيولوجي لذلك سيكون فادحا بغير شك . فكثير من العلماء والأطباء يخشون من أن تؤدي بحيرة ناصر بمساحتها الهائلة الى انتشار البلهارسيا على نطاق أوسع مما هو موجود الآن بالفعل في مصر ، بل أن البعض يخشى من إمكانية عودة بعض الأمراض التي كان قد أمكن القضاء عليها تماما مثل الملاريا ، وذلك كله بالإضافة الى ظاهرة النهر النهري وتآكل الشواطئ في شمال الدلتا والاضطراب التي تهدد التربة ذاتها نتيجة لحجر الطمي الذي كان النهر يحمله ويوجد به خصوبة أرض مصر ، وكذلك بالإضافة الى اختفاء كثير من مظاهر الحياة السمكية البحرية مثل السردين والجببري والصناعات التي كانت تقوم على هذه الثروة السمكية ... ومع ذلك فإن هؤلاء العلماء أنفسهم يرون أن لكل مشكلة حلا ، وأن العلم لن يعجز عن معالجة هذه المشكلات . (٢)

(٢) الملاحظ أن التغيرات البيئية توجد في كثير من الدول وهي تقتضي في رأى الكثيرين ضرورة تكاتف هذه الدول على وقف تيار التلوث ، وأنه لن يمكن لأي دولة واحدة أن تقوم بهذا العمل بمفردها ، وليس ذلك ناشئا من ارتفاع تكاليف هذه الحرب فحسب بل وأيضا نظرا للتكاسع القائمة بالفعل . مثال ذلك أن سبع دول على الأقل تلقى بفضائلها ونفاياتها في بحر الشمال ، كما أن الرماد المتصلد من مصانع الرود في ألمانيا مثلا يؤثر في تروج التروج ويقللها بريفها وسماتها وصناعاتها ، وبالتالي فإن لتلوثات ومصانع الرين تصل الى بحر الشمال وتؤدي الى موت أعداد هائلة من الأسماك فيه . واستاذى لدى حد كبير من العلماء أن البحر الأبيض المتوسط سوف يصبح بحرا (ميتا) نتيجة لتلوث المصانع والملاهي والملاهي من المصانع والمواد فيه أن لم يبلد الجهود الجبيرة للقضاء ، وأن كان هناك من يعتقد أن الوقت قد فات بالفعل وأنه لا أمل في القضاء على تلك المصانع :

والخلاصة من هذا كله هو أن الكثير من الدول المتخلفة والنامية والفقيرة تعتقد - كما ذكرنا - أن « حركة البيئة » هي آخر سلاح أوعلى الأصح أحدث سلاح تسلم به الدول الفنية في مؤامراتها ضد الدول الأخرى حتى تظل هذه الدول الفنية متفوقة طيلة الوقت وبحيث تستطيع أن تتحكم في غيرها ، ويكفي هنا أن نذكر أنه حين عقد مؤتمر ستكهولم للبيئة كان تعليق أحد أعضاء وفد البرازيل عليه ، حتى قبل أن يعقد ، هو أن « مشكلتنا ليست هي التلوث الناجم عن زيادة التفوق الصناعي وإنما هي الفقر والتخلف » . وربما كان هذا التخوف أو التشكك هو السبب في أن المؤتمر عالج بالإضافة إلى التلوث الناجم عن التصنيع عددا من مشكلات البيئة في مجتمعات العالم الثالث مثل زحف الصحراء على الأراضي الخضراء الخصبة ، وانتشار الجذب وما إلى ذلك . وعلى أية حال ، فلقد بدأت بعض الدول النامية بعد المؤتمر تشعر بعالية المشكلة ، ولذلك أن تهديد البيئة ليس قاصرا على مجتمعات محددة بالذات دون غيرها ، وأن الأزمة الإيكولوجية أزمة مالية بكل مافي هذه الكلمة من معان . والأمثلة عديدة على تلوث البيئة والآثار الضارة المترتبة على ذلك ، وهي أمثلة يمكن أن نجدها في كل بقعة من بقاع العالم . والمعتقد على أية حال أن الدول الفقيرة والمتخلفة هي أكثر عرضة من الدول الفنية والصناعية لكوارث البيئة ، على ما قيد يبدو في ذلك من غرابة ، وذلك لأن هذه الدول المتخلفة تبالغ - في سباقها للحاق بالعالم المتقدم المتحضر - في ادخال نظم الحياة السالدة في المجتمعات الصناعية المتقدمة ، وهي ترهق بذلك مواردها الطبيعية التي سوف تستنزف في فترة قصيرة نسبيا ، كما أن الإقبال الشديد على التصنيع سوف يجعل بتلوث الهواء والماء بدرجة أكبر مما هو موجود في المجتمعات المتقدمة التي لديها من الموارد المالية ما يسمح لها بالتخفيف من ويلات التلوث . وليريد من خطورة الأمر في المجتمعات النامية ارتفاع معدلات الزيادة السكانية بدرجة غير مألوفة في المجتمعات المتقدمة .

(٦)

والشيء الذي يسترعى النظر هنا هو أنه على الرغم من أن « حركة البيئة » لم تبدأ بشكل منظم إلا منذ أوائل السبعينات فإن مآثم أضرارها من تقدم حتى الآن في هذا المجال خليق بالاهتمام والتقدير على الأقل في مجال توجيه الانتظار إلى خطورة المشكلة ، حتى وإن لم تنفذ كثير من البرامج الخاصة بمنع تلوث البيئة ، وعلى الرغم من أن منع هذا التلوث لا يزال أملا برادو أحلام أنصار البيئة . والمهم هنا هو أن عددا من الدول أصدرت للتشريعات الخاصة بالمحافظة على البيئة ، كما أفردت ميزانيات ضخمة لذلك على ما ذكرنا .

ولقد بدأ الاهتمام بالبيئة وعلاقتها بالكائنات العضوية ، أو ما يعرف عموما باسم الإيكولوجيا - على أيدي علماء النبات والحيوان الذين كانوا ينظرون إلى المسألة في الأغلب من الزاوية الفيزيائية

البحثه ، أو على الأقل كانوا يعولون الى تغليب الجانب الفيزيقي للمشكلة . ولكن الرعيل التالي من علماء الأيكولوجيا كانوا يتمتعون بنظرة أوسع وأعمق ، ولذا فانهم أعطوا مزيدا من العناية والاهتمام الى وضع الانسان في البيئة والى التفاعل القائم بين الاثنين . وكما يقول فريزر دارلنج F. Fraser Darling في مقال طريف له : ان الأيكولوجيا - باعتبارها علما يدرس الكائن العضوى في علاقته بالبيئة التى يعيش فيها ، وكذلك العلاقات التى تقوم بين مجتمعات الكائنات العضوية التى تنتمى الى نوع واحد أو الى أنواع مختلفة - هى فكرة أوسع وأرحب وأكبر بكثير مما يتصور العلماء الرواد الأوائل ، وأن الشيء الذى حقا في هذه الفكرة هو أنها كانت من العظيمة والرحابة والانساع بحيث استطاعت أن تتعدى كل الحدود وأن تمتد الى ميادين لم تكن مفهومة أو مدروسة تماما ، كما أنها تحاول البحث عن العلاقات والروابط ، وأن تفقد المقارنة وتكشف عن أوجه الخلاف مهما كانت صغيرة وغير مرئية . (٢)

وربما كان أهم ما يميز هذه الدراسات الأيكولوجية الوالدة هو النظرة العامة الشاملة التى تحاول الربط بين عناصر البيئة المادية أو الفيزيائية من ناحية ، وحياة النبات وسلوك الحيوان وتصرفات الانسان والتفاعل والتداخل والتأثيرات المتبادلة بينها جميعا من ناحية أخرى . ومن هنا كانت هذه الدراسات الأيكولوجية المبكرة ، رغم ضحالتها النسبية اذا هي قورنت بما يصدر الآن من كتابات دقيقة متخصصة ، تعكس جانباً إنسانياً عميقاً تفتقر اليه هذه الكتابات العلمية المتخصصة . فالظاهر ان علماء الأيكولوجيا ساروا في نفس الطريق الذى سار فيه الكثيرون من المتخصصين في العلوم الاجتماعية حين حاولوا محاكاة علماء الفيزياء والكيمياء وغيرهم في تطبيق

Darling, F. Fraser; "A Wider Environment and Ecology Conservation" (٢)
Daedalus, Fall 1967, P. 1003.

وليس من شك في أن الفصل في ابرار علاقة البيئة بالحياة العضوية يرجع الى الكائن الأول الى علماء النبات بالذات ، ومن هنا كثرت الكلام من الأيكولوجيا النباتية . ثم جاء بعد ذلك علماء الحيوان . ويصير كتاب تشارلز التون Charles Elton الذى نشر عام ١٩٢٧ من الأيكولوجيا الحيوانية Animal Ecology من أهم العلامات على الطريق لأنه كان يعبر - كما يقول فريزر دارلنج - عن فلسفة محددة ومن رؤية واضحة لوقف شديد التحديد فيه يعتبر سلوك الحيوانات ذاتها عاملا في بيئة الكائنات الأخرى . ولقد طالب التون الذى كان عمره في ذلك الحين أقل من الثلاثين سنة بضرورة تعاون علماء النبات مع فريق من العلماء من أجل الوصول الى فهم كيف تتماشى مجتمعات الكائنات العضوية المختلفة . وقد كان آخر كتاب أصدره التون في هذا المجال هو كتابه الشهير The Pattern of Animal Communities الذى صدر عام ١٩٦٦ وفيه لا يقتل يوسف ما هو قائم وإنما يتجاوز ذلك الى المستقبل ، ويستمد ذلك من طبيعة الأعمال والبحوث التى قام بها تلاميذه وأتباعه خلال عشرين عاما . ورغم ذلك فقد اتسم التسون بآرائه الى قلة البحوث التى أجريت في هذا المجال الحيوى العلم الذى تتوغل عليه قدرة الانسان على رسم حياته وحياة المجتمع البشرى في المستقبل .

ويمكن أن نذكر الى جانب التون عددا آخر من علماء النبات الذين اهتموا بتوطيد الدراسات الأيكولوجية من أمثال هومر شانتز Homer Shantz الذى وضع اقليسا نباتيا ظل معتمدا لمدة طويلة جدا وذلك بعد ان قام برحلة علمية الى إفريقيا من القاهرة الى جنوب القارة . كذلك يدخل الدولويو Aldo Leopold ضمن هذه المجموعة من العلماء ، وقد قام بكثير من الأبحاث في صغاري المكسيك واريزونا .

المهجع العلمى الرياضى الدقيق ، وبذلك ترجموا كل العلاقات الإيكولوجية ترجمة كمية افقدت هذه العلاقات كثيرا من « إنسانيتها » وعمقتها ، وفقدت الكتابات الإيكولوجية عموما كثيرا من جاذبيتها السابقة التى كانت تتميز بها ، وأخفقت بالتالى فى أن تصل الى كثير من الناس على الرغم من أنها تعالج مسائل وامورا تمس حياة الانسان والمجتمع مسا شديدا . وقد زاد الوضع سوءا أن عددا من علماء الإيكولوجيا النباتية والحيوانية كانوا يرفضون فكرة إمكان قيام إيكولوجيا انسانية أو بشرية على الأصح ، وذلك باستثناء عدد قليل منهم كانوا فى الاظلم من المتخصصين أصلا فى الجغرافيا أو الانثروبولوجيا . ولعل من أهم هؤلاء الجغرافيين كارل ساور Carl Sauer الذى كان ينظر الى الإيكولوجيا دائما كإحدى ضوء النشاط البشرى العام . ويقول آخر فان هؤلاء العلماء الذين كانوا ينادون بضرورة قيام إيكولوجيا بشرية إنما كانوا يومنون بأن هناك إيكولوجيا واحدة شاملة ، ويصدرون فى كتاباتهم عن هذا الإيمان . وعلى أى حال فالواضح أن كلمة إيكولوجيا انتشرت فى مختلف الأوساط العلمية ، ولم تعد قاصرة على علماء النبات أو الحيوان ، كما أصبحت الدراسات الإيكولوجية أكثر ميلا بعد ذلك الى الشمول والتكامل مما يجعل من مشكلة البيئة مشكلة اجتماعية وإنسانية بقدر ما هى مشكلة فيزيقية .

ومع ذلك ، فعلى الرغم من اتساع نطاق البحوث الإيكولوجية الآن وإعطاء الجانب الاجتماعى والإنسانى قدرا أكبر من الاهتمام ، فلا تزال نقطة الانطلاق فى أى بحث إيكولوجى هى الظروف والأوضاع المادية السائدة فى أى مجتمع من المجتمعات ، وإلى أى حد تنمكس هذه الأوضاع فى سلوك الناس ، وإلى أى حد تتأثر بدورها بهذا السلوك أو بالثقافة السائدة فى ذلك المجتمع ، وكيف يمكن الاستفادة من هذه الظروف البيئية الصالحة . وعلى الرغم من التسليم بأن هذه الأوضاع الفيزيكية تؤثر تأثيرا قويا فى حياة الناس إلا أنها لا تحدد لهم هذه الحياة تماما ، وهذا معناه أن ما كان علماء القرن التاسع عشر يطلقون عليه اسم « الحتمية الجغرافية » والتى كانوا يعنون بها أن الشروط والأحوال الجغرافية تملأ على الناس نوعا معينا بالذات من السلوك والحياة والنشاط الاقتصادى والاجتماعى لا يمكن الخروج منه — قد اختفت الآن تماما من الكتابات الإيكولوجية ، التى أصبحت تعتبر هذه الظروف مجرد عامل واحد ضمن عوامل كثيرة تتعاون مما فى تشكيل السلوك الاجتماعى . فمساكن الصحراء مثلا لا يشتغلون برعى الحيوان لأن الظروف البيئية وحدها هى التى تحتم عليهم ذلك ، وإنما لأن هناك إلى جانب هذه الظروف البيئية الملائمة أوضاعا أخرى اقتصادية واجتماعية وسياسية تتضافر مما وترسم لهم ذلك الطريق ، مع عدم إنكار أهمية الدور الذى تلعبه تلك الأوضاع المادية أو البيئية فى توجيه هؤلاء السكان نحو ذلك النمط المعين — النشاط الاقتصادى ... فالإنسان هو الذى يصنع النظم الاجتماعية التى تسود فى المجتمع الذى يعيش فيه ، أخلا بالاعتبار فى الوقت ذاته ما تقدمه له البيئة الطبيعية من إمكانيات ، كما أن الإنسان هو أيضا الذى يستطيع أن يفر هذه النظم التى أوجدها بنفسه لنفسه حين يقتضى الأمر ذلك التغيير ، وإن كان هذا لا يتم بسهولة فى كل الأحوال . فكان أى تغير فى البيئة الطبيعية يمكن

للإنسان أن يقابله بإدخال التعديلات والتغيرات المناسبة على النظم الاجتماعية ، بحيث تتلاءم مع الأوضاع والشروط البيئية الجديدة .

ولقد اتجهت البحوث الإيكولوجية في معظمها وبخاصة البحوث التطبيقية - ناحية العمل للمحافظة على البيئة. وارتبط هذا كله بالتخطيط وبالذات بظاهرة التحضر ، أى ازدياد الإقبال على إنشاء المدن نتيجة للزيادة الهائلة في عدد السكان وهجرتهم من الريف الى المراكز الحضرية والصناعية . ولقد كان لهذا أثره بالتالى على المناطق الريفية والخلوية . فقد كان من الطبيعي ازاء زيادة التصنيع وزيادة الهجرة من الريف أن تمتد حدود المدن والمراكز الحضرية بحيث التهمت مساحات كبيرة من المناطق الريفية والخلوية والأرض الزراعية . وقد دعا ذلك بعض العلماء الى الاهتمام ليس فقط بتطهير (تنظيف) البيئة الحضرية من الأدران التى تولدها ، ولكن أيضا باتخاذ الريف والمحافظة عليه والإبقاء على المناطق الخلوية التى تعتبر رئة المجتمع كله . ولعل هذه كانت هى الفكرة الكامنة وراء ما يقال من أن ارتفاع مستوى المعيشة اقتصاديا من طريق التصنيع يرتبط بالضرورة **بخفض أو تدهور** مستوى المعيشة **بيئيا أو إيكولوجيا** ، ليس فقط نتيجة للتلوث الذى يصاحب نشأة الصناعة ثم انتشارها ، ولكن أيضا نتيجة للازدحام السكاني وازدياد الضوضاء والضيقة والصخب التى ترتبط بممارسات التصنيع وظهور المراكز الصناعية ، بحيث أصبح الهدوء الآن سلعة نادرة الى حد كبير . وهذه كلها أمور يتطلب حلها قيام تعاون وثيق بين علماء الإيكولوجيا والفيزياء والاجتماع والنفس والاثريولوجيا ، فضلا عن المهندسين والمشتغلين بالتخطيط وغيرهم ، وهو ما يزيد من توكيدنا وتوضيح خاصية الشمول والتكامل التى تعتبر من أهم الخصائص المميزة لمشكلة البيئة . (٤)

(٤) هناك بعض الجامعات التى تدعو الى توجيه التربية والتعليم بحيث تخدم البيئة، بل وإلى ظهور تخصصات جديدة في علم البيئة التى يبدو أن كثيرا من الدول حتى التقدمية لاصطفاها الآن ما تحتاجه من نهاية واعتماد . وتستند هذه الدعوة على أن (إدارة) البيئة والتحكم فيها والمحافظة عليها تحتاج الى عدة تخصصات تتكامل وتعاون فيما بينها بحيث يمكن أن يخرج منها تخصص جديد يجمع بين عدة فروع مختلفة من العلم مثل الجيولوجيا وعلوم التربية والاقتصاد والاجتماع والاثريولوجيا بل والقلمسة أيضا باعتبارها من الدراسات التى تساعد على فهم مظاهر سلوك الناس وعاداتهم وبخاصة فيما يتعلق بوقائعهم من البيئة الطبيعية . فلا إنسان - على ما يقول روبرت موريسون Roper Morrison في مقاله الرائج من Education for Ecological Concerns هو أنجع الكائنات في استثمار الأرض واستغلالها واستغلال مواردها ولكنه في الوقت ذاته أكثر هذه الكائنات اعتمادا للأرض وتلوثها . ولكن على الرغم من كل الجهود التى تبذلها الجامعات الأمريكية بالذات وعدد من الهيئات والمنظمات العلمية لتنتشر فكر التخصص في (الإيكولوجيا) بهذا المعنى العام الشامل ، فلاحظ أن الإقبال عليه لا يزال ضعيفا نظرا لصعوبة العلوم التى يتضمن على الطالب الإيكولوجي أن يلم بها ، وتشمع هذه العلوم وتنوعها بل وتباينها . وعلى أن حال فإن توفر أمثال هؤلاء التخصصين لن يكون سوى الخطوة الأولى في دراسة البيئة بينما سوف يحتاج الأمر بعد ذلك الى تعاونهم مع عدد من التخصصين في بعض فروع المعرفة الأخرى وبخاصة الهندسة والتخطيط بل وأيضا الكيمياء والبيولوجيا لفصل أبسط مشكلات البيئة .

(٢)

وواضح من هذا أن أهم ما يشغل بال علماء الإيكولوجيا الآن هو مسألة «المحافظة على البيئة» ، وهو تعبير حديث نسبيا ، وإن كان استعماله شاع كثيرا بين كل المهتمين بأمر البيئة والمحافظة عليها ، حتى وإن لم يدركوا كل الأبعاد التي تتضمنها هذه العملية الشديدة التعقيد التي تحتاج إلى الإلمام بكل جوانب الحياة الاجتماعية الاقتصادية ، بما في ذلك نفس عادات الناس وموقفهم من البيئة وطريقة معاملتهم لها - أو على الأصح تعاملهم معها - وردود الفعل التي ينتظر أن تصدر عنهم إزاء مشروعات وبرامج المحافظة على البيئة ، وهي برامج غالبا ما تتعارض مع رغبات الناس ومع ما تعودوا عليه ، ولذا فإنها تثير فيهم الرغبة في المقاومة . وهذا وضع طبيعي على أي حال ، يصادف كل مشروعات التنمية التي تهدف إلى تغيير الأوضاع القائمة . هذا كله بالإضافة إلى المعارضة التي يشهدها المشتغلون بالتصنيع على ما سبقت الإشارة إليه . إلا أنه يبدو أن الأذهان أصبحت الآن مهية إلى حد كبير إلى تقبل فكرة المحافظة على البيئة ، كما أنه يمكن تبديد كثير من الشكوك التي أثارت حول هذه الحركة وحول تلك البرامج ، وإن كانت نتائج البرامج ذاتها لا تظهر بسرعة أو سهولة مما يجعل من الصعب تقدير مدى ما أحرزته من نجاح في المدى القصير ، كما أن وضع هذه البرامج والتخطيط لها يحتاجان إلى دراسات وبحوث طويلة وعديدة ومتعمقة وشاملة (دون أن تفرق مع ذلك في المشاكل المنهجية التي كثيرا ما تكون عائقا أمام إتمام هذه البحوث وبخاصة في المجال التطبيقي ، وربما كان الجانب الاجتماعي هو أصعب جوانب عملية دراسة مشكلة البيئة والمحافظة عليها . فقد يكون من السهل العثور على أعداد كبيرة من الباحثين الذين يمكن الاعتماد عليهم في جمع المعلومات الخاصة بعملية التلوث ، ولكن من الصعب جدا العثور على مثل هذا العدد من الباحثين الذين لهم القدرة على الكشف عن العوامل السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية التي تكمن وراء تلويث الناس لأحد الأنهار مثلا ، (٥) مع أن المعركة الحقيقية تدور ضد العادات والجهل واللامبالاة وما إليها ، وهي كلها أمور يصعب قهرها والتغلب عليها ، وتحتاج إلى جهود طويلة ومكثفة ، وقد تحتاج في آخر الأمر إلى إصدار قرارات سياسية حاسمة للقضاء عليها . وهذه القرارات السياسية تتخذ شكل تشريعات خاصة بالمحافظة على البيئة ، (مثل تحريم القاء الحيوانات الميتة في الأنهار ومجاري المياه) . وإن كان السبل الأفضل والأكثر فعالية واستمرارا هو التعليم ونشر الوعي ، ورغم ما يتطلب ذلك من وقت ومجهود .

ولقد سبق القول أن «المحافظة على البيئة» لا تعني أبدا الامتناع عن كل ما عساه أن يؤدي إلى تغيير الأوضاع البيئية الطبيعية . فليس من شك في أن عمليات استخراج المعادن مثلا من باطن الأرض ، أو إنشاء مشروعات الري وتوليد الكهرباء الكبرى قد أسهمت إسهاما ملموسا في

نمو الاقتصاد القومي في البلاد التي نفلت هذه المشروعات ، كما أدت الى ارتفاع مستوى المعيشة وتقدم المجتمع الانساني ككل ، على الرغم من كل ما نجم عنها من تلوث واضرار تتمثل - في أبسط وأوضح مظاهرها - في الأمراض التي تصيب الانسان نتيجة لتلوث الهواء واستنشاق ذلك الهواء الملوث (١) . والمشكلة الرئيسية التي تواجه المهتمين بهذه المسألة ليست هي الطريقة التي يمكن لها السيطرة على تلوث الهواء ، وإنما هي الى أي مدى يجب التحكم في هذه السيطرة ، خاصة وان تكاليف هذه العملية باهظة الى حد كبير ، وترتفع ارتفاعا رهيبا كلما زادت درجة التحكم في تطهير وتنظيف الهواء وتنقيته . ولا يزال ثمة جدل كثير حول جدوى العمل على تطهير الهواء تماما من كل ما يشوبه ، كما انه لا يزال ثمة جدل طويل عما اذا كان كل ما يشوب الهواء يعتبر من موامل التلوث الضارة التي يجب ابعادها أو إزالتها تماما . والرأي السائد هو انه لا يكاد يوجد الآن ما يمكن تسميته بالهواء النظيف تماما في أي بقعة من بقاع الأرض . وهذا نفسه يصدق على الأرض والماء وغيرهما من عناصر ومكونات البيئة الطبيعية ، وان كان تلوث الهواء يثير انتباه واهتمام وعناية العلماء أكثر مما يشبه تلوث تلك العناصر الأخرى ، وذلك نظرا لان الهواء هو العنصر الوحيد من عناصر البيئة الذي لا يمكن الاستغناء عنه والذي تحتاج اليه كل الكائنات العضوية وكل اشكال الحياة . وكما يقول تيلر Teller : « ان خدمات الهواء تحتاج اليها جميع الكائنات دون ان يملكها أي كائن واحد منها . فالهواء سلمة جماعية بكل ما في الكلمة من معنى » .

ومع ذلك ، فالرأي السائد الآن هو اننا لنستطيع ان نتحكم في البيئة الطبيعية ان لم نتحكم أولا في أنفسنا ، اما من طريق التشريع أو من طريق التوعية والاقتناع الشخصي والإدراك السليم . وهذا يقتضي بغير شك اعدادا طويلا يقوم على التعريف بالمعلومات الأساسية المتعلقة بالبيئة والاحاطة التي يمكن ان تلحق بها نتيجة لسلوك الانسان . ورغم هذا كله ، فالرأي السائد أيضا بين أغلب العلماء والمشتغلين بمشاكل البيئة هو ان ثمة حقيقة يجب قبولها كقضية مسلم بها وهي انه لا مفر - رغم كل المحاولات التي تبذل لتنظيف البيئة - من وجود درجة معينة من التلوث في كل مكان وفي كل شيء وفي كل وقت ، وان المسم في الامر - من الناحية العلمية - هو ان نعرف متى تصبح درجة التلوث مسالة لا يصح السكوت عليها ، وان كان من الصعب الوصول الى مثل هذا التجديد الدقيق .



(٦) انظر في ذلك التقرير المرفوع عام ١٩٧٣ الى مجلس الشيوخ والنواب الأمريكيين :

• ويشير التقرير الى اهم مصدر تلوث الهواء "A Study of Pollution - Air" P. ١٤
مثل السيارات والصناعة ، كما انه يمدد الكائنات الضوئية والضوئية التي الضوئية كالباني . ومثل هذه الاشارات
توجد بكرة في جميع الكتابات التي تتناول مشكلات البيئة والتلوث .

وتضافر كل هذه القوى في معالجة البيئة ، وكذلك النظر الى مكونات البيئة وعناصرها المختلفة على أنها تؤلف كلا واحدا متماسكا معناه أن البيئة ذاتها تؤلف وحدة متكاملة أو نسقا متمايزا System . ولقد كثر الكلام في السنوات الأخيرة عن الانساق الإيكولوجية Ecosystems ، وحاول كثير من العلماء تصنيف هذه الانساق تبعا لأحدا لأنماط الأساسية التي تغلب على شكل الحياة داخل كل (نسق) كما هو الحال مثلا في التمييز بين النسق الإيكولوجي الصحراوي الذي ينشأ نتيجة لتوافر عناصر فيزيقية معينة تتمثل في جذب الأرض وقلة الماء ووجود المرامي وما يرتبط بهذا من وجود نمط اقتصادي معين وتنظيم اجتماعي قبلي ، والنسق الإيكولوجي الريفي الذي ينشأ نتيجة لتوافر الأرض الصالحة للزراعة وإمكانات الري وما يرتبط بذلك من نشأة القرى بتنظيمها الاجتماعي الذي يختلف من التنظيم القبلي اختلافا شديدا ويعتمد أساسا على الإرباط بمكان واحد والاستقرار فيه ، والنسق الإيكولوجي الحضري الذي يرتبط بالتجمعات الانسانية الكبيرة التي تنشأ في مناطق معينة بالذات نتيجة لظروف جغرافية معينة تساعد إما على التجارة أو تقديم الخدمات أو قيام بعض الصناعات ، وهكذا . واعتبار البيئة نسقا يتطلب بالضرورة ترتيب مكوناتها وعناصرها في نظام واحد يتدرج من أبسط الكائنات العضوية إلى أكثرها تعقيدا بحيث تؤلف سلسلة واحدة تتداخل حلقاتها بعضها في بعض وتتفاعل معا من ناحية ، ومع بقية الأشياء غير العضوية وكل ما في الكون من قوى مختلفة ومتباينة من الناحية الأخرى . إلا أنه لا بد من أن نميز في هذا النسق بين التجمعات البشرية وبقية (التجمعات) وأشكال الحياة الأخرى ، على الرغم من كل ما بينها من تفاعل وتشابك في العلاقات في المتبادلة . وتجشأ هذه التجمعات البشرية في أي نسق إيكولوجي بتعمد سلوكها الاجتماعي إلى حد كبير جدا وبخاصة فيما يتصل بالبيئة بحيث يحقق هذا السلوك درجة عالية من التكامل البيولوجي لتأجل له مثيلا في العلاقات القائمة بين الحياة الحيوانية أو النباتية وبقية مكونات البيئة ذلك النسق ، كما أن الإنسان في كل نسق من هذه الانساق الإيكولوجية هو الذي يسيطر سيطرة تامة على بقية تلك المكونات (التجمعات) وأشكال الحياة ، وهذه السيطرة هي التي تخلق في أحوال الأمر الأزمة الإيكولوجية التي تعاني منها كل المجتمعات في الوقت الحالي ، وذلك نتيجة لاساءة استخدام تلك المكونات والعناصر . وليس هناك من ينكر أهمية العلاقات بين الكائنات العضوية المختلفة والبيئة ، ولكن التكامل بين الإنسان والبيئة خليق بأن يلقى أكبر قدر من الاهتمام وبخاصة حين تكون المسألة متعلقة بمحاولة التعرف على مستقبل المجتمع الإنساني ومصادر الثروة في الأرض وإمكانية تحقيق درجة أكبر من التقدم (٧).

(٧) على الرغم من كل الاهتمام الذي يبديه العلماء الآن بدراسة البيئة فلا تزال الدراسات والبحوث من الانساق الإيكولوجية المختلفة - بكل مكوناتها وعناصرها المتفاعلة - قليلة نسبيا ، كما أن معظم ما كتب لآن لا يخرج من الوصف السريع الذي يكاد يخلو من تحليل الصلات المتباينة بين هذه الكائنات المختلفة . وربما كان ذلك راجعا إلى كتمان هذه العلاقات وإلى الحاجة إلى الإحاطة بكثير من المعلوم المتخصصة لهم هذا التفاعل على ما ذكرناه . ولعل اتجاه هؤلاء أن يفرغ نفسه الآن على دراسة الانساق الإيكولوجية من طريق تطبيق المنهج الرياضي والكمية .



وهذا ينقلنا مرة أخرى الى ماسبق ان ذكرناه من ان النسق الإيكولوجي - رغم تعقده - نسق اجتماعي الى حد كبير ، وان مشكلات البيئة ومشكلات اجتماعية في المحل الاول .

(٣)

ولقد جاء اهتمام علماء الاجتماع والانثروبولوجيا وغيرهم من المتخصصين في العلوم الاجتماعية والانسانية بمشكلات البيئة في مرحلة متأخرة على اهتمام علماء النبات والحيوان بهذه المشكلات ، والمعروف ان كلمة « إيكولوجيا Ecology » أدخلت لأول مرة الى ميدان العلوم البيولوجية على يد عالم الاحياء الألماني ارنست هاكل Ernst Haeckel عام ١٨٦٩ للإشارة الى العلاقات المتبادلة بين النباتات والحيوانات التي تعيش معا في بيئة طبيعية معينة ، بينما لم يستخدم المدخل الإيكولوجي أو النهج الإيكولوجي مجال العلوم الاجتماعية والانسانية الا في اوائل القرن العشرين ، وبخاصة في كتابات عالم الاجتماع الأمريكي جالين Charles Galpin وبخاصة في كتابه الهام الذي ظهر عام ١٩١٥ بعنوان « التشرريح الاجتماعي لاحد المجتمعات المحلية الزراعية Social Anatomy of an Agrarian Community » ومع ان جالين لم يستخدم في هذا الكتاب كلمة (إيكولوجيا) صراحة الا انه في دراسته للعلاقات القروية التي تعيش ذلك المجتمع المحلي الزراعي (الذي يقع في إحدى مقاطعات أمريكا) اهتم بتبيين العلاقات المتبادلة بين افراد المجتمع ومكونات البيئة الطبيعية السائدة هناك . وأفلح في ان يكشف عن مختلف أنواع النشاط وعوامل توزيعها . وقد كان الهدف الاول من دراسة جالين هي ان يدلل على انه يوجد في كل مجتمع من المجتمعات الانسانية « مناطق طبيعية Natural areas » تظهر تلقائيا نتيجة لتوفر ظروف إيكولوجية معينة ، كما انه يوجد في كل منطقة من هذه المناطق أنواع معينة من النشاط الاقتصادي والاجتماعي ، بل وايضا التنظيم السياسي التي تتلام مع هذه الظروف . ولم يلبث هذا الاتجاه ان انتشر في كتابات علماء الاجتماع الآخرين في أمريكا من أمثال روبرت بارك Robert Park وبرجيس Burgess ، ففي عام ١٩١٥ ايضا حاول بارك ان يدلل على ان المدينة ظاهرة طبيعية تنشأ نتيجة لتوفر عوامل



وهذا اتجاه ينظر اليه الكثير من العلماء بله قليل من الطروايشك والتخوف على ما اشرنا من قبل ، لانه قد يفسد هذه العلاقات الإيكولوجية جليا من سنها الانساني ، وان كان اصعب هذا الاتجاه انفسهم يرون ان تطبيق المناهج الرياضية سوف يدفع البحوث الإيكولوجية الى امال علمية جديدة ويطلق لها مستوى لا تتوفر لها الا باستخدام الاساليب الوصفية البحتة . وفي اى حال فان التطويل الكمي للنساق الإيكولوجية لا يزال في بداية الطريق . كما ان النتائج التي امكن الوصول اليها غير قنعة تماما . والامر لا يزال في حاجة الى دقة حال الى كثير من المثابرة والجهد حتى يمكن - حسب او موريسون - فهم امال إيكولوجيا المجتمع بنسب الطريقة التي يلزم بها الان الشفرة الوراثية Genetic Code مثلا (انظر مقال موريسون المشار اليه في Daedalus op. cit., p. 1210)

Hamilton, L.S., "Education for the Changing Field of Conservation", Science Education Vo. 51, No. 2.

طبيعية لا يمكن التحكم فيها ، وإن لكل مدينة من المدن تنظيمها الخاص الذى تنقسم بمقتضاه الى مناطق مختلفة لكل منها نشاطها الخاص ، سواء كان ذلك النشاط نشاطا صناعيا أو تجاريا أو سكنيا ، بل إن لكل منطقة خصائصها الاجتماعية والثقافية التى تطبع حياة أهلها بطابع خاص . أما بيرجس فقد حاول أن يكشف عن درجة التناظر بين المناطق الطبيعية فى المدينة والظواهر الاجتماعية والثقافية ، فالمناطق المتخلفة فى المدينة مثلا هى طبيعتها متوى للجريمة والردة والأمراض والفساد والتفكك العائلى وغير ذلك من السلوك الانحرافى . (٨)

ومع ذلك فإنه يمكن القول أن الاهتمام الحقيقى بدراسة النسق الإيكولوجى (وبخاصة فى العلوم الاجتماعية والإنسانية) لم يبدأ إلا فى الربع الثانى من هذا القرن لدرجة أنه يمكن الكلام من « المدرسة الإيكولوجية » . وليس معنى هذا أن الاهتمام بدراسة الظروف الإيكولوجية كان معدوما لدى هؤلاء العلماء ، ولكن كل ما تقصده هو أن الدراسات الإيكولوجية ، وبخاصة ابتداء من الثلاثينيات من هذا القرن بدأت تهتم بأسوأ أخرى غير مجرد وصف الظواهر الاجتماعية فى حدود والفاظ التوزيع المكاني، وبدأت تولي عنايتها بوجه خاص الى علاقات التكافل التى تقوم بين أفراد المجتمع وموارد الثروة الطبيعية التى يشتمل عليها ذلك المجتمع .

ولقد ناز خلاف كبير بين العلماء حول ما إذا كان يمكن اعتبار « النسق الإيكولوجى » نسقا قائما بذاته ومتميزا عن غيره من الأنساق كل التمييز ، أو أنه يدخل مع غيره من الأنساق الاجتماعية فى تكوين النسق الاجتماعى العام أو البناء الاجتماعى Social Structure وكان أنصار نماذج النسق الإيكولوجى واستقلالها عن بقية البناء الاجتماعى يقيمون حججهم على أن النسق الإيكولوجى يهتم فى المحل الأول بدراسة العلاقات بين الإنسان والطبيعة يعكس أنساق البناء الاجتماعى التى تهتم بدراسة العلاقات الاجتماعية المستمرة التى تقوم بين الجماعات البشرية بعضها وبعض ، وليس بين الناس والظواهر الإنسانية . ولقد نشأ هذا التمييز الذى لا يخلو من كثير من التمسك والافتعال من الاتجاه الذى اعتنقه بعض علماء الإيكولوجيا البشرية فى الثلاثينات من التمييز بين التفاعل الإيكولوجى Ecological Interaction والتفاعل الاجتماعى Social Interaction بينما الميل السائد الآن - على ما ذكرنا فى أكثر من موضع من هذا المقال - هو أن ينظر الى العلاقة بين الإنسان والبيئة نظرة شاملة وكاملة ، وإن كان هذا لا يمنع من اختلافات التخصص والنظرة وتغليب جانب على جانب فى الدراسة والتحليل .

(٨) راجع فى ذلك كتابنا من : البناء الاجتماعى - الجزء الثانى (الأساق) صفحات ١١ وما بعدها . كذلك

راجع

Park, R.E., (ed); The City, Chicago

V.P. 1925; Burgess, E.W., The Growth of the City; Hollinshead, A.B., "Human Ecology", in Lee; Principles of Sociology, Barnes and Noble, N.Y. 1955.

والذى لا شك فيه ان التوكيد على تكامل الانسان والبيئة هو الطريق الذى يميل الكثيرون الآن اليه لحل مشكلات البيئة على أسس علمية سليمة ، وهو موقف يعطى للانسان والمجتمع الانسانى من الاهمية ما يعطيه للبيئة التى يعيش فيها الانسان ، على اعتبار ان الاثنين طرفان فى ذلك الكل المتكامل الذى يؤلف وحدة تخفى تحتها كثيرا من العناصر والمكونات المتباينة المتشابكة . ومثل هذه النظرة التكاملية الى علاقة الانسان بالبيئة تقتضى من الباحث ، وبالتالي من المشتغلين بتطهير البيئة ، معالجة عدد من الموضوعات يمكن أن تثير هنا الى بعضها للتدليل على مدى عمق الموضوع والجهود التى يتطلبها تحليل الموقف : -

اولا : عناصر ومكونات النسق الإيكولوجى موضوع الدراسة ، والمقصود هنا هو بالطبع المكونات الفيزيائية مثل الهواء أو الماء . (ومثل هذا ينطبق على الانساق الاخرى كلها كالكائن العضوى الحى والنسق الشمسى ونسق الكوكب السيارة وغيرها .

ثانيا : البناء أو الهيكل المادى (المورفولوجيا Morphology) - والمقصود به دراسة تنظيم الاجزاء المختلفة بما فى ذلك التنظيم الاجتماعى داخل أفراد النوع الواحد أو المجموعة الواحدة أو بين الأنواع أو حتى المجموعات المختلفة . وهذا ايضا يصدق على بناء المجتمع الانسانى كما يصدق على بقية الابنية النباتية أو الحيوانية .

ثالثا : الوظائف والعمليات ، والمقصود بذلك فسيولوجيا النسق بما فى ذلك العمليات التى تتحكم فى سير وسلوك وتصرفات كل الانساق الحية بصرف النظر عن مستوى التنظيم الذى يسود فى كل نسق من هذه الانساق .

رابعا : التوزع فى الزمان وما يرتبط بذلك من تغيرات تطرا على النسق خلال الزمن .

خامسا : التوزع فى المكان ، والمقصود بذلك انتشار الانسان أو الحيوان أو النبات فى مختلف المناطق واسباب ذلك التوزع .

سادسا : العلاقة بالبيئة - والمقصود بذلك دراسة التأثيرات المتبادلة بين البيئة ومكوناتها من الكائنات العضوية المختلفة .

سابعا : واخيرا مشكلات التصنيف - ويشمل ذلك تصنيف النباتات والحيوانات ، بل والناس ايضا ، داخل النسق الإيكولوجى تبعاً للخصائص الدافية لكل فئة من هذه الفئات . (٩)

(٩) Dillon Ripley and Helmut K. Buechner; „Ecosystem Science as a Point of Synthesis” in Daedalus, op. cit; PP. 1194 - 95.

وكل هذه النقاط أثرت في الأصل في كتابات علماء الأيكولوجيا النباتية والحيوانية ، ولكنهما تصدق بكل دقتها وتفصيلها على مستوى العلاقات القائمة بين الإنسان والمجتمع والبيئة ، بحيث أن أى عملية تبدأ في أى طرف من هذه الأطراف الثلاثة لا تلبث أن تنتقل إلى الطرفين الآخرين ، بحيث تؤثر ، آخر الأمر ، في ذلك الكل التكامل أو الوحدة المتكاملة المتميزة (وحدة الإنسان - المجتمع - البيئة) . وأبسط مثل لذلك هو حركة جزئيات الـ DDT من النبات أو الحيوانات ومنها تلك التي تقتات على تلك النباتات ، إلى الإنسان الذي كان هو السبب الأول في نشر هذا التلوث . واكتمال هذه الدورة هو الذي يبين مدى التكامل القائم داخل النسق الأيكولوجي . وتتم فكرة التكامل حين تأخذ في الاعتبار أن حركة هذه الجزيئات الفيزيائية أو المادية D.D.T. تدفع الإنسان إلى التفكير في هذا الوضع القائم ، والعمل على التغلب على الأخطار الناشئة عن هذا الوضع .

ولقد ظل الإنسان منذ نشأته الأولى المبكرة يعمل على تغيير البيئة التي يعيش فيها بحيث تتلاءم مع احتياجاته ومتطلباته ورغباته ، ولكن الغريب في الأمر هو أن هذا التعديل أو التغيير كان يحمل دائما في طياته كثيرا من المساويء والشروء التي انعكست على حياة الإنسان نفسه . فكانه يمكن القول أن الإنسان كان يعمل دائما ، ومن حيث لا يدري ، على تغيير البيئة بما يتعارض مع صالحه . ولقد كان هذا هو الحال خلال الخمسة آلاف سنة الماضية . - على الأقل - منذ ظهور الحضارات الأولى باستقرار الإنسان في الأرض ، وإن اتخذ هذا التعديل والتغيير أشكالا مختلفة باختلاف العصر والمكان ودرجة التقدم ونمط الحياة والظروف العامة التي يعيش فيها المجتمع . فمنذ هذه الفترة المبكرة ، وقبلها بكثير بغير شك ، عمل الإنسان على استغلال الموارد الطبيعية بطريقة أدت إلى نتائج عكسية في كثير من الأحيان تمثلت في استنزاف خصوبة مساحات كبيرة من الأرض (كما حدث في أراضي ما بين النهرين) والقضاء على كثير من مناطق الغابات (كما حدث مثلا في بلاد اليونان القديمة وفي إيران) والقضاء على مساحات واسعة من المراعي في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا بحيث تحولت إلى أراضٍ صحراوية مجذبة أخذت تتسع وتمتد بدورها على حساب الأراضي الخصبة القابلة للزراعة . كذلك ساعد الإنسان خلال كل هذه الفترة على تلويث الهواء بأحراقه الغابات وحشائش السافانا على أمل أن يزرع الأرض بعد أن (يطهرها) من غطائها الأخضر الطبيعي . ثم أسهمت التكنولوجيا الحديثة آخر الأمر في تدمير البيئة بسرعة وإلى حد كان يصعب تصور حدوثه منذ سنوات قليلة فقط . وهذا خليق بأن يجعلنا نعطى نصيبا أكبر من الاهتمام للدور الذي لعبته التكنولوجيا الحديثة في خلق الأزمة الأيكولوجية التي نعاني منها الآن ، والتي تتمثل في اختلال التوازن الدقيق بين عناصر البيئة وتخلخل ذلك التكامل الذي أشرنا إليه .

(٤)

ولسنا نقصد بالتكنولوجيا هنا مجرد الأشياء المادية أو الأدوات التي نستخدمها في حياتنا اليومية لانجاز الأعمال الصعبة أو لزيادة الإنتاج ، وإنما المقصود هنا كل ما من شأنه أن يساعد على مد سيطرة الإنسان على البيئة الطبيعية ، وبذلك يمكن أن ندخل ليس فقط الآلات والأجهزة التي نستعين بها في العمل والانتقال وانجاز الأعمال المنزلية وقضاء وقت الراحة والترفيه فحسب ، بل وأيضا جميع العوامل التي تساعد في اتمام هذه الأنشطة ، مثل الطرق والمطارات والسدود والخزانات ومحطات توليد القوى وما الى ذلك ، وهي كلها تشغل حيزا كبيرا من البيئة الطبيعية وتؤثر فيها . والواقع أن كل ما تفعله التكنولوجيا بهذا المعنى يمكن تلخيصه في استخراج المواد الخام من البيئة واستخدامها بالاستعانة بأحد أشكال أو صور الطاقة ، ثم رد هذه المواد بعد ذلك الى البيئة مرة أخرى ، ولكن بعد أن تكون قد اختلفت شكلا جديدا تماما . (١٠) ومع أن بعض هذه المواد الخام تستخدم في صورتها الطبيعية مثل الخشب والحجارة والطين ، إلا أن الغالبية العظمى تخضع لكثير من التغيرات والعمليات الطويلة المعقدة التي تفقد فيها خصائصها الأولى . ولقد كان الإنسان المبكر يكتفى في الأغلب باستخدام المواد الخام كما يجدها ، ولم يكن ذلك يتطلب منه سوى بدل قدر ضئيل من الطاقة هي تلك التي يستمد منها قواه العضلية وحدها . ولقد تمكن بذلك ، ومن طريق استخدام هذه المواد الخام في صورتها الطبيعية الأولية في صنع أسلحته وأواني الفخارية وما إليها ، أن يصمد أمام الطبيعة القاسية ويقاومها . ولقد زودت هذه الأدوات الإنسان خلال كل مراحل تاريخه وتطوره بميزات كثيرة لم تكن متاحة لبقية الكائنات الحية الأخرى التي دخل الإنسان معها في صراع طويل وعنيف . ولقد تطورت قوى الإنسان وازدادت خلال تلك القرون الطويلة كما أصبحت الأدوات والآلات التي يستخدمها أكثر تعقيدا وقدماء ، كما أصبح الإنسان يستعين بمواد أخرى كيميائية أو يقوم بعمليات فيزيائية معقدة لتقنية هذه المواد الخام الطبيعية أو تحويلها الى مواد أخرى يستخدمها في حياته العملية كما هو الحال في صنع الصلب من خام الحديد بعد أن ينقيه من كل الشوائب ، ثم استخدام الصلب بعد ذلك في صنع كثير من الأدوات . وهذا يصدق على أشياء أخرى كثيرة . ونحن يضيق الإنسان بهذه الأدوات والمصنوعات فإنه (لا يلقى بها بعيدا) في حقيقة الأمر ، أو (ينيلها) تماما ، وإنما تعود هذه الأدوات والمصنوعات الى البيئة لتصبح جزءا منها مرة أخرى . فالحديد حين يصدأ يعود الى الأرض ، والبلاستيك حين يستغنى عنه الإنسان ويلقيه فإنه إما أن يدفن في الأرض أو أنه يحرق لكي يتحول الى حرارة وغازات تتصاعد في الهواء ، وهكذا . والمادة قد تتحول الى طاقة كما هو الحال حين يحرق الوقود ولا تلبث أن تمتصها (البيئة) بشكل ما . فكان البيئة تسترد في آخر الأمر وبشكل ما كل ما تأخذه منها مثلما تستردنا نحن أيضا ، على ما يقول هاميلتون (صفحة ٢٠) .

والهم هو أن التكنولوجيا تساعد الإنسان على البقاء والصمود في صراعه الأبدى مع الطبيعة. فلكي يتمكن الإنسان من الحصول على الطعام والدفع واللاوى (أو المأكل والملبس والسكن) فإنه يتعين عليه أن (يرتب) بيئته بما يتفق مع أهدافه وحاجاته ومتطلباته وبذلك يدخل في صراع وتعارض مع البيئة ومع الطبيعة التي تعمل على هدم ما قام بترتيبه وأعداده وصنعه، بل والقضاء عليه تماما. ولقد خسر الإنسان كثيرا خلال هذا الصراع الطويل، وإن كان التقدم التكنولوجي الحديث والآلات والأدوات المعقدة قد أعطته - كما قلنا - مزيدا من القوة التي لم يكن يتمتع بها من قبل. ويبدو أن هذه القوة قد بلغت درجة عالية من الخطورة على البيئة كلها. وصحيح أن البيئة الطبيعية كانت معرضة دائما لكثير من التفسيرات التلقائية منذ وجد الكون، ولكن الإنسان أضاف إلى هذه التفسيرات بتدخله في سير الطبيعة، كما أن الذي يهم هنا هو سرمة وحجم هذه التغيرات التي أحدثها الإنسان وبخاصة تلك التي لا يمكن الرجوع عنها أو علاجها. وليس من شك في أنه كلما تطورت التكنولوجيا وتعقدت وتقدمت زادت هذه التغيرات عمقا وخطورة. وربما كان أخطر هذه التغيرات هي تلك التي تطرأ على الهوام نتيجة لتلوثه، وعلى الماء نتيجة لأفراق نفايات المصانع في البحر (١١). والأخطر من ذلك هو أن موارد المواد الخام لا يمكن أن تظل إلى الأبد، بل أن بعضها بدأ يعاني بالفعل من النقص الشديد نتيجة لمخالة الإنسان في استخراجها من باطن الأرض، وهناك من العلماء من يقدر أن كثيرا من هذه الموارد سوف تنضب تماما حوالي عام ٢٠٠٠ ما يعنى أن المجتمع الإنساني سوف يجد نفسه في مأزق شديد نتيجة لهذه الأزمة الإيكولوجية المتوقعة.

ولكن إذا كانت التكنولوجيا تحتاج بالضرورة إلى توفر الطاقة فإن النتائج المترتبة على استخدام الطاقة أصبحت تثير كثيرا من القلق، وهو الأمر الذي لم يكن الإنسان يتوقعه في بداية الثورة الصناعية أو حتى في بداية برنامج استخدام القوى النووية. ويبدو الإنسان نفسه أنه في موقف صعب لا يكاد يجد لنفسه مخرجا منه، على الأقل في الوقت الحالي. ذلك أن الاستمرار في إحراق الوقود لتوفير الطاقة اللازمة وينفس الطريقة التي تنبعها الآن يؤدي إلى مزيد من ذلك التلوث الخطير بالإضافة إلى استنزاف موارد الوقود ذاتها بسرعة، كما أن هناك من العلماء من يرون أن الحرارة المنطلقة من حرق هذه الكميات الهائلة من الوقود قد تؤدي إلى ارتفاع درجة حرارة الأرض بشكل غير متوقع، كما قد يؤدي إلى حدوث اضطرابات شديدة في المناخ ذاته. وإذا

(١١) من أهم ما يشغل بال كثير من العلماء الآن مشكلة الحصول على أشكال من الطاقة لا ينجم عنها إلا تلوث البيئة. فكل أشكال الطاقة المعروفة الآن تؤدي إلى التلوث ولكن بدرجات مختلفة، وربما كان الفحم أكثرها سوءا في هذا الصدد. وربما كان أهم مصادر الطاقة التي لا يتولد عنها تلوث البيئة هي الشمس التي تعتبر المصدر الأصلي لأهم أشكال الطاقة الموجودة في الأرض كما أنها هي الطاقة الأساسية التي تحفظ الحياة بكل صورها وأشكالها. والاحتمال هو أن استهلاك الطاقة يزداد باطراد نتيجة لزيادة السكان وارتفاع مستوى المعيشة وتقدم التكنولوجيا واعتماد الحياة اليومية عليها اعتمادا متزايدا. وتبلغ معدلات الزيادة السنوية في استهلاك الطاقة الأولية ٥ ٪ بالنسبة للنجم والبتروال والغاز من السنة السابقة عليها بينما يتوقع هذه المعدلات بنسبة ٨ ٪ في استهلاك الكهرباء. ومن المشكوك فيه أن هذه الزيادة يمكن أن تستمر بغير توقف.

حدد الإنسان من الناحية الاخرى استخدامه للوقود لكي يحافظ على مصادر الطاقة ويقال من درجة التلوث سوف يعجز عن تحقيق التقدم التكنولوجي الذي يبدو أنه أصبح سمة من سمات العصر الحديث والمجتمع المعاصر ، وهذا سوف يؤدي بالضرورة الى انخفاض مستوى المعيشة انخفاضاً شديداً مما هو عليه الآن . وليس هناك من يستطيع ان يتنبأ بمصير المجتمع ان حدث ذلك او حتى يجرؤ على مجرد التفكير فيه ، او ان يتصور المستويات الدنيا التي سوف تنزلق اليها الحضارة الحديثة التي بدأت بالثورة الصناعية ، او التغيرات الهائلة التي سوف تطرأ على حياة الناس . فهل يهجر الناس مثلاً المناطق الشمالية الباردة في العالم الى المناطق الاستوائية والمناخية الأكثر دفئاً ؟ وهل تفكك المجتمعات الحضرية والصناعية وتختفى المدن الكبرى بعد ان تتوقف الصناعة وتحول التجمعات البشرية الهائلة التي تربط بهذا التنظيم الحضري الصناعي الحديث الى مجموعات بشرية صغيرة ومتناثرة كما كان عليه حال المجتمع خلال الفترة الاطول من تاريخه ؟ وهذه كلها ليست مجرد تخيلات او افتراضات لا تستند الى دليل وانما هي احتمالات يمكن ان تتحقق اذا زال الاساس التكنولوجي الذي تقوم عليه كل حياتنا المعاصرة . الا اننا نجد في الوقت نفسه ان الدول الصناعية المتقدمة تنفق الآن على البحث العلمي الذي يهدف الى تحقيق مزيد من التقدم التكنولوجي مبالغ هائلة لا يمكن ان تقارن بها تلك المبالغ الضئيلة نسبياً التي تخصص للبحث في المجالات التي تتصل بالحاجات الأساسية للإنسان ، مثل العلوم الاجتماعية ومشكلات التخطيط وفضل الطرق لاستخدام الارض وتطوير الزراعة وإنتاج الطعام . وهذه التفرقة الواضحة في الاهتمامات وفي الإنفاق تعني ضمناً ان الجنس البشري أكثر اهتماماً بما قد يؤدي به وبالمجتمع والعالم كله بدلاً من ان يعطي المزيد من العناية بما قد يساعد على بقاء الحياة واستمرارها . ولكن الظاهر ان هناك من العلماء يحاولون إعادة النظر في الموقف ، او على الأقل تنبيه الإذهان الى ما بنطوى عليه من أخطار (١٣) ، خاصة وأن الأوضاع في كثير من أنحاء العالم

(١٢) ينظر كثير من الكتاب الى الامر نظرة مؤلها للتشاؤم وبخاصة فيما يتعلق بمستقبل العلاقة بين الإنسان والبيئة وعلاقم الآزمة البيولوجية . فلي فخره طويلة بعنوان « الإنسان عدو نفسه » " Man his own enemy " يقول ديفيد هافتون - الذي كان حتى وقت قريب رئيس تحرير مجلة New Scientist - في كتابه الذي سميت الاشارة اليه ، ان الإنسان لن يستطيع ان ينقل نفسه من نفسه حتى ولو افلح في التخلص من الآثار السيئة التي تنجم من التكنولوجيا . ذلك ان الإنسان في رأيه سوف يظل ينجب ويتزايد في العدد مما سيؤدي بالجنس البشري الى القضاء على الجوهر ، او انه قد يصغر الى ان يحشر كل هذا العدد المتزايد باطراد في بيئة الأرض المحدودة مما سيؤدي بهم الى الصراع والقتال من أجل البقاء وهذا سيؤدي بهم في آخر الامر الى التفتت ذاتها . ولقد كان منطق الطبيعة دائماً ان تقوم بتحديد عدد أي جنس من الاجناس تبعاً لمساحة الأرض المتاحة وكمية الطعام المتوفرة ، وان زيادة في العدد كان مصيرها دائماً القضاء بسبب نقص الطعام أو التنافس الطبيعي أو نتيجة لتدخل إحدى قوى البيئة الأخرى ، ومع ان الإنسان يعرف ذلك تماماً الا انه يتزايد بطريقة ستؤدي الى استنزاف كثير من الموارد الطبيعية في التريب ، ولكنه يفضل تأسدهم التكنولوجي استطلاع أن يغير البيئة وأن يحفر في الأرض الى أعمال بعيدة جداً بحثاً عن مزيد من الموارد ولكن هذا كله لا يعني شيئاً سوى تأجيل النهاية المحتومة لبعض الوقت فقط . وسوف يدفعهم خطر تلك الطعام في وقت قريب . بل

تستدعي ضرورة الإسراع إلى اتخاذ الإجراءات بحفظ حياة الإنسان وحياة المجتمع وحياة البيئة على السواء . وقد يكفي أن نذكر هنا أنه مع بداية القرن الحادي والعشرين سوف يعيش ثلاثة من كل أربعة أشخاص من سكان العالم في تجمعات سكنية كبرى (المدن) ، وسيكون الجزء الأكبر من هذه المدن عبارة عن مناطق سكنية متخلفة Slum areas . يقيم فيها المهاجرون - والناحون من القرى والأرياف ، وبذلك يضعون أعباء جديدة وثقيلة على البيئة الحضرية . وفي الوقت الحاضر مثلا نجد أن ثلاثة أرباع السكان في مدينة كبرى مثل لكنتا يعيشون في أكواخ واكشاك تنقصها كل أسباب الراحة الأساسية أو الأولية (المياه والجاري ، وحين تهب الرياح الموسمية بما تجلبه من أمطار غزيرة وترتفع المياه في الشوارع والطرق تجد الناس أنفسهم مضطربين حين يريدون الانتقال من مكان لآخر إلى خوض هذه المياه التي تطفو عليها فضلاتهم وفضلات بهمهم وكل أنواع البقايا والنفايات والقاذورات . وليس حال المناطق السكنية المتخلفة في مدن الشرق الأوسط أفضل حالا من هذا . وليس من شك في أن أي محاولة لتغيير هذه الأوضاع التي ينجم عنها تلوث البيئة الحضرية سوف تؤدي إلى إدخال تغييرات جوهرية جديدة في هذه البيئة ذاتها .

ومهما يكن الأمر ، فهناك عدد من المبادئ التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار دائما حين تدرس الأنساق الإيكولوجية وما تتعرض له البيئة الطبيعية من تغيرات على يد الإنسان في محاولته تسخير هذه البيئة لصالحه ، أو حين تحاول أن تفهم طبيعة المثلث الذي وضع الإنسان نفسه فيه كما وضع البيئة ذاتها فيه .

ولعل أولى مبادئ من هذه المبادئ هو تمديد العلاقات بين الإنسان والبيئة وتشابكها إلى أبعد الحدود . ويريد من هذا التمسك تعرض هذه العلاقات دائما للتغيير والتعديل والتحويل نتيجة للتقدم الثقافي والتكنولوجي الذي يحرزه المجتمع . فليس من شك في أن مثل هذا التقدم التكنولوجي بالذات يساعد مساعدا فعالة واكيدة على تحكم الإنسان في البيئة الطبيعية بعد أن يكون



إن الجنس البشري يعني الآن فضلا من نقص الطعام ، وسوف يعني قريباً من النقص في أشياء أخرى مثل تلك الصالح للشرب والمساكن بل والأرض التي يمكنه أن يستغلها في الوقت الحالي يمثل كل خمسة عشر شطفاً في المتوسط كيلو متراً مربعاً واحداً من سطح الأرض ، يرتفع العدد بعد جيل واحد إلى أكثر من ثلاثين شطفاً لكل كيلو متر مربع . ولقد أوقف التقدم في مجال الطب عمل الطبيعة التي كانت تقضي على الأفراد الجنس البشري غير الصالحين - كالأرضي وأميركا - فأطلق الطب الحديث حيالهم لكي يرحموا الأرض ويراحموا الآخرين ويسهوا في استئلاف الواارد الطبيعية وبالتالي في تلقيم الأزمة الإيكولوجية .

والمرء يعرف على أي حال أن سكان الأرض يتضاعفون كل ثلاثين سنة تقريباً بحيث يتوقع أن يحصل عدهم إلى سنة ٢٠٠٠ آلاف مليون نسمة عام ٢٠٠٠ . وإن معظم الزيادة ستكون في الدول المتخلفة التي هي أقل قدرة على استيعاب أعداد كبيرة من الناس . والظاهر أنه لن يكون أمام الجنس البشري إلا أن يختار بين العمل على ضبط النسل بكل الطرق بما فيها إبادة الأجهال (كما يقول) أو يموت جوعاً (صفحات ٢٧٤ - ٢٧٩) .

خاضعا لها . وخلق يمثل هذا التحكم أن يؤدي إلى تغيرات جوهريّة في البناء الاجتماعي الكلي وليس في البيئة الطبيعية وحدها (انظر كتابنا عن الإنسان ، صفحة ٨٥) .

والمبدأ الثاني ، وهو امتداد للمبدأ الأول ، يقوم على اعتبار كل التغييرات التي يحدثها الإنسان في كوكب الأرض الذي يعيش عليه هي ظواهر إيكولوجية لا يمكن فهمها فهما صحيحا إلا في ضوء العلاقة الثلاثية القوية التي تقوم بين الإنسان والمجتمع والبيئة ، أو « المجتمع الإنساني زائدا عليه البيئة » كما اصطلاح كثير من العلماء على تسمية هذه العلاقة . ومع التسليم بقوة العلاقات بين تلك الأطراف الثلاثة التي تؤولف النسق الإيكولوجي فإن أثر البيئة الفيزيائية يكون أوضح في المجتمعات البسيطة والأقل تطورا منه في المجتمعات الراقية المتقدمة ، نظرا لاعتماد الناس في الفئة الأولى من المجتمعات بشكل مباشر وبطريقة واضحة على ما تقدمه البيئة لهم من إمكانيات فيبدون منها في صورتها الأولية . فالتاخر التكنولوجي يقف عقبة في وجه الجهود التي قد يبذلها الناس في هذه المجتمعات لتشكيل موارد الثروة الطبيعية وتحويرها بنفس الدرجة التي نجدها في المجتمعات الصناعية . ومن هنا كان تغييرهم للبيئة الطبيعية محدودا نظرا لانخفاض المستوى التكنولوجي السائد عندهم .

والمبدأ الثالث هو أن ندرس دائما في دراستنا للنسق الإيكولوجية أن الإنسان يوجد دائما في الطبيعة كجزء منها ، وأنه ليس (خلقا) خاصا يوجد ويعيش بعيدا ومنمضلا عن النسق الإيكولوجية بحيث يؤثر فيها من الخارج دون أن يتأثر بها أو يتفاعل معها . بل أن تأثير (الإنسان) على النسق الفيزيائية إنما يتم من طريق المجتمع ومن خلاله . وليس المجتمع بمذ كل شيء إلا وحدة معقدة ومتكاملة لها خصائصها المميزة التي تظهر من خلال التفاعل القائم بين أعضائه ذلك المجتمع ، كما أن أي سلوك جماعي يصدر من أعضاء المجتمع ككل يختلف في الأغلب اختلافا جوهريا عن السلوك الذي يصدر من أي عضو من هؤلاء الأعضاء على حدة وانفراد . ومع أنه يمكن عزل المجتمع (كفكرة) عن النسق الإيكولوجي الطبيعي وأن ندرسه في حد ذاته بعيدا عن ذلك النسق فإن ذلك يحتاج إلى كثير من التجريد ، بينما الواقع يختلف عن ذلك كل الاختلاف . فليس هنالك مجتمع يعيش في فراغ ، وإنما لكل مجتمع اقليم خاص يرتبط به ويشغل رقعة محددة من الأرض وتحيط به ظروف جغرافية وبيئية معينة تؤثر بطريق مباشر أو غير مباشر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية السائدة فيه وتطبعها بطابع مميز . وليس من شك في أن دراسة المجتمع في ضوء النقاط السبع التي سبق ذكرها والتي حددها ريبلي Ripley ويوشنر Buechner تلقى كثيرا من الأعضاء على الدور الذي يقوم به المتخصصون في العلوم الاجتماعية والإنسانية لفهم النسق العام الذي يضم الإنسان والمجتمع والبيئة .

والمبدأ الرابع هو أنه على الرغم من التسليم بأثر البيئة في الحياة الاجتماعية في كل المستويات الثقافية والاجتماعية فإن من الخطأ الزعم بأن هذا التأثير يصل إلى حد تشكيل حياة الناس كلها

وتوجيهها بطريقة معينة بالذات وفي اتجاه مرسوم بالذات أيضا . وكل ما تفعله البيئة هنا هو أنها تقدم امكانيات عديدة الحياة الاجتماعية في اى مجتمع من المجتمعات - ايا ما تكون درجة بساطة هذا المجتمع أو بداهته وتخلفه - بحيث يستطيع الناس ان يختاروا في الاغلب من بين هذه الامكانيات ما يتفق مع ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعى . وليس ادل على ذلك من اننا نجد كثيرا من طرائق الحياة المختلفة في البيئات المتماثلة من ناحية ، كما نجد مثل هذا الاختلاف في اساليب العيش في البيئة الواحدة ، ولكن في الاوقات والفصول المختلفة من الناحية الثانية ، دون ان يكون هناك ضغط شامل من البيئة لتقليل هذه الاختلافات او محوها . ففى معظم المجتمعات الافريقية مثلا يوجد كثير من انماط الحياة جنب الى جنب بحيث يمارس الاهالى الجمع والالتقاط الذى يعتبر في نظر كثير من العلماء اول مرحلة من مراحل الحياة الاقتصادية واكثرها تاخرا ، كما يمارسون في الوقت ذاته الزراعة بسل وايضا استخراج المعادن والصناعة في بعض الاحيان . كذلك نجد في المجتمع الواحد ان الاوروبيين المستوطنين يمارسون انوما من النشاط التى تختلف اختلافا تاما عن تلك التى يقوم بها الافريقيون ، على الرغم من انهم يعيشون معهم في نفس المجتمع ويخضعون لمؤثرات طبيعية وبيئية واحدة ، وهذا كله معناه اننا يجب ان نأخذ البيئة الطبيعية او الظروف الايكولوجية على انها عامل مسبب Causal Factor بقدر ما نعتبرها مجموعة من الظروف او الشروط الشاملة التى تتلائم على قيام نمط معين من انماط الحياة الاجتماعية . (راجع كتاب : الانسان ، المرجع السابق ذكره ، صفحتى ٨٥ ، ٨٦) .

والمبدأ الخامس والآخر ، هو انه ضرورة التعرف على تأثير العوامل البيئية على التنظيم الاجتماعى ، وبالتالي على البناء الاجتماعى الكلى ، وعملية التكيف التى تحدث طيلة الوقت في المجتمع سواء انضلت هذه العملية شكل الاكتفاء باستغلال ما تقدمه البيئة من ثروة ، أو شكل التحكم في الظروف البيئية والجغرافية والسيطرة عليها واكتشاف مصادر وموارد الثروة الدفينة وتشكيلها في صور وأشكال جديدة ، فلا بد للعلم من ان يعطى جانبا كبيرا من الاهتمام الى الآثار السئية التى يخلفها تحكم الانسان في هذه الظروف والاوزاع البيئية . اذ ليس يكفى ان ننظر الى علاقة الانسان بالبيئة بما يحققه الانسان من طريق ذلك التحكم من تقدم للمجتمع والحضارة ، وانما لا بد من ان تكشف عن الجوانب السلبية لهذه العلاقة ولهذا التقدم ، وهى الجوانب التى تتمثل في تلوث البيئة واستنزاف مواردها الطبيعية وما يترتب على ذلك من مرض او متاعب ومشكلات اقتصادية قد يعاني منها المجتمع في المستقبل ان لم يكن يعاني منها او من بعضها الآن بالفعل . ودراسة هذه الجوانب السلبية هى التى تكشف لنا عن أزمة البيئة والأبعاد التى وصلت اليها ، كما قد تحفر المستقبلين بالتخطيط - في مختلف فروع - بالعمل على تلافى استفحال هذه الأزمة او استحكامها بشكل يحدد حياة الانسان فوق هذه الارض .

أهم الأراجع

- Avril, R.; *Man and Environment*, Penguin, 1967.
- Buchanan, R.A.; *Technology and Social Progress*, Pergamon, Oxford 1966.
- Carson, Rachel, *Silent Spring*, Penguin, 1965.
- Drucker, P.F.; *The Age of Discontinuity*, Heineman, London, 1969.
- Galbraith, J.K.; *The Affluent Society*, Pelican, London, 1970.
- Hamilton, D.; *Technology, Man and Environment*, Faber, London 1943.
- Mumford, Lewis, *The City in History*, Pelican, 1966.
- Roszak, T., *The Making of a Counter-Culture*, Faber, London, 1940.
- Shanks, M.; *The Innovators*, Penguin, 1967.
- Sterland, E. G.; *Energy into Power*, aldus Books, London, 1967.
- Wagner, R.H.; *Environment and Man*, Norton, N.Y. 1971.
- Watt, K.F.; *Ecology and Resource Management*, N.Y. 1969.

وذلك بالإضافة إلى المجلات الصاعدة القيمة التي يقدمها عدد خاص من مجلة Daedalus (وهي المجلة التي تصدرها الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم عن America's Changing Environment خريف عام ١٩٦٧).

محمود احمد الشربيني

الإنسان بين العلم والبيئة

الجو ملئ بالاشعاعات ثانيا من ملر ، وكان السماء تفرغ علينا ابدا اشعاعات من يوم بدء الخليقة ولكننا لا نأبه لها ولا نتبع اثرها ، ولعل اثرها حتم في تطور البشرية .

ومن يدري ، ربما كانت الجريمة من الاشعاعات التي تأخذها اجسامنا يوميا تؤثر علينا في نسلنا ، وهي تؤثر على آلات القياس في معاملنا فتدق في كل دقيقة جملة دقات .

ولحكمة الالهة قل تصادمها مع اجسامنا . يحدث التصادم بين الحين والحين ، وتخطئنا الاشعاعات وتصيب الجو المحيط ، فتجعل بعضا من الهواء مشعا ، ويصبح على وجه التحديد بعض ازوت الجو كربونا مشعا ، وهذا الكربون المشع جزء مما نأكل ومما نشرب ومما نستنشق ، ويمكن معرفة مقداره في اجسامنا ، وما اكثر الكربون في اجسامنا . ولكن نسبة المشع منه الى غير المشع ضئيلة ثابتة مدى الحياة ، ويمزى ثبات نسبتها الى تعويضنا ما نفقده منها ما دنا نأكل ونشرب وفيما نفس يتردد ، ولكن بعد الموت نعجز عن تعويض ما يفقد فيخمد مع الزمن وتقل نسبته ...

فكان كل جسم حي في الوجود يحمل معه ساعة دقاقة تدق دائما دون أن يتحرك عقرباها ، ولكنهما يبدآن في التحرك ساعة الوفاة . وبدل مقدار النقص في عدد الدقات على مضي الوقت بعد مفارقة الحياة ، وإذا اقتلعت شجرة من أرضها فقد فارقت الحياة ، وإذا انتزعت زهرة من غصنها فقد فارقت الحياة ، وهناك أكثر من سؤال يحول بالخطر أرجئها جميعا حتى نعرف على الإشعاعات التي تفرج الجو المحيط .

الإشعاع الكونية :

يأتى إلينا وإبل من الإشعاعات اللرية بطاقات عالية وسرعات تقارب سرعة الضوء ، يأتى إلينا من كل فج عميق . لا يحاى اتجاهها دون اتجاه ، فجميع الاتجاهات عنده سواء ، ولا يستريح أبدا فهو دائم التدفق في كل زمان وعلى كل مكان ، ولا يتأثر باختلاف الليل والنهار أو الصيف والشتاء .

يقيس سكان الكرة الأرضية جميعا ، وهم أشتات ، رؤوس نصفهم تنجه الى شمال ورؤوس النصف الباقى تنجه الى جنوب ، وأقدامهم جميعا تنجه الى مركز الكرة الأرضية يقيسون ويتفقون على سرعات هذه الإشعاعات وطاقاتها وكل ما لها من آثار كما وكيفا ، ويطلقون عليها اسم الإشعاع الكونية .

والرأى السائد أنها تأتي إلينا من أعماق الكون من بين السدم والمجرات ، ثم تصل الى الجو المحيط نزع ما يفترض سبيلها . وفي عملية الإزاحة تكون هناك ضحايا فتظهر أشعاعات ثانوية ، هذا أو جاز أن نسمى الإشعاعات قبل التصادم مع ذرات الجو المحيط بالإشعاعات الابتدائية - وربما يصل إلينا من وقت لآخر بعض من الإشعاعات الابتدائية ، ولكن يصل إلينا في الواقع كثير من الإشعاعات الثانوية .

وقد اجمع العلماء على أن الإشعاعات الابتدائية هي ذرات السحب السالبة التي تغلف نواة كل ذرة ، فهي ذرات كاملة التاين ، واللرة بنير الكتروناتها نواة ، والنواة موجبة التكهرب .

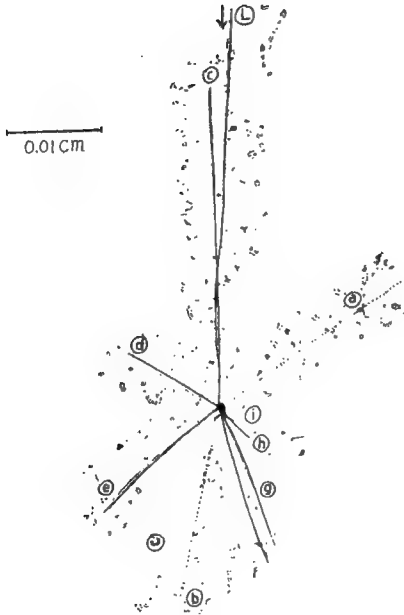
وأجمعوا على أنها نوى الأيدروجين والهليوم ، ونوى ذرات أخرى خفيفة وقليلة ، ولعل أقلها نوى الحديد ، أجمعوا على ذلك ، ولكنهم اختلفوا فيما بينهم عند تعيين نسب كل من هذه المكونات ، وأن كان الإجماع على أن النصيب الأكبر لنوى الأيدروجين ، أو ما يسمى البيروتونات ، فقد اختلفوا ، وقال فريق أن تسعين في المائة من المكونات هي البيروتونات ، وقال فريق آخر أنها أقل من هذا . ولكن لم يقل أحد أبدا أنها أقل من سبعين في المائة من المكونات . وأجمعوا أيضا على احتلال الهليوم المكان الثاني بعد الأيدروجين ، فتراوحت نسبة نوى الهليوم أو ما يسمى بجسيمات ألفا بين تسعة وعشرين في المائة وتسعة في المائة ، أما الثقيل من النوى ككل فهو أقل من واحد في المائة .

كشفتنا عن هذه الإشعاعات بطرق بدائية ، ثم تقدم بنا العلم ، فاستحدثنا طرقا متطورة ، أذكر منها المستحلبات الفوتوغرافية لبحث مكونات الإشعاع . إذا اخترق جسيم مشحون مستحلبا

فوتوغرافيا نرى أثر مسار الجسيم بعد التحميص والتثبيت ، إذ نجد خطاً من النقاط السوداء تشي بمسار الجسيم في المستحلب ، حيث يمكن فحص هذا الخط بمجهر أى ميكروسكوب . واستحدثت مستحلبات لهذا الغرض متراكمة وغير متراكمة ، ولكنها تظهر لنا المسارات والتفاعلات النووية داخل المستحلب (شكل ١) .

استحدثت طرق كثيرة قصد الكشف ، وقد بحثت خصائص الجسيمات المشحونة ، وتنفرد كل طريقة بخاصية واحدة يصطدم الجسيم للرى المشحون بدرات متعادلة لغاز ما ، فتتأين ذرات الغاز ، أعنى ينفصل من الذرة إلكترون فتصبح أيونا ، وهذا بدوره يؤين ذرة أخرى ، وهكذا يحدث تفريغ كهربائي ، وهذه خاصية تستخدم في الكشف والقياس . والجهاز هو اسطوانة معدنية من النحاس ، ولكل أسطوانة قاعدتان ، ومادة القاعدة في حالتنا ليست نحاسا ولكنها مادة عازلة لا تسمح بالاتصال الكهربائي بين جسم الاسطوانة النحاسى وسلك من التنجسن ممدود على امتداد محور الاسطوانة ينفلد من القاعدة . تسمى الاسطوانة القفلة بسلكها وفازها وضغطه عشر ضغط جوى ، تسمى « عداد جيجر وميلر » وعندما يعمل العدد يكون السلك موجب التكهرب بالنسبة للأسطوانة ، ويوصل العداد بصمامات مختلفة لتسجيل عدد النبضات الناتجة عن دخول الجسيمات للذرة في العداد ، ولكل جسيم عند دخوله نبضة (شكل ٢) يستخدم أيضا في الكشف خاصية أخرى ، حيث لا يسمع الجو الرطب بتكوين ضباب عندما يخلو الجو من جزيئات يتكاثف عليها الضباب ، ولكن اذا مر جسيم ذرى مشحون في هذا الجو المهيأ لتكوين ضباب تكاثف الضباب على الجسيم بفضل شحنته رغم صغر حجمه ، فنرى خطا من الضباب المتكاثف يحدد مسار الجسيم . بل نرى مسارات الجسيمات المتفاعلة مع الجسم الساقط نراها رؤية العين . واذا اردنا تسجيلها اخذنا صورا فوتوغرافية (شكل ١٣ ب) والجهاز الذى يستخدم هذه الخاصية يسمى « غرفة ولسن السحابية » وهو عبارة عن اسطوانة زجاجية قاعدتها السفلى قابلة للحركة ، تتحرك فجأة لاستحداث جو مهيأ لتكوين ضباب ، وفي داخل الاسطوانة بخار يحوى مخلوطا بهواء أو بنغاز الأرجون ، فاذا حررنا القاعدة الى اسفل فجأة كبر حجم المخلوط وانخفضت درجة حرارته ، وبقليل من الممران يمكن التحكم في سرعة الحركة حتى تؤدي الفرفة وظيفتها ، ونرى المسارات المختلفة للجسيمات للذرة . وتختلف كثافة مسار عن مسار تبعاً لاختلاف سرعة الجسيم وشحنته ، ويمكن وضع الفرفة في مجال مغنطيسى لينحرف الجسيم وبذلك نعرف عليه وعلى بعض من خصائصه .

بحثت الاشعاعات الثانوية ووجد أنها عبارة عن بروتونات ونيوترونات والكتروونات وبوزترونات ، وهى الاלקترونات الموجبة ، وفوتونات وهي جسيمات ضوئية ، وميزونات اغلبها جسيمات وسط اقل من الالكرون واخف من البروتون ، واشعة جاما ، كل هذا تحتاج تصادم الاشعاعات الابتدائية بما في الجو المحيط من ذرات وجزيئات ، ويتفاعل النتائج أيضا بما في الجو المحيط ، وتحول النيوترونات التى تصطدم بالازوت في الجو تحوله الى كربون مشع والذي سبق ان تحدثنا عنه .



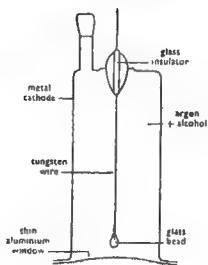
شكل (١)

صورة ما ظهر على مستحلب بعد تعرضه للاشعاعات الالوية
الخط a b مسار ميونات باي ، والخط c مسار
بروتون .



شكل (٢)

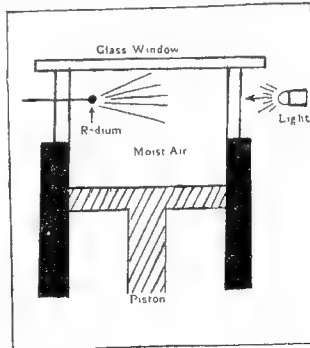
أنواع مختلفة من صمامات « جيجر وميلر » تصلح
لأستعمالات مختلفة لقياس الإشعاعات





شكل (٣ ب)

صورة فوتوغرافية لمسارات الالكترونات في غرفة مثيلة لفرقة ولسن والغرفة موشوعة في مجال مغناطيسي .



شكل (١٣)

صورة توضيحية لغرفة ولسن السعائية .

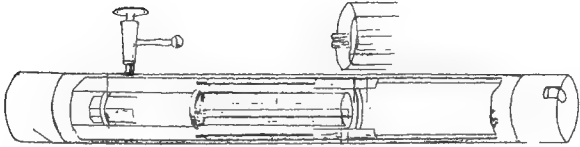
التاريخ والكربون المشع :

لسنا في حاجة الى بيان أهمية معرفة طريقة لتاريخ الآثار القديمة لمن يحاول دراسة الإنسان وبيئته في عصور ما قبل التاريخ . ولعل أقدم طريقة لجأ اليها العلماء هي البحث من الصخور التي بها يورانيوم ، واليورانيوم ماد مشعة تشع وتحلل حتى تتمد وتصبح رصاصا خامدا ، وتؤدي معرفة نسبة الرصاص الخامد الى اليورانيوم في جزء من الصخور الى تعيين عمر الصخور . وتستخدم هذه الطريقة لتحديد الأعمار التي تربو على مائة الف سنة ، اما بخصوص الأعمار التي تقل عن هذه الفترة فيحسن استخدام نسبة الكربون المشع الى الكربون غير المشع ، وأعود فأقول ان جميع المواد الحية بها كميات ضئيلة من الكربون المشع (كربون ١٤) . وأن هذه الكمية المشعة من الكربون ، والكمية غير المشعة منه تحافظان على نسبة ثابتة بينهما ، وذلك في الأجسام الحية ، ويتولد هذا الكربون المشع من تصادم يقع في الطبقات العليا من الجو المحيط بين نيوترونات الأشعة الكونية والأزوت في الجو .

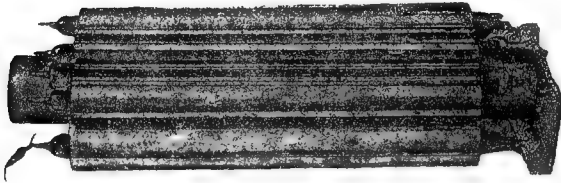
لا يختلف كربون ١٤ من الوجهة الكيميائية عن الكربون العادي ، فاذا امكننا استخلاص الكربون الموجود في مادة حية كالنبات مثلا نجدانه يشع اشعاعا ضئيلا نتيجة لوجود كميات ضئيلة من كربون ١٤ مخلوطة به ، ونسبة هذه الكمية دائما نسبة ثابتة في جميع المواد الحية . وتضمد نصف كمية الكربون المشع في ٥٦٠٠ عام وتسمى هذه الأعوام بعمر النصف ، وتحتاج البقية الباقية الى ٥٦٠٠ عام أخرى ليخمد نصفها ، أي نصف التبقى ، وهكذا يكون التاريخ من بدء مفارقة الحياة ، اذ تبدأ عملية استنزاف للكربون المشع دون تعويض ، اذ ان الحياة قد توقفت ، وأصبح الجسم يعطى ولا يأخذ ، وتبدأ نسبة الكربون المشع الى الكربون العادي تتضاقل ولا تحافظ على لبائها . واذا وصلت النسبة الى نصف قيمتها الاصلية وقت الحياة فمعنى ذلك ان الحياة قد توقفت منذ ٥٦٠٠ عام مضت .

ان النسبة الثابتة أو نسبة الحياة ان جاز هذا التعبير ، تجعل آلات القياس تدق ١٥ دقة في الدقيقة لكل جرام من الكربون ، ومعنى هذا ان ١٥ ذرة مشعة تضمد نهائيا كل دقيقة في جرام واحد من الكربون .

واذا أرجعت هذه الطريقة عمر اثر من الأثر القديمة الى ٤٠.٠٠٠ عام فانا نقول ان آلة القياس تدق ١٥ دقة كل مائة دقيقة . لذا كانت عملية القياس دقيقة جدا وتحتاج الى عناية وحرص شديدين ، والبعد عما يشوب التجربة وعما ينأى بها عن الطريق الصحيح . لذا نرى العداد الذي يحوى العينة المطلوب بحثها يحاط بدرع من عدادات متلامسة مع بعضها (شكل ١ أ ، ب) وتوضع كلها في صندوق من الصلب سمك جدرانه ٢٠ سم ، ويصبح الصندوق درعا آخر يمنع اختراق الأشعة الكونية ، فيما عدا النوع النفاذ ، وهو الميزونات او المركبة القاسية ، ويمكن حساب اثرها باستبعاد جميع الدقات التي يسجلها عداد العينة عندما تنفق الدقة مع دقة عداد من العدادات المحيطة ، ومعنى تزامن العدان المتسبب في العد جاء من خارج عداد العينة وليس من العينة ذاتها ، وقد استبعدت في احدى التجارب ٥٠٠ دقة ، واستبقيت خمس دقات في الدقيقة ، لذا رؤى ان يستمر العد لمدة ساعات حتى تكون النتيجة مطمئنة .



(شكل ١٤)



(شكل ١٥ ب)

(١) هداد يستعمل لقياس مينة بها كربون مشع .

(ب) العدادات الثلاثة التي تحوط العداد الذي يحوى مينة مراد لقياس الكربون المشع بها .

واستخدمت هذه الطريقة لمعرفة التغيرات المناخية والجيولوجية والبشرية في العشرين الف سنة الماضية ، ومن الطريف أن التاريخ أثبت بواسطة الكربون المشع ان بدء الحياة الانسانية في أمريكا الشمالية معاصر لبدنها في إنجلترا والدانمارك ، وذلك حوالي عشرة آلاف عام مضت وهذا يدل على أن هذه المناطق كانت مغمورة بالتلوج ، وأن نهاية عصر التلوج منذ عشرة آلاف عام مضت ، إذ أن الانسان أقدم من هذا التاريخ بكثير ، ولكن عصر الجليد قد محا أي اثر للانسان من قبل ، بدليل انه عثر على بقايا فحم في احد الكهوف في فرنسا وبحث مابه من كربون مشع ، وانتهى الى أن الانسان كان موجودا في تلك المنطقة قبل عصر الجليد الاخير بنحو خمسة آلاف سنة ، وكذلك ثبت أن الانسان قد ظهر حول حوض البحر الابيض المتوسط قبل عصر الجليد بكثير .

نخرج من كل هذا أنك تنزع شجرة فندق الساعة ويهوت الحيوان ، فندق الساعة وتقف دقائق قلب الانسان ، فتبدأ الساعة في الدق ، هذه هي ساعة تدق بعد الوفاة تصاحبك وتصاحبني وتصاحب كل حي من نبات وحيوان وتبدأ حيث تنتهي الحياة . لو وجدت جثة محنطة سمعت دقائق الساعة التي تحملها وتعلم منها متى مات صاحب هذه الجثة . ولو عثرت على حفريات لشجرة ، وانصت الى دقائق الساعة التي تحملها قطعة منها لعلمت متى قطعت الشجرة التي فيها القطعة ، ولكنت تعجز عن معرفة كم من السنين عاشت حية .

ولكن السؤال المتبادر الى الذهن لو أمناه هذه التجارب هل نصل الى هذه النتائج وقد حدثت تفجيرات نووية وامتلا الجو بالإشعاعات ؟ أكثر تشنيل الافران اللرية أو ما يسمى بالمفاعلات النووية مما نتج عنه احزمة مشعة حول الارض لم يسبر غور اثرها حتى الآن ، ومهما كانت هذه الاحزمة موقوتة يحسن التحدث من مسببات زيادة الإشعاعات في الجو ، أي تلوث الجو بالإشعاعات وهي من مسببات تفرير البيئة .

حزام الاشعة :

اطلقت الاقمار الصناعية وبدأخلها آلات قياس منها عدادات « جيجر وميلر » ودقت العدادات بما يدل على أن الاشعة الكونية قد عملت عملها ، ولكن لو تتبعنا مسيرة القمر الأمريكي (المستكشف ١) وهو يدور في مدار حول الارض وكان أبعد ارتفاع إليه هو ٢٥٥٥ كم وأقرب ارتفاع من الارض هو ٣٥٢ كم لاحظنا أمرًا غريبًا أثناء دوران القمر بين الارتفاعين المذكورين ، وعلى وجه التحديد عندما جاوز الارتفاع ٧٠٠ كم ، إذ صممت العدادات وتوقفت عن العد ، وعندما عاد القمر مرة أخرى الى مسافة ٧٠٠ كم انخفضت العدادات وبدأت العد .

ذهب فان آلن الى أن الصمت ناتج عن اختناق ، فقد اختفت العدادات لانها مرت في منطقة اشعة مكثفة تعجز العدادات عن متابعة مرور الفرات بها فتختنق عجزاً عن المتابعة ، ولكنها تعود سيرتها في العد عندما تتعدى هذه المنطقة التخفاضا ، لذا صم « فان آلن » عدادات

خاصة تصلح لهذه الاشعة المكثفة ويمكنها المتابعة ومساريتها عدا ثم وضعها في القمر الصناعي « الرائد III » بمساره الاهليجي ، حيث كان اكبر ارتفاع له عن الارض ١٠٧٠٠ كم . لوحظ ان القمر اخترق ذهابا وايابا منطقتين حول الارض بهما اشعاعات مكثفة ، وتمتد المنطقة البعيدة عنا مسافة تقدر بعدد من الاطوال ، والطول هنا هو نصف قطر الكرة الارضية . واخيرا حقق صحة هذا الامر ما ارسل من اقمار روسية وامريكية فيما بعد . عند ذلك سميت المنطقتان **بحزامي فان الن** .

وقد وجد ان الحزام الداخلي والحزام الخارجي مكونان من جسيمات ، اغلبها موجبة من البروتونات ، وبطاقات عالية للحزام الخارجي ، وبطاقات اقل للحزام الداخلي . قلت اغلبها بروتونات اذ ان القلة من الالكترونات السالبة . وينسب بقاء وجود الحزامين الى المغنطيسية الارضية . وهناك خطورة من وجود هذين الحزامين على رواد الفضاء ، لذا يختار مسارات الاقمار لتتفادى المرور بهما حتى لا يتعرض الرواد لهذه الاخطار الاشعاعية ، وقد احدثت التفجيرات النووية احزمة اشعاعية ، وكان سمك الحزام . ٤ كم ، وبقي بعضها لبضعة ايام وبقي البعض الآخر لمدة اسابيع .

وعلى كل فقد ثبت نظريا ان المغنطيسية الارضية هي السجان المسئول عن وجود الجسيمات المشحونة في حزامي « فان الن » .

التفجيرات النووية :

القنبلة التقليدية هي قنبلة كيميائية مليئة بالكيماويات المتفجرة التي هي جزئيات ذراتها قلقة غير مستقرة ، وتزداد قلقة وهدم استقرارها هزتها الحرارة العالية ، حتى انها لا تلبث ان تميد ترتيب نفسها وتتخذ نظاما ما بتشكيلات جديدة مثيرة زويدة من الحرارة خلفها ، وتمتد هذه الحرارة الى جزئيات اخرى تزيد ذراتها زعزعة لتستقر في وضع غير وضعها ، محدثة زويدة من الحرارة اكبر . وهكذا يرحف التفاعل زحفاسريما خاطفا حتى ياتي على المادة باجمعها ، فتصبح قطعة من غاز ملتهب يستمر حرارة فيزداد ضغطه وينتشر متعددا ، ونافوس الخطر هو شرارة كهربائية من فتيل او قذح زناد يشعل مادة سريعة الاستجابة ثم يتسلسل التفاعل .

اما القنبلة الذرية فهي قنبلة محطمة تحطم الذرة ولا ترتيبها كسابقتها ، وان قلت الذرة ، فانا اقصد نواة اليورانيوم المتوسط على وجه التحديد ، اذ بلغت من التعقيد مبلغا جعلها غير مستقرة ، بل على استعداد اذا تصاعدت معها طاقة غير مكهربة « نيوترون » ان تنشط الى شطرين بطير كل شطر بقوة كبيرة ، ومن غريب الامر توالت القذائف غير المكهربة اثناء الانتشار ، وكأنني بها تخرج من صلبها ما يزيد شتعالا فيزداد الانتشار ويزداد التوالد . واذا بها كرة غازية من السعير حرارة وضغطا ، وتعمل حرقا وهما وتلميرا . وهذا السعير نشأ من الوميض الناتج عن تحطيم نوى كبير الى نوى صغير .

ولكن كيف تنشطر النواة ؟ والنسوة على ما نعلم كرية الشكل او هي الكرة اقرب منها الى هيئة أخرى متماسكة ، بها قوى تجاذب وقوى تنافر ، وتربو قوى التجاذب على قوى التنافر حتى لا تتناثر .

ولو كان في النية ان نجبر النواة لتتشطر وجب ان نجعلها تسطيل ، وان يدق منتصفها حتى تصبح اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وفي هذه الحالة تكون قوى التنافر قدر قوى التجاذب، وتكاد تكون هذه النواة غير مستقرة او هي في استقرار حرج في انتظار الضغط الذى يقسم ظهرها . فاذا هيجت النواة ضعفت قوى التجاذب وفطلت قوى التنافر فغلها وتطايرت النواة الى شقين يكادان يكونان متساويين .

وقد كفتنا الطبيعة مؤونة البحث عن طريقة لاستطالة النواة ، اذ وجدت نواة مستطيلة فعلا هي اشبه بكرتين في طرفي عاتق . وهذه النواة هي نواة اليورانيوم ، بل ان شئت دقة فهو نظير من نظائر اليورانيوم ، ولليورانيوم نظائر مختلفة ، والنواة التي نقصدها هي النواة التي يبلغ وزنها اللدري ٢٣٥ ويعز هذا النوع من زملائه من النظائر ، اذ ينذر وجوده ندرة كبيرة . واذا اردنا ان نخرجه من استقراره الحرج وجب ان نهيجه بقدر ، وهذا المقدار هو اقل درجة يمكن ان تهيج بها النواة ، اذ النواة تهيج في درجات . وقد وجدنا من خصائص خلط بعض من مادة اليورانيوم مع بعض من مادة البيريليوم ان يبعث من المخلوط نيوترونات يمسك البطء منها بنوى اليورانيوم ٢٣٥ فتهتاج بالمقدار الصحيح ، وتخرج من اترانها ، فاذا بها شقان مشعان ينطلقان بطاقة حركة كبيرة .

وقد بحث الشقان ووجد في بعض الاحيان ان احدهما باريوم والاخر كربتوتن، وهما مشعان تنطلق منهما اشعة جاما واشعة بيتا ، وتنطلق ايضا اثناء الانشطار نيوترونات ، وبذلك يضاعف البطء منها الاثر ثم يتضاعف مرة أخرى بهذا التضاعف ، وهذه العملية عملية متسلسلة ، ومثل المخلوط (الراديوم والبيريليوم) مثل عود الثقاب بدأ واشعل وللنار ان ترمى وتفشي بمضها ، وكلما ازدادات سريانا ازدادات اشتعالا ، والقنبلة اللدريه ، كما وصفها تقرير الحكومة البريطانية يوم ان القيت على هيروشيما : كرة من النار قطرها اكثر من مائة متر ، يخرج منها وميض خاطف من الضوء وسعير من الحرارة وقطع متناثرة في جميع الجهات من المواد المشعة، ويتبعها امواج من لفحات هوائية ودوي اصوات .

يصل الضوء والحرارة الى ارض الهدف ، ومن بعد تصل في بضع ثوان لفحات الهواء ودوي الاصوات ثم المواد المشعة الناتجة من مخلفات المواد الانشطارية في القنبلة .

تفقد الكرة يرتقيها سريعا وترتفع في الهواء الغازات الساخنة الناتجة عن الانفجار في شكل عمود متعدد الالوان اولا ، ثم يأخذ لونه في البياض، ويرتفع العمود في هيئة دوامة من الساعات والجسيمات ، يرتفع عدة آلاف من الامتار ، واثناء ارتفاعه ينتشر كأنه مظلة مفتوحة او زهرة تقف على ساقها ، وفي أسفل العمود عند الارض سحب متكاثفة من الدخان والغبار (شكل ٥) .



شكل (٥)

عود من القارات والهجينات يرتفع على هيئة مظلة متوجهة . ارتفاع العود حوالي ٢٠ كم في الجو . أخذت الصورة للعود عندما سقطت القنبلة الذرية على الميناء اليابانية للركب الصناعي الذي يسمى ناجازاكي .

نعود ونسأل عن اثر الانفجار في اطواره المختلفة فنجد ان تقرير الحكومة البريطانية يخبرنا ان الحرارة تسري بسرعة الضوء ، اعني بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية ، وبلغ حرارة الاجسام التي تحت الكرة النارية مباشرة عدة آلاف من الدرجات المئوية ، ولتقدير ذلك يقول ان الانسان يحس الحرارة على بعد سبعة كيلو مترات ، وتستمر الحرارة مدة ثانية من الزمان او ثانيتين ، لذلك تحدث الحرائق وتبدأ بالمواد القابلة للاشتعال ، ولقد حدثت حرائق على بعد ثلاثة كيلو مترات من مركز التخريب ، وبدأ الحريق بالابواب والنوافذ حيث تدخل اللهب الحار بسرعة وتحرق الخشب الجاف والاوراق والملابس السوداء ، وقد روي الاسمنت المسلح على بعد كيلو متر ونصف وقد احمر لونه ، وانايب غاز قد انفجرت، واسلاك كهربائية وقد انصهرت، واصيب بحروق شديدة كل من كان في العراء وفي دائرة قطرها كيلو متر ونصف واصيب بحروق اقل شدة كل من كان على بعد اربعة كيلو مترات ، وبقل الخطر عند التواجد في مأوى حصين مع ارتداء ملابس غير قائمة اللون وفضفاضة .

وليت الامر اقتصر على الحرائق بل هناك المواد المشعة ، اذ تهب عند الانفجار رياح محملة بجسيمات نفاذة هي النيوترونات ومعها اشعة جاما ومعها المواد الانشطارية التي هي مادة القنبلة ذاتها .

وتنبعث اشعة جاما بسرعة الضوء وتستطرق الجو وتنتشر في جميع الجهات فور الانفجار ، او في الثواني الاولى منه ، وتقل شدتها مع الزمن ، وذلك بارتفاع عمود الجسيمات والغازات نحو السماء ، وينعدم خطر اشعة جاما بعد دقيقة من الزمان ، وكانت في الثواني الاولى شديدة الخطورة على كل من كان في منطقة مركزها مكان الانفجار وقطرها كيلو متر ونصف او اكثر ، ولا يقلل من خطورتها انها لا تكسب الاجسام والملباني التي تخترقها خاصية الاشعاع ، فقد لقي جميع من في المنطقة التي قطرها ثلاثة ارباع الكيلو متر حتفهم ، اذ كان من نصيبهم جرعة معينة من اشعة جاما .

ومن لم يمت باشعة جاما مات بالنيوترونات . والنيوترونات اشعاعات نفاذة خطيرة يبدأ خطرها وقت الانفجار ، فهي جسيمات صغيرة تنبعث من المواد الانشطارية المحملة للانفجار ، وتحرك بسرعة في جميع الجهات وسرعتها اقل من سرعة الضوء ، وهي اقل اثرا على الاجسام من اشعة جاما ، ورغم قلة اثرها فهي اكثر خطورة ، اذ تجعل الاجسام عند الاصطدام بها مشعة اشعاعات اصطناعية ، فخطرها مؤجل غير ناجز ياتي الانسان من مأمته . واطر من كل هذا المواد الانشطارية فهي تملأ مساحة كبيرة من الارض ، وتساعد على انتشارها الاحوال الجوية ، اذ تحمل مع العمود وتوزع على مساحات كبيرة بفضل الامطار الساقطة ، وتصبح مساحة كبيرة ملوثة ومصدر خطر ينبعث منها اشعة جاما ، وتحرم على الاحياء حتى ينقضي عمرها الاشعاعي ، او بمباراة ادق اعمارها الاشعاعية ، فالعمر وعمر النصف يختلفان باختلاف المواد . وكثرة المواد المختلفة كان من الصعب التنبؤ بموعد زوال الخطر والسماح للارض بان تعمر ، ويزيد الامر خطورة ان الاشعاعات لا تنسم ولا ترى ولا تحس الا بالآلات خاصة وعدادات معينة ، وكثيرا ما ينسب الاختلال الوظيفي لاجزاء الجسم الى غير مسبباته الحقيقية .

وأخيراً ليس المجال مجال التحدث عن لفة الهواء الناتجة عن القنبلة الذرية ، ولكني أقول أن هناك اجماعاً من جميع العلماء والمختصين على وجوب تحريم تجارب التفجيرات النووية للأثار الضارة الناتجة عن الغبار الذري ، سواء في مكان الانفجار أو في الأماكن المجاورة أو في نطاق خط عرض الانفجار ، وما يتبع ذلك من زيادة كمية الإشعاعات في جو الكرة الأرضية جميعها مما يزيد في مقدار الجرعة التي اعتاد الكائن الحي أن يتجرعها في حياته الدنيا . لا أريد أن أذكر تفاصيل علمية عن تأثير الإشعاعات ذات الكمية فوق المعتادة على الكائن الحي . فهي تقلل من مقاومته للأمراض ، وتجعله هدفاً لمختلف أنواع السرطان ، سرطان الدم وسرطان العظام . بل تؤثر في النسل والحرث ، فتقصّر العمر وتسرع بالشيخوخة ، وتتلّف الأعصاب ، ويورث الأبناء الأبناء والاحفاد الشذوذ والجنون .

وظني أن العلماء قد بدأوا يفزعون من خطر الإشعاعات إذ رأبناهم ينقصون إلى النصف مقدار أكبر جرعة مسموح بأخذها دون حيلولة على الأجسام . وكان ذلك في المؤتمر السادس للعلماء الراديولوجي سنة ١٩٥٠ إذ انقصت الجرعة إلى نصف ما كان متفقاً عليه عام ١٩٢٥ . كل هذه الظواهر أدلة على خطورة زيادة الإشعاعات في الجو المحيط .

وكما أن القنبلة الذرية رمز الفناء فهي أحياناً رمز البناء ، فقد استخدمت في شق القنوات وإنشاء الطرق وغيرها ، وكأنا جملنا من الهلاك نفعا ومن النار زعماً ، بل جعلنا القنابل الذرية مستأنسة نحرك بها فرنا ذرباً أو ما يسمى بالمفاعل النووي للاستعمالات السلمية ، من استحداث كهرباء إلى تغطية ماء إلى ري أرض لا يصلها الماء ، إلى غير ذلك من أمور نحتاجها في بناء المدنية والحضارة .

المفاعل النووي :

المفاعلات النووية أو الاقراص الذرية عبارة عن تكوين لقوالب من الجرافيت كما هو حاصل فعلاً عند بناء هرم من اللبنيات (قمينة الطوب) لطبخها لتأخذ خواص الفخار (طوب أحمر) .

تربس قوالب فوق بعضها في طبقات ، ولكنها في حالتها ترصع طبقة من قوالب الجرافيت بصناديق من الألومنيوم مملأ باليورانيوم ، والصندوق على هيئة اسطوانة أو على هيئة قرص توضع في شكل هندسي ، وعلى أبعاد متساوية من بعضها ، وتسمى هذه الطبقة بالطبقة الحية ، وبين طبقة حية وأخرى طبقات من قوالب الجرافيت غير المرصع ، فهي طبقات خالية من اليورانيوم ، أعني طبقات غير حية ، واليورانيوم في جملته يأخذ شكلاً هندسياً مجسماً يوافق ما يقرره البحث النظريون . واليورانيوم هو المادة الحية أو الوقود الذي بانشطاره يعمل الفرق ، والجرافيت هو المهديء ، وهو الذي يقلل من سرعة النيوترونات حتى تصبح سرعتها قدر سرعة جزيئات الغاز في درجة الحرارة العادية وربما يكون المهديء غير الجرافيت ، ليكون الماء الثقيل ، وهنا يوضع اليورانيوم على هيئة قضبان مغطاة بالألومنيوم وتغمس في الماء الثقيل . ويمتاز الماء الثقيل بأنه يهديء النيوترونات بعد ٢٥ خبطة مع نواة

الايديوجين الثقيل ، في حين ان الجرافيت يهدى بعد ١١٤ خبطة مع نواة الكربون ، فضلا عن ان قدرة الماء الثقيل على امتصاص النيوترونات اقل بكثير من قدرة الكربون ، وعليه نحتاج الى حجم اقل في حالة الماء الثقيل عنه في حالة الجرافيت . ويسمى الفرن في هاتين الحالتين فرنا غير متجانس ، لان الوقود والمهدى يحافظ كل على كيانه ، اي لكل كيان مستقل ، واحيانا نجعل الوقود والمهدى في امتزاج تام ، بمعنى ان يكون الوقود ملحا من املاح اليورانيوم غنيا في النظير ٢٣٥ فيكون الملح على هيئة كبريتات او ازوتات مذابة في ماء عادي ، والماء هنا هو المهدى ، ولا يصلح الماء العادي مهدئا لو استعملنا اليورانيوم الطبيعي غير الفني بالنظير ٢٣٥ ، ويسمى الفرن في حالة ملح اليورانيوم المذاب بالفرن المتجانس . واذا نشط الفرن يمكن اخماده بادخال قضبان تمتص النيوترونات بشراهة كالكامسيوم او البورون ، بل يمكن التحكم في التفاعل بادخال اطوال مختلفة من القضبان ، لذا سميت القضبان بالقضبان الحاكمة . ان الاخمد بواسطة القضبان في حالة الفرن الجرافيتي اسرع منه في حالة فرن الماء الثقيل ، اذ عند اخمد فرن الماء الثقيل يستمر نتاج الانشطار في ارسال اشعة جاما التي تولد نيوترونات من الماء الثقيل ، وهذا يؤخر الوصول الى الاخمد التام .

ولا يصح ان نسمح بتسرب النيوترونات الا بقدر ، لذا وجب ان نبحث العلاقة بين السطح والحجم ، فالتوالد يكون في الحجم والتسرب يكون من السطح ، ونبحث ايضا تغليف الفرن بغلاف عاكس . اليورانيوم هو الوقود الذي وقود مركز يشغل حيزا صغيرا وينتج من الحرارة الشيء الكثير . تخرج من الوقود الحرارة بعد الاشتعال ، ويشمل الفحم والبتروك والكبريت او بشرارة كهربائية ، وعود الكبريت للوقود الذي هو النيوترون احد مكونات المادة . فالنواة مكونة من بروتونات بشحنات موجبة ونيوترونات بغير شحنات ، وهذه النيوترونات موجودة في الجو المحيط ، ولا يمدى عمرها عشرين دقيقة ويمكن تحضير فيض منها ، كما سبق ان ذكرنا ، وذلك بخلط الراديوم بمادة البريليوم . وهذه النيوترونات سريعة يمكن ان تهدى من سرعتها بالماء او الجرافيت ، لان النيوترون البطيء هو الكبريت لليورانيوم ٢٣٥ ، واذا التصق نيوترون بطيء باليورانيوم ٢٣٥ احتاج اليورانيوم وانقسم على نفسه وتناثر ، كما سبق ان شرحنا عند الحديث من القنبلة الذرية ، ولكن القضبان الحاكمة تجعلنا نتحكم في التفاعل ونسيطر عليه .

ومن رحمة الله ان بسط المادة وعقدتها . فمنها البسيط ومنها المعقد ، وادرج العالم الحياة والحركة ، فالبسيط يستريح اذا معقد ، والمعقد يحاول ان يتحرر الى ايسر ، فالايديوجين بسيط لا مانع ان يتعقد ، واليورانيوم معقدا لا مانع ان يتحرر ، وهذا في تعقده وذلك في تحرره يعملان عملا ويحددان طاقة ، وهى ما نسميها بالطاقة الذرية .

فالطاقة الذرية تظهر عندما تحاول نواة الذرة ان تأخذ مكانا وسطا بين الثقيل والخفيف ، وتظهر الطاقة الذرية حرارة واشعاعا فتستخدم الحرارة وتمنع الاشعاع ، وسأصف مفاعلا بالماء

الثقل انشئ قصد الأبحاث العلمية ، وتخبر المواد فيه لتخرج مواد مشعة اصطناعيا ، ثم اصف مفاعلا بالماء العادي انشئ قصد توليد الكهرباء لاستخدامها صناعيا .

فرن ثرى بمائه الثقيل :

يمتاز الفرن التجريبي الذى رأيته بوجود ٢٥٠ عمود من اليورانيوم تبلغ زنتها ٢.٢ طنا ، وقطر العمود ٢.٢ سم وطوله ١.٦ مترا ، والعمود مغلف بغلاف من الألمنيوم سمكه مليمتر واحد ، وبحركة بسيطة لفتح مثبت فى لوحة التوزيع تأخذ الأعمدة شكلا هندسيا معينا ، ويتغير الشكل بتغير بسيط لحركة المفتاح . وبلغت الدقة درجة جعلت التحكم فى مواضع الأعمدة تاما ، فالحرارة تصل الى ١٠٠ ر. م .

نفس الأعمدة فى الماء الثقيل البالغ قدره ٢٤٥ م والماء فى وعاء من الألمنيوم مغفل ومزدوج الجدران ، وبفرغ ما بينهما ويعمل الماء الثقيل فى الاناء غاز الهليوم تحت ضغط ١١ جو .

وهناك قناة تنفذ فى الاناء من قمته وتجه الى قاعه قطرها ١٠ سم. وتسمى قناة التجريب حيث توضع المواد لتخبر أى إشعاع تصبغ مادة مشعة ، واقرب عمود يبعد ٦ سم من الحافة الجانبية لهذه القناة ، ولكن بحركة بسيطة لمفتاح معين مثبت فى لوحة التوزيع ، يمكن تحريك أى عمود دون الاخلال بأوضاع الأعمدة الأخرى .

وهناك أربعة قضبان حاكمة ، وهي مادة البورون وقضبا أمان من الكاديوم ، قطر كل منهما ٣ سم وطول كل منها ١.٥ متر ، يتحركان تلقائيا ، لو زاد الإشعاع الى درجة يخشى عندها حدوث انفجار . اما قضيب التجريب الحرارى ، وهو الذى يعترض النيوترونات السريعة ويجعلها تأخذ طريقا وتتركه فى النهاية مسلوقة الطاقة لا تملك منها غير ما يملكه الغاز فى درجات الحرارة العادية ، فطوله الخارج من الفرن متران ونصف ويسمح عند نهايته الخارجية بفيض من النيوترونات مقداره عشرة آلاف نيوترون ، وقد كان الفيض فى بدايته او فى القرن بليون ، أى مليون مليون نيوترون .

أكبر درجة حرارة للماء الثقيل ٧٠ م ، كما ان مقدار ما يفقد منه فى ٢٤ ساعة من التشغيل ٨ سم^٣ ، ودرجة حرارة اليورانيوم فى المنتصف ١٤٠ م ، كما ان قدرة الفرن ٥٠٠ كيلوواط ، ويحاط الفرن بمنزلة الجرافيت كعازل ، ويوضع اعلاه طبقة من الكوبلت آلرصاصى والبرافين الرصاصى .

وفى دائرة الفرن أربع مضخات . المضخة الأولى لتفريغ الهواء بين جدارى الاناء المزدوج . والمضخة الثانية لارجاع الهيليوم مرة أخرى الى الوعاء ، اذ ان الهيليوم يمر فى دائرة مغلقة تبدأ من الفرن الى غرفة حيث يمر الهيليوم مع ما تحلل من الماء الثقيل ، أعني مع غاز الأكسجين والايديوجين الثقيل فوق لوح من البلايوم ليتحد الأكسجين والايديوجين الثقيل مرة ثانية ليصبغا ماء ثقيل ، ويعود الماء مع الهيليوم الى الفرن مرة ثانية . اما المضخة الثالثة فهي لسحب الماء الثقيل

من الفرن بنية تبريده ثم أرجاعه الى الفرن مرة ثانية في دائرة مغلقة ، ويبرد بمراره على متبادل حرارى ينقل حرارته الى دائرة اخرى بها ماء بارد متحرك في دائرة اخرى بواسطة المضخة الاخيرة والدائرة الاخيرة غير مغلقة اذ يقذف ماؤها الى غير عودة وتصح هذه المضخة ٢٥ م ٣ من الماء في الساعة (شكل ٦)

يستخدم هذا المفاعل للبحث والتجريب لمعرفة اثر الاشعاعات على المواد ولاستحداث نظائر مشعة للعلاج الطبي ، ولشئون الصناعة .

محطة الكهرباء الذرية :

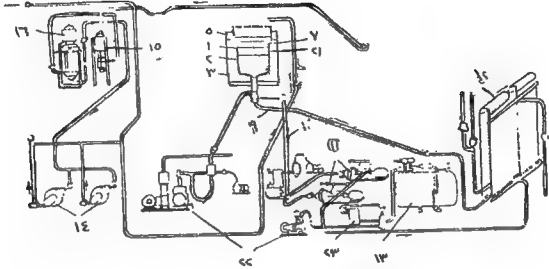
يتلخص عمل هذه المحطة الذرية في توليد حرارة نتيجة للانحطاط المتسلسل لقوى اليورانيوم . وتستخدم هذه الحرارة لتحويل الماء بخاراً ، ويعمل البخار في ادارة تربين يحرك بدوره آلات توليد الكهرباء ، والفرق بين المحطة الذرية والمحطة التقليدية التي تستخدم الفحم وقوداً هو طريقة توليد الحرارة ، اذ تولد في حالتها من الوقود اللرى . لذا نرى المحطة من ثلاثة اقسام : القسم الاول هو الفرن اللرى لتوليد الحرارة ، والقسم الثاني هو المتبادل الحرارى حيث يتكون البخار المضغوط ، اما القسم الاخير فهو التوربين التقليدى الذى يحرك آلات توليد الكهرباء .

سكتفى بوصف الفرن اللرى ، اذ ان المتبادل الحرارى والتربين لا يختلفان عن مثيليهما في المحطات التقليدية .

الفرن اللرى :

انابيب مصنوعة من اليورانيوم مغلقة من الداخل والخارج بمعدن الصلب الذى لا يصدأ . يدخل الماء من اعلى الى جوف الانابيب ، حيث يخرج من اسفلها ليغمرها من الخارج من اسفل الى اعلى ليملا الوعاء الخارجى لانابيب اليورانيوم وعددها ١٣٠ انبوبة . وهذا الوعاء من الصلب الذى لا يصدأ ، وارتفاعه ٥٦ م محاط بمتر من الماء يليه ثلاثة امتار من الخرسانة المسلحة ، وكل انبوبة يورانيوم عبارة عن اقراص مثقوبة عند منتصفها من اليورانيوم الفنى بالنظر ٢٢٥ بنسبة ٥ ٪ وتوضع الاقراص فوق بعضها لتكون انبوبة اشبه بالانبوبة الشعرية من اليورانيوم طولها ٢٥ م وقطرها الخارجى ١٢٩ سم . ويزن اليورانيوم بأكمله نصف طن . نسبت ان اقول ان كل انبوبة من انابيب اليورانيوم توضع داخل انبوبة من الجرافيت قطرها الداخلى ١٦٨ سم وقطرها الخارجى ٥٦ سم ، ويغطى سطحها الخارجى بالصلب الذى لا يصدأ ، وتترك السطح الداخلى عارياً ، أى جرافيت غير مغطى ، ويدخل الماء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويمر في داخل الوعاء ويفسر الانابيب جميعها من الداخل والخارج ، ثم يخرج حيث المتبادل الحرارى ، ويصله بدرجة حرارة قدرها ٢٧٠ م ٥ و يتركة في درجة حرارة قدرها ١٩٠ م ٥ . وبأى الماء مضغوطاً من بالون من الصلب على ارتفاع ٥٠ م عن الفرن ، ويحوى البالون انابيب طول كل منها ٥٥ م وقطرها الداخلى ٢٠ سم ، ويملا الربع الاعلى للانبوبة هواء تحت ضغط ١٠٠ جو ، ويفصل الماء عن الهواء فضاء من الصلب ، ويرشح الماء مرتين قبل وصوله الى الفرن ، ثم يمر منه الى المتبادل الحرارى حيث يعود مرة اخرى في دائرة مغلقة .

To tank



شكل (٦)

رسم توضيحي للفرن بما قبل :
١ - صهرنج

٢ - حاكس من الجرافيت

٣ - صهرنج خارجي من الصلب

٤ - امهدة من اليورانيوم

٥ - فطاه واق من الرصاص

٦ - فضاء

٧ - لوح دوار

٨ - غلاف من صلب لا يصدأ

٩ - انبوبة ضغط

١٠ - انبوبة صرف

١١ - مضخة

١٢ - متبادل حراري

١٣ - صهرنج نظاير

١٤ - مضاطف غاز الهليوم

١٥ - مكثف

١٦ - جهاز ادماج (عكس التحليل)

١٧ - مساحيق للتقسية الحاكمة

١٨ - درع جانبي

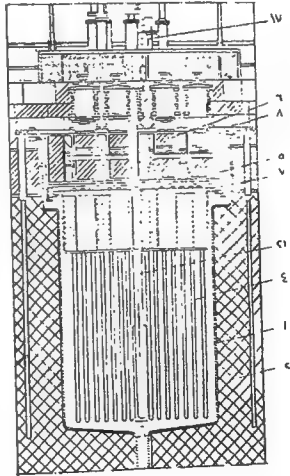
١٩ - فتحة جانبية للتجارب

٢٠ - عمود حراري من الجرافيت

٢١ - فتحة راسية للتجارب

٢٢ - مضطاطف تاريغ

٢٣ - مضينة كروت سائل



يتبخّر ماء في دائرة أخرى تحت ضغط ١٢٠ جو ، وذلك عند التبادل الحراري ، بفضل الحرارة التي يحملها ماء الدائرة الأولى . وقد وجد أن البخار خلو من الإشعاعات . ويذهب البخار إلى تزيين من النوع التقليدي ليعمل عمله ، ثم يتكاثف ماء يسحب إلى التبادل الحراري مرة أخرى ليعود سيرته الأولى بخاراً ليبدأ دورته من جديد . وحركة الماء في الدائرة الأولى ٣٠٠ طن كل ساعة ، وحركة البخار في الدائرة الثانية ٤٢ طن في الساعة ويستعمل في دائرة المأموضختان تصرف كل منهما ١٥٠ طن في الساعة ، ويديرها الفرن ذاته ، وتعمل المضخة لثلاثة آلاف دورة في الدقيقة .

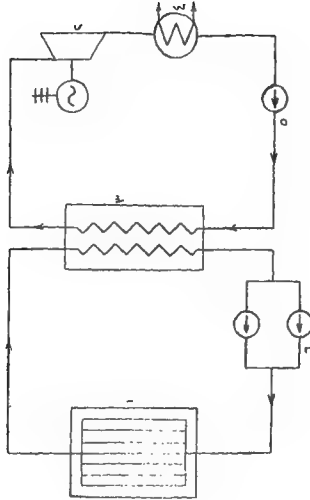
ويضبط الماء الداخل في كل أنبوبة بمعرفة درجة حرارته عند خروجه من الفرن ، وتساوي درجات الحرارة في جميع الأنابيب ، وتضبط كل أنبوبة على حدة ومقدار ما تأخذ الأنبوبة من الماء في الساعة هو ٣ م . ، والتهوية لازمة أذ يتغير الهواء في الحجرة وحجمها مائة متر مكعب خمسا وعشرين مرة في الساعة ، والقبضان الحاكمة في الفرن من كبريتيد اليورون وكذلك قسبها الأمان من نفس المادة ، ومقدار الطاقة الحرارية له ٣٠ مليون واط ، ومقدار طاقته الكهربائية خمسة ملايين واط بكفاية قدرها ١٧ ٪

وهكذا استحدثت الكهرباء أول ما استحدثت من الليرة (شكل ٧) .

التسمم والمخلفات :

يتلقى اليورانيوم في الفرن الذي ضربات كثيرة من النيوترونات التي تمرق خلال الألومنيوم الذي يلف اليورانيوم ، وينشطر نوى اليورانيوم ٢٣٥ إلى شطرين ، والنوى المتولد نتيجة التصادم هو نوى يأخذ مكانا وسطا بين العناصر ، وهو الباريوم والكربتون والسترونشيوم والاكزيتون وغيرها ، تتكون هذه العناصر في أنابيب اليورانيوم فتقل كفايتها مع التصادم حتى تعجز عن أداء رسالتها ، ويقال للأنابيب أنها تسمت ، لذا كان واجبا حتى لا يتعطل عمل الفرن ان تخزن مجموعة من الأنابيب الاحتياطية السليمة لكي توضع مكان مجموعة مسممة جزئيا بعد بضعة شهور من التشغيل ، ولا أقول لتفصل الأنابيب المسمومة وتعود سيرتها الأولى ، بل أقول لتعالج كيميائيا وتفصل المواد المفسدة أو تسمى بالمخلفات الإشعاعية ، إذ هي مواد نشطة نشاطا إشعاعيا ، أقول هذا ولا أدخل في الاعتبار احتمال حدوث خلل مفاجيء لغلaf الألومنيوم لأنبوبة أو أكثر ، وبذلك يتلوث ماء الفرن بالمواد الإشعاعية ، وهنا الإشكال الأكبر في كيفية التخلص منها ، هل نقذفها في أعماق البحار وقد أصاب الفزع الأسبان عندما أشيع أن غواصة ذرية غرقت بجوار شواطئها ؟ أم نقذفها في أعماق رمال الصحراء ؟ أم نبني لها حصنا سميكا من الاسمنت المسلح ؟ ... هناك حلول كثيرة ، وخوف أكبر من تلوث البيئة والجو بالإشعاعات ، وقداستأنسنا التفجيرات الذرية ، ولكن من يدري قريبا تكون وبالاً علينا ... ورحم الله الأعرابي الذي استأنس ذئبا ويعد ان اطمان اليه اكل الشاة الوحيدة التي يملكها فخطبه قائلا « ومن أنباك ان أباك ذيب ؟ »

أقول هذا لأبين أن الغير في استخدام الطاقة الذرية في الأغراض السلمية ليس خيرا كله ، بل يحمل بين طياته احتمال شر يجب السهر على تلافيه والعمل على عدم إيقاظه ، وقانا الله ووقاك ووتي البيئة شره .



شكل (٧)

رسم توضيحي لمعدة كهربائية لدراسة :

١ - الكهف حيث يتحول البخار إلى ماء .

١ - الفاعل

٢ - مضخة للدائرة الثانية .

٢ - التبريد

٣ - مضطمان للدائرة الأولى .

٣ - التبادل الحراري حيث يتولد البخار .

العلم والبيئة :

لم يكن علم الانسان في بداية وجوده على الارض شيئاً مذكوراً ، وكانت خبرته بما حوله رغم ما حباه الله من عقل وتدبير لا تختلف كثيراً بانيه الحيوان بغيريته . ولعل اكبر دليل على مستوى التفكير الانساني في ذلك الوقت حيرة ابن آدم وهو يحاول ان يوارى سواة اخيه وقد امتدت يده الى اخيه ليقتله ، فلم يهتد الى مواراته حتى رآى غراباً يهيل التراب على اخيه الغراب ...

فلا غرابة ان يحاول الانسان ان يقتات ماحوله ويعمل في طبيعة البيئة التي ولد فيها ينزع الاشجار من الغابات ويسوى الارض ... ولعل افلاطون هو الذى نسب المساحات الجرداء حول مدينة « اثينا » في ذلك الوقت الى عدم دواية الانسان الاول بالزراعة ... ولكن مع تقدم العلم تحولت الاراضي الجرداء الى اراض زراعية ، وتغيرت البيئة تغيراً كاملاً ، غيرها العلم ... ثم جاءت الحشرات ترمي ، واتى الجراد على الاخضر واليابس ، والديدان على شجر القطن لتلغمه ، واذا بالعلم يخرج علينا بالمبيدات الحشرية والاشعاعات اللدنية والمخصبات الكيماوية ، واكتسبت الحشرات مع الزمن مناعة وتدهورت صحة الانسان من تعامله مع المبيدات ومن تعرضه للاشعاعات ، ورغم ذلك فالانسان يتكيف بالبيئة ويوائم حياته مع التغير الطارىء ، ولكن هذا التغير يحتاج الى الوقت والعلم ، وقد طور المواصلات ، وجعل الدنيا صغيرة الحجم يطوف ارجاءها الانسان في ساعات قليلة ، لذا كان العلم حريصاً ان يطور التقنية لاستحداث بيئة محلية حتى لا يشعر الانسان بالتغير المفاجيء ، فالحجرات المكيفة الهواء محاولة من هذا النوع ، واتى اشهر ان البيئة التي تقاس على الانسان تنافى والفطرة ، فطرة الله التي فطر الانسان عليها . حقيقة لا بد مما ليس منه بد ، فشخص يتنقل في الفضاء الخارجي بين الكواكب والاقمار لا بد ان يعد للرحلة لبوسها ليأمن الاشعاعات ومخاطر الطريق ، ورجل يريد ان يفوس في البحر لا بد له ان يعد العدة ليتقي الضغوط العالية مع اتصاله بالجو المحيط ليتنفس بحرية ، ولكن هذه رحلات موقوتة يزمن محدود. اما الحياة ، الحياة الطبيعية ، الحياة على كوكب الارض تحتاج الى وقفة تأمل . . ونسأل هل يمكن لرجال الاسكيمو العيش في الجو الحار ؟ ... وهل يمكن لرجال المناطق الاستوائية العيش في المناطق القطبية ؟ ... امدت حجرات تمثل هذه المناطق ، واجريت التجارب للوصول الى نتائج محددة بعند بها ، وانتهى بعضها الى ان الانسان حيوان استوائي وبنيته استوائية يجعلها معه اينما ذهب . وان بقاء الاسكيمو واستمرارهم في الحياة هو بسبب معرفتهم كيف يتجنبون البرد اكثر من كيف يصمدون له ما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، وبان ايضا ان الاسكيمو لا يأكلون اكثر مما يأكل غيرهم ... ولكن العمل الشاق هو الذى يتطلب كميات اكبر من الطعام ... وبان ايضا ان الزيوت والدهون ليست اساس طعامهم ، فلو اتيج لهم طعام آخر لاكلوه ، ولكن التحكم هو ما في تناول اليد من طعام ...

هناك حالات تأقلمت مع تغيرات تناسب والتأقلم .

ومن رحمة الله أن موبى الإنسان حسب بيئته ، إذ نلاحظ خفة وزن انسان المنطقية الاستوائية واستقامة جسمه وكثرة عرقه الذى يصل الى نصف لتر في ساعة من الزمان ، وبذلك وفاء الله شر ضربة شمس مميته ، وجعل النسبة بين مساحة جلده الى وزنه اكبر ، فنحن نرى ان لو جئنا بقطعتين قابلتين للتشكيل وزنهما واحد وشكلنا احدهما على هيئة كرة والاخرى على هيئة اسطوانة ونيمة طويلة لوجدنا ان مساحة سطح الاسطوانة الرقيقة الطويلة اكبر فتعرضها للجو اكثر ، وفقدتها للحرارة اكبر ، وبخبر العرق منها اكثر ، فكان الرجل الاستوائي على تحمل الحرارة اقدر .

ورغم كل هذا فقد نجح العلم في تكوين البيئة المناسبة ويعتز بها الانسان ولا يصبر عليها طويلا ، فهو دائم الصراع بين العلم والبيئة يطلب العلم فتتغير البيئة او يحاول ان يوائم بين نفسه والبيئة ويفيق بهذا وذلك ويظل في صراع ، وسيظل في صراع ابدى حتى يحدث الله امرا كان مفعولا .

الانسان والعلم :

لعل تجاوزت المعنى بقولي ان الانسان في صراع بين العلم والبيئة فما كان العلم والبيئة على طرفى نقىض . فالعلم يبنى ، ومع البناء نفايات وغيبار وغفار وبها تتلوث البيئة ونلجأ مرة اخرى الى العلم لمحاولة منع التلوث او ازالة آثاره حتى تصلح البيئة للحياة السليمة من كل ما يفسدها . فالصراع بالعلم يقدم لنا نتاجا نظيفاً لاغبار عليه .

ومن قدم رأى العلم ان الطاقة لا تفنى ولا تستحدث ولكنها تتشكل باشكال مختلفة . بل تتلون كما تتلون في ثوابها القول . فاذا اخففت طاقة حرارة مثلا ظهرت طاقة أخرى ، ولتكن طاقة ميكانيكية ، والطاقة المخفية قدر الطاقة المستحدثة ، والفارق بينهما كالغارق بين اختفاء دينار وظهور ما يعادله من القروش . فالنقود المختلفة قدر النقود المستحدثة وان اختلفنا عددا وما الاختلاف الا اختلافا شكليا ناتجا عن اختلاف الوحدات ، فلو وحدنا الوحدات لامتحدت في الكم والعدد أيضا . واسهل انواع الطاقة الحرارية اسهلها حدوثا . تحدث باشعال مادة قابلة للاحتراق ، وهذا التلوث نراه في مداخن المصانع وافران الخبز ، وفي عادم السيارات وفي غيرها من امور تحتاج اليها عند استعمال الفحم والكوك والبتروول وما اشبه . والطاقة الحرارية أيضا ابخل انواع الطاقة عند تحويلها الى طاقة اخرى . اذ تحول الى طاقة أخرى بمقدار وعلى شروط . فالآلات الميكانيكية التي تعمل بالطاقة الحرارية لها مصدر تأخذ منه الحرارة ، ولا يتحول كل ما تأخذه الآلة من حرارة المصدر الى طاقة ميكانيكية ولكنها تحول جزءا منه وتقلد بالاجزاء الباقية الى مستودع ، ولا تعمل الآلة دائما دون شروط ، ولكنها تعمل عندما تستوفى شرطا ، وشرط عمل الآلة ان تقل درجة حرارة المستودع عن درجة حرارة المصدر ، ولا تعمل الآلة اذا تساوت درجات الحرارة - درجة حرارة المصدر ودرجة حرارة المستودع . لذا يستحيل على هذه الآلة بدون استعانة خارجية اعادة الحرارة المقلودة الى المستودع اعادتها الى المصدر مرة أخرى ، ويستحيل عليها أيضا اعادة ما فقد المصدر لتلوثها دخان وحببات وغازات . ولكن تعاد ويزال تلوثها باستخدام آلة مضافة .

وهنا يأتي دور العلم الذي انتج الآلة التي أفادت البيئة ربا وزرعا وحصادا ، أو غزلا ونسجا ولبسا، يأتي دور قى صيانتها من الميث بالبيئة التي عاش لها يرماها ويكلاها بمعنايته . وخلاصة القول تظهر قيمة العلم الذى انشأ الآلات التي أفادت فى تعمير الأرض باستحداث ادوات الحفارة التي يستخدمها ساكن هذه البيئة تظهر قيمته بأن يصبح همه المحافظة على صحة الساكن والقيام على بقاء نوعه فيعدل ويبلل ويضيف الى الآلات أجهزة لمنع تلوث الجو الذى يستنشق هواءه وأجهزة لمنع تلوث الأرض حيث يشرب ماؤها ويؤكل زرعها ويقتات على لحم حيوانها .

ولحكمة نحصد خيرا كثيرا عند إزالة التلوث ، اذ استخرجت بعض المادان النادرة من الدخان الذى يخرج من المادخن فنرى قبل تنقيته لينتشر فى الجو نظيفا ، وكذلك جرت عملية التنقية على عادم حافلات الطريق ليخرج ما يخرج منها من غير سوء لا يثير انفا ولا يؤذى صدرا .

السيارات والتلوث :

بحسب احصاء عسادم السيارات فى « لوس انجلوس » احدى مدن الولايات المتحدة الامريكية ووجد ان فى المدينة وقتذاك ٣ مليون سيارة تستهلك فى المتوسط ٧ ملايين جالون من البنزين يوميا ، وهي عبارة عن ٢١٥٠٠ طن من البنزين ، وينتج عن الاستهلاك استهلاك هذه الكمية من البنزين يوميا ينتج ١٨٠٠ طن من الكربوهيدرات غير تامة الاحتراق ، وكذلك ٥٠٠ طن من اكاسيد الازوت بالإضافة الى ٩٠٠ طن من اول اكسيد الكربون . تتولد هذه الكميات يوميا وتلوث جو مدينة « لوس انجلوس » . ولكن ما اثر كل هذا على الانسان . أجريت ابحاث ووجد ان المصين تتأثر ، ويشكو سكان المدينة من التهابات فى العين اذا وصل تلوث الهواء من المؤكسدات ١٥ ر. جزء من مليون جزء من هواء المدينة ، ويتمعدى الاثر الضار الى التربة فنرى النبات وقد أصابه الذبول .

واذا عدنا مرة أخرى الى الانسان وحلنا دمه على وجه التحديد نجد ان خمسة فى المائة من هو موجودين دم كل فرد خمل وقد نشاطه ، وذلك عندما يصل اول اكسيد الكربون فى جو المدينة الى ٣٠ جزءا من مليون جزء من هواء المدينة وبقي الاكسيد فى الجو ثماني ساعات ، لذا كان حتما واجبا ان يحاول الباحث التخلص من التلوث كلية او ازالته جزئيا الى حد لا يفسخى معه الضرر وكان هذا موضع اهتمام القائمين على صناعة السيارات ، وقد لاحظوا ان أكثر من ثلثي العادم يخرج من انبوبة العادم الخلفية يخرج نتيجة عدم كمال الاحتراق ، ويكون الاحتراق كاملا عندما تكون نسبة الوقود الى الهواء واحد الى ١٥ ، ولكن تصمم السيارات بنسبة الوقود الى الهواء أعلى من ذلك لتصبح السيارة على الحركة اقندر ، ولكن النتيجة ان يخرج العادم غير كامل الاحتراق ، لذا روى لعلاج هذا الامر بقاء النسبة عالية ومنع التلوث او تقليله ، ان يعاد احتراق العادم قبل خروجه الى الجو المحيط حيث الهواء الطلق . والعادم عبارة عن غازات الازوت والاكسجين ولاني اكسيد الكربون وبخار الماء وأول اكسيد الكربون وكربوهيدرات واكسيد الازوت واكسيد الكبريت .

وهناك طرق مختلفة استحدثت لمعالجة العادم . أذكر منها طريقة الاحتراق المباشر ، وذلك بواسطة شعبة اشعال وينطق شكل (١٨) عن نفسه ولا يحتاج الى شرح ، والشئ بالشئ ، بلذكر ، لذا اشر الى طريقة اخرى يستعمل فيها عامل مساعد لاحتراق الغازات غير كاملة الاحتراق في درجة حرارة اقل منها في الطريقة الاولى ، وذلك بجعل العادم يحترق مع وجود عامل مساعد . ونظرة الى شكل (٨ ب) تفيننا عن الشرح .

معييار انتلوث :

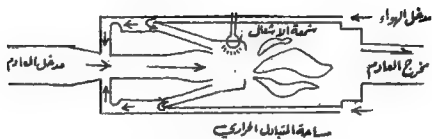
ترتاح انفس العامة الى الدقة في القياس ، ولن يكون قياس بغير معيار ، ولقد اطمأن الباحث الى ثلاثة مناسيب عيارية للتلوث : منسوب استعداد ومنسوب الانذار ومنسوب اخطار . ولكل منسوب علاماته ، فعلامة منسوب الاستعداد التهاب الحواس وحدوث ضرر للخضروات ، وعلامة منسوب الانذار حدوث تغير في وظائف اعضاء الجسم يؤدي الى مرض مزمن ، وعلامة منسوب الاخطار هي آلمت او مرض مفاجيء حاد . ولواردنا دقة في القياس وعبرنا عن المناسيب باجزاء من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) .

المادة	منسوب استعداد	منسوب انذار	منسوب اخطار
اول اكسيد الكربون	—	١٢٠	٢٤٠
البيين	٠.٥	—	—
كبريتيد الهيدروجين	٠.١	٥	—
ثاني اكسيد الكبريت	١٠	٥	١٠
الكاربوهيدرات	٠.١٥	—	—
ثاني اكسيد الازوت	٠.١٥	—	—
مؤكسد	٠.١٥	—	—
اوزون	٠.١٥	—	—
دخان	٠.١٥	—	—

من مليون جزء من الهواء من الملوثات في مدة ساعة من الزمان لسطرنا جدول (١) . على ان يستمر لمدة ساعة من الزمان ، وعشر جزء لو كان التلوث من غاز كبريتيد الهيدروجين ، ومنسوب الاستعداد في حالة الكاربوهيدرات هو عشر جزء ونصف العشر . وقد حرصنا ان لا نرصد رقما في الجدول (١) حيث لا اتفاق بين الباحث على رقم يعينه لذا جاء الجدول اندردا كاستان المعجز .

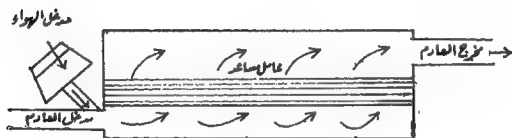
ثاني اكسيد الكبريت

يظهر ثاني اكسيد الكبريت في دخان المصانع ومحطات القوى ، وتخلص منه بتحويله الى ثالث اكسيد الكبريت ، ثم تحويل ثالث اكسيد الكبريت الى حامض كبريتيك ، حيث يمكن تخزينه والاستفادة منه .



شكل (١٨)

جهاز يساعد الى السيارة لاعداد احتراق غير المتوازن من الغازات بالاستعانة بشمعة الاشعال .



شكل (٨ ب)

جهاز يساعد الى السيارة به عامل مساعد لاحتراق غير المتوازن من الغازات عند درجة حرارة اقل من الدرجة بالشمعة في شكل (١) .

استحدثت طريقتان . نشأت احدهما وترعرت منذ تشييد المصنع ، اذ رأى القائمون عليه ان يتخلصوا من ثاني اكسيد الكبريت في مراحل عمل المصنع فيكون جهاز الازالة جزءاً من المصنع اثناء تشييده ، ويؤخذ الغاز الملوث مباشرة من الفلاية شكل (١٩) اذ نرى وحدة التسخين للغاز الملوث جزءاً من المحطة فيسخن الموقد ماء الفلاية وفي الوقت نفسه يسخن الغاز المطلوب تحويل ما به من ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ثم الى حامض كبريتيك .

ونجد في الطريقة الثانية شكل (٩ ب) ماخذ الغاز من المدخنة مباشرة ، فالمعملية الثانية هي اضافة لما هو قائم من مصنع لتنقية ما هو خارج من ثاني اكسيد الكبريت ، ويلاحظ ان وحدة تسخين مستقلة وضعت لإعادة تسخين الغاز الخارج .

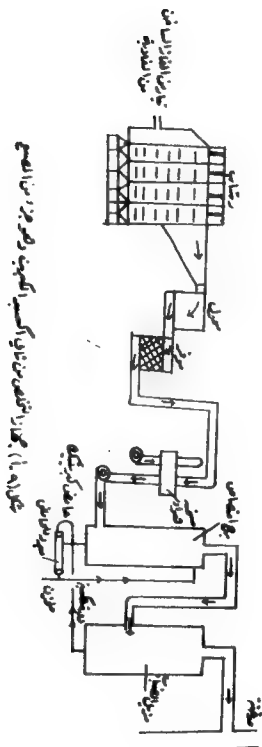
ووجد ان الطريقة الاولى تريل ٩٠٪ من ثاني اكسيد الكبريت في حين ان الطريقة الثانية حيث وحدة تسخين اضافية مستقلة تؤدي الى ازالة الى حدود ٨٥٪ .

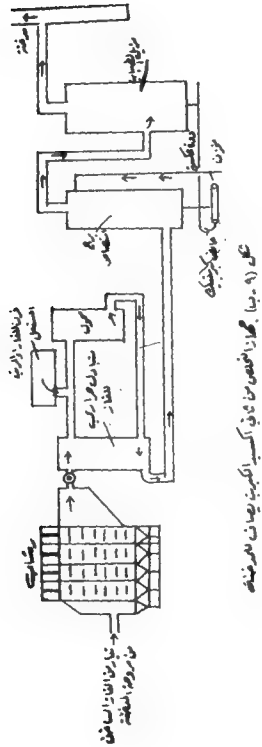
وفصل في كلتا الحالتين في الطريقة الاولى والطريقة الثانية يفصل الرماد والجيبات شكل (١٠) أولاً بواسطة عملية الفصل الميكانيكي ثم الترسيب الالكتروستاتيكي ثم يمر تيار الغاز بعد التخلص من الرماد بالمول في شكلي (١٣ ، ١٤) حيث يوجد خامس اكسيد الفانديوم ، وهو عامل مساعد صلب يساعد في رفع اكسدة ثاني اكسيد الكبريت الى ثالث اكسيد الكبريت ، الذي يتحد بدوره مع بخار الماء ليصبح بخار حامض كبريتيك ، حيث يبرد في برج الامتصاص ويخرج سائلاً هو حامض كبريتيك ، اما وظيفة مزيل الضباب فهي ازالة ما بقي من بخار حامض الكبريتيك ويحوّله الى سائل .

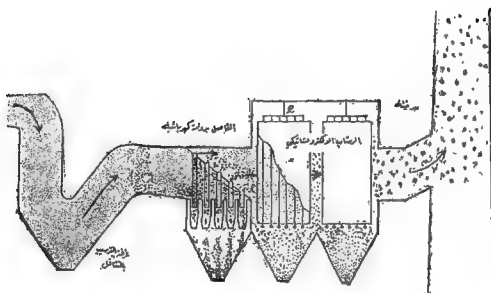
الإنسان التهم

غريب أمر الانسان يلقي التهمة على الآلة وهو التهم الاول المتسبب في التلوث فقد خلق مصمرا متحركا للتلوث فهو يلوث البيئة التي يعيشها حتى لو كان قعيداً لا يبرح فراشه مسن المهذ الى اللحد .

دع منك افرازاته ، تراه يأخذ من الاكسجين ٢٥٠ سم ٢ شهيقاً في كل دقيقة من الزمان ويطرد بديلاً عنه ٢٠٠ سم ٢ من ثاني اكسيد الكربون . ولحكمة يعلمها الله اسكن الانسان الارض وابقى على نوعه وحفظ قدر الاكسجين الذي يحتاجه متنفساً ليعيش ويعيش ابناءؤه واحفاده واحفاد احفاده الى يوم الدين ، اذ جعل النبات يزدهر نهاراً باستهلاكه ثاني اكسيد الكربون من الجو في عملية تسمى التمثيل الضوئي ، وهي عملية عكسية لتنفس الانسان فحصولية العملية ظهور مادة محببة للحياة هي الاكسجين الذي يخرج الى الجو المحيط بديلاً عن ثاني اكسيد الكربون الذي اخذه النبات ، فكان النبات ينظف ما لونه الانسان اثناء تنفسه فهو مسئول أولاً واخيراً عن بقاء الانسان الى يومنا هذا دون اختناق ، ولكن لا يزال يعترنا بعض الخوف ، فنحن نلمس الانفجار السكاني وبالتالي اكتماش الرقعة الخضراء من الارض ، ثم التقدم الصناعي وما تنفثه مداخنه من ثاني اكسيد الكربون . لذا كان هم الباحث في التلوث هو ضبط المقدار وتقيّن ما يُسمح به ،







شكل (١٠)

طريقة لازالة الحبيبات من الفضلات بعد خروج العادم من الالارانتاتين ذرات الفلز وللتصق بالحبيبات ويتخلص منها

والإنسان طرف في هذا الموضوع بحكم مولده وعمله وخبرته ، ومن الطريف أن بعض الأبحاث تتحدث عن كفاية العمال وتقول أنها تقل ويسوء الأداء كلما كثر التلوث في الجو ، ويضيفون إلى الملوثات المروفة الأصوات المزعجة ، وعلى كل ليس هذا موضعه وتقول يخدع الإنسان نفسه ويظن أنه يتنفس هواء نقيا ، ولكن لو راجعنا التاريخ نجد أن ملك إنجلترا أدوارد الأول حوسم استعمال الفحم في لندن لأنه اعتبر وبحق الدخان غير صحي فهو نوع من أنواع التلوث وكان ذلك عام ١٣٠٤ ميلادية .

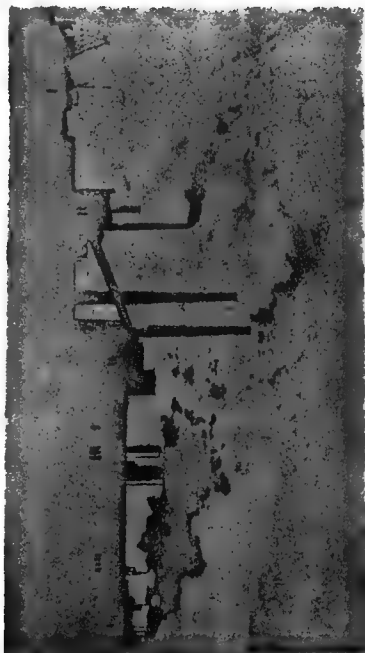
أنواع التلوث

تسم التلوث الجوي إلى نوعين . نوع يسمى فصيلة « لندن » وتتكون غالبية من مركبات الكبريت الناتجة من احتراق الفحم . والنوع الثاني يسمى فصيلة « لوس انجلوس » ويتكون غالبا من احتراق البنزين ويسمى تجاوزا فصيلة « الكاربوهيدرات » .

ولعل نوع « لندن » هو أخطر /النوعين واذكر أن ألفا من سكان لندن قد ماتوا عام ١٩٥٢ نتيجة اختلاط أكسيد الكبريت بالضباب . وإني أترك الأمر لإحساس القارئ وهو ينظر إلى شكل (١١) حيث يرى المداخل وما يخرج منها ، ومن جهة أخرى لو نظرنا إلى أثر حركة مرور السيارات في مدينة لوس انجلوس بأمريكا شكل (١٢) نرى فعل الكاربوهيدرات وأكاسيد الأوزون في الجو مع حركة تيارات الهواء (ب) ومع الضباب (ج) ثم نرى الفعل المضاد لاشعة الشمس (١) ولكنني سأكتفي بالتحدث عن بعض خصائص فصيلة لندن من التلوث وهي أخطر الفصيلتين .

لندن والتلوث

أثبت علماء الإنكليز أن التلوث من ثاني أكسيد الكبريت وغيره من ملوثات الجو هام لانقاذ الثروة القومية ، إذ أظهرت الإحصائيات أن إنجلترا خسرت في عام واحد نتيجة تلوث الجو أكثر من ٢٥ مليون يوم عمل وذلك بسبب مرض العمال لأصابتهم بالتهاب في الشعب الهوائية ، وقد صنف علماء التلوث في جوها إلى ثلاثة أصناف : **جزئيات غاز وجسيمات دقيقة جدا وجسيمات مرئية** وبين جدول (٢) خصائص هذه الأصناف الثلاثة ، ومهما كانت العوامل الجوية التي تساعد على تخفيف تلوث الجو فإن مقداره يحسب حسب حبابه إذ يزن الهواء الجوي ١.٢٥ × ١٠ طن ويصل مقدار التلوث إلى ٨ ١٠ طن . ولعلماء الإنجليز طريقة في التعبير عن هذا التلوث سواء كان التلوث غازا أو سائلا أو جامدا إذ يقدر بالميكروجرام لكل متر مكعب - (١٠ - ٦ جم م - ٢) وبين جدول (٣) مقارنة بين التلوث في لندن في ثلاث سنوات وهي ١٩٣٨ ، ١٩٦٠ ، ١٩٦٨ وعناصر التلوث في هذا الجدول (جدول ٣) هي الدخان وثنائي أكسيد الكبريت ، ولكن مقارنة التلوث من الضباب والحبوبات الخشنة في السنوات الثلاث سابقة الذكر تظهر في جدول (٤) .



(شكل ١١)

منظر عام لمناطق التصنيع وهي مستندة من مصادر التلوث .



(شكل ١١)



(شكل ١٢ ب)

يظهر صورة مدينة نوس التجوس .

(أ) في يوم لا حبار فيه ولا تلوث .

(ب) في يوم حار ترتفع في الشارات اللونة الى اعلى .



(شكل ١٢ ح)

(ج) في يوم فيه ضباب كثف .

وبرينا جدول (٥) التلوث من أول أكسيد الكربون عام ١٩٦٨ وبعطينا جدول (٦) بعض البيانات من حالات الطريق . وهناك مقارنة بين التلوث في العالم ككل والتلوث في المناطق الأكثر تقدماً ، وهي بين خطي عرض ٣٠ ° ٤٠ ° ٦٠ ° نراعى جدول (٧) ونلاحظ من هذا الجدول أن التلوث من ثاني أكسيد الكبريت من صنع الإنسان ولا دخل للطبيعة فيه فهي بريئة منه براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

جدول (٢)

اصناف التلوث	جزئيات الغاز	جسيمات دقيقة جدا	جسيمات مرئية
المسولات المنتشرة في الاجلجرا البعد النموذجي خواص	ثاني أكسيد الكبريت تقاس يوميا ١٠ - ٧ سم تختلط مع الهواء غير مرئية أكالة	دخان تقاس يوميا ١٠ - ٥ سم تطفو في الهواء لا ترى بالعين المجردة تلوث جميع السطوح	غبار وحبيبات خشنة تقاس شهريا ١٠ - ٢ سم ترسب في الهواء ترى تلوث مكان سقوطها
الصحة	مهيج سام اذا كان مركزا	يصل الى الرئتين عند الاستنشاق	يعيس في الانف واقصبة الهوائية
المصدر	الوقود كل انشعاع الاستخدامات	الاحتراق غير التام خاصة الاستخدمات المنزلية	كل ما يفضي الى رماد غبار الوقود سناج خاصة الاستخدامات الصناعية
ملوثات اخرى لها اهمية محلية	أكاسيد الازوت اول أكسيد الكربون في تراكبات واکدة المزود	رذاذ حامض كبريتيك ضباب دخان الديزل الانبعاث في الصناعة	الآتربة في الصناعة من المستومات من التخزين

جدول (٣)

دخان وثاني أكسيد الكبريت في ١١٠ طن

السنة	←		
١٩٦٨	١٩٦٠	١٩٢٨	
دخان	من الفحم	١٩٧٤	منازل
		٠٢٦	قطارات
		٠٧٥	صناعات وغيرها
		٢٧٥	مجموع
ثاني أكسيد الكبريت	من الفحم	١٩٢٣	منازل
		٠٤١	محطات قوى كهربائية
		٠٣٧	قطارات
		٠٣٢	نقلات فحم المنجم
		١٣٥	صناعات وغيرها
		٠٧٢	افران كوك
		٠١٤	صناعات الغاز
		٢٨٩	مجموع
	من الزيت	٠٠٥	منازل
		٠٠١	صناعات وسوق التجارة
		-	طرق وقطارات
		-	بواجر داخلية
		٠٠٦	مجموع
	من الكوك	٠٠٦	منازل ووقود بغير دخان
		٠١٨	صناعات
		٠٢٤	مجموع
المجموع	الكللي لثاني أكسيد الكبريت	٤١٩	

جدول (٤)

النفار والحبيبات الغشنة في ٦١٠ طن

السنة	١٩٣٨	١٩٦٠	١٩٦٨
مواقف منزلية	٠.١٤٥	٠.١٠	٠.١٠
محطات قوى	٠.١٤٥	٠.٤	٠.٣٢
قطارات	٠.١٤٥	٠.١	-
فحم وكوك يستعمل في الصناعة	٢١٥	٢	١
المجموع	٦٥٠	٨	٦٠
عمليات صناعية مختلفة	٥٠	٥٠	٥٠
المجموع الكلي	١١٥	١٣	١١

جدول (٥)

اول اكسيد الكربون في ٦١٠ طن

عام ١٩٦٨

من	٦٠
الصناعة	٥٠
المنازل	٦٠
آلات بترولية	١٠
آلات ديزل	١٠
المجموع	١٧٢

جدول (٦)
التلوث من حافلات الطرق في ٦١٠ طن
عام ١٩٦٨

نوع الآلة	آلات بالبنزين	آلات بالديزل
أول أكسيد الكربون	٦١٠	٠.١٠
كاربوهيدرات	٠.٣٠	٠.١٨
الداهيد	٠.٠١	٠.٠٠٣
أكاسيد الآزوت	٠.٢١	٠.٠٥
ثاني أكسيد الكبريت	٠.٠٢	٠.٠٣
المجموع	٦١٤	٠.٣٦٣

جدول (٧)
التلوث الكلي في ٦١٠ طن

التلوث	طبيعي	صنع الانسان	العالم	مناطق متقدمة بين خطي عرض ٥٣.٠ و ٩٠.٤
ثاني أكسيد الكربون	٥١٠ × ٢	٤١٠ × ٢	العالم	_____
أول أكسيد الكربون	٢١٠ × ٢	٢٢٠ × ٢	العالم	_____
ثاني أكسيد الكبريت	مهمل	٢١٠ × ١	_____	مناطق متقدمة
أكاسيد الآزوت	٢١٠ × ٢	٥٠	_____	مناطق متقدمة
كاربوهيدرات	٢١٠ × ٣	٩٠	العالم	_____
جسيمات	٢١٠	٢١٠	_____	مناطق متقدمة

التلوث في الميزان

تضاربت الآراء واصبحتنا في احتياج الى المزيد من الابحاث حتى نصل الى رأي حاسم عن مدى اثر التلوث على الصحة ، اذ يرى دكتور ديفالريك لوفلي مدير وحدة تلوث الهواء في مجلس الابحاث الطبية بانجلترا ان مقدار ما يحويه دم الذين يدخنون السجائر بطريقة معتدلة وبغير اقراط من اول اكسيد الكربون اكثر مما يحويه دم المرضى لحركة المرور في لندن ولعد ساعات .

ومن الغريب اني قرأت تقريراً لرابطة المستهلكين بانجلترا يعلن عن ابحاث اجريت في نوفمبر سنة ١٩٧٠ تقرر نقص الاداء الذهني لاربعة من الشبان اثناء امتحانهم هواء على علو ٣٧٥ سم من رصيف الشارع ولم يفصح التقرير عن التجربة وكيفية اجرائها .

وكذلك اختلفت آراء الباحثين ، اذ يرى فريق ان جملة جرعات صغيرة من اول اكسيد الكربون على فترات متباعدة لا تحدث تسمماً ، لان اثر الغاز لا يتراكم مع الزمن . ويرى فريق آخر غير هذا الرأي ، وتسرّب الشك ايضا الى ثاني اكسيد الكبريت ، وبدأ اليقين يهتز في سبب موت آلاف في لندن سنة ١٩٥٢ وقد نسب السبب حينذاك الى الضباب الكبريت - لو جاز هذا التعبير - وذلك لان الظاهرة تكررت سنة ١٩٦٢ وكان عدد الضحايا ٧٠٠ فقط وقم تشابه الاجواء والاحوال .

ويحسن ان نثبت هنا انه قد صدر قانون انجليزي يعرف بقرار الهواء النقي عام ١٩٥٦ وهو عام يقع بين عامي ١٩٥٢ ، ١٩٦٢ ونفذ القرار وكان من نتائجه تقليل الدخان القاتم ، حتى ادعى البعض ان لندن بلا دخان ، ورغم اختلاف الآراء فهناك اجماع على ان ثاني اكسيد الكبريت غير مقبول عند التنفس ، وان اول اكسيد الكربون سام ، وان البيئة تأثرت تماماً بالتلوث . وان انس لا أنسى رؤيتي من سنين مضت العديد من الاسماك الميتة الطافية على مساحة كبيرة في ميناء بيريه باليونان ..

وعلى كل فالابحاث لا زالت جارية في اغلب بلاد العالم ، بل أصبحت ابحاث تلوث البيئة مالمية ترعاها الامم المتحدة ، ونتمنى التوفيق للجمع لصالح الانسان والبيئة .

البَيئة والجَريمة

تشغل الجريمة في عصرنا الراهن - كما شغلت دوما في الأزمنة السالفة - بال الكثيرين من الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، لما تكتسفت خطورتها وتفاقت جسامتها وزاد انتشارها بين افراد هديدين من مختلف الجماعات ، مهما باينت اتجاهاتها او اختلفت درجاتها في التقدم والرقى . والجريمة موجودة دائما وان تغيرت صورها ومظاهرها ، ويكفى للتدليل على هذا ان ينظر الانسان من حوله ، ويمد بصره الى فترة سابقة من الزمان عايشا ، ليتبين صورا من الجريمة خلقت مع الايام وليدة ظروف معينة ، يستوى في هذا الدول المتقدمة والآخرى النامية ، لأن الحال لا يتعلق بالتقدم او التخلف ، فالهنا يقتصر على تنوع الجريمة التي تختلف من مجتمع الى غيره . والتطور في ذاته يؤدي الى صور جديدة من الاجرام ، لا سيما حين يكون التغيير بضطي سريعة قد لا تستطيع الافكار والتقاليد السائدة مسايرته ، فتختل القيم وتضطرب الموازين في المجتمع ، مما يسفر عن صعوبة الاهتداء الى السبيل القويم فترتكب الجرائم . واذا اردنا ان نستقي من واقع الحياة دليلا لوجدناه في الجرائم التي برزت حديثا بشكل ملموس - لا سيما في اعقاب الحرب العالمية الثانية - وهي التي تمس الجوانب الاقتصادية من الحياة .

ولا تعتبر الجريمة وليدة المجتمعات الراهنة أو أنها قاصرة عليها ، بل ان الجريمة قديمة قدم اجتماع الانسان بغيره من الافراد ، وكل ما في الامر ان الجريمة تختلف في مفهومها وفي مدى انتشارها وفقا لتقاليد ونواميس جماعة معينة وفي مكان معين . والدعوان هو الاساس في الجريمة ، بل هو الاساس في كل الافعال التي تلحق بالثير شررا وتستوجب فعل هذا الضرر . والدعوان منشؤه بعض الفرائز التي قضت حكمة الله سبحانه وتعالى ايجادها في الانسان ، تلك الفرائز التي لن تزول الا بفناء الانسان وتحركة نحو كل ما من شاته ان يحافظ على وجوده ، ومن هنا ينشأ تضارب المصالح . وفي سبيل البقاء ينشب الدعوان الذي هو اساس كل نزاع ، دعوان مرجعه الفريزة . واذا اردنا نقصى اسباب الجريمة والبواعث عليها لانهما معها الى الفرائز البدائية في الانسان . ولهذا فمن الملاحظ انه كلما تهدبت فرائز الانسان قل عدوانه ، وبما لهذا التكمش نطاق الاجرام دون ان ينعدم .

واذا كانت الفرائز هي المحركة لكل دعوان فهي ايضا المحركة لكل دفاع في مواجهة الدعوان ، ففريزة البقاء التي تدفع بالانسان الى السعى نحو المحافظة على كيانه مهما كان في تصرفه من مساس بغيره هي بلذاتها التي تحرك هذا الثير الى دفع الاعتداء محافظة على بقائه ، ولو كان في هذا اساس بالمعنى . وهذا هو الاصل في نظرية الدفاع الشرعي ، التي تقرها التشريعات جميعا على اساس ان المحرك للدفاع التمثيل في اعتداء هو الفريزة التي خلقها الله سبحانه وتعالى في الانسان . ومتى كان الامر كذلك فالجريمة مرتبطة بالانسان وجودا وعدما . فالجريمة والانسان كلمتان متلازمتان وجدتا سويا وتنتهيان سويا ، وبهذا فان تصور قيام مجتمع بغير جريمة - على اية صورة كانت - غير مقبول .

والدعوان في الصورة التي عرضناها ، هو الذي يقع من فرد ، والدفاع الوجه نحو الدعوان يصدر من فرد ، ولكن الفرد المنعزل من غيره انمزالا كاملا لا وجود له ، بل ان من علماء الاجتماع من يرى ان الانسان وجد دائما في مجتمع خلال كل فترات التطور التاريخي التي مرت بها الانسانية . وعلى كل حال فان صور الدعوان - مع تطور المجتمعات - بدأت تتغير ، وانثرا لم يعد قاصرا على من وجهت اليه افعاله ، بل اصبحت الجماعة ذاتها كوحدة متكاملة تحس بالدعوان ولو بصورة غير مباشرة ، وشعرت بان عليها واجبا ازاء ذلك الدعوان . فالجماعة لها كيان ذاتي مستقل ، ومنذ وجودها خلقت فيها فريزة المحافظة على بقائها - وهي ذات الفريزة التي دفعت الانسان للمحافظة على نفسه - ووجهتها نحو طريق رد كل دعوان ، سواء وجهه اليها بطريق مباشر ام وجه الى احد افرادها فلحقها بسبيل غير مباشر .

وبحثنا يتناول البيئة والجريمة ، الامر الذي يثير كثيرا من التساؤلات ، اولها تحديد مفهوم كل من الجريمة والبيئة في هذا النطاق . وغاية البحث هي تعرف مدى العلاقة بين البيئة والجريمة وتأثير كل منهما في الآخر ، وقد مر ما تمثله البيئة في السلوك الاجرامي باعتبارها عاملا

من عوامله . فإذا أمكن التوصل الى هذه العناصر سهلت معرفة الطريق المؤدى الى مكافحة الجريمة (١) .

الجريمة في موطن هذا البحث :

الانسان منذ مولده حتى نهاية حياته لا يكف عن الحركة، سواء في ذلك بارادته، كالأكل والشرب والكلام ، أو كانت الحركة مبعثها طبيعة خلقه دون أن يكون لأرادته دخل في ذلك ، كنبضات القلب أو تردد التنفس . ولا يعني في هذا المقام التسويع الأخير ولكن يهمننا بالدرجة الأولى النوع الأول ، وهو ما يشمل التصرفات ذات الأثر في المحيط الخارجي والتي قد تؤثر في الجماعة المنتمى إليها الفرد بوجه من الوجوه .

وتصرفات الانسان المنبثقة من حركته الدائمة كثيرة ومتنوعة ، وهي تمثل استجابة لحاجات أو رغبات له ، يستوى في ذلك الظاهرة منها للبيان والمفهوم أمرها ، أم الخافية الناشئة عن انفعالات أو خلجات قد يصير فهمها وحتمها الى تعمق في شأنها للوصول الى غورها وتفسيرها . وإذا كان الانسان فردا في مجتمع فمما لا شك فيه أن تصرفاته تنعكس على المجتمع ، وقد يتأثر بها أو يؤثر فيها . فالمجتمع قد يتأثر بها لما تحدثه في نواحيه وقواعده من تغيرات على أية صورة كان التفسير ، كما أن المجتمع قد يؤثر فيها نتيجة لرد فعل ذلك التصرف سواء كان بالرضا عنها عند مواسمتها لطبيعة تكوينه أو سدم الرضاء عند الاختلاف والمعارضة .

ونقسم تصرفات الانسان تقسيما بسيطا يربط بوقف المجتمع منها الى اقسام ثلاثة، تصرفات لا تعنى الجماعة بأمرها كثيرا ، وتصرفات تتقبلها الجماعة بالرضى وتشجع عليها ، وأخيرا تصرفات تستهجنها الجماعة وتنفّر منها . والنوع الأول من التصرفات ينطوي تحته فريق يتم دون ارادة من الشخص - والقول بأنه تصرف فيه نوع من التجاوز - وهو الناشئ عن التكوين العضوي لجسم الانسان . والفريق الآخر من التصرفات لأرادة الانسان دخل فيه ، وهو الذى يقتضي بحث موقف الجماعة بصده . والأصل في هذه التصرفات قاعدة عامة أن يقف المجتمع منها موقفا سلبيا ، بمعنى أنه لا يتدخل في أمرها مادامت تتم في حدود النواحي والقواعد والنظم التى تحكم المجتمع . والنوع الثانى من التصرفات هو ما يتفق مع النواحي والقواعد والنظم التى تضعها الجماعة ولا يفتق منها المجتمع موقفا سلبيا، بل أنه يمتدحها ويشجع عليها لما تؤدي اليه من بقاءه والعمل على تقدمه ، ومن هذا قيام الانسان بالواجبات التى تفرضها عليه طرق العيش الذى يرتزق منه ، فالسعى الى الرزق واجب على الفرد وهو من العلم الأساسية في بناء الجماعة . وهناك نوع آخر من التصرفات ترضى عنه الجماعة لما فيه من معنى التآلف والتآخي بين أفرادها ، والتعاون الثمر الذى ينعكس اثره على أمر المجتمع وهذوله ، ومن هذا التقبل التعاون على دفع الكوارث ومساعدة الغير وإعانة المحتاج .

(١) يرى بعض الباحثين أن الاعتماد بظاهرة زيادة السلوك الإجرامي يوجب العناية التامة بالهياكل السطحي ، وبلا من الاندفاع في سياسة عقابية يتعين النظر بعين السيرة الى طبيعة المجتمع للتحري مما اذا كانت هناك قوى ذات صفة اجتماعية وبيئية مؤثرة في السلوك يكون من الأفضل الكشف عنها (جون مان ص ٩) .

والنوع الأخير من التصرفات يتعارض مع النوااميس والقواعد والنظم التى تقررها وتسير عليها الجماعة وتؤدى الى رد فعل مضاد من الجماعة متنوع النوع والمقدار دفاعا منها عن كيانها ، وعلا على استقرار الأمن والهدوء فيها . فالاجتمع كالانسان خلق كل منهما وفيه غريزة البقاء التى تتحرك تلقائيا وتدفع منه كل ما يهدد كيانه . فإذا كان الفرد العادى يرفع يده فى حركة غريزية لا ارادية ليتقى خطرا على وشك الوقوع به بتهده ، فالحال كذلك بالنسبة الى المجتمع يتحرك غريزيا محافظة منه على كيانه لدفع كل ما من شأنه أن يؤثر فى بقاءه واستمراره . وإذا كان رد الفعل الغريزى لدى الإنسان ازاء أى خطر يتهده يختلف من وقت الى آخر ومن موقف الى آخر حسب ظروف ذلك الخطر ، بمعنى أن تصرفه الغريزى ليس مطلقا من كل القيود وإنما تحدده اعتبارات عديدة - لعل اخصها درجة العدوان وكيفية مقاومته والظروف التى يقع فيها كل من الخطر ودرته - اذا كان الأمر كذلك بالنسبة للانسان فهو الحال ايضا بالنسبة الى المجتمع . فمتى كان كل خروج على نوااميسه وقواعده ونظمه يستوجب رد فعل معه ، فان تحديد هذا الأمر يختلف من حالة الى أخرى وفقا لدرجة العدوان وظروفه ومدى المساس الذى يلحق بالجماعة من جرائه .

ويمكن القول بصفة عامة انه لا يوجد تطابق كامل للتصرف وآخر من ناحية نوعه ومداه وإثره ، ومع هذا فانه تقريبا للأمر يمكن ضم بعض التصرفات الى بعضها الآخر فى مجموعات تحوى نماذج يوجد بينها نوع من التناسق والتقارب الذى لا يصل الى حد التطابق . ونمشيا مع الفكرة أتفة البيان يمكن تقسيم تصرفات الفرد التى لا تلقى رضا من المجتمع الى عدة أقسام استنادا الى درجة رد الفعل الذى يقابل به المجتمع تلك التصرفات ، وهو ما يتدرج فبدأ بمجرد الاستهجان ، ثم قد يصاحب هذا الاستهجان جزاء تاديبى ، أو قد يصل التصرف الى درجة الخطورة التى تستوجب فضلا عن استهجان المجتمع للتصرف توقيع جزاء جنائى على مرتكبه ، وبهذا متفاوت درجات عدم رضا المجتمع ورد فعله من التصرف الذى يقع مخالفا لنوااميسه وقواعده ونظمه . فإذا وقع الفعل عند مجرد الاستهجان اعتبر التصرف جريمة تاديبية ، أما ان وصل الحد الى احد الجزاءات المنصوص عليها فى قانون العقوبات كانت الجريمة جنائية ، ومن هذا يتضح شمول مصطلح الجريمة لكل التصرفات التى تقع متنافية للمجتمع .

وبهذا بالقام الأول الجريمة الجنائية ، وهى النشاط الذى يصدر من الشخص إيجابا كان أو سلبا يقرره له القانون عقوبة من بين العقوبات المقررة بقانون العقوبات . فالاجتمع قد يرى فى بعض التصرفات التى تصدر من الفرد ما من شأنه أن يخل بأمنه ونظمه ، يستوى فى هذا أن ترتب تلك التصرفات ضررا لفرد معين ، أم أن ألّاها بسبب المجتمع باعتباره شخصية قائمة بذاتها تدفع منها كل ما يهدد كيانها . وهو فى هذا السبيل ينلر بالعقاب كل من تسول له نفسه مقارفة مثل تلك الأمور ، فان أى الفرد واحدا منها ، ورغم تحطير القانون ، وقع تحت طائلة العقوبات المقررة فى هذا الشأن - بالتصرف الذى يشكل جريمة جنائية مستهجنة من المجتمع ، ويتفق فى هذا مع الجريمة الدينية والخلقية والتأديبية ، بيد أن خطورة التعريف تجعل المشرع يتدخل بتقرير

أحدى العقوبات الجنائية . وبهذا أيضا يتضح الفرق بين الجريمة الجنائية وغيرها من الجرائم، ويتمثل هذا في التزام المشرع الجنائي والقاضي من بعده بقاعدة أن لا جريمة ولا عقوبة بغير نص في القانون . ومعنى هذا أنه أن انتفى وجود نص القانون الذى يعد نشاطا معينا فعلا معاقبا عليه باحدى العقوبات الجنائية ، فلا محل لمؤاخدة الشخص جنائيا .

وليس بالضرورة أن تنطوى دائرة الجرائم الجنائية داخل دائرة الجرائم الدينية أو الخلقية، لأن هناك من الأفعال ما يثير النقاش حول مخالفتها لقواعد الدين أو الأخلاق من عدمه رغم تدخل المشرع واعتبارها من الجرائم الجنائية ، ومن هذا القبيل كثير من المخالفات والجرائم المسماة بالجرائم المادية . ولهذا قيل بأن الجريمة قد تكون من خلق الجملة السياسية في الدولة في وقت ما وظروف معينة ، فان تغيرت الجماعة الحاكمة أو تبدلت الظروف التي استوجبت تجريم فعل معين فإن هذا قد يترتب عليه رفع صفة الجريمة عن النشاط ، بل يمكن القول بأن سياسة التجريم في ذاتها مصدرها سلطان الحكومة . على أن هذا القول ، وأن كان فيه جزء من الصحة فإنه لا يخلو من المبالغة ، فلا ينكر أحد أن هناك من التصرفات ما تعدها الهيئة السياسية الحاكمة جريمة حماية منها لمكانتها وتثبيتا لاركانها أو تحقيقا لسياسة معينة تنشدها . وهناك أيضا من الأفعال ما يعد جريمة تقتضيها مصلحة المجتمع وإن كان قد يفتن بعض الأفراد الغاية من التحريم، كالجرائم التموينية أو جرائم الضرائب . ولكن إلى جوار هذا يوجد من الأفعال ما قد يكاد يجمع على تجريمه لما له من مساس بالمجتمع فضلا عن المساس بالأفراد، ومن هذا القبيل القتل والسرقة وخيانة الأمانة والزنا ، وإن كان من بينها ما لا يعد جريمة أحيانا في قليل من المجتمعات . وهذه الجرائم الأخيرة تنطوى داخل دائرة الجرائم الأخلاقية لأن نواحي المجتمع وتقاليده تأبأها . بل لقد ذهب البعض إلى اعتبار مثل هذه الأمثال جرائم طبيعية لأنها تأتي ضد الطبيعة الموجودة في المجتمعات ولا تتغير بالزمان ولا بالمكان . وهذا القول بدوره أثار الانتقاد لما يتسم به من طابع المبالغة ، إذ هناك من المجتمعات ما لا يعد القتل جريمة ، بل واجبا اجتماعيا ، وغيرها لا يرى في فعل الزنا جريمة ، بل يراه تصرفا من جانب الفرد في حرته الشخصية .

وعيننا في بحثنا الجريمة الجنائية ، ويمكن القول بأن اعضاء صفة الجريمة على نشاط معين أمر نسبي يتوقف على ظروف الزمان والمكان ، فهو يختلف من وقت إلى آخر ومن مكان إلى آخره . فمن المسلم به أن هناك من الأفعال ما يعد جريمة في دولة ما في حين أنه من الأفعال المباحة في دولة أخرى ، بل أنه في الدولة الواحدة قد يعد النشاط جريمة ثم يعدل المشرع في سياسته وينقله إلى قائمة الأفعال التي لا يلحقها العقاب ولا يمنعه من هذا من بعد أن يعود إلى الجريمة مرة أخرى .

وتختلف التشريعات في تقسيمها للجرائم من حيث جسامتها ، فمنها ما يأخذ بالتقسيم الثنائي فالجريمة تكون على نوع من اثنين إما جنائية أو جنحة ، ومن القوانين ما يأخذ بالتقسيم الثلاثي للجرائم - الجنائية والجنحة والمخالفة - ومن بينها التشريع المصري . وكخطوة أولى نستبعد من نطاق البحث الجرائم المعددة من المخالفات لأنها من البساطة بمكان ، وهي تصرفات يمكن أن تقع

من كل فرد يكفى القانون في الغالب بوقوعها لتقرير العقاب دون اشتراط توافر القصد الجنائى في مرتكبها ، اى انه لا يمثل فيه او فيما وقع منه خطورة شديدة على المجتمع .

اما الجنايات والجنح فانه وان كانت خطورة الجنايات ظاهرة وكانت الجنح اقل منها في هذا المقام ، الا ان هذا لا ينفي ان اهتمامات البحث في عوامل الجريمة لا تسير دوما وراء تقدير المشرع لخطورتها . فجريمة تسليم بعض الاسرار الحربية الى دولة معادية اشد خطورة في نظر المشرع من جريمة قتل تركب اخذا بالثأر مثلا ، ومع هذا فان الباحث في عوامل الجريمة تعنيه بالدرجة الاولى الجريمة الأخيرة وحدها . واذا كانت الجنايات والجنح لا تتساوى في أهميتها فان هناك من الجرائم مهما كان وصف القانون لها تخرج عن البحث ، وذلك لما لها من طبيعة خاصة تجعل لها صفة الجرائم الاصطناعية ، ونسوق على سبيل المثال الجرائم الضريبية التى لا يشعر مقارنفا أحيانا بتأثير الاجرام حين يأتى احد الأفعال المكونة لها بسبب عدم ادراكه للغالدة التى يراد للمجتمع الوصول اليها بتحصيل الضريبة ، ولا يأخذ في اعتباره الا القدر من المال الذى يدفعه الى الدولة ولا يتقاضى عنه مقابلا محددا واضحا ، وكذلك الحال بالنسبة الى شعور الجمهور .

والغاية من الدراسة هي التى تحدد الجريمة التى تكون محلا للبحث ، ولا شك في ان الجريمة التى تثير الاهتمام تكون قد وصلت في المجتمع الى درجة من الكثرة تكشف عن ان لها من العوامل ما يمتد جذوره في الجماعة بما يمكن من متابعتها والاعتداء بها، اى ان يكون من شأن تلك العوامل تهيئة المناخ الصالح لوقوع الجريمة ، وكان الجريمة المعنية أصبحت آفة المجتمع يستحق الجرى واداءها للقضاء عليها . ولذا فان بعضا من الجرائم التى ترتكب بصفة عارضة تخرج عن البحث ، ومن هذا القبيل جرائم الضرب البسيط والسب فهى جرائم - قلت ام كثرت - ليست لها سمة الثبات والتكرار ، تقع نتيجة لظروف طارئة من اى فرد وفي اى وقت دون ان يجمعها ضابط معين يمكن الاعتداء به او البحث عن أسبابها للعمل على مكافحتها .

واذا كانت التشريعات تعبر عن انعكاسات لمشاعر المجتمع ، وكانت الأبحاث المختلفة وليدة حاجاته ، فان تحديد الجريمة يمتد في بالدرجة التى وصلت اليها والتى تقاس باستنكار المجتمع لها - كله تقريبا وفي كل وقت - واحساسه انها قد بلغت من كثرتها مرحلة يخشى منها على المجتمع ذاته . وليست المجتمعات كلها على نسق واحد ، والمقياس آنف البيان يوصل بالضرورة الى ان تكون الجريمة المعنية موجودة في كل الدول ، بل هي قد توجد في دولة ولا تتوافر في غيرها . وعلى سبيل المثال اذا أردنا تطبيق المقياس السابق على الجريمة في مصر لوجدنا ان اخطرها جريمة القتل ، لا سيما ماكان منها متصلا بالثأر . ويزداد الاهتمام حاليا بجرائم الاختلاس والرشوة التى تنتشر في المجتمع بصورة ملمحة ، حتى حركت كثيرا من الاجهزة الباحثة واداءها . ولا تخلو جرائم التشرد والتسول بدورها من الأهمية ، كما لا يشك احد في خطورة جرائم المواد المخدرة . وأخيرا تأخذ الجرائم التى تقع من الأحداث مكانا خاصا بين الجرائم التى تكون محلا للبحث ، لانه كما يقال **هذه اليوم هو رجل الله** ، ورعايته وتنويعه حفظ للبلاد برجال المستقبل .

البيئة في موطن هذا البحث :

الجريمة ظاهرة قديمة نتيجة لعمليات متعددة ومعقدة ، وتضر بالمجتمع، وهو لا يقف منها عاجزا وإنما حماية لنفسه يوقع الجزاء على مرتكبها وحتى يكون عنوانا يردع الغير عن الانتداء به . ورد فعل المجتمع على هذه الصورة يقف عند الآخر الظاهر لتصرف الإنسان - أي الجريمة - ولا شك في أنه من الأفضل العمل على منع الجريمة قبل وقوعها، وهو ما يقتضيه البحث عن أسبابها لعل في معرفتها ما يمكن من علاجها ودفع خطر الإجرام .

ولما كانت الجريمة نتيجة لعمليات بشرية واجتماعية ونفسية فإن البحث في أمر مسبباتها شغل فريقا من العلماء مختلفي التخصصات . فلقد شارك في الدراسة والأبحاث فلاسفة وأطباء ورجال قانون وباحثون اجتماعيون وغيرهم ، ونظر كل فريق الى الجريمة من وجهة نظر تخصصه وتبعها لذلك تعددت الآراء واختلفت النظريات . . بل لقد تأثر كل عالم بالمنهج الخاص الذي يتبعه في أبحاثه التخصصية ، وعلى سبيل المثال أرجع لومبروزو - الذي كان يعمل طبيباً - عوامل الإجرام أساسا الى التكوين العضوي للفرد . وفضلا عن هذا فإن اختيار الإنسان لطريق معين في بحثه يتوقف على امكانيات الأدوات التي تيسره الاستماعة بها ، وأقرب الأدوات اليه هو ما عمده به حياته العملية (٢) .

وإذا كان الإنسان فردا في مجتمع ، وكانت الجريمة ظهيرة انسانية فقد لزم البحث عما إذا كانت هناك علاقة بين الجريمة ذاتها والمجتمع من عنده . ويعتبر توماس مور (١٤٧٨ - ١٥٣٥) (٣) من أوائل من نظرنا الى الجريمة في ارتباطها بالمجتمع ، وبين أن عواملها تكمن في المجتمع نفسه، وكان ذلك في قصته الشهيرة (Wopie) وهي مستوحاة من المدينة الفاضلة لافلاطون . ووصف توماس مور الظروف التي كانت تعيش فيها إنجلترا آنذاك وانتشار الإجرام وقسوة القانون ، وأشار الى وجوب تصريف عوامل الجريمة والتخلص منها بتوفير امكانية العيش للناس . ومن مسور عوامل الإجرام ذكر الحروب المستمرة التي أسفرت عن المحاربين الماطلين . وقال أن العامل الأساسي يكمن في ظروف الحالة الزراعية ، ذلك أنه بعد إنتاج المصنوعات الصوفية حول كثير من اصحاب الأراضي الزراعية املاكهم الى مراعى للقمح ، وترتب على هذا تعطيل آلاف من المزارعين الذين رحلوا واستقروا حول المدن وكانوا فريسة سهلة للوقوع في هذة الإجرام ، وفضلا عن هذا ظهر الثراء الفاحش الذي سرعان ما يزول ويؤدي بدوره الى طريق الجريمة .

ومن كتابات قادة الفكر خلال القرن الثامن عشر نجد إشارة الى الجريمة والظروف الاجتماعية المحيطة بها (٤) . فقد ذكر منتسكيو أن الشرع الناجح هو الذي يكافئ الجريمة لمنع وقوعها أكثر منه بالعقاب عليها . وكتب دوسو أن الفقر هو أهم الجرائم الكبيرة ، وأن المجرمين قلة في ولاية

(٢) راجع الدراسات الاولى لعلم الإجرام ، بيتنل ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٣) بونجر ، ص ٢٨ .

(٤) بونجر ، ص ٢١ وما بعدها .

منظمة تنظيما حسنا . كما ذكر بكاريو أن السرقة هي عادة جريمة الفقراء . وفي كتابات بشتام نظرة اجتماعية عميقة لأسباب الاجرام ، وهو يرجو أن تمنع الجريمة لا أن يعاقب عليها . وعدد صورا من العوامل الموصلة الى الجريمة ومنها الضمور التي اعتبرها من الاسباب الهامة . وفي صدد الجرائم الاقتصادية بحث على معاونة الافراد الذين ليست لديهم موارد كافية والا اصبحوا مجرمين ، ولأن يقدم من هذا الطريق أى تهدد بالعقاب .

وبعد أن أرست الدراسات الاحصائية على قواعد ثابتة استخدمت كأداة في الدراسات الاجتماعية ، وفي ضوءها درست الجريمة باعتبارها ظاهرة في الجماعة بطريقة علمية . وقد أوجد ألفريد جيري في فرنسا (١٨٠٢ - ١٨٦٦) ما يسمى بالاحصاء الاخلاقي ، حيث تناول الرابطة بين الجنس والسكن من ناحية ، والاجرام من ناحية أخرى . كما عنى بجغرافية الجريمة في فرنسا التي افصح منها ان المناطق الفنية أكبر عدد من الجرائم ضد المال ، واستنتج عدم عدالة توزيع الثروة ، حيث الى جوار الثراء الفاحش هناك فقر مدقع . وصاغ قانون الحرارة للظاهرة الاجرامية - والذي ايدته فرى - حيث أكد ان الجرائم ضد الاشخاص تلب في الاقاليم الجنوبية خلال اوقات الحر ، وأن الجرائم ضد المال تلب في الاقاليم الشمالية اثناء فترات البرد (٥) .

وابان أولدف كاتليه (١٧٩٦ - ١٨٧٤) ثبات أية جريمة من عام الى آخر حتى في تفاصيلها . او طريقة ارتكابها ، وبين ذلك بجدول احصائي عن الجرائم التي وقعت في فرنسا . وقال ان الارقام لا تشير وهي ثابتة بشكل مطرد في كل ما يتصل بالجريمة حتى بالنسبة للجرائم غير المتوقعة للتقدير العادي ، كالقتل الذي يحدث فجأة وبلاية يواحد مسبق . وقال ان المجتمع يحوى بداخله بذور الجرائم المستقبلية ، وكل نظام اجتماعي يعد الظروف لعدد من الجرائم التي تنتج بالضرورة من تنظيمه . ويضيف بأن على كل مجتمع أن يعد نفسه على اساس وجود الظاهرة الاجرامية ، كما يعد نفسه لظاهرة طبيعية . وهما يستنتج من قوله ان كفاح الجريمة تمكن تحقيقه بتغيير ظروف الحياة الانسانية . وبحث كاتليه ايضا بعض البواحد التي تؤثر على الاتجاهات العامة في الجريمة كالتعليم والمهنة والفقر والجوع وغير الفصول .

وربطت المدرسة الاشتراكية (١) الظاهرة الاجرامية بالظروف الاقتصادية معتبرة ان الجريمة حصيلة فردية للظروف الاقتصادية ، فعدم المساواة الاقتصادية هو العامل الاساسي في الجريمة التي تمثل رد الفعل لانعدام العدالة الاجتماعية ، وقامت الفكرة على اساس دراسات واقعية مبنية على الطرق الاحصائية التي اوضحت تغير معدل الجريمة ومدى ارتباطه بالظروف

(٥) ستيفانيه وآخرون ص ٨٠ بند ٨٨ ، وأشار الى معارضة البعض لهذا الرأي حيث ان الجو يرتبط بظروف اجتماعية . ففي بعض البلاد حيث يطول النهار تمتد بها الحياة الاجتماعية وتكفي لزيادة فرص الاجرام ضد الاشخاص ، في حين ان الظلام في ليالي الشتاء الطويلة يساعد على زيادة الجرائم ضد المال . راجع ايضا بوزا وبنايل ص ٨٩ وما بعدها .

(٦) بونير ص ٨١ وما بعدها .

الاقتصادية ، وانتهت الى أنه لن تكون هنا الجريمة في المجتمع الاشتراكي، ولن تكون الافعال التي تقع ضد رفاهية الجماعة الا نتيجة لحالة مرضية . وقد عكس التطور الاقتصادي صده على تطور الجريمة ، بالانتقال من الاقتصاد الزراعي الى الاقتصاد الصناعي خلال القرن التاسع عشر ، صعبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم اللدقاء . وعدم الاستقرار الاقتصادي الناشئ من عدم استقرار الائتمان والاجور والأسواق والنقود كان له اثره في الاجرام الذي يقصد منه الكسب ، ويؤدي تحسن الظروف الاقتصادية الى تقصص الجرائم ضد المال وسوء هذه الظروف يؤدي الى زيادة تلك الجرائم .

ومن أشهر المدارس في بحث عوامل الجريمة المدرسة الإيطالية (٧) وتقوم وجهة نظرها على ان الظواهر الاجتماعية - شأنها شأن الظواهر الطبيعية - تنشأ وتتابع وفقا لقواعد تحكمها وتربط بينها بملازمة السببية الموصلة الى آثارها ، ولكن تحديد هذه القوانين من الدقة بمكان بسبب الظروف المعقدة التي تتدخل في هذه الظواهر . وفي تقدير الظاهرة الإجرامية ينفي الاعتماد بمنصرين الفرد والوسط . ويجمع علماء هذه المدرسة على ضرورة وجود شذوذ عضوي لوقوع الجريمة ، ثم اختلفوا بعد هدا في تحديد من النقاط .

فلقد امتد لومبروزو ابتداء بالمميزات العضوية في الانسان المسببة للجريمة ، ولكنه بعد ذلك وتحت تأثير النقد الشديد امتد بالظروف الاجتماعية ، وقال أن لكل جريمة اسبابا عديدة ، ولما كانت تلك الاسباب تختلط ببعضها في الغالب فيجب ألا يؤخذ كل سبب فيها على الافراد ، ومن بعد هذا امتد لومبروزو بالاسباب الاجتماعية وقال ان المدينة لم تقلل من عدد الجرائم وان اتسمت بطابع خاص اقل شراسة ، وتميزت بأنواع معينة ناشئة عن الروابط الاجتماعية والأسرية ، وكان للحالة الاقتصادية في نظره اثر محدد على الاجرام .

وامتد فرى بالعوامل البيولوجية و اضاف اليها العوامل الطبيعية والعوامل الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص العوامل الاقتصادية . ويختلف اثر العوامل البيولوجية والاجتماعية وفقا لاشخاص المجرمين وأنواع الجرائم المركبة . وقسم المجرمين الى خمسة أنواع ، المجرم بفطرته والمجرم المجنون ، والمجرم بالعاطفة ، والمجرم بالصدفة ، والمجرم المعتاد . والفكرة الاساسية لدى فرى منهاها تساؤل هو انه اذا كانت العوامل الجغرافية والاجتماعية تهيئ مصدرا للاجرام فما يزال التساؤل باقيا لمعرفة ما يدعو عدة الفاديسون في طريق الجريمة بينما لا يفسر غيرهم فيه ، والجويع يخصصون مؤثرات واحدة . وفي رايه ان الجريمة ظاهرة ذات اساس معقد بين عضوي ونفسى واجتماعي ، ولها اشكال ودرجات تتغير حسب الظروف المختلفة للاشخاص والاشياء والوقت والمكان . وقد قسم فرى عوامل الاجرام الى ثلاثة أنواع اثربولوجية وطبيعية واجتماعية . والاخير هو الظروف الاجتماعية للجريمة الناشئة من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه المجرم ، أي السكان والافكار العامة والمعتقدات الدينية والانتاج الصناعي والمنظمات

الاقتصادية والسياسية . ولقد صاغ قانون التشريع الاجرامى اى انه فى وسط اجتماعى معين اذا وجدت ظروف شخصية وطبيعية معينة فانها تنتج قدرا من الجرائم لا يزيد ولا ينقص وبشكل منتظم .

ويرى جاردوفالوان الجريمة نتاج هيبة شخصي يسبق الفعل الضار ، والجريمة هي الطبيعية لا تلك التي يخلقها الشرع ، وهي تتكون من الانتهاك الضار للشعور الاخلاقي العام الذي اتصل بالشعوب على مدى تاريخ الانسانية . ومن رايه ان من الافضل قبول الظاهرة الاجرامية على علانها كما تحدث دون محاولة لتفسيرها ، وان كان لم ينكر دور العوامل الخارجية فى احداث الجريمة ، ففرض للعوامل الاقتصادية وكذلك للمدنية التي لم ير في تقدمها شيئا لازدياد الاجرام ، بل انها تحصره فى انواع خاصة .

وخلاصة اتجاه المدرسة الإيطالية انها حصرت اسباب الاجرام فى نوعين **اولهما** الاسباب الداخلية التي تتصل بشخص المجرم من الناحية الجسمية والعقلية والنفسية والميول والطباع ، **والثانيهما** اسباب خارجية تتصل بالوسط والبيئة التي يعيش فيها وما بها من ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية .

ويهمنا في هذا المقام مدرسة الوسط الاجتماعى التي تقوم على اساس ان الجريمة وليدة الوسط الاجتماعى الذي توجد فيه ، فالسلوك الاجرامى ينتج من مظاهر السلوك والعمليات الاجتماعية الاخرى . ولم تنكر المدرسة العامل الشخصى ، ولكنها مع اعتدادها به جعلته جزءا من الوسط الاجتماعى الذي يعيش فيه المجرم وهو محدود الاثر . فالوسط الاجتماعى هو تربة زراعة الجريمة ، ومكروها هو المجرم الذي ليست له اهمية الا من اليوم الذي يجد فيه التربة الصالحة لانباته ، والاسباب الاجتماعية للجريمة عديدة ومختلطة ليس من السبر وفسح تقسيم يحدد معالمها .

ومن أقطاب هذه المدرسة لاكاساني (٨) الذي قال عبارته الشهيرة « ليس للجماة الا المجرمين الذين تستحقهم » . وقد عرض لاسباب كثيرة للجريمة . وعلى سبيل المثال يرى ان حرارة الجو تؤدي الى ازدياد الجرائم ضد الاشخاص وتصل الى مداها فى الصيف ، فى حين ان الشتاء يؤدي الى زيادة الجرائم ضد المال بسبب البرد وطول الليل واستهلاك كميات كبيرة من الخمر . ويختلف اجرام الريف من اجرام الحضر ، فالجرائم فى الريف ذات اتصال بالاصل الفريزى فى الانسان كالانتقام والطمع ، اما جرائم المدن فتتسم بالطابع غير الاخلاقي كالاعتصاب وهتك العرض والضرب الشديد .

ويرى جابريل تارد (٩) ان المجرم وليد الظروف الاجتماعية ، وانه وان كانت تتدخل فى انتاج الجريمة اسباب نفسولوجية وطبيعية واجتماعية ، الا ان الاخرة هي الغالبة وذات الاثر الفعّال فى

(٨) بونجر ص ٧٨

(٩) بونجر ص ٨٠

وجود الجريمة . فالجريمة لا تقع من مجرد الإنسان الحي وإنما من شخصية الإنسان التي خلقتها الجماعة وشكلت صورتها . وقد وضع تارد نظريته في أن الجريمة مفتاح التقليد ، فلا شك في أن الأجرام كالشأن في كل نشاط اجتماعي يفترض وجود ظروف فسيولوجية وطبيعية ، ولكنه يفسر قبل هذا بالقوانين العامة في التقليد ، وذلك في صور الصفة الخاصة بالصيغة المحلية لكل وقت والتوزيع الجغرافي والتحول التاريخي وتنوع الدوافع وغير ذلك . وهذا التقليد يمتد من الطبقات العليا إلى الطبقات الدنيا ، وقد بدأ كان يجري تقليد الطبقة الأرستقراطية ، أما الآن فالملاحظ سير التقليد من العاصمة إلى الريف . فكل الوقائع الاجتماعية تحدث تحت سلطان يحتذى به . ويذهب تارد إلى أن الفقر لا يؤدي وحده إلى الجريمة ، وإنما عدم الرضا وعدم الشبع هو الذي يولده ، وهذا وذلك كما قد يوجد عند الفقير فإنه قد يتوافر لدى الغني .

ولا يختلف دوركهايم من غيره من علماء مدرسة الوسط الاجتماعي في اعتبار الجريمة وليدة الظروف الاجتماعية والتيها ترجع أسبابها . على أنه يرفض اعتبار الجريمة ظاهرة غير مادية في المجتمع ، بل أنه يؤكد صفتها الاجتماعية المادية ، فهي موجودة في كل مجتمع انساني ، وهي علامة من علامات صحته ، ولا يوجد مجتمع لا تحدث فيه يومياً انتهاكات لآخلاقها . ويؤدي رايه إلى أنه لما كانت الجريمة ظاهرة عادية فهي لا تنشأ عن أسباب استثنائية ولكن من ذات الهيكل الثقافي الذي تنتمي إليه . وأنه لما كانت الجريمة ناتجة من التيارات الاجتماعية الكبيرة في الجماعة فإن وجودها وعلاقتها بالهيكل الاجتماعي يحملانها صفة الاستمرار والعمومية . وعلى هذا فإنه لا يجب تفسير الجريمة ولا تحليلها إلا بالثقافة الغالبة في وقت ومكان محددين .

ويرى سدلر لاند (١٠) - وهو من المدرسة الاجتماعية في الولايات المتحدة الأمريكية - أن السلوك الإجرامي هو سلوك انساني يشترك في الكثير مع السلوك غير الإجرامي . ويضع سدلر لاند نظرية تكوينية للسلوك الإجرامي ، مبيناً كيف تتم العملية التي تؤدي بشخص معين إلى السلوك الإجرامي . وتتلخص في أن السلوك الإجرامي يتمثل ولا يورث ، وذلك بالتداخل مع أشخاص آخرين في عملية اتصال ، وهو يحدث في نطاق جماعات الأشخاص ذات العلاقة الوثيقة ، وتعليم السلوك الإجرامي يتضمن فن ارتكاب الجريمة ، وينحرف الشخص حين ترجع له كفة الآراء التي تحدد انتهاك القوانين على كفة الآراء التي لا تجيز انتهاكها ، وهذا هو مبدأ العلاقة التفاضلية . وحينما يصبح الأشخاص مجرمين فهم يقولون هذا لاتصالهم بنماذج إجرامية من جهة ، وبسبب عزلهم عن النماذج التي تقاوم الإجرام من جهة أخرى ، وأي فرد يتشرب حتما الثقافة المحيطة به إلا إذا وجد حوله نماذج أخرى في صراع معها . والأسبقية هنا هامة بمعنى أن السلوك القويم الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر طول الحياة ، كما أن السلوك المنحرف الذي يكتشف في الطفولة المبكرة قد يستمر يدور طول الحياة . وتبدو أهمية الأسبقية من خلال تأثيرها على الشخص عندما يقف موقفه الاختبار .

والنظرة الحديثة الى الجريمة هي اعتبارها مسألة اجتماعية، وتبدى الاهتمام بكل من العاملين البشرى والبيئى ، وهو ما يبدو من الأبحاث الأخيرة التى تقرر بأنه لفهم الفرد يحتاج الأمر لفهم طباعته وظروفه وقت ارتكاب الجريمة وكذلك الوسط الذى نشأ فيه والعوامل التى كان لها الأثر فى بناء شخصيته (١١) . ويتوافر عامل الجريمة فى النظام الكامل المعتاد للفرد فى مجتمعه الخاص . فربط الجريمة بعامل واحد يفتح الباب للنقد من أساسه ، فإذا قيل أن التعطل سبب الجريمة لصح القول بأن التعطل يؤدى الى الحياة على نفقة الأقارب ، أو قبول الإمانة العامة ، أو احتراق التسول أو التشدد أو السرقة أو الانتحار . فالمعامل الاقتصادية قد يثير كل هذه الاحتمالات . فلماذا يختار الفرد المتعطل طريقا دون الآخر ؟ والجواب على هذا أنه فى كل حالة على حدة يوجد طريق معتاد للحياة يجعل أيا من هذه العوامل يظهر عندما تحين له الفرصة . فالتعطل يبدله ليس هو ارتكاب الجريمة وإنما العامل الكامن فى طرق الحياة المحيطة بالفرد (١٢) .

ولقد اردنا بما سلف ذكره بيان أن محاولة استناد السلوك الإجرامى الى عامل واحد ليس من السهل قبوله ، لأن الإنسان منذ مولده حتى وفاته تحيط به عوامل عديدة مختلفة الأنواع هي التى تشكل سلوكه فى الحياة . حقيقة قد يكون لأحد هذه العوامل اثر أكبر من غيره ، ولكن لن يتأتى منفردا حتى يؤدى قطعاً الى سلوك معين . فإذا قلنا أن المنزل المتصدع من العوامل المؤدية للأجرام فلما لا جدال فيه أن بعضاً ممن نشأوا فى مثل تلك بيئات لم يرتكب جريمة . وكل عامل من العوامل التى يتناولها العلماء بالبحث يمكن النظر اليه من وجهتى نظر مختلفتين ، أى باعتباره مؤثراً فى السلوك الإجرامى أو بغير اثر عليه . وإذا كان السلوك الإجرامى ينشأ من تفاعل عوامل عديدة مع بعضها فقد حاول بعض العلماء وضع تقسيم لتلك العوامل بناء على أسس اتخذوها قاعدة للتقسيم . على أنه لما كان من الصعب وضع ضوابط فاصلة بين مختلف عوامل السلوك الإجرامى ، فكذلك الشأن بالنسبة الى التقسيمات ، وهى مسيبل المثال اذا قلنا أن السلالة عامل يفصل بشخص الفاعل فلا شك أيضاً أنه يمكن إدراجها ضمن الظروف الاجتماعية اذا نظر اليها من ناحية تعاقبها .

ويوصل بنا كل ما تقدم الى السؤال التالى: ما هو المقصود بالبيئة (١٣) فى نطاق بحث علاقتها بالجريمة ؟ وهل يراد بها معنى وأساساً أم نطاقاً ضيقاً ؟ أى هل يقصد بها المجتمع كله الذى يعيش فيه الفرد ، أو المحيط المام الذى تجرى فيه حياته أم الوسط الخاص الصغير الذى ينشأ

(١١) فوردود أيسن ص ٢١٩ .

(١٢) تنبؤ ص ٢٢٦ ، وقد ذكر حالة امرأة من متشجان حكم عليها بالسجن لمدة شهر وبدلاً من تحمل الحبس كتلت زلزالين بأن الانتحار سوف يدمر زوجها ويروح أولادها لكان الانتحار بدلاً من الهلاك . فالظروف الاجتماعية لوسيلة الحياة هي التى حددت الطريقة .

(١٣) وقد استعير علم البيئة أساساً من علم الأحياء حيث الفت الانتباه الى حقيقة أن مختلف أنواع النباتات تنمو نحو التمام ص - كالشجر بالنسبة للمجتمعات البشرية - سولها بداية مؤلفة لم تثير نتيجة للتطورات حتى تصل الى صورتها النهائية (برنيس ص ٢٥) .

فيه ويتصل به ؟ وفي حيرة أخرى هل يرد بالبيئة الدولة أو جزء منها أم المنطقة التي يعيش فيها أم وسط ضيق سواء تمثل في أسرة أو مدرسة أو عمل ؟ وما ينبغي التنويه اليه ابتداء من جميع الاتجاهات التي حاولت أن ترد الجريمة الى عوامل محددة لم تغفل وجود مسحة من أثر الجماعة أو الظروف الاجتماعية على أي من تلك العوامل . فالعامل الجغرافي سواء تعلق بالشتاء أو الصيف لا يمكن نزعها من المجتمع الذي يعمل أثره فيه . وقد ينتهي بنا هذا الى دراسة جميع عوامل الجريمة اما باعتبارها نتاج البيئة بوجه عام أو أن البيئة تؤثر فيه بشكل أو آخر . مع أننا في مجال هذه الدراسة تقتصر على عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة بالبيئة .

وقد حاول بعض العلماء تقسيم البيئة الى بيئة جغرافية وأخرى اجتماعية وكذلك الى بيئة عامة وأخرى خاصة . والبيئة الجغرافية هي التي يعيش فيها الإنسان وتعلق بالجو والفصول والرياح ، وأن أثرها بالنسبة الى الإنسان ثانوي ، إلا أنه لا يمكن فصلها عن البيئة الاجتماعية . والبيئة الاجتماعية يقصد بها التعمق في الظروف المدرسية والثقافية والاقتصادية . وهذه البيئة قد تكون عامة ، أي تشمل الظروف العامة لوسط معين له تأثير على كل الأفراد في هذا الوسط ، وقد تكون بيئة خاصة يبين أثرها الواضح على الفرد بذاته بصورة جلية . والبيئة الخاصة يمكن تقسيمها الى اقسام ثلاثة (١٤) ، الأولى بيئة لاختيار الفرد منها وهي التي تتصل بالأسرة ، فالطفل يتبع المكان الذي يوجد فيه . **والقسم الثاني** هو البيئة المباشرة ومثالها المدرسة والصنع وأداء الخدمة العسكرية والمؤسسة حين ادانة الشخص ، حياة الإنسان عبارة عن خطوات لا يستطيع التخلص منها كقائمة عامة ، وتلك الخطوات تترك بصماتها على الفرد . وأخيراً **الوسط المختار** أو المقبول حيث يختارها الفرد في فترة المراهقة والبلوغ أو يرضى عنها حيث يقيم بها . ويدخل في هذا أيضا الأصدقاء الذين يختارهم الشخص وقد يكون لهم الزهم في السلوك الإجرامي وعلى وجه الخصوص تكوين المصائب (١٥) .

وفي سبيل دراسة البيئة والجريمة يتعين علينا تحديد غاية هذه الدراسة والفكرة التي تقوم عليها . فالإنسان بطبيعة الحال إنما كان لابد وأن يوجد في جماعة معينة يعيش معها أو يعايشها ، على أن ظروف الحياة قد تقتضي التنقل من ذلك المكان ، ولكنه غالباً ما يعود اليه ، ومن هنا كان المكان أكثرها التصاقاً بشخصه ، وهو يتأثر به ويؤثر فيه . ولما كان السلوك الإجرامي يعتبر نتيجة لمعاملات إنسانية ونفسية داخل الفرد فلا بد أن يكون لها جذورها في حياته السابقة ، وهذه

(١٤) راجع في هذا الصدد ستيغليز وآخرين ص ٩٤ وما بعدها ، وكذلك بناتل ص ١٧ وما بعدها وهو يقول أن البيئة في المعنى الدارج لعبد الوسط الخارجي المحيط بالشخص ولكن التفصيلين يؤكّدون في تحديد البيئة على الدور الإيجابي الذي يلعبه الوسط في صدد كل كائن يتحرك تحت سلطانه ، وقد أدخل علم الاجتماع الحديث في تعريفه للوسط عنصراً جديداً يقتصر على الإنسان دون غيره من الكائنات . ويلعب إرنست سيليج (ص ١٨٦) الذي أن الأسباب المباشرة للجريمة تتركز في عنصرين الأول البيئة والاخر شخصية الجاني ، والبيئة تعني الظروف الظاهرة وقت ارتكاب الجريمة وتؤدي الى الفعل وتعمل تنفيذه ممكناً أو يمتنع عن التنفيذ ، أما شخصية الجاني حين ارتكاب الجريمة فلها تتألف من مكونات شخصيته في الحياة .

الجدور تستوحى من السكان الذى يعيش فيه ، فهو يعرف عنه ما لا يعرفه عن مكان آخر ويتجاوب معه عاطفيا بما لا يحدث له في غيره . ويلزم أن يكون هناك نوع من الاتصال المستقر الثابت الذى يعطى فرصة كافية للقيم او النماذج السلوكية لترسخ في نفس الفرد . وهذه القيم والنماذج السلوكية هي التى تحدد الطريق الذى يختاره الفرد في حياته . وعند تحديد معالم المكان الذى يكون له ذلك الأثر في الإنسان فإنه يعتبر بيئة له ، على أن هذا لا يعنى أن تكون البيئة هي المكان الذى يقيم فيه الشخص دوما فلا يبرحه ، بل على العكس أن مقياسها هو درجة ما تتركه بصماتها على السلوك طالت مدة وجوده به أم قصرت . وعلى سبيل المثال يمكن اعتبار فترة الدراسة في إحدى مراحل التعليم بيئة للفرد خلال جزء من حياته لما تتركه من آثار في نفسه تنعكس على سلوكه .

وتعشيا مع سر الأمور الطبيعى في الحياة يمكن أن ينطوى تحت مصطلح البيئة ، الأسرة والمدرسة والعمل والطريق والحي الذى يوجد فيه الشخص والريف والحضر ، وجغرافية المنطقة من ناحية الجو وما يتبعه من مواسم زراعية أو تضاريس اليابس والماء ذاتها ، لأن كلا من هذه العناصر قد يترك بصمته بصورة أو بأخرى على سلوك الفرد بصفة عامة ، والذي قد يكون إجراميا .

وإذا أردنا أن تكون لهذه الدراسة صورة واقعية ، فائنا نستعين بالأدوات المتاحة لذلك وهي الإحصائيات الجنائية التى ترسم حقيقة الجريمة وحجمها ، وعن طريقها يمكن الوصول الى العوامل المتصلة بالبيئة ، وفى معرفتها ما قد يسهل البحث بعد ذلك في كيفية مقاومتها للتغلب عليها ، وبدا يكون الاقلال من حجم الجريمة . لهذا مع التنويه بما يوجه الى الإحصائيات الجنائية من نقد ، حيث تعتبر أرقامها تقريبية وتعطى مجرد مؤشر للبحث (١٦) .

ولقد تناولت دراسات الجريمة في البيئة صورتي الريف والحضر مع العناية بتحديد تلك الأماكن من الدولة وبيان صور الاجرام وحجمه وعوامله وخطورته في المدن الصغيرة منها والكبيرة ، مع مقابلة بينهما على أساس من نسبة تعداد السكان .

ومشكلة الجريمة في المدينة الكبيرة أكثر تعقيدا حيث لوحظ وجود مناطق خاصة ذات ثقافة إجرامية عالية لا سيما في اطراف المدن بالقرب من المناطق الصناعية حيث يستقر المهاجرون ، كما تبين تنوع صور الجريمة حسب موقعها من المدينة . وهذه الدراسات تقوم على أساس من البيئة الخاصة التى يختارها الباحث . ولعندما بهذا الاتجاه فإن البيئة العربية سواء في جمهورية مصر العربية أو غيرها تختلف عن البيئة في الدول الأجنبية المتقدمة ، وعلى سبيل المثال فإن مصر ما تزال - رغم تقدم بعض الصناعات - تعتمد أساسا على الثروة الزراعية في حين أن الصناعات متقدمة في الدول الغربية بدرجة ملهلة ، وكان من الطبيعى أن تختلف صورة الجريمة عندنا عن تلك التى تتوافر لديهم .

ويذهب بعض العلماء الى القول بان الفوارق بين الاجرام في الريف والاجرام في الحضر سوف تقل بمرور الأيام بسبب تقدم المدنية في الحياة الحديثة ، لسهولة المواصلات بين البلاد وانتشار وسائل الاعلام وأثرها في العلاقات بين الناس وبالتالي في الاجرام . وهذا القول ان كان فيه بعض الحقيقة الا ان هذا التفسير يراد به ان يشتد التقارب بين الريف والحضر ، وهو يحتاج في مصر بالذات الى أجيال عدة. ويرجع هذا الى ان العماد الأساسي لقالبية الشعب في عمله هو الزراعة ، وهذه مسألة خلقتها الطبيعة ولن تغيرها الأيام ، وقد نشأ الفلاحون وتربوا على تقاليد تمتد جذورها الى آلاف السنين ، وليس من اليسر تغييرها مهما امتدت وسائل المدنية الى أقصى القرى ، لان المطلوب هو تغيير النفس البشرية . وآتيا نذهب اليه هو ما كشفت عنه الاحصائيات الجنائية بوضوح حيث تبين ان الجرائم الدموية التي يعتدى فيها على الأشخاص تمثلت في الريف في العشرينات والثلاثينات والأربعينات والسبعينات ، والجرائم التي يكون موضوعها المال ويراد بها الكسب هي سمة اجرام المدنية .

وبين الجدول التالي جنابات القتل الممدد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٣٨ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٨ ، ١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، وذلك وفقا لما وقع منها في محافظتي القاهرة والاسكندرية ، ثم محافظات الوجه البحري ومحافظات الوجه القبلي :

السنة	١٩٣٨	١٩٤٨	١٩٥٨	١٩٦٨	١٩٧٤
المكان					
القاهرة والاسكندرية	٢٩٩	٢٦٣	١٩٢	١٧٨	١٢٩
الوجه البحري	١١٣٧	٧٧٩	٨٨٧	٣١٥	٢٥٣
الوجه القبلي	١٨٧٠	١٤٥٨	١٨٣٣	٧٢٩	٧٧١

ويكتشف هذا الجدول عن انه الى حوالي أربعين عاما مضت زادت جنابات القتل الممدد والشروع فيه في الوجه القبلي عنها في الوجه البحري ، رغم تدرجها الى خاصية النزول في كل من الوجهين البحري والقبلي ومحافظتي القاهرة والاسكندرية. هذا مع ملاحظة ان تعداد سكان الوجه البحري يزيد على عدد سكان الوجه القبلي ، ويمكن رد النتيجة التي تبين من الجدول الى عادة أثار التي ما تزال قائمة بين اهالي البلاد ، ويتضح هذامن الاحصاء الجنائي الذي يوضح الدوافع التي تبرز خلف جرائم القتل . ومراجعة جدول جنابات القتل الممدد والشروع فيه خلال السنوات ١٩٢٧ حتى ١٩٣٣ في بعض بلاد الحضر والريف - والذي يأتي بيانه - يتضح ان الجزء الأكبر من هذه الجرائم ما زال مسيطرا على المناطق الريفية. وتتناول فيما يلي عوامل الجريمة ذات الصلة المباشرة في البيئة .

عوامل طبيعة البيئة .

تقصد بطبيعة البيئة ما تختص به منطقة معينة من ظروف خلقها الله سبحانه وتعالى ولا دخل لارادة الانسان فيها ، ويمكن اعتبار العوامل الطبيعية في ذات الوقت عوامل جغرافية . ويندرج تحت تلك العوامل جغرافية الارض من ناحية الياس والماء والسهول والمرتفعات ، وتعاقب الليل والنهار ، وحرارة الجو وبرودته ، والأمطار والجفاف بما يترتب على هذا من المواسم الزراعية .

ولقد استلغنت حرارة الجو وبرودته وآثارها على الجريمة أنظار الباحثين ، وقيل أن الجو الحار يساعد على توتر الأعصاب ويضيف تحكم الإنسان في إرادته لما يصنعه من ضيق في التنفس، فتكون انعكاسات الظروف التي تتصل بالفرد سرية دون ترو أو تفكير ، وعنيفة تخرج عن التقدير المألوف ، هذا إذا كانت درجة الحرارة في حدود المقول ، أما إذا زادت مما يتحملة الإنسان عادة فإن أثرها يكون عكسيا ، إذ يترتب عليها الضمول وقلة الحركة ، وقليل ما يسلك الفرد سلوكا مدوانيا ، وفي الجو البارد تنعكس الآية فتكون أعصاب الإنسان أكثر هدوءا وتصرفاته أكثر اندفاعا ، بل أن البرد في حد ذاته ، إذا زامن المألوف ، يدفع الفرد إلى الانزواء في الأماكن الدافئة ، ومن ثم يقل اتصاله بالناس ، وبهذا ذلك يقل الاحتكاك الذي قد يؤدي إلى السلوك الإجرامي .

وهذا الذي سقناه إنما يخص الجرائم التي لمس سلامة الجسم ، كالقتل والضرب ، وتنعكس الآية بالنسبة إلى جرائم الإعتداء على المال ، فهي تقل في الجو الحار وتزيد في الجو البارد ، وبمعنى آخر تقل في شهور الصيف وتزيد في شهور الشتاء، ذلك أن حرارة الجو من شأنها أن تقلل من نوم الأفراد ، الأمر الذي يجعل الظروف غير مواتية لا ارتكاب الجرائم ضد المال ، وعلى وجه الخصوص جرائم السرقات ، أما برودة الجو في الشتاء فإن الليل واتكماش الناس طلبا للدفء يتيح الفرصة للمجرمين - لا سيما اللصوص - لا ارتكاب جرائمهم .

ومع هذا فإنه لا يمكن القطع بأن حرارة الجو أو برودته عامل أساسي في الإجرام ، وإنما قد تكون طرفا مساعدا له يرتبط بغيره من الظروف التي تؤدي إلى الجريمة . فإذا كانت بعض الأبحاث قد أثبتت زيادة الجرائم ضد الأشخاص في الصيف وزيادة الجرائم ضد الأموال في الشتاء بما يتفق مع أثر الحرارة في خلق سحر الجريمة ، فهناك من يقول بأن الجرائم تزيد في الصيف لأن الناس أكثر اتصالا في الصيف مع بعضهم ، الأمر الذي يدعو لبحث ما إذا كانت للحرارة آثار على البناء الإنساني ، ثم يأتي بعد هذا البحث الأكثر أهمية وهو قيام الصعوبة في وسيلة التغلب على هذا التأثير على البناء الإنساني (١٧) .

وإذا نظرنا إلى واقع مصر وجفنا أن جوها بصفة عامة معتدل ، ومع هذا فإن جو الصيف يعد حارا نسبيا في حين أن الشتاء متميز بالبرد نسبيا ، هذا فضلا عن أن الجرم في بلاد الوجهه

البحري أقل حرارة عن بلاد الوجه القبلي . ولا ينبغي علينا ان نفشل في هذا المقام عادات اهل البلاد من تركهم للدويم في الصيف والمبيت على اسطحهما يترتب عليه سهولة اقتناص الفريسة في جرائم القتل اخذا بالثار ، وصعوبة ارتكاب السرقات حيث يصعب على اللص الوصول الى داخل الدار، كل هذا بعكس الشتاء .

ولو اردنا ترجمة اثر حرارة الجو في ارتكاب جريمة القتل العمد على اساس ما يقع بالمحافظات في مصر بالوجهين البحري والقبلي من جرائم لتبين من الاحصائيات الجنائية ان جنابات القتل والضرب المفضي الى الموت ، والضرب الذي تنشأ عنه عاهة مستديمة غالبا ما تقع في شهور الصيف ، كما ان نسبتها في محافظات الوجه القبلي اعلى منها في محافظات الوجه البحري ، الا انه لا يمكن اسناد هذه الظاهرة الى حرارة الجو وحدها ، ذلك ان هناك من الزراعات خلال شهور يوليو واغسطس وسبتمبر ما يكون عاليا ويساعد على اقتناص المجني عليه كما يساعد على هروب الجاني ، بعكس باقى شهور السنة ، ولا يجب ان ننسى عواقب النار وما يقتضيه من ارتكاب جرائم القتل في المواسم والاعياد الدينية ، وعرف الثر هو الذي جعل جنابات القتل العمد تزيد في الوجه القبلي عنها في الوجه البحري . اما بالنسبة الى جرائم المال فلا يمكن ان يستشف من الاحصائيات قاعدة عامة يمكن ربطها بحرارة الجو او برودته ، ومما يستلفت النظر في الاحصائيات ارتفاع نسبة الجرائم الجنسية في الجو المعتدل .

ولعل اقل عوامل الطبيعة تأثرا في وقوع الجريمة هو وقت وقوعها ، فهي تحدث في اية ساعة من ساعات الليل او النهار . ومع هذا فان هناك من الجرائم ما يكون اختيار الجاني لوقت ارتكابها ليلا مما يساعده على اتمامها في الخفاء والافلات من يد العدالة ، فالليل هو وقت الهدوء والنوم للناس يصد عنائهم من العمل ، يعمل فيه المجرمون وهم في مأمن كبير من اعين الرقيب ، وليست الجرائم على درجة واحدة من اختيار الليل لارتكابها وانما يختلف الامر وفقا لموضوع الجريمة . فالجرائم التي يراد منها الاعتداء على الأشخاص لن يوفر الليل لها ظرفا خاصا الا في صور مستثناة ابرزها القتل اخلا بالثار او انتقاما ، ولهذا يستوى ان يقع في الليل او في النهار . اما الجرائم التي يكون موضوعها الاعتداء على المال فان الجاني غالبا ما يتخذ من الليل ستارا لارتكاب فعلته ، وهو ما حدا بالمرجع الى اعتبار الليل ظرفا مشددا في تلك الجرائم .

وبين من الاحصائيات الجنائية في مصر من السنوات من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ان جنابات القتل العمد والخطف تزيد نهارا عنها ليلا ، وان جنابات السرقة وجنابات الحريق وجنابات السرقة تزيد ليلا عنها نهارا ، وهو امر ملاحظ بصفة مضطربة خلال الخمس سنوات السابقة . على ان هذا لا يقطع بالثر ظرف الليل على تلك الجرائم ، فلقد كان الامر مغايرا لما تقدم في الثلاثينات بالنسبة لجرائم القتل العمد ، فلقد بلغ مجموع ما وقع فيها ليلا في السنوات العشر من ١٩٣٠ حتى ١٩٣٩ أكثر من ضعف مجموع الجنابات نهارا ، ثم انه فضلا عما تقدم فان النهار - وتقصده به فترة انتشار الضوء - يطول كثيرا بالنسبة الى الليل - اي وقت الاظلام - خلال شهور الصيف ، على العكس من شهور الشتاء ، وهو ما ينبغي ان يؤخذ في الاعتبار عند حساب عدد الجرائم .

ويعتبرنا على وجه الخصوص العلاقة بين طبيعة البيئة والجريمة في المواسم الزراعية والطبيعة الجغرافية للأرض .

المواسم الزراعية :

تعتمد مصر في الجانب الأكبر من اقتصادها على الإنتاج الزراعي، وغالبية سكانها من الفلاحين الذين يعتمدون في حياتهم على الزراعة ، وتتم الزراعة في مصر في ثلاث دورات رئيسية : الصيف والقبلي والشتوي ، وتعتمد الأراضي الزراعية في ردها على مياه النيل ، وإذا كان عماد الفلاح في حياته على الزراعة ، وحياة الزراعة متوقفة على الماء ، لنصورنا مدى أثر الزراعة والمياه في حياة الفلاح . والزراعة في مصر قد تكون سببا مباشرا للجريمة ، وهي كذلك ظرف مهم لارتكاب الجرائم .

فالفلاح المصري يحرص على زراعته حرصه على حياته، وإي شر أو أذى يصيبها إنما يصيبه في قوام معيشته ، والعدوان على زراعة الفلاح يمثل في قطعة الأرض التي يقوم بزراعتها والحياة التي تستخدم في ردها . والرقعة الزراعية في مصر محدودة ولا تتجاوز ٤ ٪ من مساحة الدولة كلها . ولهذا فإن ما يضع الفلاح يده عليها مناهي حرص ويتفاني في المحافظة عليه ، وإي مساس بالأرض التي يزرعها يدفع به إلى حمايتها للدرجة ارتكاب أخطر الجرائم : وتمثل ذلك المساس في صورة من التنتين الأولى منهما محاولة من جانب المالك أو نحوه رفع يده عن أرضه لأي سبب من الأسباب المشروعة وغير المشروعة ، **والصورة الأخرى** محاولة بعض الجيران الافتئات على الحدود للأراضي الزراعية ، وضم بعض الأرض إلى الجزء من الأرض الذي يحوزه .

أما بالنسبة إلى مياه الري فإنه إلى ما قبل إقامة السد العالي كان هناك موسم فيضان النيل . حيث توافر المياه فيستطيع كل فلاح ري أرضه في يسر وسهولة ، وهناك الموسم المقابل الذي تقل فيه المياه وتقوم فيه الحكومة بتوزيع مياه الري على البلاد في فترات محددة ، في خلال تلك الفترات التي كثيرا ما تكون قصيرة فيحصل التزاخم بين الفلاحين حول أسقية الري ، ومن الطبيعي أن يحصل الخلاف حول هذا الأمر الحيوى الهام الذي قد يتطور إلى معارك تنشأ عنها أخطر الجرائم .

هكذا عدا ما يمكن أن يحدث من جرائم لأسباب أخرى ، كالخلاف حول قيمة الإيجار أو المزارعة ، أو طرد مستأجر من أرضه ، أو توقيع حجوزات على المحصولات الزراعية ، أو الخلاف حول استخدام أدوات الزراعة أو أدوات الري كالألات الميكانيكية أو أدوات رفع المياه . وقد تكون الماشية التي تستخدم في الزراعة سببا لبعض الجرائم ، لا سيما عند الخلاف على استعمالها ، بل قد تكون هي بذاتها موضوعا لجريمة ، كالإضرار بها ضررا جسيما أو قتلها .

والمواسم الزراعية هي بدورها عامل مهم في الجرائم ، ففي شهور الصيف على وجه الخصوص يكون إنتاج بعض المحصولات الزراعية والإعداد لأنواع أخرى من الزراعة . ولهذا فإنه إذا كان

قد سبق القول بان حرارة الجو في شهور الصيف من عوامل الاجرام فان الظروف الزراعية بدورها تعد من عوامله . ففى شهر مايو يكون حصد القمح ووضعه في الاجران تمهيدا لعملية فصل حبه من قشه ، وتكون الفرصة مواتية حينئذ لارتكاب جرائم الحريق ، لا سيما ما كان منها انتقاما ، وسرقة المحصولات ، بل والقتل ، حيث يتيسر اقتناص المحنى عليهم بسبب عادة الفلاحين بالمبيت في الاجران اثناء جمع المحاصيل . وفى شهر مايو ايضا تكون شجيرات القطن قد اخذت تكسو الأرض ويكون أشد ما يصيب الفلاح اطلاقها انتقاما . وفى أغسطس وسبتمبر يجنى القطن ويحصد الدرة ، مما يسفر عن ارتكاب اخطر جرائم السرقات بالنسبة الى محصول القطن ، وكثيرا ما تكون مصحوبة بجرائم القتل نتيجة للمقاومة . وفى فترات بلور البلور يكون الخلاف بين الفلاحين ، لا سيما حول الحدود ، بما يؤدي الى اخطر الجرائم ، فببدر الدرة الشامى في سبتمبر وببدر القمح والفول والبرسيم في اكتوبر . ومما يلاحظ ايضا ان الدرة الصيفية خلال يونيو ويوليو وأغسطس تكون متكالفة الأعواد طويلة السيقان ، ويقابلها في موسم الشتاء زراعة القصب الذى يفرس في مارس وابريل ويحصد في ديسمبر في الوجه القبلى . فالسيقان الطويلة تساعد على ارتكاب جرائم القتل حيث يتيسر للجناة الاختفائها والهرب بعد ارتكاب الجريمة ، كما ان هذه الحقول تكون موضوعا لجرائم الحريق .

ويعطى الجدول التالي صورة من جنابات الحريق العمد خلال السنوات ١٩٧٢ و ١٩٧٣

و ١٩٧٤ (١٨) :

السنة	مجموع الجرائم	وقت الجريمة		الانتماء	أهل شهور السنة مرتبة تنازليا			مكان الحريق تنازليا			محل وقوع الجريمة تنازليا			
		نهارا	ليلا		مجهول	ساوم	١	٢	٣	١	٢	٣	١	٢
١٩٧٢	٧٨	٣٥	٤٣	٤٦	٢٢	مايو	يونيه	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٣	٩٦	٢٢	٤٤	٤٣	٢٣	مايو	ابريل	يوليو	مسكن	مزارع	شركة	أثاث	محاصيل زراعية	مسكن
١٩٧٤	٣٧	١٣	٢٤	٢٥	١٢	مايو	يناير	يونيه	مسكن	شركة	مزارع	أثاث	مدارية	بضائع

واعلى نسبة لحرفة المهتمين هي للمشتغلين بالأعمال الزراعية والصيد في البحر والبر وأعمال الغابة ومن اليهم ، وبعدهم اصحاب الحرف والصناعة والعمال والمشتغلين في عملية الانتاج والفلة والمتالين ، والذين لم يصنفوا في مكان آخر .

يتضح من الجدول أنف البيان أن صور جريمة القتل العمد تحتل المزارع بالنسبة الى المكان المركز الثاني أو الثالث ، وأن موضوع الجريمة وكونه محاصيل زراعية يحتل بدوره المركز الثاني ، وأن الجريمة غالبا ما تقع في شهور الصيف ، الأمر الذي يدل على وجود علاقة كبيرة بين المواسم الزراعية وإنتاج الحاصلات وجريمة الحريق .

ولا تختلف الصورة بالنسبة الى جنائية اطلاق المروعات وفق الجدول التالي :

السنة	مجموع الجنائيات	وقت الجريمة		الأشخاص		أعلى شهور السنة تنازليا		
		ليلا	نهارا	مجهول	معلوم	١	٢	٣
١٩٧٢	٧	٧	-	٦	١	يوليو	أغسطس	سبتمبر
١٩٧٣	١٧	١٦	١	١٥	٢	يوليو	يوليو	أبريل
١٩٧٤	٧	٦	١	٦	١	أغسطس	يوليو	مايو

ويتضح من هذا الجدول أن شهور المواسم الزراعية هي التي تقع فيها جرائم اطلاق المروعات ، وأن المتهمين ان لم يكونوا كلهم من المشتغلين بالأعمال الزراعية فانهم يمثلون الغالبية ، والجزء الأكبر من جنائيات اطلاق المروعات يتم ليلا ، ولذلك فإن الاتهام فيها يكون نادرا أو غالبا ما تحفظ القضايا مؤقتا لعدم معرفة الفاعل .

وضيق رقعة الأرض الزراعية ، وما يتركه من أثر في الحياة الاقتصادية ربط بينه وبين نوع من الزراعات طويلة السيقان ، وأفرغ نوعا معينا من الجرائم هي جرائم الخطف ابتغاء الحصول على فدية من ذوى الجنى عليه . وقد تركزت جنائيات الخطف في مصر في محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج وقتنا بوجه خاص ، حيث تكونت عصابات الخطف المسلحة التي يهدف أفرادها الحصول على المال ، وغالبية الجنى عليهم في تلك الجرائم من البالغين ، وتتراوح الفدية للأفراج عن المخطوف بين مائة والف جنيه . وقد ساعدت أنواع معينة من الزراعات ذات السيقان الطويلة على نشأة ما يسمى بالعصابات الموسمية حيث توجد في مواسم زراعية معينة وتنتهي بانتهاء الموسم . ويسهل اختفاء الجناة واختفاء الجنى عليهم في تلك الزراعات ، كزراعات القصب في محافظة قنا وزراعات اللوز في محافظة أسيوط وسوهاج (١٩) .

والى جوار هذا توجد العصابات المحترفة التي تتكون من بعض الخارجين على القانون وتبقى بصفة دائمة ، يستغلون بدورهم المواسم الزراعية في ارتكاب جرائم الخطف ، ويمتصمون بالجبال حيث يقيمون إقامة دائمة . وهي تتركز في محافظتي أسيوط وسوهاج . ويحول مكان إقامتهم

دون وصول رجال الشرطة اليهم. بسبب وجود المفارقات والدروب التي يجهلونها ، والتي يعتمد بها الجرمون ويقعون في أعلى الجبال ، حتى تستهلك مطاردتهم جهدا كبيرا من رجال الامن ، ويستطيعون من امكانهم السيطرة على كل قوة مهاجمة لهم (٢٠) .

جغرافية البيئة :

الانسان هو الشئ الاصلى في الظاهرة الاجرامية وهو العامل المحرك للحدث المكون للشئ الثاني ، أى الجريمة حسبما وقعت في المحيط الخارجى، والانسان وليد البيئة والظروف المحيطة به، بمعنى ان ظروف البيئة هي التي تهيم بالسلوك الانسانى على نحو معين ، لدرجة انه يمكن القول بان تغير الظروف من شأنه ان يؤدي بدوره الى تغير السلوك الانسانى سواء في هذا اكان سلوكا حميدا او سلوكا غير قويم . والانسان في هذا الصدد شأنه شأن بلرة النبات فانها ان وضعت في الارض فقد تصادف تربة صالحة تتفاعل معها وتنبت وتستوى نباتا سليما ، او لا تصادف هذه التربة فتتشنأ معتلة ان لم يقدر لها عدم النبت اطلاقا بسبب عدم ملائمة الظروف التي وجدت فيها . وكما يقال ان لكل بيئة او مجتمع الجريمة التي تتوافق معه .

وامعمال القامدة آتفة البيان لا بد وان ينتهي بنا الى ان الانسان لو شاء له قدره ان يسلك سبيل الجريمة فان اختيار نوعيتها يكون متوائما مع طبيعة المكان الذى يوجد فيه والظروف المحيطة به . فمثلا اذا كان الفرد يشتغل بالاعمال الزراعية فان الجرائم التي يرتكبها تكون في نطاق تلك الاعمال ، ومن هذا القبيل بالنسبة الى جرائم الامتداء على المال جرائم اطلاق المرووهات وطريق المحصولات . واذا كان الشخص عاملا فنيا ذهب جرائمه نحو الاعمال الصناعية التي تتعلق بالمصانع الصغيرة والورش ، واذا كان يعمل بالخدمة لدى الافراد كانت جريمته في غالب الاحيان سرقة مال مخدومه .

ومما يتصل بالبيئة في عدد تحديد السلوك الاجرامي الذى يتخذه الشخص هي الطبيعة الجغرافية للبيئة التي يوجد فيها وتقصده بهذا طبيعة الارض، وما اذا كانت زراعية ام صحراوية اى مسطحات من المياه (٢١) ، وكذلك يراد بذلك الموقع من حدود الدولة لما يساعده من وقوع نوع خاص من الجرائم . ولقد سبق ان اشرنا عند الكلام على جريمة الخطف كيف يتخذ الجناة من البيئة الزراعية السيقان الطويلة لارتكاب الجريمة، ومن الجبال والمفارات اماكن اخفاء المجنى عليهم واختفائهم هم من امين رجال الامن ومقاومة كل من يتصدى لقرهم . وقد لاحظنا ان جريمة الخطف استيقاء اقتضاء فدية تتركز في المحافظات المتاخمة للمناطق الجبلية .

(٢٠) ومن بين تلك الصعوبات صعوبة الخطف في اسبوط سنة ١٩٤٥ ، وصعابة حادثة الاممى بمحافظة سوهاج سنة ١٩٤٦ ، وصعابة مصطفى هاشم رشيد الصعيدي بمحافظة سوهاج سنة ١٩٥٦ الى سنة ١٩٦١ (الرجع السابق ص ٢٩) .

(٢١) على ما سبق القول لفت كاتليه النظر الى جغرافية الجريمة وطريقة الحياة والتأثير العام وانها تختلف في الجبال عنها في السهول الزراعية او المناطق البحرية حيث يوجد جمهور الصيادين (ستيفلي وليفاسير ص ٨٠) .

وإذا كانت غالبية سكان جمهورية مصر العربية يعتمدون في وادي النيل - أي في الأرض الزراعية على شاطئ النيل - والجرائم التي ترتكب من بعض أفرادها إما أن تتسم بطابع الريف أو تكون من جرائم الحضر ، فإنه إلى جوار هذا يوجد فريق من السكان يقيمون في الصحراء أو هم على حدود المناطق الزراعية ، وكذلك يقيم فريق آخر على شواطئ البحيرات الواقعة في شمال الجمهورية . وتطبع الطبيعة الجغرافية لتلك المناطق نوعية الجرائم التي ترتكب فيها . وآية هذا دراسة من سمات الجريمة في محافظة البحيرة وأخرى لسمات الجريمة في بحيرة المنزلة .

تميز محافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية (٣٢) بأنها تضم داخل حدودها منطقة ساحلية متصلة بالبحر الأبيض المتوسط ، وأخرى زراعية تتصل بباقي الأراضي الزراعية الدلتا ، وثالثة صحراوية كمدخل للصحراء الغربية ، ولهذه المحافظة خاصية أخرى حيث تعتبر منطقة هجرة داخلية حيث يجري فيها استصلاح الأراضي القابلة للزراعة ، ويوجد بها بحيرتان متسعان هما بحيرتا ادكو ومريوط . ومن الطبيعي أن يترتب على هذه الطبيعة المختلفة في جغرافية الأرض وجود فئات من السكان يختلف عمل البعض منهم عن الآخر ، فكما يوجد الفلاحون يوجد البدو ، وكذلك نجد من يشتغل بأعمال الصناعة المختلفة التي قامت في هذه المنطقة .

ويعتينا في محافظة البحيرة الأقليم الصحراوي منها الذي يقطنه نوعان من القبائل ، قبائل مستقرة وقبائل رحل ، وهم جميعا يفتقر عليهم الفقر بسبب شيق مصادر الرزق ، ومن ثم فهم غالبا لا يستقرون في مكان وإن كانوا يتمسكون دوماً بانسابهم القبلي وخضوعهم لعرف القبيلة ويعدمون من أجهزة الدولة ، ومن ثم تتسم جرائمهم بالطابع القبلي والمتفق مع جغرافية الصحراء . هذا وقد ظهر من استقراء الحوادث في تلك البيئة الصحراوية (٣٣) أن جرائم القتل والشروع فيه ترجع دوافعها إلى البرقة أو الثأر أو النزاع الطاريء أو النزاع على الأرض ، وغالبيتها من نوع الجرائم الانتقامية . وكانت طبيعة هذه المحافظة ومشروعات استصلاح الأراضي الصحراوية وزراعتها معا دأ إلى تهجير عديد من الأفراد وعمل الترحيل إليها لاسيما بعد حرب ١٩٦٧ ، وأدى هذا إلى ازدياد مستمر في معدل جرائم القتل العمد والشروع فيه والضرب المغضى إلى الموت والذي ينشأ عنه عادة مستديرة والسرفقات بالأكراء والحريق العمد والاختلاس .

وأبرز الجنايات وضوحاً في جغرافية محافظة البحيرة هي جنايات سرقات الأسلاك والكابلات ، حيث كان عددها ست جنايات عام ١٩٧١ وأصبحت ١٥ جناية عام ١٩٧٢ و ٢٠ جناية عام ١٩٧٣ ثم نقصت إلى ٥ جنايات عام ١٩٧٤ . وترجع تلك الجرائم إلى اتساع رقعة المحافظة ومتاخمة حدودها لخمس محافظات ، وامتداد الأسلاك التليفونية والكابلات لمسافات طويلة في مناطق

(٢٢) عبد العزيز محمد التلطي ص ٣٦ .

(٢٤) عبد العزيز محمد التلطي ص ٤١ .

غير أهله بالسكان ، ويصعب وضع حراسة عليها بالإمكانات المحلية ، ودخول الكهرباء لبعض قرى المحافظة مما دفع بعض العمال إلى سرقة الاسلاك التليفونية واستخدامها في توصيل الكهرباء لمنازل بعض المقيمين بتلك القرى .

ويبدو الرجفرافية المحافظة على وجه خاص في صدد اتصالها بحدود الصحراء الغربية ، حيث تكون هي المدخل لارتكاب جرائم المخدرات لا سيما جلب المواد المخدرة ، وبين هذا يوضح من مقارنة تقريبية لجنايات المخدرات في محافظات البحيرة والشرقية والإسكندرية لاتصالها بالحدود ، وبين محافظات القليوبية وكفر الشيخ والمنوفية وبني سويف والمنيا خلال عامي ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ .

المحافظة	السنة	١٩٧٣	١٩٧٤
البحيرة	١١٤	١١٤	١١٤
الشرقية	٣٤٤	٣٤٤	٢٩٨
الإسكندرية	٤٠٢	٤٠٢	٤٠٣
القليوبية	١٢٨	١٢٨	٨٣
كفر الشيخ	٥٣	٥٣	٢٠
المنوفية	٧٠	٧٠	٦٦
بني سويف	٤١	٤١	٢٨
المنيا	٨٩	٨٩	٥٩
قنا	٦١	٦١	٦٢

والثال الثاني لأثر البيئة في السلوك الإجرامي يتضح من دراسة سمات الجريمة في بحيرة المنزلة . فهذه البحيرة التي تزيد مساحتها على ثلاثمائة ألف فدان تم تجفيف جزء صغير منها ، وتدخل في حدود خمس محافظات بمصر الشرقية والدقهلية ودمنياط وبورسميد والإسماعيلية ، ويوجد داخل البحيرة العديد من الجزر الطينية والرملية . وتنمو النباتات بكثرة في الأراضي المحيطة بالبحيرة في حزام عريض يغطي الماء على شاطئ البحيرة ومثبتة في القاع فضلا عن نباتات طافية على سطح البحيرة . وهناك عديد من أنواع الطيور المائية وهذه قد تكون من عوامل السلوك الإجرامي بسبب التنافس على صيدها باعتبارها موردا للرزق كالشأن بالنسبة لأسماك البحيرة . ونظرا للطبيعة الخاصة لبحيرة المنزلة كان من الضروري أن تكون سمات الجريمة متوافقة مع تلك البيئة وهو ما يتضح من النقاط التالية .

ترتكب أغلب جرائم القتل على سطح الماء حيث يتم إخفاء الجثة في باطن البحيرة بعد تنفيذ القتل . وتنتشر جرائم الخطف حيث يسهل إخفاء الجاني عليه في الجزر العديدة المنتشرة داخل البحيرة والتي لا يمكن حصرها أو كشفها بسبب حجبتها بالحشائش والنباتات المائية ، وتجعل من السبر الوصول إليها . ولذا السبب يسهل ارتكاب جرائم السرقات وعلى وجه الخصوص إخفاء المروقات . وكذلك الحال بالنسبة إلى الجرائم الخفية حيث يسهل تهمة المكان لها في البحيرة بعيدا عن مراقبة الشرطة ، وكذلك بالنسبة لتعاطي المخدرات ، وأخطر الجرائم التي ترتكب

في البحيرة هي جرائم التهريب سواء كان موضوعها الأسلحة والذخائر أو المخدرات أو المحصولات والسلع التموينية (٢٤) . ومن أبرز الجرائم كذلك ما يخالف أحكام قوانين الصيد وتراخيص الوحدات المالية لجرائم صيد الأسماك بالمخالفة لمواصفات المقاس والطول واستعمال مراكب الصيد بدون ترخيص ، ومزاولة صيد الطيور بدون ترخيص . ومن أهم الجرائم سرقات الماشية بمعرفة عصابات مسلحة حيث تجرى سرقتها من القرى المتاخمة للبحيرة ، ثم إخفائها في الجزر داخل البحيرة حتى لا يسهل الوصول إليها . ويبين هذا من الجدول التالي الذي يبين جنح سرقة المواشي في مركز المنزلة بالنسبة إلى جملة الجنح به خلال المدقم ١٩٧١ إلى ١٩٧٥ (٢٥) .

السنة	جنح سرقة المواشي	مجموع الجنح عامة
١٩٧١	١٦	٣٦
١٩٧٢	١٢	٤٣
١٩٧٣	٩	٤٠
١٩٧٤	١	٤
١٩٧٥	٩	١٥

وللموقع الجغرافي لبحيرة المنزلة اثره في السلوك الاجرامى والحد من قدرة رجال الامن على مكافحته ، حيث يساعد هذا الموقع على صعوبة الوصول اليها وخاصة في فصل الشتاء نتيجة عدم صلاحية الطرق المؤدية الى هناك ، وكثرة الأمطار والأحوال التي كثيرا ما تعرق عمل رجال الحفظ عن مطاردة المجرمين والقيام بالدوريات ، فضلا عن انعدام الوسائل لدى الشرطة للتعامل فوق السطح المائي ، الأمر الذي يشجع المجرمين على ارتكاب الجرائم والاختفاء داخل جزر وأحراش الجزيرة (٢٦) .

وقد أسفر موقع بحيرة المنزلة وطبيعتها الجغرافية عن اعتماد غالبية الأهالي في معيشتهم على الصيد ، وهي مهنة غير ذات مورد ثابت ، وقد لا تفي بالاحتياجات الضرورية للمعيشة ، وقد ارتبط هذا بالجهل الذي لا يقف حاللا أمام النزعات الإجرامية للفرد ، وآية هذا أن غالبية المحكوم عليهم في القضايا من اللقراء الملعدين (٢٧) .

وتركزت عوامل الاجرام في بحيرة المنزلة حول عوامل ساعدت عليها البيئة الجغرافية للمنطقة (٢٨) ، ذلك بسبب سمة مساحة البحيرة التي يقع بها ارسالة وخمسون جزيرة أهلة

(٢٤) الرجوع السابق ص ١٦ وما بعدها .

(٢٥) الرجوع السابق ص ٥٠ .

(٢٦) الرجوع السابق ص ٦٠ .

(٢٧) الرجوع السابق ص ٦٢ .

(٢٨) الرجوع السابق ص ٦٤ .

بالسكان ، يتنافس الأهالي فيها على وضع اليد على تلك الجزر واستغلالها استفلافاً غير مشروع ، بما يسفر من ارتكاب جرائم القتل والشروع فيه ، هذا بالإضافة إلى التنافس على مناطق الصيد ، وسهولة السطو على المراكب بواسطة العصابات المسلحة واخفاء المروقات واختفاء الاشقياء .

ولا شك في أن الموقع الجغرافي لحدود الدولة يساعد على ارتكاب أنواع معينة من الجرائم ، وعلى سبيل المثال في الجمهورية العربية الليبية تقع محافظة غربان في الجنوب الغربي من الجمهورية ، وتشتبك في حدودها مع تونس والجزائر ، وقد ترتب على هذا أن ظهرت فيها جريمة التهريب ودخول البلاد بوجه غير شرعي . فيعتمد البعض إلى اتخاذ التجارة في السلع المهربة مورداً لهم ، خصوصاً بالنسبة إلى مواد التموين والسلع الكهربائية والملابس السخنة . وهم يستخدمون في ارتكاب الجرائم السيارات ، بل يستخدمون الدواب في المناطق الجبلية . ومن ناحية أخرى فإن توافر فرص العمل وارتفاع الأجور يحمل على مخالفة القانون رقم ١٧ لسنة ١٩٦٢ ، بشأن دخول البلاد . وبالإضافة إلى ما تقدم فإن منافذ الخروج أو الدخول إلى البلاد تكون محلاً لارتكاب نوعيات خاصة من الجرائم تقع جرائم جلب المواد المخدرة عن طريق الموانئ والمطارات (٣٦) .

بيئة الريف والحضر :

قلنا في أكثر من مناسبة أن الإنسان كالحية يتفاعل ويتفاعل مع الوسط الذي يوجد فيه والبيئة المحيطة به بما تحويه من كائنات وعوامل طبيعية . ومن المشاهد دائماً أن كل مجموعة من الأفراد توجد في مكان ما وتربط بينها ظروف متقاربة يتسم سلوك أفرادها بقواعد متقاربة نتيجة لما استقر في نفوسهم ومن قبلهم أصولهم - من مجابهة مختلف مشغول الحياة يتصرف معين ، ومن هنا تنشأ لكل بيئة تقاليد خاصة تحكم العلاقة بين أفرادها لتقائماً دون اجتهد من جانبهم لمعرفة الطريق الذي ينبغي سلوكه . ولا شك في اختلاف كل بيئة عن الأخرى في بعض ظروفها وتبعاً لطريق سلوكها ، فليس هناك من بيئة تطابق غيرها مطابقة تامة ، على أن هذا لا يمنع من التقارب بين بعض البيئات مادامت تتحد في السمات الأساسية لكل منها .

وإبرز أنواع التفرقة البيئية بمصر هي البيئة الريفية والبيئة الحضرية بما ينم عن أثره على سمات الاجرام في الريف وفي المدن ، بسبب التقاليد الراسخة في الريف والصيغة المادية التي يتسم بها السلوك في المدن (٣٧) . هذا بالإضافة إلى وجود البيئة الصحراوية أو البدوية التي تحكمها تقاليد خاصة . وللتفرقة بين القسرية والمدنية أثرها في جرائم القتل بوجه خاص وعادة

(٣٦) منصور غيث قنديل ، وقد أورد أن جرائم المخدرات في عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ في طرابلس هي ٧ ، ٢٤ في بنغازي هي ٢٤ ، ٤٤ في التواهي .

(٣٧) راجع ما سبق قلنا ذكره عند الكلام من القسود بالبيئة في موطن البحث .

الثار المتأصلة في نفس أهل الريف ، وكذلك فيما يتسم به أجراء المرأة والأحداث في كل من البيئتين .

وتذهب آراء الباحثين في الغرب إلى تأييد التفرقة بين أجراء الريف وأجراء الحضرساء من ناحية النوعية أو طريقة التنفيذ ، فطابع الأجراء في الريف هو الاعتماد على الأشخاص في حين أن طابع أجراء المدينة هو جرائم المال ، فضلاً عن الوسائل المستخدمة في طريقة تنفيذ الجريمة في كل من المنطقتين . ويقف بعض العلماء من هذه النتائج موقف المعارضة ، ومع هذا فليست هناك أدلة علمية قاطعة على ذلك (٢١)

إن الحياة في القرية المصرية تختلف عن الحياة في المدينة اختلافاً كلياً ويرجع هذا في أساسه إلى اختلاف تكوين كل منهما ، ففي القرية المصرية يسيطر على العلاقات بين أفرادها إلى اليوم مبدأ التعاون ، وذلك للروابط الوثيقة بين عائلاتها والمصالح المشتركة التي تجمعهم وطبيعة الحياة التي يعيشونها ، ولعلنا نلاحظ هذا في تضايف أبناء القرية نحو أي خطب يقع بواحد منهم . أما في المدينة فالأمر على خلاف ذلك حيث تسيطر النزعة الفردية على العلاقات بين أفرادها وتقل الصلات حتى بين أفراد العائلة الواحدة ، وكلما اتسع العمران وزادت مسافات الناس في المدينة وهنت العلاقات والاتصالات . هذا من ناحية ، وإلى جوارها يقوم الجهل أو التعليم كعامل هام في التفرقة ، فلا شك أن نسبة الجهل التي تسود مجتمع القرية أكبر بكثير من نسبتها في المدينة ومن أجل هذا كانت هناك سمات تميز أجراء الريف من أجراء المدن .

وطبيعة الأجراء في الريف تختلف عنه في المدينة ، فالأول تحركه العلاقات الشخصية في حين تدفع الآخر العوامل المادية . ففي القرية نادراً ما يكون الدافع إلى الأجراء هو الكسب المادي ، وذلك بسبب التضامن بين أفرادها مما لا يجعل الحاجة الملحة وجوداً ، ولأن الفلاح بطبيعته قانع صابر يرضيه أقل القليل . وعلى هذا فإن الأجراء في الريف تدفعه عوامل أخرى تجعل موضوعه دائماً الأشخاص كالقتل والضرب ، وهو واقع في بعض الأحوال على المال فلا يكون القرض منه الكسب المادي . وفي المدينة - حيث لا روابط ولا تقاليد - يكون الصراع على كسب العيش ، ولا يجد قوت يومه من لا يعمل ، وإن أعوزه المال فقد يلجأ إلى الجريمة ويهدفه الحصول عليه وتدفعه الغريبات الشديدة في المدينة وسائر وسائل التمتع إلى طلب المزيد من المال ، ولهذا تكثر الجرائم ضد الآداب .

وإذا كانت عواصم المحافظات في مصر تدخل في حدود المدينة ويطلق عليها البندر أو القسم وكانت البلاد الريفية المحيطة بها يطلق عليها بلاد المركز فإن الإحصائيات التالية تبين لنا سمة طبيعة الأجراء في الريف والمدن .

(٢١) ستيغليز ص ٨١ وما بعدها حيث يعرف القيس التفرقة بين الريف والظهر ، ويشير إلى المناطق الريفية الصحراوية ، ولغواحي المدينة والمناطق القاسية خارجها ، وتقسيمات المدينة في ذاتها ، والتفرقة بين المدن الكبيرة والمدن الصغيرة . راجع كذلك بوزا ويتال ص ٩٢ وما بعدها .

عدد جنائيات القتل والشروع فيه في بعض الجهات
من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣٣

السنة	١٩٢٧	١٩٢٨	١٩٢٩	١٩٣٠	١٩٣١	١٩٣٢	١٩٣٣
اسم الجهة							
بندر طنطا	٨	١٥	٦	٦	٦	٤	٧
مركز طنطا	٤٩	٥١	٥٠	٥٢	٥١	٥١	٦٣
بندر الفيوم	٨	٤	١٢	٦	٦	٦	٩
مركز الفيوم	٣٦	٢٥	٣٨	٥٣	٤٨	٥١	٥١
بندر أسيوط	٧	٦	١١	٦	١٢	٧	١٠
مركز أسيوط	٢٥	٣٤	٢١	٤١	٣٥	٢٣	٣١

وبين من هذا الجدول ان جنائيات القتل والشروع فيه هي في المراكز دائما - سواء في الوجه البحري أم في الوجه القبلي - وهي أعلى منها في البنادر ، بل ان الحد الأدنى دائما في المراكز أعلى من الحد الأقصى بالنسبة للبنادر . ولم تنفر النتيجة بالنسبة الى الدراسة التي أجريت (٣٢) من توزيع الجنائيات والجنح في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية سنة ١٩٤٧ .

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف نسمة من
السكان في جرائم الجنائيات موزعة حسب المناطق
الحضرية وغير الحضرية في مصر عام ١٩٤٧

أنواع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
قتل وشروع فيه	١١٢٨	١٧٥٠
ضرب افضى الى موت	٩٦	١٦١
ضرب نشأت منه عاهة	٧٥٠	٨٥٠
سرقه وشروع	٨٨٦	٦٢٠
حريق واتلاف وتسميم مواشى	٢٨٤	٥٩٢
نشق وهتك عرض	٣٧٢	٠٦٥
رشوة وتزوير	٦٣٤	١٩٥
مخدرات	٨٧٠	١٤٧

جدول بيان ما يخص كل مائة ألف من السكان
من جرائم الجنيح موزعة حسب المناطق الحضرية
وغير الحضرية عام ١٩٤٧

نوع الجرائم	المناطق الحضرية	المناطق غير الحضرية
تزوير	٢٨٦	٢٨٠
هتك عرض وفعل فاضح	٤٥٦	٠٣٧
سرقة	١٠٤٠٦	١٩١٠٧
نصب وخيانة امانة	١٣٩٢٦	٧٠٥٩
تسميم مواشي	٠٥٠	١١١
اقتلاع مزروعات	١٩٤	١٧٤٣
تشرد	١٥٤٧٢	١٥٥٨
رشوة	٤٤٦	٠٧٥

وهذا ايضا مبين من بعض الجنايات والجنيح في البنادر والمراكز سنة ١٩٧٠ حسب ما ورد في تقرير وزارة العدل .

الجنايات

نوع الجريمة	قتل	غرب	غرب	سرقة	حريق	رشوة	فسق وهتك عرض	اختلاس	مود	مخدرات
البندر والمركز	٦٤	١٦	٦٨	١٣	٣	٩	١٧	٨٠	٢٦	٤٠٥
المراكز	١١٥	٢٧	٨٩	١٩	١٣	٢	٩	١٣	٥	٢٠٠

الجنيح

الجريمة	تزوير	هتك عرض وفعل فاضح	سرقة	تسميم مواشي	اقتلاع مزروعات	تشرد
البندر والمركز	١١٠	٨٣	٥٢٨٩	١١	٥٢	١٦٧٥
المراكز	٥	١٠	٢٩٤٦	٤	١٨٩	١٨٥

ومما ورد بتقرير الأمن العام بمصر عن سنة ١٩٧١ من الجنايات في البنادر والمراكز البيان التالي :

الجريمة	قتل وشروع فيه	سرقة وشروع	حريق عمد
المراكز	١٢٤	١١	٧
البندر	٤٣	١١	٤

والبينات آتفة البيان تكشف بجلاء عن أن سمة الاجرام في الريف تغلب عليها جرائم الاعتداء على الاشخاص ، وأن سمة الاجرام في المدن هي المادية برغم مرور السنين .

ومن دراسة من المحكوم عليهم في سجون طنطا والقاهرة والاسكندرية يوم ١٩٦٠/٨/٣١ تبينت الحقائق التالية (٣٢) : ان نسبة الجرائم للمهاجرين تزيد ١٠٪ عنها للمهاجرين الريفيين . لا اختلاف في متوسط سن مرتكبي الجرائم الحضريين ونظرائهم الريفيين ، ولا علاقة بين السن وبين ارتكاب الجريمة بالنسبة للريفيين والحضريين . نسبة الجنابات لمجموع الجرائم المرتكبة من اهل الريف ٨٨ ٪ بينما تبلغ هذه النسبة ٨٢ ٪ بالنسبة للحضريين ، كما يتضح ان نسبة الجنى من اهل الريف اقل من هذه النسبة في الحضر . الجرائم ضد النفس وهي الجرائم التي تنسم بطابع العنف تكثر في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري ، فجرائم القتل والضرب المفضى الى موت واحداث المآهات المستديمة تبلغ في الريف ٣٦ ٪ تقريبا من مجموع جرائمه ، بينما لا تزيد هذه النسبة من ١١ ٪ في ألقطاع الحضري . ومعنى ذلك ان هناك ارتباطا بين منطقة الجريمة وبين انواع الجرائم المرتكبة ، ففي المجتمع الحضري تقل نسبة الجرائم العنيفة وتضامل عدد الجرائم ضد النفس . جريمة هتك العرض تحدث في المناطق الحضرية بنسبة اهل منها في المناطق الريفية ٦٠ ٪ من العينة يقيمون في احياء شعبية . ٢٨٥ ٪ يقيمون في احياء متوسطة ، ١١٥ ٪ فقط هم الذين يقيمون في احياء راقية . ويدخل في هذه النسبة الخدم والسائقون والكوجينة وغيرهم ممن تحتهم عليهم الاقامة في هذه الاحياء . وقد قسمت الاحياء الى شعبية ومتوسطة وراقية على اساس طرق الحياة والعيشة في هذه الاحياء ومن الواضح ان الأمية والفقر وقرب المساكن بعضها بجوار بعض سمات تميز الاحياء الشعبية من غيرها من الاحياء ، وقد تكون لهذه العوامل مجتمعة علاقة وثيقة بزيادة نسبة مرتكبي الجريمة فيها . ان ٢٨٥ ٪ من مجموع افراد العينة بسجن القاهرة كان محل ميلادهم الحضر بينما كان ٧١٥ ٪ محل ميلادهم الريف . وقد يرجع ذلك الى أن المولودين في الريف وهاجروا الى المدينة لم يستطيعوا التكيف مع طرق الحياة والعيشة فيها وقوة العادات والتقاليد وتماسك الاسرة سمات تختلف في المجتمع الريفي عنها في المجتمع الحضري . وتبين أن هذا التباين بالإضافة الى اختلافات في القيم والنظم قد ادى الى الصراع بين هذه السمات وتلك مما تروى عليه أن تكون نسبة مرتكبي الجريمة من المهاجرين الريفيين اهل منها بالنسبة لمرتكبي الجريمة من الذين ولدوا في الحضر . تبين ان الهجرة ترجع الى عوامل اقتصادية وتعليمية كما ترجع الى اختيار المدينة منطقة الحياة منها بالإضافة الى صعوبات كثيرة في الوطن الاصل ، وتكون الهجرة اما مع اقارب او مع أسرة المهاجر نفسها . المهاجرون يقيمون عند حضورهم وقت الهجرة في الاحياء الشعبية ، اذ يشير الجدول الى ان ٩٢٠ ٪ من مجموع مهاجري العينة قد أقاموا

البيئة والجريمة

ونظرا للتقاليد الاخلاقية الموجودة في الريف نجد ان نسبة قتل الاطفال مجبولى النسب الى مجموع جنايات القتل بكل محافظة مرتفعة في القاهرة والاسكندرية والجيزة ودمياط ومنخفضة في باقي المحافظات . فالنسبة سنة ١٩٧٤ في القاهرة ١٨٪ والاسكندرية ٢٠٪ والجيزة ٢٣٪ والغربية ١٠٪ والدقهلية ٢٤٪ والقليوبية ٣٨٪ واسيوط ٣٪ وقنا ٢٢٪. وقد لوحظ ان اسوان ١٢٪ ولكن هذا يرجع الى قلة جنايات القتل ذاتها اذ هي ٧ وجنايات قتل الاطفال انتتان فقط .

ويتربط على التضامن الاسري الموجود في الريف ان هناك بعض الجرائم لا توجد في القرية الا نادرا ، وتتركز في المدينة ، ويتبين هذا من قضايا التشرد ومن قضايا الاحداث ، فالشخص المتشرد قانونا هو من ليست لديه وسيلة مشروعة للعيش . وفي الريف لا تتصور جريمة التشرد الا فيما ندر ، فالاعمال الزراعية كثيرة تستوعب كل الايدي العاملة لاسيما بعد هجرة الكثير منها الى المدينة ، انما التشرد في المدن - لاسيما الكبيرة منها - فهو امر عادي ، وقد يكون هذا نتيجة للهجرة الى المدينة جريا وراء كسب اكبر وعيش افضل ثم مواجهة لصعوبات البحث عن عمل ، فالتعطل فالتشرد ، وآية ما نقول الجدول التالي:

قضايا التشرد عام ١٩٧١

المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا	المحافظة	عدد القضايا
القاهرة	٢٥٣٧	الجيزة	٥	الفيوم	٥٠
الاسكندرية	٢٠٤٠	الغربية	٨	المنيا	١
دمياط	٢	كفر الشيخ	٢	اسيوط	١
الدقهلية	١٨	الجيزة	٥٨٣	قنا	١١
الشرقية	١	بني سويف	٣٣	اسوان	٢

وكذلك الشأن بالنسبة لاجرام الاحداث ، فالروابط العائلية في الريف يجعل انحراف الحدث وسيره في تيار الجريمة امرا بعيد الاحتمال ، لان شئون الحياة يتولاها الكبار الذين يجهلون تصرفات الصغار تحت اشرافهم . ويبين هذا ايضا من الجدول المقارن التالي :-

بعض جنح الاحداث التي وقعت سنة ١٩٧٤

القسم او المركز الجريمة	مروة	اتلاف	ضرب
قسم المنصورة	٧٥	٣	٦١
مركز المنصورة	٢	١	١٧
قسم الجيزة	٧٣	٢	٩
مركز الجيزة	١	—	٢
قسم المنيا	٦٦	—	٤
مركز المنيا	٦	—	٤

ومن تقرير الامن العام لسنة ١٩٦٢ عن ظاهرة الاجرام في مصر :

١ - ان محافظات المدن تتميز من غيرها بانحصار الظواهر الاجرامية في جنابات التهديد والاختلاس والرشوة وتزوير الاوراق الرسمية وتزييف المسكوكات وتزوير الاوراق المالية وهتك العرض .

٢ - في محافظات الوجه البحري تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنابات الضرب المحدث عاة والحريق والعمد واتلاف المزروعات ، يضاف اليها جنابات القتل في محافظتي الشرقية والقليوبية وجنابات السرقة في محافظة الشرقية وحدها .

٣ - في محافظات الوجه القبلي تنحصر الظواهر الاجرامية التي تتميز بها في جنابات القتل والعمد والضرب المحدث عاة والخطف . واذا كان تقرير الامن العام سنة ١٩٦٢ يشير الى خطورة جرائم القتل في الوجه القبلي فالحال لم يتغير ابدا الى الان حتى سنة ١٩٧٤ ، وقد كان كذلك في السنوات ١٩٢٧ و ١٩٣٢ و ١٩٣٣ كما يتبين من الجدول التالي ، وهذا من اكبر الادلة على ما يتميز به الاجرام في الريف عنه في المدن ببلادنا ، لما همومدون من بسط التقدم الحضاري في بلاد الوجه القبلي والتمسك بالتقاليد .

نسبة جنابات القتل والشرع ليه لكل

مشرة آلاف نفس في السنوات ١٩٢٧ ، ١٩٣٢ ،

١٩٣٣ في بعض مديريات مصر

اسم المديرية السنة	١٩٢٧	١٩٣٢	١٩٣٣
القليوبية	٢٠٤	٢٦٠	٢٦٥
الحيرة	١٤٢	١٤٧	١٢٢
الغربية	١٤٨	١٦٨	١٥٩
المنوفية	١٢٣	١٣٥	١٤٦
الشرقية	١٠٧	١٤٠	١٧٧
الدقهلية	٨٧	٨٨	٨٣
بني سويف	٢٦٧	٣٣٤	٣٨٦
الفيوم	٣١٢	٣٦٢	٤٠٢
المنيا	٢٣٨	٢٥٩	٢٥٩
اسيوط	٤٤٣	٣٠٥	٣٥٥
جرجا	١٦٠	٢٠٢	٢٢٢
قنا	٨٨	٧٧	١٤٥

واذا كان اختلاف بيئة القرية عن بيئة المدينة أدى الى تمييز الاولى بالجرائم ضد الاشخاص ، والاخرى بالجرائم التي تكون غايتها الكسب المادي ، فان هناك تفرقة اخرى مترتبة على ذلك هي اختيار الوسيلة المستخدمة في ارتكاب الجريمة . فجرائم القرية يجرى تنفيذها بوسائل

تتسم بالعنف والتسوة وتمثل انعكاسا لفريرة العدوان البدائية . فالقتل يتم بالأسلحة النارية على اختلاف أنواعها ، أو بالآلات الحادة التي يستخدمها الفلاحون أساسا في أعمالهم اليومية كالفأس وما إليها ، وهي أيضا تتم غدرا وغيلة دون أن يتنبه إليها المجنى عليه سلفا ولا يستطيع لها دفعا ، أما الجرائم التي ترتكب في المدينة فلا تحتاج الى استخدام العنف وإنما وسيلتها ذكاه المجرم الذي يستغل مختلف الظروف للوصول الى المال ، فلا يصدر منه اعتداء على الأشخاص الا اذا أوصلته وقائع الحال الى ذلك ، وتكشف الإحصائيات الجنائية عن أن غالبية جرائم القتل والشروع فيه يستخدم فيها الأسلحة النارية والآلات الحادة ، في حين أن جرائم القتل تنتشر في المدن والأماكن المزدحمة والسرقات من المساكن في غالبيتها جنح وان لا يسبقها بعض الظروف المشددة كالسكر والتسور .

البيئة والتقاليد :

تحرص بعض الجماعات على تقاليد خاصة بين أفرادها وتحترم القواعد الخاصة بها وتقوم مقام القانون المكتوب . وبالإضافة الى هذا هناك مجتمعات صغيرة متماسكة تتخذ من الجريمة حرفة لها حتى انها لا تشعر بالاثم حين مقارفتها . ومن هذه القاهرة ما يشاهد في تجارة المخدرات ، حيث يقوم افراد جماعة معينة - وعلى ما هو معروف - باتخاذ حي معين تمارس فيه تجارتها ويلتزمون فيما بينهم بقواعد سلوكية خاصة تعتبر الخروج عنها جرما في حق الجماعة وتوقع هي العقاب الذي تراه في مواجهته .

على أن أخطر التقاليد الموجود في البيئة المصرية هو ما كان متملقا بالثار (٢٤) . فلقد تبين لنا فيما سبق أن أكثر الجرائم وقوعا في الريف هو ما كان موجها ضد الأشخاص وهي القتل والشروع فيه والضرب المفضي الى الموت والضرب الذي تنشأ عنه عاهة مستديمة . ونأتي بعد هذا جرائم ائتلاف المزروعات والحريق ولا تكون مبالين اذا قلنا أن الجهل هو العامل الاساسي وراء الاجرام في الريف تحت ظله تبقى المعتقدات سائدة وفي قوة العقيدة . فأخذا من الإحصائيات يكاد يكون كل المتهمين من الاميين ، ولا نعتي بهذا أن الجهل يؤدي الى الاجرام ، وإنما المراد هو أنه لا يساعد على وجود النماذج المعادية للاجرام ، فالفلاح في الريف يعيش اسيرا للتقاليد والمعتقدات التي أصبحت راسخة في نفسه ولا قوة أعلى من القانون .

وفكرة الثار تتمثل في أن الاعتداء الذي يقع على فرد في الجماعة يعتبر وكأنه قد وقع على جميع أفرادها ، ولا ينبغي أن يستريح لهم بال الا اذا اقتصوا من المعتدى أو جماعته ، وكانت النتيجة المنطقية لهذا هو عدم الاعتراف بسلطان آخر يجازي الفاعل على جرمه . وكان من الطبيعي كذلك أن تقع إحدى جرائم القتل فيبلغ منها ولكن دون أن يسند الاتهام الى أحد ، مع العلم

(٢٤) أحمد أبو زيد - الثار - دراسة انثروبولوجية لعبدى فرى الصعيد ، وقد تناول الموضوع كاملا .

بأن كلا من الطرفين - أهل القتل وأهل القاتل - يدري بتبين من هو مرتكب الجريمة ، وعائلة القاتل تحثين الفرصة المواتية للانتقام من الجاني، وعائلة القاتل تحترس من وقوع المدون عليها ، ولا زلنا إلى اليوم نسمع أن الثار ما يزال متوارثاً في بعض العائلات من عشرات السنين .

وللثار تقاليدته المعروفة من ناحية من يقع عليه عبء واجب الأخذ بالثار ، بل أن من يكون موضوعاً له يعرف نفسه كما يعرفه الجميع . ولا يجوز أن يكون موضوعاً لها الأطفال ، وما كانت تقام المآثم إلا إذا تم الأخذ بالثار ، ولقد كان هذا التقليد هو الدليل الوحيد في قضية قتل (٢٥) حكم فيه بالإدانة ، حيث لم يشاهد القاتل أحد وقت ارتكابه فعلته ، ولكن في اليوم التالي للجريمة أقيم المآثم وانتعل الفاعل حذاءه وغطى رأسه ورفع القناع عن وجهه ، واذا درست المحكمة قانون الثار وفقاً للتقاليد اقتنعت بارتكاب الجاني لفعلته .

ومن بين الأسباب التي ساعدت على تأجيل عادة الثار قصص البطولة التي تحكى في مختلف المناسبات ، وتصور الأمر على أنه واجب مقدس يعتبر القعود عنه قصير يسم بالجهن ، ويجب واجب الأخذ بالثار قائماً مهما امتد الوقت ولولمدة سنوات . والاعتقاد السائد أن روح المجنى عليه لا يستقر لها قرار إلا إذا أريق دم الجاني ويكون ذلك على يد أهل القتل ، ومن ثم فلا ينبغي للحكومة أن تتدخل في الأمر لأن الواجب يقع على عائلتهم هم .

وترتب على تمكن عادة الثار لدى الفلاحين ، أن وجد فريق من المجرمين الذي احترفوا الأجرام الانتقامي وعلى وجه الخصوص جرائم القتل ، فقد لا يوجد من أفراد أسرة القاتل من يتمكن من الأخذ بالثار لصغر السن مثلاً ، فلجأ الأسرة إلى من يقوم عنها بهذا الواجب مقابل مبلغ من المال . وهذا يشير جدالاً أخطر أنواع الأجرام ، ولا شك في أن الجهل هو الذي يوصل إلى هذه الحالة حيث أبقي كثيراً من المعتقدات سائدة في أوساط الفلاحين الذين يرون أن القتل لا جواز له إلا القتل أما أحكام المحاكم دون الإعدام - ولو بالإشغال الشاقة المؤبدة - فانها لا ترضى لمشاعر أهل المجنى عليه . ومن ناحية أخرى فإن استخدام الاشتياق بدمع من أهل المجنى عليه من فرض الانهم ، إذ يستطيعون أعداد دفاعهم سلفاً ، كما أن الاشتياق أنفسهم يحترفون أعداد أدلة النفي قبل إقدامهم على ارتكاب الجريمة ، وآية هذا أن نسبة كبيرة من جنابات القتل والشروع فيه ينتهي فيها الأمر بإصدار قرار بأن لا وجه لأقامة الدعوى .

وقد منبت الاحصائيات الجنائية ببيان عدد جرائم القتل التي يكون الدافع اليها الثار ، فبمراجعة الجداول الخاصة ببواصت ارتكاب جنابات القتل تبين أن الغالبية منها كما يلي : -

الانتقام والثار ، رفع العار ، استغزاز ، نزاع على حد أرض . وإذا استعرضنا في ذاكرتنا تاريخ القضاء المصري لوجدنا أن هذه البواصت كانت غالبية دائماً . ويؤيد هذا أن جنابات القتل

التي وقعت مع سبق الإصرار والترصد كانت أعلى مما وقع منها بدون سبق إصرار وترصد ، وهذه الظاهرة توصل بنا الى القول بأنه رغم كل تطور في أساليب الحياة في مصر إلا أن التقاليد ما زالت مسيطرة على البيئة في كثير من النواحي . وأكثر من هذا ما زالت الوسائل المستعملة في جريمة القتل على ما هي عليه . الأسلحة النارية الآلات الحادة ، الخنق ، العصا . . . الخ .

جدول خاص بالبواعت لجريمة القتل

السنة / الباءت	الثار	الانتقام	الاستفزاز	رفع العار	انواع على حد أرض
١٩٦٨	٢٩٨	١٩٧	١٤٢	٨٣	٧٨
١٩٧١	٢٤٤	٣١٧	٧٨	٨٢	٧٠
١٩٧٤	٣٠٣	٣٣٦	٦٦	٧٦	٥٤

جدول خاص بالقصد

السنة / القصد	مع سبق الإصرار والترصد	بدون سبق إصرار وترصد
١٩٦٨	١٠٩١	٤٥٤
١٩٧١	٨٥٨	٣٦٢
١٩٧٤	٩٢٦	٣٣٥

هذا مع التنبيه الى احتمال أن يكون الانتقام أحيانا مختلطا بالثار .

وقد قام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية في مصر بدراسة لظاهرة الجريمة في قرية طهواي (٣٦) ، حيث تبين أن سكان القرية تتكون من فئتين ، الفلاحين وهم الغالبية ، والفجر وهم بنسبة ٧٪ من مجموع السكان . ويميش جميع افراد مجتمع الفجر ذكورا واناثا من احتراف الجرائم خاصة سرقات المائشية ، والسرقة بطريق النشل ، ويتوارلون هذا العمل جيلا عن جيل ، ولا يتخرجون من ذكر انهم يحترفون السرقة ، وهم يحترفون السرقة دون غيرها من الجرائم ، ولا يميلون الى استخدام العنف عند ارتكابها ، ويفضلون اختيار مكان جريمتهم بعيدا عن المنطقة التي يقيمون فيها .

ويرتبط احتراف الفجر للسرقة بالتنشئة الاجتماعية حيث اعترف ٩٥ ٪ بأن ارتكابهم للسرقة كان نتيجة لضغط الاسر عليهم ، وأن ممارستهم لها قد تمت عن طريق المشاركة . وتستفيد الغالبية العظمى منهم (٩٢ ٪) من المروقات شخصيا أو في نطاق الاسرة ، ويتميل مجتمع الفجر بالترابط والتكامل بين الافراد ، حيث أنهم يتعاونون بعضهم مع البعض اذاما قبض على احدهم أو اودع السجن فانهم يقدمون له ولاسرته العون مواءكان في صورة عينية أو مالية .

البيئة واجرام المرأة :

انه وان كان اجرام المرأة لم يلق نفس الدرجة من الاهتمام التي لاجرام الرجل - كما هو واضح في جلاله من الاحصائيات الجنائية - الا ان علاقة البيئة باجرام المرأة لها مظاهر واضحة تستدعي للدراسة والعناية ، وآية ما تقدم ان كثيرا من نشاط المرأة الذي يشكل جريمة ينتهي الامر به الى الحفظ نظرا لظروفها في البيئة المحيطة بها ، وعلى سبيل المثال بعض صور الاجهاض التي يراد منها رفع العار ، بل ان طبيعة المرأة ووضعها في الاسرة العربية يجعل اجرامها ودواما مما يتسم بالجبن والحذر ، ولذا فهو يتم في خفاء وينتهي الامر في كثير من وقائعها الى قيده ضد مجهول .

ووضع المرأة بالنسبة الى البيئة التي تعيش فيها جعلت حجم اجرامها اقل بكثير من حجم اجرام الرجل ، سواء دلت على ذلك احصائيات محل لقة او كان هذا هو الشعور والاحساس العام . وهذا امر لا يختلف فيه الدول العربية من غيرها . وعلى سبيل المثال يبين من تقرير الامن العام عن مصر عام ١٩٧٤ ان عدد المتهمين في الجنائيات هو ٤٩٩٠ منهم ٤٨٧٩ من الرجال و ١١١ من النساء .

واذا كان مرجع تلك الظاهرة يتعلق بطبيعة المرأة كائن ، الا انه بوجه خاص يتصل بالبيئة التي تعيش فيها ، فالمرأة اقل من الرجل في قوة جسمها ، حتى لقد قرر بعض الباحثين مداها بنصف قوة الرجل ، ووصل الى ان حجم اجرام المرأة لا ينبغي ان يتعدى نصف حجم اجرام الرجل ولقد ترتب على هذا الفرق في القوة الجسدية ان الجرائم التي ترتكبها المرأة لا تحتاج في تنفيذها الى العنف . بل ان جريمة القتل غالبا ما يستخدم فيها السم لتنفيذها . ولقد خلق الله سبحانه وتعالى المرأة لتكون اما ، اذ زودتها الطبيعة بماطقة الحنان والرحمة والشفقة مما يتماشى مع رسالتها ، وهو ما يتناق مع الجريمة ، اذ لا يتوافر لها اي معنى من هذه المعاني ، فان هي اقدمت على ارتكاب الجريمة فلا يكون ذلك الا تحت ظروف خاصة ، ومن ثم كان اجرامها قليلا .

وفي خصوص المجتمع المصري بالذات نجد ان الظروف الاجتماعية ومكانة المرأة من الاسرة تحول بينها وبين طريق الاجرام . فتحرص المرأة على سمعتها في مجتمع تغلب فيه القيم الدينية والخلقية يدفعها الى الاعتماد فن طريق الجريمة تأمينا لمستقبلها .

والمرأة في الريف تحتل السواد الاغلب من النساء ، وتعتمد في حياتها على الرجل ، سواء كان ابا او اخا او زوجا او اى عائل آخر ، بل ان كثيرا من الرجال يابون نزول نسائهم الى ميدان العمل ، وقد ادنى هذا الى بعد المرأة عن الاحتكاك بالناس ، واصبحت اكثر ميلا للزلة ، مما يعدها عن الاسباب التي تدفعها الى الاجرام . والملاحظ في الريف المصري ان المرأة تعتمد على الرجل في حياتها اعتمادا كلياً . اما في المدينة فانه وان كانت المرأة قد نزلت الى ميدان العمل ، وزاد احتكاكها بالناس ، الا انها مازالت تحكمها طبيعتها الخاصة التي تنأى بها عن ارتكاب الجريمة ، بل ان الملاحظ هو ان القالبية العظمى من النساء المجرمات من الاميات ، اى انه كلما تعلمت المرأة

وتتقفت بعدت عن الجريمة . ويتضح من بحث نزيلات السجون المصرية في مايو ١٩٥٩ الذي قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية (٣٧) أن أغلب النزيلات موضوع الدراسة لم يشتغلن بأى مهنة أو عمل ، وأن هذا لا يخرج عن كونه انعكاسا للوضع الخارجى فى المجتمع المصر حيث لا يزال اقبال النساء على الاشتغال بالمهن المختلفة قليلا .

هذا الوضع الاجتماعى للمرأة فى مصر والبيئة التى تعيش فيها جعل اجرامها متميزا عن اجرام الرجل، وأنه وإن كانت تنقصنا الاحصائيات الخاصة بالمرأة فلما نحاول أن نعطى بصورة على قدر الاحصائيات المتوافرة لدينا . والأمر الذى تكشف عنه تلك الاحصائيات هو أن نسبة الجنائيات التى تقع من المرأة كبيرة وتتركز بوجه خاص فى جرائم الاعتداء على الأشخاص ، أى القتل العمد والقرب المفضي الى الموت والضرب الذى تنشأ عنه عاهة مستديمة . فعلى سبيل المثال ارتكبت المرأة عام ١٩٧٤ (١١١) جنابة بينها (٣٥) قتل عمد و (٢٦) ضرب أفضى الى الموت ، و (٢٣) ضرب نشأت عنه عاهة مستديمة ، أى أن جملة جرائم الاعتداء على الأشخاص بلغت (٨٤) من مجموع الجنائيات . وإذا أردنا تحليل هذه الظاهرة لوجدناه فى امرين ، الأول منهما هو أن المرأة فى غالب الأحيان لا تحتاج الى المال لوجودها فى كنف رجل يكفل لها حاجياتها . أما اجرامها ضد النفس فأساسه الطبيعة البشرية التى تدفع بمواطنها تحت تأثير الانفعالات الى اتصى مدى ويسهل لها خيالها طريق ارتكاب الجريمة معتقدة أن فى هذا راحة لها لا سيما مع الجهل الذى يحيطها . والآخر يتمثل فى بائس المرأة على ارتكاب الجريمة ، وهو غالبا ما يتعلق بحياتها ومستقبلها الذى تركز له كل جهودها ، فإذا قام فى سبيله عائق فإنها ترضخ عن طريقها .

وظروف البيئة التى تعيش فيها المرأة بالريف جعلت أخطر دوافعها للاجرام هو الانتقام الذى يكون منشؤه الفقرة ، ذلك أنها بمجرد أن تنتقل الى منزل الزوجية ترى أنه لا مقام لحياتها الا فى كنف الزوج ، وأنها بغير الاعتماد عليه لن تجد من يراها ومن ثم فإن أى تهديد يمس كيان حياتها يحرك فيها غريزة الدفاع عن نفسها وبقاتها وتدفعها الرغبة فى التحاظة على نفسها الى ارتكاب أشد الجرائم خطورة ، وتحرك غيرة المرأة على منزلها اذا ما اتخذ الرجل له زوجة ثانية لآى سبب من الأسباب ، وهي حينئذ لا تستطيع أن تصب غضبها على زوجها لأنها فى قرارة نفسها تعتقد أنه يستعمل حقاً مشروعا له فضلا عن أنها فى حقيقتها ليس بمقدورها أن توجه اجرامها اليه . ومن ثم فلا يبقى أمامها الا المرأة الدخيلة على حياتها وتبقى صورها ملازمة لخيالها ، ولا ترى سبيلا لاستعادة منزلها الا بالتخلص منها ، وفى صور أخرى قد يكون انصراف زوجها عنها بسبب عدم انجابها ورزقه بولد من الزوجة الثانية فتوجه اجرامها للصغير للتخلص منه ، وأحيانا قد تدفع المرأة الى ارتكاب جريمة قتل الزوج اذا ما أحسنت أنه قد ينصرف عنها الى الزواج من

أخرى . ويندر في مصر أن ترتكب المرأة جريمة القتل لأسباب عاطفية ، كصورة تخلى الشخص عنها وانصرفه الى غيرها لأن التقاليد ما زالت تقرر العلاقات الخاصة بين الشباب ، ولهذا نرى أن الأسباب العاطفية ان دفعت الى المساس بالحياة فانما يكون هذا في صورة انتحار .

وإذا كنا قد اوضحنا اثر البيئة وتقاليدها في ارتكاب جريمة القتل ثارا فان المرأة لا تختلف من الرجل في هذا الصدد وتعتبره واجبا عليها . ولقد تضمن القضاء المصرى كثيرا من جرائم القتل التى لعبت المرأة فيها دورا هاما تحت تأثير مادة الثأر ، سواء بنفسها او بتلقيها اياها لأطفالها مهما امتد الاجل وتحرضهم على القتل .

وقد ترتكب المرأة أحيانا الجريمة ضد النفس تجنباً للفضيحة في البيئة كما في حالة جريمة الاجهاض وقتل المولودة حيث أن الحمل سفاحا يمثل عيبا خطيرا هو في الريف أشد منه في المدن ، حيث تعرف الفتاة أن جزاءها اذا ما كشف أمرها لن يكون الا اذهاق روحها ، لا سيما وأن سبيل اخفاء أمرها ليس بالأسهل حيث لا توجد أماكن لا يوافي اللقطاء ، كما هو الحال في المدن - وقد تقارف المرأة الجريمة قتلا دفعا من العرض وذلك أن تفريط المرأة في عرضها يمثل مساسا خطيرا بالشرف لا سبيل الى ازالته الا بقتلها ، وقد تاصلت هذه التقاليد في نفوس الكثيرين حتى ثبت من بعض الوقائع أن الأم تغلب على عاطفة الأمومة وتقتل ابنها دفعا من عرضها ، بل قد تقتل الأم أمها أو الأخت أختها لهذا السبب .

الاقتصاديات البيئة والجريمة :

ليس من المقبول ونحن في صدد بحث الجريمة وعلاقتها بالبيئة أن نفصل اثر العامل الاقتصادي في هذا الصدد . ذلك لأن البيئة ذاتها تتلون ظروفها وقسا لسلوك افرادها وفقا لاقتصادياتها ، وأنه وإن كان العامل الاقتصادي من أدق وأهم ما تتصل به الظاهرة الإجرامية ، وهو في حاجة لدراسة مستفيضة مستقلة ، الا أننا هنا استكمالا لجوانب البحث نعرض لما يتصل بهذا العامل كمؤثر في البيئة وقتياً في السلوك الإجرامى فلا جدال في أن هناك علاقة وثيقة بين الظروف الاقتصادية والجريمة على الأقل بالنسبة الى الجرائم التى تكون الغاية منها الكسب . وقد عكس التطور الاقتصادي ضده على تطور الجريمة فالانتقال من الاقتصاد الزراعى الى الاقتصاد الصناعى خلال القرن التاسع عشر صحبه انتقال من جرائم العنف الى جرائم الدماء ، وعدم الاستقرار الاقتصادى الناشئ من عدم استقرار الائمان والاجور والنقود كان له اثره في الاجرام الذى يقصد منه الكسب .

ودراسة العلاقة بين العوامل الاقتصادية والاجرام يثير مشاكل عديدة ليس من السهل ايجاد حل لها . فينبغى تحديد المراد بالعوامل الاقتصادية ، هل ينظر اليها بالنسبة الى الموضوع الذى تتعلق به او بالنسبة الى وقت حدوثها ، وبمعنى آخر هل ينظر الى العوامل الاقتصادية

باعتبارها متعلقة بالفرد الذى يجرم ، أم بالنسبة الى الوسط الصغير الذى يعيش فيه ، أم البيئة التى تحويه ، أم بالنسبة الى ظروف الدولة كلها. وكذلك فى تقدير الظروف الاقتصادية هل يعتد بوقت ونوع الجريمة أم تقرر خلال فترة طويلة مناسبة . ثم أخيرا هل ينظر الى تلك العوامل والأوقات العادية أم يكون الاعتبار لفترات الإلزام وأوقات الرخاء (٢٨) وبالإضافة الى ما تقدم فإن جزءا كبيرا من الجرائم لا يدخل فى الإحصائيات الجنائية والتى تدخل تحت الأرقام المطلقة ، وأخصها جرائم ذوى الياقات البيضاء أو جرائم الخاصة ، وتكاد تكون هذه الجرائم كلها من نوع الجرائم الاقتصادية التى يكون للبيئة فيه دخل كبير فتعكس آثارها عليها .

ولقد أصبح الشائع ربط الجريمة من الناحية الاقتصادية بالفقر (٢٩) ، ولكن هل يؤدى الفقر حقيقة الى الجريمة ؟ ثم ما هو المقصود بالفقر ؟ ونشير ابتداء الى احتمال أن يكون ربط الفقر بالجريمة مرجعه الى أن غالبية المجرمين من الطبقات الفقيرة ، وليس من السهولة وضع تعريف للفقر ، فالمعنى المتعارف عليه هو أن الفقير هو الشخص الذى لا يجد ما يسد به ضرورات العيش ، وهذا المعنى فى رأينا لا مكان له فى مصر ، فيكاد لا يوجد فى المجتمع المصرى من لا يجد قوت يومه ، وذلك بسبب علاقات التعاطف الاجتماعى الموجودة لدى الشعب المصرى ، ولكن الإنسان الفقير فى مفهومنا هو من يرتلق يوما بيوم ، وينطبق هذا بوجه خاص على طبقة العمال . وإذا نظرنا الى سواد الشعب المصرى لوجدناه من الفلاحين وهم فقراء ومع ذلك فهم لا يقومون فى طريق الجريمة ، فإذا قيل بأن الإنسان الفقير هو من لا يوجد لديه ما يفي باحتياجاته لكأن المسألة نسبية تختلف من حالة الى أخرى ، ومن ثم لا يمكن اتخاذ الفقر مقياسا للسلوك الإجرامى . . . ولكن مهما كان تحديد معنى الفقر فهل هناك دليل على وجود رابطة بينه وبين الجريمة ؟ فى رأينا أنه من الخطورة بمكان التسليم بهذه النتيجة لأن مؤداها اعتبار جميع الفقراء مجرمين ، وهم وإن كانوا لم يدخلوا السجن بعد فإنهم فى الطريق اليه ، حقيقة أن بعض المجرمين من الفقراء ولكن كم من غير الفقراء والمجرمين وإن لم يدخلوا السجن ؟!

ولقد حاول البعض ربط الفقر بالجرائم فى صلتها بالبيئة التى يوجد فيها الفقير ، اذ من شأن الفقر أن يوصل الى عوامل أخرى كثيرة متداخلة فى التكوين الاجتماعى ، وهى التى تؤدى الى الجريمة ، ولا يقتصر الامر حينئذ على جرائم الأموال وحدها . والفقر تكون له مصاحبات أكثر من الحاجات الاقتصادية التى تؤدى الى السلوك الإجرامى . والفقر فى المدينة الحديثة معنى عادة انفصال مناطق الإيجار المنخفض ، حيث يعمل الناس الى درجة يعتد بها عن النماذج المعادية للأجرام والجيران على الاتصال بكثير من نماذج السلوك الإجرامى . والفقر بوجه عام يعنى مركزا

(٢٨) راجع اثر الإلزام الاقتصادية والروح الاقتصادية. ستيفاني وآخرين ص ٨٧

(٢٩) راجع دراسة حديثة فى هذا الصدد عن الطبقة الاجتماعية والإجرام (جون كلارك وآخرين ص ٤٥١ وما بعدها)

اجتماعيا ضئيلا ليس فيه ما يبعث على الاحترام أو ما يخشى عليه من الضياع أما ما يشجع على بلبل الجهد لتحقيق حياة أفضل ، وهو بوجه عام كذلك يعني ظروفًا منزلية سيئة وصحية صعبة ومقارنة تثير الحقد بالنسبة الى غيرها من الظروف المالية والصحية ، يعنى ان الوالدين يبعدان عن المنزل خلال اقلب الساعات التي يستيقظ فيها الاطفال ، ويعودان اليه وهما متعبان متوتران . وهو يعنى بوجه عام ايضا ان الطفل يؤخذ من المدرسة في سن مبكرة لا تسمح له الا بالتحاق لعمل لا يتطلب مهارة ، بل غير مسل وغير مجزولا يمنحه فرصة التقدم الاقتصادي . وقد يصعب الفقر في المدينة الصغيرة قليل من المصاحبات .

وبعرض برنس (٤٠) الى ان الدراسات الاجتماعية لفتت النظر الى انه اذا كانت الجريمة من الناحية النظرية تقع في كل الاوساط الا انها اكبر وقوا في اوساط الجماعات الضعيفة اقتصاديا واجتماعيا ، ويتسائل عن السبب في هذا هل هو النقص في اخلاقيات هؤلاء الافراد ؟ هل فرصة الحياة الشريفة اقل لديهم ؟ او ان هناك جرلومة اجرامية اسهل انتشارا في هذه الاوساط من الاوساط الاعلى اجتماعيا واقتصاديا وهذه التساؤلات شغلت كثيرا من المفكرين في اوائل القرن العشرين ، وذهبوا الى ان الزيادة في الاجرام تأتي من التعلم من الاصدقاء والجماعات ، وهو رأى مسترد لانه في الجماعات التارفة . وباختصار فان هذا يعنى انه اذا عرض فرد الى مؤثرات اكثر اجرامية من غيرها في الوسط الذي يعيش فيه فان فرص مخالفته القانون تكون اكبر . ويرى برنس (٤١) ان اعتبار الجريمة اكثر وقوما في الطبقات الدنيا هو تعميم مبالغ فيه ، وهناك حقيقة متفاوتة للجريمة في الطبقات الدنيا ، ومع هذا فالجريمة موجودة في الطبقات كلها ولكن جزءا كبيرا منها غير معروف . وفي دراسة اجريت سنة ١٩٦٧ ثبت ان المدينين الصغار في لندن كانوا من جميع الطبقات ، وان الجرائم لم يختلف نوعها من طبقة الى اخرى . ومع هذا فالمتفق عليه بصفة عامة هو انه لا بد من عمل طويل قبل تأكيد ظهور الجريمة ومداها في مختلف طبقات الجماعة .

والدراسات التي اجريت بالنسبة الى علاقة الفقر كعامل اقتصادي بالجريمة - رغم ما فيها من قصور وما قد يوجه اليها من انتقادات - قدوصلت الى نتائج متضاربة . ففي احدي الدراسات وجد ان معدل نسبة الانحراف الى مجموعة من الاطفال في مكان يعد منخفضا جدا ، مع انهم من أسر كانت في فقر لشد من فقر السكان في المناطق المحيطة بهم والذين كان لاطفالهم معدل نسبة كبيرة للاسراف ... وفي دراسة اخرى اكتشف عدم وجود علاقة وثيقة بين المركز الاقتصادي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاخرى ثابتة . بينما وجدت علاقة واضحة بين التنظيم الاجتماعي وانحراف الاحداث عندما تبقى العوامل الاقتصادية ثابتة .

(٤٠) برنس ص ٣٦ ، وقد اشار الى الدراسات في الولايات المتحدة الأمريكية وفي إنجلترا من مناطق الانحراف .

(٤١) برنس ص ٣٩

في المجتمع المصري - لاسيما المجتمع الريفي - لا يمكن القول بأن الفقر يعد عاملا على ارتكاب الجريمة ، لان البناء الاجتماعي والثقافي يقف عائقا ضد ارتكاب الجريمة في هذه الحالة (٤٦) . وفي اعتقادنا ان تقاليد أهل الريف تمنع من اقتراف الجرائم مهما كانت الحالة الاقتصادية . وذلك سواء بالنسبة الى مصر او غيرها . ولقد ثبت في دراسة بأمريكا ان سكان المناطق الريفية يقل ميلهم نحو الجريمة مع انهم قد يكونون في فقر مدقع .

ومن الدراسات الحديثة في مجالنا بحث عن حجم مشكلة جنح الاحداث وانجاهاتها وعواملها في مصر اذ جاء به انه من المؤكد ان المستوى الاقتصادي الذي تعيش فيه أسرة الحدث تؤثر بشكل فعال ، بل انه يكاد يسيطر على كل العوامل الاخرى التي تشارك في توجيه الحدث نحو السوء الجانح ، فان المستوى الاقتصادي هو الذي يحدد المستوى التعليمي والمهني والمستوى المعيشي للأسرة ، ويحدد كذلك المسكن الذي تتخذ به الأسرة مأوى لها وبالتالي الحي الذي تقطنه ، كما يحدد المستوى الاقتصادي والمستوى الاجتماعي والبيئي الذي تنتمي اليه أسرة الحدث بحكم مقدرته الاقتصادية . وكل هذه العوامل متجمعة في التي تؤدي الى سلوك الحدث سلوكا جانحا او تكيفه مع المجتمع الذي يعيش فيه . وقد ظهر ذلك من نتائج البحوث التي اجريت في هذا المجال . ففي دراسة من اثر العوامل الاجتماعية في تشرذم الاحداث (٤٧) وضحت الفروق بين متوسط افراد مجموعة الاحداث جامعي الانقلاب والمتشردين ومجموعة الاحداث الاسوياء من الدخل الشهري للأسرة ومن باقي المصروفات المخصصة للحاجيات الضرورية للاتفاق على الأسرة . وقد تأكد ان هذه الفروق لها دلالة احصائية ، فقد كان متوسط الانسبة منخفضا في المجموعة الاولى عنها في المجموعة الثانية ، وفي بحث السرقه عند الاحداث (٤٨) الذي اجراه المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ثبت ان الحالة الاقتصادية لاسر الاحداث المتهمين بالسرقه في مستوى منخفض جدا .

ولا بد لنا من التسليم بان للعوامل الاقتصادية اثرها في الظاهرة الاجرامية سواء بطريق مباشر او غير مباشر ، على ان الذي لا يمكن تحديده هو مقدار تاتي سير الاجرام بالعوامل الاقتصادية لصعوبة فصل تلك العوامل وعزلها من غيرها ولا نهامتشابهة يؤثر بعضها في البعض الاخر ، وليس من السهل وضع ضوابط محددة لها . وعلى هذا فان الظروف الشخصية المفضة قد تؤثر بدورها في العوامل الاقتصادية ، بمعنى انه اذا توافر عامل اقتصادي معين فان هذا لا يعني انه يؤدي بالضرورة الى ارتكاب الجريمة ، وانما يتعين ان تتوافر ظروف اخرى تهيئ لتاثيره في ارتكاب الجريمة (٤٩) . فمثلا قد تحصل بالفرد ضائقة مالية ، ومع هذا فانه مهما بلغت شدتها لا يتخذ من الجريمة سبيلا للتغلب عليها ، وهوامر ملحوظ في حياتنا العادية . وقد يكون للجو

(٢) سيد عويس ص ١٧٧ وما بعدها

(٣) اثر العوامل الاجتماعية في تشرذم الاحداث

(٤) السرقه عند الاحداث

(٥) ستيغليتز وآخرون ص ٨٩ ويضيف بان عدم وجود عمل لا يكفي بذاته لان يكون سببا في انتهاك السلوك الاجرامي او وجوده ، بل هو وجود او عدم وجود العمل المناسب لامتكانيات الشخص ويكون متوافرا معه .

العام الذي يحيط بالفرد عاملا له على ارتكاب الجريمة ، وعلى سبيل المثال كان من اثر الحرب العالمية الثانية في مصر ان فغرت بعض الثروات في وقت قصير الى ارقام مذهلة مما افرى البعض ويسر الوصول الى الثراء السريع من اي طريق، وكان سبيله في هذا ارتكاب الجريمة . ولقد ذهب البعض الى القول بان للاحوال الاقتصادية تأثيرا كبيرا في تحويل مجرى الاجرام ، فبينما يدفع الفقر لارتكاب بعض الجرائم كالسرقة ، نرى الثروة - على الاخص الفجائية - تدفع للجريمة ايضا لانها تفسد الاخلاق ، بالانغماس في الشهوات وفي القلو في جمع المال . فالعوامل الاقتصادية كثيرا ما تكون كالسلاح ذي الحدين فتحدث في كلا الاتجاهين ازديادا في الاجرام . ويقال احيانا ان جرائم التسول تعتبر من مظاهر الضيق الاقتصادي، ولكن البعض ينفي هذه الفكرة ، وان المسألة ترجع الى الاستعداد الشخصي للفرد ، وان المتسولين المحترفين لا يستطيعون الاقتلاع من حرفتهم ولو عرض عليهم عمل شريف يربحون منه .

البيئة وجرائم الاحداث :

ان تأثير البيئة في سلوك الحدث بوجه عام ، وسلوكه الاجرامي بوجه خاص امر لا ينازع فيه احد ، والاهتمام بدراسة سلوك الحدث امر مشاهد في كل المجالات سواء على المستوى المحلي لكل دولة او على المستوى العالمي ، فتصد له المؤتمرات والحلقات الدراسية من فترة الى اخرى ، والدافع الى هذا هو ان حدث اليوم هو رجل الغد ، وبقدر تنشئة الحدث تنشئة صالحة يستفيد منه مجتمعه .

وفضلا عن هذا فان الحدث في سنوات عمره المبكرة يخرج الى الحياة المليئة بالتناقضات ، ولا تكون مداركه قد اكتملت بعد ليتبين الطريق الذي يسلكه في مستقبل ايامه ، ومن ثم فهو يختار النماذج السلوكية التي تحيط به ، وهو كالعجينة اللينة التي يسهل تشكيلها على اية صورة .

وتكشف الاحصائيات الجنائية عن ان اخطر انواع السلوك الاجرامي بالنسبة للاحداث يتمثل في جنح السرقة (٤٩) ، وذلك لكثرتها العددية ، لان هذه الجريمة ان بدات في سن مبكرة وجد احتمال العود الى الاجرام ، ثم ان هذه الجريمة قد يؤدي الحكم فيها الى ايداع الصغير السجن ، حيث يجد مجتمع الجريمة بما لا يقومه وانما يخرج منه اشد افاقا للاجرام .

وظروف البيئة المصرية توجب التنبيه الى امرين ، الاول ان هناك نوعا من الاجرام له ذاتية خاصة ولم يشكل اية مشكلة بعد ، هو اجرام الاحداث في الريف ، فطبيعة الحياة في القرية المصرية تعد في غالبية الاحوال الاحداث عن طريق الجريمة نظرا لان ظروف الحياة التي توصل الى الاجرام في المدينة تنفني في القرية ، نظرا للترابط العالي بين سكانها . هذا فضلا عن ان الجرائم التي تقع من الاحداث في الريف يجري نظرها وتسوية ضررها وفقا لعادات وتقاليد مريعية ،

(٤٩) بين من تقرير الامن العام لسنة ١٩٧١ عن الجنيح التي تقع من الاحداث بين سن السابعة والخاصة عشرة مربية تنزليا كالآتي : السرقة ، وكوب المواصلا بدون اجرة ، الاغلاف ، القتل والاصابة البطحا ، ولا شك ان السرقة هي اخطر تلك الجنيح .

ومن ثم لا يدرك شيء من أمر الجريمة . والأمرا الآخر هو ان الأرقام المظلمة في الاحصائيات الجنائية اشد ظهورا بالنسبة الى الأحداث ، فاللاحظ في البيئة العربية بصفة عامة هو السكوت عن البلاغ عن جانب كبير من جرائم الأحداث ، يدفع الى ذلك اسباب عديدة ومن بينها سوء حالة الحدث ورافة المجني عليه ، وقلة الضرر الناشئ عن الجريمة ، وتدخل الجمهور لتخليص الحدث من قبضة المجني عليه . (٤٧)

والبيئة الطبيعية التي ينشأ فيها الحدث وتفاعل معها هي الأسرة ، وهي اول ما يواجهه الحدث في حياته ومن بعدها المدرسة ، وقد ينتقل بعد المدرسة الى مجتمع العمل او قد يصله مباشرة ، وهو في كل دور قد يؤثر فيه مجتمع الطريق . ولا نستطيع ان نعرض بافاضة لهذه العوامل المختلفة ، لان كلا منها يصلح لان يكون موضوعا لدراسة كاملة ، ومن ثم نعرض لتلك العوامل بالتقدير الذي يسمح به مجال البحث .

تلعب الأسرة اخطر الادوار في نشأة الحدث وتربيته ، حيث يتأثر بها وينماذجها السلوكية ، سواء اكانت معادية للنماذج الاجرامية او متوائمة . فكل أسرة تقايلها وعاداتها واتماط سلوكها تسير عليها في مراحلها ، الامر الذي قد يختلف فيه أسرة عن أخرى مهما قربت المسافة بينهما . وهذا من آثار الفردية في المجتمعات الحديثة ، خلافا لما مضى ولما عليه الحال الان في القرى .

وأول النماذج السلوكية التي يتلقاها الطفل في حياته هو ما يسير عليه الوالدان ، فبحكم غريزة التقليد الفطرية يقتدي الطفل بالأمثلة التي يشاهدها . وعلى هذا اذا كانت النماذج السلوكية للوالدين من المواقف التي تعتبر معادية للجرائم فان الحدث سوف يقتدي بها وتتأصل فيه غالبا الا اذا تدخلت عوامل أخرى تغير السير الطبيعي للأمور . ولكن قد تكون المواقف السلوكية للوالدين من غير المواقف الحميدة ، ومن ثم فانها سوف تنطبع في ذاكرة الحدث ، ويعتبرها من التصرفات الطبيعية فيما قد يواجهه من أمور الحياة . فالوالد قد يكون سلوكه اجراميا ، اى منغمسا في الجريمة ، ومن ثم فهو قدوة للصغير . وقد يخلق هو السلوك الاجرامي في ولده وان لم يرتكب هو الجريمة ، واخيرا فقد يتخذ الأب موقفا سلبيا ان وقع من الحدث ما يعد سلوكا اجراميا (٤٨) .

(٤٧) راجع في هذا الصدد دراسة مقارنة عن اجرام الأحداث في الشرق الأوسط ص ١٤ وما بعدها .

(٤٨) دراسة عن اجرام الأحداث في الشرق الأوسط ص ٣٦ . ويذكر جون مايز ان الأب أو الأم يكافيه الصغير او يعالجه حسب ما يرى في تصرف الصغير من حسن او سوء ولذا لتقدير أيهما يعترف النفر عن القاييس العامة في المجتمع الخارجي . والطفل يستجيب لها لانه في مراحل عمره الاولى يروم علاقة متينة بينه وبين والده حيث يبحث عن الحب . وبهذا يمكن ان ينشأ الشخص معوا للمجتمع ، على ان هذه ليست القاعدة حيث يحتمل ان يبعد الوالدان عن الصغير حقيقة سلوكهما ، فمثلا البقي قد تقوم بتربية صغيرها في وسط يبعد عما هي منه ، وتفرس فيه احترام القانون (ص ١١٩) فلا يمكن دراسة المؤثرات الاجتماعية على السلوك الاجرامي دون دراسة نوع وطبيعة العلاقات العائلية (ص ١٢٠) والأسرة هي اول مؤسسة لمعالجة السلوك الاجتماعي ، من والده يتلقى القانون الاخلاقي وسلوكه في الحياة ، فلذا كانت القيم والمواظف في المنزل تتواءم مع العالم الخارجي فسلوك الصغير يكون متقلدا والتفتون وقد يكون العكس صحيحا (ص ١٢٠) .

وللقواعد السلوكية في تربية الصغير انزعيق في سلوكه واحتمال او عدم احتمال انحرافه .
اننا لو نظرنا الى الاسرة المصرية لوجدنا ان تربية الصغير تكاد تسير على تقاليد يتلقاها الخلف عن
السلف ، وهي وان دخل عليها بعض التعديل فهو الذي يقتضيه تطور الحياة المدنية . ويرجع هذا
الى قلة الكتب التي تتناول اسلوب معاملة الطفل ثم قلة من يقرأ هذه الكتب ، ثم قدرة من يتتبع
ما جاء بها ، والتصرف ازاء الصغير يكون دائما من وحي الساعة . ومن اخطر العوامل المؤثرة في
سلوك الصغير هو جهل احد الوالدين بان من شأن بعض التصرفات ان تكون من عوامل انحراف
الحدث . ومن هذا القبيل القوة الشديدة التي لا مبرر لها حين ارتكابه لخطا وقد يصل الحال
الى المروق من سلطة الوالدين ، وتقابل القسوة اللين المتناهي لاي سبب كان ، لان التفاضل عن
أخطاء الصغير او التهوين من امرها قد يكون من الزه استمرار الصغير في سلوك يؤدي الى
انحرافه . وقد يكون الاهمال بدوره من عوامل الانحراف ، لان معناه افتقاد الصغير للرعاية
والتوجيه ويسفر عن انعدام الرقابة على السلوك ، يستوي في هذا ما يجري داخل المنزل او العلم بما
يتعلق بحياة الصغير خارجه . وفي بعض الاحيان قد تؤدي التفرقة بين الابناء واختلاف معاملاتهم
الى حقد من جانب بعضهم تجاه البعض الآخر ، وهو شعور اذا عززته عوامل اخرى قد يؤدي
بالحدث الى الانحراف .

ولقد سبق ان عرضنا للظروف الاقتصادية وعلاقتها بالبيئة ، ولاشك في ان القدرة الاقتصادية
للالسرة تكون سببا في تحديد كثير من العوامل المؤثرة والتي قد تؤدي الى اجرام الاحداث (٤٩) .
واول ما يتاثر بالظروف الاقتصادية هو المسكن الذي يقيم فيه الحدث ، ذلك ان رب البيت
يتخير المكان في الحي الذي يتماشى مع اقتصادياته وموارده ، وتؤثر القدرة الاقتصادية في تحديد
مدى صلاحية المكان للسكن من ناحية اثاثه واتساعه وكونه صحيا من عدمه ، ولهذا اكبر
الان في استقرار الصغير داخل المسكن او الثورة عليه والهرب منه الى الطريق لا سيما في اوقات
الفراغ . ولعلنا نلاحظ هذا في انطلاق الاحداث في كثير من الاحيان الى الشوارع في مجموعات لقتل
الوقت وهي في ذاتها قد تكون بؤرة لتكون جرثومة الاجرام . وقد ثبت من البحث الخاص بجرائم
السرقعة عند الاحداث (٥٠) ان حالة أسر الاحداث المهنية في مستوى منخفض جدا .

والعلاقة بين الاب والام لها اثرها الكبير في سلوك الطفل ، فالخلاف بين الزوجين قد يعيل
بالصغير الى جانب آخر ، وقد لا يستطيع الكشف عن مشاعره في صورة مريحة فينعكس هذا في
صورة تمثل انحرافا يقود الى الجريمة . وقد يرجع انتفاء الهدوء في المنزل الى ضعف احب
الزوجين ازاء الآخر ، على ان احد الطرفين - لاسيما اذا كان الاب - يعطي امثلة للاولاد فتطبعهم
بأحدى الصورتين الضعف او التحكم ، وهو امر لا تحمد عواقبه . ومن الامور الملحوظة في حياتنا

(٤٩) دراسة مقارنة عن الاحداث في الشرق الاوسط ص ٢٤

(٥٠) بحث السرقعة عند الاحداث .

ان ضرورات الحياة اضطرت كلا من الأب والأم إلى الانطلاق في سبيل الحياة كسباً للعيش .
ويترب على هذا ان يفقد الطفل الرعاية الأبوية له ، ويترك في بعض الاحيان في مجتمع الطريق
لدى بعض الجيران ، بل انه حتى بعد عودة الوالدين من العمل لا يكون لديهما من الوقت او
الجدد ما يكفي لرعاية الصغير ، ومن المعروف انما يؤثر في سلوك الصغير المشاكل التي تنشأ اما
عن وفاة أحد الوالدين أو هما معا أو الانفصال بينهما بالطلاق ، ثم حياة أحد الزوجين مع بديل
للأب أو الأم .

وللتعليم اثره العميق في الارتفاع بالمستوى الفكري والثقافي للإنسان ويساعد على تكوين
شخصيته المستقلة وعلى حسن تقديره للأمور . وتتل الاحصائيات الجنائية سواء في مصر أم في
الخارج على أن النسبة الغالبة من المجرمين أحادنا وبالنين — هي للاميين ولان لا يحسنون
القراءة والكتابة ، ومن شأن التعليم خلق نماذج السلوك المعادي للأجرام . والمدرسة من أولى
الجماعات المنظمة التي ينضم اليها الطفل في خارج منزله في السنوات الأولى من حياته ، وإذا كان
الصغير يجد في المنزل نماذج سلوكية محدودة ، فان مجتمع المدرسة الجديد يلتقي فيه بنماذج
عديدة متنافسة أو متنافرة ، وهو في حد ذاته قد يجد نفسه ازاء تلك النماذج ، ولا بد له ان يختار
بعضها سواء بمجرد دافع التقليد أو انسياقاً في تيار الجماعة . ومع هذا قد يعينه غيره في
عملية الاختيار (٥١) . وتأتي اثر هذا أهم مشاكل التربية السلوكية ، وهي تحديد دور كل من البيت
والمدرسة في تربية الصغير ، ويمكن لنا القول بأن قصر الواجب على البيت وحده أو على المدرسة
وحدها امر غير مقبول ، وإنما الخير في المعاونة بينهما في تعرف هيوب الصغير الذي يحتمل ان
تؤدي الى انحرافه والعمل معا على إبعاده عنها .

وقد ينتقل الصغير من البيت الى العمل مباشرة ، لاسيما في الأسرة التي تحتاج اقتصاديا
الى دخل الصغير ، وقد يمضي الحدث فترة في المدرسة ثم لا يتم تعليمه لسبب أو لآخر ويلتحق
بأحد الأعمال ، وفي العمل يلتقي الحدث بأفراد مبدعين لهم نماذج سلوكية معينة . ويختلف
مجتمع العمل عن مجتمع المدرسة ، فالأخير يحوي الحسن الى جوار السيئ ، وإذا كانت المدرسة
تهتم بالناحية السلوكية فان رب العمل لا يعني إلا بالناحية النظامية ولا يعنيه من السلوك إلا ما
يؤثر في سير العمل . والتجمعات المختلفة التي تفرضها طبيعة مجتمع العمل لها اثر كبير في
النماذج السلوكية التي يتخيرها الفرد ، سواء كانت اجرامية أو معادية للأجرام ، وقد تفرض
ظروف العمل على الحدث ان تكون له صلة بأفراد معينين لا خيار لهم في انتقالهم . ومن هذا قد تبدأ
بلادة الجريمة في الإنبات ، ويتصل بها الحدث مثلاً بفريضة الجماعة دون ان توجد نماذج أخرى
معادية للأجرام تساعده على مقاومة عوامل الاجرام .

(٥١) فالبيئة المدرسية تمنع وسطا يعمل اما للغير أو للشر ، سلوك الفرد (بروتس ص ٤٠)

وأخيراً فقد يجتمع الاحداث خارج نطاق المنزل او المدرسة او محل العمل ، ويكون هذا فيما يسمى بمجتمع الطريق . ومن هذا القبيل الشارع والسينما والمقاهي والحدائق العامة .

واجتماع الحدث مع غيره من الرفقاء امر تدفع اليه الفريضة ، ويؤدي انطلاق الحدث الى الطريق الى اجتماعه بغيره ، سواء من كان في سنه أو يكبره أو يصغره ، فتكون الجماعات الصغرى . ولا شك في ان افراد تلك الجماعات تحوي نماذج سلوكية مختلفة تتقارب حتى لتكاد تتحد مع مرور الوقت ، والحدث في المجموعة يؤثر أو يتأثر بها حسب قوة شخصيته ومدى الاستعداد المهيا له . ولما كان السلوك غير المادي للاجرام يشجع عليه التجمع فان احتمال انزلاق بعض جماعات مجتمع الطريق الى الجريمة امر متوقع .

البيئة والتغير الحضاري :

يتبادر الى الذهن التساؤل عما اذا كان للتنمية الاجتماعية والاقتصادية من اثر على حجم الجريمة واتجاهاتها ، وبمعنى آخر هل هناك علاقة بين التحضر والجريمة من ناحية ، والتصنيع والجريمة من ناحية أخرى ؟ والاجابة على هذا السؤال ليست من البساطة بمكان ، لانها تقتضي ابتداء تحديد المراد من لفظي التحضر والتصنيع . ولا نستطيع القول بان هناك شابطاً محدداً يمكن معه التفريق بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية ، على انه بالنسبة الى مصر وفقاً للاحصاء السنوي الذي تصدره الدولة (٥٢) ، يعتبر مناطق حضرية المحافظات وعواصم المحافظات وبنادر المراكز ، أما غير هذا فيعتبر من المناطق الريفية . واذا كاد مفاد التصنيع هو انقلاب كامل في سياسة الدولة الاقتصادية ، بمعنى ان تعتبر الصناعة المورد الاساسي في اقتصادها الا انه بالنسبة لمصر فان الاساس هو الزراعة ، وسياسة التصنيع ما تزال في بدايتها ، ولا يمكن ان يعتبر المجتمع المصري بالمشآت الصناعية المستحدثة مجتمعاً صناعياً .

ومع هذا فيقدر التحول الموجود في مصر هل يوجد تغير في خط سير الاجرام ؟ ان هناك صعوبة لا يسهل الافلات منها ، وهي ربط الجريمة بالتحول القائم في المجتمع ، بمعنى اعتبار التحول سبباً في ظاهرة معينة تتعلق بالجريمة . فالسلوك الاجرامي نتيجة لعوامل عديدة تتفاعل مع بعضها وتوصل اليه . على ان هذا لا يمنع من ملاحظة بعض التغيرات التي تطرأ على الاجرام في المجتمع وتكون مرتبطة بسياسة التحول . ومن ناحية أخرى يفترق الحال الى الاحصائيات التفضيلية الدقيقة التي يعتمد عليها في هذا الصدد . واذا رجعنا الى مختلف بيانات الاحصائيات في مصر لا نجد اي تغير جوهري قد دخل عليها نتيجة للتنمية الاجتماعية والاقتصادية ، حتى ان كثيراً من الجرائم المنتشرة والمعروفة حالياً لم تدرج بها . وأكثر من هذا تأتي الاحصائيات الحالية

صامتة فيما عدا اشارات عابرة عن سير الاجرام في مقدمة تقرير الامن العام ، في حين ان الجداول الاحصائية السابقة كانت تحوي دراسة عنها وتقليلًا للنتائج التي توصل اليها ، فضلا عن ان تقارير الامن العام كانت تشمل ملاحظات رجال الامن في كل محافظة عن حالة الاجرام والاقتراحات الخاصة بمكافحة الجريمة .

واذا نظرنا الى الاحصائيات الجنائية - لاسيما الخاصة بتقارير الامن العام - لوجدنا ان الجرائم - وعلى الاخص الخطيرة منها - تتجه نحو النقصان ، وهي نتيجة تلفت النظر لاسيما مع ازدياد تعداد السكان ، وتدمو لدراسة خاصة لمعرفة ما اذا كان هذا النقصان ظاهريا ام يطابق الواقع . وحتى لو ثبتت حقيقة هل يرد هذا الى التحول الذي طرأ على المجتمع او الى تقدم المدينة الطبيعي في كل الدول مع مرور الايام ؟ والدراسة الحققة لا تار التحول يجب ان تبدأ بالريف أولا .

والبحث فيما اذا كانت التنمية الاجتماعية والاقتصادية يؤديان الى ازدياد الاجرام من عدمه لا يقتصر على المجتمع المصري ، بل هو يتناول كل الدول التي تمر بهذه المرحلة من دول العالم الثالث . وقد كان الموضوع من بين ما طرح على المؤتمر الدولي الثاني لمكافحة الجريمة ومعاملة المذنبين الذي عقد في لندن سنة ١٩٦٠ وتبين من المناقشات التي دارت حوله ان الرأي لم يستقر على اثر التحول الاجتماعي والنمو الاقتصادي في حجم الاجرام ونوعه . فبينما عرض بعض الاعضاء تجارب بلادهم الفعلية كانت هناك آراء مغايرة لذلك .

وقال المدير العام انه من الواضح انه لا تتوافر لدينا المادة العلمية الكافية للوصول الى نتائج على قدر كاف من الوضوح ، وفي مقدمة هذا النقص عدم دقة الاحصائيات الجنائية المتاحة ، ويبدو هذا جليا في ان الارقام من الحضر والارقام من الريف لا يفصل بينهما خط واضح ، اذ ان ما هو حضري وما هو ريفي في ذاته ليس شيئا محددًا ، بل حتى ولو كانت الارقام مما يمكن الاعتماد عليه فانها لا تفصح عن المفهوم الاجتماعي وراء هذه الارقام ، وهو مفهوم شديد الاختلاف من جماعة الى اخرى مما يجعل من الصعب الوصول الى تفسير دقيق لهذه الارقام ، او امكان اتخاذها اساسا للمقارنة من جماعة الى جماعة .

وقد كان من اهم التوصيات التي اقترها المؤتمر ما يأتي (٥٢) :

١ - ليس الاجرام نتيجة لازمة للتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادي في الدول الاقل نموا . فالتغيرات الاجتماعية ، وكذلك النمو الاقتصادي ، كلاهما امر محتم ومقبول ، وقد يؤديان في ظروف مناسبة الى نقص الجريمة . وتعتبر الدول الاقل نموا انما يشير الى حالة من النمو الاقتصادي فحسب .

٢ - الاجرام الذى قد ينشأ عن التغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا لا يعتبر الآن من صور السلوك التى لم تكن معروفة من قبل . ولذلك ينبغي تركيز الاهتمام على صلة زيادة الاجرام بوجه عام بالتغيرات الاجتماعية ، لا قصره على صورة خاصة من الاجرام .

٣ - قد ظنَّ خطأ أن الهجرة ، وخاصة الهجرة الداخلية ، التي تقرون مادة بالتغيرات الاجتماعية المصاحبة للنمو الاقتصادى فى البلاد الاقل نموا ، من اسباب الاجرام ، والواقع أن الهجرة فى ذاتها ليست سببا للاجرام ، بل أن عدم الاستقرار الحضارى وضعف الضوابط الاجتماعية التقليدية والتعرض لمستويات متضاربة من السلوك الاجتماعى مما يرتبط بالهجرة ، كل ذلك من شأنه أن يتسبب فى الاجرام . وهذا النظر يصدق أيضا بالنسبة الى ظاهري التحضر والتصنيع .

٤ - ويلاحظ أنه عند بحث مشكلة الاجرام وعلاقته بالتغير الاجتماعى يتجه النظر بصفة عامة الى المناطق الحضرية ، وهو أمر وإن كان من الممكن تبريره إلا أن الحكمة تقتضى أيضا أن يوضع موضع النظر والاعتبار أثر التغير الاجتماعى فى المناطق الريفية ذاتها ، إذ أن ذلك قد يكشف عن جذور الجريمة التي تعلن من نفسها فيما بعدق المجتمع الحضري .

وقد قام المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة التحضر والجريمة فى مصر (٥) معتمدة على احصائيات وزارة العدل لماتوافر فيها من تحديد وتقريب للجرائم المختلفة كما جاءت فى قانون العقوبات ، ومن استمرار نفس التيوب والتصنيف للبيانات المختلفة المدة الزمنية المحددة للدراسة ، وهي من عام ١٩٤٧ الى عام ١٩٥٧ . واتضح من هذه الدراسة أن جرائم الجنائيات والجنح تزيد بصفة عامة فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنائيات تزيد جرائم العنف المرتكبة ضد الاشخاص لاسباب انتقامية ، وجرائم الانتقام بالحرق العمد ، او قلع المزروعات ، او تسميم المواشى فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية . أما جرائم السرقة والرشوة والتزوير والاختلاس والفسق وهتك العرض والوقود تزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية . وبالنسبة الى الجنح تزيد الجنح التالية فى المناطق غير الحضرية عنها فى المناطق الحضرية ، تسميم المواشى واللاف المزروعات . أما الجنح الآتية فتزيد فى المناطق الحضرية عنها فى المناطق غير الحضرية : السرقة ، التشرد ، النصب ، خيانة الامانة ، الضرب ، القتل الخطأ ، الهروب من المراقبة .

(٥) بحث التحضر والجريمة فى مصر - ص ١ وما بعدها .

وفي محاولة معرفة اتجاه الجريمة في المناطق الحضرية والمناطق غير الحضرية خلال المدة من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٧ اتضح الآتي :

١ - أن جرائم الجنايات بصفة عامة أخذت في الانخفاض تدريجيا حتى ١٩٥٢ ، وكانت نسبة انخفاض الجنايات في المناطق غير الحضرية أكبر من نسبة انخفاضها في المناطق الحضرية باستثناء عامي ١٩٥٠ و ١٩٥٢ .

٢ - بدأت جرائم الجنايات بصفة عامة في الزيادة ابتداء من عام ١٩٥٢ الذي زادت فيه بشكل كبير حول الانخفاض التدريجي إلى ارتفاع تدريجي .

٣ - كانت جرائم الجنايات بصفة عامة أكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق الحضرية عنها في المناطق الحضرية ، بينما تميل إلى الانخفاض بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

٤ - جرائم الجنح بصفة عامة أخذت في الارتفاع التدريجي عام ١٩٤٦ وانخفضت بشكل كبير عام ١٩٥٧ . وأيضاً تبين أن الجنح بصفة عامة أكثر ميلا للارتفاع بشدة في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية .

والذي يمكن استخلاصه من هذه الدراسة أن الجرائم التي يمكن أن يطلق عليها الجرائم الانتقامية - لا سيما ما كان منها متعلقا بالاعتداء على الأشخاص - تظل دائما في المناطق غير الحضرية عنها في المناطق الحضرية . وأن جرائم الاعتداء على المال، والتي تكون الغاية منها الكسب تفلب في المناطق الحضرية عنها في المناطق غير الحضرية . وقد لوحظ أيضاً أن مختلف أنواع الجرائم - الجنايات والجنح - تتجه دائما نحو الارتفاع. هذا وأنه وإن كانت الدراسة قد تناولت حجم الجريمة منذ عام ١٩٤٧ حتى ١٩٥٧ إلا أنها لا تكشف عن أثر التحول الذي حدث في المجتمع على سير الإجرام ، لأنها اعتمدت على إحصائيات وزارة العدل التي لم تتغير جذواً ولها وبياناتها للجرائم خلال هذه الفترة .

وقام المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية بدراسة أخرى عن ظاهرة الجريمة في أسوان (٥) وذلك في المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ . وقد جاء في مقدمة هذه الدراسة أن مجتمع أسوان كان - إلى حين تنفيذ مشروع السد العالي - مجتمعا محتفظاً بأصالته الريفية وباللاقات الاجتماعية التي تنمو في كل مجتمع زراعي ، وقد تربى على تنفيذ مشروع السد العالي ورود عدد كبير من العمال والمهندسين والموظفين من جميع أنحاء الجمهورية بمنطقة السد

العالي ، وقيام بعض الصناعات التي يحتاجها المشروع : ولما كان هؤلاء العمال والموظفون يرتبطون أساسا بالصناعة ، فقد كانت تسودهم قيم وأخلاقيات ومبادئ اجتماعية تختلف اختلافا كبيرا عن القيم والأخلاقيات والمبادئ الاجتماعية التي تسود سكان أى مجتمع زراعى .

وأنه بشكل عام يمكن القول بأن مجتمع أسوان قد تحول بعد بدء العمل في مشروع السد العالي الى مجتمع صناعى تتضح فيه كل السمات الأساسية التي يتسم بها هذا النوع من المجتمعات، ومن الظواهر التي تآثرت تأثيرا كبيرا بالتغيير الجذري الذي حدث في تلك المنطقة ظاهرة الجريمة .

ويمثل الجدول التالي جرائم الجنايات التي وقعت خلال المدة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٤ :

الجريمة السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق	جنايات أخرى	جملة
١٩٥٩	٤	٢	١	٢	٣٤	٤٣
١٩٦٠	١٠	١	—	٣	٢٥	٣٩
١٩٦١	٥	٢	—	—	٢٧	٣٤
١٩٦٢	٥	١٠	—	١	٢٠	٣٧
١٩٦٣	٤	٢	—	١	٣٩	٤٦
١٩٦٤	١٤	٢	١	—	١٥	٦٦

أما جنح السرقة فقد بلغت نسبتها الى مجموع الجنح خلال السنوات ١٩٦١ حتى ١٩٦٤ على التوالي كما يأتى : ٣١٩ ٪ ، ٢٧٢ ٪ ، ٢٥٥ ٪ ، ٣٢٣ ٪ .

واتماما لعقد المقارنة يمكن إضافة الجدول التالي من جرائم الجنايات :

الجريمة السنة	قتل وشروع	سرقة وشروع	خطف	حريق
١٩٣٨	٩	١٢	—	١٧
١٩٤٨	١١	٨	—	١٣
١٩٥٨	٦	١٠	١	٨
١٩٦٨	١٢	٦	—	٢
١٩٧١	١١	١١	١	١
١٩٧٤	٧	٤	—	١

فهل يمكن أن نستنتج من الجدولين السابقين الخاصين بجرائم الجنايات أثر تحول المجتمع في أسوان على ظاهرة الجريمة ؟ ، في رأينا أنه لم تتوافر بعد البيانات الكافية لاستخلاص نتيجة يعتمد عليها . فالجدول المستخلص من بحث المركز القومى لم يبين النسبة المئوية للجريمة

بالتقاييس الى عدد السكان في محافظة اسوان الذى تزايد بدرجة كبيرة بما قد يؤدي الى الانخفاض في نسبة الاجرام لا في زيادته ، لا سيما اذا رجعنا الى الجدول الثاني حيث تكاد تكون جنيات القتل والشروع فيه متقاربة . هذا ومن المسلم به انه لا يمكن تحديد الآثار الناشئة من تحول المجتمع في سنة محددة اثر سنوات تالية ، وانما يحتاج الامر الى دراسة كل جريمة على حدة . وعلى سبيل المثال اذا كانت جريمة القتل ترتكب للثأر فهل يؤثر التحول الاجتماعى عليها ؟ والامر لا يختلف بالنسبة الى الجنع حيث تكاد تكون نسبة جنح السرقة خلال سنوات الدراسة متقاربة ، والمهم هو مقارنة هذه النسب مع ما كان عليه الحال قبل تطور المجتمع . وخلاصة قولنا ان الامر يحتاج الى مزيد من الأبحاث والدراسات .

ومما يتصل بالتفسير الحضارى وله اثر بالغ في سلوك الفرد على اية صورة كان سواء كانت اجرامية او سوية، هوالا اجهزة الثقافة والترفيه في الاجرام ، ذلك ان هذه الوسائل تعتبر جزءا من الوسط الذى يعيش فيه الفرد ويتأثر به (٥٦). فوسائل الاعلام المختلفة تلعب دورا خطيرا في الحياة الثقافية لانفراد الشعب ، فالذا قدمت نماذج صالحة كان لهذا اثره على المستوى السلوكى، اما ان عرضت لصور من الاجرام بشكل يشير الفرائز الكامنة في الانسان ، فانها بهذا تشجع السلوك الاجرامى . ولقد تناول كثير من الباحثين دور وسائل الاعلام في نشر الجريمة او مكافحتها، حيث يسمى بعضها الى مجرد الكسب المادى دون نظر الى ما قد يسفر عن ذلك من نتائج ، فتصوير المجرمين في صور البطولة ، وجلب عطف القراء عليهم ، وايضاح سبل ارتكاب الجريمة ، والهرب من ادلتها واعداد نتائجها سلفا ، كل هذا قد يكون من العوامل المساعدة على السلوك الاجرامى .

ونستطيع القول بان الآثار الخطيرة التى ظهرت لوسائل الاعلام في بعض البلاد الاجنبية لم تصل الينا بعد ، وذلك للصورة المقبولة التى ينشرها عن الجريمة . وان كانت هناك بعض الوقائع التى اهتمت فيها المهتمون بانهم رسموا طريقهم فى ارتكاب الجريمة وفقا لما شاهدوه فى بعض الأفلام ، الا ان تلك الوقائع مازالت فردية لا تمثل خطورة . ولم تستطع نتائج الأبحاث التى أجريت قديما وحديثا بيان تأثير أدوات الاعلام فى السلوك الاجرامى لا سيما بالنسبة الى الاحداث .

خاتمة :

راينا فيما تقدم ان الجريمة تعتبر احدى الظواهر الاجتماعية ، وانها موجودة دائما منذ خلقت البشرية الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، فلا مجتمع بغير جريمة . والجريمة وان كانت ضرورية فهي في ذات الوقت شر ، يقتضى مداومة البحث عن مختلف السبل للاقلال من ضررها على المجتمع ، واقتضى الامر تحديد الجريمة التى نستحث الباحث على الاهتمام بها

ومتابعتها وتقصي عواملها وتبني آثارها ، ثم لزم تبعاً لهذا أن يحدد نطاق البيئة ، وهو أمر من الدقة بمكان ، ذلك لأن أي حدود لمعنى البيئة انسمت أم ضاقت - لابد وأن يدخل عليها أو يخرج منها بعض العناصر ، لأنها على أية صورة تتفاعل مع مختلف الظروف والعوامل المحيطة بها . وعلى هذا فقد رأينا أن كل ما يراه العلماء عاملاً من عوامل الاجرام له صلة بالبيئة من قريب أو بعيد ، واقتضانا هذا ان نتناول تلك العوامل واحداً بعد الآخر لنتبين مدى ما يتركه من اثر في السلوك الاجرامى على وجه الخصوص . ولا شك في أن كل عامل من العوامل يمكن تناوله مستقلاً وبالتفصيل ، سواء من الناحية النظرية أو من الناحية التطبيقية ، ولكننا اردنا في هذا البحث أن نلم بتلك العوامل مجتمعة حتى تتضح معالم صورة البيئة كاملة ، ويستطيع من يتناول دراسة عامل معين ان يكون في اعتباره قيام كل أو بعض العوامل الأخرى .



المراجع

أولا - اللغة العربية :

- ١ - أحمد أبو زيد الثار ، دراسة اثروبولوجية بأحدى قرى الصعيد ، من منشورات المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة ١٩٦٥ .
المجلة الجنائية القسومية ، نوفمبر ١٩٦٢ .
- ٢ - أحمد على الجندوب - دراسة للقاهرة الجريمة في قرية طهواي - المجلة الجنائية القسومية لولاية ١٩٧٢ .
- ٣ - أحمد محمد خليفة - الوفاة من الجريمة الناشئة عن التلوث الاجتماعي المصاحب للتنمية الاقتصادية في البلاد الأقل نموا - المجلة الجنائية القسومية ، مارس ١٩٦١ .
- ٤ - حسن المرسلاتى - الأجرام والمقاب في مصر - الاسكندرية - ١٩٧٢ .
- ٥ - حسن المرسلاتى ومحمود السبامى - مياد علم الأجرام ، مترجم (سكرلانو كريسي) القاهرة ١٩٦٩ .
- ٦ - زكريا طه - جريمة الطفل في جمهورية مصر العربية - معهد الدراسات العليا لمصباح الشرطة - القاهرة ١٩٧٤ .
- ٧ - سمح الجوزدى - الزلازل والحكم عليها بسجون الاقليم المصرى - المجلة الجنائية القسومية نوفمبر ١٩٥٩ .
- ٨ - سيد عويس - حجم مشكلة جناح الاحداث واتجاهاتها وعواملها في الجمهورية العربية المتحدة - المجلة الجنائية القسومية - يولية ١٩٦٥ .
- ٩ - سيد عويس ، شهيرة الباز - ظاهرة الجريمة في محافظة اسوان - المجلة الجنائية القسومية - يوليو ١٩٦٦ .
- ١٠ - عبد العزيز معهد اللطنى - سمات الجريمة في محافظة البحيرة والتخطيط لكافتها - معهد الدراسات العليا لمصباح الشرطة - القاهرة ١٩٧٤ .
- ١١ - محمد السبامى - الأجرام في مصر - اسبابه وطرق علاجه - القاهرة ١٩٤١ .
- ١٢ - محمد خيرى محمد على - الريف والحضر وقاهرة الجريمة - القاهرة ١٩٦٥ .
- ١٣ - محمود عبد الرزاق عبد المال - نوعية الجريمة في بصرة المنزلة - معهد الدراسات العليا لمصباح الشرطة - القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٤ - منصور غيث قنديل - الأمن العام في الجمهورية الليبية - معهد الدراسات العليا لمصباح الشرطة - القاهرة ١٩٧٥ .
- ١٥ - الأمم المتحدة - دراسة مقارنة من اجرام الاحداث (الجزء الخاص بالشرق الاوسط) ١٩٦٦ .
- ١٦ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية دراسة التحضر والجريمة في الاقليم المصرى - مجلة الجنائية القسومية - مارس ١٩٥٩ .
- ١٧ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية السرقعة عند الاحداث - من منشورات المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .
- ١٨ - المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية العوامل الاجتماعية في نشوء الاحداث ، المجلة الجنائية القسومية - نوفمبر ١٩٦٥ .

ثانياً - اللغة الأجنبية :

1. Bonger W. T. : An Introduction to Criminology, 1936.
2. Bouzat Pierre et Jean Pintil : Traité de droit pénal et de criminologie, T. III, 1968.
3. East Norwood : Society and the Criminal, 1951.
4. Kolaly, El-Mohamed : Essai sur les causes de la criminalité astuelle en Egypte, 1929.
5. Mays, John Barron : Crime and Social Strechure, 1963.
6. Pinatel, Jean : La Criminologie, 1960.
7. Prins, Hershel : Criminal Behaviour, 1973.
8. Seeling, Ernst : Traité de criminologie, 1956.
9. Stefani, J. & G. Levasseur & R. Jambu Marlin : Criminologie et sience penitentiaire 1970.
10. Sutherland, Edwin H. & Donald Cressey : Principes de criminologie, 1966.
11. Tannenbaum Frank : Crime and the Community, 1963.
12. Wolfgang, Marion & Leonard Sairtz & Norman Johnston : The Sociology of Crime and Delinquency, 1970.

★ ★ ★

محمد عبد الرحمن الشرنوبى *

بيئة العصر: بين البقاء والفناء

منذ ملايين السنين وعوامل التعرية الهوائية والمائية والتغيرات المناخية تعمل على تغيير العديد من مظاهر البيئة الطبيعية ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن جنسا واحدا من اجناس الكائنات الحية العديدة التى تحيا حياة الأرض ، يمكن أن يعمل بجهد - سواء كان ذلك بقصد أو بغير قصد - على دمار هذا الكوكب أو تخريبه والعمل على تدهور ظروفه الطبيعية الا منذ ٨٠٠٠ سنة مضت فى صورة هذا الإنسان الجوال المطارد ، الذى يطوف اجزاء الأرض بحثا عن الطعام ، ثم تطور الى فلاح يزرع الأرض ، ثم جاءت المدنية فحياة المجتمعات الصناعية التى شوعفت فتضاعفت المخاطر التى تتعرض لها بيئة هذا الكوكب .

لقد كانت الاسرة البشرية الاولى تعمل بجهد لا يعرف الكلل على جمع طعامها بمطاردة الحيوانات خلال ما يعرف بالعصر الحجري القديم . وكانت فى هذا متفاعلة تماما مع

* دكتور محمد عبد الرحمن الشرنوبى ، استاذ الجغرافيا المساعد بكلية الآداب والتربية بجامعة الكويت .

الجمتمعات البيولوجية المحيطة بها . ولقد أسهمت الأدوات التي استخدمها الإنسان آنذاك في تكوين أسرة مدربة تدريبا رافيا على مطاردة الحيوانات والإيقاع بها ، ومع ذلك فلم يكن تأثير هذا الإنسان على تلك المجتمعات البيولوجية يختلف حقيقة عن تأثير أى نوع من أنواع الكائنات الأخرى كالحيوانات آكلة اللحوم وآكلة العشب ، ولكن الصورة تغيرت تماما مع مسيرة التاريخ الإنساني الطويلة .

لقد جاء أول تغير على العلاقة بين الإنسان والبيئة مع اكتشاف النار . ولقد كان ذلك الحدث الخطير في حد ذاته من أهم الأحداث التي عاصرت خروج الإنسان من أسر الطبيعة من حوله أو من تفاعله الهادئ مع عناصرها . فليس هناك أى كائن آخر يستطيع أن يشعل النار ويستخدمها . وعندما بدأ الإنسان يتحكم في هذه الظاهرة الخطيرة - النار - ازداد استخدامه لها ، فأحدث بذلك الكثير جدا من التأثيرات الإيكولوجية ذات المدى البعيد والخطير . (١)

ولقد مرت علاقات الإنسان بعناصر البيئة من حوله آنذاك بتغيرات هائلة ، ولكنه كان في كل تصرفاته وعلاقاته وتفاعلاته مراعيا لمبادئ الإيكولوجية ، كما نجح في استمرار بقاء الجسور ممدودة بينه وبين البيئة بعناصرها المختلفة من حوله . كذلك نجح في استغلال هذه العناصر بحكمة متناهية وبصيرة نافذة ، ربما عن غير قصد ، إلا أن إثبات ذلك يعتبر أمرا عسيرا ، وأن كان من الثابت أن ذلك الإنسان لم يكن يميز - كما يفعل إنسان العصر - بين ذاته كائنات ، وبين العالم الطبيعي المحيط به .

لقد أطلق علماء الأنثروبولوجيا على تلك التغيرات اصطلاح ثورة العصر الحجري الحديث Neolithic Revolution ، رغم أن اصطلاح «ثورة» هنا ربما لا يتلاءم تماما مع التغيرات التي حدثت على امتداد ملايين السنين ، ولكونها حدثت في أزمنة متباعدة ، وفي تلاحق مستمر ، وفي أجزاء مختلفة من العالم . واستطاع الإنسان آنذاك عرغم اعداده البسيطة - أن يتدخل في بيئته .

ومن خلال ممارسة هذا الإنسان لنشاطاته المختلفة خلال ذلك العصر ، تمكن من تطوير أدوات صيده وأسلوب مطاردته لفريسته . ولقد كان مسرفا في ذلك الى حد كبير . (٢) فكان يتوود قطمان الحيوانات الى الشراك المختلفة والى الجروف ليسهل القضاء عليها في جماعات . وعلى الرغم من ذلك ، ونتيجة لقله أعداد السكان خلال ذلك العصر ودوام حركتهم ، كان تأثير الإنسان في البيئة تأثيرا محليا ومؤقتا . فالأرض كانت تعطى الفرصة لاستعادة ما فقدته من غطاء نباتي ، وكان الإنسان يعود إليها لممارسة نشاطه من جديد وكأنها أرض جديدة حل بها .

(١) Marston Bates : „The Human Ecosystem", Firm Resources and Man, by the Committee on Resources and Man of the Division of Earth Sciences, National Academy of Sciences — National Research Council, 1969, and, Ecological Crisis, Edited by G.A. Love & R.M. Love, N.Y., 1970, P. 3 .

(٢) محمد عبد الرحمن الشرنوبى : « جغرافية السكان » القاهرة - مكتبة الانجلو ، ١٩٧٢ ، ص ٥٥ - ٥٩ .

ولا نملك الدليل حقيقة على ان ثمة ثورة اقتصادية قد حلت مع بداية العصر الحجري الحديث ، فقد ظهرت الزراعة واستئناس الحيوان بالتدريج منذ العصر الحجري الاوسط Mesolithic ، وتجمعت هذه الاتجاهات خلال العصر الحجري الحديث عندما ظهر الانسان بوضوح كحيوان « سيد » شرع في غزو بيئته النباتية والحيوانية واخضاعها ، بدلا من التكيف معها .

وتدخل انسان العصر الحجري الحديث في البيئة عن طريق زراعة المحاصيل واستئناس الحيوانات، ومن ثم عمل على اجتثاث الغابات، مما تسبب في ازالة التربة وتلوث الانهار بالرواسب كما عجل بعمليات التعرية الطبيعية بالتدريج . وكان امداد الحبوب وزراعة المحاصيل والعناية بالحيوانات واعداد المواد الغذائية ومنجات الحيوانات ، يتطلب حياة جماعية في قرى أكثر من حياة القبائل الرحل . وازداد نظام القرى تعقيدا عندما كانت تحصل قرية ما ، على مورد طيب من الاحجار ، فتصنع قوسها وتطورها ، وكانت الاخرى تلجأ الى الطعن لصناعة الاواني ، وثالثة تلجأ الى الالياف النباتية لعمل السلال . وكانت مثل تلك المنتجات المتنوعة توزع وتنقل من مكان الى آخر عن طريق التجارة ، الامر الذي استلزم تمهيد بعض الطرق ليتيسر الانتقال .

ولقد كان الامتداد المنطقي لهذه الميول ، هو ما آلت اليه حياة المدن الآن ، ودمار الغابات الطبيعية ، وامتداد الرقعة الصحراوية ، ونظرتنا الى الطبيعة الآن على اعتبار انها شيء ينبغي اخضاعه لكافة متطلباتنا في الوقت الحالي ، وليس شيئا ينبغي ان نتماشى معه في وفاق .

وحينما بدأ الانسان يمتلك القدرة على اتخاذ القرار الذي يناسبه ويقرر به مصيره ، استطاع ان يسيطر على كثير من مقدراته ومقدرات بيئته ، وهنا فقط بدأ يحطم كل القواعد الايكولوجية التي سبق ان تماشى معها وفي ظلها ، بل قدسها وعيها احيانا ، (٢) فلقد حطم مسالك تدفق الطاقة ، ومزق نسيج الطعام الطبيعي واخل بسلسله ، وحقق لبعض جماعاته العزلة ، واخل بكثير من التفاعلات الاجتماعية ، ولم يتمكن من تحقيق التوازن بين موارده واعداد جنسه ، وتعاضد في استغلال الارض والغابات ومعالجة الاسماك في البحار والمحيطات ، ونشر الامراض ، وادخل نظاما غريبة الحياة ، في الوقت الذي استاصل فيه النظم الاصلية وغير ملامحها بدرجة خطيرة .

ويرى العالم الانثروبولوجي البريطاني **جوردن تشيلد** Gordon Childe ان ما حدث بعد العصر الحجري الحديث انحصر في حدود ثورتين : الاولى هي الثورة الحضرية Urban Revolution ، والتي اهتمت بنقل وتخزين المواد الغذائية ، مما جعل في الامكان ظهور المدن والتخصص في العمل

(٢) يرى العالم الانثروبولوجي **كون** Carlton S. Coon ان حضارة العصر الحجري الحديث أكثر بكثير من موضوع بحث علماء ما قبل التاريخ ، وإن التباين بينها ربما يكون من اصعب المشاكل في العالم . (راجع : Marston Bates, O .Cit. (P. 36, 37.

والمعارف . اما الثانية فهي الثورة الصناعية Industrial Revolution ، والتي قامت على اساس استخدام الطاقة بدلا من استخدام عضلات الانسان والحيوان . وان كان سنو C.P. Snow يضيف ثورة ثالثة اسمها بالثورة العلمية Scientific Revolution وهي تلك الثورة الحديثة المعاصرة التي جاءت من اتحاد العلم والتكنولوجيا لحل المشكلات العملية المختلفة ، وهي الثورة التي اتاحت للانسان زيادة درامية محزنة في الطاقة خلال هذا القرن بمقاي ذلك الطاقة النووية الرهيبة، وتطور الأجهزة الإلكترونية . وتعتبر هذه الثورة الأخيرة بالذات ، سببا رئيسيا في تلك التفريعات الأيكولوجية على نطاق عالمي أكثر من أي تفريعات أخرى .



ترابط الغلاف الحيوى :

الغلاف الحيوى Biosphere مصطلح يشتمل على كافة المجتمعات التي تزخر بها بيئة هذا الكوكب في حياة ذات نظم وقوانين محكمة إيماءكام . ولقد انصب اهتمام العلماء لفترة قريبة على « أغلفة » الكرة الأرضية الأخرى دون الاهتمام بالغلاف الحيوى كغلاف يمثل وحدة واحدة مترابطة البنت الثورة العلمية المعاصرة ان له تأثيرا بالغا على سائر الأغلفة الأخرى . (١)

وأهمية هذا الغلاف تتمثل في أن الانسان ، وهو أحد عناصره الرئيسية ، قد أصبح يلوك جيدا الآن أن هناك نوعا من « التكافل » الفريزي بين مجتمعه . وهو يمثل نظاما فريدا مترابطا رغم تنوعه الذي لا حد له . هذا التنوع لا يمكن لأحد أن ينكره ، فالصحراء والغابة على سبيل المثال ، نوعان من الأماكن مختلفان ، رغم أنه من الصعب وضع خط يحدد حدود كل منهما . غير أن الأنواع المختلفة والعديدة للمجموعات البيولوجية التي تتكوّن الغلاف الحيوى توضع وحدة حقيقية بالفعل . فالحياة في كل موقع منظمة وقائمة على مبادئ أساسية واحدة .

ومن المؤكد علميا أن الأحياء جميعا - من نباتات وحيوانات وكائنات أخرى - والتي تعيش في منطقة ما ، وتكون مجتمعا بيولوجيا مميزا ، مترابط فيما بينها في شبكة من العلاقات المعقدة . ولكل مجموعة من هذا المجتمع دور هام يؤديه لأفراد المجموعات الأخرى . ويميز علماء الأيكولوجيا بين هذه المجموعات ، فهناك الكائنات المنتجة Producers ، والحيوانات التي تتغذى عليها ، وتسمى بالكائنات المستهلكة Consumers ، وهناك الحيوانات التي تحيا مباشرة على النباتات

(١) الغلاف الأرضي يبدأ حول نواة مركزية صلبة يطلق عليها الباريسفير Barysphere يحيط بها الغلاف الصخري Lithosphere ، ثم الغلاف المائي Hydrosphere ممثلا في البحار والمحيطات ، ثم الغلاف الغازي Atmosphere ، ويمكن تمييز ثلاث طبقات جوية فيه أطلق عليها تروپوسفير Troposphere ومستراتوسفير Stratosphere وإيونوسفير Inosphere وتلاخاذاً الغلاف الحيوى Biosphere . قد سلف من هذه التسميات في شتى الدراسات رغم أهميته وارتباطه بالأنظمة الأخرى .

وتسمى بحيوانات الصناعة الرئيسية Key Industry Animals لاعتماد عالم الحيوان كافة عليها ، ثم هناك المحلات Decomposers كالبكتيريا والفطريات لدورها في تحلل الأحيان بعد موتها .

وهذه المكونات البيولوجية متعاونة « مع العناصر الفيزيائية وتكون ما يسميه علماء البيولوجيا بالنظام الايكولوجي Ecosystem » ويؤكد المفهوم الخاص بهذا النظام على العلاقات الوظيفية فيما بين الكائنات الحية فيما يصرف بنسيج الطعام Food Web ، وبين تلك الكائنات وبين البيئة الطبيعية الخاصة بها . وتمثل هذه العلاقات الوظيفية في سلسلة الغذاء التي تتدفق من خلالها الطاقة ، كما تتمثل كذلك في الطرق والمسارات التي تتحرك على امتدادها العناصر الكيميائية الضرورية للحياة في ذلك النظام البيئي أو ذاك .

ولا شك ان الالام بطروف هذه العلاقات والوظائف أمر حيوي للغاية لفهم الآثار التي يحدثها الاخلال بالتوازن البيئي الضروري من أجل بقاء ذلك « التكافل » بين عالم الأحياء . وإذا كان الأقدمون قد تصرفوا بوعي بيئي عن غير قصد ، فليس أقل من أن تنصرف بنفس المنطق ، ولكن من قصد . وحتى يعود التوازن إلى حالته ينبغي ألا نظل على أسرافنا في إتلاف البيئة وتلويثها والعبث بقوانينها الأزلية ، مهما كانت الغاية : استثمارا أو استغلالا أو تراثا أو رفاهيا . ان كل ما يلحق بزيادة السكان أو بالتوردة التكنولوجية كمعامل ساهمت في تلف البيئة لا بد أن يوضع تحت الجهر ، ولا شك ان الإدراك الواعي للإنسانية ، والذي لن يتحقق في عالم لا يسوده السلام ، هو وحده السبيل إلى إعادة الصداقة اللازمة لبقاء الإنسان مع الطرف الآخر . . . البيئة .



انفجار البشرية :

يبلغ عدد سكان العالم الآن حوالي ٤.٢ بليون نسمة بزيادة سنوية متوسطها ٧٠ مليون نسمة . إلا إن هذه الأعداد الهائلة تكاد تقف على حافة عصر انقراض كامل ، نتيجة تدهور البيئة المعاصرة . وليست هناك ظاهرة جيولوجية خلال البليون سنة الماضية (مثل ظهور سلاسل الجبال الإلتوائية الشاهقة وانخفاض كتل يابسة شبيهة بقرارات باكملها) قد هددت أو عرضت الحياة على سطح الأرض للبقاء ، مثلما تفعل الآن ظاهرة الانفجار السكاني الذي نشهده منذ فترة .

وقد يمكن ان نميز بين نمو سكان مجموعة من الدول ونمو سكان مجموعة أخرى ، لكن الحقيقة تقول بأمال واحد . فليست المشكلة في تزايد سكان منطقة بمعدلات كبيرة فتعرض لشكلة ما ، وتزايد سكان منطقة أخرى بمعدلات أقل فلا تتعرض لمثل هذه المشكلة .

وليست هناك بيانات تاريخية مدونة ، نستطيع على أساسها ان نقدر عدد السكان الذين عاشوا على وجه الأرض قبل عام ١٦٥٠ . إلا انه من المتقن ان جملة عدد السكان في زمن السيد

المسيح عليه السلام كان يتراوح بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ مليون نسمة ، وقد ازدادت أعداد السكان حتى بلغت ٥٠٠ مليون نسمة في عام ١٦٥٠ ، ثم بلغت ١٠٠٠ مليون (بليون) نسمة في عام ١٨٤٠ ، ثم تضاعفت أعدادهم فبلغت (٢٠٠٠) مليون في عام ١٩٢٠ . ولقد حدثت عدة مضاعفات سابقة لمضاعفة أعداد السكان من عام ١٨٤٠ الى عام ١٩٢٠ الأخيرة هذه . فقد تضاعف السكان من قبل مرة خلال ١٥٠٠ سنة ، ثم جاء التضاعف الثاني خلال ٢٠٠ سنة ، وكان الثالث خلال ٨٠ سنة ، ولو استمر معدل زيادة السكان ٢٪ (كما كان في عام ١٩٦٨) فسوف يتضاعف عدد السكان خلال ٣٥ سنة فقط . (٥) . ويعني هذا المعدل ان هناك اضافات للسكان كل عام تقدر بحوالي ٢٠ نسمة لكل ألف من السكان . ويلاحظ انه باضافة ٢٠ نسمة لكل ألف من السكان كل عام سيتضاعف السكان خلال ٥٠ سنة . ولكن من المعروف ان تضاعف الزمن اقل بكثير من تضاعف السكان ، ويرجع ذلك الى ان نمو السكان ينمو بنفس طريقة نمو رأس المال عند حساب فوائد بطريفة الربح المركب ، أي كما يربح المال من ذاته ربحا معيناً ، ثم يربح هذا الربح ربحاً آخر ، وهكذا . ومن هنا كان التضاعف المنتظر يستغرق ٣٥ عاما وليس ٥٠ عاما . فكل اضافة من السكان ينتج عنها اضافة اخرى ، ومن ثم يختزل الزمن المتوقع ويواجه العالم بان الزيادة التالية ستتم في فترة اقصر (٦) (انظر الشكل رقم ١) .

ولقد كان **توماس مالتوس** أول من اهتم بزيادة السكان عندما نشر مقالته عن السكان في عام (١٧٩٨) أي في الوقت الذي كان فيه عدد سكان العالم اقل من ثلث عدد السكان الآن . ولقد كان مدخل مالتوس مدخلا إيكولوجيا سليما . فقد اعتقد ان السكان من البشر يمتلكون قدرة حيوية لمضاعفة أعدادهم كل ربع قرن ، في الوقت الذي لا تحقق فيه الموارد المتاحة زيادة مماثلة . ولذا فان السكان ، ما لم يتحكموا في هذه الزيادة ، فان أعدادهم سوف تتجاوز حدود الموارد الغذائية ، وتكون الترجمة المنطقية لما سماه **Dismal Thorem** هي بؤس الانسان . (٧)

ولقد سخر بعض الناس من هذه النظرية بسبب موجة التفاؤل التي سادت القرن التاسع عشر ، وما زال هناك متفائلون . والحقيقة ان نظرية مالتوس قد ثبتت صحتها أكثر من مرة ، ففي ايرلندا ساعد ادخال زراعة البطاطس وزيادة ورخص الطعام ، على زيادة سكانية كبيرة . ولقد تولقت هذه الزيادة نتيجة لاصابة محصول البطاطس بآفة زراعية تسببت في مجاعة كبيرة عام

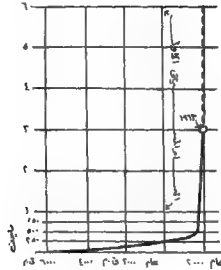
(٥) محمد عبد الرحمن الترنوبي : « المشكلة السكانية في الربع الأخير من القرن العشرين » محاضرات الموسم التالي للجمعية الجغرافية الكويتية عام ١٩٧٥ (مجلة الجمعية - العدد الأول - ١٩٧٦ - الكويت) .

(٦) Ehrlich, P.R. & A.H. : "Population, Resources, Environment," Issues in Human Ecology, San Francisco, 1970, PP. 14-30.

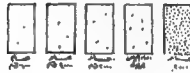
(٧) Warren S. Thompson, : Population Problems, London 1963, PP. 20-23 & 47-54.

هيئة العمر : بين البقاء والنفاد

الركاة باليابس



توزيع السكان في العالم



المسكنات في المحيط

شكل رقم (١)

يمكن تتبع الزيادة التدرجية في أعداد السكان منذ آلاف السنين حتى حدوث الانفجار السكاني الهائل في الوقت الحاضر والمتوقع عام ٢٠٠٠. فوالت الزيادة الطبيعية العالمية على مدى طيلة . ففي خلال القرن الماضي تضاعف عدد السكان في العالم ، وفي مدى نصف قرن آخر تضاعف عددهم مرة أخرى حتى وصل إلى تلك الصورة المروعة ، ومع هذا النمو المطرد أصبحت كثافة السكان العالمية في العالم ١٢٥ نسمة في الكيل الرابع مقابل ٦ نسمة في العام المسيحي الأول . والحالة ربما لذلك لايشير بالفكر ، فالأراضي التي يمكن زراعتها على سطح الكرة الأرضية لا تتجاوز ١٠٪ من مساحتها الكلية ، كما أن معظم أراضي الحاصلات الزراعية تقع خارج دائرة آسيا التي يتركز فيها نصف سكان العالم .

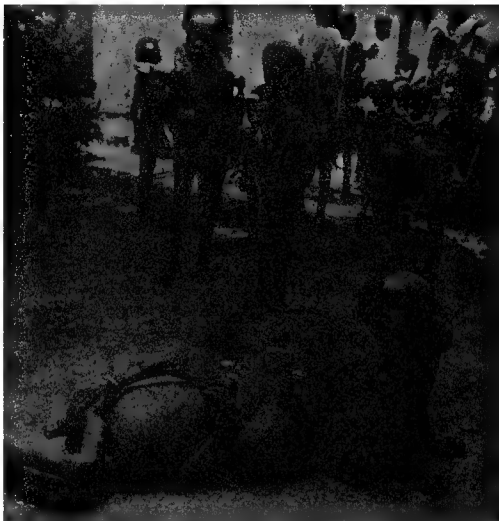
١٨٤٥ . كما تشير المجاعة الدائمة في الهند في الآونة الأخيرة ، الى عجز البيئة من مسايرة النمو السكاني هناك ، ولقد بلغ عدد الموتى جوعا وبسبب سوء التغذية في العالم عشرة آلاف نسمة يوميا . وعلى الرغم من التقدم الزراعى والرعى واستصلاح الصحارى ، الا انه ما زال أكثر من نصف سكان العالم يعانون من الجوع . (٨) (انظر الصورة رقم ٢)

ويمكن القول بان المجتمعات الغربية المتقدمة فقط هى التى استطاعت ان تتخلص من نتائج ما اسماءه مالتوس Dismal Thorem على ما يبدو، وربما كان ذلك بسبب وفرة الانتاج الزراعى فيها في الوقت الحاضر . ورغم هذا فان نظرية مالتوس لم ترفض من التكنولوجيين الغربيين . ولقد أصاب الدهول الشعب الأمريكى الذى يقود ويوجه الحضارة والمدنية الحديثة الآن عندما نشر تقرير الكونجرس عن حالة الغذاء في الولايات المتحدة ، فقد البت هذا التقرير ان ملايين عديدة من المواطنين ينانون جوعى كل ليلة في قلب الولايات المتحدة الأمريكية .

ان حسم مستقبل سكان البشرية امر لا يزال عسيرا . فلا احد يدري تماما الى اى مدى تستطيع الثورة التكنولوجية زيادة ما يمكن ان نسميه «سعة حمل» Carrying Capacity كوكبا . كما لا نستطيع التأكد من ان نمو السكان في المستقبل سوف يريده من التقدم التكنولوجى ذاته .

ومن المعروف ان للنظام الإيكولوجى العام حواكم او ضوابط . هذه الحواكم يخضع لها السكان من البشر او من غير البشر من سائر الأحياء الأخرى . فهى في غير الإنسان تبدو على شكل منافسة او صراع ناجم من غريزة حب البقاء ، فهناك جوع ومرض واقتراض . ولكن الإنسان يبذل جهدا جهيدا من أجل منع تلك الضوابط الإيكولوجية من النيل من أعداد سكانه . ومن هنا كانت معاناة الإنسانية . فهناك محاولة لمنع تفشى الأمراض حتى لا تتعرض أعداد السكان الى تقلبات عنيفة كذلك التى حدثت في العصور الوسطى ، عندما أدى مرض الموت الأسود Black Death الى وفاة ربع سكان أوروبا . ولقد تطلب الإنسان منذ زمن طويل على اقتراض الحيوانات له ، لان ذلك كان يعد عاملا من عوامل التحكم في أعداد البشرية . والإنسان يحاول دائما القضاء على المنافسة بين افراد جنسه عن طريق تحريم الحروب او على الأقل الحد منها . كما يعتمد الإنسان على التكنولوجيا الحديثة بدرجة كبيرة لامداد اعداده المتزايدة باستمرار الغذاء . الا ان الفرص المتاحة امام التكنولوجيا، مثل التحكم في الظروف المناخية ، ونمو الطحالب اللازمة للغذاء في البحيرات الصناعية ، وإزالة أملاح البحر ، لها حدود . وهى على احسن الافتراضات مجرد محاولات ابتدائية ناجحة .. ومجرد أمل نفتدى به الزمن حتى نجد مخرجا للتحكم في أعداد البشرية .

بيئة العمر : بين البقاء والفساد



صورة رقم (٢)

بلغ عدد المولدين يوميا أو بسبب سوء التغذية في العالم عشرة آلاف نسمة يوميا ، أن أكثر من نصف سكان العالم اليوم يعانون من الجوع (الصورة من وكالات الأنباء من أليمبياقرا خلال المجاعة التي حلت به أخيرا) .

أن سكان العالم اليوم يعيشون حالات من الفزع أمام هذا التزايد الفريد ، ويدبى أننا في ذروة دورة من الدورات السكانية المؤثرة في تاريخ البشرية ، أهم ما يميزها معدلات زيادة سنوية مرتفعة^(٩) . ولا شك أن رحلة النمو هذه تتداخل فيها عوامل عديدة بحيث تعطى مردودها بعد تصفية الحساب بين معدلات المواليد ومعدلات الوفيات . وهذه تلك مقاييس ديموجرافية ذات ضوابط عديدة متداخلة ، بعضها سيكولوجي والآخر إيكولوجي والثالث تاريخي والرابع حضاري وغيره تاريخي ووراثي وهكذا . وليست هذه العوامل ثورة بحثنا ، وإنما اهتمامنا أساسا بالظواهر الناجمة من هذه الريادة والتي انعكست على ذلك التلف الذي أصاب أركان كوكبنا ، وليست هذه الظواهر خبيثة ولا هي خافية .

إن نمو السكان الانفجاري الأخير قد ساهم مع ما واكب ذلك من مظاهر حضارية تمثلت في حركة التصنيع ونمو المدن والثورة العلمية الحديثة ، في التدهور العام الذي أصاب العديد من عناصر البيئة . ولا شك أن أساس هذا التدهور كان تدخل الإنسان بلا روية في النظم الإيكولوجية المحكمة النسيج . وينعكس هذا التدهور على كل شيء في الوجود تقريبا الآن . فقد لوتنا مياهنا وأرضنا وهواننا وحياة مدننا وهديدها . فهل يبقى الإنسان حقيقة هو ذلك «الحيوان القلبي»^(١٠) الذي لوث كل شيء حوله ؟ ونجح في استمداها الطبيعة لفة منه في قوته وعلمه ؟ وهل سيمضي في ذلك بغير حساب من الطرف الآخر ؟



مظاهر التلف البيئي :

في القرن التاسع عشر عبر الشاعر الإنجليزي **توماس بيدوس** Thomas Beddoes عن مأساة عصره آنذاك بحسه المهف تعبيرا عن حالة اليأس والاشمئزاز عندما يتأمل في عالمه المحيط به ، والذي غيرته يد الإنسان فيقول :

Nature's polluted.
There's man in every secret corner of her,
Doing damned wicked deeds,
Thou Art, old world
A hoary, Atheistic, murdering star.

U.N. : The Determinants and Consequences of Population Trends (A (٩)
Summary of the Findings of Studies on the Relationships between Population Changes and Economic and Social Conditions), Population Studies No. 17, N.Y. 1953, P. 240.

(١٠) منذ ست سنوات (عام ١٩٧٠) كتب Joseph L. Myler وهو أحد علماء الفضاء والطاقة مقالا بعنوان The Dirty Animal Man ونشر بتصریح من United Press International في كتاب Eco-Crisis ص (١١٦ - ١٢٢) انظر المرجع .

هكذا .. كانت الطبيعة تتلوث ، لأن الإنسان أصبح يبعث فيها فسادا ، في كل ركن من أركانها ، يقتل بأعماله الشريرة كل نزعات الجمال والنفس فيها . أنه مما لا شك فيه ان ذلك كله حقيقى ولا مغالاة فيه أو مبالغة ، ولكن كيف يمكن أن نتصور أبيات ذلك الشاعر الآن لو قدر له ان يعيش حياة الربع الآخر من القرن العشرين ؟! أننا نعيش الآن عصرا يحاول الإنسان فيه جعله ان يقطع تلك العرى الوثيقة بينه وبين العالم الطبيعي من حوله . ولم يكن غريبا أن تتوالى « الصرعات » المخيبة للأمال في كثير من أركان العالم الغربي المتقدم ، تلك التي انعكست على تصرفات شبابهم وسلوك هذا الشباب وفنونه . أنهم يتوقون توقا شديدا الآن الى الماضى البدائي البسيط ، أو يعبرون بشوق عن مظاهر حضارات زائلة أو نائية منمرلة ، ما زالت ترتبط في توافق ولبق بالطبيعة .

ومن هذه الحضارات من يعيش الرادها في صداقة قوية بالبيئة حتى الآن . وهناك مذاهب كالذهب البوذي يصون الحيوانات ولا يقدم على إيذاها بأى صورة من الصور ، لان « بوذا » كان يحترم كافة اشكال الحياة ولا يسمح بالقسوة عليها . ومن هنا كانت الأراضي المحيطة بأديرة الرهبان البوذيين ، عبارة عن مساحات رالمة من الأرض التي تحتضن لعلا الحياة البرية بمنامرها نباتا أو حيوانا على اختلاف صنوفها . بل أن مذهب اليابانيه Zenism (١١) يلزم الراهب باحترام كافة اشكال الحياة بما فيها الحشرات ، الى الحد الذى يلتزم فيه بحمل (مكسبة) صغيرة معه دائما لأزاحه ما يصادفه من حشرات خشية أن يدهمها صدفة . أن هذه الصلة بعالم الطبيعة ظلت قائمة حتى الآن رغم سخرية البعض منها عندما سخر الغربيون من الهنود الذين تركوا القرآن ترتفع في المخازن وأصروا على ترك المياه لها لكي تشرب منها . (١٢)

وفي هذا المقام يردد العالم الانساني الدكتور ألبرت شفايتزر Albert Schweitzer نداءه الى العالم بضرورة تبجيل الحياة الطبيعية وتقديم فروض الاحترام لكافة الكائنات النباتية والحيوانية ، ويذكر ان الخطأ الأكبر الذى ارتكبه كافة علوم الاخلاق اليوم هو اعتقادها بأنها تعالج فقط علاقة الإنسان بالإنسان .

فالى أين ذهب ذلك الإنسان في تماديه وتحديه للروابط والنظم الإيكولوجية التى يعيش حلقه من حلقاتها ؟ ان الحقائق كلها تشير الى أن حالة الإنسان الراهنة في العالم قد أصبحت خطيرة . ويمكن مراجعة عناوين متزايدة لكتابات ودراسات مثيرة . وقد نشرت خلال الخمس

(١١) « اليابانية » مذهب هندي نشأ في القرن السادس قبل الميلاد ، ويعتمد فلسفة هذا المذهب على تحرير الروح بالمعرفة والإيمان وحسن السلوك .

مشرة سنة الماضية ، والتي كتبها العلماء المتخصصون وخبراء الشؤون الانسانية ، ومن هذه التعاون على سبيل المثال لا الحصر :

Road to Survival
The Rap of the Earth
Our Plundered Planet
The Geography of Hunger
The Limits of the Earth
The Prevalence of People
Man Versus Nature
The Dirty Animal Man

لقد غير الانسان بدرجة ملحوظة في البيئة الطبيعية ذاتها - كما تفعل كل الكائنات الحية الاخرى . ولكن بينما تشجع التغيرات التي تحدثها الكائنات الاخرى الحية على التجديد ، فان الانسان في حالات كثيرة مرق فرص التجديد هذه . وعندما كان الانسان جامعا للطعام بدائيا في هذا الجمع ، استطاع ان يحدث تعديلات طفيفة ، ويمكن اعتباره متوافقا مع بيئته ككل آنذاك . وعندما وصل الانسان الى مستوى من الرقي سمح له باستئناس الحيوان والزراعة ، بدأ في تغيير البيئة تغيرا فيزيائيا . فقد جاهد ضد اعادة نمو النباتات الطبيعية ، فمنع المراحل المتتابعة للنبات من الوصول الى اللقوة .

وبزراعه للمحاصيل وتربيته للحيوانات جعل هناك أنواعا معينة من الكائنات يعتمد عليها في بقائه . فالتقمح الآن لا يمكن ان ينتج من تلقاء نفسه ، والبقرة التي تهجر السهول تقع فريسة في وقت قصير للحيوانات المفترسة خارج السهول . ولقد حول الانسان البقرة من حيوان برى قادر على الدفاع عن نفسه وعن صفاره الى مصنع متحرك للابلان .

وعندما وصل الانسان لمستوى اكثر تقدما في عصره الصناعي ، ذهب الى مدى بعيد ، وعمل على خلق نظام إيكولوجي جديد تماما ليحل محل النظام الطبيعي ، ولقد ارتكبت التكنولوجيا الحديثة التي يمتلكها العالم منذ القرن التاسع عشر خطأ فادحا عندما بدأ تطوير الصناعات المختلفة ، والتي كانت سائدة في ذلك الحين ، وخاصة صناعة قطع الاخشاب والتنجيم . وهذا الخطأ يتمثل في نهب موارد الثروة الطبيعية في العالم . ولقد ترتب عليها تغيرات خطيرة في مظاهر الخريطة الطبيعية للعالم . فلقد خلق الانسان صحارى جديدة تماما مثل الصحراء الموجودة في جنوب شرق تينيسى Tennessee بسبب مناجم النحاس ، وصحراء سدبرى Sudbury في انتاريو بسبب دخان النيكل . وفي سعيه لتوفير الكهرباء واعادة توزيع المياه استحدثت السدود التي تقام مير الانهار ، فغيرت نظام الصرف الطبيعي كلية ، فقلب بذلك سطح المياه الباطنية رأسا على عقب ، بالإضافة الى العديد من مظاهر الظل البيئي الصارخ .

ولقد وفرت صناعات الانسان الحديثة الوارد الرخيصة حقاً ، وساعدت على تكوين مجتمع صناعي حديث ، ولكنها ساعدت على تراكم عبء ضخم لاستنفاد موارد الثروة التي كان ينبغي ان توفر للاجيال القادمة . فنحن الآن « نسرَق » حق الاجيال القادمة ليس فقط في الأخشاب والفحم ، بل ايضا في ضرورياتهم الأساسية في الحياة : الماء والهواء والتربة . ان العالم اليوم في حاجة ماسة لحركة « صيانة » تحفظ للحياة استمرار مسيرتها .



ماذا عن المياه :

لم تنشأ الحضارات وتنمو وتطعم بسفاه الامع وفرة المياه ، وما توارث عبر سطور التاريخ الا بتأثير الجفاف ، او على الاقل بمساهمة منه ، قلت او كثرت . وكم من حروب طاحنة تصارع الناس من خلالها من اجل المياه في كل اجزاء العالم : غرب أمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر ، بلاد الرافدين ، مناطق انهار الصين والهند والنيل والاردن ، مياه النيل في آلاف الواحات المبعثرة على بحار الرمال تطويها الصحراء المحرقة ، فلا سبيل لحياة بدونها ، ولا محل لاستقرار بعيداً عنها . وحديثاً اصبح مستوى المعيشة يقاس بنصيب ما يتوفر للشخص او الدولة من المياه العذبة . ولماذا نذهب بعيداً وهناك ستكلمات قرآنية كريمة تحدد بابجار واعجاز قدر الماء وقدره : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » ، فبدونه لا يمكن ان تكون هناك حياة على سطح هذا الكوكب . فهو أكثر أهمية من الأكسجين الذي يطلق عليه غاز الحياة Gas of Life فبدونه لا يمكن ان تكون هناك نباتات خضراء هي المصدر الاول للأكسجين في الهواء الذي نحيا به ونتنفسه .

ويعتقد العلماء ان الحياة على سطح الأرض انما نشأت اصلاً في البحار القديمة او الاولى Primitive Seas قبل ان يكون هناك اي اثر للأكسجين في الغلاف الجوي ، ولم يظهر هذا الاخير الا بعد تطور ونمو النباتات . وما زال دم الكائنات الحية بما فيها الانسان - عبارة عن محلول ملحي مشابه الى حد كبير لمياه البحار ، كما ان مياه البحار هي المورد الاساسي للمياه العذبة للأرض والأكسجين في الهواء . ويأتي ٧٠٪ من الأكسجين كما يقول كول Dr. Lamont Cole من النباتات الدقيقة الخضراء في البحار التي تستهلك - شأنها في ذلك شأن نباتات الأرض - غاز ثاني اكسيد الكربون بمساعدة الطاقة الشمسية ، وتهدف بالأكسجين كناتج اشبهاً ما يكون بنفائة له . (١٢)

توفر للكرة الأرضية كمية هائلة من المياه تقدر بحوالي ٣٢٦ مليون ميل مكعب ، منها ٢١٧ مليون ميل مكعب تستقر في أحواض البحار والمحيطات التي تغطي ٧١٪ من مساحة الكرة

الارضية ، أما الباقي فيتمثل في المياه المجمدة بصورها المختلفة وتتركز حول القطبين . وتعمل الشمس على تغطية مياه البحار ، فيعمل ذلك الاثون المتقد المسط على تبخير ٨٠ ألف ميل مكعب تصبح ميلها عذبة كل عام ، بالإضافة الى ١٥ ألف ميل مكعب من المياه المتوفرة على سطح الأرض بعيدا من البحار والمحيطات . ومن ثم تصبح هناك كمية مقدارها ٩٥ ألف ميل مكعب تتحرك منذ الأزل في حركة مرمدية رائعة بين السماء والأرض فيما يصرف بالدورة الهيدرولوجية .

ولو وزعنا المياه على سكان هذا الكوكب لبلغ نصيب الفرد الواحد ٤٠٠ مليون طن يوميا ، وإذا كانت مياه البحار والمحيطات لا تصلح لمن يرب باقدامه على سطح الأرض عامة أو يضرب بجذوره في تربتها ، إلا أنه لكائنات أخرى حيوية وهام ، تلك الكائنات هي لنا حيوية كذلك وهامة ، فالبحار والمحيطات كانت وستظل مجالا يحقق للشرية الكثير من المصالح انتقالا وغذاء ودفاعا . فماذا أعد لها الإنسان لكي تبقى نظيفة منتجة ، وماذا فعل بمياه أنهار الأرض وبحيراتها . لا شك أن الكثير الكثير قد كتب في هذا المجال . فالإنسان يضخ من النفايات والمخلفات الى مصادر المياه الطبيعية ما لا يتسع المجال للحديث عنه في مقال كهذا . (١٤) ولكن ما أحده الإنسان لآلاف وتلويف هذه المصادر تتمدد صورته ، فقد وجه الى هذه المصادر مياه البالوعات ومخلفات الاسمدة الكيميائية وروث الحيوانات والاحماض والسموم الناتجة من الصناعة ، والأملاح المتخلفة عن التاجم ، ونفايات الشوارع والمزارع والمصانع والمنظفات ومبيدات الأعشاب والمبيدات الحشرية ، بالإضافة الى المخلفات الإشعاعية من المصانع والمولدات الذرية ومولدات الطاقة . أن كل هذا وغيره كثير يؤكد حقيقة أن الاستعمال الرئيسي للمياه الجارية الحرة في الدول الصناعية ليس في الصناعة كما تؤكد الإحصاءات ، وإنما تستعمل كصندوق قمامة للنفايات ، حتى أصبحت أنهار مثل هذه الدول مجرد بالوعات مفتوحة الآن .

ولقد اشكر دكتور جلين سيبورج Dr. Glenn T. Seaborg رئيس لجنة الطاقة الذرية الأمريكية ، أن نظم الأنهار الانسي والعشرين في الولايات المتحدة الأمريكية ، سوف تنتهي من الناحية البيولوجية (أي ستعوت) في نهاية هذا القرن إذا استمر التلوث على معدلاته الحالية . إذ يتسبب التلف الذي يتعرض له هذا المجاري المائية بتأثير المواد الصناعية المتخلفة ، والتي يلقي بها الى هذه المجاري في توليد بعض الكائنات التي تؤدي الى استنفاد الأكسجين من المياه والقضاء على الاسماك ، ومن ثم تتحول البحيرات الى مستنقعات ثم الى مناطق جرداء من بعد . . .

وليس غريبا ان نتحدث عن تلوث المحيطات، فهنا حادث بالفعل : فقد وجدت مادة الـ D.D.T بتراكوزات مختلفة في الكائنات البحرية في كل مكان، ولو حدث ان تعرضت نباتات المحيطات لخطر التلوث ، فسوف نفقد موردا هاما من موارد الاكسجين كما قدمنا من قبل .

ولقد حدثت عدة كوارث معروفة كحادث سانت بربارة في كاليفورنيا ، وكارثة اصطدام ناقلة البترول « توري كانيون » ببعض السعاب المرجانية قرب الشواطئ الانجليزية وهي محملة بشحنة من بترول الكويت عام ١٩٦٧ . ولقد تسببت هذه الحادثة في تدفق ١٢٠ ألف طن من البترول الخام نتج عنه تلوث مساحات كبيرة على امتداد ٣٢٠ كيلو مترا على طول الشواطئ الانجليزية الغربية والجنوبية ، ولقد هدد ذلك الحادث كافة مراكز العمران البشري على طول هذا الامتداد ، وتطلب حماية هذه المراكز اتفاق ٢٠ مليون جنيه استرليني اتفق معظمها كتكاليف للكميات الهائلة من المذيبات التي اخفت التلوث الظاهر لهذه الكميات الهائلة من البترول ، ولكنها احدثت تلوثا خطيرا للمياه اسفل السطح واعلاه ، واستقرت هذه المذيبات بحجم هائل في قاع المحيط محدثة خلاا بيولوجيا محققا لكونها سوما خائفة وقاتلة لكثير من الاحياء البحرية .

ولقد اخذت شبه جزيرة اسكندرية انصبابا من تلوث المياه ، وبدأت اسراب الاسماك تموت في انهارها وبحيراتها بتأثير القاء النفايات البشرية فيها ، وكذلك قتلت نفايات مصنع مبيد الباراثيرون في الدانمرك الاسماك على شواطئ البحر ، واقتت بجثثها على الشاطئ على امتداد عدة كيلو مترات . اما نهر الراين الذي يخترق ألمانيا حتى يصل الى هولندا فهو اكبر انهار العالم تلوثا ، لدرجة ان الهولنديين اطلقوا عليه في سخريه مريرة مياهم المعروفة : انه صندوق قمامة العالم . اما في اليابان فقد ظهرت اعراض ارتخا في عضلات السكان وفقدان للبصر وتلف في المخ والاعصاب مصحوب بشلل واحيانا بغيوبة ووفاة، ذلك في خليج « ميناماتا » بتأثير القاء أحد مصانع الزئبق بمخلفاته في ذلك الخليج : مرض ميناماتا!! وفي السويد حرم صيد الاسماك في اربعين نهرا وبحيرة لتترك مركبات الزئبق فيها .. كما يمكن ملاحظة ان التهابات الكبدية الهدية قد اخذت تنفثى بدرجة مزعجة حقا في كثير من الدول الأوروبية والأمريكية بسبب ضعف معالجة مياه دورات المياه ، ووصولها ملوثة بفيروسات هذا المرض الهدى الى انابيب مياه الشرب . اما في الوادي الأوسط بـ كاليفورنيا، فان الاطباء ينصحون دائما بان يشرب الاطفال الماء العذب الغلي فقط .

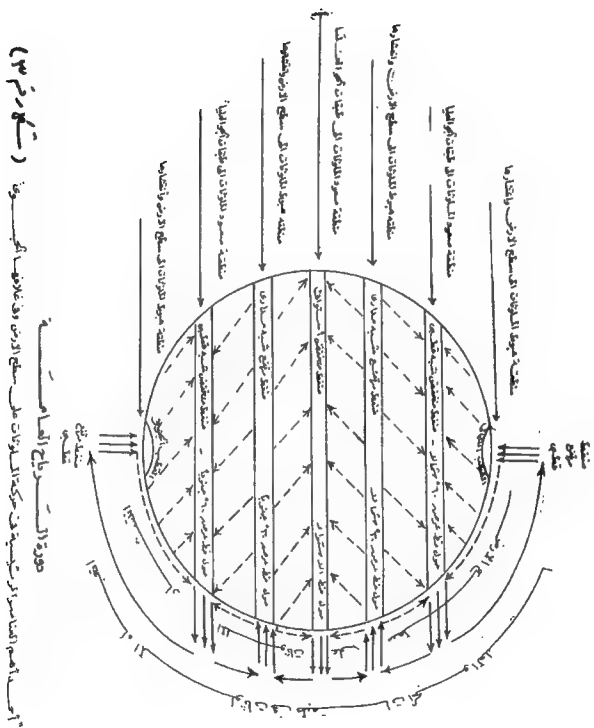
ولقد اضطرت مدينة ألجن Elgin بنميسوتا ان تبحث عن مصدر آخر جديد لمياه الشرب بعد ان تلوثت المياه بالنترات التي تتركز بشدة في المحصولات الزراعية ، والنترات في حد ذاتها ليست خطيرة ، ولكن عندما توجد انواع معينة من البكتريا في الجهاز الهضمي ، فانها تحول النترات الى نترات (ملح حامض النتري) وهي مادة سامة للغاية ، ولو امتصها الدم لتفاعلت مع المادة الملوثة (الحاملة للاكسجين) فخلايا الدم الحمراء ، وبالتالي يتكون الميثيموجلوبين الذي لا يستطيع حمل اكسوجين الهيموجلوبين فينتج عن ذلك الإصابة بمرض الميثيموجلوبينيemia، واهم اعراض التنفس غير الطبيعي ، وكثيرا ما يتعرض المصابون به الى الاختناق .

وماذا عن الهواء : (انظر الشكل رقم ٣)

ان التسليم بحقائق الحركة التي يخضع لها الغلاف الهوائي ، تجعلنا نعمل فكريا في كيفية الوقوف بحزم امام تلوث الهواء . ونحن في تلك الوقفة لا بد ان تؤمن بان تلوث الهواء في المناطق الصناعية ليس قسرا عليها ، فالمالم يخضع لظروف وقوانين طبيعية كما كرنا من قبل . ومن تلك القوانين فيما يرتبط ارتباطا وثيقا بموضوعنا ما يعرف بالدورة الهوائية العامة . فهناك مناطق للضغط المنخفض تتركز حول خط الاستواء وخطي عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا . كما ان هناك مناطق للضغط المرتفع حول خطي عرض ٣٠ درجة شمال خط الاستواء وجنوبه ، وحول القطبين . والمعروف ان مناطق الضغط المرتفع يخرج منها الهواء الى مناطق الضغط المنخفض في حركة سطحية نحسها ونلمسها ممتلئة في الرياح السطحية . كما تفدي مناطق الضغط المنخفض مناطق الضغط المرتفع بالهواء ولكن في نطاق الرياح العلوية . ويتم هذا وذلك في دورة محكمة لا تؤثر فيها الا بعض الظواهر المحلية كسلاسل المرتفعات والمسطحات المائية الكبرى ، بالإضافة الى التغيرات الموسمية لواقع الشمس في حركتها السرمدية بين المدارين .

من هنا يمكن القول بأنه لا يوجد حدود أو حواجز يمكن ان تحدد مناطق التلوث لتعزلها عن المناطق « النقية » ان كان لمة مناطق نقية حقا . ويصير تلوث الهواء من اقرب المظاهر التي يمكن ان يحسها الانسان العادي ولمسها ، فنحن نشعر به عندما يلهب الهواء عيوننا أو يهيج رئتنا ، ويشعر سكان المدن - والمدن الصناعية بصفة خاصة - بوادة ذلك التلوث من خلال حياتهم اليومية ، التي سرعا ما يضيق بها سكان المناطق الاخرى . والأمثلة على تلوث الهواء عديدة ، بل ان الكوارث التي تعيق بسلامة المدن بتأثير ذلك التلوث تفوق الحصر : نهار ميناء مدني الكثيب المظلم بتأثير سحب الدخان التحد بالضباب هناك ، كمية ضوء الشمس التي لا تتجاوز ٢٥٪ في نيويورك و ٤٠٪ في شيكاغو ، ٦٦ مليون طن من أول أكسيد الكربون نفثتها الى الهواء ٩٠ مليون سيارة في الولايات المتحدة ، غير ملايين أخرى من أكاسيد الكبريت والهيدروكربون ورابع ايل الرصاص وغيرها هناك ، الانقلاب الحراري الذي تعرضت له مدينة دونورا عام ١٩٤٨ ولندن عام ١٩٥٢ وما نشأ عنه من كوارث أودت بحياة الآلاف بسبب احتجاز الضباب متحدا بالدخان ، ونفس الظاهرة تكرر في وادي الميز ببلجيكا وباريكا في المكسيك ، آلاف التقارير الملتمة الرسمية وغير الرسمية مع آلاف أخرى سريّة مرفوعة الى المستويات العليا في الدول المختلفة حول هذه القضية ، عشرات المقالات في الصحف والمجلات العلمية ، وغير ذلك كثير يصعب حصره .. ما هي المشكلات الأساسية . ؟ انها باختصار شديد تتمثل في العطاء السلبسي للصناعة .. وعدم وجود النظرة العقلانية التي ينبغي ان تظلل خطوات النهضة الصناعية .

ان تلوث الهواء بأول أكسيد الكربون - وهو امر قائم ما بقيت السيارة والطائرة وابية آلة في أي مصنع ومزرعة - يعمل على اتحاد هذا الغاز بهيموجلوبين الدم فيعمل على طرد الاكسوجين



الذي ينقله الهيموجلوبين عادة ، لان اتحاد هذا الغاز بالهيموجلوبين أقوى من اتحاد الأكسجين . ويسبب أول أكسيد الكربون اختناقاً وتسمماً لانه يحل في جهاز النقل (العالي السرعة) في الكائن البشري ، وهذا الجهاز يضمن التجدد الدائم للأكسجين لحفظ ما يعرف بالابيض (Metabolism) - أو مجموعة العمليات الخاصة ببناء البروتوبلازما في الخلايا، وعندما يقل امداد الخلايا بالأكسجين فان القلب يرفع معدل خفقانه وكذلك الجهاز التنفسي ، ولا شك ان هذا وذلك يتسببان في توترات واجهاد شديد يؤدي الى كثير من امراض القلب والصدر . (شكل رقم ٤) .

وعندما يتعرض الشخص لهواء يتنفسه ويحتوي على ٨٠ جزء في المليون من غاز أول أكسيد الكربون لمدة ٨ ساعات ، فان الجهاز الدوري لحمل الأكسجين تقل سرعته بنسبة ١٥ ٪ . ويتسبب ذلك في ان يفقد الجسم جزءاً من الدم . وعندما تشتد حركة المرور وتزدحم الشوارع بوسائل النقل المختلفة في اوقات اللروة ، فان محتوى الهواء من أول أكسيد الكربون يبلغ ٤ ، جزءاً في المليون . لذلك كثيراً ما يصاب سكان المناطق الزدحمة بالمرور بامراض التسمم الحاد ، والصداع ، وضعف الرؤية ، وتقص في تناسق العضلات ، والفثيان ، وكثير من الآلام الباطنية ، وفي الاحوال الأكثر حدة قد تكون هذه الامراض مصحوبة بنقصان للوعي ، ووفاة أحياناً .

وهناك غازات أخرى تلوث هواء المدن خاصة مثل ثاني أكسيد الكربون الذي يعتبر مسئولاً عن زيادة معدلات الإصابة بامراض الربو والالتهاب الرئوي وانتفاخ الرئتين ، أما تلوث الهواء بالمواد الهيدروكربونية فان من أهم مضاعفاته الإصابة بالامراض السرطانية المؤدية الى الوفاة . كما ان هناك غازات أخرى مثل ثاني أكسيد الكبريت وأكاسيد النيتروجين وغيرها كثير كثير وهي في تزايد مستمر في الهواء .. ولقد قدرت وزارة الصحة الأمريكية على سبيل المثال ان انبعاث غاز ثاني أكسيد الكبريت في الولايات المتحدة الأمريكية سوف يرتفع من ٢٠ مليون طن (١٩٦٠) الى ٣٥ مليون طن عام ٢٠٠٠ ، وسترفع بالنسبة لأكاسيد النيتروجين من ١١ الى ٣٠ مليون طن في نفس الفترة ، وذلك بتأثير مضاعفة اعداد السيارات وما تنفثه من هوامد الى الهواء ، والذي يقدر بأربعة أضعاف خلال الفترة المذكورة .

وملوثات الهواء عديدة ومتنوعة في الواقع (١٥) ولا يزال الكثير منها لم يكشف بدقة حتى الآن ، كما ان تركيز هذه المواد الملوثة للهواء يختلف اختلافاً جغرافياً ، ولكنه كما سبق أن قدمنا

(١٥) هناك ملوثات أخرى للهواء ولكن لا دخل لتلّسان فيها كما ان التحكم فيها صعب ومنها كلوريد الأيدروجين المتصاعد من البرايين والأكاسيد النيتروجين الناتجة عن التفريغ الكهربائي من السحب الرعدية ، وكبريتيد الأيدروجين الناتج من تسرب الغاز الطبيعي من جوف الأرض او بسبب البرايين او تواجد البكتيريا الكبريتية ، ولغاز الأوزون المتخلف ضوئياً في الهواء الجوي ، او بسبب التفريغ الكهربائي في السحب ، وتسايط الهباء المتخلف من احتراق الشهب والنيازك نتيجة لاحتكاكها بطبقات الجو ، والاملاح المنتشرة في الهواء بفعل الرياح والمواسف والاشعاعات الشمسية على المحيطات والبحار والبحيرات للفضة ، والأتربة التي تثيرها الرياح والمواسف او تأتي بها الجبهات الجوية وليارات الحمل الحرارية من التربة الملوثة ، وحبيبات التلّحاق والفطريات والكثيرا المنتشرة في الهواء منبثة من التربة او تصفون الهواء والطيور الميتة والفطريات الأدمية ، واخيراً المواد ذات النشاط الاشعاعي كتلك الموجودة في بعض تريت وصخور القشرة الأرضية او الناتجة من بعض الغازات الجوية بفعل الأشعة الكونية ، وكل هذه الملوثات ليست ذات أضرار جسيمة لان معظم الحيات قد تكلمت عليها بسبب تواجدها في الهواء منذ بدء الحياة .



شكل رقم (٣)

تلقى الطائرات بمئات الإطنان من الوقود المحترق يلوث الهواء بفلازات سامة أهمها أول أكسيد الكربون . فتساهم مع وسائل النقل الأخرى على الأرض في تلوث الهواء .

ليس قصراً على مكان ، ولكنه أكثر تركوا في مكان من مكان آخر . كذلك فإن وسائل مراقبة التلوث والكشف عنه لا تزال في كثير من المناطق غير كافية بالمرة ، كما أن التسجيل لهذه الظواهر ولفترات دورية منتظمة امر غير قائم حتى الآن .

واعتبر درجات تلوث الهواء ذات ارتباط وثيق بعوامل أخرى تختلف من شخص الى آخر ، فهي تختلف باختلاف درجات التعرض للأهراق على سبيل المثال ، وعلى السكان في مراحل العمر المختلفة حيث يشتد تأثير التلوث على كبار السن والأطفال ، كذلك على الشعوب ومقدار ما تتمتع به من مستوى غذائي معين ، وكل هذه وقبرها من عوامل لا بد من اخضاعها للتحليل العلمي ، كذلك فإن البحث العلمي في حد ذاته معقد للغاية في موضوع كهذا ، لان عنصراً واحداً من عناصر التلوث قد لا يعطي مردوداً سيئاً ، او يسبب مشكلة في حد ذاته لو وضع تحت الاختبار كعنصر مستقل ، في حين انه لو ارتبط بعناصر أخرى لأعطى مردوداً في غاية الخطورة ، ولهدد حياة الأفراد والمنشآت في منطقة ما . لذلك كان عمل تأثير العناصر المختلفة من الملوثات الهوائية امر صعب للغاية ، بل لسنا مبالغين لو قلنا ان العلم لا يزال عاجزاً عن علاج مثل هذا الموضوع ، الامر الذي يزيد من المضاعفات السيئة كلما مر مزيد من الوقت .



التلوث بالنواتج الصناعية الثانوية :

من البديهي انه مع تطور الصناعة وتقدمها يكتسب الانسان مزيداً من الكم الحضاري الماضي الذي - من القروض - ان يعود عليه وعلى مجتمعه بمزيد من الرفه المادي الذي يسر له الحياة بشكل او بآخر . الا انه كلما تقدمت الصناعة اقلت بالمزيد من النواتج الثانوية ، سواء كانت في شكل غازات او نفايات صلبة او نصف صلبة او سائلة ، الى الهواء او على الارض او في المياه ، لان الصناعة كما نعلم تحول المواد الخام الى منتجات صناعية كاملة او نصف كاملة ، وهي حينما لا تجد في هذه النواتج الثانوية قدراً من النفع على المستوى الاقتصادي ، فانها تلقى بها الى أي مكان . ومن اهم تلك النواتج تلك النفايات الصناعية ، خاصة اذا لم تكن قد مولجت قبل القاها خارج المصانع . وليس من المعقول ان نظل هذه النفايات يجوار المصنع بلا حراك لو قدر لها ان تلقى قريباً منه ، فالرياح تحملها او تحمل غازات الى اماكن بعيدة ، ومن هذه الغازات ما هو سام ، كما ان النفايات السائلة التي يلقي بها في الماء ، تحملها المجاري المائية الى مناطق بعيدة فتحمل اليها متاعبها وضرورها .

وقد تكون غازات هذه السوائل ملوثات هوائية ، كما قد تكون سوائل هذه النواتج ملوثات مائية او ارضية ، لكن النفايات الصناعية الصلبة والتي تتنوع تنوعاً كبيراً بين صناديق مهشمة وآلات معطوبة واوراق ونواتج ثانوية أخرى تتخلف عن المواد الصنعة ، كفضور الفاكهة والخضروات وغير ذلك من مخلفات ، انما تعمل على خلق مرتع خصيب للجراثيم والحشرات

والامراض ، تنقل البؤس والموت الى الاماكن المزدحمة بالسكان ، كما تشوه جمال التيسم الانسانية وقتل مظاهر الجمال التي تتوق النفس البشرية المتحضرة الى توفرها حيثما كان الانسان. ومن اهم هذه النواتج مساحيق اكاسيد الحديد الحمراء التي تنقلها الرياح الى المناطق الحيطية بالمنصنع فتكسوها بغير احمر كما هو الحال بجوار مصانع حمض الكبريتيك بكفر الزيات ، او بغير الاسمنت الرمادي اللون الدقيق الذي ياتي على الثبات بالدمار فيقتل خلاياه ويمطس لونا رماديا للمساكن القريبة كما هو الحال بمناطق طره والمصره بمدينة القاهرة . (انظر الشكل رقم ٥)

اما النفايات الصناعية السائلة فهي ما تلقيه مصانع منتجات الالبان من مواد دهنية وبيروينية ناتجة من عمليات التصنيع ، ومخلفات تنظيف الاواني ، ومخلفات مصانع التقطير بما فيها من مواد نشوية وخمائر ، ومخلفات مصانع النسيج والصياغة بما تلقيه الى المياه من مواد قلبية واملح واصباغ ومواد دهنية مستخلصة من بعض الالياف الحيوانية ، وكذلك مخلفات مصانع الدباغة وما يتخلف عنها من مواد حمضية او قلبية ومحاليل التنظيف والصابون ، بالإضافة الى مخلفات مصانع الكيماويات والمطهرات والورق التي تعتبر من اخطر مصادر تلوث المياه .

كما تعتبر المخصبات الزراعية الكيماوية والنيتروجينية التي تصل الى مجاري الصرف ذات تأثير بالغ الخطورة على هذه المياه ، فهي تعمل على زيادة نمو النباتات المائية الخضراء التي تمثل احد مصادر التلوث العضوية للمياه ، كما تسبب في كثير من المشكلات المتعلقة بالالاحه والانتقال في هذه المجاري المائية ، كما ترتفع من نسبة النترات في هذه المياه ، الامر الذي يعيق استخدامها في كثير من الأغراض .

اما تأثير النواتج الثانوية الصناعية الغازية فذات تأثير بالغ الخطورة كذلك على صحة الفرد والجماعة ، وهذا النوع من النفايات ينطلق مباشرة من كثير من العمليات الصناعية ، وربما يتخلف من النفايات الصلبة او السائلة من نواتج هذه العمليات فتنتقل الى الهواء قبل ان ترسب على الارض او في المياه . ولا تكاد تخطو أي عملية صناعية من مواد غازية تنطلق منها لتغطي مساحات واسعة حولها .

ولقد أصبحت تعاني كثير من الدول الصناعية مشكلة تراكم هذه النواتج الصلبة فيما يعرف « بالمقالب » المكشوفة ، فتلك المناطق حينما تتعرض للأمطار او تساقط المياه من أي مصدر لفترة طويلة - تعمل - بما يتحلل عنها وترسب منها الى التربة - على تلوث المياه الجوفية . وفي دولة كالولايات المتحدة ، يحتاج امر التخلص من مثل هذه النفايات الى ٥٥ بليون وعاء متوسط الحجم ، و ٢٦ مليون قنينة زجاجية ، و ٦٥ بليون وعاء معدني وبلاستيكي وادوات تعبئة اخرى تبلغ قيمتها نصف بليون دولار هي في حداثتها نفايات صلبة ايضا (II) .



شكل رقم (٥)

(من نتائج تلوث الهواء بالتوائج الناتجة للصناعة)

هباء الاسمنت التصاعد يقتل الحياة في الاشجار على طريق القاهرة - حلوان

(التقطت الصورة عام ١٩٧٥ بواسطة كاتب المقال)

أخطار المبيدات الحشرية ومبيدات الأعشاب :

أمدتنا الصناعات الحديثة بقائمة طويلة من المركبات الكيميائية التي أسرفنا في استخدامها إيسراف ، حتى أننا أصبحنا نعمل على تعمير ذاتنا ببطى حشيشة كل يوم، فهناك المواد الهيدروكربونية المالحة بالكور والرصاص والزئبق والفورينات، وهذه تصل إلينا في مجموعها كمكونات للبيئة ، ومن هذه المواد تلك المادة التي اصطلح على تسميتها *Decloro-dephenyl Trichlorethane* ، ولقد عرفت هذه المادة منذ عام ١٨٧٤ ، وشاع تداولها تحت اختصارها وهو الـ D.D.T. وهى أخطر ما حل بالزراعة التقليدية ، ولقد توصل إلى مفعولها العالم السويسرى بول مولر فنشطت مصانع الضخمة فى إنتاج العديد من الأنواع والمشتقات . ولقد أسرف الإنسان فى استخدام هذه المنتجات منذ أواخر الحرب العالمية الثانية.

وتوجد هذه المادة على هيئة تراكز قد تبلغ ١٢ جزءا فى المليون فى الدهون البشرية ، وأكثر من خمسة أجزاء فى المليون فى لبن الأمهات، رغم أن التراكز العادية تتراوح بين (٠.٥) جزء فى المليون و (٠.٢٦) جزء فى المليون . ويحتوى لبن الأمهات فى كافة الدول الآن على تراكز تختلف باختلاف استخدام هذه المادة فى المنتجات الزراعية التى تستخدمها (١٦) . كلى تتركز فى اللبن الإبقار لدرجة أصبح معها يصل إلى الأطفال منها يزيد من ضعف المعدل المسموح به حسب تقديرات منظمة الصحة العالمية .

ولا شك أن مجموعة المبيدات الحشرية الآن قد أصبحت دون الحصر ، ومشكلة هذه المواد أنها تستخدم وتداول وتخزن بطرق غير سليمة . فالأسراف فى إبادة حشرات الزراعة أمر مقبول إلى حد ما ، ولكن أن يقوم بعض الجهلاء من أصحاب محال البقالة والفاكهة برش منتجاتهم بالمبيدات الحشرية على الأرفف جنباً إلى جنب مع المنتجات الغذائية ، فهذا وذاك من الأمور الغريبة التى تضاعف من أحكام الحصار حولنا بهذه السموم . وبسبب العديد من مشاكل تسرب أو تداول هذه المبيدات فقد أصبح من الصعب تقدير مدى التأثير الذى تحدثه هذه المولتات . (الشكل رقم ٦)

ومن السهل على سكان أى منطقة أن يدركوا آثار ما يمكن أن تحدثه السموم من آثار مباشرة عليهم ، ولكن من المسير عليهم فى كثير من الأحيان، أن يدركوا مقدار التفيرات الفسيولوجية الدقيقة والبطيئة التى تحدث نفس الأثر ، ولكن على المدى الطويل ، ولا شك تعطينا الدراسات التى أجريت على الحيوانات أدلة قاطعة على خطورة تأثير تراكز هذه المواد فى جسم الأحياء . فقد دلت الدراسات على أن الجرعات الكبيرة من مادة الـ D.D.T. تتسبب فى الإصابة بالسرطان ، خاصة سرطان الكبد لدى الفئران ، وفى حالة وجود نسبة تركز تبلغ ١٠ أجزاء فى المليون يحدث تنشيط

(١٦) هناك مواد أخرى هيدروكربونية مثل الـ Aldrin والـ Dieldrin وكلاهما يتناول
المسائل قد وجدت بتركزات مختلفة فى لبن الأمهات .



شكل رقم (٦)

الفذية الحاصلات الزراعية الفذائية بالسموم هل يحول ذلك الحجاب على الوجه دون الاصابة بخطر الكبيبات الحشرية
بعد العودة الى المنزل كتناول الطعام ؟

لانزيمات معينة في الكبد وبنسبة عالية ، الامر الذي يؤخر بل ويمرقل العلاج بكثير من العقاقير ، وكثيرا ما افقدت هذه الانزيمات تلك العقاقير مفعولها . ويذكر ريتشارد وولك Richard M. Welch أحد علماء العقاقير بمعهد البحوث العلمية الأمريكية ان مادة الـ D.D.T. تسبب في زيادة وزن الرحم وتحفز على انتاج هرمونات الجنس (الايستروجين) لدى الاناث . ولقد ثبت فعلا ان مادة الـ د.د.ت تؤثر في هرمونات الجنس عند القثران والطيور ، الا أننا لا نعرف تماما اذا كان هناك حث للتغيرات الهرمونية في الانسان ، ومقدار تأثير هذه التغيرات ان وجدت ، وهناك ما يدل من الدراسات الحديثة على ان هذه المادة والمواد الشبيهة مثل الـ D.D.E. و الـ D.D.D. توجد بتركيزات عالية في دهون الانسان وقد تسببت فعلا في وفاة بعض المرضى . ويذكر ستيبنك Alan Steinbach طبيب الامراض العصبية بجامعة كاليفورنيا ان مادة الـ د.د.ت « عبارة عن سم عصبي من النمط التلخص منه أو شفاء المصاب به » (١٧) .

إن تأثير هذه المبيدات ليس فقط لتركزه في النباتات التي تقاوم أفاعها من أجل المزيد منها ، بل ينتشر ويتزايد لاستخدام مربياته في مكافحة البعوض ، ولقد أثر ذلك في اختفاء هذه الحشرة فعلا في بحيرة كير بكاليفورنيا الذي كان يتكاثر فيها لتناولها بالثغابات الديمة والصناعية ، ولكن ذلك الامر قد تسبب في اختفاء اسراب من الطيور كانت تتغذى على أسماك هذه البحيرات بعد أن ثبت وجود تركيزات شديدة في أنسجة الطيور المتضمن هذه المبيدات . كما نشرت ادارة الصحة الأمريكية بيانا أعلنت فيه ان هذه المبيدات قد ابادت ٣٢٪ من أسماك المياه العذبة في كل الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ . والاكثر خطورة من ذلك ، ان هناك العديد من الحشرات التي اكتسبت مناعة ضده ، حتى أننا أصبحنا في انتظار ان تعطى هذه الحشرات السيادة على كثير من امورنا وبشجعينا . ويقول إيرلش ان الزراعة الحالية تتعرض لهزة عنيفة قد تحول دون استخدامنا للمبيدات مستقبلا ، كما يذكر العالم الإيكولوجي فوجت William Vogt في كتابه « الطريق الى البقاء » ان ١٠٪ من النباتات الزراعية في الولايات المتحدة تلف كل عام ، وأن الأمل ضعيف في استمرارنا على معدلات ما نلقى به من أطنان المواد المبيدة للحشرات على الاراضي الزراعية ، وأن الفئان الواحد من الاراضي القرييتم مستنقعات مصب لونغ آيلاند بالولايات المتحدة والتي تم رشها بمادة الـ د.د.ت منذ ربع قرن ، يتوفر به ٢٣ رطلا من هذه المادة يمكن الحصول عليها من الطبقة السطحية .

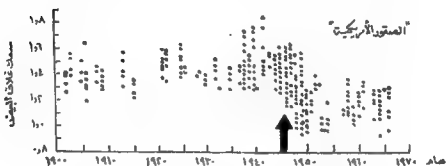
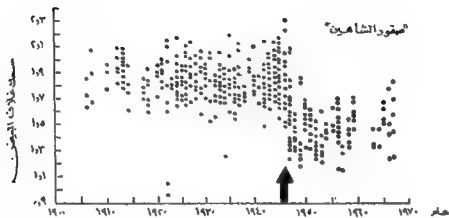
وتدخل هذه المواد المبيدة للحشرات بدرجة خطيرة في مقدرة الطيور على انتاج (البويض) النضاض بالكالسيوم ، ومن ثم تضع بيضها في اغلفة رقيقة للغاية للدرجة لا تتحمل معها وزن الطائر عندما يرقد فوقها تمهيدا للفقس فتكسر . ولقد أجريت التجارب على بيض الطيور الجارحة ووجد انخفاض شديد في مستمك قشر البيض في الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٧ وهي الفترة التي

انتشر فيها استخدام مادة الـ D.D.T. كذلك فإن أسماك السلّمون في بحيرة متشجن تضع بيضا يحتوي على هذه المادة ، كما وجدت تركيزات منها في عينة أخلت من أسراب هذه الأسماك والتي ماتت بأعداد كبيرة (٧٠٠٠ من صفار السلّمون) في عام ١٩٦٨ لامتصاصها هذه المادة . وحدث نفس الشيء لبعض الأسماك البحرية التي تصدر مثل التونا والمكريل والقُد . لقد عملت هذه المبيدات على حل أو تبسيط النظم الإيكولوجية واختزالها، فلقد حررت الآفات فعلا من القيود الطبيعية . فالآفة أو الحشرة التي تبدو في بادئ الأمر وقد وقعت تحت تأثير هذه المبيدات أو حتى قد ماتت بتأثيرها ، سرعان ما تعود بأعداد أكبر بكثير من ذي قبل . (شكل رقم ٧)

وعلى سبيل المثال فقد ازداد محصول القطن زيادة كبيرة عند رشه بخليط من مادة الـ D.D.T. والـ B.H.C. والتوكسافين في وادي كانتيت الساحلي في بيرو عام ١٩٤٩ ، فزاد تبعا لذلك محصول القطن من ٤٩٤ كيلو غراما للهكتار عام ١٩٥٠ الى ٧٢٨ كيلو غراما عام ١٩٥٤ ، ومع فرحة الفلاحين خيّل إليهم أن مزيدا من هذا المبيد يمكن أن يعود عليهم بمزيد من القطن ، ومن ثم استخدموا هذا المركب ليشمل الوادي كله وليس مناطق القطن فقط ، كما قطعت الأشجار لكي يتمكنوا من رش المبيد بالطائرات فمادّا حدث ؟ لقد اختفت الطيور بطبيعة الحال من هذه الأشجار حيث كانت تلجأ إليها ، كما اختفت أنواع من الكائنات كانت ذات فائدة محققة مثل طفيليات الحشرات، وكانوا يقومون باستخدام هذا المبيد في فترة مبكرة من فترة رشه في العام الأسبق نظرا للهجوم المبكر الذي كانت تتعرض لمحصولاتهم من الآفات، وفقدت مادة التوكسافين مفعولها في عام ١٩٥٤ عندما فشلت في القضاء على دودة ورق الطباقي . وبلغ البلاء أقصاه من دودة القطن في موسم عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ عندما ظهرت لأول مرة ستة أنواع جديدة من آفات لم تكن معروفة من قبل في هذا الوادي ، بالإضافة إلى زيادة في مقاومتها لهذه المبيدات ، فانخفض الإنتاج تبعا لذلك في الموسم المشار إليه إلى ٢٣٢ كيلو غراما للهكتار ورغم الكميات الهائلة التي استخدمت من المبيدات ، وبالتالي حلت كارثة بالوادي في عام ١٩٥٧ . والصورة ذاتها تتكرر عند استخدام السكان لمادة الأزودرين المبيدة لدودة لوزة القطن عندما أعطت نتائج عكسية تماما .

وتحدث هذه المبيدات تأثيرات أخرى على التربة فتزيد من الخلل البيئي وتعرض التوازن الإيكولوجي للحكم إلى مخاطر شديدة ، وتقضي هذه المبيدات على كثير من الكائنات الحية الدقيقة المسؤولة عن تحويل النيتروجين إلى صورة ملائمة لتناول النبات له ، وهي مسئولة عن إنتاج أشكال معينة من الفوسفور والكبريت حيوية ولازمة للنبات . ولا شك أن الإخلال بمثل هذه النظم يؤكد الخلل أو التلف الذي تتعرض له بعض الدورات اللازمة لبقاء الحياة عامة كدورة النيتروجين والفوسفور والكربون في الطبيعة . . انه توازن الحياة كلها والوجود بأسره . . أي خلل يتعرض له ذلك التوازن بتأثير هذه المبيدات . . (انظر الشكل رقم ٨) .

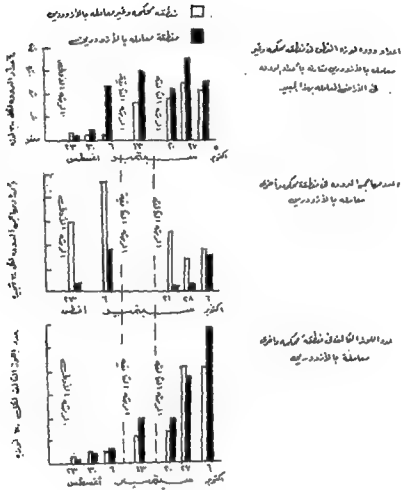
ميشة العصر : بين البناء والقتل



(ملاحظة: المستودع الشاهين والمستودع الأمريكي)

الفترة التي تليها على سبيل المثال، بعد الثورة (في بريطانيا) وتحت إشراف
السياسة في فترة الاستعمار الفدرالية لأمريكا (١٩٤٥ - ١٩٥٠).

شكل رقم (٧)



شكل رقم (٨)

بالا حث في محاولة القضاء على دودة القزح ؟

تدل نتائج التجارب التي أجريت لاستعمال مادتَي الأزودين المبيدة لدودة القزح على أن لهذه المادة فاعلية وتأثير واضح على مهاجمة هذه الدودة أكثر من فاعليتها وتأثيرها على دودة القزح لآلها ، ومن ثم قلما الزداد استعمال الأزودين كعبيد حشري الزداد لهذا الحصول .

اما مبيدات الأعشاب Herbicides فقدزاد استخدامها في السنوات الأخيرة كبديل للآلات الزراعية الميكانيكية والإيدى العاملة ، وذلك للحفاظ على جوانب الطرق والسكك الحديدية ، وارتفع معدل استخدامها حتى عن معدل استخدام المبيدات الحشرية ، وتلخص تأثيرها على قتل النباتات إما عن طريق التفريغ التي تحدثها في خلال هذه النباتات فتعوت وتسقط أوراقها ، أو عن طريق حرمانها من مقومات اتمام حصولها على الطاقة والبناء الضوئي ، ومن ثم تموت أيضا . ومن أهم هذه المبيدات مادة (2-4-D) ومادة (2,4-T) . ولقد استخدمتهما القوات الأمريكية المسلحة في فيتنام لإبادة الأعشاب التي كان يلجأ إليها الوطنيون ، فبدت مساحات هائلة الآن وقد تجردت تماما من أوراقها أو عسى في طريقها الى الموت . وينبغي أن نلاحظ أن ذلك يقضى على التوازن البيئي عندما يعمل على إقراض الحشرات والطيور والزواحف والنديمات المحلية التي تعيش على هذا النمط من الغطاء النباتية .



مبدنا : هل هي هادئة أم متة ؟

يتجه العالم اتجاها واضحا وسريعا الى عالم يسوده سكان المدن . ويعرف هذا الاتجاه بعملية التحضر Urbanization . ولقد قام كنجزلي ديفز بإجراء عدة دراسات خاصة باتجاهات التحضر وإستراتيجاته ، وتوصل الى أن نصف سكان العالم سوف يصبحون من سكان المدن مع حلول عام ١٩٨٤ لو استمر معدل نمو الحضرة على ما كان عليه عام ١٩٥٠ . أما لو استمر هذا الاتجاه حتى عام ٢٠٢٢ فإن سكان العالم كافة سيكونون سكان مدن ، بل إن حوالي نصف سكان العالم سوف يكونون سكان مدن مليونية ، وفي عام ٢٠٤٤ لن تكون هناك مدينة دون المليون نسمة ، ومن المتوقع في ضوء هذه التوقعات أن يصبح تعداد أكبر مدينة في العالم ١٤١ مليون نسمة (١٨) .

قد تكون هذه الأرقام مزعجة في الواقع ومثيرة . لكن الأكثر إزعاجا وإثارة حقا هو تصور بيئة هذه المدن مع هذا المستقبل في ضوء ما هي عليه مدن العالم . لقد تعد سكان المدن كثيرا من مقومات الحياة الرفد في الواقع . ولقد انتشرت في السنوات الأخيرة عدة دراسات حول ما يعرف بالتلوث الضوضائي Noise or Sound Pollution كأحد عناصر تلوث البيئة ، كما سادت الفوضى بعض القيم الأخلاقية التي انحدر بها بعض سكان هذه المدن فأضفت على المدينة سنازا كثيبا من الحياة ، وأصبح السكان في كثير من المدن الكبرى اليوم في حالة قلق دائم ، مع تزايد الجريمة وتشويه حياة المدن بالأصوات المزعجة لوسائل النقل والموسيقى الصاخبة وغيرها ، والتخريب الذي يعم المرافق العامة فيها .

اما عن الضوضاء ، فما أقبح ان يمزق سكوت المدينة زئير سيارة على الطريق او هدير طائرة متجهة الى المطار او مفادرة له . من المعروف ان الضوضاء تقاس عادة بالديسيبل Decibel وهو وحدة قياس التفاوت في الشعور بين شدة صوتين . ويمثل السكون على هذا المقياس الرقم صفر . ويتراوح الصوت تبعاً لذلك بين صوت التنفس العادي وهو ١٠ ديسيبل ، وصوت نهوض الطائرة النفاثة وهو ١٢٠ ديسيبل أى نفس الدرجة التى يسجلها صوت قذيفة المدفع عندما تكون قريباً منه عند الإطلاق .

وقد بسبب التعرض للضوضاء الشديدة فقد انما مؤقناً لحدة السمع ، اما عندما تكون مستويات الضوضاء أقل من ٥٥ ديسيبل ، فانها قد تؤخر نوم الانسان ، او تؤدى الى الشعور بالارهاق عند اليقظة . وهناك دليل واضح على ان الضوضاء عند مدى ٩٠ ديسيبل قد تكون الضوضاء عاملاً هاماً من عوامل الإصابة بالامراض الناجمة عن التوتر ، مثل القرحة وضغط الدم ، كذلك فقد اثبتت الدراسات التى اجريت ان المناسيب العالية للصوت لها تأثير ملحوظ على الناحية النفسية للانسان . (انظر الشكل رقم ٩) .

وتزدحم المدن اليوم بأصوات السيارات يشتت أحجامها وانوامها مختلفة بأصوات الدرجات البخارية واجهزة الانذار البوليسية وصغارات عربات الاسعاف والمطافئ ، مع خليط فريد من اجهزة الراديو او التلفزيون في المحلات العامة ، كل هذا مع مطارق اوتناش آلات البناء ، كل هذا خارج المنزل . اما في داخله ، فبالإضافة الى صوت الراديو او التلفزيون هناك العديد من الاجهزة المنزلية الصاخبة التى قد « تيسر » حياة الاسرة ، ومن هذه الاجهزة المكائن الكهربائية والخلاطات والفيسالات وماكينات الحلاقة والتجفيف وغيرها .

ان تأثير الصوت يختلف من شخص الى آخر ، ويتوقف هذا على مستوى ضغط موجاته وترددتها ، كما تختلف التأثيرات السيكولوجية تبعاً لمغزى الصوت بالنسبة للسامع وظروفه . فصور محرك الدراجة ربما يكون من الناحية البدنية مرهقاً ومدمراً للأذن ، ولكنه في نفس الوقت قد يعطى تأثيراً نفسياً مفعوراً بالنشوة والسعادة لسائق الدراجة ، تماماً كما يعتمد الشباب رفع صوت سياراتهم باحداث ثقب في مجرى العادم ، ان ذلك يعطى تأثيراً فريداً عليهم حقيقة .

- اما وسائل النقل الجوية ممثلة في الطائرات ، فان الطائرات النفاثة الاسرع من الصوت تعتبر من اكبر النقصات لسكان المدن القريبة مساكنهم من الوائى الجوية التى تستقبلها . ولقد ثبت فعلاً ان الصلعة التى يحدثها صوت اختراق الطائرة لحاجز الصوت ، تعتبر تهديداً مباشراً وخطيراً للاسماع . كما ثبت فعلاً اصابة السكان بالقرب من المطارات بكثير من الاضطرابات النفسية والعصبية ، خاصة في مواسم الطيران الزائد .

وبالإضافة الى هذه المظاهر ، هناك أصوات الوسائط التى تجوب الانهار والبحيرات كاللنشات وغيرها من وسائط النقل الميكانيكية ، ولها تأثير سيء على السكان القريبين منها ، كما ان أصوات

بيتة مصر : بين البقاء والقاء



شكل رقم (٩)

(التلوث الضوضائي بمدينة اليوم)

لا شك ان وسائل النقل داخل المدن تجاوزت حدود المألوف في تأثيرها الضوضائي .

موسيقى الجاز الصادرة من أجهزة الصوت المجسم تعتبر هي الأخرى ، وقد بدأت تجذب المزيد من الشباب الى سماعها وقد تصل الى ١٢٥ ديسيبل وهو مستوى مدمر للاذن لو تعرض لها الإنسان لفترة طويلة ، وهكذا .. حتى الموسيقى التي هي فن وجمال ، ننسى تأثيراتها الضارة مع غمرة البهجة الظاهرية الآتية .

ويؤكد صاهويل وفذن أحد رواد البحث العلمي في الأصوات ، ان هناك علاقة بين الاجهاد الناجم عن شدة الصوت والاضطرابات القلبية ، وان رد فعل التعرض المستمر للصوت الشديد يؤدي الى تضيق الشرايين وعدم انتظام ضربات القلب ، وتؤثر الفوضى في الإنسان اما عن طريق اصابته بالصمم نتيجة تلف الخلايا الشعرية الناقلة للصوت من الاذن الى المخ ، الامر الذي قد يسبب انفجارا مفاجئا فيها ، وأما يضعف السمع ضعفا مرعنا . .

وبالإضافة الى هذه الصور المزعجة لحياة الضخب والفوضى التي تجتاح مدن العالم اليوم هناك العديد من الصور الإنسانية الموسعة التي بدأت تضيف مزيدا من التدهور الى بيئة المدن . وتوضح هذه الصور في العينات والأحياء الفقيرة حيث يصل معدل الجريمة الى اقاصم . وهناك أكثر من دليل يؤكد ان حياة المدن عامة ، وذلك النماذج المنتشرة لانماط عديدة للجريمة والعادات السيئة في المدن ، انما يؤدي الى عدم تقارب الأفراد والأسر ، وضعف في العلاقات العائمية والتعارف بين الأفراد ، مما يتسبب في توترات نفسية .

وفي هذا المجال يقول العالم السيكولوجي ميلاردو P. G. Zimbardo ان الفسوط الحضارية في المدن انما تعمل على تحويل الأمريكيين الى جماعات من القتل وسفالي الممار . وقد توصل الى هذا الاستنتاج عن طريق الدراسات التي أجراها حول العلاقة بين ما يصرف بالغفلة Anonymity والاعتداء Aggression ، وعن طريق الدراسات الميدانية لما يصرف بالوندلisme وهي التخريب المتمدد للممتلكات والرافق العامة والخاصة بغير ما سبب واضح . فلفقد رصد في الفترة من عام ١٩٦٤ الى عام ١٩٦٩ حوالي ٢٢٠ ثورة عنف اجتاحت المدن ، وذكر ان العشرين قد قاموا في عام ١٩٦٧ بتمير (٣٦٠٠٠) جهاز تلفون عمومي في نيويورك فقط . بالإضافة الى تحطيم (٢٠٧١٢) شبكة مدرسة ، وألقوا العديد من الموالف العامة للسيارات . وحدثت اعتداءات على السيارات في نيويورك فقط بلغت ٢٢ اعتداء خلال ثلاثة أيام بلا سبب وامام المارة وفي وضع النهار (١٩) .

ومن دراسات أخرى تبين ان معدلات جرائم العنف ترتبط ارتباطا كبيرا بالكثافات العالية في المدن ، ولقد اوضحت الإحصائيات التي جمعت على مدى ثلاث سنوات من المدن الأمريكية (وهي اعوام ١٩٤٠ ، ١٩٥٠ ، ١٩٦٠) ان جرائم الاعتداء والسرقة والقتل والجنس ذات ارتباط واضح بمناطق الكثافات العالية في هذه المدن . هذا بالإضافة الى ان هناك امراضا أخرى ذات ارتباط وثيق بالأزدحام السكاني في المدن .

ففى أواخر الستينات أجريت عدة دراسات فى مائتان من تأثير الأزدحام على السكان ، فوجد ان هناك حوالى ١٨% من السكان يعانون بدرجة أو بأخرى من الاضطرابات العصبية او النفسية ، ولم تشمل هذه الدراسات السكان فى الاحياء الفقيرة او الرضى فى المستشفيات .

ويعتبر الفقر والتمييز العنصرى أو الطائفى من أهم العوامل التى تقترن بالاضطرابات النفسية خاصة بين المراهقين . ومن أهم امراض هذه الاضطرابات تمود حالات الطلاق فى المدن ، واساءة معاملة الاطفال ، وحالات الانتحار وغيرها ، هذا بالإضافة الى ما تسببه هذه التوترات من امراض للقرحة والشرى والتاجى وارتفاعات ضغط الدم . ويمكن تجنب مثل هذه الظواهر بتشيد منازل واحياء أكثر ابداعا وجمالا وتشجيرها وإن كان ذلك يستغرق مالا وجهدا ووقتا ليس بالقصر .



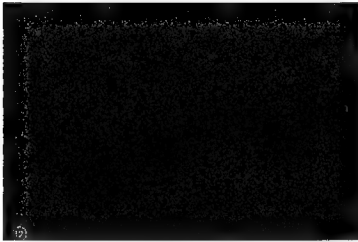
البيئة وتهديدات التسليح النووى : (انظر الشكل رقم ١٠)

يشكل السباق النووى الرهيب الذى يحتاج القوى العظمى فى العالم اليوم ، انتهاكا خطيرا للنظم البيئية كافة فى هذا العالم . وتضيف الاشعاعات الناتجة من مفاعلات الطاقة النووية وهن التجارب المختلفة مزيدا من الملوثات التى تترك آثارا مخيبة لكل رجاء فى بيئة نظيفة . ولقد تركزت التجارب النووية قبل عام ١٩٦٢ آثارا لا تزال نتائجها تتكشف يوما بعد يوم ، وذلك نتيجة لتلك التجارب على تفجيرات القنابل الهيدروجينية الفسخمة (H-Bomb) وما أعقبها من ترسب لمخاطبتها الحديثة الفسخمة على سطح الأرض .

ولقد تركت عملية الانشطار النووى الناتجة من هذه التجارب انواعا جديدة من الدرات الاشعاعية غير موجودة فى الطبيعة من قبل (٢٠) وتبددت فى الهواء والمياه ومصادر الغذاء واستقرت فى اجسامنا . وتبعا لخواص بعض هذه المواد فقد تركزت فى اجزاء حساسة من اجسامنا محدثة فيها تلفا لا يزال العلم عاجزا عن علاجه . فالجرعة الاشعاعية قد ترتفع بنسبة ولو قليلة نتيجة للغياب الدرى المتساقط عن تجارب القنابل الدرية ، غير ان التلف البيولوجى الذى تسببه خطير للدرجة غير متكافئة بالمرة .

وخلال التجارب النووية التى اجرتها الولايات المتحدة الامريكية ، استنكر التحذرون الرسميون عن الحكومة الفيدرالية حظر عنصر معين من عناصر الغياب الدرى المتساقط عن هذه التجارب وهو الاسترونتيوم - ٩٠ (Strontium-90) الا ان الذى كشف عن خطورة هذا العنصر جهد اساتذة الجامعات هناك فى بحوث مستقلة لهم . ولقد اثبتوا ان لهذا العنصر فاعلية اشعاعية ذات مدى زمنى طويل ، وهو من الناحية الكيميائية يشبه الكالسيوم ، أى انه يتركز فى

(٢٠) يتعرض الانسان عادة ومنذ بدء الحياة السروع من الاشعاعات الكونية والاشعاعات الناتجة عن الصخور بدرجة طفيفة تألف منها جسم الانسان والحيوان والنبات .



شكل رقم (١٠)

كبحير لقنبلة نووية حديثة ... مسحب هائلة من القبار
الذرى سوف تجدد طرائها الى سطح الارض ولو بعد حين ...

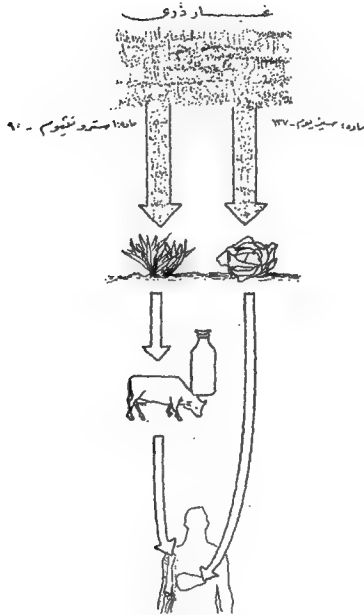
العظام وبالذات في العظام السريعة النمو ، كعظام الأجنة في الإرحام والأطفال الصغار ، ويعمل إلى هذه العظام عن طريق ترسبه في الأعصاب والتبائنات التي تتفقد عليها الإيقار ، وبالتالي يتركز في البناها. وقد يسبب منصر الاسترونشيوم - ٩٠ هذا مرض اللوكيميا أحد أنواع الأمراض السرطانية ، فهو - أي هذا العنصر - يهاجم الأجنة فيسبب تشوهات خلقية للأطفال منذ ميلادهم ، كما يتسبب في وفاتهم أحيانا . ولما كانت مثل هذه الأعراض تحدث نتيجة لأسباب أخرى ، فإن تحديد الحالات الناجمة عن هذا العنصر ربما كان صعبا .

وعلى الرغم من صعوبة ملاحظة الفبارالدرى المتساقط ، ورغم تحريم التجارب النووية الجوية ، إلا أن من بين التجارب العديدة التي أجرتها الولايات المتحدة الأمريكية تحت الأرض ١٧ تجربة (من مجموعها وقدره ٢٠٠ تجربة) تسربت منها الفاعلية الإشعاعية ، ومنها تجربتان وصلت هذه الفاعلية لهما إلى كندا . (شكل رقم ١١)

ولو فرض وامتنعت هذه التجارب تماما ، فإن سباق التسلح النووي سيظل له تأثير خطير على البيئة من خلال تجهيز المواد النووية ، فمخلفات مناجم اليورانيوم ومصانمه إنما تشكل في حد ذاتها خطرا محليا جسيما . فهي تعرض المواد الخام تحت الأرض للتلوث بها بعد ترشيح مياه الأمطار لها إلى باطن الأرض ، ومن ثم تسرب إلى مياه الأنهار لتلوثها بالإشعاعات .

والأخطر من ذلك تلك العناصر المشعة الجديدة الناتجة من المنتجات الجانبية للمفاعلات الذرية التي تصنع البلوتونيوم والتريسيوم . وتستمر بعض هذه العناصر لفترات قصيرة ، ولكنها قد تحدث أخطارا إشعاعية مبادرة وكثيفة ، وتكفي في نفس الوقت لخلق أخطار تستمر عشرات السنوات إن لم تكن مئات . فمنصر الاسترونشيوم - ٩٠ والسيزيوم - ١٣٧ يتحلل ٥٠ ٪ من قيمتها على مدى ثلاثين عاما ، أي أن ١٠ ٪ من قيمتها سيظل بعد مرور ١٠٠ سنة متبقيا كمادة إشعاعية ذات أخطار جسيمة . (٢١)

ويظل معظم النشاط الإشعاعي الذي ينتج من المفاعلات النووية داخل عناصر الوقود المهدنة في قلب المفاعل . وبعد سنة أو سنتين يوقف المفاعل مؤقتا ويزال الوقود منه ليوضع فيه ، ويرسل الوقود المستعمل إلى مصنع معالجة المواد المأداة لاستخلاص النفايات الإشعاعية منه في مطول حمضي . ويظل هذا المحلول ساخنا دوبا إلى درجة الغليان - بسبب عملية التحلل الإشعاعي ، لهذا فلا بد من تبريده بصفة مستمرة . وينبغي عدم نفاذ هذه المواد إلى البيئة . وتخزن الولايات المتحدة الأمريكية مثل هذه المواد في حوالي ٢٠٠ خزان مبني من الخرسانة المسلحة ومدفونة تحت سطح الأرض ، ويتسع كل خزان منها حوالي مليون جالون ، ولو أن ثلاثة جالونات فقط من هذه المواد قد وزعت بالتساوي على كافة سكان الأرض لوصلتهم جميعا ، ومرضت أجسامهم إلى نقطة الخطر الإشعاعي . ومع هذا فإن مائتي مليون جالون منها مخزون في الولايات



شكل رقم (١١)

الى اين يتجه القبار الذى التساقط ؟

ان جوهر مشكلة القبار الذى التساقط لا تكمن أسفالى الكمية الساقطة بل تكمن بالدرجة الاولى في الطريقة التي تصبغ فيها الجزئيات الاشعاعية مركزة في مجرى السلسلة الغذائية ، ومن هنا فان مادة الاسترونيوم - ٩٠ للنظير الاشعاعي تمتصه الثديية النام تذبذبها بالاعشاب الملوثة ، ثم تخرج هذه المادة الى الانسان من خلال تناوله اللبن والخبز ، ثم يتسبب في اصابة الانسان بسرطان المظا - اما مادة السيزيوم - ١٣٧ الاقل ذوباناً ، فتنتقل مباشرة من الخطرات الى الانسان حيث يتركز في الاعضاء والانسجة الحلقية مثل الكبد والقصد التناسلية وفي هذا خطر جسيم على كل الوراثة (الجينات) .

المتحدة فقط تحت حراسة مشددة ودائمة وبقطة. بل تحتاج هذه الخزانات لتبديلها بخزانات أفضل مرة كل ٢٠٠ سنة على مر العصور . ولقد حدث من قبل خلل في أحد هذه الخزانات ترتب عليه انسكاب ٦٠ ألف جالون من تلك المادة المهلكة أخذت طريقها المجهول في التربة . (٣٦)

وتحدد وكالة الطاقة الذرية الكمية السنوية التي تسرب من العناصر الإشعاعية الخطرة .
وتحدد كذلك الجرعات الإشعاعية المسموح بها للعاملين في المصانع الذرية وللعمامة من الشعب بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهي الفئة الأخيرة لا تتجاوز ١٠٪ من المسموح به للفئة الأولى ، وهو بذلك أقل من مستوى الخطر الإشعاعي . إلا أن الدلائل تشير إلى أنه في حالة استمرار العمارة من الشعب الأمريكي للتعرض لهذا القدر المحدد للغاية من الإشعاعات ، فإن ١٠ آلاف مواطن سوف يموتون سنويا بسبب السرطان . وأن كان هذا العدد ضئيلا بالنسبة لسكان الولايات ، إلا أنها نسبة كبيرة لأفراد من الجنس البشري يموتون بسبب تغيرات متعمدة في الظروف البيئية .

أما السكان بالقرب من المفاعلات النووية فإن الأخطار ستظل تتهددهم ، كما أن إنتاج المواد النووية مثل البلوتونيوم والثرثيوم واليورانيوم تنطوي على إنتاج نفايات إشعاعية تستعمل في إنتاج الطاقة ، والتي تنتهي عادة بتسخين مياه الأنهار والبحيرات بدرجة تؤثر في الحياة المائية . ولا شك أن التخلص من هذه النفايات الإشعاعية إنما يعد من أخطر المشاكل التي تقدمها الطاقة النووية للبيئة .

والواقع أننا لم نتحدث في كل هذا عن أخطار الحرب النووية لو أنها - لا قدر الله - قامت . ويبدو أن المجتمعات الحديثة قد هيأت نفسها لهذا النوع من الصراع .. أو هكذا نوههم . فبالإضافة إلى القتل الفوري للأرواح البشرية ودمار الممتلكات ، فإنها سوف تؤدي إلى كوارث بيئية ووراثية تفوق الخيال .

إن ما يمكن أن يحدث للعالم نتيجة صراع نووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي والصين ودول أوروبية نووية أخرى له تأثير خطير على كل أجزاء العالم . سوف تتوقف فوراً مساعدات الغذاء والمساعدات التكنولوجية التي تقدمها الدول المتقدمة إلى الدول الأخرى .
وسوف تمتنع الأولى عن مد الدول الأخرى بالذود ذات الإنتاجية العالية والأسمدة والأحباب الغذائية . والجرارات وآلات التنقيب على المياه ، وبالتالي سيجد العالم نفسه على شفا كارثة رهبة كون العالم اليوم في ترابط محكم من حيث هذا النوع من العلاقات .

وفي حالة نشوب حرب نووية على هذا المستوى سوف تستحيل ذباعة الحاصيل في مناطق عديدة ، كما أن اندلاع النيران الهائلة في نصف الكرة الشمالي ، سوف يؤدي إلى إرسال كميات هائلة من الحطام والهباء إلى الفلاف الجوي إلى حد يفوق أتلوث البركاني الذي يعقب ثوراناته المفاجئة ، وسوف تحدث تبعاً لذلك تغيرات جذرية للظروف المناخية في سائر أنحاء العالم ، وحيثما توفرت مواد قابلة للاحتراق كتطانات الغابات الهائلة في عرضها المختلفة

شمالاً وجنوباً ، ولتولدت هواصف نيران رهيبه ، تلك العواصف التي عرفها العالم بدرجة محدودة للغاية في مساء يوم ٢٧ يوليو عام ١٩٤٣ . حينما قامت قاذفات القنابل اللانكستر والهاليفاكس من السلاح الجوي الانجليزي بالقاء ٢٤١٧ طناً من القنابل المحرقة شديدة الانفجار على مدينة هامبورج . لقد التحمت كافة النيران الانفرادية في عاصفة من اللهب غطت ستة اميال مربعة ، وارتفعت السنة النيران الى ١٥ ألف قدم ، وبلغت درجة حرارة المناطق المغطاة بالعاصفة ١٤٥٠ درجة فهرنهايت ، وبلغت سرعة الرياح التي تولدت نتيجة لتيارات الهوائية الصاعدة والتي تهب نحو مركز النيران الى اكثر من ١٥٠ ميلاً في الساعة ، وسخن هواء الملاجئ المحفورة تحت الارض للدرجة كانت تشتمل فيها المواد القابلة للاحتراق بمجرد فتح هذه الملاجئ لدخول الاكسوجين وهو امر لازم لها حيث كانت تفتح للتهوية مرة كل عشرة ايام صادة في الظروف العادية .

لا شك ان حرباً كهذه سوف تسبب في احتراق الجزء الاكبر من نصف الكرة الشمالي ، وسوف لا يكون دمار الغطاء النباتي هو الاثر الوحيد لهذه الكارثة ، بل ان التربة سوف تصبح عقيدة عمقا جزئيا او كلياً ، كما ستمتل الأمطار على جرف الطبقة العليا منها . ولنتخيل مثلاً نجد تلال كاليفورنيا من غطائها النباتي وسقوط الأمطار الشتوية عليها . وكذلك الاحمال الهائلة من الطمي والحطام المشع الذي سينجرف من القارات الشمالية الى المياه بعيدا من الشاطئ . ولنتخيل كذلك مصير الحياة المائية التي سوف تتأثر تماما بتلوث المياه . كما ينبغي ان نفكر في آبار البترول الموجودة في البحار ، لا شك سوف تنفجر وتدمر بتأثير الاحداث على الياض المجاور ، وستندفق فحواها الى مياه المحيطات وسوف يستحيل اغلاقها ، كما لا بد ان نتخيل مقدار التسرب الذي سيحدث للمذيبات والوقود والمواد الكيميائية الاخرى وما ستعرض له انابيب نقل الخامات المختلفة . (٢٣)

اما الاحياء الذين سيقون بمد اي حرب كهذه فسوف يعيشون في بيئة محطمة منهارة فاسدة ، كما سيتركزون في نصف الكرة الجنوبي الضيق ، وسوف يتخلفون ثقافيا وحضاريا لاختفاء التكنولوجيا ، وستتحول الجماعات البشرية الى اشقات مبشرة عليها ان تواجه المشكلات الوراثة المقددة ، لان كلا منها سوف يمتلك جزءاً ضئيلاً فقط من التنفيرة الوراثة للجنس البشري ، كما انها سوف تتعرض الى نقداً أكثر لهذه التنفيرة ، ولقد اظهرت الدراسات التي اجريت على بعض سكان اليابان ان هذه المشكلات تؤثر بشكل خطير على معدل وفيات الاطفال وزيادة التلف العضوي للانسان والتشوهات الخلقية التي سوف تصيبهم قبل الميلاد ، باختصار فان تأثير هذه الحرب لن يكون قاصراً على قتل جزء كبير من الجنس البشري ، بل سيظل اثرها باقياً ومدمراً لمن سيبقى على الارض من بعدها .

ان موارد الثروة الطبيعية التي تكونت في احقاب التاريخ الجيولوجي محدودة . وفي خلال الربع قرن الاخير استنفدنا من الوقود الحفري ما يعادل كمية الوقود الذي استنفد في كل التاريخ من قبل (٢٤) ، فنحن فعلا في أزمة طاقة ، تلك الطاقة التي يتضاعف احتياجنا لها مرة كل عشر سنوات . فاذا استطعنا توفير كل جالون من الوقود ، وكل رطل من النحاس واليورانيوم من تلك التي نستهلكها في سباق التسلح النووي حاضرا او مستقبلا ، فسوف نجني ثمار ذلك بالتخطيط لتلك الموارد المنهوبة عمدا في ظل شراهة القرن العشرين .

ان كل ما تقدم من حديث من تلف البيئة المعاصرة او التهديد بالانقراض ليس وحده هو الممكن حصرة في هذا المجال . فهناك تهديدات اخرى عديدة متشعبة ومتفرعة ، فهناك تلوث ناتج من مركبات الرصاص بسبب تصاعد ايثيل الرصاص وتعرضه البشرية من خلال المبيدات الحشرية والدخان واللحام وبعض اواني الطبخ والاسباب الميساة المصنوعة من الرصاص . وهناك التلوث الجرومي والبكتيري والفوريدي Fluoride Pollution حيث يتلوث الهواء من مادة الفلوريد المنبعثة من مصانع الحديد والالمنيوم والفوسفات والزجاج والخزف والطوب ، كل هذا بالاضافة الى الخل الذي يمكن ان يحدث في دورات العناصر الطبيعية كدورة الكربون ودورة النيتروجين ودورة الفوسفات ، يجعل من الصعب طرق كافة جوانب تلك المشكلة البيئية في مقال واحد او لتخصيص واحد . (٢٥)

ان اخطار المولوات المعاصرة غير مدرجة بصفة عامة حتى الان خصوصا في الدول غير الصناعية ، ولكن سوف نجد ، وبطريقة غير ملحوظة ، بحيرتنا فاسدة وانهارنا ملوثة واطفاننا وشيوخنا مرضى ، ورغم خطورة التلوث من الهجوم على موارد الثروة الذي حدث في القرن التاسع عشر ، الا اننا لا نلتفت بنظر باستخفاف الى ما يجري اليوم ، فهل فشل العلم في ارشادنا من كيفية استغلالنا للبيئة ، ام ان الزمام قد نلت من ايدي العلماء الذين تقع على عاتقهم المسؤولية لتوهم بمثابة الاوصياء على استقامة ونزاهة هذا العلم ؟ ان السرية حول كثير من الامور العلمية التي تجري في المعامل والمؤسسات العلمية ، قد اعادت المناقشات الحرة ، وهناك الكثير من المؤسسات العلمية الهامة قد تمكنت فيها الاهداف القومية المحدودة ، بل في بعض الحالات كان العلماء مرتبطين ارتباط وثيقا بالاهداف السياسية ومن ثم بعدوا عن المناقشات العلمية المفتوحة .

• • •

David R. Inglis, Op.Cit. P. 149, 150.

(٢٤)

See Ehrlich, P.R. & A.H., : Op. Cit. Chaps. 4,5,6.

(٢٥)

نظرة أخلاقية للمشكلة :

يبدو أن العلماء اليوم لا يجدون طريقهم لتقديم الترشيد الدقيق للتكنولوجيا ، وهم مطالبون حقيقة بإيجاد طرق جديدة لحماية العلم ذاته من انتهاكات الضغوط السياسية ، وهذه ليست مسألة جديدة ، كثيراً ما تعرض العلم للهجوم والظفیان عندما يصبح جريئاً في المناقشة ، نربها في البحث عن الحق . ولقد كانت القوة الكامنة للعلم وقدرته على فهم الطبيعة تضعف عندما كانت المبادئ الحرة للمناقشة العلمية تتعرض للكبت أو الخطر ، وكانت هذه القوة تسترد عندما يكون هناك دفاع عن هذه المبادئ . ولقد تعرض العلم فعلاً للقمع والكبت في العصور الوسطى ، كما تعرض لفضال النظريات المنصرية النازية وسخف السرية المضروبة على العوامل العسكرية النووية والجرلومية .

ولقد اعتدنا في الماضي - وخاصة في نظمنا الأخلاقية المنظمة وبخاصة في الدين ان نضرب المثل بمبادئ الحياة الأخلاقية ، وكان ذلك في مصر خلال الحكم الفرعوني ، وفي روما تحت حكم الإباطرة ، وفي الجزيرة العربية في صدر الإسلام ، ومن قبل ذلك من خلال دعوة السيد المسيح عليه السلام . وكانت قيم هذه الأديان تعمل فعلاً على تغييرات ملائمة في المجتمع . وحديثاً - وللأسف - أصبحت هناك هوة سحيقة بين المبادئ الأخلاقية التقليدية وحقائق الحياة المصرية بدءاً من الكنيسة الكاثوليكية والذاهب الدينية الأخرى ، خاصة في الغرب الذي يمارس الأساليب التكنولوجية على أعلى مستوى ، ولقد أصبح من الميسر في هذا العالم ادراك جوهر الموضوعات الأخلاقية في حدود السرقة أو الإلذاء بحجر ، فالموضوعات الأخلاقية للعالم المعاصر لا بد ان تنحصر في الجوهر المركب للعلم والتكنولوجيا . فممارسة الأخلاق أصبحت الآن تتطلب تحديد الحق بين الفلاحين الذين يعملون بمبيداتهم الحشرية على تلويث المياه ، وبين صيادي الأسماك الذين تتوقف حياتهم على تلك المياه ، وهذا نفسه يدعو إلى حكم سليم بين مزأيا إحلال مولد للطاقة غير نووي ينمض منه الدخان محل مولد نووي خال من الدخان ولكنه ينطوي على كوارث خطيرة .

ان الحرب النووية الرهيبة لا يمكن وصفها إلا في الحدود العلمية ، فهي توصف بلغة الروتجينات والمجاطينات ، ويفهمها جيداً من لديهم ادراك بالتنظيم الصناعي ويعلم ألبولوجيا البشرية ، ومن لهم ادراك بتعقيدات الأيكولوجيا على المستوى العالمي ، فالتدمير الذاتي للحرب النووية ما زال يستتر خلف قناع العلم والتكنولوجيا ، وأن الجريمة الأخلاقية الكبرى في وقتنا هذا أخفاء طبيعة هذه الحرب لان ذلك يحرم البشرية من حقها في تقرير مصيرها .

ان مشاكل العصر نحتاج إلى أعمال اجتماعية وسياسية بعيدة المدى ، وسوف يؤخر حل المشكلات المرتبطة بالتلوث البيئي في البنىساء الاقتصادي إلى حد بعيد ، كما أن هذا الحل لا شك سيحتاج إلى تغييرات أساسية في تنظيم المدن ، ولكي تقضي على تهديد الكوارث النووية لابد من حل أو علاج للصراعات الدولية التي تسبب الحروب المدمرة على مر الأجيال .

وهكذا نصبح في حاجة لظلة عقلية او غلاف عقلي *Noösphere* نتفحصه جيدا ،
لانه سوف يعطينا الفرصة للوصول الى حل لمشكلات العصر التي تهدد بقاءنا . الا ان توقف
مقارب الساعة لا يحل المشاكل الايكولوجية ، بل ان ذلك يعتبر غلقا للمصارف أو البنوك التي تحل
المشاكل الاقتصادية ، ففي الايكولوجية لا توجد جنات عدن ، ولا المدن الفاضلة ، ولا يمكن ان
نعيد عقارب الساعة الى الوراء للعيش في مجتمع أبسط وحياء أكثر إشراقا ، بل ان طبيعة الانسان
هي التي تدفعه الى التغيير ، وهذا ما دفعه الى الورطة الراهنة حيث اصبح سيدا على الارض
دون معرفة لقواعد السيادة .

اننا في الختام لا نستطيع ان نميت لفترة طويلة بالقواعد التي تتحكم في نظم البيئة والمجتمع ،
تلك الأنظم التي هي أساس التوازن في تنوع الحياض حولنا . وهناك ذلك المبدأ الذي يقف جنبا الى
جنب مع العديد من المبادئ الايكولوجية الاخرى ، المبدأ الاساسي الذي ذكره الفيلسوف فرانسيس
بيكون في القرن السابع عشر عندما ذكر انفسا لا نملك حق اصدار الاوامر للطبيعة ، بقدر ما نملك
من تقديم فروض الولاء والطاعة لها .

(٢٦) We cannot command nature except by Obeying her.

ان الحكمة التي نحتاج اليها يجب ان تنبثق من المجتمع بكل افراده ، ومن الحكومات والاجهزة
التي تصدر التشريعات والقوانين والبرامج اللازمة لتثبيت حجم السكان عند مستويات يمكن امانتها
في مستوى معيشي مقبول ، ولتنظيم استعمال موارد الثروة في ضوء احتياجات المستقبل ..
وهذا يبيدنا الى السطور الاولى من هذا المقال لكي نذكر الى أي رقم يمكن ان يصل تعداد سكان
العالم .. فهل يكون الحل في الحد من تزايدنا .. ام في ثراء مداركنا بأبعاد المشكلة الايكولوجية
والنظم البيئية التي تعمل في توازن دقيق ؟



أهم المراجع

أولاً : مراجع عربية :

- جوزويه دى كاسترو « جغرافيه الجوع » ترجمة زكى الرشيدى ، القاهرة (الالف كتاب - عالم ٣٦٦) بدون تاريخ .
- عبد الحسن صالح (دكتور) : « المذبة العديشة ومشكلات التلوث » مجلة عالم الفكر (ديسمبر ١٩٧١) .
- محمد عبد الرحمن الشرنوبى (دكتور) ، « المشكلة السكانية في الربع الأخير من القرن العشرين » ، مجموعة معاصرات الموسم الثالث للجمعية الجغرافية الكويتية الكويت (١٩٧٥) .
- « جغرافية السكان » القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ، (١٩٧٢) .
- « الإنسان والبيئة » القاهرة - مكتبة الانجلو المصرية ، (١٩٧٦) .

ثانياً : مراجع اجنبية :

- Barry commoner : To survive on the Earth, in : Science and Survival, by Commoner, N.Y. 1966.
- Cecil E. Johnson : Eco-Crisis, N.Y. 1970.
- David R. Englis, : " Nuclear Pollution and the Arama Race," in : The Crisis of Survival, N.Y. 1973.
- Ehrlich, P.R. & A.H. : Population, Resources, Environment, San Francisco, 1970.
- Joseph L. Myler : " The Dirty Animal-Man ", in Eco-Crisis, N.Y. 1970.
- Marston Bates, : " The Human Ecosystem," in : Ecological Crisis, N.Y. 1970.
- Peter Farb : ' Man Versus Nature ', in: Eco-Cris, N.Y. 1970.
- Rhoda M. Love & G.A. Love, : Ecological Crisis, Readings for Survival, Chicago, 1970.
- United Nations : " The Determinantseon Consequ nces of Population Trends ", Population Studies No. 1 , N.Y. 1953.
- Warrea S. Thompson : Population Problems, London, 1970.

الدوافع والخوافز بين النظرية والتطبيق

منصور أحمد منصور

مفهوم دوافع العمل

نادت نظرية العلوم السلوكية ، طبقاً لتجارب عملية بضرورة الأخذ بمبدأ دوافع العمل أو الترغيب فيه ، باعتباره أسلوباً إنسانياً يحث العامل ويدفعه الى تكريس جهوده، ولبل طاقاته العملية ، والعلمية ، والفنية لتحقيق أهداف المنظمة ! .

ويندرج موضوع دوافع العمل Motivation to Work حول دراسة طبيعة الإنسان العامل Human Nature وسلوكه أو تصرفاته Human Behavior . والفرض من هذا هو التعرف على حاجاته الإنسان ، ورغباته ، ثم محاولة إشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات . والهدف الأمثل Ultimate Objective الذي ترمى اليه المنظمات العاملة ، هو

✻ دكتور منصور أحمد منصور استاذ مساعد بقسم إدارة الأعمال - كلية التجارة والاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة الكويت . له العديد من الدراسات والبحوث في الإدارة العامة والعلوم العامة .

١ - تنادى النظرية المذكورة بغرض مبادئ :

(١) مبدأ اختيار المنظمة نظاماً اجتماعياً ، (٢) مبدأ القيادة ، (٣) مبدأ دوافع العمل (٤) مبدأ الاتصالات (٥) مبدأ تدريب وتنمية طاقات العاملين .

أو معنوية ، في الحال وفي المستقبل ، ومن ثم فإن الإجابة عن السؤال الثاني يرتبط موضوعها بالإجابة عن السؤال الأول ، من وجهة نظر الحوافز التي تحرك دوافع الإنسان نحو الالتحاق بالعمل والاستمرار فيه ، وتكرس جهوده الفكرية والفنية والعملية لتحقيق أهداف المنظمة .

السلوك الإنساني

إن دراسة السلوك الإنساني Human Behavior في العمل تركز أساساً على قدرة الرجل الإداري في فهم طبيعة الإنسان وبغرض توافر هذه القدرة ، فإن فهم طبيعة الإنسان تتطلب أن نمطى المدير قدرًا من الوقت أو الزمن . ومن ثم فإن الجهود التى تبذل في اختيار الأفضل من الناس مقسمة وسلوكًا ، لا تكفى في حد ذاتها للتنبؤ بسلوك الإنسان وتصرفاته في الوظيفة . وهذا لا يتأتى إلا بالممارسة الفعلية لواجبات ومسؤوليات الوظيفة من جانب الموظف ، ولهذا أخذت الدول عامة ببداً تعيين الموظف الجديد تعييناً « تحت الاختبار » (Probationary period) وفي خلال هذه الفترة (من ٣ اشهر الى سنة) يمكن دراسة سلوك الإنسان وتصرفاته في الوظيفة وخلالها ، يكون للمنظمة إبقاءه أو إبعاده دون مسئولية في تعويضه أو التزام بقوله عاملاً .

وتدل التأملات الفكرية ، والدراسات الإنسانية على أن نشاط الإنسان هو تعبير مادي لسلوكه ، ومن ثم فإن السلوك الإنساني يعبر عنه بمجموعة من الأنشطة الإنسانية . وتتمثل هذه الأنشطة في طريقة سير الإنسان

بتحقيق أهدافها من طريق إشباع حاجات القوى العاملة ، وتحقيق رغباتها الأمر الذى يدفعها الى العمل والانتاج Productivity وهذا يعنى سد حاجات العاملين ، وتحقيق رغباتهم بالأسلوب الذى يحرك قدراتهم الفنية والعلمية والعملية ووسمها في خدمة الأهداف .

ومد عرف بعض الكتاب مفهوم دوافع العمل ، أو ترفيب العامل في العمل والاستمرار فيه بأنه الرغبة الإنسانية Willingness في الاستجابة الى متطلبات المنظمة ، أى تحقيق رسالتها أو أهدافها (٢) (The Accomplishment of Organizational Missions)

وأحد بالمعاني العالية المختلفة لدوافع العمل أو ترفيب العاملين في العمل والاستمرار فيه ودراسة هذه المفاهيم وتحليلها فإنها جميعها تدور حول الإجابة على الأسئلة الآتية : -

الأول : ماهي الوسائل الفنية والعلمية التى تتمكن المنظمة بمقتضاها من اختيار وترغبب الاثناء من الناس للاحاق بوظائف المنظمة ؟

الثانى : ماهي الحوافز ، المادية والمعنوية التى تتمكن المنظمة من تطبيقها لإبقاء على الكفاء من العاملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم في تحقيق الحد الأمثل من الكفاءة والانتاجية Productivity ؟

ولاشك أن السؤال الأول يعنى الاهتمام بغراسه السياسة الإدارية الخاصة بتوظيف العاملين الجدد وتعيينهم . على أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين هذه السياسة وبين الحوافز التى تقدمها المنظمة للعاملين لديها . إذ أن اختيار وترغبب الأفراد من الناس ، يقتضى «أفرائهم» ساً تقدمها للمنظمة من مزايا أو حوافز مادية كانت

الإنسان بالتعبير عن السعي .
محل معين ، الأمر الذي يفسر
حاجاته أو رغباته أو أهدافه .
ذلك بالشكل (رقم ١)

من الشكل رقم (١) سرور ،
الأسباب (why) الحقيقية
المحركة للأنشطة ، وبها يسر
السلوك ، وذلك الأنشطة .
مرما للأبحاث السلوكية
التي ينطلق منها أنواع السلوك
(Mainsprings of action)

ومن ناحية أخرى يرى م .
أن الرغبة أو الحاجة (Desire)
تمثل الغاية أو الهدف (goal)
يسعى الإنسان إلى تحقيقه أو
بالدرجة أو المستوى الذي يراه كافياً
نفسه منها ، ومن ثم يمتد العزم
إلى أشباع حاجة ، أو تحقيق غاية
المحركة لدوافع الإنسان .
وتحديد نشاطه ، الذي قد يبعده
الحاجة أو تحقيق الغاية .

العوائق

وتطبيقاً لما تقدم فإن م .
كيفية اختيار «الحافز» أو «الـ»
التي تحرك دوافع الإنسان .
وأدائه لنشاط أو أنشطة محددة .
أو بالأسلوب الذي يحقق له أهدافه أو
وبمعنى آخر يتعين إقامة صلة مباشرة
بين الحافز وتحقيق الهدف أو الرغبة

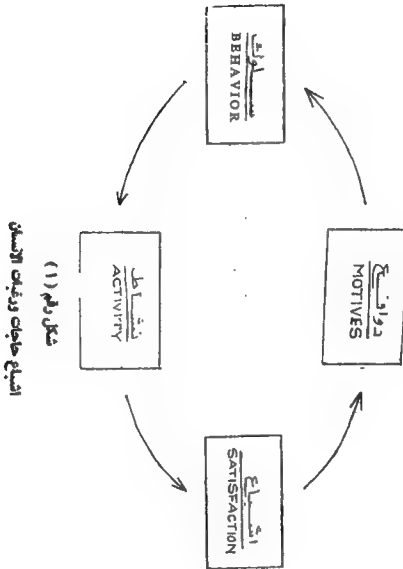
ومن ناحية أخرى فإن م .
الإنسان العامل أو تحقيق وغرضه
المنظمة يقتضى أن يحدد مسرود

وتعبيره بالحديث وتصرفه مع زملائه في العمل ،
واسلوبه في أداء الواجبات والمسؤوليات
الخاصة بعمله ، وقد يؤدي الإنسان أكثر من
نشاط في وقت واحد ، كالتحدث مع زميل في
العمل أثناء تدوينه بعض البيانات الخاصة
بعمله .

ولا شك ، أن الإنسان له قدرة على أحداث
تغيير مفاجيء في سلوكه ومن ثم في نشاطه ،
كما أنه يستطيع التوقف عن نشاط أو أنشطة
معينة وتبديلها بغيرها . كما أن للإنسان
قدرة على الإبطاء في ممارسة نشاط معين ، أو
تأجيله أو إنهائه بصورة أو بأخرى . هذه
الحرية السلوكية تثير تساؤلات هامة منها : ما
هو الدافع أو الدوافع التي تجعل الفرد يقوم بنشاط
معين دون غيره ؟ ما هي الأسباب في تغيير
الإنسان لسلوكه أو تصرفاته ، ومن ثم في نوع
نشاطه أو الأنشطة التي كان يراولها ؟

وتكون هذه التساؤلات أكثر أهمية ، إذا
ارتكزت على سلوك الإنسان وتصرفاته في
العمل . ومن ثم فإن مناهج الصعوبة ، يمثل
في إيجاد الوسيلة أو الوسائل التي تمكن
الرجل الإداري من فهم سلوك العاملين تحت
رؤاسته أو إشرافه ، وفي قدرته على توجيه هذا
السلوك وإخضاعه لمسيرة معينة لتحقيق
أهداف المنظمة ، والطريق إلى هذا الفهم ،
وخلق هذه القدرة أو تنميتها لدى المديرين
يتصل في ضرورة الإلمام بالدوافع أو الحافز أو
الحاجات (Motives or Incentives)
البشرية التي تؤدي إلى تكوين السلوك المرغوب
فيه في وقت معين .

ولا شك أن هناك صلة وثيقة بين دوافع
الإنسان وأشباع رغباته أو حاجاته . فالدوافع
تدفعه إلى سلوك أو تصرف معين ، ويقوم



نشاطهم وقدراتهم الفنية والعمية والعملية في تحقيق أهداف المنظمة (الانتاجية)، توصلا إلى تحقيق رغبتهم وآمالهم الدائمة .

ولهذا فإنه قد يكون من الضروري للمنظمات العاملة ، تحديد نوع Kind ، وطبيعة Nature) ، وقوة فاعلية (Intensity) الحوافز التي تقررها للعاملين لديها . كما أنه من الضروري اختيار الوقت لادائها ، وارتباطها بأهداف العاملين وتغييرها أو تنوعها تبعاً للتغيير في رغبات الأفراد . وهذا لا يتأتى إلا عن طريق إجراء الأبحاث العلمية بصورة مستمرة .

وتدل الدراسات المديدة على أنه يتعين توافر شروط محددة في تقرير هذه الحوافز (بالنسبة للأجر مثلاً فإنه يتعين تعديده وهو أحد الحوافز الضرورية) ارتكازاً على موامل ثلاثة ، **الصداقة ، والمساواة والكفاية** . أما الحوافز المساعدة أو الإضافية ، فيجب توافرها ما يلي عند اختيارها وأقرارها :-

١ - سهولة فهم السياسة التي تقررها المنظمة في تقريرها للحوافز

(Easily Understood) .

٢ - عدالة الحوافز وكفايتها (Equitable)

٣ - ارتباط الحوافز ارتباطاً وثيقاً مباشراً بالجهود الذهنية أو البدنية أو السلوكية التي يبذلها العامل في تحقيق الحد الأمثل للانتاجية (Directly related to effort)

٤ - أقرار صرفها أو أدائها للعاملين في مواعيد محدودة ومتقاربة (Based on short Payback period)

٥ - ارتكاز الحوافز على أسس ومستويات مقبولة . (Based on relevant standards)

إلى تحقيق أهداف المنظمة ، ومن ثم فإنه يتعين إقامة صلة أخرى وثيقة بين أهداف المنظمة وأهداف العاملين بها . ومعنى ذلك أن تكون الحوافز المتاحة كافية لخلق الظروف المناسبة واللائقة للإنسان بأن تحقيق أهداف المنظمة ضروري لتحقيق أهداف الجماعة في المنظمة ويمكن تصوير ذلك بالشكل الآتي رقم (٢) .

يشير الشكل رقم (٢) إلى أن اشباع حاجات الإنسان العامل وتحقيق رغباته مرهون بتحقيق أهداف المنظمة ، ومرتبطة بها ، بمعنى أن تحقيق الأهداف شرط لازم لامتكان اشباع حاجات الإنسان ورغباته . وإذا أردنا إعادة صياغة هذا في أسلوب أكثر دقة وسهولة، فإنه يمكن القول إن الحد الأمثل للانتاجية العامل هو الغاية والهدف ، وتحقيقه أمر جوهري في اشباع الحاجة أو تحقيق رغبة الإنسان العامل .

على أن ما تقدم لا يعني قيام المنظمة بوقف اشباع الحاجة أو تحقيق الرغبة ، حتى يتحقق لها هدفها في الوصول إلى الحد الأمثل في الانتاجية . بل أنه يجب التفرقة بين ما يسمى بالحاجات أو الحوافز الضرورية أو اللازمة (Primary Incentives) وبين الحوافز المساعدة (Auxiliary Incentives) .

ويمثل النوع الأول في الأجر المحدد للوظيفة ومشتقاته ، ويمثل النوع الثاني في كل المزايا أو الحوافز ، التي تقررها المنظمة مادية أو معنوية بالإضافة إلى النوع الأول تشجيعاً للعاملين ، وحثاً لهم على تحقيق الحد الأمثل في الانتاجية ومن ثم فإن النوع الأول من الحوافز ، يمثل حاجات العمل الضرورية التي يتعين اشباعها بصورة منتظمة، ومستمرة إلا في الأحوال التي يجوز فيها ، أو يتعين معها اتخاذ أمر يؤثر على سفة الاستمرار أو الانتظام في أدائها ، أما الحوافز المساعدة ، فهي التي تقررها المنظمة لجميع العاملين أو لبعضهم بشروط معينة ، تشجيعاً لهم ، لتوجيه

الدول النامية عامة ، والدول المتقدمة خاصة ،
تشجيعا للعاملين واستجابة لجهودهم في
تحقيق الحد الأمثل في الانتاجية ليتكامل نجاح
اهداف المنظمة . وقد تمنح هذه المزايا ، الى
جانب الحوافز الاخرى ، بصورة جماعية
(Group Incentives) أو بصورة فردية
(Individual Incentives) .

ويصور الجدول (رقم ١) أهم المزايا
الاضافية التي تمنحها المنظمات العاملة في
الدول المتقدمة ويمكن استخدامه كإطار لقطاع
الخدمات في تخطيطها لسياسة الحوافز .

من الاستمرار أو الانتظام في

(Continuous rather than ...)

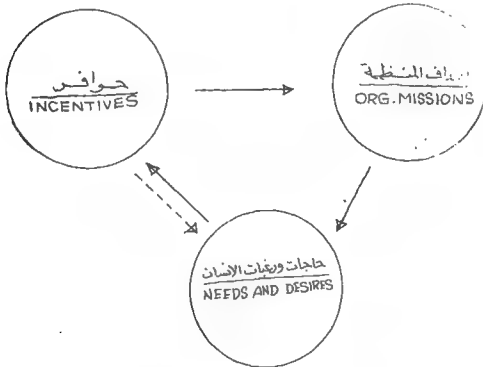
ربحنا مباشرة ووثيقا رسالة

(Related to Organization Activities)

سألتها اتصالا مباشرا

، (٢) Drives .

في المزايا الاضافية في



شكل رقم (٢)

تحقيق اهداف المنظمة

- Robert A. Sutermeister, *People and Productivity* (New York : McGraw Hill, Company, 1963), and Billy J. Hodge & Herbert J. Johnson, ...
- David W. Belcher & R. H. Leukert, *Job Evaluation* (Englewood Cliffs, N. J. Prentice Hall, Inc., 1954), pp. 379-514.

جدول رقم (١)
أهم المزايا الإضافية التي تمنحها بعض
المنظمات للعامل

أمثلة	نوع المزايا الإضافية	مسلسل
<ul style="list-style-type: none"> - البديل النقدي للإجازات الرسمية - المزايا المالية الإضافية في التوبت الليلية . - المزايا المالية من عمل وقت إضافي - البديل النقدي للعمل في الإجازة الأسبوعية 	مزايا إضافية مقابل عمل يؤدي	١
	مزايا نقدية غير مرتبطة بالانتاج	٢
<ul style="list-style-type: none"> - مكافآت الأعياد السنوية - مكافآت المواظبة على الحضور - مكافآت الجودة في الانتاج - مكافآت اتباع تعليمات الأمن والصيانة - مكافآت الخدمة الممتازة - مكافآت تقديم اقتراحات بناءة . - مكافآت نهاية السنة المالية 	مزايا نقدية غير مرتبطة	٣
	بساعات العمل :	
<ul style="list-style-type: none"> - البديل النقدي للإجازات غير الرسمية - الأجر المدفوع للوقت الذي يقضيه العامل خارج المنظمة بأذن مثل الذهاب للإدلاء بصوته في الانتخابات أو الإدلاء بشهادة في المحكمة . . . - الأجر المدفوع من أوقات الراحة اليومية . - الأجر المدفوع من أوقات تناول الغذاء - المزايا المالية المدفوعة في حالات وفاة أحد أفراد الأسرة . - المزايا المالية المدفوعة للوقت الذي يستغرقه العامل في تغيير ملابسه أو الاستعداد للعمل . 		

تابع جدول رقم (١)

أمثلة	تتبع المزايا الإضافية	مسلسل
- أقساط التأمين التي تدفعها المنظمة لصالح العامل . - المزايا المالية الإضافية في حالات العجز . - المزايا المالية الإضافية في حالات الرعاية الصحية ، والعلاجية والجراحية . - أقساط التأمين المدفوع لصالح العامل ضد السرقات . - الضمانات المالية التي تؤديها المنظمة لصالح العامل .	المزايا الإضافية في نطاق حماية العامل :	٤
	مزايا إضافية للخدمات	٥
- توفير الطعام في مكان العمل - توفير الوسائل الرياضية والاجتماعية - توفير المساكن للعاملين - تقديم منح دراسية وتدريبية - تقديم استشارات فنية وقانونية		

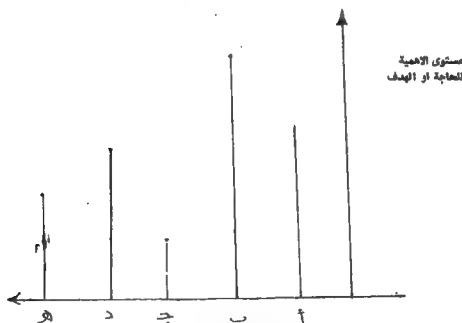
الخطوة الهامة نحو التأثير على سلوك العامل ونشاطه ، بحوافز مناسبة *Appropriate Incentives* واشباعها في وقت الحاجة اليها .

وقد تثار صعوبة حول ضمان التأثير على سلوك الفرد العامل ، وتوجيه نشاطه في اتجاه تحقيق اهداف المنظمة ، وتمثل هذه الصعوبة في ثلاث نقاط :

الاولى تتمثل في اشباع حاجات العاملين او تحقيق رغباتهم الفردية . ولاشك انه من الصعوبة بمكان الوصول الى هذه النتيجة نظرا لتمدد حاجات الافراد في وقت واحد ، وعلى الاخص بالنسبة للمنظمات التي يعمل بها عدد كبير من الافراد . ولهذا ، فان هناك من الدلائل الطولية ما يشير الى اشباع هذه الحاجات أو تحقيق تلك الرغبات التي تمثل

وموجز القول انه يتعين اختيار الحافز او الحوافز التي تتوافر فيها الشروط السابقة ، وعلى الاخص تلك التي تمثل الحاجة او الرغبة الملحة والهامة والقصوى لدى العاملين . ومعنى ذلك ان حاجات الفرد العامل متعددة . الا ان الرغبة في اشباعها تتفاوت فيما بينها من حيث اهميتها لديه . ومن ثم ، فان على المنظمة ان تختار الحاجة او الهدف الذي يمثل الدرجة القصوى لدى العاملين في وقت معين .

ويبين من الشكل رقم (٣) ان الحاجة او الهدف (ب) يمثل أعلى مستوى من الأهمية لدى الإنسان في وقت معين ، ومن ثم يكون اشباع هذه الحاجة أو تحقيق هذا الهدف طريقا لتحقيق اهداف المنظمة . ويعني هذا ان معرفة وتحديد حاجات الفرد ورغباته تمثل



شكل رقم (٣)

أهمية الحاجة أو الهدف

أسباب عديدة منها أن هذه الأبحاث تحتاج إلى وقت لوضعها موضع الاختبار الفعلي في مجالات العمل المختلفة ، وهذا الاهتمام بالأبحاث السلوكية في الدول عامة والتنمية خاصة ، وقلة الإعتمادات المخصصة للأبحاث والتجارب في ميدان العلوم السلوكية (٥) .

على أنه مما لا شك فيه أن هذه الأبحاث قد أرست مبادئ عامة وأساليب فنية ، وأفكارا تركز على تأملات فكرية ، وغروض علمية ، ونتائج موضوعية في مجال العلوم السلوكية ، هذا فضلا عن أن بعض هذه الأبحاث نجحت حينما وضعت في مجال التجربة ، وما زال الوقت متسعا للمزيد من هذه الأبحاث ولتلك التجارب (٦) .

ويعتبر نظرية الحاجات التي بدأها ماسلو (Maslow) من النظريات التي أدخلت مسارها في التطبيق وارتكز عليها كثير من المفكرين والكتاب في أبحاثهم وابتكاراتهم في مجال الدوافع والحوافز . ويعتقد ماسلو أن هناك خمس حاجات للإنسان لها أهمية تصاعدية أو هرمية . هذه الحاجات تتمثل في :

(١) الحاجات المادية أو الضرورية

(٢) الحاجة إلى الأمان والضمآن

(٣) الحاجات الاجتماعية (٤) الحاجة إلى التقدير (٥) الحاجة إلى الاحراز أو تحقيق أقصى الآمال أو الطموحات .

آمال وأهداف النسبة الغالبة من الأفراد . وهذا لا يتأتى إلا من طريق الأبحاث العلمية في مجال الحوافز .

الثانية تتمثل في ضرورة خلق الشعور العام والطمأنينة لدى الأفراد بتوقع (Expectancy) قيام المنظمة بإشباع هذه الحاجات أو تلك الرغبات وضمن ذلك في المستقبل . ولا شك في أن هذه الصعوبة تقع مسبوقة عليها على الإدارة العليا بالمنظمة .

الثالثة تتمثل في الشعور العام للجماعة أو الأفراد بتوافر إمكانيات المنظمة الكفيلة بالوفاء بالتزاماتها في مجال الحوافز (Availability of Incentives) ولا شك في أن السياسة الملمنة في مجال الحوافز ، والسوابق التاريخية للمنظمة في مجال علاقات العمل من شأنهما خلق هذا الشعور بين العاملين بالمنظمة .

وتدل الدراسات العديدة في مجال سلوك الأفراد في المنظمات العاملة على أن البحث العلمي يمثل المشعل الذي ينير للادارة المعرفة الموضوعية في مجال دراسة طبيعة الانسان وسلوكه وأهدافه ووسائل تحقيقها

أبحاث الدوافع :

تمددت الأبحاث النظرية والميدانية في مجال الدوافع والحوافز ، لكن القليل منها لا يعتمد على تجارب ناجحة تمنحها الصحة العلمية ، ومعظمها ركيزة الإعتدال عليها في المجلات المختلفة في المنظمات العاملة . وقد يرجع هذا إلى

٥ - د . منصور أحمد منصور ، البحث العلمي وأهميته في مجال الإدارة ، الإدارة ، المجلد الخامس ، العدد الثاني ، أكتوبر ١٩٧٢ (يصدر مجلة الإدارة اتحاد جمعيات التنمية الإدارية بجمهورية مصر العربية) .

٦ - تدل الدراسات على أن أهم نظريات الدوافع والحوافز خمسة هي :

(١) النظرية الكلاسيكية ، (٢) نظرية الحاجات ، (٣) نظرية العلاقات الإنسانية ، (٤) نظرية التفصيل والتوقع ، (٥) نظرية العاملين ، راجع :

د . منصور أحمد منصور ، المبادئ العامة في إدارة القوى العاملة . (الكويت : وكالة المطبوعات ١٩٧٣) الباب الخامس .

١٩٥٧ ، واستمرت هذه الدراسة خمس سنوات اعتباراً من تاريخ التحاق هؤلاء الموظفين بالخدمة ، وأجريت لهم مقابلات شخصية بحضور متخصصين في العلوم النفسية .

وتتلخص أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة فيما يلي :

١ - يتطلع الإنسان لأشباع حاجاته ، عند بداية عمله ، بصورة تسلسلية طبقاً للنموذج الذي قدمه ماسلو ، بدلاً بالحاجات الضرورية (الأجر والأمان والطمأنينة في العمل) .

٢ - ليس بالضروري أن يستمر هذا الاتجاه ، أي تسلسل أشباع الحاجات ، عندما تطول مدة خدمة الموظف ، فقد يتطلع الموظف لأشباع نوع معين من الحاجات لا تتفق في تسلسلها مع نموذج ماسلو .

٣ - بعد انقضاء مدة خدمة معينة (وهي هنا خمس سنوات) ، يتطلع أولئك الذين حققوا نجاحاً في عملهم ، لأشباع المستويات العليا من الحاجات (الرفيات) تاركين أو غير عائنين بالمستويات الدنيا منها (كالأجر والأمان والطمأنينة في العمل) ، وهذا يرجع أساساً إلى أن هذه الفئة تضمن بقاها في الوظيفة ، وتقدمها في التسلسل الإداري ، ما يضمن لها الأجر والأمان والطمأنينة في العمل . وينطبق نفس الحكم على المديرين الذين لم يحققوا نجاحاً ملموساً في العمل ، إلا أن الفرق بينهم وبين الذين حققوا نجاحاً ، يتمثل في أن الفئة الأولى تكون أشد حماساً وأكثر اهتماماً بأشباع هذه الحاجات .

٤ - أظهر المديرين (الناجحون منهم والأقل نجاحاً) اهتمامهم بأشباع الحاجات المتمثلة في احترام النفس ، وتحقيق الذات ، والإنجاز ، وكانوا أقل اهتماماً بالأجر والأمان والطمأنينة في العمل مثلما كان الأمر عند بداية خدمتهم .

وتدل الشواهد العلمية ، والدراسات الحديثة في الستينات من هذا القرن على أن نظرية ماسلو (نظرية الحاجات) اتخلت نموذجاً رائداً في مجال دراسة طبيعة الإنسان وسلوكه وحاجته ورغباته . ونتيجة لهذا الاتجاه ظهرت دراسات وأبحاث بناءة في مجال الدوافع والحوافز ارتكازاً على الحاجات الإنسانية الخمسة التي جاءت في النموذج الذي قدمه ماسلو نعرض بعضها في أيجال .

الحاجات المادية : أجري العديد من الأبحاث لمعرفة مدى وأهمية الحاجات الضرورية أو المادية لحافز أو دافع للعمل . وقد أشارت هذه الدراسات والأبحاث إلى أنه غالباً ما يرتبط إشباع الحاجات المادية (الطعام ، والملبس ، . . . الخ بغرفة النقود . على أن الأفراد لا يهتمون بالنقود في حد ذاتها ولكن نظراً لكونها أداة (Tool) تمكنهم من إشباع مثل هذه الحاجات ، لذا فإشباعها بهذه الوسيلة يكمن في قوة النقود الشرائية (Purchasing Power) إلا أنه مما لاشك فيه أن للنقود وظائف أخرى قد تكون أكثر أهمية ، وأعظم ضرورة في استعمالها .

وقد دلت الأبحاث التي أجريت في مجال النقود كأداة لأشباع الحاجات الضرورية ، أنها باعث أو دافع مقعد ومتشاك . كما أن أهميتها قد تتضاءل كلما تقدم الفرد مساعياً لأشباع حاجات أخرى طبقاً للنموذج الذي قدمه ماسلو . ومعنى هذا أن النقود تلعب دوراً هاماً وحيوياً في إشباع الحاجات الضرورية ، ثم تأخذ هذه الأهمية في التناقص كلما ارتفعنا في سلم درجات الحاجات .

وأجريت دراسة ميدانية في الستينات من هذا القرن بهدف وضع نظرية ماسلو موضع الاختيار . وارتكزت هذه الدراسة على مينة من ٩١ موظفاً مينوياً بالإدارة المتوسطة Management-Level Employees في شركة التليفونات والتلفراغات الأمريكية عام

الحالة الاجتماعية (الانتماء الى الجماعة) :

ذكرنا من قبل ان حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة Affiliation ترتفع الى الاهمية القصوى عندما يعتقد الانسان او يشعر انه قد اشبع حاجته المادية وحاجته الى الامان والطمانية ، وعندما تصبح حاجة الانسان الى الانتماء الى الجماعة في اهميتها القصوى فان عدم اشباعها قد يؤدي الى مقاومة الفرد (Resistance) للمنظمة التي يعيش فيها ، والى عدائه لها (Antagonistic) والرغبة او التصميم على عدم التعاون معها (Uncooperative) .

وتشير هذه الدراسات الى ان الانسان يسمى لاشباع حاجته الى الانتماء الى الجماعة لا باعتبارها هدفا في حد ذاتها (A Goal In Itself) بل باعتبارها وسيلة لتحقيق رفاهات او اهداف اخرى ، فقد يرغب الانسان في الانتماء الى جماعة معينة حتى يستطيع كسب تأييدها ، ومساندتها في مسائل او آراء او معتقدات معينة . ومن ثم فغالبا ما يتجمع الافراد الذين يؤمنون بآراء او معتقدات واحدة ، محاولين استمالة غيرهم ، وتطويع الجماعة للانضمام اليهم تحت ظلال هذه الآراء او تلك المعتقدات . ولاشك ان تكوين هذه الجماعات التي قد تختلف فيما بينها من حيث المبادئ التي تؤمن بها ، ربما يحول المجتمع الى جماعات متنافرة مسببة في خلق مشاكل اجتماعية تعوق المجتمع عن تحقيق اهدافه .

ودلت هذه الدراسات ايضا على ان الافراد الذين يشعرون باليأس أو القلق أو الملل ، يميلون الى صحبة من يشاركونهم نفس الشعور ، وقد أكد هذا الاتجاه بعض الدراسات الدالة

الحاجة الى الامان : تمثل هذه الحاجة الخطوة او المرحلة الثانية في اهميتها وتسلسلها للانسان بصفة عامة . وتمثل هذه الحاجة في محاولة او رغبة الانسان في ضمان عمل دائم ودخل دائم يعينه على مواجهة التزامات الحياة له ولافراد أسرته . كما تشمل هذه الحاجة الرغبة في حماية الانسان من الاخطار الطبيعية او المهنية او الاقتصادية .

ويعتقد بعض الكتاب ان ميول الانسان واتجاهاته تجاه اشباع الحاجة الى الامان تلعب دورا هاما في اختيار الوظيفة . على ان الاجابة على اهمية حاجة الانسان الى الامان والرها على اختياره للوظيفة تحتاج الى ابحاث علمية عديدة حتى يمكن التوصل الى نتائج موضوعية وواقعية .

وخلاصة القول ان حاجة الانسان الى الامان والطمانية امر يرتكز على الواقع وتؤسسه الدلائل . ولاشك في ان الدول عامة توفر للانسان العامل اشباع حاجته الى الامان والطمانية . وتمثل وسائل اشباع هذه الحاجة في التأمينات الاجتماعية

(Social Insurances) والمساعدات العامة ؛ وعقود العمل مدى الحياة (كما هو الحال في اليابان) ، وعدم جواز فصل العامل الا بشروط خاصة (كما في بعض الدول الاشتراكية مثل جمهورية مصر العربية) . كما تعمل المنظمات الخاصة ، ومنها النقابات العمالية ، على اشباع مثل هذه الحاجة عن طريق المساومات او المفاوضات الجماعية مع اصحاب الاعمال (كما هو الحال في الدول المتقدمة وعلى الاخص الرأسمالية منها) .

٧ - راجع :

— Saul W. Gellerman, *Motivation and Productivity* (New York : American Management Association, 1963).

في مثل هذه الظروف المشار إليها تبدأ الجماعات غير الرسمية في الظهور والتكوين بالأنظمة ، وتأخذ في النمو . وتكتسب قوة لها تأثيرها على الإنتاج . والاندماج إلى مثل هذه الجماعات يعتبر اشياءا لحاجة الانتماء (الحاجة الاجتماعية) . والقيود التي تفرضها هذه الجماعات على الإنتاج (Restriction of Output) ما هي إلا أحد الأمثلة لنشاطها في مجال الإنتاج . على أنه ليس بالضروري أن تكون هذه القيود وليدة كراهية أعضاء هذه الجماعات لطبقة المديرين أو لإدارة المنظمة بل هي وسيلة (Means) للمحافظة على أعضاء الجماعة ، وشخصيتها والوصول إلى أهدافها .

وجدير بالملاحظة أن الجماعات غير الرسمية تلفظ من بين أعضائها من لا يلتزم بشروطها وينفذ حدود معدلات إنتاجها أو أدائها ، ذلك أن مثل هذا العضو يضعف من قوتها ، ويؤدي إلى تعطيل وجودها ، وذهاب طمأنينة أفرادها والأهمية التي يجب أن تكون عليها .

وخفض الإنتاج ليس بالضرورة أن يكون نتيجة ظهور الجماعات غير الرسمية . إذ أنه يمكن للإدارة الواعية أن توجه نشاط هذه الجماعات لصالحها واستغلالها كركيزة تنطلق منها لتحقيق أهدافها ، وذلك إذا استطاعت الإدارة فهم وتوجيه مثل هذه الجماعات . ومثال ذلك أنه إذا ساد الشعور لدى أعضاء هذه الجماعات بأن هناك تمارضا بين أهداف المنظمة وأهدافهم الذاتية ، فإن إنتاجهم تميل إلى الانخفاض . أما إذا كان تحقيق أهداف المنظمة سيعمل على تحقيق أهدافهم الشخصية فإن إنتاجية الجماعة سوف تميل إلى الارتفاع ، وتنتيجة لهذا فإن المنظمة سوف تتمكن من تحقيق أهدافها .

وبهذا يمكن القول بأن ظهور الجماعات غير الرسمية ونموها ، ليس بالضرورة اعتباره مرضا يؤثر على حركة المنظمة أو مسيرتها نحو

على أن تطور الجماعات غير الرسمية (Informal Groups) إنما يرجع أساسا إلى شعور الجماعة بالسام (Boredom) واحساس أفرادها بعدم أهميتهم في العمل (Insignificance) وافتقارهم إلى الخبرة أو المهارات الفنية فتكون لديهم الاعتقاد بأنهم ضحايا المجتمع الذي يعيشون فيه ، أو نظام العمل الذين يرتبطون به .

على أن الجماعات غير الرسمية المشار إليها لا تضم جميع الأفراد الذين يعملون في المنظمات العاملة . فقد دلت الدراسات على أن هناك من الأفراد من لا توجد لديهم الرغبة في الانتماء إلى جماعة معينة (Loner) وقد يرجع عدم الرغبة في الانتماء إلى الشعور بالشك (Suspicion) في هذه الجماعة أو نظرة الفرد نظرة الازدراء حيالها contemptuous أو أن يكون على درجة من الكفاءة تسمح له بحماية نفسه ، وتحقيق أهدافه دون حاجة إلى الانتماء إليها .

وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الإدارة في المنظمات العاملة تنظر بعين الشك إلى الجماعات غير الرسمية التي تتكون وتتمو في المنظمة . وقد أشارت بعض الدراسات إلى أن القيود التي تفرضها تلك الجماعات على الإنتاج ما هي إلا نتيجة طبيعية لشعورهم بتفاهة أعمالهم ، لاسيما إذا كانت الإدارة لم تمنحهم الفرصة للمشاركة في إصدار القرارات الخاصة بهذه الأعمال، ويبدو أن مثل هذا الشعور يبدو واضحا (Materialized)

عندما تكون أعمال هذه الجماعة مملّة ، أو روتينية (Routine) لا تحتاج إلى أية مهارات . وقد يزداد تأثير هذه الجماعات على الإنتاج سواء إذا أحكمت الرقابة عليها ، أو حرم أفرادها وسائل الاتصال المناسبة مع إدارة المنظمة .

طريق اداء خدمات مرموقة أو انجازات ذاتية لتكون رمزا ماديا لاجتذاب الآخرين الى احترامه وتقديره ، وقد يحاول آخر تحقيق منجزات فردية (Personal Achievement) كالوصول الى اعلى درجات العلم والمعرفة ، كوسيلة للوصول الى مركز أو مكانة مرموقة في المجتمع الذي يعيش أو يعمل فيه .

ومهما تكن اساليب اشباع الحاجة الى التقدير فان حاجة الانسان اليها امر يرتكز على الواقع ، وتؤكد الدلائل ، مع ملاحظة أن بعض الأفراد يميلون الى المبالغة Over-emphasis في تقييم انفسهم . ومن ثم فانه يمكن القول بوجوب إيجاد توازن Balance بين تقييم الفرد لنفسه وتقييم الجماعة له .

ومن نتائج ما تقدم فان تقييم الفرد لذاته قد يرتكز على مستويات مقبولة تتفق وأقصى ما يمكن أن يحققه من مكانة أو مركز في المجتمع . وعندما يحقق الفرد ما تطلع اليه طبقا لهذه المستويات فانه يحاول جاهدا المحافظة عليها بدلا من التطلع لتحقيق مستويات اعلى . وذلك هو السبب في رضاء بعض الأفراد عما حققوه من احترام في المنظمات التي يعملون بها، على اعتبار انهم وصلوا أو حققوا ما كانوا يتطلعون اليه في الماضي (Preconceived Level) اما الأفراد غير العاديين (Unreasonable Individuals) فقد يتطلعون

لاشباع حاجتهم على المستوى القومى أو العالمى غير مراعين لحدود طاقاتهم أو مستويات قدراتهم ، أو الظروف المحيطة بهم ، ولا شك أن نتيجة هذه الحالة هي الخيبة والفشل .

الحاجة الى الإنجاز : تدل الدراسات التي تمت على أن هذه الحاجة تمثل صعوبة عند محاولة فهمها أو التعرف عليها أو تحديدها أكثرها ، بسبب أن الانسان يحاول اشباعها بطرق ووسائل متعددة ، وقد ركزت الابحاث الحديثة اهتمامها على نوعين من الفيات

تحقيق أهدافها ، اذا ما اتجهت الإدارة الى فهم طبيعة وسلوك ورغبات أو أهداف هذه الجماعات ، ثم محاولة تحقيق هذه الأهداف وجعلها مرتبطة ومتصلة بأهداف المنظمة .

الحاجة الى التقدير : بعد أن يشبع الانسان حاجته بالانتماء الى الجماعة يتجه محاولا اشباع الحاجة الى التقدير . هذه الحاجة تضم هدفين للانسان :

١ - حاجته الى الاعتراف بنفسه ، وقيمه واعتباره كمفرد في جماعة (Self-esteem) وتشير هذه الحاجة أو الرغبة الى الثقة بالنفس (Self-Competence) واستقلال الشخصية (Autonomy) والكفاءة أو المقدرة الذاتية (Competence) في الانجاز .

٢ - حاجة الانسان الى الشهرة أو السمعة الطيبة أو المكانة المرموقة (One's reputation) وتشتمل في حقيقة الانسان في أن ينال من الجماعة تفضيلا أو تمييزا من غيره لخدمات اداها أو مساهمة قام بها (Recognition) كذلك تشير هذه الحاجة الى رغبة الانسان في تحقيق منزلة معينة أو مرتبة مرموقة لدى الجماعة (Status) أو تقدير معين لنشاطه وانجازاته (Appreciation) .

وموجز القول أن الحاجة الى التقدير تتمثل في رغبة الانسان في أن يرى صورة ما يجول في نفسه ، متمثلة في اعتراف وتقدير الجماعة لها . ويمكن اجمال حاجة الانسان الى تحقيق أمرين (١) احترام الجماعة للانسان ، ومكانته لديها لإعمال اداها أو خدمات ساهم في انجازها Prestige (٢) القوة التي يملكها الانسان في شخصيته أو لقدراته العملية أو الفنية أو العلمية (Power)

ويسمى الأفراد لاشباع هذه الرغبة أو الحاجة بطرق مختلفة . فقد يسلك الانسان

تمكن الفرد من الوأمة بين قدراته الفنية والعلمية والعملية . ومتطلبات البيئة التي يعيش أو يعمل بها ، وهي ووأمة تأخذ شكل مياارة تتسم بالتحدي والأصرار ، ولا شك في أن الأعمال التي تعطى الإنسان الفرصة للدخول في مثل هذه المياارة تسمح له بأشباع حاجته إلى الكفاءة والتعبير عنها ، هذا بالإضافة إلى ما يمكن أن يحصل عليه من حوافر مادية كانت أو أدبية . ولذلك نرى أن الأعمال الروتينية لا تمكن الفرد العامل من الدخول في مجال لظهار براعته الوظيفية أو قدراته العلمية ، وفي هذه الحالة ، يفسى هذا الإنسان خاضعا لنظام عمل تظله رقابة إشرافية محكمة .

الحاجة إلى الأحرار : وإذا وجهنا النظر إلى دراسة وفهم الحاجة إلى الأحرار (Achievement) فإنه يتعين الإشارة إلى أنها لا تعنى مجرد جهود علمية أو فنية أو مبتكرة يبذلها الإنسان ، بل أنها بالإضافة إلى ذلك ، تعنى تحقيق ثمرة هذه الجهود ، رغم ما قد يواجه من صعوبات أو عقبات يمكن أن تحول دون أحرار هذه الثمرة .

إذاذا توافر لدى بعض الأفراد الشعور بحاجتهم إلى أحرار ثمرة معينة فإن قوة رغبته تدفعهم إلى العمل الجاد وبسبل الجهود المتواصلة حتى يتحقق لهم إشباعها بدلا من ترك نتائجها للصدفة . وغالبا ما يتميز هؤلاء الأفراد بقوة الحاجة مدفوعة بدوافع إيجابية ، وعلى الأخص إذا كان تحقيق الأحرار سيحقق لهم عائدا ماديا أو أدبيا . ومع ذلك فإن هدف الأفراد في هذه الحالة ، تجسم أساسا في أحرار الثمرة . بغض النظر عن حجم الحافز أو مقداره ، ونتيجة ذلك أن النقود - باعتبارها حافزا - لا تعتبر بالنسبة لهؤلاء إلا مقاييسا لأدائهم ، وتقبيما لجهودهم ومباذلهم .

البيئة كمصدر للدوافع (Motivating Environment) : يتضح مما سبق أن حاجات الإنسان متعددة ، ووسائل إشباعها متباينة ، والدوافع التي تدفع هذه الحاجات إلى الحركة

الإنسانية التي تتلوج تحت الحاجة إلى الأحرار ، الأول ويتمثل في الشعور أو تحقيق الإحساس بالكفاءة (Competence) والثاني يشير إلى محاولة الإنسان أحرار تقدم ملموس في مجال معين من المجالات .

وتتمثل هذه الكفاءة في قدرة الإنسان في السيطرة على عوامل البيئة التي يعيش فيها سواء كانت مادية أو اجتماعية . ويبدو أن الأفراد الذين يحاولون إشباع هذه الرغبة لا يستطيعون انتظار حدوث عوامل إشباعها ، بل أنهم يحاولون تطوير جميع الإمكانات المحيطة بهم لتحقيق هدفهم .

ويتضح مما تقدم أن هناك علاقة وثيقة الصلة بين شعور الفرد بالكفاءة ودرجة توقعه لإشباعها : فتحتاج الإنسان في ماغيه هو الذي يحدد توقعات نجاحه أو فشله في كفاؤه في مستقبله . فيتسم الشعور بالكفاءة بالقوة عندما تكون مجالات نجاحه في الماضي أكثر من مجالات فشله . ومن ثم تصبح نظرة الإنسان إلى الحياة أكثر إيجابية (A Positive outlook toward life) ويرى في كل مشكلة

جديدة تحديا ممتعا لكفاؤه في التغلب عليها . وبالرغم من أن الحاجة إلى الشعور بالكفاءة تظهر وتتمو مكررا في حياة الإنسان ، إلا أنه ليس من الضروري أن تصاحبه طوال حياته . فقد دلت بعض الدراسات على أن نجاح الفرد مرة أوعدة مرات ، رغم توقعه للفشل ، غالبا ما يدم شعوره بالكفاءة ، ويدفعه هذا النجاح إلى أحرار الكثير منها . وعند تكرار ذلك يتحول شعور الإنسان إلى اعتقاده بإمكانية التنبؤ بإمكان نجاحه وإشباع حاجته إلى الكفاءة ؛ وغالبا ما يكون عامل السن (Age) إذا أثر على إمكانية النجاح . إذ للإنسان طاقة معينة ومحددة ، يستطيع معها توقع نجاحه أو فشله في مجالات الحياة المختلفة .

ويعتبر العمل أحد المجالات الرائقة التي

وقد أجريت في إحدى قطاعات الصناعة الأمريكية دراسات حاول الباحثون الرد على السؤال التالي: ماذا يريد العاملون من أعمالهم (What do workers want from their jobs?)

في هذه الدراسة طلب من طلبة المشرفين Supervisors أن يضعوا أنفسهم مكان العاملين لديهم (A worker's shoes) ويعيدوا كتابة قائمة بالحاجات التي يعتقدون أن العاملين يتطلعون إلى إشباعها من العمل على أن يراعى في ترتيب هذه الحاجات وضمنها حسب أهميتها لهم . كما طلب من العاملين أيضا أعداد هذه القائمة ، التي تبين الحاجات التي يتطلعون إلى إشباعها من عملهم .

ويصور الجدول الآتي رقم (٢) الحاجات مرتبة حسب أهميتها ، مع مراعاة أن الرقم ١ يعنى الأكثر أهمية والرقم ١٠ يعنى الأقل أهمية

والإشباع مختلفة ، كما أن قوة ودرجة الإشباع تختلف من فرد إلى آخر ، والإدارة الناجحة هي تلك التي لها قدرة التنبؤ بدوافع الإنسان ، وحاجاته واستخدام الحوافز المناسبة في الوقت المناسب .

ولا شك في أن استخدام الحوافز في العمل إنما يهدف إلى استخدام الطاقات البشرية بالشكل الذي يضمن أن العناصر البشرية تعطى كل ما هي قادرة على إعطائه ، إذ أن الدراسات الميدانية تعطي الدلائل العلمية الثابتة على أنه كلما ارتفعت كفاءة استخدام الطاقات أو القدرات البشرية ، ارتفع الأداء الانساني (Human Performance) كما أن الحوافز مادية كانت أو أدبية ، تساعد على استخدام أفضل لهذه الطاقات ، من طريق تحريك دوافع الإنسان واستخدام طاقاته المعلقة أو الكامنة .

جدول رقم (٢) ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

العاجات	المشرفون	العامل
تقدير الإدارة للعمل الذي يؤدي	٨	١
الشعور أو الإحساس الداخلي للعامل	١٠	٢
التعاطف وفهم المشاكل الشخصية	٩	٣
الامان والطمأنينة في العمل	٢	٤
أجور متناسبة	١	٥
عمل يثير اهتمام العامل	٥	٦
الترقية والتقدم مع نمو المنظمة	٣	٧
ولاء أو إخلاص الإدارة للعاملين	٦	٨
طرق وظروف عمل جيدة	٤	٩
عدالة وحساسية نظام التأديب	٧	١٠

ويمكن إعادة ترتيب الحاجات ، بالشكل الذي يبين وجهة نظر المشرف ، ووجهة نظر العامل في الجدول الآتي (رقم ٣) .

جدول رقم (٣)
 ماذا يريد العاملون من أعمالهم ؟

العمال	الحاجة طبقاً لأهميتها	المشرفون	الحاجة طبقاً لأهميتها
١	تقدير الإدارة للعمل الذى يؤدي	١	أجور ممتازة
٢	الشعور الداخلى للعامل	٢	الامان والطمانينة في العمل
٣	التعاطف وفهم مشاكل العاملين	٣	الترقية والتقدم الوظيفي
٤	الامان والطمانينة في العمل	٤	طرق وظروف عمل جيدة
٥	أجور ممتازة	٥	عمل يثير اهتمام العامل
٦	عمل يثير الاهتمام	٦	ولاء وإخلاص الإدارة
٧	الترقية والتقدم الوظيفي	٧	عدالة وحساسية نظام التأديب
٨	ولاء وإخلاص الإدارة	٨	تقدير الإدارة للعمل الذى يؤدي
٩	طرق وظروف عمل جيدة	٩	التعاطف وفهم مشاكل العاملين
١٠	عدالة وحساسية نظام التأديب	١٠	الشعور الداخلى للعامل

تعتبر من الحاجات أو الرغبات الهامة لدى العامل ولو أنها أدرجت تحت رقم ٤ بدلاً من رقم ٢ طبقاً لوجهة نظر طبقة المشرفين .

والترقية قد تعني أمرين :

الأول أنها تضيف أماناً أكثر وطمانينة في نفس الإنسان نحو بقاءه في الوظيفة .

الثاني أنها تعني زيادة في الأجر أو الربح ، وفي كلتا الحالتين تعتبر الترقية من الحوافز المادية وإن كانت تعطي الإنسان الإحساس بأهميته في المنظمة ، ومن ثم يمكن اعتبارها من الحوافز الأدبية .

وقد أدرج العاملون الترقية في المرتبة السابقة من الأهمية ، وإن كانوا قد اعتبروا أن تقدير الإدارة لعملهم هو أول ما يتطلعون إليه . ويمكن تفسير ذلك بأن تقدير الإدارة لأعمال الإنسان ، غالباً ما يؤدي إلى ترقبته ومنحه الفرصة للتقدم الوظيفي بالمنظمة .

ويتضح من الجدول السابق رقم (٣) الملاحظات الهامة التالية :

١ - أن طبقة المشرفين غالباً ما تعتبر أن الأجور المرتفعة تمثل الحافز الأول لزيادة إنتاجية العامل . فإن الدوافع الأساسية للعاملين ، تتمثل في فرص الكسب الاقتصادي ومن ثم فهم يختارون أفضل الظروف التي تضمن أن يكون الكسب المادي هو النتيجة المباشرة لزيادة إنتاجيتهم .

٢ - أن طبقة المشرفين أضافوا الشعور بالطمانينة والترقية والتقدم الوظيفي باعتبارها عوامل أو حاجات يتطلع العاملون لاشباعها من عملهم في المنظمات العاملة . ولا شك في أن الامان والطمانينة في العمل (Job Security) تعتبر في المرتبة الثانية من الأهمية في نظرية ماسلو السابق الإشارة إليها . وقد جاء في الجدول السابق أن هذه الحاجة

٣ - إدراج الماملون تقدير الادارة للعمل ،
والشعور الداخلي للعامل تجاه المنظمة ،
والتعاطف وفهم مشاكلهم في الاهمية القصوى
بالنسبة لهم . وهذا يفسر أهمية العلاقات
الانسانية في العمل .

٤ - يتضح ايضا من الجدول السابق ان
الحاجات التي اعتبرها الماملون من اهم
متطلباتهم ، ويتطلعون الي اشباعها ، رأى
المشرفون انها أقل أهمية من غيرها . وهذا
يعني ان بعض المديرين ليس لديهم القدرة او
الرغبة في فهم الحاجات أو الرغبات التي تمثل
الاهمية القصوى للماملين لديهم . وهذا يؤدي
الى اختيار الحافز الخطأ أو استخدامه في وقت
غير مناسب .

٥ - ما زال بعض أو أغلب المديرين يعتقدون
ان اشباع الحاجات المادية للعاملين من اهم
الحوافز فاعلية لتحقيق الاستخدام الأمثل
للطاقات البشرية . وهذا ما يخالفه الواقع في
النتائج التي توصلت اليها للدراسة المشار
اليها . ويبدو ان الحافز المادي ، يكون منتجا
في الدول النامية، نظرا لفضالة الاجور وانكماش
فرص التقدم .

خلاصة ونتائج

يمثل الهدف من هذا البحث في شرح
ودراسة وتحليل الدوافع والحوافز ،
والتطبيقات الميدانية لها والآثار المترتبة على
استخدامها في المنظمات العامة بصفة عامة
وقطاع الخدمات بصفة خاصة .

واستخدام الدوافع والحوافز يتطلب
الاجابة على سؤالين هامين :

الاول يتمثل في الوسائل التي تتمكن المنظمة

بمقتضاها اختيار وترغيب الافراد من الافراد ،
والالتحاق بالوظائف واستمرارهم او بقائهم
عاملين بها .

والثاني يدور حول الحوافز المادية والمعنوية
التي تتمكن المنظمة من توفيرها للابقاء على
الافراد من الماملين ، وكسب ولائهم ورغبتهم
في تحقيق الحد الامثل من الانتاجية .

من خلال الصفحات السابقة نرى انها تؤكد
حقائق محددة نوجز اهمها فيما يلي :

(١) ان الانسان طاقة اذا احسن استخدامها
تضحي قوة ، واذا وجهت هذه القوة اصبحت
وسيلة لتحقيق غاية أو غايات . لكن الطاقة
الكامنة في الانسان لا تصبح قوة الا بتحريكها
او استخدامها ، واذا احسن توجيه قسوة
الانسان نحو هدف ما فإنه في الغالب يتحقق .

(٢) ان الانسان يختلف عن الآلة ، ويمثل
اهم هذا الاختلاف في ان الانسان بطبيعته
مخلوق متغير وغير مستقر ، ومن لم يصعب
التنبؤ بسلوكه او تصرفاته او اتجاهاته .

(٣) ان هناك صعوبة او استحالة في تواجد
تعامل بين انسان وآخر في الطبيعة والسلوك
والتصرفات والاتجاهات ، ومن ثم فان ذلك
قد ينشئ صعوبة في المنظمات العاملة نحو
ايجاد التآلف بين الافراد والتناسق في سلوكهم ،
والتقارب بين اتجاهاتهم .

(٤) انه لا توجد حتى الآن وسيلة علمية
مؤكدة تتميز بالدقة والسلامة لاستخدامها في
امرين :

الاول يتمثل في قياس مساهمة الفرد او

الأفراد تحت إدارة واحدة . وتضحي هذه المهمة أكثر تعقيدا كلما ازداد حجم القوى العاملة التي تعمل في منظمة واحدة أو في مكان واحد. ومن ثم يفرض التوازن حتمي وضروري في تطوير أساليب الإدارة في مجال إدارة العلاقات البشرية عن طريق سياسات تخطيطية تمهد المسيرة نحو تعاون جماعي ، ومساهمة فعالة لضمان تحقيق أهداف المنظمة من خلال تحقيق حاجات الفرد وتطلعاته في المستقبل .

عمق اهتمامه او مقدار ولائه للمنظمة التي يعمل بها .

والثاني يتمثل في التنبؤ او في تفسير ما يطرأ على سلوك الانسان او تصرفاته او اتجاهاته من تقيز او تقبل في المستقبل .

وإزاء هذه الحقائق تضحي المهمة شاقة في إدارة الإنسان العامل . وتزداد هذه المهمة صعوبة اذا اجتمع ههنا الانسان مع غيره من



المراجع

- د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى العاملة . الكويت - وكالة المطبوعات ، ١٩٧٣ .
- د . منصور احمد منصور ، المواقف والمخاطر في قطاع الانتاج : دراسة مقارنة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية . ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، المبادئ العامة في ادارة القوى العاملة ، القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية : ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، مفهوم تطبيق القوى العاملة في الدول النامية (١) القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، ايقولوجية الادارة العامة . القاهرة : المنظمة العربية للعلوم الادارية ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، القوى العاملة : تطبيق والتطوير والتكوين ادائها الكويت : جامعة الكويت ١٩٧٥ . (كمت الطبع)
- د . منصور احمد منصور ، البحث العلمي واهميته في مجال الادارة ، مجلة الادارة ، أكتوبر ١٩٧٢ .
- د . منصور احمد منصور ، مفهوم الانتاجية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، ابريل ١٩٧٤ .
- د . منصور احمد منصور ، الثورة الادارية بين النظرية والتطبيق ، مجلة الادارة ، أكتوبر ١٩٧٤ .



عقوبة الاعدام بين الابقاء والالغاء

عبد الرهاب حمود

من بين المشاكل التي ناز حولها جدل طويل، واصطُرعت فيها الفلسفات والمواقف والمعتقدات، مشكلة عقوبة الاعدام . ولعل اصطدام الفكر بواقع المجتمع ، بما فيه من مركب الخوف على نفسه ان يقع الفرد منه ضحية خنجر من شرير ، او رصاصه من دموى ، يطفئ النقاش الهادئ بسحب قائمة ، تجعل البصيرة القل نغلا في بحثها عن الحل الأمثل، في مصطرح التناقضات الاجتماعية .

لمن روعتهم الجريمة ، دون ان تنالهم في اشخاصهم ، بان هناك عينا ساهرة على سلامتهم ، هي الدولة ، وسيفها المسلط في يدها على رقاب العابثين باقدارهم العظمى ، يرهب اعداء الله واعداء القانون . .

ومما يريد في صعوبة اتخاذ قرار ثورى حاسم ، ان البشرية درجت على الرضا بهذه العقوبة ، ومارستها منذ الازل ، وارتاحت اليها ، كوسيلة من وسائل تسكين الحقد الذى يعتل في نفوس ذوى المقتول ، وطماننة

وينقل أحد المؤلفين المعاصرين (١) من المؤرخ اليوناني هيرودوت "Herodote" : « إن الفرعون "Sabakon" أحد مؤسسي الأسرة الخامسة والعشرين (ما بين ٧١٠ - ٧٠٣ ق . م) ألغى عقوبة الإعدام ، وأبدلها بعقوبة السجن مع تقييد المجرم بالسلاسل ، وتشغيله في الأعمال العامة . فإذا صحت هذه الرواية ، تكون مصر القديمة ، أول نظام منظم ، حقق خطوة حاسمة ، لا تزال البشرية في حيرة أمامها حتى اليوم .

وقد أميلت هذه العقوبة فيما بعد ، وأصبحت تطال ، في عهد مصر البطلموسية وهي الفترة التي تمتد ما بين الغزو الماكيدوني لمصر عام ٣٣٢ ق . م والغزو الروماني عام ٣٠ ق . م ، كما يتضح من أوراق البردي اليونانية وبعض النقوش ، عدد متزايد من الأفعال ، كارتشاء الموظفين ، والتطفيف في الميزان ، والتعدي على أموال المعابد . . .

ولقد أجبرت كليوباترا ، بمرسوم أصدرته عام ٥٠ ق . م ، التجار الذين يشترون حبوب مصر الوسطى وخضارها ، بنقلها إلى الاسكندرية وعاقبت مخالفتي هذا المرسوم بالإعدام .

وفي ظل الحضارة الرائعة التي ازدهرت في بلاد ما بين النهرين ، وضمت قوانين متكاملة ، من اعظمها ، قانون حمورابي عام ١٧٥٠ ق . م ، الذي يعكس في مواده الجميلة نضوجا فكريا خصبيا . . . وإذا كان هذا التشريع البابلي ، يعاقب أفعالا كثيرة بالإعدام ، كالسرقات الكبرى ، وإخفاء المروقات ، التي استلبيت بواسطة العنف ، وإزالة الوشم عن وجه المبد لأخفافه عن ماله ، والقتل ، وزنا المرأة واغتصابها ، والشهادة الزور في جريمة القتل ، والبسلاغ الكاذب : من ارتكاب جريمة قتل

ولقد عاقبت البشرية انماطا من المجرمين بالموت ، منذ فجر تكوين المجتمعات الأولى ، إذا لم افهم بالقول ، منذ تكون المجتمع الأول . . . ولا يذهب بنسبنا الخيال ، السى أن هذه العقوبة كانت قاصرة على القتل ، اللذين يزهقون أرواح الناس . لأنها ، في حقيقتها ، كانت تطال غير القتل . بل ربما كان إعدام القتل لم ينشأ إلا بعد مرحلة طويلة من التطور الحضارى .

فقد عاقبت مصر الفرعونية جرائم كثيرة بالإعدام :

عاقبت قتل الحيوانات المقدسة ، والسحر ، وعدم إفساء مؤامرة ضد الفرعون ، والتصريح الكاذب عن الموارد المالية ، وعدم اغائة من تعرض لهجوم الاشتقاء ، في الطريق . . .

ونوعت طرق تنفيذ هذه العقوبة :

فمن قتل أباه ، كان يمدم بغرز قطع حادة من القصب في جسمه ثم يقطع الجلادون من لحمه قطعاً صغيرة بألة خاصة ، وبعد ذلك يلقي به على كومة من القش ، ويحرق ببطء . . . وكانوا يحرقون الرائية . . .

وكان يدخل في سلطة القاضي اختيار طريقة إعدام المجرمين الآخرين ، بين الشنق ، أو الأفراق أو التقطيع ، أو النار . . .

ومع الزمن ، خفت حدة المرافز البدائية ، فدخلوا في مفهوم المسؤولية الجماعية تقييدا أساسيا ، هو أن تنفيذ العقوبة أصبح قاصرا على الغافل وحده ، وأن المرأة الزانية ، أصبحت تعاقب بجهد الأنف ، لحرماتها من محاسنها التي كانت تفرى بها الرجال لانتهاك حرمة الرباط الزوجي المقدس . . .

وقد عرف التشريع اليهودي القديم المسؤولية الجماعية ، ففي سفر التكوين (الأصحاح الرابع والثلاثين ، الآية ٢٦ - ٢٧) ان Sicheim ابن Hémor خطف امرأة Dina . واغتصبها ، ولكنه أعلن انه يريد ان يتزوجها . غير ان اخوتها قتلوا الخاطف واباه انتقاما لشرف اختهم اللوث ..

وحين قوى ساعد السلطة المركزية ، بدأت تفرض عدالتها ، محل العدالة الفردية ، وأصبحت العقوبة تنبج الى الفاعل وحده . ففي سفر ال Deutéronome ، الأصحاح الرابع والعشرين الآية ١٦ :

« ولا يعاقب الاولاد بالوت بدلا من آبائهم » ،
« ولا يعاقب بالوت الا من ارتكب خطأ شخصيا »

ولكن ولي الدم هو الذى ينفذ العقوبة في جريمة القتل ... اما في الجرائم العامة ، فان الاعدام كان سخيا جدا .. فقد كان يعاقب بالاعدام السحرة ، وعبداء الأوثان والمردةون ، والذين يحرقون الرب ، وكان يعاقب بالاعدام كل يهودى يشتغل يوم السبت « لأن اليوم السابع سيكون يوم راحة كاملة مكرسة ليهوه » EXODE XXX, 15

ويقتل الزانسي، والزانية ايضا ، وتماقب بالاعدام كل فتاة تخفي عن زوجها انها ليست عذراء ، ويعدم مرتكبو الاتصال الجنسي بالحرمانات ، والواط واتيان الحيوانات ...

ولكن الجرائم الاقتصادية والجرائم الموجهة ضد الملكية لم تكن معاقبة بالاعدام .. ومما يلفت النظر ان تنفيذ الاعدام ، كان يتم بالرجم بالحجارة ، في جميع الجرائم . وكانوا يملئون ذلك ، بأن الحكم يصدر عن القضاة ، ولكن

مكذوبة ، ومحالة التهرب من أداء الخليفة العسكرية ، فانه امتاز بثلاث ميراث مدعشة :-

الاولى : - انه قلص الجرائم الدينية كثيرا حتى أصبحت قاصرة على جريمتي السحر ، وانحراف الراهبة التي ترتاد الملاهي ..

والثانية : - انه اشترط وجود الممد في القتل ، ليستحق القاتل الاعدام . فقد نص في المادتين ٢٠٧ ، ٢٠٨ على انه :-

« اذا تسبب الضرب بموتة الضحية ، واقسم الفاعل بانى لم اضربه عن قصد ، فانه يدفع لثلاثين مثقالا من الفضة » « Sicles » (٢) ، اذا كان القاتل مواطنا ، وعشرين مثقالا اذا كان القاتل لا يتمتع بالوطنية ... mesquin

والثالثة : - انه ألغى صيغة المائلة ، (La talion) الا في حالة واحدة ، هي حينما يأخذ الدائن ولد المدين رهينة لسداد دينه ، ويعامله معاملة قاسية ، فيموت من جرائها ، فان ولد هذا الدائن هو الذى يعدم.

وكان الاعدام ينفذ بطرق شتى ، كالشنق والقتل بالسيف ، والأغراق والحرق . يضاف الى ذلك طريقة جديدة ، هي الخاتوق ، وكانت المرأة التي تقتل زوجها او تشترك في قتله تعمد بهذه الطريقة الرهيبة .

وقد تأثرت بهذا التشريع بعض الدول المجاورة ، ويذهب بعض الباحثين الى ان العبرانيين استقوا كثيرا من مبادئه . وليس هذا بغريب ، فقد كان ابراهيم الخليل يعيش في اور ، إحدى بلاد تلك الدولة قبل مهاجرته الى العرب ، وحين بدأ التقنين اليهودى بالظهور ، كان التشريع البابلي يجتاز قرنه الثامن .

(٢) في لادوس أنسيكلوبيديك ، انه يبدو ان كلمة Sicle صيغة ، وهو وزن عند العبريين » ١١
غراما وكسور « وعند البابليين ١٨٠ غرامات .

وقد اشار الى ذلك تعالى بقوله : وكذلك
مالرسلنا من قبلك في قرية من نذير الاقال
مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة واننا على
انارهم مقتدون »

(الزخرف ، الآية ٢٣) .

ولم يكن للعرب دولة موحدة ، تضع لهم
القانون ، وتمثل فيهم العقوبات ... لانهم كانوا
مجموعة من المجتمعات المتموجة ، الفت احكام
الطاغوت ، ونهاها الله عنه ، عندما برغ عليها
فجر عهد جديد ، جاء ينقدهم من الضلالة الى
الهدى في دنياهم ودينهم ، ويضع لهم قواعد
للسلوك القويم ، على اساس من التساند
الاجتماعي والتمسك بنظام الشرع ، مقيدة
وسلوكا .. فقال تعالى :

» يريدون ان يتحكموا الى الطاغوت ، وقد
امروا ان يكفروا به « (التيساء آية ٦٠)

والطاغوت هذا هو حكم الصرف ، الذي
كانت العدالة فيه تقوم على الثار على اساس
من مسئولية جماعية قبيلة ، وكان للكاهن
والعارفة دور كبير في اقامة البيعة وتقرير
العقاب ..

والظاهر ان عقوبة الاعدام لم تكن منتشرة
عندهم ، لفقدان التنظيم الدولي .

فقد كان من حق الاب ان يقتل اولاده
الذكور ، ويثب بانه .. وفي ذلك يقول الله :
» قد خسر الذين قتلوا اولادهم سفها بغير علم «
(الانعام ١٤٠) .

ويقول : - « واذا المؤودة سئلت : باى
ذنب قتلت » (التكوين الايتان ٨ و ٩) .

واذا وقع قتل بين اثنين من عشيرة واحدة ،
او من عشيرتين مختلفتين ، كان من حق ولي

الشعب كله هو الذى ينقله . واول من يبدأ
بالرجم ، شهود الايات ، ثم يليهم الحاضرون
حتى الموت ، وبعد ذلك تعلق الجثة على شجرة
طيلة النهار ، ولكن يجب دفنها قبل حلول
الليل .

ولم تكن طريقة التنفيذ بالنار مطبقة شرها
الا في حالتين : تهر ابنة الكاهن ، والاتصال
الجنسي بالام او الاخت .

وعرف المجتمع العربي الجاهلي عقوبة الاعدام
وطبقها ، بطريق الصرف الذى كان ينظم
علاقات الافراد ، وتوارثه كابرا من كابر ، دون
ان يكون للتشريع اليهودى او النصراني اى
اثر في تكوينه او تعديله . ذلك ان اليهود الذين
فروا من بلاد الشام ، خوفا من مجازر الروم ،
لاجئين الى الجزيرة العربية ، لم يكونوا من
الكثرة بحيث يستطيعون ان يؤثروا في عقلية
الناس . وقد اعتمد بعض المستشرقين على
دراسة اسماء يهود الحجاز ، وواقهم
الاجتماعي ، وقرروا انها اسماء عربية خالصة ،
وان المستوى الاجتماعي لم يكن يختلف عن
مستوى سائر سكان الجزيرة ، وانهم كانوا
يتزوجون منهم ، ويزوجونهم ، دون تخرج ،
واستثنوا من كل ذلك ، ان غالبية يهود
الجزيرة العربية ، هم قبائل عربية ،
يهودت (٣) .

وكان للنصرانية مستعمرات مبعثرة على
حدود الجزيرة الشمالية ، تسلك اليها من
اتصال الحجاز بفلسطين ، كما كان لها بعض
الاتباع في اليمن ، ثارا بالنصرانية الحبشية ..

ولكن العادات والتقاليد العربية الراسخة ،
هي التي كانت تحكم الجزيرة واهلها ، ولم يكن
يسر اهل جامعة غافلة ، مغلقة الابواب والبصائر
على التيارات الفكرية الاجنبية ، ان تفر او
تبطل من مفاهيمها الازلية ..

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى : الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والإناث بالإناث ، فمن عفى له من أخيه شيء ، فاتباع بالمعروف ، وأداة إليه بلعمنان . »
(البقرة آية ١٧٨)

وفي الحديث : —

« من قتل له قتيل ، فهو بخير النظرين ، أما ان يقتل وأما ان يقتل . »

٢ — الحراية : — وهي قطع الطريق ، قال تعالى : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الأرض فسادا ، ان يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض » (٤)
(المائدة آية ٣٢) .

٣ — الردة : وهي الخروج من الإسلام بعد ان كان فيه .

والاجتماع على ان المرتد يقتل . واختلف الفقهاء في أمر المرأة المرتدة . ويرى أبو حنيفة انها لا تقتل ، ولكن تحبس حتى تتوب . ولم يرد في القرآن الكريم نص على قتل المرتد . فقد قال تعالى : —

« ومن يرتدد منكم عن دينه ، فليقتل هو وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . »
(البقرة آية ٢١٧)

ولكن روى عن رسول الله قوله : — من بدل دينه فاقتلوه ...

الدم ان يثار في الحال ، أو في خلال أيام قليلة فان وفق يكون الموضوع قد صفي ، والا تدخل الحكماء لجلل المساعي الحميدة ، وانتهى الأمر اما بتسليم القاتل للاقتصاص منه ، أو لدفع دية ، وهذا هو الغالب . وكان تسليم القاتل الى اهل المتول معروف لدى الرومان ، وكانوا يسعون « Noxae Diditio » .

ولم تكن السرقات الكبرى معاقبة ، وهي المتمثلة في الغزو ، بل كانت موضع تفاخر وبهاء والذهن قلب فيهم ، والحرب سجل :

فيقوم علينا ، ويوم لنا : ويوم نساء ويوم نسر .

ولكن الجريمة التي كانت ، دون وبب ، معاقبة بالاعدام عندهم ، هي جريمة الزنا ، خوفا من اختلال الانساب ، ودفاعا عن الشرف والسمة ...

والى هذا اشار المؤرخ اليوناني سترابون في حديثه عن العرب . . ولكن الاهل هم الذين ينفذونها ، غير انهم لم يكونوا مجبرين على ذلك .

وجاءت الشريعة الانلامية ، بقواعدها الجديدة ، ونصت على عقوبة الاعدام في بعض الجرائم ، بصورة حصرية ، وهي :

١ — جريمة القتل العمد : —

وعقوبتها الاعدام ، الا اذا عفا ولي الدم . وسند هذه العقوبة ، قوله تعالى :

(٤) اختلف الفقهاء المسلمون في تفسير هذه الآية .

فذهب فريق ، منهم الكشافى في البدائع ج ٧ ص ٩٤ ، الى ان حرف او للتوبيخ ، وهو ملحق اين جساس ، اي انهم يقتلون ويمسكون اذا قتلوا وسرقوا المال ، ويقتلون اذا قتلوا ولا يصلون اذا لم يسرقوا المال .

وذهب فريق آخر الى ان اللص يقر القصاص بين احدي العقوبات ويؤلف اليه الامر في كل على حدة . وعلى راس الفريق مالك رضي الله عنه .

وقد اخذ قانون معاقبة الزنا الليبي ، الذي صدر مؤخرا ، في المادة الثانية الفقرة الاولى ، بمعقوبة الجلد مئة جلدة ، ولم يأخذ بمعقوبة الرجم .

وقد عرفت أوروبا القديمة ، منذ اقدم الازمان ، عقوبة الاعدام ، وطبقتهما بسخاء منقطع النظر ، تارة دفاعا عن المجتمع وأخرى عن الملك ، وثالثة عن الدين . وإن المرء ليشعر بقسومية تخترق جسده وهو يذكر محاكم التفتيش التي ذهب شحيتها مئات الألوف من المسلمين في الاندلس ، وجنوب فرنسا ، بسبب تمسكهم بعقيدتهم ، في حين أنه في ظلال حكمهم السمع جدد ابن ميمون الديانة اليهودية في عاصمة الملك قرطبة ، وفي اروقة جامعاتهم ، تخرج البابوات ورجال الاكليروس والطعام الذين اصبحوا مصاييح هدى لتبديد ظلمات الفكر المتخلف في أوروبا المسيحية .

وكانت طرق تنفيذها تدل على سادية لا مثيل لها ، كالاحراق بالنار ، والتقطيع والرجم ، والدفن حيا في كفن من الشوك .. وقد يمدون للمحكوم عليه ، في حفرة ، انبوا ونبعا يتنفس منه بصعوبة ، امعاتا في تعذيبه .

وعلى الرغم من قوالب الملايين من الدين املعوا ، على مر مئات القرون من السنين ، لا تزال البشرية ، في كثير من بقاع الارض ، تطبق هذه العقوبة . فهل فشلت هذه العقوبة في القضاء على الجريمة ، وردع المجرمين ، بدليل ان جرائم القتل وغيرها من الجرائم الكبرى ، لا تزال تروغ مجتمعات اليوم متقدمها ومتخلفها وبالتالي ، فلا مبرر لاستمرارها ؟ أم انها عقوبة لا غنى عنها ، للإبقاء على كيان المجتمعات والدفاع عن سلامة الافراد وبدونها يكون الوضع ادهى وأمر ؟

وفي الراجح من المناهج ، ان المرتد يستتاب ثلاثة ايام (ابو حنيفة ومالك وأحد قولين للشافعي) .

ويرى علي أن يستتاب شهرا . ولكن ابن حنبل وقولا آخر للشافعي : « انه يقتل دون استتابة » .

٤ - البغي : وهو خروج المسلمين على الامام بتأويل سائغ ، ولهم منعة وشوكة .

والبغاة هم المجرمون السياسيين في الشريعة الاسلامية ، ونقول هم الثوار الذين ثاروا على الامام الجائر فخرجوا عليه يقاتلونه لظلمه .

وقد يكونون مخطئين في اجتهادهم .. لذلك جائز للامام ان يقاتلهم في ارض المعركة ، اذا بداوه ولم يقاتل علي الضواجر ، الا بعد ان قتلوا حيد الله الى بن خباب ، وامتنعوا عن تسليم قتله .

فاذا انحسرت المعركة عن فرار البغاة ، فانه لا يجوز قتال المدبر منهم ، ولا من اتقى سلاحه ولا من اغلق بابيه ، ولا يقتل اسيرهم ولا جريحهم وتماد اليهم اموالهم ، لانها ليست غنائم .

٥ - وتبقى لنا كلمة في جريمة الزنا .

فهل يقتل الزاني والزانية رجما بالحجارة ؟ هذا ما لم يرد عليه نص في القرآن . ولكن رسول الله امر بجرم ما ع والفاعدية مرة ، ولم يأمر بجرم شخص آخر ، جاءه بصد ايام يعترف بالزنا ، فسأله رسول الله هل توضح وتصلحت معنا ؟ قال نعم : قال اذهب فقد غفر الله لك . (٥)

(٥) هذا ما ذكره الاستاذ طي حسب الله في محاضرة له القاها في جلسة الكويت عام ١٩٦٨ ، منشورة في الوسم الثقافي لهذه الجلسة ١٩٦٨/١٩٦٩ ص ١٤٧ .

لدراسة هذه القضية ومن أبرز مظاهرها ، اهتمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فقد قررت في نوفمبر ١٩٥٩ تكليف المجلس الاجتماعي والاقتصادي اتخاذ الإجراءات التي يراها ضرورية لدراسة مسألة عقوبة الاعدام ، ونتائج أبحاثها . وقد قرر هذا المجلس القيام بدراسة تعرض بعد ذلك على لجنة استشارية خاصة من الخبراء والمختصين في الوقاية من الجريمة ومعالجة اللذين ، لدى اجتماعها في شهر إبريل سنة ١٩٦٣ .

ومن الذين تقلّموا بتقارير هامة حول الموضوع مستشار النقض الفرنسي أنسل "Ansel" الذي قدم تقريره عام ١٩٦٢ (١) .

والاستاذ نورفال موريس "Norval Morris" مدير مركز الدراسات الجنائية في جامعة شيكاغو ، عام ١٩٦٨ ، (٢) .

ولكن لم يتخذ قرآن في الموضوع من جانب الأمم المتحدة ، فهو الآن لا يزال مطروحا للبحث . ولكن المادتين ٤٠٥ من ميثاق الأمم المتحدة تمنعان بصراحة تطبيق عقوبات قاسية أو وحشية أو محطلة بالكرامة الإنسانية .

ولكن مجال تفسير هذه الالفاظ واسع . على أنه توجد ظاهرة تستأهل أن أسجلها الآن ، وهي تفهقر عدد الحالات التي تعاقب بالموت :

فقد كان عدد الجرائم التي تعاقب بالموت في إنجلترا منذ قرن ونصف القرن ٢٠٠ جريمة بينما بعض السرقات العادية (٨) وكان عددها في فرنسا في ظل الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ،

هذا هو السؤال الصعب الذي اتكبت ، للإجابة عليه ، ادمغة كبيرة ، استقرت الوقائع وسيرت أغواز النفس البشرية ، وانخلت لها موقعا محظدا من هذه العقوبة . فلجيت جمهرة الى المطالبة بالقائها ، وقال فريق آخر بأبقائها . وحارت جماعة بين هذا وتلك ...

والموضوع اليوم مطروح على رجال القانون ، وعلى غيرهم من المفكرين ورجال السياسة والفراد الشعب .. كما هو مطروح على الحكومات أيضا .

ومن الدول التي اهتمت بهذا الموضوع إنجلترا التي شكلت « اللجنة الملكية لدراسة عقوبة الموت » عام ١٩٤٩ ، وظلت تعمل خلال أربع سنوات حتى عام ١٩٥٣ ، وقدمت بتقرير اكتسب شهرة واسعة . وشكلت حكومة المانيا الاتحادية لجنة خاصة لاصلاح التشريع الجزائي كان نصيب الدراسة المخصصة منه لعقوبة الاعدام ، مجلدا ضخما صدر عام ١٩٥٩ .

وشكلت كندا والولايات المتحدة لجانا مماثلة واتكبت فقهاء الاتحاد السوفيتي بدورهم على دراسة الموضوع ، في اموام ١٩٥٤ ، ١٩٦٠ من خلال العمل على اصلاح التشريع الجزائي . وعقدت في فرنسا عدة مؤتمرات عام ١٩٦١ لتقريب وجهات النظر التباينة حول هذا الموضوع الضخيم ..

وقبل ذلك جرت في فرنسا عدة محاولات لافناء هذه العقوبة منها عدة مشاريع قوانين تقدم بها نواب في الجمعية الوطنية في أعقاب حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ ، ولكننا كلها بقيت دون نتيجة .

وفي السنوات الاخيرة نشاهد تصعيدا خاصا

(١) دّوع التقرير برقم ST / SOA / S D 19

(٢) دّوع التقرير برقم ST / SOA / SD / 10

(٨) انظر Zalaric ص ١٤

١١٥ جريمة ، خفضت الى ٣٢ جريمة فقط بقانون العقوبات الصادر عام ١٧٩١ .

والمدعى أن الجمعية الوطنية المصروفة باسم "La convention" كانت صوتت في ذلك الوقت على إلغاء الإعدام ولكنها حلت ، وظلت العقوبة باقية .

وقد كان أحد القضاة الإسبان في القرن السابع عشر واسمه " Cortezov " يفاخر بأنه أصدر خلال ٤٠ عاما من توليه القضاء عشرين ألف حكم بالإعدام (٩) .

ولكن الانظمة الدكتاتورية في النصف الأول من القرن الحالي جاءت كرامة مظمى على التطور الانثائي .

ونحن اليوم نشهد صراعا شديدا بين تيارين ، تيار يمسك بعقوبة الإعدام ويثبت بها ، لأنها ، في فلسفته ومفاهيمه ، السلاح الذي يرهب به المجتمع أعداءه الشريرين من القتلة والخونة وخاطفي الأطفال ، وتيار يقابل التيار الأول ، ويقارمه حجة بحجة ، وينتهى الى المطالبة بإلغاء هذه العقوبة .

ومن الامانة أن لاحظ أنه لم تقم في البلاد العربية ، من أقصاها الى أقصاها ، حركة جدية ، تهدف الى تغيير الواقع ، الذي الفناه ، ولمنا على هدمته ، ووقفنا نرصد الصراع الفكرى ، لدى غيرنا دون أن نتاح لنا أن ندلى بدلونا في الدلاء ...

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الشاق جراها ويختصم

فما هي حجج الإقنانيين والافغانين ؟

انى اود ، فيما يلى ، ان امرض حجج

الفريقين ، ليستطيع كل منا أن يكون لنفسه عقيدته الخاصة ، ملهمة بالحجج والمنطق ، وليس بمجرد العاطفة التى تستند كيانها من المألوف ، الذى أن لنا أن نعمل على هزه من سباته .

١ - التيار الإقناني :

يقول أنصار الحفاظ على عقوبة الإعدام ، أنها ضرورية للحفاظ على سلامة الجماعة وأمنهم ، ويسوقون لدعم رأيهم ، الحجج التالية :

١ - هذه العقوبة ظفرت بتأييد عدد من المفكرين الكبار ، مثل جان جاك روسو ، الذى فلسفها بنظريته الشهيرة من العقد الاجتماعى . فالفرد الذى قبل ، مختارا بعقد يبرمه مع المجتمع ، أن يتخلى من الانتقام الفردى ، مقابل حماية المجتمع له ، يكون قد قبل سلفا بالتخلى عن حياته ، فيما اذا قسم هذا العقد ، وامتدى على حياة شخص آخر ، وقبلها لبروز وغارهاو وهما من زملاء المدرسة الوضعية ، لتخليص المجتمع من رجل لبروز الشهير ، وهو المجرم بالقطرة . ويأتى على رأى قافلة المؤيدين المعاصرين ، كبار أساتذة القانون الجنائى الفرنسى مثل غارو وغاروسون ودونديو دوفلير .

ب - أنها عقوبة تكفيرية ، بمعنى أن الذى قتل آخر في ظروف فظيعة وحرمه من حياته ، بدون وجه حق ، يجب أن يكفر بدمه من خطيته .

فهي اذن عقوبة عادلة ، يتساوى فيها تماما ، الاذى الذى أوقعه المجرم بحياة قتيله ، بالاذى الذى تعرضت له حياته هو . وحياتان تتساويان أمام القانون ، وفي مفاهيم الناس ، الذين يقولون : " يداك أوكنا وفوك نفع " .

للقضاء على شرير خطر ، يهدد المجتمع وأهله
بشر مستطير . وكل مقوية أخرى ، لا يمكن
أن تكون ناجمة حياله .

هل نحكم عليه بالحبس المؤبد ، كمقوية
بديلة ؟ حسنا ولكن لم يحدث ، إلا نادرا ، أن
يبقى مجرم سجيناً طيلة حياته . . فهو يحلم
تارة بالهرب ، أو بقانون عفو شامل ، أو
مرسوم عفو خاص . . يقصر مدة سجنه ،
ثم يجد نفسه حراً ، خارج القضبان ، يردع
الدمر والهلل في الناس .

ومن ذكرياتي ، أنني عملت مرة على استبدال
عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة بالإعدام ،
لشقيقتين ، كانا يستحقان في نظري هذا
الابدال ، ولكن لم تمض إلا سنوات لم تبلغ
العشر ، حتى كانا طالبتين بنعمان بالحرية . إلا
أنني لم أسمع من معاودتهما مقارفة الاجرام .

ولو فرضنا جدلاً ، يقول أصحاب هذا
الرأي ، أن الحكم عليه بقي في زنازته طيلة
حياته ، فانه سيكون في غاية التعاسة ،
لا ينفعه أن يحسن سلوكه ، أو يبذل جهده

ج - انها عقوبة مخيفة ، يهلع من هولها
قلب من تسول له نفسه هز دعائم المجتمع
الامن ، فليس امراً بسيطاً أن يعرف القاتل
ما ينتظره من حبل بجل منقه ، ويحرمه من
احبابه ولديه ، كما حرم فضيخته من نعمائها
واحباطها (١٠) .

ثم انها تخيف الآخرين ، الذين يشهدون
تنفيذ الإعدام أو تبلفهم أنبأه . فاذا نفلت
أحكام الإعدام على فترات متقاربة ، بقيت
المظة مائلة في كل نفس . .

د - ولماذا تبنى مقوية الإعدام ، ولم يتم
دليل قاطع على أن الفأءا قد ساعد على
انخفاض الخط البياني للجرام ، أو حتى على
الاقل ، الحفاظ على مستوى الاجرام ؟

يقول انصارها : هاتوا احصاءاتكم ، فان
كانت مقنعة ، فالتنا مستحار الى وايمكم ، اما
أن نغامر بقلده في المجهول ، ونعرض كيان
الامة الى اخطار غير متوقعة ، فهذا أمر لا يمكن
أن يقبله رأي حصيف .

هـ - هذه المقوية ، هي الوسيلة الوحيدة

(١٠) نقل الاب Vernet هذه الاولال عن محكوم عليه بالإعدام :

« لقد طال انتظارى شهيراً ، لذلك فلتا أعيش في جعيم . .

ولي كل صباح أظفر لاري هل نصبت لي المشقة أم لا ، ولكني لا أجمعها . .

ولي كل صباح يجتاحني قلق أشعر به كأنه يسطف على حجرتي ويجعلني أرتجف . .

أن شعوري بأنني سوف أعدم يكاد يهزني . . .

ومع ذلك ، فإن الاوهام تراودني أحياناً . . .

أني أترف بأنه لوأ الكائن الى جانبى يعطيني القوة ، لكننت تلت نفسي لأتخلص من هذه الصباحت الشنومة . . .

ونقل من محكوم آخر قوله :

« بصراحة أتي أريد أن أعدم . .

فمنذ أحد عشر عاماً ، لم ألق كلمة من والدي ، فهل تراى صلح عني . . ؟

ووالدي ، حين يحدوئني عني ، يرفض الاعتراف بي . .

ولو أنني تزوجت . . . وبلدت لهدمت الأسرة . . .

أليس هذا طعناً كافياً ؟

أن الرغبة في الحياة لا تزال تنافسني . . . »

لامعادة تأهيله ، مادام سيظل قابضا في مكانه حتى الموت ... أنها حياة عذاب نفسى لا يطاق ، لانها لا يلوح على آفاقها طيف من اطياف الفرج ..

و - ان الراى الصام قد ألفها ، واطمان اليها . والبحث في الغائها ميثير اعصابه ، ويجسد له المخاطر . فلماذا تقلب قواعد حياتنا القانونية ، من اجل عدد ضئيل من القتلة والاشراان ؟

ولقد رايت ان احاور طلابي وطلابي من السنة الرابعة حول هذه المقبولة ، فاستفتيتهم في اقبالها او الغائها ، فكانت النتيجة مذهلة :

طالب واحد من بين جميع الطلبة قال بالالفاء ، واجمع الآخرون على الإبقاء .

اما الطالبات ، فكن ، باجماعهن ، مع الإبقاء ...

ز - ويشيخون حجة ذات طابع مالى الى حججهم ، فيقولون : لماذا نحتجز سفكا سنين طويلة ، وبتكبد المجتمع نفقات حراسته وأطعامه ، دون هدف ، كهدف اصلاحه مثلا ؟ ليس من حق دافى الضرائب ، ان يطالبوا بتوجيه هذا المبلغ ، الى جهة يكون نافعا فيها ؟

ولكنى لود ان اعلق على هذه الحجة ، بان حياة الفرد تظل دوما آمن من المال ، ولن يعجز الدولة اطعام عدد قليل من الناس ، دفعا من مبادئها ، ويمكنها ان تشغلهم مقابل ذلك .

ح - ولهم ، فوق ذلك ، حجة سياسة . يقولون ، مادام كل نظام سياسى يزعم انه

نظام ديموقراطى ، اى انه يخضع لحكم الاكثرية ، فان من واجب كل مؤمن بالديموقراطية ، ان يستشير الشعب في قضية حيوية ، ويخضع الى حكمه الذى تصدره اكثرية . وهم قانون ان الشعوب اذا استفتيت ، فانها مستغف الى جالب عقوبة الاعدام .

ط - لا ريب في ان الفقهاء المسلمين ، سيقولون ، ان عقوبة الاعدام قصاص من جريمة قتل عمد ، وبعض جرائم غاية في الخطورة . وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى ... » (البقرة آية ١٧٨) .

وقال ، جل في ان « ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا » (الاسراء آية ٣٣) .. وطلب القصاص حق للولى ، ومن حقه ان يعفو ... ويأخذ الدية ..

ولكنه رغب في العفو بقوله : « وان تمعوا افرق للتقوى (البقرة آية ٢٣٧) » .. وقوله « .. فمن تصدق به فهو كفارة له » .. (المائدة آية ٤٥) .

ومما يلفت النظر ، هذا التضييق الشديد الذى قيد به ابو حنيفة القصاص . فعنده ان القتل بغير المجدد لا يستوجب القصاص ، وانما تؤخذ الدية من القاتل ...

فالقتل بالسهم ، وهو من افكك ومسائل القتل ، والقتل بالحجر ، وربما بالكهرباء أو الغاز ، لا يستحق القصاص عنده ، مستندا الى رواية ابي داود من النبى عليه الصلاة والسلام : « إلا أن في قتل خطأ العمد قتييل السوط والحجر مئة من الإبل » ..

التنزيل قال تعالى « ولكم في القصاص حياة يا أولى الالباب » (البقرة آية ١٧٩) .

ب - وأنها قاسية على الشخص ، مهما كانت وسيلة تنفيذها ، لانه لا توجد حتى اليوم وسيلة تحقق موتاً فورياً ، ودون ألم . وقد كان اليهود يسكرون المحكوم عليه قبل اعدامه ، حتى يقل شعوره بالألم

وقد نوعت البشرية وسائل الاعدام ، الى أن استقرت اليوم على المشقة والرماس ، والجيلوتين ، والسيف ، وحرقة الغاز ، والصق بالكهرباء والخنق . وكلها قاسية واليمة .

ج - أنها عقوبة غير منطقية ، لأنها « قتل منظم » كما يقول بكبار ، تضفي عليه الدولة الصفة الشرعية . فالجرم يرتكب جريمته ، ولا يستطيع أحد أن يؤكد تحت أي دوافع انتدافمية أو مرضية ارتكبها ، في حين أن المجتمع يقرر اعدامه ، وينفذ ، وهو بارد العصب ، هادئ النفس . فاللدولة حين تعمد شخصاً ، فإنها لا تمحو آثار جريمته ، وإنما تعاد ارتكاب جريمة القتل بنفسها مرة أخرى ، وكأنها تكرر مع الشاصر قوله « وداوني » بالتي

كانت هي اللام » ...

د - أنها عقوبة غير مفيدة ، خلافاً للرم القائل بأنها رادعة مائعة .

فلم يثبت أن البلاد التي ألفتها قد زادت فيها نسبة الجريمة ، بل ثبت أن دولة النمسا

يضاف الى التضييق آراء عدد من الفقهاء ، بأن القصاص ، لا يقع في جرائم القتل العمد بين ذوي الأرحام ، بشبهة الجزئية ، ولا بين الأزواج ، بشبهة الزوجية ، ولا قتل العمد ، بشبهة التملك (١) ، ولا القتل الواقع في السر الرضا . واقتل بالرضا يسقط القصاص عند الحنابلة وأبي حنيفة والصحابيين . وإذا رجح هذا الرأي ، فإنه يقدم لنا حلاً شرعياً لمسألة القتل بدافع الشفقة وهو المسمى بالواتاناريا ...

٢ - التيار الاتفاقي :

يذهب الذين يطالبون بالقاء عقوبة الاعدام ، الى أنها عقوبة لم تثبت جذارتها للبقاء ، ولا خير فيها للمجتمع . ويتناولون حجج الفريق الأول ، ويردون عليها ، ويدعمون آراءهم بحجج جديدة ، يرونها كافية لإعززة البنيان العقابي القديم وتهديمه . ويأتي في مقدمة مؤيديهم مدرسة الدفاع الاجتماعي الجديد ، على لسان أحد رؤسائها المستشار آنسل (٢) .

وفيما يلي ما يعرضون من الأدلة :

١ - يقولون ، أن الذي منح الحياة هو الله ، فلا يحق لمخلوق أن ينوب عن الخالق في انتزاع روح مخلوق آخر . فهي مخالفة للمبادئ الفلسفية العامة .

ولكننا رأينا أن الفقهاء المسلمين مجمعون على أن القصاص ورد النص عليه في محكم

(١) انظر في ذلك ، محمد أبو زهرة ، الجريمة والعقوبة في اللغة الاسلامي ص ٢٨٠ وما يليها .

(٢) انظر Revue des science criminelle, 1963 P. 404 Ancel الذي كتب يقول : « اننا نود أن نجيب فوراً وبصرحة ، بأن مذهب الدفاع الاجتماعي فسد عقوبة الاعدام ... فهو يرفض اسمها الثلاثة : التكفير expiation ومعاقبة الخطأ retribution والردع intimidation »

و - وهي عقوبة غير زاجرة ولا رادعة . ولو كانت كذلك ، كما يزعم أنصارها ، لوجب أن تكون الجريمة قد انحسرت عن الحياة الاجتماعية منذ أمداد بعيدة . والواقع أن الإنسانية بدأت تطبيق أعدام المجرمين منذ فجر تاريخها القديم . فلماذا لا تزال موجودة في القوانين حتى اليوم ، لو كانت حقاً زاجرة ؟

فقد أعدم في إيران ، عام ١٩٧٠ ، على سبيل المثال ، خمسة وسبعون من مهربى المخدرات ، في سنة واحدة . . . ومع ذلك ، بقيت عمليات التهريب مستمرة ، ولا تزال المشائق فيها ، تجتلب أعداداً متزايدة من قوافل المحكوم عليهم .

والذكر ، بهذه المناسبة ، أنه أعدم في الكويت قاتل منذ سنتين ، ولم تضي أيام ، حتى قرأنا في الصحف من جنابة قتل ثلاثية ، ارتكبها مجرم آخر كان يشهد عملية الأعدام ، لم راح يعمل سكينه وناره في صديقه وزوجته وطفلهما . . . فهل حركت رؤية المشنقة شهيمته الى أن يكون بطل حفلة مشنومة ، يستعطب فيها انظار الحشود ، وهو التساهل الذى لا يثير ، في الحياة ، انتباه أحد ؟ . . . إذن يكون الأعدام في هذه الحال ، محرضاً لبعض الشواذ المفرمين بحب الظهور ، والسيئ التقدير ، على ارتكاب أفظع الجرائم ، بدلا من أن تكون وسيلة زجر أو ردع . ؟

ز - لا يستبعد أن يكون لبعض الاعتبارات الاجتماعية دور تمييزى شائن فيها . فالوقائع تدل على أن الغالبية العظمى من المحكوم عليهم بالأعدام من الفقراء اليأساء ، أن لم يكن كلهم . أولا لما تتمتع به طبقة اجتماعية دون أخرى من نفوذ توظفه في صالح أبنائها ، وثانياً لأن

حين أعدامها عام ١٩٣٤ ، لاحظت بصورة مؤكدة أن الأجرام أدفع فيها كثيراً . قد رأى النائب العام الأمريكى رامسى كلارك Ramsey Clark أمام اللجنة الفرعية في مجلس الشيوخ الأمريكى يوم ١٩٦٨/٧/٢ ، أن هذه العقوبة « قد فشلت في أن تكون وسيلة وقاية » وهو رأى للاستاذ الكبير Th. Sellin استشهد به - وطالب بجرأة بالغاء عقوبة الأعدام . ومن أبرز سموات هذه العقوبة في نظره ، أنها تتوقع على مفهوم التكفير ، ولكنها لا تسمح بمحاولة إعادة تأهيل المجرم ، وعندها أنها لا تصلح لاجتماع متمدن ، اوقفت عنده المفاهيم الخلفية والاجتماعية .

هـ - وثالثا عقوبة غلظة ، لأن القاضى مهما أدنى من المقدرة العلمية لا يستطيع هو ، أو أعرانه من أصحاب الاختصاص ، قياس درجة الخطأ ، لثاماً شيء مستقر في أعماق النفس ، لا يستطيع أن يتركه إلا الله سبحانه وتعالى ،

والواقع أن التشريعات المعاصرة قد تخلت عن البحث في حرية الإرادة ، واكتفت بفكرة « المادية » ، la normalite ، وهي تقصد بذلك ، أن المرء يعتبر مسئولاً عن فعله ، إذا كان يريد ، ويعرف مآله . فالإدراك والإرادة هما ركنا المسؤولية الجزائية . وليس من شك في أنهما من مسائل ما وراء الطبيعة ، metaphysiques وبهذه الصفة لا يستطيع أحد أن يجزم بالتحقيق من وجودهما سليمان حين ارتكاب الجريمة ، وأن سلامتهما شرط لقيام المسألة الجزائية .

وهكذا تكون العدالة المطلقة شيئاً وهمياً لا وجود له ، ويكون الحكم بالأعدام ، من ناحية أقرار المسؤولية ، قراراً لا يستند الى سند أخلاقى صحيح ، ينزهه من الطامس .

وفي حلب ، اتهم شخص بقتل لوى والقاله في بئر ، وتمرست به أكف الصابغة القضائية وعصبتها ، حتى ادلى بملفات كاملة ... وكاد يصعد الى المشنقة ، لولا أن أحد المسؤولين ، لم يرتفع صميره الى هذه الاعترافات ، فاستجوب زوجة أحد اصداقاه القتل ، وعرف منها أن القاتل هو زوجها ، لانه مدين للقتيل بمبلغ كبير ، عجز عن سداده ، وأنها عاونته في نقل الجثة الى البئر .

ويقولون أيضا : كثيرا ما تريد الجريمة بشهود عيان ، يحررون شمالهم ... فهل تريدون أن ندير ظهورنا لشهادة شهود عدول؟

ان الشهادة بيئة من البيئات العديدة ، ويجوز أن تأتي في الأخيرة من قافلة البيئات . . . فقد أثبتت الدراسات العديدة الحديثة ، أن كثيرا من الشهادات مضللة ، رغم مظاهر البراءة على أصحابها . . فالشاهد قد يخطئ ، لضعف في الذاكرة أو في حاسة الرؤية أو السمع ، وقد يخطئ لأصابته بمرض عصبي ، يشبه منظر الجريمة ، وقد يكون مدلوفا الى الشهادة بمصلحة شخصية ، فيحرق فيها ما شاء له التعريف ، وبذلك يضل القضاء . . ولعل رجال القانون المدني يعرفون حقيقة قيمة الشهادة في العقود ، لذلك فانهم لا يقبلونها الا لاثبات مبلغ صغير من المال .

والذكر اتنى ترافعت مرة من متهم بقتل شرطى ، قال عدة شهود أنهم راوه بأعينهم وهو واقف أمام باب الجامع يطاق النار من مسدسه ميار ٩ مليمتر ، على رجال الشرطة ، فأصاب شرطيا ، بينما كان واقفا أمام باب المدرسة فقتله .

الاستمانة بسحامين مشاهير ، وخبراء عالميين ، تثقل كاهل الضعيف ، وتأتى نعمة وبركة على المترفين ...

وتؤكد الدراسات في أمريكا ، بوجه خاص ، أن مجتمع الزوج فيها ينال التسط الأكبر من هذه العقوبة ، لأن المجتمع الأبيض مشبع ضدهم بالانكار السيئة . . . وهذا واقع يجب أخذه بعين الاعتبار حين القيام بدراسة جدية . فمعد عام ١٩٣٠ نقل حكم الاعدام في ٢٠٦٦ امسود و ١٧٥١ أبيض ، مع أن السود لا يتجاوزون ثمن السكان ! .

٨ - وأما لعقوبة خطيرة ، اذا وقع فيها خطأ ، فانه غير قابل للتلافي ، في حين أن سائر العقوبات الأخرى ، يمكن أن يتلافي فيها الخطأ . فإذا نقل حكم الموت في شخص ، لم ثبت خطؤه فان الفارق يكون قد لربط . وقد ثبت ، فعلا ، وقوع أخطاء قضائية ، من شأنها أن تجرح الضمير الإنساني .

واسباب الاخطاء القضائية عديدة :

يقول البعض ، أن المتهم كثيرا ما يعترف ، والاعتراف شهادة المرء على نفسه ، وأنه سيد البيئات . فهل تريدون عدلا أكثر من أن يدين المرء نفسه ؟

نعم ، نريد أكثر من ذلك . فقد عرفنا اعترافات شتى ، انتهت بأصحابها الى المشنقة ، ثم ثبت كذبها . ومن ذلك أن شخصا اتهم بقتل امرأة ، و«فولج» في دائرة الشرطة حتى اعترف بقتلها والقام جثتها في النهر ، فأعلم وبعد عامين هادت المرأة الى بيتها ، من زيارة قامت بها الى بعض أقاربها في منطقة أخرى .

اكتشف أن مساعد الطبيب المحلل كان ينظف
الأواني الزجاجية بالحصول ، وأنه وضع
الإحشاء فيها مدة يومين ، فامتصت كمية
كبيرة منها ، ولذلك ظهرت في التحليل كأنها
أداة جريمة واتخذ هذا الاكتشاف
المنهم .. ولكنه اكتشاف تم بطريق الصدفة .

بل أن تطور الفكر العلمى نفسه ، قد يلعب
دورا في تجريم المرء أو تبرئته : فقد صدف أن
أثهم صيدلى فرنسى ، اسمه Denval يقتل
زوجته بالسّم ، واكتشف التشريع وجود بعض
مليغرامات من الزرنيخ في جسمها فادانته
الحكمة ، ولكنها لم تحكم عليه بالإعدام ، بل
قضت عليه بالإسفال الشاقة المؤبدة .. وظل
المسكين يملن ، على مدى عشرين عاما وهو في
السجن ، أنه يرى .. حتى ثبت علميا عام
١٩٢٣ ، أن جسم الإنسان العادى ، يمكن
أن يحتوى ، بصورة طبيعية ، على هذه الكمية
من الزرنيخ . كذلك اكتشف العلماء مرضا
جديدا ، هو النقص ما فوق الكلوى الحاد .

L'insuffisance surrénale ، تبدو
أعراضه كأمراض التسمم بالزرنيخ . وتقررت
إعادة محاكمته ، فترا وعاد الى الحياة شيخا
متهدما ، ولكنه مع ذلك على قيد الحياة ..
aigoe .

ولست في حاجة الى وقفة خاصة عند
الأعدادات التى تتم ، في أعقاب الانقلابات
المسكرية ، وخاصة الفاسدة منها . ذلك أن
المرء ليشمع بالفئيان ، عندما يعلم أن ثلاثة
من « الجزائريين » يسوتون الى حمامات الدم ،
توافل خصومهم ، دون شاهد يشهد او محام
يدافع .. ويعلمون في الإذاعة بأن المحكمة
أصدرت أحكامها باسم الشعب

وكان للمتهم قصة قتل سابقة ، حكم عليه
من أجلها ، وقضى مدة عقوبتها . إذن كانت
النظرة اليه سيئة ، وكانت القناعة بجرميته
مستمدة من ماضيه المشبوه . وجاء الشهود
يحملون من ضمير المحكمة ، صبه اتخاذ قران
حاسم ، بهدف اجتثاث هذه الجرثومة .
وشاءت إرادة الله ، أن أكون عارفا بالمنطقة ،
ورحت اتجول فيها . فوجدت أنه لم يكن فيها
الا جامع واحد ، والا مدرسة واحدة ، وهما
متقابلان ، ولكن كان يوجد بينهما بناء ضخيم ،
يجعل من المستحيل على الرصاصة أن تبلغ
حالب الشرطى . فقد كان عليها أن تسير موازية
للأرض ، ثم ترتفع عمودية الى محاذاة أعلى
البناء ثم تغير مسارها ، الى نهاية البناء ، ثم
تنخفض الى الأرض ، ثم تصل مسارها على
موازية الأرض ، وتتجه بالجاء الشرطى ،
فتصيبه وتقتله حين ثبت للمحكمة كل
ذلك ، قررت براءة المتهم . ولم تكن براءته
بمبارى ، وإنما لحض الصدفة المائلة بقيام
بناء شاهق ، لم ينتبه له الشهود الزور

ومن المحقق أن رجال القانون الجرائى
يفضلون القرائن والخبرة على وسائل الإثبات
الأخرى ، ولكن الإخطاء فى قرائنها كثيرة جدا .
هى أيضا . أنها حقا لا تخطئ ، ولكن المختص
هو الذى يقع فى الخطأ ، فيضال القضاء ..

ففى قضية : أثم زوج يقتل زوجته بالسّم
المزوج بالحول ، ولما يعض على زواجهما
غير شهرين ، كنا فيهما ، على أحسن ما يكون
تفاهم بين زوجين .

وأرسلت أحشاؤها الى التحليل ، فجاء
الجواب ، أن كمية الكحول فيها مخيفة ..
وطالب النائب العام بإعدامه .. ولكن المحامى

قللت بعدد الجرائم المعاقبة بالاعدام، وأصدرت بتاريخ ٨ نوفمبر ١٩٦٥ The Murder Act (قانون القتل الممد) ، ألغت بموجب عقوبة الاعدام لمدة خمس سنوات على سبيل التجربة . وفي هذه الفترة وقعت عدة جرائم فظيعة ، ولكنها وقفت في وجه التيار الشعبي وأصدرت قانونا عام ١٩٧٠ ألغت بموجب عقوبة الاعدام بصورة نهائية .

وحلت حلوها **كثما** ، فالغت عقوبة الاعدام عام ١٩٦٩ .

وكانت **اللائحة الاتحادية** قد سبقتهما ، فنصت في المادة ١٠٢ من دستورها الصادر بتاريخ ٢٤/ مايو ١٩٤٩ على التالي . وقد شكلت الحكومة الألمانية لجنة من اثني عشر عالما ، بينهم الجزائري وعالم النفس ورجل الدين والفيلسوف والبيولوجي والمحامي والاستاذ الجامعي ، ووضعت دراسة جيدة عام ١٩٦٢ ، انتهت فيها إلى ضرورة الإبقاء على النفاذ هذه العقوبة .

ولم يبق الولايات المتحدة ، رغم تفاقم الاجرام فيها بصورة مخيفة ، مما جعلها بحق عاصمة الاجرام الاولى في العالم ، بمعزل عن هذا التيار : ففي عام ١٩٦٢ ألغت ست ولايات عقوبة الاعدام ، وبعد ذلك تضاعف العدد ..

وفي عام ١٩٧٢ قررت محكمة نيو جيرسي ، بأكثرية ٦ أصوات ضد صوت واحد ، أن الاعدام مخالف للدستور . ومنذ ٢ حزيران ١٩٦٧ لم ينفذ في أمريكا حكم واحد بالاعدام، وفي ذلك التاريخ أعدم في غرفة الغاز مجرم قتل زوجته وأولاده . واليوم يوجد في سجون الولايات المتحدة ٦٠٠ محكوم بالاعدام يترقبون مصيرهم كل صباح ...

وتحضرني هنا كلمة قالتها **صدام** **رولان** ، وهي تصعد إلى المقصلة في عهد الثورة الفرنسية :

« بريد الشعب الخبز ، فيقدمون له المقصلة » ، وقد صرخ النائب **بودو** في مجلس النواب ذات يوم : « يجب أن تقتل حتى لا تقتل » وبتأ لهذه العدالة ، وتباً لرجالها ...

هذا موجز الكفاح النظري بين تيارين كبيرين . فما هو واقع عقوبة الاعدام في التشريع وفي التطبيق ؟

الأمر الذي لا شك فيه ، هو أن عقوبة الاعدام ، فقدت في هذا القرن الأخير كثيرا من مكانتها وهيبته ، ومن المحتمل جدا ، أنه لولا الاحداث التي سبقت الحرب العالمية الثانية ، لربما كان وضعها أكثر ضعفا ، وكانت الإنكار أكثر تقبلا **لأنها** ، أو تقليلها جدا على الأقل .

ففي القرن التاسع عشر ، ألفتها عدة دول من تشريعها ، منها **رومانيا** عام ١٨٦٤ ، و**البرتغال** عام ١٨٦٦ ، و**هولندا** عام ١٨٧٠ ، و**إيطاليا** عام ١٨٩٩ . وفي هذا القرن العشرين ، ألغتھا النساء قاتونيا أيضا ، و**النرويج** عام ١٩٠٢ ، و**النمسا** عام ١٩١٩ ، و**السويد** عام ١٩٢١ ، و**الأرجنتين** و**الدانمارك** عام ١٩٣٠ ، و**إسبانيا** عام ١٩٣٢ ، وكذلك ألغتھا **بعض ولايات أمريكا الشمالية** .

كما أن بعض الدول ألغتھا **الفاه والقيا** ، أي أنها لم تنفذها رغم وجودها في التشريع . وفي مقدمة هذه الدول ، **بلجيكا** التي لم تنفذ عقوبة اعدام بواحدة ، منذ عام ١٨٦٣ .

وفي هذه السنوات الأخيرة ، أصدرت **الكتنرا** عام ١٩٥٧ قانون القتل Homicide Act ،

عادت فالتفتها عام ١٩٦١ ، وألغاهما الاتحاد السوفييتي عام ١٩٤٧ ، ثم أعادها بعد سنتين لجرائم الخيانة والتجسس ، كما أعادها عام ١٩٥٤ من أجل جرائم القتل المرتكب في ظروف مشددة ، وأعادها مرسوم فدرالي صادر عام ١٩٦٢ من أجل جرائم الرشوة والافتصاب والاعتداء على رجال الشرطة ... وقد جرى في العام الماضي استفتاء في ولاية جورجيا الأمريكية ، صوت فيه للثا الناخبين على إعادة عقوبة الاعدام ، فأعيدت تشريعيا ...

وأرد أن أسجل لهذه المناقشات والمحاولات أنها أثرت عمليا في واقع عقوبة الاعدام . فالبلاد التي لا تزال تحتفظ بها في تشريعها ، وتطبقها ، لا تفرط كثيرا في تنفيذها .

ففي كندا (قبل الإلغاء) نفذ ١٦ حكما بالاعدام من أصل ٥٩ وفي المغرب نفذ ١٥ حكما من أصل ٤٣ وفي لبنان (قبل الأساة) نفذت ٤ أحكام من أصل ٣٠ ، وفي فرنسا لم تصلن المحاكم عام ١٩٦٢ الا ١٠ أحكام بالاعدام ، نفذ منها الثنا فقط . وفي أكتلنرا ، صدر ما بين ١٩٥٤ - ١٩٥٨ مئة حكم بالاعدام نفذ منها ٢٨ وفي مصر نفذ ٦٦ حكما من أصل ١٠٣ ، وفي تركيا نفذ الحكم في ٣٢ شخصا من أصل ٣٣ ، وفي اليابان نفذ الحكم في ١٢٦ شخصا ، هم جميع المحكوم عليهم (١٣) .

وقد يرد على الدهن سؤال هو :

ماهي الجرائم التي تعاقب في إيماننا هذه بالاعدام ، وأي البلاد تعاقبها ... وقد رأيت انماها للفائدة ، أن أذكر فيما يلي هذه الحالات ، وإلى جانبها البلاد التي تتبناها .

وقد عرضت ثلاث حالات اعدام على المحكمة العليا للولايات المتحدة ، فقررت « بأنه في هذه الحالات تعتبر عقوبة الاعدام قاسية ولم تعد صالحة للتطبيق ، وهي مخالفة للتعديل الثامن والتعديل الرابع عشر من الدستور » ومعلوم بأن احكام هذه المحكمة نافذة في كل أمريكا ولكن يتضح من حكمها أنه خاص بهذه الحالات الثلاث فقط ، ولا يشمل جميع حالات الاعدام .

وعدد قضاة هذه المحكمة تسعة ، صوت أربعة منهم ضد الالفاء ، ارضاء للرئيس نيكسون الذي مينهم . أما الخمسة الآخرون فقال اثنان منهم صراحة بأنهم مع الالفاء ، واكتفى الثلاثة باصدار حكمهم على هذه الحالات الثلاث فقط ...

وتشير الإحصاءات إلى أن الجرائم المعاقبة بالاعدام في هولندا لم يرد من عددها عام ١٨٧٠ وهو عام الفاء المعقوبة . ويستمرى الانتباه بصورة خاصة تطور جرائم القتل في ألمانيا الغربية ، منذ الفاء عقوبة الاعدام :

فقد كان عدد حالات القتل عام ١٩٤٩ (سنة الفاء المعقوبة) : ٥٢١ وانخفض عام ١٩٥٠ إلى ٣٠١ ، وأصبح عام ١٩٦٠ ٣٥٥ حالة .

على أن الامانة في البحث ، تقتضي أن لاحظ ، بأن عددا من الدول التي ألغتها ، أعادتها بعد تجربتها ، فقد أعادتها إيطاليا عام ١٩٢٥ ثم ألغتها ثم أعادتها عام ١٩٣٠ ، وأعادتها فيلاند الجديدة عام ١٩٥٠ ، ثم

٨ - قتل شرطي أو موظف أثناء الخدمة ..

٩ - قتل أو جرح ولد بصورة عنيفة :
فمات ، (فرنسا والمغرب خاصة) .

١٠ - الحريق العمدي الذي نجم عنه موت
أحد .. فرنسا ، مصر ، العراق ، إيران ،
اليابان ، المغرب ، أستراليا ، تركيا ، يوغوسلافيا
وغربها .

١١ - الاشتراك complicité في انتحار
ولد أو مغلد أو مجنون .

السودان ، أركانساس الأمريكية ،
الهند ، الصومال .

١٢ - إجهاض امرأة تسبب في موتها .

١٣ - اغتصاب امرأة بالعنف :

١ - إذا نشأ عنه موت : اليابان وتركيا
والفلبين .

ب - أو الاغتصاب العادي : الصين ،
بعض الولايات المتحدة ..

١٤ - الخصماء الذي يعقبه الموت .

١٥ - المتاجرة بالمخدرات في بعض حالاته
الخطيرة : تركيا ، إيران ، الصين ، بعض
الولايات المتحدة .

١٦ - خطف القاصر :

١ - بعض البلاد تشترط موت المخطوف :
فرنسا ، المغرب .

٢ - بعضها لا تشترط ، وإنما يجب أن
يتم في شروط خاصة ، كطلب فدية (النشلي
وبعض الولايات المتحدة) .

الجرائم الموجهة ضد الأشخاص :

١ - القتل مع سبق الإصرار : وهو معاقب
في الغالبية الساحقة من البلاد التي تحتفظ
بعقوبة الموت ، وفي مقدمتها ، أستراليا وكندا
والنيشلي والصين وإسبانيا وبعض ولايات
أمريكا ، وفرنسا وغانا واليونان والهند
 وإيران ، وأستراليا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا
والإتحاد السوفييتي ويوغوسلافيا ، وجميع
البلاد العربية .

٢ - القتل العمدي : (أي العادي غير المقترب
بالأمرار) ، وهو معاقب بالموت في بلاد
قليلة ، أكثرها إفريقية ، ولكن لاحظت أن
السودان من البلاد العربية ويولونيا من
المسكر الشيوعي ، والباكستان من هذه
الدول القليلة .

٣ - القتل أثناء مبلوذة : وهو مقصور على
عدد من الولايات المتحدة الأمريكية .

٤ - جريمة الفش : وهي موجودة أيضا
في بعض الولايات المتحدة الأمريكية .

٥ - التسليم : معاقب بالإعدام في فرنسا
والعراق واليابان والمغرب ومصر ، وبعض
الجمهوريات الجديدة .

٦ - قتل الأب أو الأم أو الولد : ومعاقب
بالموت في فرنسا ، وتركيا ولبنان والمغرب
والعراق واليابان وغربها .

٧ - القتل الذي يرافق أو يعاقب ارتكاب
جريمة : وهو معاقب بالموت في لبنان ومصر
والعراق ، وأستراليا وإسبانيا وغربها (وأكثر
ما يصادف هذا الجرم في أثناء السرقة ، أو
قطع الطريق أو القرصنة) .

ج - الجرائم الوجهة ضد الدولة والنظام العام :

١ - الخيانة : دول كثيرة .

٢ - التجسس : الصين ، اسبانيا ، الولايات المتحدة (القانون الفدرالى) ، فرنسا ، اليونان ، ايران ، المغرب ، بولونيا ، مصر ، تشيكوسلوفاكيا ، تركيا ، روسيا ، يوغوسلافيا ..

٣ - الاتصال بالعدو intelligence او التعاون معه ... دول عديدة .

د - الاعتداء على سلامة الدولة الداخلية

١ - المصيان المسلح والثورة او التمرد على الدولة .

٢ - القتل المركب اثناء اضطرابات émeute او ثورة : بعض ولايات أمريكا .

٣ - الاعتداء على سلامة رئيس الدولة : (وبعض الشخصيات الهامة) .

٤ - النهب pillage والقتل الجماعى massacre والتخريب Devastation والافغان تصاقب الزنا بالموت .

والآن ، ماهى الحكمة التى يجب أن نستخلصها من هذه الدراسة ، بالنسبة لتكوين رأى فيما يخص الغاء الاعدام او ابقائه ؟ هل كانت آراء الاقباليين مقنعة ؟

أم ان آراء الالفائيين ، والتطور الذى حدث عند الامم المتقدمة ، هى الأرجح وزنا ، وأكثر قتلا في ميزان المقارنة ؟ أنا لاطن أن أية دراسة هادئة ، موزونة ، تستطيع أن تنال

١٧ - الامتنال التعسفى مع التعذيب الجسدى : الصين ، فرنسا ، ايران ، تشيكوسلوفاكيا .

١٨ - الشهادة الكاذبة التى تسبب فى صدور حكم بالاعدام : بعض الولايات الأمريكية وفرنسا والهند والعراق ، والمغرب ومصر والسودان .

١٩ - العدد بعد الحكم بأطول عقوبة ممانعة للحرية ، أو اجتماع عدة جرائم معاقبة بهذه العقوبة : الشيلي ، الصين ، العراق ، تركيا الصومال ، تركيا وغيرها .

٢٠ - الاضرار الخطيرة التى تسبب للمواصلات (كالقطار وغيره) : بعض الولايات المتحدة .

ب - الجرائم الوجهة ضد الاصول والجنائيات الاقتصادية :

١ - السرقات الوصوفة : أو المشددة (وخاصة مع استعمال السلاح) : بعض الولايات المتحدة ، فرنسا ، اليونان ، أفريقيا الجنوبية ، النغو .

٢ - القرصنة مع العنف : أو ستراليا ، كندا ، شيلي ، اسبانيا ، جبل طارق ، فواتيمالا ، وغيرها .

٣ - الاحتكار أو رفع الاسعار بصورة غير مشروعة وخطيرة واختلاس اموال الدولة : الصين ، اسبانيا ، يوغوسلافيا .

٤ - تزيف النقد والمضاربة على العملات الصعبة devises : روسيا وبولونيا .

٥ - الاعتداء الخطير على الملكية الاشتراكية : بولونيا ، روسيا ، يوغوسلافيا .

منهم ، وعلى المسايين ببعض من شلوذ في التفكير والمحاكمة ، لا يصل الى درجة منع المسؤولية ... وهذا تعامل ، وليس حقا مقروا . فقد حكمت المحاكم الفرنسية مؤخرا على فتى هاجم مجزوا وقتلها بسبع عشر طعنة من سكين ، ليستلب منها ما اقتصدته لايامها الاخيرة ، كما قررت اعدام امرأة تأمرت مع عشيقها على الخلاص من الزوج ، فقتله ، وقطاعه وجعل جسد سدا لحديقة البيت ، وراحا يستمتعان بزورها حين ازهرت ، وهما يتطفان لمرات الحب الحرام ، حتى كشف الله السر عنهما ، فاسلمت متفاهما الى الجلاد ... جزاء وفقا .

وياتي دور رئيس الدولة ، كعلاذ اخير ، باستعماله حق الصفو في حالات تركها الدستور الى ضميره ، دون رقيب عليه الا شعوره بالمسؤولية وخوفه من الله . وقد جرت العادة ان يمارس هذا الحق بشيء من السخاء ، وخاصة اذا تصرف القضاء بشيء من الاندفاع ... فعلى سبيل المثال ، ابدلت ٨ احكام بالامداد في استراليا من اصل ١٠ ، وابدلت ١٧ حالة في فرنسا من اصل ٢٤ ، و ٢٤ في كندا من اصل ٥٥ (١٤) ...

وقد كان لسورية رئيس جمهورية ، كان يمتنع من تصديق أى حكم بالامداد ، خلال رئاستين متواليين ... ولم يلاحظ احد ان جبل الامن اضطرب ، أو ان الاجرام ازداد ... بل كنا نلاحظ ان المشائق تنسب في الساحات العامة ، في الايام الاولى للانتفاضات العسكرية على الدستور ، وقلب الحكم ، لارهاب الناس .

ويتعبر اوضح انى اريد لهذه العقوبة ان تظل تظل في التشريع ، لحين الحاجة اليها ،

اجماعا أو شبه اجماع ، في مشكلة شديدة التعقيد ، متصلة بمفاهيم الطبقات المختلفة ، وغرائزها وعواطفها ، لان هذه المشكلة مشكلة انسانية ، قبل كل شيء ، ومن شأنها ان تلامس بقوة اوتار كل نفس ، فتحررها ، في الوضع التي هي عليه . فلا نحاول ان نرى ان يمل بعضنا على اقناع الآخر بوجهة نظره ، وليكون كل واحد منا لنفسه قناعته خلال تفكيره ودراساته وملاحظاته الشخصية ...

ولي راي في الموضوع ، اود ان امره ، كونهت لنفسى بعد اربعين سنة في رحاب القانون ... ولست ازم انه نهائى بالنسبة لي ، فقد اغيره ذات يوم ...

انى ارى ابقاء عقوبة الإعدام في القانون ، بالنسبة للجرائم الكبرى العادية ، وخاصة حين يقع ازهاق روح بريئة ... كخطف طفل صغير طلبا للثدية وقتله ، وقتل الضعاف من النساء ، والمجزرة ... طمعا في امراضهن أو أموالهن ...

وارى ان تشديد المحاكم في قبول البيانات حتى لا يبقى ، حقا وصدقا ، اى ظل للشك في نفس القضاة ... والا يكون عليهم اى سلطان في قضائهم لغير القانون ، كما يقول الدستور .. وان تقف في وجه الراى العام ، اذا اثيرته الصحافة او الدعاية ، حتى تستطيع احقاق الحق ، دون تائل أو تأثير ...

ولقد جرت عادة المحاكم ، ان تمتنع من الحكم بالامداد على الفتيان ، ولو كانت بعض القوانين تماقبيهم به ، كما جرت العادة ان تقلل هذه الاحكام على النساء ، وخاصة الحوامل

الاجاهات ، ولغت نظري جواب والد طفل صغير ، اختطفه مجرم أثم ، وطالب بالقدية ، ثم خشي أن يعرفه الصغير لمخنته ، ثم اكتشف أمره ، قال : « حين قتل ولدي ، فقد ناداني .. صرخ بابا .. انه وكلني بالانقصاص له .. فاذا أفرج عن قائله ، فاني سأأثر لولدي ، وأقيم العدالة بنفسى » ...

وترتب على رأيي هذا ، أن يمكن المتهم من الدفاع عن نفسه ، بكل حرية وأن يتمتع بكل الضمانات التي يمنحهاها الدستور والقانون وأنه لمن مصلحة المجتمع أن يؤمن له دفاع جيد لا حُبَّ به ، ولكن زيادة في الاحتياط ضد مزالق الزلل ، ورغبة في التشدد في إقامة عدالة سليمة . وهذا يعنى واجب المحامين الكبار بعدم التهرب من التوكل عن هؤلاء المتهمين ، وعليهم أن يقوموا بتجاهم بواجب الدفاع على وجهه الكامل ، حتى يكون تساو بين كفتى ميزان العدالة ، أى كفة الاتهام وكفة الدفاع . وهذه مسألة نوليها أهمية كبرى . ثم أننا نشجب بقوة ، تعامل بعض محاكم الجنائيات ، التي تندب لبعض المتهمين الفقراء محامين متمرنين ، تكلفهم وهم في قاعة المحاكمة بالتوكل عنهم ، دون أن تضع الملف بين أيديهم قبل مدة كافية ، فيقف المحامي ليقول : لما كانت التهمة غير ثابتة على موكل ، فاني أطلب له بالبراءة ... هذا التعامل يعنى طعن العدالة في صميمها ، بالاستخفاف بحقوق أشخاص قد يكونون أبرياء ، وتجريدهم من حقوق ضمنها لهم الدستور والقانون ...

وانى لاشعر أن هذا البحث لا يكتمل ، اذا لم أشر الى عقوبة الإعدام في الجرائم السياسية.

وليس لتطبق باستمرار . ولقد أتبع لى ذات يوم أن أولى تنفيذ أربعة قرارات جمهورية تقضى باعدام أربعة مجرمين .

أحدهم عيث بزوجة أبيه ، وعاشها معاشرة الزوجة ثم اتفق الاثنان على قتله ، فاحتالا عليه ، وأخذاه الى خارج القرية ، وحطم الولد رأسه بحجر كبير ، ودفنه في حفرة مهجورة ، وعاد الى فراش خالته .

وثانيهما ، غريب استضافه محسن في بيته ، فطعم في زوجته ، فقاومه ، فقتلها وجرح الثنتين هتبا لنجدتها .

الثالث ، قاتل مأجور ، قبض مبلغا من المال مقابل قتله انسانا لا يعرفه ، ولم يسيء اليه من قبل ...

والرابع ، شخص اتهم ظلما وعدوانا طبييا انسانيا بأنه يماون عليه خصومه فترى به وقلته ، لم تبين أن المسكين لا يعرف عن موضوع الخلاف شيئا ...

ولقد فكرت وأنا أوقع أوامر التنفيذ ، بالإبرياء والنكالى والإيتام ، وهم يلهبون شحمة بعض الاشقياء في ظروف تدعو الى الرماء واليكام . وأمام سدوع الصفاز الذين لهم اليتم ، والنساء اللواتي فجعن ببعولتهن أو أبنائهن ، لا يمكن للمشاعر إلا أن تتحرك ، وللنقمة إلا أن تشتد . وفي مثل هذه الحالات النفسية ، يتخذ الانسان قراره ، متحسسا بمشاعره . وقد قرأت مؤخرا تعليقا على ندوة تلفزيونية عرضت في فرنسا (١٥) ، استجوب فيها المذبح اشخاصا من مختلف

ولو ان الذين حكموا على تلك الزهيرات الطوة من أصحاب العقيدة الوجدية الصافية بهذه العقوبة الرهيبة ، تربصوا بأنفسهم بضعة أيام ، لكان مقدر أن تهدأ العواطف ، وتسكن النفس ، ويعود الصفاء الى الاعصاب ، وترتفع راية العدالة ، يميلوا عن التصفيات الجسدية ، ولكن حين تخرج القضاء من يد القضاة ، فان كل الاحتمالات تكون ممكنة ، ويكون التعصب الدميم ، القانون والسيف .

ويا بلادنا ، التي انتهكتها الانتفاضات منذ أكثر من ربع قرن لقد آن لك أن يسود فيك القانون ، ويحترم الانسان ، وتسان العربات ... فقد قال تعالى : « ولقد كرّمنا بني آدم » واحسن تكريم له أن تسان إنسانيته ، ويزول من قبله شبح الخوف ..

ويرحم الله المعري ، القاتل :

ما دامت الخيـسل والانصام خائفة
فرما ، فما صح أمر النساك للامد

اني من حيث المبدأ معارض لهذه العقوبة فيها ، لا استثنى من ذلك ، الاجرمة الخيانة في حالاتها القضيعة ، لأنها تقطع الصلة بين الخائن ووطنه ، الذي قد يعرضه بخيائنه الى التهلكة الجماعية . وتكفى العقوبات الاخرى للجرائم الاخرى . ذلك ان المجرم السياسي ، مجرم عقيدة وفكر ، وطالب اصلاح ، واجرامه يختلف عن اجرام القاتل وهاتك الاعراض . فهو يسعى الى اصلاح وحرق المراحل للخلاص من التخلف ، وتحقيق مثل أعلى في وحدة قومية ، او تحقيق مساواة اجتماعية . وقد يكون خطره اشمل من خطر المجرم المادى لشموله وتعريضه نظاما قائما الى هزة عنيفة ، الا ان الذي يشفع لمعاملته بشيء من الرفق ، انه مثالي النزعة ، نزاع الى اقامة مجتمع يحقق آماله في المدينة الفاضلة ...

واني لاحتفظ من هذه العقوبة ، بذكريات سوداء قائمة ، فقد شهدت اعدام ٣١ شخصا ، قتلوا رميا بالرصاص ، في ساعات حقد اسود



الراجع

- Jean Imbert** : La peine de mort.
P.U.F. 1972.
- J. Ancel** : Rapport publié par les Nations Unies, 1962 : S /SOA/SD/9
— Les doctrines de la défense sociale devant le problème de la peine de mort in
Revue des sciences criminelles 1963.
- J. Graven** : Nouvelles reflexions sur la peine de mort, dans :
Recueil d'études en hommage à la mémoire du professeur
Donneoliu de Vabres,
Paris, Cujas 1962.
- Norval Morris**, Rapport publié par les Nations — Unies, 1968 :
ST/SOA/SD/10
- Vosin** : La peine de mort,
Revue des sciences criminelles, 1966.
- Thorsten Sellin** : la peine capitale et le procès pénal, dans :
Problèmes contemporains de Procédure pénale, Paris 1964.
- R. Merte**, Les aspects théologiques de la peine de mort, dans :
"Travaux du Colloque sur la peine de mort Organisé à
Athènes en 1960.
- Oerton** : l'abolition de la pene de mort en Grande-Bretagne, dans :
Revue des sciences criminelles, 1966.
- Savcy = Casard** : L'Eglise catholique et la peine de mort,
même Revue : 1961.
- Vernet — Joseph**, Enquete préalable a la peine de mort
même Revue, 1966.
- Thierry Lévy**, l'imziz jufivizir, Pztid, Grasset, 1975.

وبالنسبة لآراء الفقهاء الجرائين الصوب ، تراجع مؤلفاتهم في العلوم الجزائية ، وهي كثيرة .

ميخائيل نعيمة ناقد أدبي

الدكتور مناف منصور

مفهوم النقد ووظيفته

ليس النقد الأدبي عند ميخائيل نعيمة إلا وجهاً من نتاجه الأدبي المتنوع ، والذي يشكل ، في النهاية ، نظاماً تفكيرياً واحداً من حيث النوع والمبنى . فالفاعلية الفكرية واحدة . وبما أن كل إنتاج له هو ثمرة الجهد الكبير لتصوير تلك الفاعلية فقد كان من الواجب طرح انتاجه بكامله - على بساط البحث لكي نتصرف بوضوح الى نظامه النقدي في صورته الاكمل . وعندما اردنا ان نبين نتاجه النقدي وجنانه متوزعا في أربعة مناح :

١ - رسائل يكتبها الى المؤلفين والشعراء الذين أرسلوا اليه نتاجهم فيعرض نعيمة في هذه الرسائل آراءه وانطباعاته . وهي كثيرة : بعضها منشور في الصحف والدوريات ، وبعضها لم ينشر بعد .

٢ - المقدمات التي يكتبها للدواوين ومؤلفات الآخرين .

٣ - الأحكام والآراء والملاحظات في الأدب والنقد يبثها بين الحين والآخر عبر نتاجه الأدبي أو الفلسفي أو السيرة .

العربية في خلال عصور طويلة ، وانصراف كتابها وشعرائها عن الحياة في داخلهم ومن حولهم الى الشعوذات اللغوية والبحرجات الفارغة والتقليد الميت « (٣) .

وعلى هذا ، لا ينطلق نعيمة في مفهومه للنقد من منظور ضيق أو من أساس فني محدد ، فإذا كان الأديب ضمير الحياة والانسانية ، فإن الناقد ضمير الأديب ، والحياة ، في منتهاها ، مجموعة من الأفكار والمشاعر المتحركة حركة ذات غنى وخصوبة ، وإذا تكون الحياة مجال النقد وميدان عمله . هكذا ببساطة كلية يرفع نعيمة النقد من أسرار القواعد الضيقة - مهما وسعت - ليكون وجه الحياة إذ « الحياة والأدب توأمان لا ينفصلان » (٣) . فليس هو نشاطا عرضيا بل (لو شئت أن أحدد النقد بكلمات ثلاث قلت أنه عمل الحياة الدائم) (٤) أنه حاجة مستمرة وملحة لكي تبقى الأشياء والحياة في قيمتها المتألقة المشوذة « فنحن مدحون في كل لحظة من وجودنا الى التفكير والتعبير والاختيار - أي الى النقد » (٥) . فهو دليلها ومؤكدها ، فالحياة هي الانتقاد والتجديد (٦) . أنه بحث مستمر من حقائقها العميقة واكتشاف اسبابها ، فهو إذا شكل الحياة بل سنّة من السنن التي تقوم بها الطبيعة والطبيعة أكبر مغربل ... الغزلة سنّة الطبيعة وسنة البشر الذين هم بعض من الطبيعة (٧) . وهكذا

{ - كتاب « الغزيرال » الذي يضم إحدى وعشرين مقالة توزعت في ثلاثة محاور :

١ - مقالات من النقد البثاء : الغزيلة ، محور الأدب ، الرواية التمثيلية العربية ، المقاييس الأدبية ، الشعر والشاعر .

ب - هجوم عنيف على الأدب التقليدي والتبحر اللغوي : المحابح ، نقيق الضفادع ، وهجوم على العروض التقليدية : الزخافات والمثل . وهناك مقال قصير جدا يدمو فيه للترجمة .

ج - النقد التطبيقي : الأرواح الحائرة ، الدرة الشوقية ، القرويات ، الربعاني في عالم الشعر ، السابق ، ابتسامات ودموع ، غاية الحياة ، أغاني الصبا ، النبوغ ، شكشير ، خليل مطران ، الديوان ، عواصف العواصف ، الفصول .

وهكذا فسمعة تأليفه النقدي ، على الإطلاق،

هي القالة . وكان أول مقال نقدي له (١٩١٣) يدور حول رواية الأجنبية المتكسرة اذ يقول : تراث الرواية فاستفوتني لكتابتها مقال فيها دعوه « فبسر الأمل بعد ليس الياش » (١) وارسلت به الى « الفنون » وهو أول مقال نقدي حبرته ، فكان فاتحة حياتي الأدبية . وقد نددت فيه تنديدا مرثيا بجمود اللغة

(١) دمج نعيمة لسماء من هذه المقالة في مقال « المحابح » للنقد في الغزيرال (دار صادر بيروت الطبعة الثانية ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ - ٦٤ .

(٢) راجع نعيمة : جبران خليل جبران ، ط ١ ، مطبعة لسان الحال ، بيروت ١٩٢٤ ص ١٦٩ . و « سبعون » دار صادر ودار بيروت ١٩٥٩ - ١٩٦٠ ، المرحلة الثانية ص ٣٠ .

(٣) الغزيرال ص ٢٠ .

(٤) راجع مقالة نعيمة « الأدب والثاقف » ديوب (ط ٢/٣ دار بيروت ودار صادر ١٩٥١) ص ٧٧ .

(٥) ديوب ص ١٧٢ .

(٦) الغزيرال ص ٤٢ .

(٧) المصدر نفسه ص ٢١ .

محور الحياة - على حد اشارته - وإن قواه هي التي تربنا في دياجير الحياة وميض أنوار تنجيبها إلينا (١٠) ... وإن « لاقيمة لصل عمل يأتية (الإنسان) إلا بمقدار ما يدينه ذلك العمل من معرفة نفسه أو يقصيه عنها ؟ وسواء أدرك ذلك أم لم يدركه فهو أبداً يقبس كل ما يديه بهذا المقياس فيعمل منها ما لا يريد به نفسه معرفة ، ويحتفظ بما يشاهد فيه مظهراً من مظاهر نفسه (١١) . واما ان الحياة تنتقدنا في كل لحظة من وجودنا فلا يمكن الأخذ بهذا أيضاً إلا على أساس أنها مجال نشاطنا ، وإذا نحن سليل تفاعل مع لحياتها وتجاربها وتأثر فاعل ومتبادل، من هنا سبيل الارتقاء والتطور المعروف حيث الإنسان أساسه ومحوه ، إذ لاوجود للأشياء إلا بنا . كذلك نتف موقف الحظر من قوله « في حين أننا ننقد الغير ولقما نوجه نقدنا إلى أنفسنا » على أن هذه الظاهرة تبدو صحيحة وواقعة ، للوهلة الأولى ، للدرجة أنها تكاد تعمى وراءها حقيقة أبعد ، ذلك أن نقد الآخرين إنما هو ، عندنا ، شكل من أشكال نقد النفس ، فنحن في العملية النقدية لا يهتنا الناقد والمنقود ، بل الأهم الكشف عن قيم وتجارب ومعطيات إنسانية ، لكل مظهر ذاتي ، بل أي مظهر ذاتي ، إنما هو في الحقيقة مظهر إنساني أيضاً ، وفي آن . فلذا كان مجال عمل النقد ماكتبه فيهم وما انتجوه فإن مادة هذا المعطى وهذا النتاج إنما هي الحياة « إن النقد الحق يأخذ مادته والهامة من الحياة » (هدسن) .

وهذه هي الحلقة الدائرة التي ينجحها النشاط الأدبي : الحياة الأدبية النقد ، ليس

يتحول نعمة بمسألة النقد ومشكلة تعرفه من قضية فنية إلى موقف أخلاقي ، يبين بالتالي خطر مسؤوليته وفداحة مهمته ونتائجها « فالنقد أخلاقي ولا بد من أن يكون النقد مثله ضرورة (٨) . والناقد - ككل إنسان - مقروض عليه « أن يصحح » ما يراه أو يعتقد أنه خطأ ، وحدته في ذلك تفكير نير ، وتمييز مسؤول ليتسنى له أخيراً مجال الاختيار ، فيكون نشاط . النقد التزاماً للحياة وأحيائها ، وارتباطاً عضويًا بها . من هنا بان من الضروري التمييز بين نوعين من النقد يقوم بهما : الحياة والإنسان ... أن الفرق بين نقد الحياة ونقد الناقد منا وفيها لفرق شاسع جداً ، فالحياة تنقد ذاتها بذاتها ، إذ ليس ما هو خارج عنها لتوجه إليها نقدها . ولأننا بعض من ذاتها فهي نقدنا كذلك في كل لحظة من وجودنا . في حين أننا ننقد الآخرين ولقما نوجه نقدنا إلى أنفسنا (٩) . فقيم المقارنة على مستوى نوع العمليتين النقديتين ، وهو أمر يصدر من خطأ مبين يفسل التمييز السوي بين النقد الإنساني وما سواه نقد الحياة . فالقول بأن الحياة تنقد ذاتها بلانها لا يمكن أن يعنى عندنا إلا أن الحياة تملك من نفسها وفي نفسها طاقة الحركة فتجدد وتستمر فاعلة ، غير أننا نرى ... في هذه الحال - أن هذه الظاهرة لا يمكن أن تكون إلا بواسطة الإنسان ، فهو أولاً يعي ذلك ويقسره ، وقيمة الشيء في معرفتك به ، ووعيك له . ولأننا لا نعرف كأننا لا نعرف بملك الحس والإرادة والتمييز والاختيار غير الإنسان . فالحياة لا تختار وإنما تعرض أشياءها عرضاً ، وبقاء الشيء والوجود رهن بحاجة الإنسان وأرادته له ، ثم أوليس الإنسان هو

(٨) راجع متتالي هابن : النقد الأدبي ومهامه النقدية ١ ص ١٠٠ .

(٩) دروب ص ١٧٧ .

(١٠) راجع القربال ص ٢٢ - ٢٥ .

(١١) القربال ص ٢٥ .

النقد ، أولاً وأخيراً ، في الحياة ، أي النفس الإنسانية بكل ما فيها وما عليها ، لانها وحدها قطب هذه الدائرة .

النقد هو التمييز

وعلى هذا يتحصل بان النقد حق للناقد اذا كما للكتاب الحق في الكتابة على حد سواء (١٢) لان « مهمة الناقد الغريبة . وما يدونه قسم من الناس من الافكار والشعور والميول هو ما تعودنا ان نسموه أدباً . فمهمة الناقد اذا هي فربلة الآثار الأدبية لإغربة اصحابها » (١٣) فيكون النقد « أدباً على الأدب » أي ان مادة الناقد الأولى بديل أن تكون من الحياة للمشاهدة مباشرة ، فانها الحياة « المؤلف » والمهر منها بالدرجة الأولى من الشاعسر او القاص ... وهكذا يرى نعيمة ان التمييز مكانة النقد بالنسبة لانتاج الأدبي علينا ان نعرف أولاً حدود العمل الأدبي نفسه ، وحدود الاشكال الثقافية الأخرى والتي تمسه بشكل او بآخر ، وعلى هذا يتبين وظيفة النقد لعلنا انها غاية بلها بل « القصص من النقد الأدبي هو التمييز بين الصالح والطالح ، بين الجميل والتبع ، بين الصحيح والفاقد » (١٤) فينهج بذلك نهج اليانجي خاصة والنقد العربي عامة ويتفق مع ما تقدم من نظرائه تلك . فعلى الناقد مسؤولية كبرى ، ميثها - الى حد ما - انها تقرر نوع القاييس الأدبية والفكرية التي تسود ، في زمن ما ، على ضوء ذلك التمييز المشهود . ولكن لن يقرر

الناقد ذلك (او على الاقل يمهّد للقرار) : للكتاب أم للقارئ ؟ . فاذا كان « لكل منا الحق بان يكون له غرباله بغريل به نفسه كيف شاء » (١٥) فان لكل منا أيضاً « عواطف وافكارا مشتركة هي نتاج مجهوداتنا الأدبية المشتركة . وفربلة هذه هي وظيفة الناقد » (١٦) ، بدافع الشوق والقلق وكلاهما « يتفاوت ممقا وعنفا ومدى بتفاوت البواهب التي تبعثه ثم بتفاوت القوى التي تميه وتتأثر به . وهذه القوى هي العقل والوجدان والخيال واللوق والارادة . وهي لا تتساوى ابداً عند اثنين من الناس . فكيف يهنا تتساوى عند جميع الناس . » (١٧)

علاقة النقد بالكتاب :

من هنا تكون علاقة الناقد بالكتاب ، فهو يعبر عن القلق الذي يثيره العمل الأدبي فيه ، ثم رغبته في التخلص من ذلك القلق . فالكتاب والناقد « يعملان بدافع من القلق والشوق . فالكتاب فيما يكتب انما يعبر عن قلق يثيره فيه حوامسه الخارجية والباطنية من أوضاع يمينها وعن شوق الى التخلص من ذلك القلق . وبأى الناقد ليمبر عن القلق الذي يثيره فيه عمل الكتاب ومن شوقه الى الانتماق من ذلك القلق (١٨) . أي ان محور العلاقة بين الكتاب وعمله من جهة ، وبين الناقد وعمل الكتاب من جهة أخرى هي علاقة الارة . « فمن يريد ان يثير

(١٢) القربال ص ١٤

(١٣) المصدر نفسه ص ١٣

(١٤) القربال ص ١٥

(١٥) القربال ص ٢٢

(١٦) المصدر نفسه

(١٧) دروب ص ١٧٥

(١٨) المصدر نفسه ص ١٧٤

الشخصي والتجربة المباشرة لادراكه حقيقة ما ادراكا صحيحا فهو يعتقد اذا مع سالت **يوسف** بأن الموهبة الاولى والضرورية للناقد هي ان يشعر على الفور بلا أى اعتبار للقوانين النظرية بجمال العمل الادبي وقيمته (٢٠) عبر هذا ، ولما كان القصد من النقد التمييز لا اطلاق الحكم ، كان يرى ان واجب النقد ان يظهر كيف يعيش اثر الادبي ، ما هي حقا صورته وبنيتة وحياله الاساسية ، وان يوضح ذلك بتبيان خصائص شاهدة ، فالناقد يعنى بكيفية الاثارة اكثر من امتثاله بالرها الذي حققته في نفس القارئ ، على نقض ما يرى **ادموند جويس** من ان النقد « هو فن الحكم على صفات الشيء الجميل وقيمته سواء كان ذلك في الادب أو في الفنون الاخرى ... ولكن المصطلح (نقد ادبي) قد بدا يحمل معنى ثانويا آخر اكثر تخصصا ، وهو تحليل ارايا الاثر الادبي او الفني وتحديد صفاته » (٢١)

غير ان نعيمة يذهب في علاقة الناقد بالكاتب ملهبا آخر ، فيحكم اوامر ارتباطهما ، بحيث يصبح الناقد عنده تابعا للاديب ، أى ان الاديب الكبير هو الذى يمهّد للناقد الكبير او يخلقه « ما من شك في ان مستوى النقد يرتفع ويهبط بارتفاع مستوى النتاج الادبي وهبوطه فالادباء الكبار يمهّدون الطريق للنقاد الكبار ، ولا عكس فاقول ان النقاد الكبار يمهّدون الطريق للادباء الكبار . فالمعقبة الحقة تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مصادح او قاصد » (٢٢) . ومن هنا فالنقد لا يقرر او يعطي العمل الادبي قيمة بل هو يكشف عن العمل

مشاعر الآخرين عليه ان يثائر هو قبل كل شيء » . (راسكين) (١٩) وهكذا تبدو الاثارة مصدرا وجوديا ممتدا للحياة ، دائب الحركة ، يستنفر المواهب للعطاء والابداع ، ومن ثم الاستمتاع ولا ضرورة لان يكون النقد - اثارة على نسق الاثارة المباشرة للطبيعة او الحياة خلقا وابدا . فالتناس ليسوا على مستوى شعوري واحد لتبليغ الاثارة لدى الجميع حدا متشابه النوع . من هنا تبدأ مرحلة النقد انطلاقا من الاثارة ، فالكشف عن مقوماتها ، واستعداد عناصرها الفكرية وتعليلها يستنزف معالم الشخصية المنتجة ويمتد الى استخراج عناصره الحية . وعلى هذا تحصل لدينا ان قلق الناقد اوسع ، بل أحد ، ذلك انه وليد : الكيان الادبي نفسه المطروح امامه ثم بما يذكر به هذا العمل الادبي من قلق صاحبه الباحث الاول له . واذا ليس سهلا على الناقد ان يكتنه اثارة الاديب وان يمي ما تضمنته من اغوار ، بحيث تخلص الى ان الاثارة ركيزة كبرى في النقد ، منذ نعيمة ، ولها صح اعتبار الاثر النقدي ادبا وان لم يستمد من الحياة مباشرة ، فعلى مستوى الاثارة وروحها يشيد الناقد ببناءه النقدي في الكشف عن حسنات النص وسياثته ، وتقييمه على ضوء مقاييس خاصة وهو بذلك يقترّب من اليوت « يقينى ان للنقد غاية : هي توضيح الاثارة الفنية وثقيف الدوق فبصرف النظر عن اية فلسفة ادبية ينطلق منها ، فان اساس النقد الادبي هو التجربة الشخصية مع النص وما يثيره من تأثيرات ، اذ ان كل نقد ادبي لا بد ان يبدأ بالتأثير ، وذلك لانك لا تستطيع ان تستغنى عن الدوق

العلاقة لا يمكن أن يكون لها نتيجة مفيدة ، لأن ذلك معناه تحديد القيمة بقاعدة غير محددة .

الا ان نعمة يفرق تفريقا قاطعا بين النقد والادب ، بينما هو في الواقع « ادب من الادب » : وحكم النقد لا يختلف من حكم الادباء في أن بعضهم مبغضون وبعضهم مسخفون : وسيظل فيهم السخفاء والمبغضون . كل ما في الامر أن النقد فرع خاص من فروع الادب ، والنقد لا يعدو أن يكون ادبا يتخلل من الادب نفسه موضوعه (٢٢) وهكذا يظهر لنا أن نعمة لا يقول بأن وجود الناقد وعدم وجوده سيان . ولكنه لا يقول أيضا أن النقد دعاية لا يقوم الادب الا بها وعليها . فقد يقول بمهمة النقد القاريء والناظر والسامع والزمان . فان اخطأ القاريء والناظر والسامع فلن يخطيء تقدير الزمان في المدى البعيد اذا كان لبعض النقاد من مراتب عالية **كثانات يوف ولين وراسكين وبيلسنكي** فيما في نفوسهم من كنوز الافكار والاحاسيس ما تكتشف الا لدى احتكاكها بكنوز مماثلة ، « فهي ثمينة في ذاتها لا في كونها جاءت تعليقًا على هذا الكتاب أو ذاك » (٢٣) من هنا كان لنا أن نستنتج ما يلي :

١ - التأكيد بأن ليس الناقد وحده ، وبالضرورة ، الذي يقوم بمهمة النقد ، بل هناك الزمان (٢٤) (يلخص هنا أن نعمة يعدد الاسماء لقوة خفية واحدة هي وحدها تحفظ

قيمتها التي يحملها . أي أن النقد بطبيعته غير قادر على رفض حقيقة كائن ادبي : ولعله بذلك يذكر بموقف **ورد ذورث** « ليست القمرة على النقد عندى قيمة كبيرة . النقد ملكة من ملكات العقل احط شأنًا من ملكة الخلق والابتكار » ولو ان الوقت الذي يبلل في نقد الأثر الابية ينفق في الادب الانشائي من أي نوع كان لكان ذلك خيرا لنا وأجدي (٢٥) (ورد ذورث) ، أو بما ينشده **اميل فاجيه** « اننى لا اعتقد بأن للنقد ثمة امرا ، ويقلد ما اعمقه اقتنع بأن ليس له أي أثر (٢٦) . فالناقد لاحق بالكتاب ، واذا كان الادب نقد الحياة فالنقد هو نقد له « عمل الناقد هو نقد النقد » ، وهو مدين به الى عمل الكاتب ، فلو لا الكاتب لما كان الناقد ولا يصح العكس ، وذلك هو الفارق الاول والأهم ما بين الاثنين (٢٧) . فالادب الخالق ينظم تجاربه التي استمدتها من « رأس النبع » في أكثر الاحوال ، اما النقد فينظم تجاربه المستمدة من الادب الخالق ، أي من الحياة ، أي بعد أن نقلها الادب نقلة جديدة . واذا شئت فقل ان كليهما نوع من الشجر ، ولكل واحد منهما حظه في الاستقلال بقدر ما بينهما من اتصال (٢٨) . فالناقد اذا هو الحلقة التي تربط بين العمل الادبي والحياة ، وواجبه ان يحدد هذه العلاقة . وطبيعة القيمة الادبية تعتمد على طبيعة العلاقة بين الفن والحياة في مجموعها . ومحاولة اصدار حكم على الادب قبل الوصول الى تصور نهائي بشأن هذه

(٢٢) راجع التظايف ١٩٤٢ ع ٢٢ ص ١٦ .

(٢٤)

(٢٥) دروب ص ١٧٤ .

(٢٦) ستانلي هاين : النقد الادبي وعناصره الحديثة ج ١ ص ١٧ .

(٢٧) ديف غوري ، الكتاب ١٩٥٦ ع ١ ص ٩ .

(٢٨) دروب ص ١٨١ .

(٢٩) يلخص هنا تربييه من مؤلف الريحاني في هذا الصدد ، راجع رسائل الريحاني (دار الريحاني ١٩٦٠) ص ١٨٦ .

آثارهم النقدية ما يماثل كتوز الخلق الأدبي . ومرة بصط من هذا النشاط وأصحابه ، فيكاد ينكر فضلهم فيجعلهم كالدجاجة التي تتوقى كلما باغت ولقيتها ، ويلعوهم الى الشغل بانفسهم والى الانتاج الأدبي وترك سواهم وشأنه . وهنا نهيأ لنا أنه يميز بين نوعين من النقاد : نوع يعيش على هامش النقد وحقيقة عملياته فيفهم تناولا للمؤلفين ونتائجهم ، وهؤلاء يرفضهم نعيمة رفضا قاطعا . ونوع آخر يجعله ثرين المبدعين بل هما من طبيعة واحدة ، ولذا مهمة واحدة ، غير ان نعيمة لم يكن صريحا واضحا في هذا التعريف ، بل كثيرا ما كان يتحدث بصورة عامة فالت لانتقاد تعرف من يقصد من النوعين ، مما دفع رليف خوري الى ان يأخذ عليه هذه الظاهرة « فالاستاذ نعيمة حين يميل الى هذا التهوين من شأن النقد والناقدين انما يعتمد على فلسفة ليؤئن لي ان اصغها بالأمامة . فلسفة يصر بعض المفكرين على ان يستمدوا منها نتائج خاطئة بليضة الضرر . تلك هي الفلسفة « الليبرالية » المحض وأدعوها بالمريية « الاصطفالية » دهي تستند على ان هذه القيم التي نسميها الحق والخير والجمال قيم متحولة متبدلة في العصور ، عدا انها في كل عصر وبينة تختطف مفاهيمها بل تتضارب نسبة حتى الى الاشخاص والافراد . وهكذا تكون النتيجة ان ليس في الواقع من حق ولا خير ولا جمال ترسم حدودها واضحة معينة لاشية فيها . وبالتالي ليس في الواقع من نقد بوسعه ان يلقي أنه يصدر من هذه القيم قيم الحق والخير والجمال ... » (٣١) وتفسيرا لتلك الظاهرة فهو يصف العلاقة بين الكاتب والناقد على أساس من الحدو والحد . فهما مستويان مختلفان بينهما خصام شديد ، ويريد ان تكون

خلود العمل الأدبي فحينا الحياة ، وحينا الطبيعة وهنا الزمان ، وهناك القارئ ايضا . اذ ليس ثمة ناقد أعلى من الجمهور ، فهو متبصر بحسب المكان والزمان ولكنه دائما محترم بما يصيب من احكام سديدة في جميع الأنواع ، فهو يطلقها أولا متفرقة ثم لا تلبث ان تتوحد في اللغة لتؤلف الرأي العام (٣٢) . وهكذا فالنقد ليس مجالا اختصاصيا عند نعيمة يتكرس له اصحاب اختصاصيون ، بل هو أمر يتولد طبيعيا عند الناس ، وبالتالي يمكن أية كان القيام بهذه المهمة ولا خطر مما تستتبع من مسؤوليات ، فان الصحيح لا يصفو ناقدا يكشف عنه ، بل ان طبيعة الحياة هي التي تعطي الامر الأدبي القدرة على البقاء اذا كان حاملا اسبابها .

ب - غير أنه ينزع ، من قبيل آخر ، الى تحليل قيمة بعض النقاد الكبار فتراه يرتفع بالنقد الى مستوى الخلق وعدم اقتضاره على مجرد الشروح والتعليقات او الاسفاف لأن يكون ضربا من المهارات او نوعا من المماحكات ، انه تأليف تتبع قيمته من ذاته ولا يستعيرها من المواضيع التي يشغلها . فالناقد الحقيقي هو خالق كالتشاعر ، لينحصر بذلك نحو سانت يوف أو دي غورمون ، وينتهي لنا ان هذا التأكيد يرافقه شعور بالمرارة لاحساسهم بالمجز عن ان يكونوا غير ناقدين .

النقد بين الإبداع والاسفاف :

يبدو لنا ان نعيمة حائر في أمر النقد ، وفي تحديد المكانة التي ينبغي ان يشغلها هذا النشاط . فمرة يرفع النقد الى مرتبة الخلق ، ويعظم الناقد حين يذكر كين وسانت يوف الفرنسيين ويقيمهم الروسي . فيؤكد ان من

(٢٠) وهذا ماذهب اليه Marmontel (1723-1799) راجع ايضا Fayolle, La critique P: 24

(٢١) رليف خوري / الاداب ١٩٥٦ ج ١٠ ص ٩ .

فالحديث من النقد ليس حديثاً من قيمة هذه الآثار على أساس جمالي أو مثالي مطلق . وهو لا يعتمد فنية جمالية بل الحياة مباشرة . ان النقد الحقيقي عنده لا يكون التزاماً بقواعد مفروضة ومبسطة بل هو استخراج قيم جديدة باستمرار من النصوص المدروسة . وهكذا يكون الناقد في توتر دائم للخلق والابداع . فإذا كان المؤلف أو الشاعر خالق اثر ما فان الناقد خالق قيمة هذا الاثر امام الجاهلين (٣٢) . فضله انه يقف كترجمان بين الملهمين وغير الملهمين (كارليل) **فمن هو هذا الناقد؟ ما صلاحيته وما ثقافته؟ وكيف يقف بين الأثر الأدبي والآخرين؟** أولاً يكون في وقفته هذه سداً ، في الوقت نفسه ، بين القراء والعمل الأدبي ؟



صفات الناقد وثقافته :

ان النقد الأدبي ، في اساميه ، وظيفة فكرية، مادتها المنتج الأدبي ، باعتباره ان مبرر وجود هذا الاثر نفسه لا يمكن ان يكون الا بالتقارء وله ، فهو الذي يعيد خلق هذا النتاج باستخدامه ومطابقته له . واذا الاديب نتيجة لروح وشكل تفاعل تحصل من عوامل كثيرة اجتمعت وانصهرت لتألف في كائن جديد ، يؤكد بأنه ليس عملاً من أعمال البنية الانسانية (كالشمي والاكل) بل هو شكل أو جزء من النمو الاجتماعي أو الحضاري . فان الاصول والادوات الجديدة في النقد ، والاتجاهات في البحث ، تعتمد في أكثر احوالها ، على

العلاقة على اساس من الثقة والاطمئنان . إلا ان علاقة الكاتب بالناقد هي على الاجمال علاقة قلق وحذر وحرب قد تكون سخنة وقد تكون باردة . وكان من الأخرى ان تكون علاقة اطمئنان وثقة وسلام لوصلت نية الناقد واستقامت موازينه واخلص لنفسه ولعمله (٣٣) . فهو اذا يرد باعثها الى الناقد ويعتبره مسؤولاً من شكلها . ولعل علي اهم يفسر ، في شكل أو في آخر ، جانباً مما يضمنه قول نعيمة هذا « من الطبيعي ان ينظر الناقد بشيء من الحسد الى الخالقين الوهبيين الذين يعبرون في سر وسهولة من احزانهم ومسراتهم ، ويرخون الضمان لخيالهم الموجد وعواطفهم الجاشنة ، في حين انه محروم من هذه القدرة الخارقة ولا يحسن سوى التحدث مما ينتجه الآخرون ، وشرحه وتفسيره . (٣٤) »

وهو اذ يفهم النقد غربلة لمجهوداتنا الأدبية المشتركة لتجيب جيداً من رديتها ، وهو اذ يرى ان الآترة اساس الملكة النقدية ، وهو أخيراً ، اذ يفصل في الصلاقة بين الكاتب والناقد ، يتأني لنا بان بحث نعيمة في المفهوم النقدي لا يقوم على فلسفة فنية معينة ، او على اساس اتجاه مذهبي متعدد ، او هو يستل من نظام فكري فلسفي مترابط الاجزاء فيكون النقد نتيجة له على غرار المذاهب النقدية الأوروبية ، وهو لا يطرح مشكلة النقد على اساس انه فن هو أو علم . او هو لا يبين علاقة النقد بالعلوم الانسانية والسمانية الاخرى ، كعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم اللغة ... وبالتالي لا يبين نوع هذه العلاقة ودرجاتها بل في رايه ، وبعيداً عن أي تعقيد مهمة النقد اكتشاف سر الحياة الذي تكتنفه الآثار الفنية.

(٣٢) دروب ص ١٨٥ .

(٣٣) علي ابراهيم - علي هاشم الاديب والنقد (دار الفكر العربي ، مصر . لا . د) . ص ١٢٤ .

(٣٤) الفريال ص ١٧ - ١٨ .

محجة لنزوحها في النقد هو الرائد الذي منبته،
والناقد الذي منسبر على حدوده (٣٢) .

نحن نكون المناخي تراكما يورث الضل
ويبعث الشوه في أذواق الناس وملكتهم وإذا
لا يعود الزمن أكبر مغربل ابن منه غرايل
الناس (٣٣) ، يكون وجود الناقد منارا لا لكشف
الظلمة من ذلك الماضي لتحسن حقائقه ،
وحسب ، بل لإمكان تنبؤه بالفد وإطلاعه
عليه ، فيكون له السبق في استشراف القيم
الجديدة ، أي ، هو ، في حالات خاصة ،
يوقظ جيلا من الشعراء كما فعل **إموسون** ،
وقد يمين موضوعات الأدباء يكتبونها مثلما فعل
جورجي ، وقد يغير اتجاه الفن أو يحاول ذلك
مترسما خطى **تولستوي** وخطى **بولو** والنقاد
الرومانسيين . أو قد يمد الفنان بموضوعات
محددة وقواعد وتقنيات علمية ... وإذا يكون
الناقد شبيها بمخرج فني ، يبين للقارئ
الروح التي يجب أن يستلهمها في سبر أعماق
الأثر الأدبي فلا يكون (هذا الأمر) ثابتا ونهايا
عند فراغ المؤلف من كتابته ، بل هو ، في
الحقيقة ، ينتهي مع النقد . وهذا الناقد
القادر على كل ذلك يخلق وفيه ملكة فطرية
لهذا النشاط ، فهي لا تكتسب اكتسابا — كما
ادعى اليازجي — بالمطالعة أو باللمبة والممارسة
أو بأي سبيل آخر ، فهو من طينة النقد أي

فروض (٣٥) أصبحت أساسياتي الفكر الإنساني
الحديث وميزة له . وإذا القارئ عاجز ، كل
مرة ، عن الاهتداء وحده ، وبسهولة ، إلى
المقاصد والإبعاد الحقيقية التي يكتنرها الإبداع
الأدبي ، كان على الناقد إذا صيد المسك
بالقارئ في يد ، والمسك بالرائد الأدبي وصاحبه
في يد أخرى فيساعد القارئ على فهم العمل
الفني وتذوقه ، ويساعد الفنان على أن يفهم
منه ويقومه ، ويمين على تقدم الفن وتطوره
بتمميم الماير المطلوبة أو بتحديدنا وجهيزها
فيكون الناقد بالتالي مستقبلي بثلاثة اهتمامات
واضحة : أولها الأدبي المبدع والخلفية الفكرية
التي استمد منها مقدماته بل كانت مدار وروح
نتاجه ، وثانيها العمل الأدبي نفسه ككائن
أصبح ما بينه وبين مبدعه مسافة ، فلم يعد ما
أراده الأدبي بل يصبح له استقلاله النسبي
وقوانينه التي تحكمه نفسه ، وثالثها القارئ
الذي هو ، بالنهاية ، مركز جميع هذه
المقومات والاهتمامات . فمن هو ، في رأي
نعيمة ، هذا الناقد الذي هو حاجة ضرورية
في المجتمع تبلغ مسؤوليته مبلغا دقيقا وخطيرا
إذا نأنا في حاجة إلى الناقد لأن أذواق السواد
الاعظم مثلا مشوهة بخرافات رضعناها من لدى
أمننا ، وترهات اقتبلناها من كف يومنا ،
فالناقد الذي يقدر أن ينتشلنا من خرافات
أمننا ، وترهات يومنا ، والذي يضع لنا اليوم

(٣٥) يعود الفصل في هذه الفروض ، بالفروجة الأولى ، إلى أربعة علماء كبار من مفكرى القرن التاسع عشر ولواكلى القرن
الضشرين وهم : دارون (منه جاءت الفكرة بأن الإنسان جزء من الطبيعة وأن الحضارة تطورية) وماركس (التقليل بأن
الأدب هو الذى يعكس ولو بطريقة معقدة متوترة أحيانا ، العلاقات الاجتماعية ، والإنسانية لهذا العصر أو ذاك) وفرويد
(الذى يرى أن الأدب تعبير ملغى وتطيق لرغبات مكتومة قيسا على الأخلاق — وأن هذه المثلثات تصال حسب مبادئه
معروفة ... وفكره أن هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعي وأن بين الرقيب والرفيق في التعبير صراعا
مستترا) وفريزر صاحب الأفكار عن السحر البدائي والأسطورة والشعائر البدائية ... كلها تكمن في أساس
أعلى النماذج الأدبية ، يضاف إليها فكرة السلوكيين بأن الأدب ليس إلا رجلا يكتب رجلا يقرأ ولا شيء غير ذلك ،
وفكرة التقليين بأن الأدب قابل للتقليد » ... للتفصيل في هذا الموضوع راجع ستانلى هايمان : النقد الأدبي ومدارسه
الحدثة ج ١ ص ١٥ وما بعدها .

(٣٦) الفريال ص ١٧ .

(٣٧) راجع « في مهب الريح » (ط ٢ ، دار صناد ، بيروت ١٩٦٢) ص ١٦٤ .

لاوجود له على الإطلاق . (٤٠) من هنا كان الناقد شرك الكاتب في طبيعة العمل ومهمته، مسيله أن يبصر الأشياء على حقيقتها ، محاولا أن لاأسود بين الناس غير روائع الآراء ، صادقا مع نفسه في مايلذهب إليه ، فعندما يعطى « من وهج روحه مقاييس للحق والخير والجمال » ولا يعيش على حساب غيره كالفيليات ، عندها يرفع النقد الى مرتبة الفن العالى ويسر الأدب بأن يتبناه ويعتز به . فهو مرشد من مرشديه ومنارة من مناراته وبار من بناة ، وكثيرا ما يكون نقده من قوة الأشماع والأقناع بحيث يقضي قضاء مبرما على اتجاه قديم في الأدب ويدفع به في اتجاه جديد ... انه روح الثورة في الأدب (٤١) ، وإذا قد بفعل النقد ، حيناً ، سقى الحركة الفكرية - ما لا يستطيع الأدب وحده ان يقوم به . فهو حديث مباشر مع القراء ، يشرح الأشياء ويكشف عنها الغوامض والأسرار التي اكتنفتها هيلة الإبداع والتوليد . فيكون روح الثورة في الأدب ، أى ان النقد الخلاق هو المصدر وهو السبيل ، مما ، في التمهيد لمنازع جديدة وفى القضاء على اتجاهات قديمة ، أو قل هو محك الأدب يستظهر منه طاقة الحياة فيه وأسباب الجمود والموات أيضا ، فلكي يقضي نعيمة على نوع الأدب السائد أثناء لد (النازع الى القديم والقائم على براسة الأسلوب والبهلوانيات اللغوية والرياضة الكلامية) لم يجد غير النقد سبيلا يتعمده للقضاء على ترعات الماضي وللتمهيد لأدب جديد ، مغاير (ينزع للانسان) فكان الممدك الأول لبنائه الأدبي على الإطلاق .

هو يكون ناقدا ولا يصبح كذلك ، فيقرر حسب هذه الملكة الطبيعية والأصيلة (وإذا الثرة) مقاييس وقواعد تتبع منها فتكون شكل رؤيتها للحقيقة وكيفية تمثيلها لها « هناك خلة لا يكون الناقد ناقدا اذا تجرد منا وهى قوة التمييز الفطرية . تلك القوة التى توجد لنفسها قواعد ولا توجهها القواعد ، والتي تبتدع لنفسها مقاييس وموازين ولا تتنمها المقاييس والموازن ، فالناقد الذى يتقيد « حسب القواعد » التى وضعها سواه لا ينفع نفسه ولا متوقده ولا الأدب بشيء » (٢٨) من هنا التأكيد على شخصية الناقد تأكيدا لا يحد ، وعلى مؤهلاته الطبيعية فيه وأهمها قوة التمييز ، لان النقد ليس « حكما » فقط بل هو قبل كل شيء « تمثيل » و « تمحيص » و « ترتيب » فى مرحلة أولى . وإذا فدراسة القواعد وتطبيق مميزات النقد وتقنياته لا تطلع ناقدا ، بل فى ذلك خيانة لحقيقة النقد والأدب على حد سواء ، إذ ليس من مهمة الناقد التعليق أو الدلال على العايب أو المحاسن فى النص الأدبى ، وكما تترامى له ، وهو لن ينفعه فى ذلك براسة أسلوب أو طابع تهكم وسخرية ، (٢٩) لأن فى ذلك قتل للروح المبدعة فيه ، وفهما سيئا لوظيفته ، إذ الناقد خلاق ومبدع ولا شيء آخر . يتوسل الى ذلك « بالمعرفة » و « التمييز » و « الإحاطة » « للحق » و « الخير » و « الجمال » . فالناقد الذى يتعرض الى اثر من الآثار الأدبية عليه ان يعرف الحق وان يعين الخير وان يحيط بسائر صفات الجمال ، كيما يحل له أن يصغر حكمه فى ذلك الأثر . إلا ان مثل هذا الناقد

(٢٨) الغريال ص ١٧ .

(٢٩) دروب ص ١٨٢ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٧٢ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٨٢ .

مبدع ومولد ومرشد مثلما هو محصن ومثمن ومرتب . فالتنقد ، في النهاية ، حالة خاصة من المعرفة بحيث أن الناقد الأصلي هو الذي يجعلها شكلا من الحس ، يحولها الى نمط من الشعور خاص به » فهو مبدع عندما يرفع النقاب في أثر يتقده عن جوهه لم يهتد إليه أحد حتى صاحب الأثر نفسه (٥٥) . **والذا يعتبر أولا** أن الإنتاج الأدبي ليس وليد خفية فكرية يلتزمها الأديب ويسمى الى البائتها وتحقيقتها ، بكل وهي وأرادة فيكون بالتالي مارفا بجميع أبعادها وبنائها وخفائها ، وإنما يقدر أنه يصدر عفويا من نفس صاحبه مع شعور بالقرية منه، أي الأديب ، قد لا يعرف جميع أسرار مولوده الأديبي ، « ما أكثر ما تناولت قلمي وفي نيتي أن أكتب كيت وكيت وإذا بي أكتب غير مانويت كتابته ، حتى ليبدو لي أحيانا أن يدى ليست وحدها التي تقود قلمي . أو أن قلمي ليس وحدي » (٤٦) وإذا هو في موقف شبيه بموقف القارئ **ويعتبر ثانيا** أن مع الناقد ، وهنا ، يتكامل الإنتاج الأدبي من حيث ولادته وتلقفه. **فالتنقد « اكتشاف »** (٤٧) للموهبة وكشف عن ماهيتها . من هنا فإن روح الخلق الأدبي وروح النقد الأدبي من نوع واحد « وفي اعتقادي أن الروح التي تتمكن من المحقق بروح كبيرة

الذات هي الأصل

وعلى هذا يكون الناقد الخالق مقاييسه من نفسه والقادر على حمل القارئ والكاتب معا على احترامها والإيمان بها ، اتقى بصيرة وأوسع أفقا وأسلم ذوقا وأصدق نية وأبقى حرما وأشد ثقة بنفسه وبمقاييسه من قارئه ومن منقوده (٤٨) . وهنا يفوق الناقد الكاتب في درجة الملكات أو مستواها ، فلكي يستطيع أن يدخل ، عبر الأثر ، في تواصل مع الكاتب عليه أن يكون أولا من طينة الكاتب « من حيث ملكة الإبداع ، ومن ثم مايملك هو من ملكة أخرى مهمتها محاوره الكاتب ، وبالتالي فالناقد قادر أن يكون أدبيا أيضا من حيث الشعور بالحالة المولدة الواحدة ، لا من حيث طبيعة النوع الفني الذي يختلف باختلاف نشاطات ومجالات التعبير . « فلكي تكون نافذة ممتازا يجب عليك أن تكون مؤلفا جيدا، فالوهبة تسمح بتلمس نظرات جديدة وتدفق بالناقد قدما لتبين مقاييس في الجمال لم توجد بعد . (٤٩)

الناقد مبدع أيضا

لا يقتصر عمل الناقد على ملاحظة ما هو أمامه وتمحيصه ، وتثمينه وتربيته (٥٠) فهو

(٤٢) المرجع نفسه ص ١٧٨ .

(٤٣) Villemain (1870—1870) = Discours sur les avantages et les inconvenients de la critique.

(٤٤) يرى فردينان برتكتير (١٨٤٩ - ١٩٠٦) في مقالاته من النقد في « دائرة المعارف » أن غرض النقد : التجميع والتصنيف والحكم . ويشرح والتجميع على أنه تعديلات الأثر بالتاريخ العام للأدب ، وبالبيداه الخاصة لنموه الفني ، وبالن أن الذي طلع فيه ، وأخيرا بصاحبه ، ويكون شرح الأثر يعني تعديد موقعه من الحركة الأدبية وطورهها وليست دراسة الظروف الجغرافية والاجتماعية فيه معين لأن فهم هو تعديد موقع الأثر في « الزمن الأدبي » . والتصنيف والحكم هما عمل موضوعي غير شخصي لذا نطلبنا اختيار « الروح الأدبي » من جهة ودور وظيفة النقد من جهة أخرى .

(٤٥) الفريال ص ١٨ .

(٤٦) سيمون (المرحلة الثالثة) ص ٢١٠ .

(٤٧) الفريال ص ١٩ .

ان الناقد هو محور العمل النقدي ، دائما ، كما الإديب محور الأدب (٥١) ، فلا قيمة لشيء إلا بالنسبة للإنسان ، بالنسبة لرؤيته ومقاييسه الخاصة به التي هي « بنات سماعات جهاده الروحي ورصيد حساباته الدائمة مع نفسه تجاه الحياة ومعانيها . وهي اذا تسامت ثم دعمت من الناقد بالأخلاص والحماسة والغيرة ومقدرة البيان سطت بقوة خفية على جماهير قرائه فاعطتهم وجهة جديدة وإيمانا جديدا (٥٢) وهكذا فبحركة تكاملية يصبح الناقد ، بدوره ، كاتبا لا ادعاء بذلك المرتقى ، بل رغبة في أن يكون كذلك ، اذ الكاتب لا يمكن أن يحدد بمقاييس الدور أو القيمة ولكن بالنسبة « لضمير » الأدب وحده . فعلاقة الناقد بالآخر الأدبي هي علاقة الشكل بمعناه ، والناقد لا يمكن أن يزعم ترجمة الآخر الأدبي وتفسيره وتوضيحه اذ ليس أكثر وضوحا من الآخر الأدبي نفسه ، ومن ثم ما قيمة نص أدبي بحاجة الى شرح وتفسير ؟ ، ما يمكنه هو أن يلتمس اتجاهها يشتقه من شكل هو الآخر نفسه . وبالتالي فالناقد يثير أسام النص الأسباب نفسها التي يثيرها الإديب أمام العالم وأشياءه .

غير أن هذا المنطلق التائري العامل بمنطق الدوق واحكامه إنما هو امتداد طبيعي للقلق المتوهم عنده باستمرار ، فنقل انكاره عن الحق والخير والجعل من الموضوع الى الذات والتكرار لهذه المجردات وجودا مطلقا أو ملتصقا بجوهر الأشياء والأفعال ، مؤكدا ان وجود هذا التثاقل (من كيان الحياة) هو في ذهن الإنسان وحده (لا في خارجه) مصدر

في كل نزاعاتها وتحوالاتها فتسلك مسالكها وتستوحى موحياتها وتضعف وتهبط صعودها وهبوطها هي روح كبيرة مثلها (٥٣) . وهكذا فالتفريق الاصيل بين الناقدين والمبدعين في الأدب لا يملك أي معنى أو قيمة ، أو هو لا يمكن أن يكون إلا مع النقد من الدرجة الثانية . وليست هذه الفكرة جديدة في تاريخ النقد ، بل لها أسبقاها وخاصة في النقد الفرنسي انطلاقا من سالت بوف (١٨٠٤ - ١٨٦٩) وارتقاء بيارسيل بروسست (١٨٧١ - ١٩٤٥) وأندريه سوباريس (١٨٦٨ - ١٩٣٩) و (اميل شارتييه) الآن (١٨٦٨ - ١٩٥١) فلا يعود النقد حكما ، بل هو فهم الآخر وإعادة خلقه ، أي ان الناقد قادر على إثارة العواطف والمشاعر المختلفة وإن يعيش من جديد التجارب نفسها . يقول دويو : ان طريق النقد المثالي هي طريق الأبداع ولكن بأن يسلكها الناقد باتجاه معاكس . فهو يبدأ من حيث ينتهي المؤلف لينتهي من جديد حيث بدأ المؤلف أيضا ... ذلك انه من النادر أن تبدو لي حقيقة متميزة من صانعيها ... ان كل شيء يبدو لي حقيقيا بالنسبة للقوة التي ابدعته ، فعلاقة التعبير الفكري والإصالة التي تختفي وراءه تبدو لي معنى علاقة مشابهة ومماثلة (٥٤) وهكذا يكون الناقد أيضا مولدا « لأنه في ما ينقد ليس في الواقع إلا كاشفا نفسه ، فهو اذا استحسن أمرا لا يستحسنه لأنه حسن في ذاته بل لأنه ينطبق على آرائه في الحسن ، وكذلك اذا استهجن أمرا فلمدم انطبق ذلك الأمر على مقاييسه الفنية (٥٥) أي

(٥٨) المرجع نفسه .

(٥٩)

(٥٠) الفريال ص ١٩ .

(٥١) الفريال مقالة « محور الأدب » ص ٢٢ - ٢٨ .

(٥٢) الفريال ص ١٩ .

الاطلاع على النصوص ان تؤكد باستمرار ما تحب وما تكره ، لأن في ذلك ، بالنهاية ، انطواء نفسيا وجدانيا لا يقود الى اى ارتقاء ، او الى ادراك ما في القيم من تنوع لا ينفد . وعندنا ، ان نعيمة حينما دعا الى اقامة الحد الفاصل ما بين شخصية الكاتب وما يكتبه لكي يسهل فهم الغزيلة الادبية والقصد منها (كما سنرى في المقاييس النقدية منذ نعيمة) انما كان يتحول الى اقامة علاقة شخصية اخرى ولكن ما بين الناقد والنص الادبي ، هذه المرة ، وبالتالي ، فالناقد كالنفسية والتاريخ ، نوع من القصة في متناول نخبة تلاحظ وتهم ، وكل قصة تمتع من السيرة الذاتية ، والناقد الحاذق هو الذي يكشف نفسه عبر روايات الانسار ، فاذا كان الشاعر يتلمس المجال الذي تفتح فيه موهبته وتحييا فان الناقد يتلمس بغيرته وما تنص عليه موهبته (٥٣) فيبعد النقد من ان يكون علما بالمعنى الدقيق والشامل ، بل هو تفتق فني . من هنا يتبدى من جانب ، نوع العلاقة بين الناقد والكاتب ، انه من ثم مرشد « لانه كثيرا ما يرد كتابا مغرورا الى صوابه ، او يعيدى شاعرا ضالا الى سبيله (٥٤) ولكن ليس كل ناقد كذلك (مر معنا آتفا ان لافضل للناقد على الكاتب) . غير ان خاصة الارشاد هنا تأتي نتيجة حتمية وطبيعية لخاصة الابداغ والتوليد في الناقد . ولكن كيف تتم هذه الوظيفة وما مداها في التجربة النقدية ؟

الناقد مرشد :

كثيرا ما يكون الاديب ، غير موفق في اختيار مجال نشاطه ، اى يكون ضالا سبيله . (هنا تعارض مع موقف آخر اصيل ودائم منذ نعيمة يقول بان الادب ولادة فطرية في نفس صاحبه ،

الحكام على الاشياء والافعال . وهكذا فني مثل هذا الجرح من الذاتية لم يعد للناقد مجال الكلام على مقاييس واضحة للادب فلم يبق امامه الا الشعور بتمتده في احكامه . فنقد الادب كثيرا ما يكون ، عنده ، عملا شخصيا كالتأليف الادبي سواء بسواء . غير ان شعور الناقد او القارىء (رضاه او نفوره) عما يقرأ ، ناشيء في الحقيقة ، من انه وجد ما يحبه وما يعيل اليه او ما يبغضه ويكره . وهنا شيء من خواص نفسه وميوله الذاتية ، اى كانه وجد نفسه فيما يقرأ لا نفس الكاتب ، واصعب بعبوله الكاتب وآرائه ، وهكذا ترفع قيمة الاديب او تتلاشى بمقدار ما يعبر عما يدور في خلد الناقد (او القارىء) **فنعيمة يقيم شأننا عظيمًا للانطباعات الشخصية .** الا ان النقد لا يحتاج الى مثل هذه التعبيرات من هذه الانطباعات وتعليلها ، لانها ليست في حقيقة امرها ، الا انكاسا مباشرا بشكل او بآخر ، لاهوائنا فيقع الناقد في خطأ مبين ، اذ لا يعود يرى الاشياء بقدر ما يرى نفسه . ذلك ان تحكيم مستوى ذوقى معين - مهما بلغ نضج هذا المستوى - انما يصدر من موقف سيء : فهو يسلب الآخرين حريتهم (الاديب والقارىء) ، بل لشدة التصاقه بالنص الادبي لا يمكنه ان يراه يوضوح . اوليس البعد عن الانس الادبي بعدا معقولا ومقبولا يسمح من تقديره قدرا اوفى ؟ بل ان هذا التحكم الذوقى هو شكل من اشكال الانصراف عن حقيقة التفهم لانه لون من الانانية والاسراف في تأكيد اهتمامات معينة لا تبقى الحياة اميرتها ، بل تتسع لها ولغيرها . فكان على نعيمة ، يسلب ان يعكف على ترديد صوت نفسه وفيهما دون ملل ، ان يتوجه الى ارساء اصول الفهم ودراسة مغالطاته ، اذ ليس الغرض من

فنية وفكرية ، جديدة ، هي امتداد لقيمه او مقاييرها . فمن التماس معها والاحتكاك بهذا الكشف تتولد امكانيات جديدة باستمرار .

وعلى جميع مانقدم من خصائص الناقد ، نستنتج ان للناقد ، عند نعيمة ، شأنا في ذاته ، ينبع من شأن موافقة نفسها وليس من قوة اخرى . فهو يد اب في تأكيد ما يذهب اليه لا بواسطة قواعد او اصول او موارد خارجية عنه ، لان ما ذهب اليه ايضا ليس من منطلق خارج عنه ، بل سبيل تجميع موافقة والبتها يعود الى نفسه والى قوله بالذات « ولا قوة تضمها (القاييس والموازين التي تكون لكل ناقد) وتظهرها قيمة صادقة سوى قوة للناقد نفسه . وقيمة الناقد هي ما يعطى به سطوره ، من الاخلاص في النية والمحبة لمهنته ، والغيرة على موضوعه ، ودقة الدوق ، ورقة الشعور ، وثيقظ الفكر ، وما أوتي به بعد ذلك من مقدرة البيان لتنفيذ ما يقوله الى عقل القارئ وقلبه » (٥٧) موقف يذكر بما يراه **أنتال فونسي** في « أن النقد لا يقدر إلا تبعاً لشخصية صاحبه ، والأكثر ذاتية منه هو الأكثر فائدة وأهمية » (٥٨) .

بواصت النقد

البواصت التي تعطي النقد مركز التقدير هي نفسها البواصت التي تعطي العمل الأدبي وجوده وكيانه :

١ - اخلاص في النية ، أي أصالة متمكنة لاتحيد من الحق والحقيقة رافضة ان تقيم أي

واذا لا يصدر من الفطرة والعفوية إلا مايعسها وما يخصها ، فاية فطرة هذه صادقة تنتج في مجال ما فإذا نتاجها في مجال آخر ... هذا الكلام لا يصدر من موقف سليم وصادق في مفهوم الادب وابداه : فلما أن يكون الاديب لهذا المجال من نفسه وبها ، أو لا يكون اديبا . ألم يقل « من كان معدا للادب كان في غنى ممن يدلّه على طريقه ، ففي داخله ومن خارجه حوافر لا تتركه يستريح حتى يتم التزاوج ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والمقتراس » (٥٩) . فبالى الناقد ليهدي هذا الاديب الى فرعه وبذله بالتالى الى المجال الذي يصلح فيه . وعندنا « أن قيمة هذا الامر ضئيلة من حيث المتوخى من هذا الاديب بالذات . اما ان يكون الناقد مرشدا من حيث انه يكشف من مواهب الكاتب الثمينة وودائمة النفيسة التي ضلها القراء فاذا بسخرهم من الاديب ينقلب تمليلًا وتكريما له ، فهو امر واقع بل هو جانب من اهم جوانب المهمة النقدية . فمثل هذا الكاتب والشاعر هما هدية الناقد الى الامة والبشرية » (٥٩) وإذا هو مرشدا للقراء (ليس الناقد غير رجل يعرف كيف يقرأ ويعلم الآخرين كيف يجيدون القراءة (سانت بوف) . وما يريد أن يطمحه للآخرين هو الحس الجيد والقياس الصحيح دونما فرض لاية قواعد حاجزة او احكام مسبقة . وهو مرشد للمؤلفين ، ولكن لا من حيث هديهم الى النوع الفنى الملائم والمناسب للمكانهم الابدائية (الملكة وحدها تقرر نوعها الفنى » لان النوع الفنى متدنا هو شكل هذه الملكة أي لا يمكن ان توجد وتظهر (ابه) بل من حيث الكشف ، على طريق الفنان ، من قيم

(٥٥) في مهب الريح ص ١٧٢ .

(٥٦) القريال ص ٢٠ .

(٥٧) القريال ص ١٦ .

(٥٨)

الناقد يتشوق ليخلق

غير أن القول بهذه البواصت والمناصر ، لا يعني ، في نهاية الأمر ، بأن يكون الناقد هو الأديب ، أو أنه لا يجوز ولا صلاحية لناقد فن من الفنون الأدبية إلا إذا كان هو نفسه من ابتداء ذلك الفن . وهنا مذهب قبل باخلاص وصدق عند العرب ، إذ المشكلة قائمة قديما في النقد العربي ، وذهب النقاد العرب فيها لمذاهب شتى ، ولعل ابن رشيق يخلص طابع مذهبهم ذلك حين يقول بأن « أهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته من نحو وغريب ومثل وغير وما أشبه ذلك ، ولو كانوا دونهم بدرجات ، وكيف وإن قاربهم أو كانوا منهم بسبب ! » وقد كان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر في حجة هذه الصناعة ، أمضى النقد ، ولا يشقون له غيارا لنقاده فيها وحلده بها وأجارتها (١١) .

أي أن الناقد الشاعر أبصر عنده من الناقد غير الشاعر . ولكنه يقبل أيضا وبجهاض بأنه ليس من الضروري على ناقد فن ما بأن يكون هو أولا من ابتداء ذلك الفن المنتجين له « وقد يميز الشعر من لا يقوله كالبراز يميز من الثياب مالم ينسجه ، والصبري يخبر من الغائب مالم يسكبه ولا ضربه ، حتى أنه يعرف مقدار ما فيه من الفس وغيره فينتقص قيمته ... » (١٢) وهو عين ما يذهب إليه نعيمة حين يرد على ذلك الإدعاء بقوله مستشهدا بجواب أحدهم وقد سمع هذا الاعتراض عينه « أهلي! أن أبيض البيضة إذا لأعرف ما إذا كانت صالحة أو فاسدة ؟ » (١٣) ولعل ذلك

شأن لما هو خارج من عملية النقد (كالملاقات الشخصية بين الناقد والمقود فينحاز النقد إلى التحليل أو إلى التحقير بما تنوع العلاقة على غرار ما رأينا في الفصل الأول من هذه الدراسة) .

ب - يستتبع هذا جبه لهنته وغيره على موضوعه ، فحيث لأحب لا حق ولا جمال ولا عطاء . فسمعة النقد السلبى ، أفقاده لعنصر الحب هذا (١٤) إذ يورث فيه التزام عمله النقدي الصافي فيكون همه ، وبالتالي لا يقبل فيه الزبح ، لأنه يصدر من دقة في الدوق ورقة في الشعور وتيقظ في الفكر . فيتأني لنا أنه يريد أن يجعل من النقد عملا صعبا ، يعلم الجمهور ظواهر الأثر الأدبي الجميلة والمختلفة وأن يصل مبرها بين مختلف المبررات (سانت بوف) . وهو إذ يقيم لهذه الأمور الوزن الأكبر فلا يغفل الحديث على ملكة التعبير عند الناقد وطريقتها وقوتها ، لأنها تنتمى للعناصر الأولى ، وهو إذ يضعها في درجة ثانية لا شيء إلا ردة فعل لما ذهب النقاد قبله من اعتبار النقد سبيل رياضية لغوية قبل كل شيء . فما أشبه الحالة التي يصدر عنها هنا بحالة **فلوير** حين كتب (١٨٦٩) إلى **جورج صاند** من موضوع الناقدين فقال « كان الناقدون في زمن **لاهلوب** نحويين ، وفي أيام **سانت بوف** وتين مؤرخين فمتى يصبحون فنانين حقا وصدقاً (١٥) . فمتى نعيمة اعتبار كبير لطريقة العرض النقدي ، إذ أنه يؤمن بأن كثيرا من الناس يملكون الحقيقة ولكنهم مرمان ما يقدونها من طريقة عرضهم لها .

Ernest Hello, L'Homme (la vie, la science, l'art) 1872.

(٥٩)

(٦٠) ستانلي هايم ج ١ ص ٢٧ .

(٦١) ابن رشيق ، المعنى ج ١ ص ٧٥ .

(٦٢) المرجع نفسه .

(٦٣) الفريال ص ٢٠ - ٢١ .

(النفس) وهو في كل هذا إنما يصدر عن موقف أدبي واحد إذ يعتبر الإنسان محور النتوج الأدبي ، وإن سلطان الأدب في أنه أبداً يجول في اقطار النفس باحثاً عن مسالكها مستطلعا آثارها بصرف النظر عن شكله ، فليس هو معرضاً للازياء اللغوية والبهرجة العروضية (١٥) فإذا معه يتحول النقد إلى وسيلة للتجليل النفسي بديل للاقتصار على الكشف عن الإخطاء اللغوية أو تبيان المعاييب والمساويء كما تحول عن النقد مع سانت بوف « من فن مساعد للتاريخ إلى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف أسرار النفوس » (١٦) فدراسة الأنا التلقائية ، أي الشخصية الطبيعية والخام ، هي إحدى وظائف الناقد الهامة . بل وظيفته الأولى على الإطلاق عند نعيمة . فالمر الحقيقى عند مؤلف لا يمكن أن يكون إلا في نفسه ، لذا كان من الأحرى على الناقد أمام كل نص أو أي نص ، أن يسأل نفسه : إلى أي مدى وبأي مقياس استطاع المؤلف أن يكشف عن نفسه الحميمة فيكشف ، في أن ، عن حقيقة الكون ومجراه (١٧) ؟ إن ناقداً كمثل هذا الناقد يمتاز بخصائص وصفات طبيعية فيه من نفسية متصلة « الاخلاص ، الطهارة ، الجراءة ، الدوق ، الشعور ... » وفكرية منيظة و طاقة تعبيرية نافذة يكون رائداً لا يعدم أناساً ينضوون تحت لوائه ويعملون بمشنيته ، فيستجوبون ما يجب ويستجوبون ما يستجيب ، فيصبح وهو وراء منضده ، سلطاناً تامر بامرهم وتمذهب بمذهبهم وتنحلي بعلاه وتنذوق بلوقه الواف من الناس . إذا طرق مسبيلا سلوكه ، وإذا صب نعمته على صنم حطموه ،

يعود إلى بعض المفارقات البديهية ما بين النقد والأدب ، فالأدب يعتمد ملكة الخلق بينما النقد يعتمد ملكة التمييز . أي أن الأديب يخلق الأشياء ليتذوقها ، أما الناقد فيتذوق ليخلق . فهما شريكان ، لا في نعت التأليف ، بل في القدرة على الشعور بالحالة نفسها والتجربة ذاتها اللتين صدر منهما العمل الأدبي « غير أن من الناس من لا يدركون أن من لا ينظم القصيدة قد يقرأ فيها أكثر مما أودعها ناظمها . فرب ناقد لم ينظم في حياته بيتاً ولا حرف مافي النظم من مشقة الأوزان والقوافي ولا من لذة الفوز بها ، غير أن ذلك لا يعوقه عن ادراك مافي الإفصاح من عوامل النفس من لذة روحانية ، ولا يصعبه من كموجات الألوان في الرسوم الكلامية ولا يصعبه من رنة الألحان في مقاطع الألفاظ والمعبارات . والا لا يكون ناقداً . وإذا تيسر له ذلك ففي إمكانه الدخول إلى مستودع روح الشاعر وتفقد مخبأته إلى أن تتولد فيه حالة نفسية كالتي تمحضت في الشاعر بتلك القصيدة . فيصبح الناقد كأنه الشاعر وكان القصيدة من وضعه . وإذا ذلك لأحاجة به أن يكون عالماً بكل دقائق العروض ليفهم الشاعر ويقدر نتائج فريحته (١٨) فيكون دون الشاعر أن ينقل الحالة كما هي ليأتي الناقد ويعيش هذه الحالة نفسها ، يمدد خلقها من جديد ليحلل خباياها وكنوزها . وإن يعمق الناقد شكل النتاج الأدبي إذ همه ما يجعل هذا النتاج من عوامل النفس ، فهو لا ينظر إلى كيف قال الشاعر بقدر ما ينظر إلى نوع ما قاله ، ففرضه تحليل الحالات النفسية للفرد وللوسط اللذين أطلعاه ، أي أن الناقد يتجه في بحثه اتجاهها يعتبر النص كصورة صاحبه المنتج له (التحليل

(١٤) الفريال ص ١٧ - ٢١ .

(١٥) الفريال ص ٢٧ .

(١٦) راجع لسطاسي الحمصي ، منهل الوارد في علم الانتقاد ، ج ١ ص ٩٠ .

(١٧) هذا ما يقول به P. Valéry راجع P. Valéry P. 135-145. M. Bémol, la méthode critique

تسليطها على النقد الأدبي ، أي لن يبقى للناقد إلا وقت قليل للتعرف على الأدب نفسه . وإذا دعا للتعرف على مآثر الآخرين ونادى بالترجمة « فلنترجم ولنجل مقام المترجم لأنه واسطة تعارف بيننا وبين العائلة البشرية العظمى ، ولأنه يكشف لنا أسرار عقول كبيرة وقلوب كبيرة تسترنا عنا غوامض اللغة يرفعنا من محيط صغير محدود ... إلى محيط نرى فيه العالم الأوسع فنعيش بانفكار هذا العالم وآماله وأفراحه وأحزانه . فلنترجم (٢٦) فلهوته هذه لا تحدّد - وعلى سبيل المثال - (تفكير نعيمة بكرة التحديد فهو يتجه دائما اتجاهات عامة) حاجة الناقد إلى علوم كعلم النفس والفلسفة والتاريخ ، وأية ضرورة تقتضيه إلى ذلك ، أوليس مرد النقد قبل وبعد كل شيء إلى اللوق والبصيرة ؟ أوليس الناقد أيضا كالشاعر يولد ولا يصنع ؟ ولكن هل يصيب اللوق وحده في كل مرة ؟ فلطالما أحس نعيمة بهذا الهاجس الذي كان يقلقه ، باستمرار ، فتراه في كل مرة يسارع إلى الطرف الآخر من الجدار والاحتمال ولا يجزم في الموقف الواحد جزما قاطعا فيستدرك « غير أن الناقد بن طبقات . كما أن الشعراء والكتّاب طبقات . فما يصح أن يقال في الواحد منهم لا يصح أن يقال في كلهم (٢٧) . وهكذا فإن نعيمة هنا ينزع إلى تقسيم (٢٨) **النقاد والشعراء إلى طبقات منزع** **النقاد القدامى** أنفسهم في تصور **الشعراء على أنهم طبقات** (ابن قتيبة : الشعر والشعراء) فيهتمون بالمفاضلة اهتماما بناس التحليل والكشف . غير أنه لا يبين لنا أيضا

وإذا أقسام لهم الها عبوده وبخروا له وسبحوه (٢٩) لأنه إنما يصدر في ذلك لا من فردية خاصة به (وهنا يكون الاختلاف والتفاوت بين الناس) وإنما يصدر - في تلك الخصائص المذكورة - عن الطابع العام والمناخ الطبيعي الذي يحدده أطوار عوامل كثيرة : الزمان ، المكان ، ومستوى الشعب الثقافي والفكري العام فيهما . فالناقد خير من يمثلها جميعا ويصهرها في بوتقة واحدة ، فهو في عمله إنما يصبر من الرأي العام لمحيطه فإذا قال به لا يكون غريبا . فالناقد يعبر بالفعل عما في نفوس قرائه من استعداد فطري للتذوق بالقوة . وهكذا لا يكون الناقد مقتلما من الأرض التي أطمته بل هو واحد من وسط ، يختلف عنهم درجة لا نوعا ، فليدبه قسط من الحساسية الحية أكثر من سائر الناس ، ومعرفة أشمل بطبيعة الخلق الأدبي ، وروح أوسع إحاطة بالنفاذ إلى حقائق الأشياء . وهو في كل هذا إنما يصدر من حقيقة لا ترد ، وهي أن شيئا لا يمكن أن يكون من لا شيء .

النقاد طبقات

إلا أن نعيمة لا يشير إلى نوع الثقافة التي يجب على الناقد اكتسابها وإلى نمط المعرفة التي عليه العمل بنورها . فإذا كان ازدهار النقد يفترض ثقافة واسعة أكثر مما تتطلبه الأشكال الأدبية الأخرى ، فإن نعيمة ، على ما يبدو ، لا يقول بالناقد المتخصص والمطبق لقوانين ونظريات العلوم الأخرى . فالعلوم تنمو نموا كبيرا مع الأيام ، حتى أن دراسة فرع واحد منها تستنزف العمر كله إذا أريد

(٢٨) الفريال ص ١٦ .

(٢٩) الفريال ص ١٦٦ .

(٣٠) الفريال ص ١٧ .

(٧١) طالعاً ترددت هذه التهمة إلى التقسيم عنده ، فهي تصدور من إيمان بأن « الناس من حيث قواهم الجسدية والعقلية والروحية ليسوا سواسية » راجع نعيمة : رسالة آل رضوان الشهاب .

على أى أساس يجرى هذا التقسيم الطبقي ؟ وإنما كل ما نعرفه أن الناقد كلما ملك من قوة التمييز الفطرية كان ناقداً أكبر . وبمقدار ما يسير فسور الأديب ويعرف كنهه ويحاور المبدعين الكبار بمقدار ما يكون ناقداً : « فظاهرة النقد الكبار الإعجاب بالشعراء » (هوغو) .

الناقد بنياته :

وكان طبيعياً أن يصل به هذا الحذر إلى النهاية الحتمية ليستنتج بأن « ... الناقد لا يتجو من زلة أو هفوة » . فقد يرى القبيح جميلاً ، أو يحسب الصحيح فاسداً وما ذاك إلا لأنه بشر والعصمة ليست لبني البشر (٧٢) . وليس في هذا القول ثمة تعارض مع ما قدمه من أن « الناقد مرشد » أو أنه حاجة ضرورية في المجتمع لانتشال الناس من الضلالت والثرهات ، وربما يصدر هذا الرأي من إيمان عميق عنده ، ببدا الصدفة ، أى أن الناقد - كذلك الكتاب - نتيجة لموامل معلومة ، يتكون ما تلميه عليهم ملكاتهم المبدعة ، وما صدف أن حمل من طاقة الحياة وامكاناتها يستطيع البقاء ويكون سليماً صالماً ، وإلا فلا وعلى هذا يمكن التفسير الوحيد لكثرة طلبه بأن الحياة هي خير شريال وأفضل ناقد ، لأن المسألة برمتها عند نعيمة ، أنها هي مسألة نسبية ، فما هو صحيح أو خطأ وما هو جميل أو قبيح هو كذلك بالنسبة للحياة ، فهي القوة الخفية التي تحفظ للأشياء بقاها أو تحرمها إياه . ويجب أن نأخذ معنى الحياة هنا لا على أنها مجرى العيش اليومي - وهو جزء منها - بل على الحاجات والمقاييس المشتركة بين بني البشر ، والتي تخاطب جوهر الإنسان الحميم والذي لم يتغير عبر

الأزمنة والأمكنة . فالحياة عنده خبرة شعورية وفكرية . ثم ليس من يقين مطلق في الحياة ، فما هو خطأ الآن قد يبدو صحيحاً في لحظة أخرى وتحت عوامل وظروف أخرى ، وما يبدو جميلاً في حالة قد يفقد شيئاً من جماله في حالة أخرى . من هنا كانت تخف وطأة زلة النقد ويتمدم خطرهما الفادح . « فلنحاسب الناقلين بنياتهم أولاً ، فإن اخلصوا النية فزلاتهم مغفورة لهم (٧٣) فالهم أن تكون النية سليمة » أى طبيعة نفس الناقد وأصالته ، خالية ، من أية شائبة ، عندها لا قيمة لخطاه ، لأن جوهره الإنساني صاف فيستطيع أن يعرض تلك الهفوة ، خاصة إذا كانت مقاييسه محكمة متناسقة وإجاد استعمالها فذلك حد ما يحق لنا مطالبة به (٧٤) - ليس لنا أن نسال الناقد لماذا يقف هذا الموقف من هذه المسألة . له أن يذهب في ذلك مع ما ترتضيه نفسه . أنه حر . المهم أن ينبثق عن نفسه ، كالأديب . وإذا لا يمكن درسه على أساس ما قل ، بل على أساس ما يرتبط بالنفس وما يكشف عنها في عرض مترابط منظم منسق الأجزاء والكليات . وعندنا أن الأمر ينطلق من موقف واحد من الأدب والفن عند نعيمة ، إذ لا يعتبر الأديب أو الناقد من غير طينة البشر (وهنا رد عنيف وقاس على أصحاب النظرية المعيزة للأديب من سائر الناس والقائلة بتفوقه النومي على البشر) بل هو يتكلم من الأديب الذي خال أنه جليل من غير جليل الناس ، فراح يلبس غير ما يلبسون ، ومن ذلك قوله بلسان ميشلين موجهاً كلامه اللاذع لجبران ذلك العهد « أنت خلقت للشعر والفن وأنت تعتقد أن الشعر والفن رزق من السماء . وأنا - كما قلت لي مرة - من التراب والتراب . وقد كنت اظن في بساطة قلبي أن التراب الذي

(٧٢) القريال ص ١٥ - ١٦ .

(٧٣) القريال ص ١٦ .

(٧٤) المرجع نفسه .

وظيفة هي من أهم وظائف الحياة (٧٧) .
وهكذا يبقى الاخلاص في النية المعيار الأول في
الحكم على كثافة النقد ومقدرتهم وصلاح
مناهجهم .

وعلى هذا يسير الناقد الأدبي موازياً
للأديب : له نظرة يتدبرها خاصة به ، تكونت
بطريقة عفوية طبيعية ، فيصبح بالتالي صاحب
دموة أدبية جمالية من خلال نقده فيضغ النص
الأدبي باعتباره مجالاً متحرراً . فليست
وظائفه إصدار أحكام أخلاقية مقنعة خفف
مظاهر الاستحسان أو الاستقباح الجمالي
فحسب ، بل هي وظيفة تشريحية أيضاً تفتش
عن « نسمة الحياة » وعن « المدي » بناء على
مقاييس واضحة ، وأصول تنبع من نفس
الناقد ، لأن النقد يدور حول الفهم والتدقيق
بالدرجة الأولى . غير أن هذا لا يعني أبداً أن
الفهم شيء والتدقيق شيء آخر ، أي أن الأول
يخضع للعقل والآخر ، يوضحه . أن الناقد
يقوم بمهمة النقد لأنه إنسان (لا مجرد آلة)
له اهتماماته ومبادئه ومعتقداته ، ومر بنجارب
أدبية وغير أدبية أليهتم بتحويل تجاربه
وخواطره وانفعالاته إلى مفاهيم .

المقاييس النقدية :

من الطبيعي أن مفهوم الأدب هو الذي
يحدد ، في شكل أو في آخر ، مفهوم النقد
واتجاهاتهم ، ويصدق هذا أكثر حينما يكون
الناقد نفسه أديباً ، فيصدر عن خلفية وجودية
هي روح نظرائه وجوهرها على تعدد مناحيها
واشكالها ، والمقاييس النقدية هي كل مفهوم
للقند ، وكمثل الأدب ، هي محصول نوعي

ينبت القمع الغدّي والزينة الطاهرة والوردة
الجميلة يصلح كذلك تربة للشعر والغن (٧٨) .
فهو إذاً لا يتم عن منظور أرسطرطقي في فهم
وظيفة الأدب والنقد ، وإنما يريد أن يرى
الأشياء والجمال والقوالب ... عبر حقيقة
النفس والحياة ، لأن لا شيء فوق النفس
والحياة اللتين تعطيان الوجود قيمته (الموجود
قيمة روحية : سنفصل هذا عند الحديث عن
المقاييس النقدية) من هنا إذا لم يكن للناقد
من فضل سوى فضل رد الأمور إلى مصادرها
وتسميتها باسمائها لكفاء ذلك ثواباً (٧٩) لأن
أساس العملية النقدية السعي إلى اكتشاف
ومعرفة حقائق الأمور والأشياء . المهم أن يبقى
مناراً ضابطاً لمعالم القيم ، فالسواد الأعظم من
الناس لا يمكن أن يحافظوا أو أن يبقوا
باستمرار ، ودون « مرشدين » ، في كل مرة ،
ضمن الإطار الروحي والحي السبيل الوحيد
لإدراك الموجودات وجوهرها . فليس عند
جميع الناس القدرة على النفاذ إلى لبّ
الأمور ، بل كثيراً ما يتناولونها عرضاً ، فليس
عندهم دائماً همّ التحري والسبر في الأعماق .
من هنا كان الناقد ضرورة يتعامل مع الذواقهم
وطبائعهم وملكاتهم ، يحاول أن ينظفها من
الثوائب عن طريق الهدى فهم منشورون تحت
لوائه ، ولكن التعامل مع الناس صعب وشائك :
فعدا كون النقد عملية معقدة ، فإن طبائع
الناس أيضاً (والنقد في سبيلهم بالدرجة
الأولى ولأجلهم) مختلفة ومتعددة . من هنا
صعوبة التحدث إلى جميعهم بالرضى والقبول
فيكون حظه منهم قليلاً لأن النقد « لا يرضون
فريقاً من الناس إلا بأغصاب فريق آخر ، غير
أن القوى بينهم - والقوى من أخلص النية -
لا يحفل بمن يرضى وبمن ينفضب لأنه يخدم
غاية أكبر من رضى الناس وسخطهم » ويتم

(٧٥) نعيمة ، كتاب « جيران خليل جبران » ص ١٢٤ .

(٧٦) الغريال ص ١٨ .

(٧٧) الغريال ص ٢١ .

ليس ثمة الا حالة نفسية ، الا شكل خاص من التفكير لانتاج هذا أو ذاك من الآثار ، ويجب تبعا لذلك اعتماد الحالة النفسية أيضا في تدقيقها وتقديرها حتى قدرها أن كل عمل فني يمثل حالة خاصة ويجب أن يحكم عليه باعتباره حالة خاصة . ان التصنيف العلمي وأي شكل اخذه ، لا يمكن أن يحيط بالانتاج الأدبي ، لأن الأدب ، في النهاية ، « مفارقات » والناقد يتلوق وفقا لطبيعته (أي السليقة) ويصدر احكامه نتيجة لذلك (أي للتأثير الذي أحدثه الانتاج الأدبي في نفسه) بالوجود أو الرداءة في صورة غوية وإن كان لها في واقع الأمر أساسها الجمالي الدفين في نفسه ، فيقول سانت بوف « ان النقد لا يمكن أن يصبح علما وضعيا ، وسيبقى دائما فثا دقيقا في يد من يحاولون استخدامه وإن يكن قد أخذ يستفيد واستفاد بالفعل من كل ما انتهى اليه العلم أو كشف عنه التاريخ من حقائق (٨١) (سانت بوف) . فالمسألة اذا مسألة احساس فردى (ذاتي) فيقدر ما يحب الأمر وتنفع فيه يكون لحكمك قيمة (الحب هنا يكون شخصا أصيلا ونابعا من الذات نتيجة الاحتكاك المباشر بالنتاج الأدبي ، ولا يعني ذلك الحب المتولد عند الآخرين من مجرد قولك لهم بأن هذا النتاج جيد) ومع ذلك « فالنقد مذهبيا كان أو غير ذلك ، ومهما تكن أهدافه ، لا يصل الا إلى أن يحدد الأمر الذي يخلقه في نفوسنا في وقت ما هذا الكتاب أو ذاك ، وقد دون فيه

لناقد له صفات وخصائص أصيلة فيه ، ومرتبطة أيا ارتباط بطبيعة موقفه من الأشياء والوجود عامة . ولما كان النقد قراءة متعمقة للآثار لاكتشاف ما فيها من إبعاد فكرية (لا تؤخذ كلمة فكر هنا بمعناها التجريدي بل من حيث هي تصدر أو تشحن بطاقة وجدانية وشعورية نافذة) ولما كان هذا الاكتشاف مرتبطا بقدرة الناقد (٧٨) ومكانته (بحيث إنه لا يمكن تصور العملية النقدية بلا ناقد يقوم بها) كان النقد ، تبعا لذلك ، عملا فنيا فرديا ، يختلف باختلاف النقاد ومنازعمهم ، ولما كانت الحقيقة نسبية (لا تظهر الحقيقة الا من خلال منظور معين ولا يمكن أن « نراها » كما هي (٧٩) أي هي لا تكون الا بنا وتبعنا لمادركنا لها) كانت القنابيس التي بنى عليها نسبة إيشاوبالتايد .

من هنا كان النقد عند نعيمه ، في أساسه ، عملية فردية لا تنقاد إلى التصنيف العلمي تماما كأي نشاط آخر » والعمل الفني عملية

معقدة لانه عمل نفسياني ، وليس حديثنا عن تكوينه ونموه في نفس الفنان ، ثم عن ولادته ، غير ضرب من الرجم بالغيب . فكيف بتدقيقه وتفهمه من قبل الذين لم يجسوا به ولم يلدوه ؟ انه لا ممر يعود في النهاية إلى فطرة المتلوق والمتفهم ، وإلى مزاجه وميله وثقافته ومجمل تركيبه الجسدي والقلبي والروحاني . لذلك لم يخضع تقدير الفن ولن يخضع لقياسات « عملية » وسيبقى عملية فردية لا تنقاد إلى التصنيف العلمي (٨٠) ففي الواقع

(٧٨) يرى نعيمه دائما انه « لا بد لكل ملصق جديد ، ان يلقى الادب أو في سواه ، من شخصية قوية توجه خطاه ومقارعة فلة تتعهد نموه » نعيمه : وولت هتمان أو الشعر النحس : الادب ص ١ (١٩٣٥) ج ٤ ص ٩ .

(٧٩) يرى دولاين بارت أن ما يطلب إلى الناقد ان يصدر من خطية لا ترى الحقيقة بل تحاول ان تكونها ، بحيث يحق لنا ان نعلمه لا بان يجملنا فتلقت بما يقول ، بل بجملنا فتلقت بما قرر قوله ، وهو يستعين في ذلك بقول « لا شك » الشاهن ان كل العالم لا يمكنه رؤية الحقيقة بل يمكنه ان يكونها

Roland Barthes, critique et vérité, P. 75.

(٨٠) نعيمه : من رسالة إلى رضوان الشهاب بمناسبة كتابته « في الشعر والفن والجمال » ، « و أبو الطيب المتنبي » بسكتنا في ١٠ كانون الثاني ١٩٦٢ .

(٨١) راجع محمد مندور : في الادب والنقد ص ٦٥ .

النقد بمقتضى القياس الذاتي الصرف .
« والحق ان لكل جيل نمطا من التذوق الفني ،
والأجيال في ذلك كالأفراد من الناس لكل
طريقته ومذاقه ومطالبه وأغراضه الفنية
الخاصة . والتذوق الفني الخالص حين لا
يكون مجرد حكم مصطنع انما هو في رأي مثال
أعلى ، ويجب أن يظل كذلك ما دامت عملية
التذوق قضية أناس يطوون الحياة وهم مقيدون
في وجودهم بحدود الزمان والمكان (ألبوث)
فتكون السمة الأولى للدراسة الأدبية هي
المنالية بالمواقف والمشاعر ، ومعرفة ما اذا
كانت متكلفة وعاجزة أو صادقة ومؤثرة .
ولعل مبعث هذا الاهتمام ، منذ نعيمة ،
بالمطافة والتأثير انما يرجع عندنا الى ظواهر
طبيعية كان لها الفعل الأكبر في توجيهه الى
ذلك نذكر منها :

١ - ودة فعل لما ورث نعيمة في مستهل هذا
القرن من شعر رديء نوعا ومستوى .

٢ - اعتبار اللغة ، قبله ، غاية الإبداع
ومنتهاه وهو في الحقيقة امتداد لوظيفة الشاعر
العربي - بفعل عوامل مساعدت على انحرافه
عن مبدئه الأول - في العصور المتقدمة اذ كان
النقد العربي القديم نفسه يكرس جانباً عظيماً
للحديث عن الشعراء الذين يسمحون الناس
بألفاظهم .

المؤلف نفسه الآخر الذي تلقاه هو الآخر من
العالم الخارجي في وقت ما (جول لوميتز) ،
وعلى هذا يبني نعيمة أساس عمله النقدي
الذي يصدر عن نفسه وذوقه وثقافته التي
تبتدع لنفسها المقاييس والموازين « فلو كان لنا
« قواعد » ثابتة لتمييز الجميل من الشنيع ،
والصحيح من الفاسد ، لما كان من حاجة بنا
الى النقد والناقدين . بل كان من السهل على
كل قارئ ان يأخذ تلك « القواعد » ويطبق
عليها ما يقرؤه (٨٢) من هنا ، ومن جميع ما
تقدم ، يتأني لنا بأن نعيمة ، في مذهبه ، ناقد
تأثري يعتبر الذوق (٨٣) السبيل الوحيد للقيام
بهممة النقد « الأدب » والذوق الفني هو الذي
يبدل المشاعر على الكتوز الشعرية في الموضوع
الذي ينتقيه ، ثم يهديه الى الطريقة المثلى
لعرض تلك الكتوز وإبراز ما فيها من روعة
وجمال وتناسق ومعان . فلا يكثر اللغلاء حيث
يكفي القليل . ولا يصرح حيث يكفي التلميح .
ولا يسهب حيث الإيجاز أوفى بالفرض وأوقع
في النفس . ولا يعطى حيث الوضف بلاذة . ولا
يفأل حيث الغفالة تصنع وتكلف وتجميل ،
وتعفير خد وجبين ، وتسخير كرامة وجدان ،
واهانة للفن الذي يجب ان يتسامى أبداً عن
التملق واللذل والامتهان (٨٤) . فهو يعتقد على
نحو ما يعتقد بولف (٨٥) ويصر بأن يكون الحكم
على الشعر بحسب تأثيره (٨٦) في المطافة ، أي

(٨٢) الغريال ص ١٧ .

(٨٣) بدأ النقد - في الأدب الإنجليزي - يشتهرون أهمية « الذوق » ووجوب توفره في الناقد البصير منذ أواخر القرن
الثامن عشر : « والذوق هنا معناه الإدراك الفيزيقي لخصائص العمل الفني ، أو الحس بطبيعة النتائج وبقيمتها . ولأنه
ان الناقد حينما يعتمد على الذوق بهذا المعنى لا يلجأ الى القواعد العقلية ولا يتكئ بتطبيقاتها تطبيقاً آلياً . كما ان
اعتبار الذوق المعيار الأخير في تقييم الأدب يعني احتلال المصنوع الشخصي أو الفردي ، أي شخصية الناقد محل
القاعدة العامة التي كان يطبقها الناقد تطبيقاً موضوعياً من قبل .

(٨٤) نعيمة : خليل مطران فاتح عهد وغمام عهد ، الرسالة ١٩٥٧ ج ٥ ص ٢ .

(٨٥) يصر براد على ذلك في رسالة موضوعها « بحث فلسفي من منشأ آرائنا في الجلال والجمال ظهرت عام ١٩٥٦ فكان إصراره
هذا أول مناداة بطوق اللعب الحر في النقد الأدبي . راجع في ذلك : لاسل أيزكرمي : قواعد النقد الأدبي (ترجمة
مسعد فوقي محمد) ص ١٧٥ .

(٨٦) يظن هنا أن دعوى نعيمة هذه ليست جديدة بل ظهرت بتأثيرها وإسبابها منذ مستهل هذا القرن مع سليمان
البستاني ومططفى لطفي المنفلوطي قبل هذه الرحلة .

٣ - لقد وصلت دراسات الأدب في القرون الوسطى إلى جمود ، وهنأة بالشكل ، واستغراق في التقسيمات والتفريعات ، مما قتل روح الجمال الأدبي وخرج تدلوق النصوص من طبيعتها الفنية إلى طبيعة البحث المنطقي أو الرياضي ، فأصبحت همه الدارسين منصرفة إلى بيان منا في النصوص من تشبيه واستعارة وإيجاز أو اطناب ، وجناس أو طباق ، وأصبح الناشئون لا يتدلون من روائع الآثار الأدبية إلا معرفة أجزاء الاستعارة أو تقرير الكناية ، أو تعميل هذه الناحية أو تلك من الحسنات البديعية (٨٧) .

غير أن هذا التجديد ، عند نعيمة وأمثاله ، في تشييد دعائم التأثير في النقد العربي الحديث ، هو ، بشكل أو آخر ، من قبيل « الإحياء » للزعة النقدية العربية القديمة . أي أن لهذا التجديد منطلقاً في القديم . ولقد ما استفحل أمر الزعة التأثيرية في النقد العربي ، قديماً ، ثم شيء من الفوضى النقدية حاول الرزوقي تصويبها « وزعمت » . . . قائلة مع طول مجالستك لجهادة الشعر والعلماء بمعانيه ، والمبرزين في انتقاده ، لم تقف من جهتهم على حد يؤديك إلى المعرفة بجيده ومتوسطه ورويته ، حتى تجرد الشهادة في شيء منه ، وثبت الحكم عليه أو له ، آمنا من المجاذيب والمذافعين ، بل نعتقد أن كثيراً مما يستعيد لزيد يجوز ألا يوافق عليه عمرو ، وأنه قد يستحسن البيت ويثنى عليه ثم يستهجن نظيره في الشبه لفظاً ومعنى حتى لا

يخالفه ، فيعرض عنه إذ كان ذلك موقوفاً على استهلاك المستحلي واجتواء المحتوى (٨٨) . فإذا بالحكم النقدي العام يصبح ، في أساسه ، طبعاً واستعداداً متمكنين في النفس وقادريين على التمييز والابتداع . ويؤيد هذا المنحى ويسلكه القاضي الجرجاني إذ يقول « وملاك الأمر في هذا الباب خاصة ترك التكلف ورفض التعمل والاسترسال للطبع وتجنب الحمل عليه والعنف به ، ولست أعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قد صقله الأدب ، وشحذته الروية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصوير أمثلة الحسن والقيح (٨٩) . ومع ذلك يبقى النقد مهمة لا تقتصر على تحليل استحساناتنا ، بل تندفع أيضاً إلى معرفة طبائع الأشياء من منظور مقبول عند الطابع السليمة الأخرى ، على غرار ما نحا الأملى (٩٠) ، إذ يقسم التدلوق إلى ثلاثة أقسام : الطبع والخلق ثم جماع الاثنين أي الفطنة . من هنا فإن « التدلوق نفسه يستطيع أن يكون ذا معايير يقيس بها مسحته ورسائنه ، ولا بد لكى يكون مكتملاً من أن يدل على فهم « دائم » لغاية هي النتيجة الضرورية ، بل هي الفكرة الصحيحة لما فيه من صحة ورسانة (بلا كمور) .

أما المعايير أو المقاييس الأخرى (والتي أساسها الدلوقة دائماً) التي بتمتدتها نعيمة في النقد فينبي ، سهيلاً للدرس والبحث ، أن نقسمها إلى قسمين : واحد يتناول فن النقد

(٨٧) مصنف خلف الله : من الوجوه النفسية في دراسة الأدب ولقد ص ١٢٤ .

(٨٨) الكزوقي : مقدمة شرح ديوان الحماسة (القاهرة ١٩٥١) ص ٤ .

(٨٩) القاضي الجرجاني : الوصافة بين المتنبي وخصومه ط صبيح ١٩٤٨ ص ١٩ .

(٩٠) « وبلى ما لم يكن أخرجه إلى البيان ولا ألقاه إلى احتياج وهي علة مالا يعرف إلا بالدوية ودائم التجربة وطول الملاسة وبهذا يفسد أهل الطغاة بكل علم وصناعة من سواهم ، ممن نقصت فريحتة وقلت دريته ، بعد أن يكون هنالك طبع فيه ثقل تلك الطباع وامتزاج ، ولا لايم ذلك ، وإلا ذلك إلى اختياره وما تلقى عليه فنتك وتعيظه فينبغي أن نعلم النظر فيما يرد عليك ونرى ينتج بالنظر الأمن يصن أن يتأمل ، ومن إذا تأمل علم ومن إذا علم انصف » راجع الأملى : الوازنة (ط المعارف الأولى ج ١ ص ٢٨٢ - ٢٨٤) .

الاحساسية ... ويقول ريتشاردز « علينا ان نتجنب الحكم على الصانفين على الياض بشعرهم » (٩٢) فقول نعيمة اذا على ايجازها على جتب كبير من الاهمية للوصول الى الحكم الصحيح ، ولابداء الراى بحرية وشفافية ، وللمسح بالنقد الى الرتبة الخليفة به . واذا على الناقد ان يفتش عن الفكرة التى تسكن المؤلف فيجعله « ادائها » ليكون النقد تحليليا وخلقا أكثر منه صوغ احكام واطلاقها « فكما يخلق الكاتب نفسه فى ما يكتب يخلق الناقد نفسه فيما ينقد . وما الاثر الذى ينقده غير الحاضر والمستقبل . اما النور الذى يلقى على ذلك الاثر فنوره (٩٤) اذ الناقد الجيد من يروى مقامرات نفسه وروحه غير الاثر المنقود (اتناول فرانس) . من هنا كان الاثر الخالد هو ما فيه بعض من الروح الخالدة (٩٥) . والروح الخالدة هى ، فى نظره ، قوة الفن الذى مهما تسامى فى نظر صاحبه ونظر الناس ليس من الاهمية على شيء مالم يترجمه صاحبه والناس الى قوة تنشط بهم من علاقات المعيشة المحدودة الى حرية الحياة التى لا تحد من الانسان فى الله ، الى الله فى الانسان (٩٦) انه ، فى النهاية ، وبكلمة واحدة « هو الحياة والحياة هو (٩٧) لذا كان على الناقد ان يفهم الجمال ، والالوان البهجة لاصنع الضعف فلا الكلام الجميل يرفع الشناعة الى مستوى الجمال ، والالوان البهجة لا تصنع الضعف قوة ، وقولك ان الحب هو الله لا يجعل الشهوة

بعامة ، وواحد يتناول العمل النقدي بلباثة ويستخرج من خلال النقد التطبيقى عنده ، على ان كلا القسمين واحد فى روحه وشكله ، ويؤلف فى النهاية اصول مذهبه فى النقد .

انه يرى أولا ان لكل ناقد موازينه ومقاييسه الخاصة به (٩٨) . وهذا ينطلق من اعتباره النقد ذاتيا لا موضوعيا . وقوله بقوة التمييز الفطرية قبل الموازين فصحيح ، لان نقداتها لا تموضه المقاييس والقواعد (وهو هنا يتفق مع ايليوت فيما ذكرناه آنفا فى ان كل جبل يختلف من الجبل الاخر فى فهم الادب ، ولذلك ياتى بمعايير خاصة ، والدوق الفنى المطلق مثل اعلى ...) . ويلخص ثانيا الى التمييز باصرار ما بين شخصية المنقود وآثاره الكتابية والا « فلا يكون الناقد من حاملى القربال او الدالئين بلبته » (٩٩) ولشد ما يشبه هنا André Suarès فى اعتباره ان اهتمام الناقد يتعلق بالنتاج الادبى وليس باعتبارات شخصية تخص صاحبه . وعييه ان يجعل من المؤلف هدفا له عبر النتاج نفسه ، عندما يتال من صاحبه سواء بالهزء به او يستمه . ولقد اسهبنا فى شرح هذا المبدأ الناقد المعاصر Richards لاهميته ، ولكن نعيمة المبح اليه بايجاز ، ورأى ريتشاردز ان على الناقد ان ينحو جميع العوامل التى تفسد عليه حكمه كالاختلاف فى المذهب والاتفاق فيه او وجود استجابات جاهزة فيكون الانفعال من مخزون القارئ لا من التصيدة نفسها او دقة الحس او

(٩١) القربال ص ١٦ .

(٩٢) القربال ص ١٢ .

(٩٣) راجع اسبق موسى الصبيتي : النقد الادبى المعاصر الربيع الاول من القرن العشرين ص ٩٨ .

(٩٤) نعيمة : النقد والكلمة : الادب ص ٩ (١٩٦١) ج ١ ص ٤ .

(٩٥) القربال ص ٢٦ .

(٩٦) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٧ .

(٩٧) المرجع نفسه ص ١١٧ .

فالحياة والفن والإنسان ثلاثة أشكال لوجود واحد : النفس الكلية أو الروح الخالدة كما سماها آتفا . فإذا توقف النقد عند أدب ما أو عند أي ما ، فلا معنى ذلك إعادة تأليفه في قيمة ما بقدر مايرمي إلى إعطائه المحل المناسب له بين الموجودات .

الفردية والتحرية :

سمة النقد النعيمي ، الفردية والحرية . وهما مفتاح جميع عمله النقدي وظاهره الأصلية (لقد تأثر المهجريون بالأدب الغربي ولا سيما بالأدب الرومنطيكي الذي يعزى النزعة الفردية والتعبير عن الذات وخلجات النفس في بأسها ورجائها وحزنها وفرحها وصحتها ومرضاها وفقرها وغناها وآمالها وآلامها : فنزحوا إلى الشعور الوجداني الذاتي وكرهوا الأدب التقليدي الذي لا يصدر من شعور واحساس) . وهذه هي الخلفية الفكرية التي يصدر عنها نظامه النقدي . وهي نفسها التي يصدر عنها نظامه الأدبي . من هنا ترابط نظراته ، أحيانا ، إلى حد ما ، بحيث لم تعد للمات أو مجرد آراء مفككة بل يبقى النقد عند نعيمة (أي المقاييس) خواطر انما تصدر من منظور واحد لا يتغير (أولم يقل بعد نحو من اربعين عاما من صدور الفريال « في الكتاب نظريات وآراء وتوجيهات لو سئلت فيها اليوم لتبنيتها دونما تردد » (١٠٠) .

ولنا ان نستنتج بسرعة ان نعيمة ، على ما يبدو ، يريد ان يجعلنا نرى العمل الأدبي بعينه لا بميونا وأن نفهم منه ما يفهمه هو تحكم عليه بحكمه . وفي هذا امكان ان يكون النقد اذا عقبه بيننا وبين العمل الأدبي بديل ان يقربه الينا .

الجسدية هنا ولا اللذة الحيوانية ناموس الحياة (٩٨) فليس هم نعيمة في النقد إبراز قيمة الآثار الضئيلة ، بل رد الموضوع المتقود إلى حقائقه العقلية والأخلاقية والعاطفية فيتعرف إلى هذه الحقائق كمجموعات متصلة محاولا إبرازها بإيضاح الانطباعات دون تسييق أو مبالغة . على أننا نفهم بالانطباعات هنا لا كونها ردة فعل أمام الآثار الأدبية وحسب ، بل هي تمتد إلى الحالات النفسية ذاتها التي تأتي أمام الطبيعة والأشياء . وإذا ليس النقد مجرد قراءة أو تطبيق قواعد . أنه قبل كل شيء « تجربة » لتلمس الكيان الحي ، بأسره في ظواهره الفردية وظواهره الجمالية على حد سواء . فعنده بقدر ما يكون الأثر الأدبي كبيرا يكون شخصيا (هاجس الناقد التائري أن لا يكون له هدف غير التحدث من نفسه) لأن في امكان الذاتية الفنية والتألفة وحدها ان تستنشي من ضمير الجماعة رؤيتها إلى العالم وموقفها منه ، فالحقائق لا يمكن ان تكون الا فردية ، أي لا يمكن اكتشاف ابعاد الكون الا بالسير في أعماق الشيء والنفس (في كل شيء ينطوي العالم الأكبر) . ومن هذا المنطلق الصوفي كان منطلقه النقدي ، إذ الفن عنده - كما مر معنا - لا يعلمنا ان نرى فقط بل ان تكون ايضا . انه يؤمن بان التواصل الحقيقي الوحيد ، والممكن ، مع الآخرين ، هو بالخلق (الإبداع) الصادر عن جميع الانسان : فكره وقلبه وجسده . وهكذا فنعيمة لا يكتب ليشتهر بل ليحدد علاقته الخاصة مع العالم . من هنا لا تكون الثورة الأدبية في أسلوب التعبير بل في الانسان مصدر كل تعبير . والبحث من النفس الإنسانية (أننا في كل ماتفعل وكل ماقول وكل ماتكتب انما نفتش عن أنفسنا (٩٩) والعالم هو جوهر نظامه الفكري والأدبي :

(٩٨) الرجع نفسه ص ١٢٥ .

(٩٩) القبول ص ٢٥ .

(١٠٠) راجع نعيمة : سبعون (الرحلة الثانية) ص ٢٠١ .

بين اللوق والموهبة

المقاييس نفسها بقدر ما يرجع ذلك الى حسن استخدامها وممارستها أو العكس . فيبقى الانسان ، باستمرار محور العمل الأدبي والنقدي . وإذا كان الأدب العربي اثنائاً في فقر أو نقص ، لايعنى ذلك انه في حاجة الى مقاييس ثابتة . فهي متوفرة (١٠٣) (لعل هذا الوجه من رؤيته يفسر لنا مبحث أخذه من النقاد العرب الذين سبقوه أو عاصروه ومن نقاد الغرب والكتاب ، بحيث يفقد الانقباس خطورته وفداحته التي صرح عنها مرة في الهلال « ان الشرق لقي غنى من اقتباس حرف واحد من الملفية الغربية ، إذ ليس الاقتباس الا تقليداً . وكل من يقلد سواء لا يكون مخلصاً لنفسه (١٠٤) اذا عيب التقليد لا في الأخذ من آراء الآخرين ومواقفهم بل في أن تنهج منج الآخرين أنفسهم وسير في مسالكهم نفسها فتفقد بذلك « ذاتيتك » « وحرمتك ») وإذا كيف تزهو آدابنا وثمن مادامت مقاييسها في أيد لا تعرف من الأدب كومة من بوعه (١٠٥) (يقصد الجرائد والمجلات التي تقيس الأدب بعدد مشتركها ومتاصريها وأعدتها . . .) وخاصة في تلك المرحلة إذ هي دور انتقال (وهو من أصعب الأدوار في الحركات الأدبية) فرضه تهديم روح قديم والتمهيد لبناء روح جديد . فيقدر - ما ينجح في هذا التمهيد ستكون مرحلة البناء التالية ، نوحاً ومدى ، ذات شان .

وعلى ضوء هذا المفهوم يبين الموازين التي يقيس بها الآثار النقودة وخاصة الشعرية منها بعد أن يؤكد « أن لكل قارئ مقاييس هديدة

فانتباه نسيمة في النقد لم يعتمد على التراث النقدي العربي القديم ، كما انه لم يعتمد التراث الغربي أيضاً ، وحسب ، بل هو اتجاه يهضم جميع هذه المكونات لتتمثل في شكل أو في آخر ، في محاولات ذاتية ، تمول على الموهبة وما تستعينه في استحضار نفسها ، ولا تعارض بين اللوق والموهبة ، اللوق هو حالة خاصة من الاحساس ، والموهبة تحتقر الصنعة والتعمل لتترجم انطلاق النفس وولبيتها بالانفعال العبرة « والوهورب هو الذي يخلق بيئته ولا تخلقه البيئة » (١٠٦) أي أن العمل الأدبي لا يقتصر على مجرد التعلق بسلسلة من الافعال والعواطف ، بل بقيمتها ، بوقتها وبنتيجتها (وما يمكن أن نسميه « ماهيتها ») . من هنا كانت مقاييس نقده التطبيقية صادرة من هذه المبادئ العامة بالتاكيد ، ففي حديثه عن « أفاني اللوروش » لا يهمل أن يحاسب الشاعر ليم اختيار هذا الموضوع دون ذلك ، أو ليم يفتي هذا النوع من العواطف دون غيره ، فكل مجال النقد وميدانه ان يقول هل أحسن الشاعر في اثره أم أساء . المهم في النطق ، عنده ، كيفية التوقيع لانومه « ليصعد وشيد أيوب من الزفرات ماشاء وليبك مادام في مقتلته دموع . فلا شان لي معه في ذلك . تلك هي اوتاره ، وذلك هو أسلوبه في التوقيع عليها . والذي يهمني هو أنه يصنع التوقيع (١٠٧) . ولعله ينطوى على موقف من النقد والادب عامة ، أبعد وأعمق ، فيرى أن ازدهار الادب أو تدهوره لا يعودان الى طبيعة

(١٠١) نسيمة : راجع جوفج صبيح : ادبنا وادبنا في المهاجر الامريكية ص ٢٨ (ط القاهرة ١٩٥٩) .

(١٠٢) نسيمة : مقدمة ديوان « أفاني اللوروش » لرشيد أيوب ص ٧ (صدر الديوان ١٩٢٨) .

(١٠٣) الفريال ص ٧٢ - ٧٤ .

(١٠٤) نسيمة : الهلال نوفمبر ١٩٢٢ (ص ٢١) ج ٢ ص ١٢٨ .

(١٠٥) الفريال ص ٧٣ - ٧٤ .

عما وجدنا نحن من قبل ، وكأنا جميعا اديبا بالقوة ، ومزية الشاعر وفقا لهذا التفكير ايجاد العبارة التي اعوزنا (هذا ما يراه الناثريون) فاذا قوى احساس المرء بعمل او قصيدة خيل اليه انه عانى ما يشبهه من قبل . ولطالما تطلب نعمة هذا القياس في جميع نقده فطبقه في « الارواح الحائرة » (الغريال ص ٢٧) والدرة الشوقية (الغريال ص ١٤٥) والقروينات (الغريال ص ١٥٥) والريحاني في عالم الشعر (الغريال ص ١٦٣) وكثير من رسائله ... فيكون جميع نقده مسكونا بهذه الظاهرة نظرا وعملا . وننص نقره هنا على ضرورة (نسمة الحياة) مقياسا للشعر ، غير اننا نخالفه في مفهومه لها . اذ لا يمكن قصر الشعر او الادب على اثاره العواطف فقط . فمرة واحدة لم تكن قوة الشعور وحدها ، وفي ذاتها من الاسباب الهامة في بقاء الادب ، فكثير جدا من الناس اقوياء الشعور غير انهم ليسوا فنانيين « وليس الشعر كله محتاجا الى العواطف القوية ولكنه محتاج الى أن يكون خلقا خياليا ، فالخلق الخيالي صفته الاولى (١٠٨) غير انه اذ يقول في ذلك فانما يصدر عما كرهه من مفهومه للحياة وعلاقة الانسان بها ، ولعل ما يقوله هذه المرة يلخص ما ذهب اليه هنا وهناك فيعتبر ان انفسنا « لا تستفيق ... الا اذا شعرت برعشة الحياة في داخلها ، لان الحياة فينا وليست خارجا عنا ، وما التأثيرات التي تحدثنا فينا الطبيعة او الحياة الخارجية الا منه لما كمن في داخلنا من العواطف والافكار ، فلو لا مواطننا ولولا افكارنا لكان ما ندعوه « الطبيعة » صحيفة بيضاء . ان الحياة اثر مشترك ، ولي فيها مالك . غير ان ما ينتفع به كلانا من هذا الارث يتوقف على ما تنبه فيه من

يقبس بها الشعر والشعراء لست لاخذها منه ولا لايدلها بمقاييس ، فما اذا اعارض عليه ما عندي ، فلينبذه اذا شاء او ليقلبه اذا شاء (١٠٦) . هكذا تتولد المواقف من بعضها ، عند نعمة ، فشرط المحافظة على حريته وذاتيته الذي تطلبه باستمرار ، كان شرطا عليه ايضا في المحافظة على حرية القراء ومنازعهم . فمهمته ان يعرض ، بلا فرض ، على الناس ما يذهب اليه ، فما يجدونه ملائما لهم ولحاجاتهم اخذوا به ، وما لا يروق لهم تيدوه وهجروه . بكلمة اخرى ان اى تفاعل ادبي يكون مستحيلا بلا القراء ، والاديب هو ، في شكل او في آخر ، مبدع ضمن اطار ايديولوجي لوسطه وجماعته، فيمكن ان يقبلوها او ان يصدلوا قبيها ، ان يرفضوها كلية او جزئية ، غير انه لا يمكنهم التوصل الى الفرار منها . ولهذا ايضا كان القراء بحاجة الى الناقد وغرضه ، فاذا بقوا وحدهم مستغربين يظنون خارج نظام الحقائق الاصيل وينخدعون .

البحث عن نسمة الحياة لا عن النوع الادبي

وهو اذا اراد ان يبدأ عمله النقدي ، « فاول ما ابحت عنه في كل ما يقع تحت نظري باسم الشعر هو نسمة الحياة . والذي اعنيته بنسمة الحياة ليس الانكاس بعض ما في داخلي من عوامل الوجود في الكلام المنظور الذي اطالعه . فان عثرت فيه على تلك النسمة أيقنت انه شعر والاعرفته جمادا. والاذاك ليس ليخضعني بأوزانه المحكمة ومغرداته المنمقة وقوافيه المترجعة (١٠٧) . فيقدر ما يظهر الشعر من الاحاسيس يكون شعرا . وبعبارة اخرى ، فان منطلق هذا القياس هو ان الشاعر يصير

(١٠٦) الغريال ص ١٢٩ .

(١٠٧) الرجوع نفسه .

(١٠٨) راجع مصطفى ناصف : دراسة الادب العربي ص ٥١ .

في مجمل نقده (١١٣) . إذ يقدر كالمقادير ان الشاعر يمتاز على سواه « بقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه الى صميم الاشياء (١١٤) فما الذي يعطى الايات كيانها الشعري غير الرسم الجديد والفكر المتكرر والعاطفة الحية والتطورة ارتقاء دائما (١١٥) . من هنا كان مقياس الصدق والاخلاص اساس النقد ، لانه القياس الذي يكشف عن حقيقة ارتباط الاثر بصاحبه بل يعين في تلمس مناخيه واعماقه بصرف النظر عن قلبه والسبيل الذي اعتمده صاحبه في اظهاره « واتنا حشما اطل على الصدق والاخلاص في اى عمل ادبي قلت : انه لعل مبارك . ولا شأن لى من بعد ذلك مع الناشر او الناظم اذا هو خاطبني بهذه الطريقة او تلك واذا هو اختار ان يث انكافه واحاسيسه في قوالب بيانية قد تجمد كل البعد عن القوالب التي فيها امسك افكارى واحاسيسى . فليست من الجهل وضيق الصدر بحيث انكر على فري حقا امده من اقدس حقوقى . وهو ان اعبر من ذاتي بالاسلوب الذي يرفضه ذوقى ويطعن اليه وجلداني (١١٦) . فنعيمة لا يعبر الاثر الادبي اى انتباه فنى ، ولا ينطلق من اية فلسفة فنية جمالية في ذلك ، ولعل السبب يعود الى ان الظروف الزمنية التي راح نعيمة يطلق فيها آراء النقدية ونشأه الادبي لم تكن لتسمح بالاتجاه اتجاها فنيا كبيرا . ذلك ان المناخ العربي السائد حينئذ لا ينم عن نضج راق في

المواطف والافكار (١٠٩) من هنا تكون قيمة النص الشعري او الادبي يقدر ما يحمل من الحياة والانسان لا بما يحمل من اساليب بيانية او مفردات منمقة ، وليس الوزن هو الذي يعطى الشعر شيئا من قيمته الحقيقية . بل اكثر من ذلك ليست قيمة الشعر في ذاته (في انه شعر) اذ ان تنمية لا يقيم كبير شأن للنوع الادبي ، لانه يعتبر النوع الادبي شكلا يتوسله الشاعر او الاديب لغرض آخر ، يبرر وجوده ، الا وهو « الافصاح عن الحياة اى من كل ما يتناهب من العوامل النفسية (١١٠) ولا ضير في اى اسلوب او مظهر اخذته هذه الحجة . فما ارباب الادب الا اساليب (راجع «الريحاني في عالم الشعر » : الفريال) حيث يؤكد ان ليس من آفة في ان ينتقل الكاتب من هذا الباب الى ذاك من ابواب الادب ، وليس ما يمنع كاتب المقالات من ان يؤلف الروايات ، ولا مؤلف الروايات من ان يزاوّل الدراما ، ولا كاتب الدراما من ان يقرض الشعر (١١١) . فلا تمييز لنوع فني على آخر ، اى ليست القصة ارقى من المسرح ، او ان الشعر يفضلهما لامتحانات فنية تقنية .

ومتى يوفق ان فيما بطالعه شعرا يعتبر العنصر الثاني في تمييز الاثر الادبي من غيره « باتساع مداه ، بعمقه وعلوه وانفراج ارجائه (١١٢) في الافكار والخيال والعاطفة . وهو مقياس لا حق يسابقه ومنه يمتد . ولطالما راهاه

(١٠٩) الفريال ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(١١٠) المرجع نفسه ص ٧٠ .

(١١١) المرجع نفسه ص ١٢٢ .

(١١٢) الفريال ص ١٢٩ - (مقالة الروح الحائرة) .

(١١٣) راجع الفريال لبيلا لذلك ص ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢٢٩ ، وراجع مقدمة الجداول لابي ماضي .

(١١٤) الفريال ص ٢١٢ .

(١١٥) الفريال ص ١٥٠ .

(١١٦) نعيمة : رسالة الى نقولا الفريال .

القيمة للقدرة على الاتصال بالناس من طريق القلب والفكر ، بصرف النظر عن أى اعتبار مادي آخر كالجنس ، أو المذهب أو غيرها لقد جمع (عمر فاخوري) إلى سلامة اللغة سعة الاطلاع واستقامة التفكير وبراثة التعبير وحسن الذوق . ولكن هذه كلها ليست بذات بل مالم يترجمها صاحبها الى عواطف انسانية تصل قلبه وفكره بقلوب الناس وأفكارهم أينما كانوا ، ومن أينما جنس أو ملة كانوا (١١٨) . ومن المروف ان هذا الناقد الذى يعتبر هذه المقاييس فى استكشاف الادب وتقدير مدى الصحة والعمق فيه ، هو ولا شك الناقد الحصيف الذى تكونت عنده قوة التعبير الفطرية .

قضية الشكل

اما العنصر الثالث فهو ثوب الأثر الادبى الخارجى ، أى دقة تركيبه وحلاوة رنته وبعد ذلك فحصت من سرواله الخارجى ، من دقة تركيبه وحلاوة رنته وحلاوة الروان وما أشبه (١١٩) وطبيعى موقفه هذا لان « الازياء البنيانية ظلال لا تستقر على حال ، والمستقر هو الانسان وحاجته الى التعبير من كينانه (١٢٠) . فالكاتب اثناء الكتابة لا ينصرف الى التفنن فى صناعة التعبير ، بل يعتمد الاسلوب السهل والقريب لافراغ التفتق الابداعى الذى يتور ، كالنهر ، ولا يعود مرة أخرى . ثم ان الكاتب كما اشرنا همه الانسان لانه وحده يستحق كل جهد وكل قيمة . غير ان نعيمة فى هذا لا يقصد اهمال الاسلوب التعبيرى ، وانما يفهم الجمال والفن بقالهما ، كما يفهمهما بجوهرهما ،

المبحث الفنى الاستطيقى الجمالى ، لم ان احداث العصر نفسها وقضاياه لم تكن لتتحو بالادب غير ذلك المنحى . من هنا فان ما يميز الخلق الادبى الكبير ، عنده ، هو هذه الهالة السحرية التى تمتد فى فكر القارىء ووجدانه اثناء التعرف عليه . أى ان غير مقياس لنجاح الأثر الادبى انما هو فى الفعل الذى يحدثه فى النفس التى تستطلعه . فكما فى الادب كذلك فى النقد . سره وقيمته فى مدى صدق الناقد واخلاصه المتغايين لانهما « سر الابتكار والابداع عند الأديب » (١٢١) وهكذا لم يعد النقد ، مع نعيمة ، تصنيفا للأثر على أساس مطلق ومجرد ، بل على اعتبار العلاقة الجمعية بين النتاج وصاحبه من جهة ، وبين النتاج نفسه ونتائج قبله سبقتة ، ولا بأس اذا كانت للكاتب نفسه او لغيره ، فيؤول النقد نمطا من دراسة العلاقات القائمة والتى يمكن ان توصل فى النهاية الى الحكم الصحيح . ان السؤال من الذى هو ، متنا ، فى غاية من الاهمية ، اذ ينم عن ارتقاء فى المفهوم النقدي عهدئذ ، بل هو فتح من جملة ما أعطاه نعيمة فى هذا المضمار . انه يعنى انتقالا من الجانب الوصفى الى الجانب التقييمى ، أى ان الناقد تحول من جو التأمل النظرى - خاصة بعد ما يسوق فى طريقة من المقارنات والمفارقات والتوضيحات وضرب التحليل والتمثيل - الى هجر حلبة الصراع فى الممارسة الادبية العملية . فكان اذا ثمة تدرج منطقي وطبيعى فى منهجه ، فنتطلب الذى يعد تبينه نسمة الحياة من طريق التأمل فى النص ، كما ورد معنا . فلا سلامة اللغة ، ولا سعة الاطلاع ، ولا براعة التعبير ، ولا حسن الذوق هى المنشودة لذاتها ، بل

(١١٧) نعيمة : الراحل (ط ٢ بيروت) ص ٥٩ .

(١١٨) نعيمة : عمر فاخوري اديب واتسان : الطريق ، ١٩٥٠ ع ٤ و ٥ ص ٩ .

(١١٩) انقربالى ص ١٢٩ .

(١٢٠) نعيمة : رسالة الى يوسف الخال .

الكتابة الروحية :

معنى كل هذا ان التحولات في الموقف النقدي ، عند نعيمة ، كانت تخرج من المفهوم العام لا لتسير في خط مستقيم ولكن لتدور حول نفسها فتنتهي حيث تبدأ ، كل مرة ، وإمام أى ظاهرة ، فاقصرت محاولة إحياء الروح في العمل الأدبي بكثرة تطلب عنصرى الشعور والحرية . أنه لا يقدر فنا ولا أدبا الا بقدر ما يرفع من نفسه ويفتح عليه مسن الأفاق الجديدة ، وهو لا يرضى بالفن المحلق دون الفنان ، ولا بالفناني الطائر بغير الشاعر الطائر ، يريد المثل الأعلى وصاحبه في آن (١٢٣) . من هنا كان آخر ما يعيره انتباهها في نقد الأثر الشعري هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية ... فالشعر الذى ينسزل بفكره الى أفوار تحتها أفوار ، ويعلو بهذا الفكر الى سماوات تلوح من وراءها وسماوات ، ويفتح لخياله آفاقا خلفها آفاق ، ويفسح لمعاطفته مدى يجرها الى أمداء ، هو الشعر الذى تستأنس به روحه وتنفذ له براعم الحياة في داخله (١٢٤) . وهكذا فإن نعيمة حين يقف أمام الأثر الأدبي - وخاصة الشعري - يقيس نفسه به حيناً ، فإذا بالشعر يكتسب قيمة من الشخصية التي يوجه لها مهد كان يكتسب قيمته من الشخصية التي صدر عنها . وهو في كل هذا يعرف ظاهرة « الانحداد الفني » حيث تغنى الذات في الموضوع ، فإذا به يقترب كلياً من ابن قتيبة في حكمه النقدي « أشعر الناس من أتت في شعره حتى تفرغ منه » (١٢٥) فالملطوب من الشاعر ان

ويهم القالب على أنه « لا ينحصر في تنميق الكلام وتنسيق الخطوط والألوان ، بل ما يفرغ فيه الكلام من بعد التنميق ، والخطوط والألوان من بعد التنسيق ، والفنان يعنى بقوالبه منايته بما يسكب فيها من روحه لملحه ان جمال القالب يزيد في جمال ما يسكب فيه (١٢٦) ذلك لأنه باعتبار منطلقه الفلسفي والأدبي كما يتبيننا يستلزم بوحدة واحدة في الجمال والكون . فكيف لا يعتبر في النتائج الأدبي ومقاييسه وحدة واحدة أيضاً . فلا شكل بلا محتوى ، او ان أى محتوى لا يد له من شكل يتجسد به . الفرق في الموقف اذا : بدليل ان يعطى الشكل قيمة المحتوى (كما في النقد القديم) فإن الشكل ، عند نعيمة ، انما يزيد في جمال المحتوى . يفسى على ما هو موجود شيئاً ما فيكتمل . ولا بأس بالاستعانة بالفنون الأخرى وطبيعتها الخلقة ، لان لاتناقض فيما بينها ، بل هي في الحقيقة ، اساليب متنوعة للإبداع الإنساني الواحد . ويقرب هنا كثيراً من نظرية تولستوى في الفن التي تقول بان الفن فعل انفعالات إنسان ما بنية ان يشاركه الآخرون إياها ، وذلك من طريق الحركات والخطوط والألوان والأصوات والأشكال المعبر عنها بالكلمات . أى لابد ان تكون هناك فكرة جديدة تهم الإنسانية ويكون التعبير منها بوضوح ليفهمه جميع الناس . وأخيراً ان يكون دافع المؤلف الى إنتاجه هو الحاجة الداخلية ، فالخمسون هو الذى يعطى العمل الفني قيمته (الخير) والتعبير يعطيه قيمته من حيث هو عمل جميل (الجمال) ، أما علاقة الفنان بعمله فيعمله قيمته من حيث هو عمل حق . (١٢٧)

(١٢١) نعيمة : جبران خليل جبران ص ٢٤١ .

(١٢٢) راجع مجلة الآداب ١٩٥٤ ص ٨٨١ .

(١٢٣) راجع فائقة كتاب « جبران خليل جبران » .

(١٢٤) راجع القريال ص ١٢٩ .

(١٢٥) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٢٠ .

السامع والناظر . ولاحداث هذا التأثير كان لا بد من التأكيد على أمرين :

١ - اذا كانت الرواية مشهدة حيا من مشاهد الحياة الحقيقية .

بجعلك تعيش في شعره فتكون انت هذا الشعر . انه يسمى باستمرار وراء « القرابة الروحية » (١٣٦) بينه وبين الشاعر .

آراؤه في فن الرواية :

ب - اذا كان الممثل قادرا على فهم افكار المؤلف وغايته وتفسير هذه الافكار وتادبة تلك الغاية الى السامع بواسطة الصوت والحركات (١٣٠) . فالرواية عنده ، تكتب لتمثل ، لا لشيء آخر ، فكثيرا ما يتوكأ الكاتب على الممثل والممثل على الكاتب . الا ان قيمة ما كتبه نيميعة في هذا الباب كبيرة نظرا لما كان النقد عليه من عدم امارتهم اى انتباه لهذا الفن . فافرد نيميعة له فصلا كاملا « الرواية التمثيلية العربية » في كتاب الغرزال (وهى نفسها مقدمة مسرحيته « الآباء والبنون ») كذلك كان يلعب بين الحين والآخر فيما نقد من روايات مترجمة (شكسبير خليل مطران) او قصص موضوعة (العواطف لجبران) ... وهو بذلك يتقدم على سابقيه او معاصريه من النقاد . لان مجمل تلك المقاييس التى حاولوا ان يؤكدوها (العقاد ، المازني ...) انها تهتم بالشعر بل لا تنصرف الا الى فن محدد منه هو الشعر الفنائى التوارث من القديم « واخذ نقادنا ومفكروننا يقتتلون حوله خلال الربع الاول من هذا القرن بل الى مسنونات بعد ذلك ، مغفلين فنونا اخرى اخذت تظهر في ادبنا المعاصر مثل فن المسرحية الشعرية ، وفن القصة والاقصوصة وفن السيرة وفن المقالة ، فهذه كلها فنون لا تكاد نعث على آراء فيها وفي

الا اننا نسير اخيرا ، الى ان هذه المقاييس النقدية عند نيميعة ، وان اقتصرنا في معظم الاحيان على الشعر دون غيره من الفنون ، فقد تطاولت ايضا الى فن الرواية فرائى انها تحتاج « هذا الفكر الملل والمحلل الى يد المتقن لا براز اشخاصها الى الحياة وتطبيق مشاهدتها على فكرتها الاساسية (١٣٧) . فنتطلب ، بالتالى ، خبرة فنية تقدر على اللامعة ومراماة اصول هذا الفن . فالروائي الفنان اذا ما خلق شخصين او اكثر نوتج الافراض التي يرمى اليها من وراء كل منهم (١٣٨) . اى ان التأليف السروائى ليس كتابة مقال ثم يالى للمؤلف ليوزع كلامه على عدد معين من الابطال ، بل لكل بطل حضور خاص فاعل في سير الرواية ، وله فرض يساعد على نمو الاحداث وتطورها ، « فالشخص في يد الروائي كالحجر في يد المثال يخلق منه ما يشاء ، والمثال الماهر ليس كالمرائين الذين يحسبون - كما قال فيهم يسوع - ان بكثرة صلواتهم يستجاب لهم . فهو قد يبرز معنى بارعا بضربة ازميل مثلما قد يخلق المصور العبقري آية من الحسن بلصصة ريشة ، والكاتب الفنان أفقا من الجمال بشطحة قلم (١٣٩) ومنتهى ذلك ، عنده ، ان مقياس جودة الرواية هو في القدرة على التأثير (كما في الشعر ومسائر الفنون الادبية) في

(١٣٦) نيميعة : مقدمة ديوان الجدول لابي ماضي (٢١ حزيران ١٩٢٧) .

(١٣٧) الغرزال ص ١٦٥ .

(١٣٨) نيميعة : رسالة الى كرم ملهم كرم عن روايته « المصعود » .

(١٣٩) المصدر نفسه .

(١٤٠) الغرزال ص ٢٢ .

واحد : هو الانسان محور الاشياء والوجود .
ولكن يذكر حكمه هذا بقول ايسن « اذا اردت
الكتابة فانك تستدعي نفسك الى محكمة انت
قاضيا » .



المنهج الانطباعي :

مهما كان المنحى الذى يسلكه النقد الانطباعي
او الموضوعي او العقائدي او اللغوي او
الجامعي ... واما كانت مقاييسه الذاتية او
العلمية او التاريخية او الفنية .. يبقى له
منهجية ، تنطلق من هذه المفاهيم وتحتويها ،
أى هو يعتمد اصولا معينة في فهم الادب ، وفي
تبيان القيم النفسية والفكرية والجمالية . غير
ان هذا لا يعنى الخضاع كل عمل ادبي ، الى
مقاييس ثابتة جامدة ، فتتجسد بذلك شخصية
الناقد ، وتمتلئ منده حساسية التدوق
الذاتية ، القادرة على اكتشاف القيم الخاصة
في كل اثر ادبي بذاته . من هنا كان من الشير
للادب أن تتعدد مناهجه ووظائفه فلا يعمل
الكتاب كلهم عملا واحدا . فبناء الحياة التى
هو شغل الادب لا يختلف من هذا القبيل عن
اى بناء (١٢٠) . او ليس كل اثر هو نتاجا
شخصيا فريدا قائما بذاته (التجربة الواحدة
لا تتكرر عند فنانين بل هي لا تكرر نفسها في
نتاجين لفنان واحد) واذا فمنهج تقديره
والبحث فيه لا يصدران من مناهج سابقة
لانهما لا يحملان احكاما سابقة مستقاة من آثار
أخرى . وعلى هذا يكون المنهج النقدي ، عند
ناقد معين ، صادرا من نوع مقاييسه ؛ بل هو
كيفية عرض لها .

مناهج نقدها منذ نقاد الجيل السابق ، واذا
كان نعيمة يمس بعضها حيناً ، فانما كان ذلك
من قريب ، حيث انك لا تجد تحريبا لوضع
اصول مترابطة في هذه الفنون ، بل خطوات
تتولد من جراء التعليق على قصة او التمهيد
لرواية ...

هذه هي اهم المقاييس التى اعتمدها نعيمة
في نقده ، وهو يرى ان الامة التيقظة بحاجة الى
«تقويم» مفهوماتها الادبية ، وتعديل مقاييسها
وموازنتها الروحية باستمرار (١٢١) ان النقد
في تحد مستمر لانه في نبض مستمر . فعمل
الناقد لا ينتهى ، انه عمل يبدأ من جديد في كل
مرة ، لانه على استعداد دائم لمواجهة الاشياء
والحقائق لتبنيها . ولكل حقيقة نمط تظهر
به . واذا كان يؤكد بان الزمان غربالا اين منه
غرايبيل الناس ، او ان الحياة للحياة وحدها
القول الفصل والحكم الاخير (١٢٢) لا يعنى
ذلك ، عندها ، الا ان الحياة والزمان بمطيان
الناقد « خيرة نقدية » و « تجربة معرفة »
تسيران بالناقد او بالمبدع الى النضج (الزمن
لعمل كبير في تطويع الملكة الشعرية عند
الشاعر (١٢٣) لان المقاييس النقدية ، بالثالثي ،
غير منفصلة عن الحياة او هي من خارج الحياة .
من هنا كان الشاعر في حاجة الى غربال ، لكنه
يجب ان يكون هو الغربال والمغربل معا (١٢٤) .
على هذا تألف جميع الظواهر : الادب
(الادب) - النقد (الناقد) - المقاييس
النقدية (الحياة) . فلا يميز ولا تفرق بين
الابداع والنقد والمقاييس النقدية ، بل كلها
في الحقيقة وجوه متعددة - مظهرا - لشيء

(١٢١) الغريال ص ٢٠٨ .

(١٢٢) نعيمة : دروب ص ١٨٩ .

(١٢٣) راجع الغريال ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١٢٤) الغريال ص ١٦١ .

(١٢٥) دروب ص ٥٤ .

النحو من مؤلف الكتاب (١٣٧) . وبالنسبة للقارئ فله مقاييسه واعتبارات ، ففرض نعيمة في النقد العرض لا الفرض « فما أنا إلا عارض عليه ما عندي » (١٤٠) . والمقالة النقدية التي يعرضها إنما هي « مزيج من فلسفة وأدب وانتقاد » (١٤١) . ينحو بذلك نحو بيلنسكي الناقد الروسي في تنوع المقالة بحيث تضفي جوا من الخصوصية وتبعث على الارتياح والإمتاع ، فلا يصود النقد متعلبا لذاته ، لذا كان يطلب من القراء مطالعتها ، فربما يجدون فيها ما يستحق النظر « لا بل طالعاها ، قبلتم أم لم تقبلوا » ، ولماذا المدحاجة ، فإنا لم اكتبها للدائي » (١٤٢) على غسوء ما تقدم ، يسلك نعيمة في عمله النقدي منهجا تحاول أن نرسم خطوطه فيما يلي :

« أنتهيت السامعة (من « منشود ») ويسرني أن انتقل اليك بشير ابطاء بعض ما تركته هذه الرواية من طيب الأثر في نفسي فقد راقني تصويرك للأشخاص... مثلما راقني ما أجرته على السنتهم ... » (١٤٣) .

وإذاً هو منهج انطباعي تأثري ذوقي ، ينقل مباشرة عند الفراغ من قراءة النتاج ردة الفعل التي تكونت لديه . وهذا هو مادة نقده ، أولا وأخيرا ، فإذا لم تتوفر لا يمكن كتابة أي نقد ، عنده . ثم يبدأ كتابة البحث النقدي بالتعريف

ونعيمة ، قبل كل شيء ، يصدر في نقده النظري والتطبيقي على حد سواء ، عن مقصد واحد هو الإقناع (التأثير) لا الفرض . ولا يكون الإقناع إلا بالصحة (١٣٦) . والسبيل إلى ذلك يتحصل عن ضبط البحث وتصميمه ودقة تأليفه ومثانة ترابطه بمضه ببعض ، فهو مقدمة فشرح فاستنتاج ، وكان هذه العناصر حلقات في سلسلة واحدة (١٣٧) تقوم على التبسيط والوضوح إلى أقصى حد ، فهو عندما يخاطب القارئ تراه ينتقل به خطوة خطوة ، بكل بساطة ، وهذا ضروري ههنا زيادة في سبيل تأكيد الإقناع وفعله في العقلية المتحصرة السبالة ، فيعرض ويشرح ثم يستنتج مكثفا ما يرمى إليه (١٣٨) .

وهو من منطق الإقناع أو التأثير هذا ، وعبر مقالته « القرية » يتبين لنا أن منهجه في النقد منهج تأثري ذاتي (لكل ناقد غرياله ... ولا قوة لدعم مقاييسه غير قوة التمييز الفطرية ..) أي هو منهج لا يقوم على التفسير والتقييم ، بل ينتهي إلى خلق أدبي مبتكر . « أجل إن كل ما يفعله الناقد في نقده هو أن يعرض نفسه بما فيها من قلق وشوق ، وذلك في عرض الكلام من غير » . فقد يقلقه أشد القلق أن يقع في كتاب ما على مجرور يحرف اللام بدلا من الباء فيثور تأثره ولا يهدأ باله ، حتى يعلن على الألا أنه أرسنخ قلطنا في علم

(١٣٦) القريل ص ١٨٦ .

(١٣٧) انظر القريل ص ١٨٨ .

(١٣٨) هذا هو المنهج الذي اتبعه بوضوح كبير في مقالته « القرية » راجع القريل ص ١٢ - ٢٢ .

(١٣٩) دروب ص ١٧٩ .

(١٤٠) القريل ص ١٢٩ .

(١٤١) المرجع نفسه ص ٢٠ .

(١٤٢) المرجع نفسه ص ٤١ .

(١٤٣) نعيمة : « منشود كما يراه نعيمة » راجع الحكمتي ١٩٥٥ ج ٢ ص ٥٠ .

العمل الأدبي بسيرة الكاتب وبالعصر الذي عاش فيه (١٩٤١) . ولعل نعيمة يحدو في ذلك جدو سانت بوف ، الناقد الرومنسي الكبير ، في منهجه الذي يتلخص بالعناية بالكاتب ودوره قبل نقد مؤلفاته ، واعتبار شخصية المؤلف أساساً لفهم ما يكتب ولنقده . ليس الأدب - أي الإنتاج الأدبي - منفصلاً في نظري من الإنسان ، فبإستطاعتي أن ألدق مؤلفاً أدبياً ، ولكن من الصعب أن أحكم عليه دون معرفة للكاتب نفسه ، وذلك لأنه كما تكون الشجرة يكون ثمرها ، وهكذا تقودني الدراسة الأدبية إلى الدراسة الإنسانية قيادية طبيعية (١٩٤٧) . وقد بلغ به هذا الاتجاه أن راح يتطلبه ليس في الدراسات النقدية البحتة وحسب بل حتى في كتب « المنتخبات » أو ما نحت نحوها . فاسمعه يعاتب أحدهم لعدم ذكر ترجمة من حياة كل شاعر ذكر له قصيدة في كتابه ، ويقول « تميت لو أنك أوردت لذلك من حياة كل شاعر ترجمت منه . ففي ذلك نفع للقارئ العربي الذي لا يعرف شيئاً من أولئك الشعراء والذي يظل عليهم لأول مرة من خلال كتابك » (١٩٤٨) لأن النقد الحق (يتكون - كما أجده - من دراسة كل شخص ، أعني كل مؤلف ، أعني كل ذي موهبة ، حسب أحواله الطبيعية لكي نقيم له وصفاً حيويًا حافلاً ، حتى يمكن أن ينزل - فيما بعد - في موضعه الصحيح من سلم الفن » (١٩٤٩) .

بالأثر المنقود ، وذكر موضوعاته ومحتوياته ووصفه (١٩٤٤) . وهو يهتم كثيراً بعرض جانب الحياة الخاصة والوسط اللذين يعيشهما الشاعر أو الكاتب المنقود ، بكل تفاصيلها ودقائقها ، حتى تكتمل ، في رأيه ، صورة المنقود ، في الأمل وجه ، لم يتحدث من ثقافته وتعلمه ذاكراً أول أطلالاته الأدبية (أين ومتى) ثم ينتقل إلى القسم الثاني وهو دراسة مؤلفات (أو مؤلف واحد بعد ذكرها جميعاً) (١٩٤٥) . أي بإمكاننا لدق الإنتاج الأدبي دون معرفة صاحبه ، ولكنه لا يمكننا فهمه وتقديره حق قدره ، وبالتالي ، فإن نعيمة يحاول أن يلم ، في طريقة للفهم ، بكلية الأدب في شكل مؤلف . فما يهمه من النتائج ، أولاً وأخيراً ، هو اكتشاف الإنسان وراء الأدب أكثر من اهتمامه بالفنان . أن الأثر الأدبي وحده ، منفصلاً عن صاحبه ، ومعتبراً لذاته ، ليس هو غرض نعيمة في البحث . وهكذا ينتهي إلى النقد الإخلاقي الذي صرف في أوروبا منذ القرن التاسع عشر وقصاره « أن جمال الأثر الفني يجب أن لا يواجه بصورة مجردة ومستقلة من الوسط الذي نتج فيه ريتان : مستقبل العلم) . أي ليس للأدب قيمة أو جمال إلا بامتباره شهادة للإنسان . فلا قوانين مجردة ، ولا قواعد مطلقة . فلا يمكن الإعجاب بالنتائج الأدبية إلا على أساس معرفة صاحبه وزمانه ومكانه معرفة حققة سليمة . وكان Villmain (١٧٩٠ - ١٨٧٠) أول من أراد أن يشرح

(١٩٤٤) أثير الغريال ص ١٨٩ ومجمل رسائله النقدية .

(١٩٥٥) أثير رسالة نعيمة (نولستوى علاق الروح والفلم كورساته فوري من القاع ، إلى القمة أيار ١٩٥٨) ومقالة (عمر الفخوري الفنان) للشهيرة في الرسالة ١٩٥٦ ج ١ ص ١ ، ومجموع رسائله الأخرى .

(١٩٦١) راجع فان تيلم « اللاهظ الأدبية الكبرى في فرنسا ص ٢٢٠ .

(١٩٧٧) سانت بوف : إحداهن الإنتاج الجديدة ج ٢ : مقال عن شاتوبريان .

(١٩٨٠) رسالة نعيمة إلى صاحب « قصائد من الأدب الأجنبي التوفيق اليازجي ، الأدب ١٩٦٢ ، ج ٨ ص ٥٧ .

(١٩٩٠) راجع ستيفلي هايمن : النقد الأدبي وممارسته الحديثة ج ١ ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .

المحتوى والشكل :

التصميم ، والمنهجية ، وليس هو مجرد خطرات متبادلة أو متناثرة ، أساسه التحرى النفسى . وهو ، بعد كل ذلك ، يعتمد في منهج البحث ظاهرة « الربط » بين مجمل نتاج الشاعر فيتأتى له بإخلاص وأمانة وسلامة ، كيفية تطور الشاعر أو الكاتب في خبراته الأدبية وتجاربته الحياتية . وهذا ما يتفق مع منزهة التأثير ، بكل تأكيد ، إذ « تقول التأثيرية على « الربط » فإذا عرضت قصيدة انتقل مثلثيها ... إلى أشياء ترتبط بها ... وقد يأخذ الربط شكلا خاصا نسميه التشخيص ، ويحكى التلقى في وصف العمل الفني مؤثرات نفسية(١٥٢) وبيولوجية ويخضع التلقى لسلطان الذاكرة واحكام التلاصق (١٥٤) . وإذا اعتمد المقابلة بين مختلف مؤلفات الأديب الواحد لينتهى إلى الحكم الصحيح على النشاط الخاص به (١٥٥) . ذلك أن « المقابلة » والتحليل هما في رأى أبليسسوت ، عددا الناقد الأساسيتان ، ويقومان على تشريع المنقود وتفسيره تفسيراً مستمدا دائما من عند الناقد يكمل به نواقص الأثر فيفسد بعض الخلط الواضح فيه . إلا أن اعتماد المقابلة هذه سبيلا في النقد لا معنى ، عند نصيحة ، الانتهاء إلى تحديد مراتب الكتاب وطبقاتهم ، فإذا كان للناقدين ولع بتحديد مراتب الكتاب والشعراء والمقابلة بين واحد منهم والآخر وتفضيل هذا على ذاك أو ذاك على ذلك - وقد يكون في مقابلاتهم وتفاضيلهم نفع لهم أو لقرائهم « أما أنا فان عثرت على كاتب له قلب يخبر وعقل يفكر وقلم يسطر شكرت ربي ألف مرة ومرة . وتركت

إذا انتقل إلى القسم الثانى ، وهو دراسة الأثر المنقود نفسه ، فتراه يشرع في عرض مقاييسه « قلت في مقدمة الكلام أن أول ما يتطلبه من الشاعر هو المدى - مدى الفكر والم عاطفة والبيان . ومن ثم اتفحصى قوالب شعره الخارجية . أما المدى فليس من ينكره في شعر (نسيم عريضة) ... وأما قوالبه ... (١٥٠) . وتراه في معظم الأحيان يتهج في أحكامه نهجا فعوا « شربة على الحافر وضربة على السمارة » ، فكلمنا ذكر الرديء ذكر إلى جانبه الجيد في آن ، ومن قصد ، ويكفي أن نتمثل هنا ببعض ما جاء في نقده « للندرة الشرقية أمثال كثيرة من ... الوصف السطحي الذى لا يحرك فكرا في رأس ولا يرسم صورة في مخيلة ، ولا يهيج عاطفة في قلب . غير أن فيها من الوصف الشعري ما يكاد يشفع بتلك الترهات لو لم يكن ضائعا بين أبيات جاءت حشوا ، فبان كسمة من الزهر في حقل من العوسج » (١٥١) ولشدد ما كان يوجهه الأثر السبى التاليف (بدليل ظاهرة التكلف والتفكك في القصيدة ، وانعدام الوحدة الموضوعية فيها ، ثم تقلب الشاعر السريع في بنائها) كل ذلك يبعث عنده شعورا بالحيرة ، فلا يعود يملك أمره أو يتدبر عمله النقدي ، متى تقلب الشاعر ... التقلب السريع بين مطلع القصيدة وختامها ولم يترك في النفس سوى رنة القافية المتتابعة ، حار في أمره الناقد وسدت في وجهه السبل . فلا حول ولا « (١٥٢) ، لذا يتأتى لنا أن بحث نعيمة النقدي يقوم على التنظيم ودقة

(١٥٠) راجع الفريال ص ١٤٢ .

(١٥١) المرجع نفسه ، ص ١٤٩ .

(١٥٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٤ .

(١٥٣) راجع مقالة « الأنواع العنارة » في الفريال ص ١٣٤ .

(١٥٤) مصطفى ناصف : دراسة الأدب العربي ص ٢٦ .

(١٥٥) الفريال ص ١٦٤ .

يحكم بأن هذا البيت من الشعر أو ذاك هو خير بيت قيل في هذا المعنى أو ذاك أو أن هذا الشاعر هو أحسن شاعر في هذا الفرض أو غيره) . ولعل تفسير هذا عندنا يعود إلى اعتبار نعيمة أن العمل النقدي استغناء لقوى الناقد « هذا حد مداركنا وغاية ما بلغت قوة التمييز فينا (١٦١) فيصدر الأحكام داعمها بكل تأييده .

التهكم والسخرية :

من سمات منهجه في النقد ، أيضا ، روح التهكم والسخرية اللاذعين . وكثيرا ما استعانها في مجمل أبحاثه النقدية النظرية والعملية . فكاني به ، قد تحول بظاهرة التهديد والتجريح والانتقام من شخصية المنقود إلى ظاهرة تهكم موضوعي على النظرة والعقليات في فهم الأدب وتقديره . وهذا وجه أرقى . وأكثر مواضع هذه الظاهرة بروزا عنده في مقالاته «الحباحب» (الفريلال ص ٢٧) والذرة الشوقية (الفريلال ص ١٤٦) وإبتسامات ودموع (الفريلال ص ١٨٣) ومستهل «أغاني الصبا» (الفريلال ص ١٨٩) . وأماكن أخرى ، ولكم كان موقفا في سلك هذا المسلك ، فتأتي سخريته تدمر حيث تبدو وكأنها تتحاشى أن تمس مسأ . فهو هنا لا يقل جودة وفنائه في رسائنه وأقواله . فيصقل تأليفه لتكشف منه خواطره الحية . وإرائي مضطرا لنقل هذه الأسطر لتبين هذا الملح عنده ، فيقول في «الذرة الشوقية» (قصيدة

القاريء المقارنة بينه وبين سواه ومحاسنته بالخطأ والصواب والحلال والحرام والنفع والضرر . فتقدر لك الكتاب منوط بما تقرأ من نفسك ومنها في سطوره وبين سطوره لا بما يقرؤه سواك (١٥٦) . ولكنه في رفضه لظاهرة تحديد المراتب وتقسيم الشعراء إلى طبقات إلا يتعارض مع ما قال به في موضع آخر من هذا البحث حين صرح بوضوح بأن الكتاب طبقات ومكملهم النقاد ، وما يصح أن يقال في الواحد منهم لا يصح أن يقال في كلهم « كما أن الشعراء والكتاب طبقات » (١٥٧) .

ومن جانب آخر ، كان أحيانا ، بنتيجة هذه المقابلة أو المقارنة ، يجد نفسه على غرار النقاد القداسي في موقف يطلق فيه « الأحكام المطلقة » من الاندفاع الشعوري المتحمس . فبعد أن يسود فقرة من مقول المنقود يردف بسرعة حكمه التالي وكأنه ضرورة جمعية في السياق النقدي عنده : « فهل قرأت أرق وأدق وأبدع من هذا الوصف (١٥٨) . أو يكثر في حديث آخر من « صيغ » التفصيل كمثل « ما أظن فنانا من أبرع الفنانين كان يستطيع أن يرسم .. صورة أوقع في النفس ... و « أبلغ من تهكمه ... و « الغاية في الإبداع .. » في مقال يمتد إلى صفحتين تشغل الاستشهادات قسما كبيرا منها (١٥٩) . أو تراه في موضع آخر يطلق لنفسه العنان ليحكم في بيت واحد من الشعر على أنه « أجمل بيت وصفي في ديوان الشاعر على وجه الإطلاق ... (١٦٠) . (كل هذا يصدر عن منهج نائري ذوقي) وهذه هي عادة القلماء في النقد كما هو معروف ، ذلك أن الناقد كان

(١٥٦) الفريلال ص ٢٤٥ .

(١٥٧) الفريلال ص ١٧ .

(١٥٨) نعيمة - مهر فاخوري أدب وتسلان ، راجع الطريق ١٩٥٠ ج ٢ و ٥ و ٨ .

(١٥٩) راجع مقالة نعيمة : مهر فاخوري اللذان ، الرسالة ١٩٥٦ ج ١ ص ٦ .

(١٦٠) انظر مقالة نعيمة « الترويات » في الفريلال ص ١٦٠ .

(١٦١) الفريلال ص ١٢٧ .

ولكن هذا التهمك لا تجد له اثرًا في هذا الكتاب (كتاب جبران) وإنما هو النقد الجاد الصارم ، الذي يمتزج بالحياة الجادة ، فهو يريح ويبتك . ولا يتهمك ، وإذا تهكم فلا يبتسم (١١٦٢) .

ان عملية الهدم ، عند نعيمة ، وعملية البناء وحدة متكاملة تتجسد في عملية النطق ، التي لا تكون الا مع الانسان ، الذي هو اعظم من الزمان والمكان (١١٦٤) . انها الروح الخالدة التي تمتد وراء الحدود والاصطلاحات . اى ان الادب والنقد استثمار للأشياء ومصالحتها ، وبالتالي اعتماد من التسليم وانصراف الى التأمل - من هنا لم يعتمد نعيمة ، المنظور اللغوى ، لينتهى الى الذوق الادبي (١١٦٥) ، بل انحد ، في نقده ، منهجاً روحياً يبدأ بالنظر الفكرى والروحى الى الاشياء والكائنات (الآثار الادبية) لينتهى الى الذوق الادبي ، فالتنظر اللغوى . ذلك لان النقد ينفر من الهياكل الجاهزة والقوالب المحددة . انه تفتق شعورى وفنى .

لاحمد شوقي كان قد نشرها في الهلال (مرتفعاً بالهزة في تصاعد مستمر ميطن « لقد سمعت » بدور « شعورية كثيرة ولما اعلمت فيها طرف المبرد وجدتها صدفاً لما « . ولولا ما للهلال عندي من الاعتبار والثقة بحسن ذوق صاحبه الفنى والادبى لما اقبلت على مطالعة « النرة الشوقية » . لكن للهلال في معنى منزلة خاصة به بين سائر المجلات والجرائد العربية : فقد تعودت منذ ايامى المدرسية ان اصدق ما يقوله الهلال وان اعتبر من يعتبره ، واحتقر من يحتقره ، لذلك عندما رأيتُه يقدم لي درة قلت لاشك في انها درة . . . ووقفت قليلاً لاناكد مما اذا كنت اطالع قصيدة جاهلية ام عصرية . . . (١١٦٢) . غير ان نعيمة لم يجر على ذلك في جميع منتوجه النقدى ، فهو في كتابه « جبران خليل جبران » انصرف الى التقدير البائى ، يحلل ويدقق في اصول فنية متكاملة ، مما دفع خليل هندادى الى التعليق على ذلك بان قال « لصاحب الفريال روح كانت تظهر بتهكم لاذع ، تسلك به السبيل الذى تريد ،



(١١٦٢) الفريال ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(١١٦٣) خليل هندادى : التصوير والنقد والفن عند ميخائيل نعيمة في كتاب جبران خليل جبران ، صوت الاحرار ، كانون الثانى ١٩٣٦ ص ٦ .

(١١٦٤) راجع نعيمة في فصل « خراب ماعول » من كتاب هوامش (بيروت دار صائت ١٩٦٥) .

(١١٦٥) هذا هو التوجه النهي في النقد وقد اتبعه فيما بعد محمد مندور : راجع كتابه « في الميزان الجديد » ص ٦٩ .



عرض وتحليل ونقد لكتاب :

قوة الفدائيين العرب ١٩٦٧-١٩٧٢

عرض وتحليل: الدكتور أسعد عبد الرحمن

كتب (آخرها هذه الدراسة) عن حركات مسلحة وثورات وحروب وقسمت في الوطن العربي ، سواء في شمال العراق أو الجزائر أو فلسطين أو اليمن ، زيادة على كتبه الخاصة بالحروب العربية - الإسرائيلية الثلاث الأولى .

وتمتاز دراسة « أوبالانس » :

أولاً : بتسلسل منطقي وزماني وتقسيم جغرافي يجعل محتوياتها تنساب الى ذهن القارئ ، عبر أحد عشر فصلاً دونما أي تشويش . وستظهر معالم هذا التسلسل وذلك التنسيق منلحاً تعرض للمادة المتضمنة في الدراسة . وفي هذا المجال ، سيشكل استعراضنا لمحتويات الكتاب الجانب الرئيسي الأول في هذه المراجعة .

ثانياً : تتمتع الدراسة بمادة ومعلومات غزيرة تشهد على اطلاع المؤلف واتصالاته وعلى

تمثل هذه الدراسة التي وضعها الميجر « ادجار أوبالانس » بعنوان « قوة الفدائيين العرب : ١٩٦٧ - ١٩٧٢ » . حلقة في سلسلة تقع في خمسة عشر كتاباً نشرها المؤلف في ربع القرن الأخير . وتختص هذه المؤلفات بمعالجة مواضيع عسكرية الطابع ، تشمل إجمالاً محددة عن جيوش معينة أو عن حروب اقليمية أو أهلية ، تفطى شريطاً عريضاً من البلدان المختلفة على امتداد رقعة واسعة من الكرة الأرضية . فقد كتب « أوبالانس » عن « الحرب الهندية الصينية : ١٩٤٥ - ١٩٥٤ » وعن « كوريا : ١٩٥٠ - ١٩٥٣ » وعن الملايو : حرب المصيان الشيوعي بين ١٩٤٨ - ١٩٦٠ » وعن « الجيش الاحمر الروسى » و« الجيش الاحمر الصينى » كلا على حدة ، وعن « الحرب الاهلية اليونانية : ١٩٤٢ - ١٩٤٩ » وعن « حرب العصابات » بشكل عام . ومن « حكاية الفرق الاجنبية الفرنسية » بالإضافة الى سبعة

(٢٠ - ٢١) . الا ان هذا التوقف في الهجمات والفارات لم يمنع فكرة العمل الفدائي من التفاعل في العقل الفلسطيني . ومع نهاية الخمسينات ومطلع الستينات بدأت الفكرة بالخروج الى حيز العمل فبرزت عدة تنظيمات فلسطينية تدعو جميعها الى اعتماد الكفاح المسلح اسلوبا اساسيا من اجل تحرير فلسطين . وبالرغم من انشاء « منظمة التحرير الفلسطينية » في العام ١٩٦٤ ، فان الانظار اتجهت الى « حركة التحرير الوطني الفلسطيني - فتح » اثر مباشرتها النضال المسلح في مطلع العام ١٩٦٥ (٢٣ - ٢٦) . وهنا يتابع المؤلف حديثه محاولا تاريخ حركة فتح مستعرضا ، دونما توفيق كبير ، جذورها وردود الفعل الاسرائيلية والعربية ازاء اعمالها ، مشيرا الى ازدياد شعبية عملها في الاشهر التي سبقت حرب حزيران - يوليو ١٩٦٧ - (٢٩ - ٣٤) .

في الفصل الثاني « السمكة والبحر » ، يوضح « اوبالانس » الترابط ما بين موقف الرفض العربي كما تجلى في لاءات مؤتمر الخرطوم الشهيرة وبدء موجة العمل الفدائي (٣٦) . وبعد ان يستعرض المؤلف سقوط قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وصعود فتح عبر المقاومة وعبر تجميع السلاح من سيناء (٣٨) وتشكيل خلايا سرية داخل المناطق المحتلة (٣٩) و (٤٢) « يقرر » فشل العمل الفدائي في تطبيق منطق السمكة (الفدائيون) والبحر (الجماهير الفلسطينية داخل الاراضي المحتلة) مما دفع المنظمات الى اقامة قواعدها شبه الثابتة على الحدود وبدء حرب استنزاف ضد اسرائيل (٤٢) - (٤٣) . وقد تمثلت قمة الفارات الاسرائيلية الانتقامية في « معركة الكرامة » التي منيت بها الفطرس الاسرائيلية بضربة موجعة ، في حين شكلت تلك المعركة بداية الزخم الفلسطيني الجديد في العمل الفدائي الفلسطيني

المامه ، وبالتالي ، وفي كثير من الاحيان ، بادق التفاصيل . على ان ذلك لا يعنى ان الدراسة خالية من الاخطاء الفادحة احيانا ، على مستوى المعلومات . وسيشكل تعدادنا لابرز هذه الاخطاء الجانب الرئيسي الثاني في هذه المراجعة .

ثالثا : « تفاخر » الدراسة بانها نجحت في معالجة الموضوع بقدر من الموضوعية يجعلها اقل تحيزا من غيرها لصالح وجهة النظر الاسرائيلية - الصهيونية - الغربية المناهضة لوجهة النظر العربية . وستشكل اشارتنا الى بعض اوضح المغالطات حول هذه المسألة الجانب الرئيسي الثالث في هذه المراجعة .

الجانب الاول : المحتويات

يفحص المؤلف الفصل الاول ، « عبادة الفدائيين » The Cult of Fedayeen لاستعراض جلدور النشاطات الفدائية الفلسطينية من تقاليدية تبتدا مع اسدال الستار على احداث الحرب العربية - الاسرائيلية الاولى في العام ١٩٤٨ . فيشير « اوبالانس » الى ان غارات العرب بشكل عام ، والفلسطينيين بشكل خاص ، كانت في مطلع الخمسينات ، غارات فردية لم تحركها دوما الاعتبارات الوطنية (ص ١٦) ، وبقي الحال كذلك الى ان بدأت الجبهة المصرية - الاسرائيلية بالانتهاج في العام ١٩٥٤/١٩٥٥ مما ادى الى هجمات فدائية منظمة ومنسقة ومدعومة من النظام المصري الجديد . وقد تلبور رد الفصل الاسرائيلي في غارات انتقامية كبيرة وقع العديد من المصريين والمصريين الفلسطينيين ضحية لها (ص ١٩) . وبقي الحال على ما هو عليه على الجبهة المصرية حتى ازداد تصاعدها فشلت الجبهة الاردنية وادى بالتالي ، الى حرب السويس (الحرب العربية - الاسرائيلية الثانية) في العام ١٩٥٦ . ومع انتهاء تلك الحرب خيم على تلك الحدود هدوء نسبي

« الحمة » بعد تحريرها لمدة بضعة ساعات (٧٧) . كما يشير المؤلف الى تضارب مصالح ونشاطات بعض فصائل المقاومة (الجبهة الشعبية باللدات) مع مصالح بعض الدول العربية ، خاصة بعد أن نسفت الجبهة جزءا من خط اتايبب التابلاين (٧٨ - ٧٩) . هذا وقد حرص « أوبالانس » على رصد ردود الفعل الاسرائيلية « غارات خارج المناطق المحتلة واللجوء الى اغتاف الوسائل داخل تلك المناطق) ازاء الهجمات الفدائية . كما يتحدث « أوبالانس » عن ردود الفعل على حرق المسجد الأقصى في ٢١/٨/١٩٦٩ (٨٢ - ٨٣) ومن ازيداد حدة التناقض بين الفدائيين والسلطات الاردنية (٨٤ - ٨٥) . واخيرا لا يفوت المؤلف الاشارة الى التوترات بين الاطراف المشاركة في « الجبهة الشرقية » والى التفرقات بين فصائل المقاومة وبخاصة « حرب الدماية » التي اتدمت فيما بينها (٨٨ - ٨٩) .

ينتقل المؤلف بعد ذلك الى ليشان فيشرح في الفصل الخامس « ارض فتح » العوامل التي أدت الى بدء تركيز العمل الفدائي في بعض مناطق جنوبي الجمهورية اللبنانية (٩١ - ٩٤) ويربط « أوبالانس » بين هذا التطور والازمات التي حكمت العلاقات الفلسطينية - اللبنانية (٩٤ - ٩٦) والتي أدت الى « تحرير » المخيمات من السلطات اللبنانية والى سلسلة من الاقتتالات (٩٨ - ٩٩) كان أبرزها صدامات تشرين الاول - اكتوبر ١٩٦٩ . تلك الصدامات التي انتهت - عبر الوساطة المصرية - الى عقد اتفاقية مرفت باسم « اتفاقية القاهرة » (٩٩ - ١٠٢) . كما ويستعرض المؤلف التوترات والصدامات التي وقعت بين الفدائيين وبعض الفئات اللبنانية مثل «حادثة الكحالة» (١٠٩) ويتضمن العرض وصفا لما اشتهر فيما بعد باسم معركة العرقوب (١١٠ - ١١١) التي واجه فيها الفدائيون الفلسطينيون القوات الصهيونية ، وما تلا ذلك من اتهامات للجبهة السورية - الاسرائيلية (١١٤ - ١١٥) .

(٤٦ - ٤٧) ليس في مواجهة اسرائيل فحسب بل وفي مواجهة السلطات الاردنية ايضا (٤٨) .

يركز المؤلف في الفصل الثالث « توسع الفدائيين » ، على معالجة ما يمكن تسميته بالمرحلة الأولى من العمل الفدائي العلني (٥١) ، شارحا التزايد المستمر في اعداد رجال المقاومة وكيف مكنتهم ذلك الوضع من فرض وجودهم العلني وتحسين احوالهم المالية (٤٩) . كما يستعرض « أوبالانس » نشأة المنظمات الفدائية الاخرى (٥٠) (٥٢ - ٥٣) ، محاولا - بدون نجاح كبير - شرح موقف الاتحاد السوفياتي من العمل الفدائي في تلك الفترة (٥٦ - ٥٧) ومبينا ازيداد مكانة المنظمات في الاوساط الشعبية والرسمية العربية وسيطرة حركة فتح وباقي المنظمات على منظمة التحرير (٥٤ - ٥٥) . كما واستعرض المؤلف الازمة الرئيسية الاولى بين منظمات المقاومة والسلطات الاردنية في شهر تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٦٨ (٦٢ - ٦٥) ، وينتهي هذا الفصل مع سرده لبداية العمليات الخارجية التي ابتكرتها « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وما تلا ذلك من ردود فعل اسرائيلية كان أبرزها الهجوم الاسرائيلي الشهير على مطار بيروت (٦٨ - ٦٩) .

اما الفصل الرابع « معاذم الفدائيين » فانه يتضمن تثبيتنا حقيقة كون العمل الفدائي قد وصل ذروته في العام ١٩٦٩ ، وذلك بسيطرته الكاملة على منظمة التحرير (٧٠ - ٧١) وتحقيق بدايات في الوحدة الوطنية الفلسطينية (٧٥) على الرغم من معاناة أحد أكبر التنظيمات الفدائية (الجبهة الشعبية) من سلسلة انشقاقات من جهة (٧١ - ٧٢) ، وعلى الرغم من عدم تبلور موقف إيجابي - حسب اعتقاد المؤلف - من قبل الاتحاد السوفيتي من جهة ثانية (٧٦ - ٧٧) . وقد شهد ذلك العام تطورا نوعيا في عمل حركة المقاومة ، إذ تمكنت « فتح » من رفع العلم الفلسطيني في بلدة

لواجهة بات وقوعها امرا متوقعا ووشيكاً
(١٣٥ - ١٣٦) .

وفي الفصل السابع يستعرض المؤلف
التصادم المتسارع في التوتر بين السلطات
الاردنية والفلسطينية وصولاً الى انفجار
« الحرب الاهلية في ايلول - سبتمبر من العام
١٩٧٠ » . وقد بدأ هذا التسارع مع خطاب
الملك حسين الذي اعلن فيه موافقته على بادرة
روجرز (١٣٧) . وفي تلك الاثناء ، قامت
« الجبهة الشعبية » بتنفيذ سلسلة من العمليات
التي استهدفت خطف طائرات عدد من البلدان
المعادية واجبرتها على الهبوط فيما عرفت
باسم « مطار الثورة » (مطار داوسون الميجور)
باستثناء طائرة الجمبو التابعة للبان اميركان
والتي نسفها فدائيو « الجبهة » على ارض
مطار القاهرة (١٣٨ - ١٤٠) . هذا في الوقت
الذي بدأت فيه الاشتباكات المحدودة بين
الفدائيين والسلطات الاردنية تزداد قوة
وانتشاراً حتى شملت معظم مدن المملكة وحتى
بلغت قمتها باندلاع الحرب الاهلية يوم ١٧
ايلول - سبتمبر ١٩٧٠ (١٤٣ - ١٤٥) .
وقد خصص « أوبالانس » الصفحات التالية
(١٤٥ - ١٦٠) لشرح ادق « التفاصيل من
معارك ايلول بما في ذلك الدعم السوري
للفدائيين ، وتمحور الوضع الدولي بين مؤيد
لهذا الفريق ومؤيد لذلك (١٥٠ - ١٥٣) .
وبقي الحال كذلك على الرغم من انعقاد المؤتمر
الطاريء للرؤساء والملوك العرب ، والذي مثل
الاردن فيه اليريجادير محمد داود ، والذي عين في
وقت سابق رئيساً للحكومة العسكرية التي
انيطت بها مهمة القضاء على الفدائيين (١٥٣) .
وفي مرحلة لاحقة ، وائر ايفاد مؤتمر القمة
الرئيس السوداني (جعفر النميري) الى عمان
نجاح المؤتمرين في اعلان « اتفاق القاهرة » بين
عرفات والملك حسين الذين كانا قد وصلا الى
العاصمة المصرية أثناء احتدام المعارك في الاردن
(١٥٤ - ١٥٥) جدا وقد أعقب ذلك اتفاقية

وفي **الفصول الثلاثة** التالية يعود المؤلف
بالقارئ الى الساحة الاردنية ، فيشرح عبر
تتابع زمني الاحداث التي شكلت « **مدخلا الى
الحرب الاهلية** » (**الفصل السادس**) **مركزاً**
في الفصل الذي يلي (السابع) على وقائع
« الحرب الاهلية في الاردن » ومنتهياً (في
الفصل الثامن) الى « **هزيمة الفدائيين في
الاردن** » .

وتتضمن صفحات الفصل السادس عرضاً
وافياً بسلسلة العمليات التي قامت بها
« الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » في اكثر
من مكان خارج الشرق الاوسط ، والتي
تضمنت بالاساس ، خطفا لطائرات متنوعة
الجنسيات ، وهجوماً على اكثر من مطار في
اوروبا ، ونسفاً لعدد من الطائرات (١١٧ -
١٢١) . وفي تلك الاثناء كانت العلاقات الاردنية
الفلسطينية لزداد تشنجا واقترباً من درجة
الصدام العاسم ، الا ان الملك حسين عرف -
اكثر من مرة - كيف يحني رأسه للرياح
الفدائية الشديدة لحافظ على « شعرة معاوية
بينه وبين الفدائيين وكان ذلك كله مدعاة
لاستياء القبائل البدوية ومعظم قطاعات
الجيش (١٢١ - ١٢٢) و (١٢٧ - ١٢٩) . وفي
هذه الاثناء ، قام عرفات بعدة زيارات شملت
الاتحاد السوفياتي والصين وقيتنام (١٢٣ -
١٢٤) في حين كانت الهجمات على اسرائيل
متصلة وكذلك الغارات الانتقامية الاسرائيلية
(١٢٥ - ١٢٦) . وقد ازداد التوتر بين اطراف
الصدام الثلاثي الجوانب (الفدائيون -
اسرائيل - الاردن) بعد اعلان وليم روجرز ،
وزير الخارجية الاميركية ، من مبادرته للسلام
والتي وافق عليها عدد من الرؤساء العرب
كان في طليعهم الرئيس جمال عبدالناصر والملك
حسين (١٣١ - ١٣٣) . وكانت الحيلة ان
ساعت علاقات الثورة الفلسطينية ليس بالاردن
فحسب ، بل ومع الجمهورية المتحدة أيضاً ،
وبدا كل من الفدائيين والملك حسين يعد نفسه

وجودهم على الأراضي الاردنيّة حين استشهد أبو علي إباد ، أحد أبرز قادة فتح (١٧٩ - ١٨٣) وأثناء انعقاد مؤتمر الدفاع العربي المشترك في مقر جامعة الدول العربية في القاهرة قام بعض أنصار أبو علي إباد بغتيال وصفي التل الذي كان يمثل الأردن في ذلك المؤتمر بوصفه رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع ، وقاداعن الفدائيون انتقامهم إلى منطقة جديدة حملت اسم « أيلول الأسود » (١٨٥ - ١٨٦) . أثناء ذلك ، كان الوجود الفدائي في لبنان يتعزز يوماً بيمين يند إليه من الساحة الأردنية (١٨٩) في حين كانت إسرائيل توجّه ضربات قاسية لبعض الخلايا الفدائية في المناطق المحتلة . وعندئذ لم يكن قد بقى في الساحة الفلسطينية أية نقطة ضوء متوهجة سوى غزة (١٩٠) .

والفصل التاسع برمته مخصص الحديث من صعود وتعاين غزة ، ذلك الصعود الذي منع إسرائيل من تحقيق مخططاتها بالنسبة للقطاع ، وذلك التمايز الذي جعل غزمتختلفة عن باقي المناطق من زاوية حدة مقاومتها للاحتلال الإسرائيلي . ويلدكر « أوبالانس » أن البداية في النضال الحقيقي جاءت مع نجاح كل من فتح والجهبة الشعبية في الوصول إلى غزة والانتشار فيها بدءاً من العام ١٩٦٩ (١٩١) . وقد ترافق العمل العسكري مع انتفاضات طلابية ونسوية (١٩٣) على الرغم من لجوء إسرائيل إلى أسلحة الوسائل (المطاردة والقتل ، نفس المشاة ، حظر التجول ..) استعرت العمليات الفدائية ليس ضد قوات الاحتلال نصب ، بل وضد كل الأفراد الذين تعاونوا مع إسرائيل . وعندما لم تفلح مجازر أيلول - سبتمبر على تصاعد العمليات في القطاع ، قرر موشيه دايان ، وزير الحرب الإسرائيلي آنذاك ، القيام بتفريد

أخرى عرفت باسم « اتفاقية عمان » ينسحب الفدائيون بموجبها خارج المدن ليعتزلوها عند الحدود مع إسرائيل (١٥٩) . وما كاد الاقتتال يتوقف حتى قام الملك حسين بتعيين وصفي التل (١٠/٢٨/١٩٧٠) رئيساً للوزراء (١٦٠) .

أما الفصل الثامن « هزيمة الفدائيين في الأردن » فيستعرض شريط الأحداث التي أدت إلى إخراج الفدائيين من المدن ولسليم أسلحة الميليشيا في المخيمات ، بالإضافة إلى معاصرة الفدائيين المتمركزين في أحراش جرش وصجلون إلى خارج الأراضي الأردنية وكل ذلك تحت سمع وأمام أبصار لجنة المراقبة العربية (١٦١ - ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦) . ويمتدّد المؤلف أن ما كشفته « هزيمة » الفدائيين في الأردن يتلخص في افتقارهم للاستراتيجية الواضحة ، وفقدان الوحدة ، ولعدد وجهات النظر ، وهجر القيادة (١٦٢) . ومع ذلك يشير الكاتب إلى نجاح المنظمات الفدائية في تقليص عددها من أحد عشر تنظيمًا إلى أربعة أو خمسة تنظيمات ، وذلك عبر سلسلة اندماجات في حركة فتح (١٦٣) ، إلا أن موجات النقد والتفقد الذاتي ملأت الساحة الفلسطينية واستمرت « الجبهة الشعبية » في موقفها المتصلب الرفض تسليم أسلحة الميليشيا وإي صيغة للتعاون مع نظام الملك حسين (١٦٩) . ومع بدء الربيع بات واضحاً أن الصدام واقع لا محال ، وأن إسرائيل - هير ما أعلنه مسؤولوها - ستكون جاهزة ومستعدة للتدخل إذا ما بدر أي طرف (المقصود سورية والعراق أساساً) لمساعدة الفدائيين (١٧٥) . هذا وقد تعاظم القتال في شهري أيار - مايو وحزيران - يونيو وبلغ قمته في تموز - يوليو حيث دارت معارك عنيفة في جرش وصجلون ، خسر الفدائيون نتيجتها

وأخيراً يلخص المؤلف في الفصل الحادي عشر (عودة إلى الوراء ونظرة إلى المستقبل » الأفكار الرئيسية السائدة في الدراسة مستنتجاً أن العمل الفدائي « فشل في التحقيق » هدفه فشلاً كلياً » (٢٢٩) إذ أن إسرائيل لا تزال تسيطر على جميع المناطق التي احتلتها في العام - ١٩٦٧ . ويعزو « أوبالانس » ذلك « الفشل » إلى : عدم فهم الفدائيين العرب لاصول الحرب الثورية ، تعدد فصائل المقاومة ومعارضها ، وعدم ظهور زمامة وقيادة حقيقية قادرة ، وعدم قدرتهم « على فهم حقيقة مؤداها أن ليس من دولة » والحال ينطبق على الدول العربية - يمكن أن تسمح بوجود « دولة » أخرى « غير مسؤولة » ضمن حدودها (٢٢٩ - ٢٣٢) .

أجانب الثاني : أبرز الأخطاء

تعاني الدراسة ، على الرغم من سعة اطلاع الكاتب ، من التشويش في المعلومات ، ومن أخطاء عديدة تتضمنها صفحات الكتاب . ومن الأمثلة على هذا التشويش وتلك الأخطاء ما ورد في (صفحة ١٧) من أن الملك عبد الله ابن الحسين قد اغتيل في العام ١٩٤٩ مع أن اغتياله كان يوم ٢٠ تموز - يوليو ١٩٥١ ، كذلك قوله بأن حركة فتح تأسست في ألمانيا الغربية معداً أسماء ياسر عرفات وهاني الحسن و خليل الوزير على أنهم كانوا الطلبة الذين أسسوها (٢٦) !! وقداحة الخطأ في المعلومات هنا لا تحتاج إلى أكثر من مجرد الإشارة ، إذ أن منشأ فتح وأسماء مؤسسيها لم يعودوا خافين على ذوي المستوى العادي من الإطلاع . ثم أن « أوبالانس » يخطئ بين « فرقة عبد القادر » وهي إحدى الوحدات التابعة « لجبهة التحرير الفلسطينية » وبين كونها تنظيماً قائماً بحد ذاته (٣٢) .

حملة واسعة للتضاء على « الإرهاب » وذلك مع مطلع العام ١٩٧٠ (١٩٤ - ١٩٥) . وقد تضمنت الحملة الإسرائيلية ترحيل النازحين من مخيماتهم إلى أماكن أخرى لتقليل كثافة السكان وتقليل من إمكانية اختفاء الفدائيين بينهم (١٦٨ - ١٩٩) . ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن العلاقات بين قوات الاحتلال من جهة ورؤساء البلدية العرب من جهة ثانية (١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣) .

ويختار المؤلف للفصل العاشر عنواناً له مفزاه الكبير : « الهجوم يخيب » وكأنه يقول أن العمل الفدائي أصبح يعاني حشرجات الموت ! فالفدائيون طوردوا إلى خارج الأراضي الأردنية ، وقيدوا في سورية ، وهم في طريقهم لأن يحاصروا في لبنان . هذا الوضع الصعب جعلهم يلجأون إلى طرق وأساليب جديدة : مزبد من خطف الطائرات (٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩) مزبد من « قتل الرهائن والاختيال » (٢١٤ ، ٢١٧ ، ٢١٩) ، وبدء لحملة الرسائل الملوغمة المتبادلة (٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥) ، ثم يتحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن الهجوم الإسرائيلي الكبير الذي تعرضت له الأراضي اللبنانية ، طوال أربعة أيام في شباط - فبراير ١٩٧٢ م ذلك الهجوم الذي اختتم بدخول الجيش اللبناني إلى المناطق التي كانت القوات الإسرائيلية قد احتلتها ، والتي كان الفدائيون قد انسحبوا عنها أثناء المعركة (٢٠٦ ، ٢٠٧) .

ويخصص « أوبالانس » الصفحات التالية للحديث عن العلاقات اللبنانية - الفلسطينية ، وعن الالتزام التي مرت بها تلك العلاقات والاتفاق الذي « جمعد » الفدائيون بموجبه نشاطهم عبر الحدود اللبنانية بشكل مؤقت (٢٠٩ - ٢١٢ ، ٢٢١ - ٢٢٢) .

ان أحدهم ينتمى الى فتح في حين ينتمى الآخرون الى « الجبهة الشعبية » . مع العلم ان القياديين المشار اليهم هم صلاح خلف (أبو إياد) وهو أحد زعماء فتح ، وإبراهيم بكر وهو قائد فلسطين مستقل ، وفاروق قدومي وهو قائد في فتح . وفي الصفحة (٢٠٨) يقدم « أوبالانس » أكثر من دليل على نقص معلوماته عن « الجبهة الشعبية » وجدورها . فهو يقول ، مثلاً ، ان الدكتور حبش قد طرد من « حركة القوميين العرب » في العام ١٩٧٠ ، مع ان الحركة كانت قد اضمحلت قبل ذلك ، أم تراه « بقصد حزب العمل العربي الاشتراكي » الذي شكل نوعاً من الامتداد التنظيمي للحركة ؟ كما انه يقول ان الجبهة « تختل » من عمليات خطف الطائرات في العام ١٩٧٠ مع انها « جمدت » تلك العمليات ولم تختل نهائياً عنها . ومن افدح الاخطاء في هذا المجال اعتباره الدكتور وديع حداد « قائداً في قطاع غزة » مع ان عمل الدكتور حداد - كما أثبتت العمليات الارهابية الاسرائيلية التي استهدفت حياته بالصواريخ الموجهة في بيروت منذ العام ١٩٦٦ - لم يكن في غزة فحسب ، بل وليس له أية علاقة نضالية مباشرة بغزة . والشئ ذاته ينطبق على « اتهام » المؤلف للدكتور أئيس صايغ ، وهوشخصية فلسطينية مستقلة ويعمل مديراً لمركز الابحث في بيروت ، بالانتماء الى الجبهة الشعبية . ثم يعود أوبالانس فيقول بان وديع حداد ، الذي سبق وان صفه « كقائد في غزة » (٢٠٨) هو نائب زعيم « الجبهة الشعبية » وأنه التجأ « طلباً للامان » الى أوروبا الشرقية (٢١٣) !!! كما انه في مكان آخر (٢١٨) يقف ، بدون داع ، محتاراً ازاء الجبهة التي قادت الهجوم الانتحاري الياباني على مطار اللد . هذا مع العلم ان « الجبهة

ومن الامثلة الاخرى على الاخطاء المتفشية في الكتاب قول المؤلف في « ص ٥٣ » بان حرب البعث في العراق قد قام باعتقال الدكتور جورج حبش في العام ١٩٦٦ و « معلومات » كهذه لا اساس لها من الصحة ، اذ لم يمتقل الدكتور حبش في العراق لا في العام ١٩٦٦ ولا في اي عام آخر . ولا يضاهي هذا الخطا في المعلومات سوى قول المؤلف بان « الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين » تبنت الدعوة الى اقامة « دولة مزدوجة القومية في فلسطين (٧١) » ، وقوله بان أحمد جبريل الامين العام « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » هو رئيس « جبهة النضال الشعبي الفلسطيني » (٧٢) ثم يقع المؤلف في تناقض فادح عندما يقول ان علاقات « الجبهة الشعبية » كانت علاقات خاصة وجيدة مع الحكومة السورية (٧٦) وأغلب الظن انه يخلط هنا بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » . ولعل اوسع الفجوات في معلومات المؤلف هي تلك التي حملته يقول بان « الجبهة الشعبية » اتصلت بشكل مباشر بالملك فيصل ، عاهل السعودية ، طالبة منه دعمها مالياً (٧٨ ، ٧٩) وغنى عن الذكر ان علاقات « الجبهة » مع المملكة السعودية كانت دوماً علاقات قطعية كاملة . هذا وتكرر الشواهد على تنشوش « أوبالانس » وعدم تمييزه بين « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » التي يتزعمها الدكتور جورج حبش وبين « الجبهة الشعبية - القيادة العامة » التي يرئسها أحمد جبريل في الصفحة (١١٨) .

ولا تتوقف الاخطاء منذ هذا الحد . ففي الصفحة (١٥١) يشير المؤلف الى اعتقال السلطات الاردنية لثلاثة من زعماء الفدائيين اثناء مجازر ايلول - سبتمبر ١٩٧٠ مشيراً الى

الشعبية » والجيش الأحمر الياباني » أعلننا أكثر من مرة مسؤوليتهم المشتركة عن تلك العملية .

الجانب الثالث : أبرز الملاحظات

على الرغم من أن كاتباً عربياً واحداً على الأقل يعتبر « ادجار أوبالانس » من أشهر المؤرخين المعاصرين المعروفين بالدقة والأمانة ورجاحة الرأي العسكري (١) فإننا نبدى تحفظنا الشديد على تقييم كهذا . وقول الأستاذ كيالي في ختام مراجعته للكتاب ، « أن بعض الملاحظات والآراء الشخصية للمؤلف وإن كانت قليلة ، قد تفضل القارئ لاسيما الغربي ، ففيها أحكام جائرة وغير صحيحة » (٢) أن هذا القول في رأينا هو أضعف ما يمكن أن يوصف به تحيز « أوبالانس » ، وليس معنى قولنا هذا ، أن المؤلف قد استخدم ، بالمقارنة مع غيره من الكتاب الغربيين ، أقلع العبارات وأشدّها للهجوم على العرب ، دائماً قصدنا القول بأن كتباً مثل كتاب أوبالانس ، واسلوبها مثل أسلوبه المستخدم في هذه الدراسة يشكل خطراً أكثر من غيره على القضية العربية ، ويمثل بالتالي تحيزاً افدح من زاوية صدرة على الأفراد بوجهة النظر العربية . فالهجوم غير المباشر ، و« تمرير » الملاحظات بشكل هادئ ، والدس من خلال التظاهر بالسداجة أو البرادة ، هذه كلها تساعد على « بيع » أفكار الكاتب « الشخصية » والتي هي أحكام جائرة وغير صحيحة للقارئ لاسيما الغربي - كما ذكر أملاه .

ويبدو أن المثل القائل : « يعرف الكتاب من عنوانه » فيه كل الصحة أحياناً . فإن يحمل المؤلف عنوان كتابه « قوة الفدائيين العرب » مسألة لا يجوز أن تمر ببساطة ويجب أن تفهم ، ضمن سياق الملاحظات التي يمتلي بها الكتاب ، على أنها محاولة لطمس الهوية الفلسطينية في أكثر المواقع حساسية من الزاوية الاعلامية . ثم إن توقف المؤلف في عرضه منذ العام ١٩٧٢ ، وعند هجوم ميونخ على وجه أكثر تحديداً ، أن هذا التوقف عند هذه النقطة الرمزية بالذات كأنما يقصد به أن يترسخ في ذهن القارئ ذلك الحدث الدموي الذي دفع إليه الفدائيون دفعا . وهو في تبريره لتوقفه عند هذا الحدث يقول أنه - أي الحدث - « مثكل - بداية جديدة » في العمل الفدائي . وينسى « أوبالانس » أو يتناسى ، أن يقول لنا كيف تشكل كارثة ميونخ بداية جديدة ، وما هي معالم هذه المرحلة الجديدة التي يشير إليها (١٢) .

ثم إن المؤلف يحرص على أن تكون النتيجة الرئيسية التي يصل إليها واضحة : الحركة الفدائية الفلسطينية « لا استراتيجية لها » و « دفشت كليا » وبمئات مرحلة « اتحدارها » (١٢ ، ٢٢٩) . وهو بهذا يقع في تناقض مع نفسه عندما يذكر في مكان آخر بأن المستقبل وحده هو الذي سيقرر فيما إذا كان العمل الفدائي « ظاهرة مؤقتة » أو « بداية ليقظة عربية » جديدة (١٢ ، ٢٣٣ - ٢٣٤) .

كذلك يقرر « أوبالانس » - ولا ندرى أن كان ذلك ناجماً عن سداجة كلية أو تسادجا

(١) انظر مراجعة الأستاذ ماهر كيالي للكتاب ، شؤون فلسطينية ، عدد ٢٣ ، آذار - مارس ١٩٧٥ ص ١٥٤

(٢) كيالي ، المصدر ذاته ، ص ١٥٩

الحظة في مصداقية البيانات الاسرائيلية (١١٧) ، كذلك تتحول السياسة الاسرائيلية - بقدرة قلم المؤلف - الى سياسة « شجاعة » لانها « تحول اللاجئين الى عمال » (١٩٨) ، (٢٠٣) . اما استشهاد غسان كنفاني فامر يحيط به - وفقا لامانة « المؤلف - غموض كبير لا يعرف معه ان كانت اسرائيل وراة ام « الجبهة الشعبية الثورية لتحرير فلسطين » (٢١٢) واخيرا لا يفوت المؤلف ان « يقرر » بان العربي انسان لا يهيمه الا « حبه الفردى للحياة وتحسين وضعه المالى » وان العرب يشتهرون تقليديا بصفات « البلادة او اللامبالاة » (٢٢٠) .



وبعد ،

ثمة فجوة كبيرة بين ما يتصوره وما يقوله الناشر في معرض وصفه للمسائل الرئيسية التي يعالجها الكتاب ، وبين ما يقوله الكاتب ذاته من طبعة محتويات الكتاب . فالناشر ، في سعيه لتشويق القارئ ، لاسباب معروفة ، لمطالعة الكتاب ، يسارع - وعلى الصفحة الداخلية للغلاف الخارجي للدراسة - الى الادعاء بان المحتويات تجيب على الاسئلة المركزية التالية :

١ - ما الذي جعل الفدائيين يخطئون في تقدير الوضع ؟

٢ - ما هي التقديرات الخاطئة التي ادت الى اصطدامهم الكارثوى مع الجيش الاردني ؟

٣ - كيف تم دفعهم خارج « ارض فتح » في لبنان ؟

متخابثا - ان « الغرور والتقدير السيء » (من جانب الفدائيين) هو الذي ادى الى الحرب الاهلية (في الاردن) والقتال في لبنان (١١) . اى ان المؤلف - هكذا وبكل بساطة - يتجاهل دور اعداء العرب والعرب الاعداء في التحضير لتلك المجزرة وتنفيذها . كذلك فان عدم ذوبان النازحين الفلسطينيين في المجتمع العربي يتحول - في نظر « اوبالانس » الى « اهمال » من العرب للفلسطينيين (١٥) . ايضا قوله ان « نصف لبنان عربي ونصفه مسيحي » كاتما يقصد القول بان العربي هو فقط المسلم من ابناء العرب ، او كاتما المسيحي بالفروقة غير عربي (١٦) . كذلك فان القمع والمخاطبة واضحا في قوله بان الفدائيين لم يكونوا « محبوبين بشكل عام » في لبنان (١١٣) . ثم هو يتحدث عن اطلاق السوريين نيرانهم بشكل مستمر على « العمال الاسرائيليين » من فوق الهضبة السورية قبل ١٩٦٧ ، دونما اية اشارة الى ان احتلال اسرائيل للاراضى المنزوعة السلاح هو الذي ادى الى ذلك الوقف الوطني من جانب سورية . ايضا فان الكاتب جريص على وصف ما تقوم به اسرائيل بكلمة « قتل » في حين ينمت ما يقوم به الفلسطينيون والعرب بكلمات من نوع « اجرام » وعدوانية و « ارهاب » (الصفحات ١٩ ، ٢٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٣١ على سبيل المثال لا الحصر) . ولا يفوت « اوبالانس » اغتنام كل فرصة للتشكيك في موقف الاتحاد السوفياتي من الثورة الفلسطينية بشكل يهين معه القارئ بشحالة التحليل الذي يقدمه المؤلف (٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤) . ثم ان الكلب - حسبما يقول « اوبالانس » - يكاد يكون صفة ثانية للفدائيين عندما يكتبون بياناتهم ، دون ان يسمح لنفسه بالشك ، ولو

٤ - ولماذا كانت الحركات الفدائية غير قادرة على تحقيق وحدة فعالة فيما بينها ؟ .

٥ - وكذلك - والكلام للناشر - يوضح الكاتب « المسائل التي تهز العالم العربي ، يحلل الشخصيات المنغمسة في العمل ، ويستقرئ الماضي ، ويصف الحاضر ، ويعالج المستقبل » .

اي بعبارة موجزة : يعدنا الناشر بدراسة تحليلية .

وعلى صعيد آخر ، يصف المؤلف كتابه - بتواضع يعكس الحقيقة - بأنه « سرد » للوقائع (ص ١٢) وهو فعلا ، سرد ، يتمتع بالإلام بالتفاصيل من جهة ، ويعاني - كما رأينا - من كثير من الأخطاء والمغالطات ، من جهة ثانية .



التنمؤ الإنسانى فى عصر التحضر

للدكتور : ثيرون الكساندر

عرض تحليل : الدكتور محمد يعقوب القطب

الكتاب : يعتبر الكتاب من المؤلفات الحديثة ، اذ صدر عام ١٩٧٣ من قبل دار النشر برنيس هول فى بلدة انجلود كليفس بولاية نيوجيرزى بالولايات المتحدة ، وقد سجل فى مكتبة الكونجرس الأمريكى . ويقع الكتاب فى ٣٢٣ صفحة بما فى ذلك الرسوم والجداول . بلغ مجموع المراجع التى استخدمت فى فصوله الثلاثة عشر ٥٩٧ مرجعاً أى بمعدل ٤٦ مرجعاً للفصل الواحد ، وقد تكررت بعض المراجع بين الفصل والآخر ، وتنوعت ميادينها بحيث اشتملت على مختلف فروع علم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا والتربية .

وقد قسم الكتاب الى خمسة اجزاء ، تضمن كل جزء عدداً من الفصول يتراوح بين فصلين وثلاثة ، يبلغ متوسط عدد صفحات

المؤلف : الدكتور ثيرون الكساندر عضو هيئة تدريس بجامعة تمبول بولاية فلوريدا بالولايات المتحدة الامريكية . وقبل ان يبدأ بتأليف هذا الكتاب فقد قام بمدة نشاطات خاصة فى البحوث والدراسات التى تدور حول مشاكل المعوزين والفقراء من الاطفال والشباب . وقد تأثر فى نظريته الى التطور الانسانى من دراساته فى العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية فى جامعة شيكاغو ، ومن خلال خبراته كعضو هيئة تدريس فى كليات الاداب والطب والتربية فى الولايات المتحدة . وقد استغرق العمل فى اعداد هذا الكتاب مدة اربع سنوات كاملة اقتنع خلالها بضرورة ايجاد منظور آخر لسيكولوجية النمو فى الآونة الحالية . وقد ازداد اهتمام المؤلف فى الجمع بين مبادئ النمو والاضعاج الاجتماعية فى المجتمع المعاصر .

Theron Alexander, Human Development in an Urban Age. Prentice- Hall, inc: N.J 1973.

الفصل الواحد حوالى ٢٥ صفحة بما في ذلك المراجع .

يتناول **الجزء الأول بيئة الإنسان ونمو المدن وقدرته الإنسان على تطوير بيئته** . وفى **الجزء الثانى** يناقش المؤلف أعداد الفرد للحياة في مجتمع المدينة الذى يتميز باختلافات في الثقافة وأنماط الحياة في هذا العصر . ويعالج **الجزء الثالث** النمو الإنسانى في مجالات الذكاء واللغة والإبداع ، ويتطرق الى الميثرات الثقافية والوراثية . ويتناول **الجزء الرابع** النظريات ونتائج البحوث والدراسات في مسائل التعلم والحواجز والإحاسيس عند الإنسان . أما في **الجزء الخامس والأخير** فينصح المؤلف منحنى جديدا في دراسة النمو الإنسانى ، بحيث يناقش موضوعات وقضايا تدور حول ضبط السلوك ، وعدم قناعة الشباب بالمجتمع المعاصر ومشاكل السلطة والحرية اللادائية .

ويختلف الكتاب عن غيره من الكتب التى تناولت مثل هذه القضايا والموضوعات في ثلاثة أشياء : **الأول** ، ينظر المؤلف الى نمو الإنسان من خلال حيز الحياة وكجزء من النظام الإيكولوجى للكرة الأرضية . **والثانى** ، تربط النمو الإنسانى الى أوضاع مجتمع المدينة في الوقت الحاضر وتؤكد على عواقب التغير الاجتماعى . **وثالثا** ، تزود القارئ باتجاه جديد مفاده أن مبادئ النمو يجب أن تفهم من خلال علاقتها المباشرة للأوضاع الاجتماعية المحيطة بها . وبعبارة أخرى فالكتاب يركز على تحقيق الهدف النهائي وهو الخبرات التى يكتسبها الإنسان في النمو والتنشئة الاجتماعية ، وبالتالي يتحدد دوره في المجتمع المعاصر . ويعتبر هذا الكتاب مساهمة علمية جادة في ميدان سيكولوجية النمو ، إذ يعالج مراحل التعلم من حيث

علاقتها بالبيئة ، وتأثير الإنسان بها وتأثيره فيها . أئان المؤلف يحاول التوصل الى قواعد وافتراضات مشتقة من أطر سيكولوجية النمو وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا .

البيئة والإنسان :

إن دراسة النمو الإنسانى لا تقتصر فقط على عملية التعلم وكيف يستجيب أو يتغير خلال سنوات نموه ، بل أيضا على تأثير الميثرات البيئية التى تتم عملية التعلم من خلالها . وهذه الميثرات تشمل الخصائص الكونية والطبيعية ، مثل الأرض والجبال والوديان والأنهار ، وكذلك البيئة الاصطناعية من مدن ومبانيات . هذا بالإضافة الى خصائص التركيب الاجتماعى الذى يسهم في النمو .

وإذا حاولنا تناول الإنسان وبيئته نجد أن لمثل هذه الدراسة عدة مداخل تتخللها عدة وجهات نظر ، والإنسان كأي عضو آخر هو جسم في الفضاء يتفاعل مع الميثرات من حوله ، ويتعلم كيف يستجيب لهذه الميثرات ويتكيف معها ، أى أن البيئة تتكون من الأشياء التى يدركها الفرد . واستجابة الفرد للبيئة تتأثر بالخبرات والجزامات والمكافآت والتعزيزات والتعميمات التى تنجم عن الاستجابة للميثرات المختلفة . وتختلف الآراء في الإطار النظرى للبيئة والإنسان .

يربط كيرت ليفين (Kurt Lewin) علاقة الإنسان بالبيئة في مجال مدى توفر الفرص للإنسان في تلبية احتياجاته الأساسية . أما بياجيه (Piaget) فىرى علاقة الإنسان بالبيئة تفريجية تبدأ بالتعمق مع نمو الطفل وإدراكه لما حوله للوصول الى حالة توازن من خلال عمليتين أساسيتين وهما التكيف والتمثيل . وسيجيموند فرويد (S. Freud)

والحفاظ على هوية المجتمع وبقائه واستمراره. ويشرح مقومات وخصائص النظام والعلاقات الاسرية في المجتمع المعاصر ، وذكر ان المكانة الاجتماعية للأسرة لا تزال مرتبطة الى حد كبير بمهنة الآب . أما بالنسبة الى النظام التربوي الذي اخذ يتصل بالانسان في السنوات المبكرة من حياته والسنوات المتأخرة (التعلم مدى الحياة) ويواجه النظام التربوي العديد من المشاكل المتعلقة بالمنهج والاسلوب والاختيار والتنظيم والادارة وحرية التعليم وغير ذلك من المشاكل . وفيما يتعلق بنظام السلطة الذي يتكون من الجانب التشريعي والجانب التنفيذي فإنه يتميز بالبيروقراطية والمركزية في اتخاذ القرارات على كافة المستويات ، وتزداد مشكلات السلطة تعقيدا مع التقدم والتحضّر . وبالنسبة الى النظام الاقتصادي فإن التغيرات التي طرأت في عمليات الانتاج والتسويق والاستهلاك والاستثمار كان لها آثار نفسية واجتماعية واسعة النطاق . وأما بالنسبة الى النظام الديني فإنه يواجه مراحل تغير الى مواجهة تحديات العصر بالنسبة الى الوظائف الروحية والنفسية والاجتماعية التي تؤديها المؤسسات الدينية .

ثم تطرق المؤلف الى موضوع التنظيم الطبقي والحراك والتغير الاجتماعي ولاحظ أنه طرأ تغييرات جوهرية في العلاقات الاجتماعية وقلت المسافة بين الطبقات بسبب عوامل متعددة منها نفسية واقتصادية ، ذاتية وجماعية . ويميز المؤلف بين التغير الطبقي والتغير الثوري الشامل والسريع ، وخطر من نتائج التغير السريع في تلك العلاقات والبناء والتنظيم الاجتماعي .

ويخلص المؤلف الى أن الأبحاث والتغيرات الاجتماعية هي مسئولة في خبرات التنشئة التي تؤثر في التغير في عملية النمو الانساني .

يرى أن الخبرات السارة في تفاعل الانسان مع البيئة تظهر في الإدراك الواعي ، أما الخبرات غير السارة فتدفن في الشعور إلا ارادى ، وكلاهما يؤثر في تكوين شخصية الانسان . والاتجاه النظري الثالث يتصل بنظرية المثير (Stimulus) والاستجابة (Response) للعالم السلوكي جون واطسون (J. Watson) ، الذي يرى أن البيئة يمكن ان تصقل وتهذب استجابات الانسان ، خاصة عندما يكون الثواب على السلوك متوافرا .

وقد اشار المؤلف الى أساسيات التفاعل مع البيئة ، فأشار الى استخدام الفضاء او رقعة الأرض التي يتواجد عليها كموامل أساسية في التأثير على سلوك الانسان ، مثل المأوى ونوع المسكن وملائمته للتقلبات الجوية من حرارة ورطوبة وانخفاض في درجة الحرارة . أن هناك علاقة بين الخصائص المناخية والوظائف المعنوية والاجتماعية للانسان . وقد قسم المؤلف ، حسب وجهة نظر مخططي المدن ان مساحة المدينة يمكن تقسيمها الى ست تصنيفات منها : (١) قطاع المدينة العام (Urban Public) ، (٢) وقطاع المدينة شبه العام (Semi Public) ، (٣) قطاع الجملة - العام (Group Public) ، (٤) القطاع الجماعي الخاص (Group Private) ، (٥) القطاع العائلي الخاص (Family Private) واخيرا القطاع الفردي الخاص (Individual Private) ، كما يرتبط استخدام مساحات المدن بعدة عوامل اجتماعية مثل الطبقة المتقنة ومفهومها في الاستفادة من المساحة ، ثم طبقة العمال ورجال الصناعة ورجال التجارة ، أي أن لكل جماعة اتجاه في استخدام بيئة المدينة .

ثم يستعرض المؤلف بناء المجتمع ونظمه والعوامل التي تؤثر في ضبط وتوجيه السلوك

التنشئة الاجتماعية

كان ينظر الى التنشئة الاجتماعية من خلال نمو الخصائص الفردية للسلوك الاجتماعي ، ولم يقتصر المؤلف على مناقشته لموضوع التنشئة على المهارات الاجتماعية او على عملية اكتساب السلوك المتعارف عليه ، بل يتطرق الى الحديث عن تأثيرات البيئة التي تشمل الجوانب الطبيعية، النظم الاجتماعية وما تتضمنه القيم والمعطيات الثقافية .

وفي هذا المجال يتعرض المؤلف الى عدد من القضايا ذات الصلة بنظرية النمو والبحوث الخاصة بها وهي: (١) أهمية خبرات الطفولة المبكرة وأنماط الاستجابات في مراحل الطفولة المتأخرة .

(٢) أهمية الدوافع أثناء سنوات النمو المبكرة وفي الادوار السلوكية في مرحلة المراهقة .

(٣) منشأ العقبات التي يواجهها الاطفال أثناء نموهم في الاطر البيئية التي تختلف عن الاطر الطبيعية للثقافة الأمريكية مثل الدين ينشأون في المناطق المتخلفة في المدن (Slums) .

(٤) دور ومكانة وظائف المؤسسات الاجتماعية في تنشئة الاطفال .

(٥) علاقة العمل ووقت الفراغ في المجتمع المعاصر .

ان هذه القضايا تضع الاساس لفهم ضوابط السلوك الاستقلالي الشخصي ، الصراع الاجتماعي والسلطة . ويضيف المؤلف ان الثقافات تتفاوت من بيئة الى اخرى من حيث المضمون وما يتوارثه الاجيال . وأهم الخصائص الثقافية التي تؤثر في السلوك الانساني هي نماذج السلوك المعيار ، حيث ان هذا السلوك متعارف عليه وينقل من جيل الى آخر . اما في حالة المجتمعات المتقدمة المعاصرة فانه يصعب النقل العناصر الثقافية في وحدات

متكاملة بسبب التغيرات الاجتماعية السريعة . وغالبا ما تسبب عملية النقل الثقافي الاحباط ، وهذا بالتالي يؤثر في الحافز الفردي لتطوير نماذج من السلوك المقبول او المعياري . ويفسر المؤلف مثلا ارفض الشباب العديد من اساليب المعيشة التي يسير بموجبها المجتمع ، وبالرغم من ان هذا الرفض يمثل وجود الحاجة الى التغير فان مؤسسات المجتمع لم تبادر باستجابات واقعية لهذه المطالب .

ويتناول المؤلف موضوع التفاوت الثقافي - الاجتماعي في أنماط الاستجابات ويؤكد ان مكان ولادة الفرد ، ومدى مشاركة أسرته في النشاط الاجتماعي ، ومكانة والدته في النظام الطبقي في المجتمع ، ومدى نجاحهم في اكتساب معايير سلوكية يؤثر في مكانته في المجتمع .

الدكاء واللغة والابحار :

يتوقف الرضاء في التفاضل الاجتماعي للفرد والمجتمع على قدرة الفرد للاستجابة بكفاءة وبسلوك خلّاق . وتنمو القدرات بفعل الخصائص البيولوجية والمعلومات وفرص التعلم والخبرات المكتسبة في اطار البيئة . كما يتكون ادراك الفرد بفعل قدرته على الاستيعاب والتذكر وفهم الرموز وتطوير المفاهيم ، الامر الذي ينطبق على خصائص الفرد الذي يتفاعل مع الطبيعة . وتعتبر اللغة عنصرا أساسيا في تيسير التفاعل مع البيئة والنمو الادراكي . والقدرة على استخدام اللغة عن طريق النطق من العناصر الهامة في الدكاء ، الا ان عدم اللياقة في استخدام اللغة هو في حد ذاته سببا ونتيجة للتخلف العقلي . كما هم اللغة اولئك الذين يعنون بالحمران الثقافي للأطفال في المناطق المنحلة من المدن الكبيرة . والأطفال من المناطق المتخلفة هذه عندما يدخلون المدارس بالمستوى المنطقي الضعيف يواجهون الصعوبة الكبيرة في استيعاب المناهج الدراسية ، كما ان اللغة تعتبر أساسية أيضا للأطفال في عملية الحراك الاجتماعي .

العديد من الأحداث تقع عندما يتم ادراك موقف مثير ومعقد مثل حركة الدم وضغطه ، ونبضات القلب ، وتغيرات في النشاط الهرموني ، وهناك التفسير الفرويدي للمواقف وارتباطها بمواقف « الأنا هو » « الأنا » و « الأنا الأعلى » وكذلك النظرية الفيزيولوجية العصبية التي تنص على أن الخبرة العاطفية تحرك وتتقاطع مع الوضع العصبي الطبيعي .

أما بالنسبة إلى الدوافع فإن السبب الذي يعمل الإنسان بعيدة ، متحملاً المشاق والتمني في سبيل الوصول إلى مركز ما لا ينحصر في الخصائص الدالية للإنسان والتنشئة الأسرية فقط بل أيضاً في المجتمع والثقافة والبيئة . وحيث أن طبيعة الإنسان مرتبطة بضوابط البيئة وعناصرها فإن المجتمع السريع التغير يعمل كسبب ونتيجة للتغير في سلوك الأفراد . وعندما يتغير نمط الأفراد وأهدافهم ، فإن هذا التغير يؤثر في المجتمع .

وتقدم المؤلف بعدة افتراضات حول القوى التي تغير الاتجاهات نحو العمل منها :

(١) تشعب الأدوار للوظائف المختلفة .

(٢) الاتجاه الحديث نحو المال والنقد

(٣) التناحي التنظيمية نحو الانجازات

(٤) وجود الإنتاج التجميعي .

(٥) التنظيم الصناعي .

(٦) نمط جديد من التالفة

(٧) تأثير الحكومة المتزايد على مصير

الإنسان .

ويعد تحليل هذه العوامل وعلاقتها بالدوافع يتطرق المؤلف إلى مناقشة التركيب الاجتماعي وعلاقته بالدوافع ، ويذكر بشكل

أن السلوك الإبداعي والخلاق المتمشي مع قدرة عقلية فائقة يعتبر ذات قيمة في التوصل إلى الرضاء في الحياة العصرية . وقد يعتقد البعض أن الإبداع والدكاء هما قدرتان منفصلتان ، غير أنه قد تمت ملاحظة حالات عديدة حيث توجد الإبداع في الأشخاص ذوي الدكاء العالي ، وكذلك حالات عديدة لا تتمتع بدكاء منخفض قلما يمكن تسمية السلوك حننهما « خلاقاً » .

ويضيف المؤلف أن البحث عن « نوع الحياة » هو هدف للعديد من الناس في المجتمع المعاصر ويعتمد على المنهج الابتكاري الذي يمارسه الفرد ، ولتحقيق ذلك لا بد من توفير المجال ، في مراحل النمو المختلفة ، لاكتساب الخبرات والفرصة لاكتشاف البيئة بأقل توجيه من الآخرين . أن الخبرات التي يكتسبها الأطفال في النظام المدرسي المعاصر تفتقد بدرجة كبيرة إلى مثل هذا الانفتاح والتفاهل بين الفرد والبيئة من حوله . ويعتمد نوع « نمط الحياة » الرضي في المجتمع المعاصر بدرجة كبيرة على قدرة الفرد لايجاد حلول للعديد من المشكلات .

المواقف والدوافع والتعلم

إن النظريات ونتائج البحوث المتضاربة تؤكد عدم التوصل إلى تعريف دقيق للمواقف والدوافع بالرغم من التقدم في هذه البحوث ، إلا أن الكثير غير معروف بعد .

وفيما يتعلق بالمواقف فقد تطرق المؤلف إلى بعض النظريات مثل نظرية جيمس لانج James Lang التي تشير إلى أن الماطفة تتبع الحالة العضوية . أما النظرية السلوكية عند جيمس واتسون James Watson فتحدد الماطفة على أساس الامتداد والسرود والألم . وبالنسبة إلى نظرية كانون - بارد Canon - Bard فإنها ترمي مسؤولية المواقف على الجهاز العصبي ، على أساس أن

اكتشاف الحياة وكما ينمو الطفل باحاسيسه
وادراكاته واستجاباته فان البيئة من حوله
تنمو أيضا ، وعلى الوالدين والمسؤولين في
المدرسة مساعدة الطفل في كل مرحلة تغيير في
حياله عند دخوله المدرسة ، عند وصول سن
البلوغ ، وعند وصوله المراحل التي يواجه
فيها حياته .

واذا نظرنا الى بيئة المدينة فنجد ان هناك
العديد من الاوضاع التي تسبب السلوك
الانحرافي والاحباط والمضايقات مما يؤدي أحيانا
الى انزواء الفرد وتقليل اتصاله مع الآخرين
وتجنب الازدحام والاماكن العامة . وعدم
التفاعل الايجابي يؤدي الى عدم الالتزام
بالقواعد الاجتماعية ويطور السلوك الانحرافي
الفردى (الذاتي) الذى يتخذ مظاهر متنوعة .

وللحد من السلوك الانحرافى وتديم التنشئة
السليمة يتطرق المؤلف الى الضبط الداخلى
والخارجي متضمنا العقاب الجسمى والعنوى
بلوجات متفاوتة حسب درجة ونوع المخالفة
ويؤكد أهمية الضبط الذى يستخدم العقاب
المعنوى لآراءه العديدة . أما كيف يمكن للفرد
استيعاب السلوك المعيارى وتطبيقه فانه في
التدريب المبكر وفق قواعد تأخذ بعين الاعتبار
اسس التعلم الحديثة والخصائص البيئية
والثقافية والتغيرات التى تحصل في المجتمع
وادخال التغيرات في أساليب التنشئة حتى
تستجيب للمتغيرات المستجدة في الحياة
الحاضرة .

ويستعرض المؤلف بعض القضايا الاجتماعية
في مجتمع المدينة في أمريكا خاصة في المعارضة
التي يبديها الشباب ترتبط بالتطور التاريخي
لكيان الاجتماعي لمجتمع المدينة . وأهم الأحداث
التي ساهمت في ابراز المعارضة بعد الحرب
العالمية الثانية أولا - مقامه مارتن لوتر كينج
ومطالبته بتطبيق الحقوق المدنية ، ثانيا -
المعارضة الشديدة لحرب فيتنام ، ثالثا -

خاص تأثير الأسرة على التحصيل وتديم
مستوى الطموح عند الفرد ، كما اشار الى
دور المدرسة والمناهج والنشاط المدرسي في
عملية التحصيل ، وكذلك النظام الطبقي في
المجتمع ، والحراك الاجتماعي والاهداف الفردية
في المجتمع الحضري . ويمتاز المجتمع الحضري
الحاضر بالرونة والحرية النسبية ، والاتجاهات
والثقافات المتباينة التي تؤثر في الدوافع ،
وبالتالي في سلوك الانسان .

الفرد والمجتمع - المراهقة ومرحلة الكبر البكرة

ماهي مواطن النجاح والفشل في عملية
التنشئة ؟ وماهي بعض الاوضاع في المجتمع
التي تساعد أو تثبط معير الانسان في المجتمع
الحاضر ؟

هذه هي بعض الاسئلة التي يطرحها
المؤلف في الجزء الاخير من كتابه ، وقد اخذ
بعين الاعتبار عند السرد على هذه التساؤلات
بعض القضايا الاساسية المتضمنة في السلطة ،
الاستقلالية ، القوة والصراع في المرحلة
الحضارية الحاضرة .

بالنسبة الى التنشئة فان السؤال المطروح
هو كيف يمكن للفرد ان يتعلم استيعاب قواعد
المجتمع بحيث يراعى القيم الاجتماعية ويعتق
السلوك الاجتماعي دون ان يكون هذا السلوك
مبنيا على الخوف ؟ وبالتالي كيف يمكن
لعضو ما يستوعبه الفرد ان يتغير تدريجيا
وبصورة منتظمة للوصول الى التغير الاجتماعي
بدون تضحيات من قبل الفرد غير لازمة ، او
تفتيت النظام الاجتماعي .

ويقترح المؤلف ان مبادئ التعلم يمكن
استخدامها في فهم عملية الاستيعاب ، ويحدد
الاولى التي تتم بموجبها العملية . مثلا -
في حالة الطفولة المبكرة حيث تبدأ مرحلة

التي يواجهها الفرد في مجتمع المدينة الصعوبة في تحديد الهدف والمعنى لحياته ، حتى أن البعض يواجه صعوبة في الانتساب إلى الضاحية أو المجتمع السكني الذي يتواجد فيه .

وحتى يتمكن الفرد من تلبية احتياجات الدور المتوقع منه في المجتمع الحضري لا بد أن يتعلم الأشياء التالية خلال سنوات نموه : أن يعمل بجدد ولوقت طويل ، دون توقع مكافأة ، ومواصلة العمل بعد الجهد الضائع ، ضبط الحواس والتشعور حول متطلبات العمل المقدد والطويل ، الاهتمام والتابعة للتعليمات للمواقف السلوكية المعقدة ، استيعاب الحقائق والتأخر والأساليب لتنفيذ العمل ، التفاعل والاتصال مع الآخرين .

ويتناول المؤلف في الفصل الأخير موضوع القوة الاجتماعية والتعلم الاجتماعي في المجتمع الديمقراطي ، وي طرح التساؤلات التالية : هل يحصل الفرد على الرضاء بصورة أوفر في المجتمع الديمقراطي ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما هي الخصائص النظرية والعلمية للديموقراطية ؟ وبالتالي لماذا يبدو أن بعض أفراد المجتمع يحصلون على رضاء أكثر من الآخرين .

بالنسبة للديموقراطية فهناك النظرية الكلاسيكية والحقائق التنظيمية ، وحسب النظرية الكلاسيكية يؤثر الأفراد في السياسات من طريق ممثلين يعكس اتجاهاتهم ورغباتهم . ويعتبر التنافس أساساً للتنظيم ، والقيادة تسعى جادة لمرعاة رأى واتجاه الأقلية .

وتتحدد قدرة الفرد على التفاعل مع القوة والضغط في المجتمع المعاصر بموجب الخبرات التي يكتسبها في مراحل نموه . ويجب أن يكون التعليم من القوة والسلطة والقدرة الذاتية

الانقياد والابتعاد عن المجتمع مثل تعاطي المخدرات وفقدان المعايير السلوكية الجنسية .. الخ .

والراديكالية الجديدة في المجتمع المعاصر لها ، في حد ذاتها ، مقومات شخصية واجتماعية ، ولواجهة هذه الراديكالية منذ الشباب فان على المؤسسات الاجتماعية ، مثل الجامعة ، دوراً كبيراً في تقديم المثل الأعلى لتوجيه السلوك وتعميق الخبرات العلمية والعملية التي تتمشى مع معطيات التفسير الحضري . كما ان على الجمعيات والاندية والمنظمات التي ينتمى إليها الفرد بقصد أصابع الحاجات الاجتماعية والنفسية دوراً هاماً في توفير المناخ الصحي واتاحة الفرصة لبناء علاقات وقيم اجتماعية معاصرة لتساعد الفرد على مسابقة التغير واستيعابه في حياته وبقعه ومبادئه .

وأما فيما يتعلق باستقلالية الفرد في مجتمع المدينة فيقول المؤلف ان ليس هناك ما يسمى باستقلالية كاملة ، والاستقلالية هي شيء محدود ونسبي ومتغير خلال فترة الحياة ، لأنها تتوقف على الأوضاع الاجتماعية من ناحية ، ولأن الفرد لا يستغنى عن اعتماده على الآخرين من ناحية أخرى .

وحيث أن النشاط الاجتماعي والاقتصادي والأسري والسياسي يحتاج إلى الاتجاه التخصصي فان متطلبات التخصص والتدريب والاعداد للدور المحددة يتطلب من الفرد التعرض لمواقف نفسية واجتماعية معقدة وجديدة ، كما ان البيروقراطية في المنظمات والعمل تشكل العلاقات المهنية والاجتماعية الجديدة، كما تعرض الفرد للمواقف والضغط والانفعالات التي يجب ان يتكيف معها ويتأقلم مع البيئة والمعطيات الجديدة . ومن المواقف

الا ان المؤلف في مناقشته للابعاد المشار إليها لم يتوصل في النتيجة الى نظرية أو قاعدة يمكن تجربتها بالبحوث الميدانية ، واكتفى بإبراز مختلف جوانب العلاقة بين الفرد والبيئة، مشيراً الى النظريات القديمة والمتطورة فيما يتعلق بالنمو والتنشئة والذكاء والتعلم .

والعبرة التي يمكن استخلاصها من هذا الكتاب ، ان الفرد في بيئة المدينة في المجتمع الأمريكي المعاصر تتجاذبه عدة اتجاهات متضاربة في التركيب الاجتماعي والسلطة والتنظيمات السياسية والاقتصادية ، وتؤثر عليه وتعمق في سلوكه اتجاهات سلبية مثل ما يحصل حالياً في نوات الشباب والمواقف السلوكية السلبية .

وإذا ما تساءلنا عن مدى الافادة من هذه الدراسات والخبرات التي تعرض لها المؤلف وعرضها بين صفحات هذا الكتاب في واقع مجتمعنا العربي الذي يمر في مرحلة تغيرات سريعة وواسعة ، لها تأثيرات متفاوتة على سلوك الفرد وعملية التنشئة الاجتماعية ، وتقييم الوضع الراهن والسياسات والمفاهيم التي تستخدم في توجيه الاسرى والمنظمات التربوية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ؟ كما ان هناك حاجة ماسة الى اجراء المزيد من الدراسات حول تكيف الفرد مع البيئة في المجتمعات الحضرية الحديثة .

هذا وقد اكتفى المؤلف في عرض المشكلة وتشخيص مثل السلوك الانحرافي والانزواحي، كما انه اكتفى بالتوجيه دور الاسرة والمدرسة في تكوين الاتجاهات لدى الفرد ، ولكن لم يتطرق الكتاب الى اقتراح بعض الحلول والوسائل التي تحقق التوافق والتماثل بين الفرد والنمو الاجتماعي في المجتمعات الحضرية.

للتأثير فيها أو تحقيقها جزءاً من عملية التنشئة . وإذا كان الشباب اليوم يرفضون جميع السلطة والقوة ، فهم بحاجة الى دراية ومعرفة عن النتائج المترتبة على هذا الرفض . ويمكن تحقيق مثل هذا التعلم من خلال المؤسسات الامرية والتربية . ويجب ان نفر بأن الخبرات التي يكتسبها الشباب اليوم لم تساعدهم في مواجهة مشكلة إيجاد المكانة المناسبة لهم في المجتمع . وإذا أردنا مساعدة الشباب في الوصول الى حالة الرضاء عندما يقومون بأدوار الكبار فلا بد من ان نترك مرابا وقيم ونواقص التنظيمات والمنظمات الاجتماعية . وإذا أردنا تحقيق التغير الاجتماعي والمجتمع الافضل فيجب علينا ان نمر الاهتمام الكافي للوسائل والاساليب والطرق المناسبة لتحقيق التغيرات المرغوبة . والخبرات التي يكتسبها الفرد في نموه لا يمكن ان تكون ميداناً للبحث بصورة منفصلة عن المجتمع والثقافة التي تتم من خلالها عملية النمو ذاتها .



يعتبر هذا الكتاب من المؤلفات الحديثة التي تناولت موضوع النمو الانساني في بيئة المدن في المجتمعات المعاصرة ومصر الانسان وعملية التنشئة الاجتماعية والذكاء واللغة والابتكار والمواقف والدوافع والتعلم، وكذلك المؤثرات في مراحل النمو في فترة المراهقة وما بعدها .

وقد تمكن المؤلف من اضافة منهج جديد في دراسة النمو الانساني ، وهي ربط النمو بالبيئة الاجتماعية والطبيعية ، وقدم الدراسات التي تبين مثل هذا الربط ودعا الى المزيد من البحوث في مختلف ميادين النمو النفسي والاجتماعي والبيولوجي .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت إلى إدارة المجلة، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الأعداد القادمة

1. Bottomore, Tom, Marxist Sociology,
Macmillan Press, 1975.
2. Devlin, D. D., Jane Austen and Education,
Macmillan Press, 1975.
3. Hudson, Donald W., Wittgenstein and Religious Belief,
Macmillan Press, 1975.
4. Hudson, Kenneth, A Social History of Museums,
Macmillan Press, 1975.
5. John Lewis, Max Weber and Value-Free Sociology, Lawrence & Wishart, London,
1975.



العدد التالي من المجلة

العدد الأول - المجلد الثامن

ابريل - مايو - يونية - ١٩٧٧

قسم خاص عن

التراث

بالإضافة الى الأبواب الثابتة

الخليج العربي	٥	سوريا	٣	ليرة
البحرين	٥	المتاهرة	٢٥٠	مليون
اليمن الجنوبية	٤٠٠	السودان	٢٥٠	مليون
اليمن الشمالية	٤٠٠	لبنان	٣٥	مليون
العراق	٢٠٠	مهمسة	٤٠٠	مليون
لبنان	٢٠٠	الجزائر	٥	مليون
الأردن	٢٠٠	تونس	٥٠٠	مليون
		المغرب	٥	مليون

الاشتراكات :
للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

